مكتبة نوبل ١٩٠٥

هنريك شنكوفيتش

# كوفاديس

ترجمة: نافع معلا

ثقافات الشعوب وتفاصيل حياتهم لا نجدها إلا في الروايات وشغف المعرفة والاطلاع على التفاصيل الدقيقة لا يشبعه أي فن من فنون الأدب إلا الروايات.

قام بتحويل رواية كوفاديس إلي ايـن إلي رواية نصية كلٌّ من:

**«»سعدي ألياس«»**
**«»أريج محمد«»**
**«»حسن العاملي«»**
**«»هادي إبراهيم«»**
**«»قناة باب الرشد«»**
**«»عبدالله الحبابي«»**
**«»رشيد تاديست«»**
**«»د. طارق التميمي«»**
**«»هشام حسني «»**
**«»زينة«»**
**«»معالي«»**
**«»بندر الحربي«»**
**«»مروة جمال«»**
**«»أيات علي«»**
**«»د. محمد ابو زهرة«»**
**«»سماهر«»**
**«»ماجد حنّا«»**
**«»أ.الوكيل«»**
**«»شمس الحياة«»**
**«»منصور التميمي«»**
**«»كازانوفا أحمد«»**
**«»رنا وليد«»**
**«»ماجدة علي علي«»**
**اذكروهم بدعوة صالحة...**

# هنريك سنكوفيتش

# كوفاديس

# إلى أين

ترجمة: نافع معلا

الاسم الاصلي للكتاب:

# Quo Vadis

**By:**

**Henryk Sienkiewicz**

مكتبة نوبل

## (1)

استيقظ بترونيوس حوالي الظهيرة. وكعادته دائماً، كانَ الآن منهكًا، شديد الإحساس بالوهن. ورغم أن صحته قدْ بدأتْ تتدهور منذ مدة، إلا أنّه أمضي ليلته في مأدبة دعا إليها نيرون دامت حتّى الفجر.
وكان اعترافاً شخصيًا منه حين جاء على لسانه أنّه بات ينهض محطم الجسد، مشتت الذهن كل صباح، ولم يُعد يقوى على لملمة أفكاره. لكنّ الحمام الصباحي، ومن بعده المساجات الناجعة التي يخصه بها الأرقاء بأناملهم الماهرة، قدْ أنعشته تدريجياً، وأعادت اليه نشاطه مبددة الخمول في دورته الدموية، حتّى أنها قدْ صحته، و أرجعته إلى نفسه، وزودته بطاقة أنعشت روحه، فبدا فتيًا مؤتلق العينين، مفعماً بالحياة. وبكامل أناقته، كأنما قدْ بُعث بعثًا جديداً، غادر قاعة الحمام الأخيرة في حالة من التأنق لا يجاريه فيها حتّى أوتو بالذات، فاستحق في الواقع لقب "ملك الذوق"..
لمّ يكن يؤم أي حمام من حمامات المدينة إلا فيما ندر، وفي مناسبات خاصة. منها على سبيل المثال، قدوم خطيب بليغ ذاع صيته في المدينة، أو في عيد الشبيبة لحضور نزالات في المصارعة يتعذّر أن تقام في مناسبات أخرى. وعلى أية حال، كانَ لهُ في منزله الفسيح المنفرد حمام خاص أشرف صديقه الشهير سيلير على توسيعه، وترميمه، وتجهيزه لهُ، فقال عنه نيرون بذات نفسه إنه يضاهي الحمامات القيصرية، وإن كانت حمامات أرحب وأفخم تجهيزًا بما لا يقاس إذن، بعد تلك المادية التي تجادل فيها نيرون، و لوكانوس، وسينيكا حول طرح فاتينوس "هل للمرأة روح" أفاق بترونيوس باكرًا، وأخذ حمامه المعتاد. مدده عبدان ضخمان فوق طاولة من خشب السرو، فرشت بالكتان المصري الأبيض، وعكفا على تمسيد جسده المتناسق بأكفهما المدهونة بالزيت العطري الفواح، فيما راح يتابع مغمض العينين كيف يتسرب دفء الحمام البخاري، ومعه سخونة أكف المدلكين إلى جسده، وينتزعان التعب من داخله.
وسرعان مافتح عينيه، ونطق مستعلمًا عن الطقس، وعما إذا ما كانَ الجواهرجي إدرومينوس قدْ وفي بوعده، وأرسل تلك الجواهر لرؤيتها. فتوصل إلى أن الطقس جميل، وأن رياحًا لطيفة تهب فوق جبال الألب، لكنّ الجواهر لمّ تصل بعد.
وحين أطبق بترونيوس عينيه ثانية، مدّ عبد آخر رأسه من خلّف الستارة ليخبره أن الشاب ماركوس فينيكوس، القادم من آسيا الصغرى، قدْ جاء لزيارته.
قاد بترونيوس ضيفه إلى البركة الفاترة، وألقى بنفسه فيها. فينيكوس هذا هو ابن عمة بترونيوس التي تزوجت قنصلًا في تيبريوس. ولقد شارك تحت قيادة كوربولو في الحرب التي دارت في هذه الاونة ضد البارثوك. وبانقضاء الحرب عاد إلى المدينة. و مار كورس هذا نقطة ضعف بترونيوس، وفتاه المدلل، وقدْ تعلق به لأنه وجد فيه أن تشكيله الجسماني يؤهله لألعاب القوى. كانَ شابًا وسيمًا يحتفظ حتّى في هذه الأزمنة الفاسدة بقدر من الجمال الجسماني يحبذه بترونيوس كثيراً، ويفضله على ما عداه.
- مرحباً يا بترونيوس!
حياه الفتى وهو يتقدم بخطواته المرنة نحو البركة، ثمّ تابع قائلاً:
- الا فلتبارك الالهة عزيمتنا، وبخاصة الالهة اسكولبيوس و سيبروس الأن مباركتهما معاً تحقق لنا الأمان، وتدفع عنا كل مكروه.
فرد بترونيوس فاتحا يديه من تحت دثاره:
أهلاً بك في روما. وأتمنى لك طيب المقام، والراحة بعد الحرب.
ما الأخبار في أرمينيا؟ هل عرجت على بيثينيا في أثناء عبورك آسيا؟
كانَ بترونيوس حاكم بيثينيا ذات يوم. لا بل قدْ وصل به الأمر أبعد من ذلك، فقد اتصف حكمه لها آنذاك بالمرونة، والعدل، فكان أمراً مستغربًا يتناقض مع صيته الذائع بولعه بالنساء، و نشدانه الملذات. لكم أحبّ

استرجاع تلك الأيام الغابرة. وذكرياته هناك إشارة إلى يده الطولى، و إلى ما كانَ بمقدوره أن يفعله لنفسه هناك لو شاء ذلك.
أجاب ماركوس:
ـ وصلت حتّى هيراكلي، حيث أرسلني كوربولو في مهمة للمساندة العسكرية.
ـ آه هيراكلي! عرفت هنالك فتاة كولحوزية لا تضاهيها كل النساء هنا، حتّى بوبا. لكنّ هذا من الماضي. من الافضل ان تحدثني ما أخبار البدرشين؟ لكم صرت أمقت كل ما هو ثولوجيسوس، و تيريداتس، و تغرانيس، وكل ذك العالم البربري الذي كما يعبر الفتى أرولانوس يمشي على أربع، ويتظاهر أمامنا أنّه إنسان. صاروا حديث الناس في روما، ولو بدافع تجنب الأحاديث في أمور أخرى تنطوي على خطورة. هذه الحرب تسير إلى الأسوأ. ولولا كوربولو لا نتهت بنا إلى هزيمة سهلة.
كوربولو! اله الحرب الحقيقي. القائد الحربي العظيم. مثال الصرامة والشرف والحماقة والغضب في الآن ذاته. ويكفي أن يخافه نيرون حتّى أحبه.. ولكن كوربولو ليس أحمقًا.
قدْ تكون محقاً. لكنّ الأمر سيان. الحماقة كما يقول نيرون ليست أسوأ من الحكمة في شيء، ولا فرق بينهما إطلاقاً.
واسترسل ماركوس يتحدث عن الحرب، حتّى لاحظ أن بترونيوس قدْ أغمض عينيه، فغير مادة الحديث، متسائلًا بشيء من الحرص يطمئن عن صحة ابن خاله الاكبر.
صحته!... لا. لمّ يشعر أنّه في صحة جيدة. صحيح أن حالته لمّ تتدهور حالة الفتى سيسينا الذي فقد أحاسيسه، فسألهم حين أقعدوه صباحاً في الحمام: "هل أنا جالس"؟ لكنّ صحته غير جيدة. نصحه فينيكوس بان يلجأ إلى شفاعة اسكولابيوس، و سيبريس، ولكنه لا يؤمن باسكولابيوس، خاصة وان اسكولابيوس هذا لا يعرف ابن من يكون. هل هو إبن ارسينو، أم كورونيس. فإن كانَ غير موثوق الام فيكف سيكون موثوق الاب؟
واسترسل بترونيوس في الضحك وتابع كلامه:
ـ منذ سنتين أرسلت إلى مدينة أبيداوروس حيث مكان العلاج الشهير لأسكولابيوس، ثلاث دزينات من الافاعي الحِسِية، وكوزا من الذهب، أتدري لماذا؟ قلت لنفسي قدْ ينفع، وإن لمّ ينفع فإنه لا يضر. إن كانَ البشر في هذا العالم ما يزالون يضحون للالهة، فأظنهم يعتقدون مثل ما أعتقد. جميعهم، باستثناء سائقي البغال الذين يتجمهرون حول بورتاكابينا بانتظار أن يقدموا خدماتهم للمسافرين. في العام المنصرم حدثت معي حادثة حين عانيت من بثور جلدية. دع اسكولابيوس جانباً، لكنّ أجرى الاسكولابيوسيون طقوس العلاج على أنفسهم بدلاً من إن يجربوها علي. عرفت أنهم مخادعون. لكني قلت لنفسي: وما ضير ذلك علي ما دام العالم يقوم على الخداع. الحياة خائبة، ومثلها الروح. وليس على الانسان الا أن يتمتع بقدر من العقل يمكنه من التفريق بين الخيبات الخبيثة، والخيبات الحميدة، أنا استخدم في حمامي خشب الصنوبر، والسرو، والعنبر للتسخين، لأني أحبّ روائحها الطيبة أكثر من غيرها. لكنّ فيما يخص سيبريس التي نذرت لها لترعاني وتشفع لي، مازلت حتّى الآن أشعر بالام سهامها في رجلي اليمني. لكنّ، وبغض النظر عن ذلك، فهي الهة صالحة. آمل منك عاجلاً ام آجلاً، أن تتوجه بحماماتك البيضاء إلى مذبحها.
فأجاب فينيكوس:
ـ فعلاً، سهام البارثين لمّ تصل، لكنّ سهام آمور تصل حتّى حدود المدينة.
فصرخ بترونيوس:
ياركب الكاريسات البيضاء! ستحدثني عن ذلك في فرصة سانحة أخرى.
وتابع ماركوس فينيكوس:

ما قصدتك الا لالتمس منك النصيحة.
وفي هذه اللحظة إنتقلا إلى الخدم الحلاقين الذين سارعوا إلى العناية بـ بترونيوس.
أمّا فينيكوس وبعدما دعاه بترونيوس إلى الحمام، فقد خلع ردائه، ونزل إلى المياه الساخنة.
علق بترونيوس وهو يرنو إلى جسم الفتى الأشبه بتمثال:
لن أسالك إن كانوا قدْ أعادوا اليك حبيبتك. لو رآك ليسيبوس لكنت الآن تزين مدخل البالا تينوس بدلاً من تمثال هيركوليس.
ندت عن الشاب ابتسامة رضا، ثمّ غطس في الحوض، وراح يعبث بالماء الساخن، فينداح فوق الموزاييك الموشى بصورة هيرا وهي تهدهد زيوس لينام. كانَ بترونيوس خلالها يشاهد ما يفعله الشاب، ويرنو اليه بعين فنية متمحصة.
وحين انتهي، واستسلم توًا لعناية الحلاقين، دخل عليه القارئ يحمّل صندوقًا برونزيًا بداخله لفائف من أوراق البردى.
- هل تريد أن تُسمع؟ سأل بترونيوس
- إن كانت من مؤلفاتك، أجل. وإلا فالأفضل أن نتحدث. الشعراء هذه الأيام يجتذبون الناس عندَ كل منعطف في الشوارع.
حقاً! أنت لا ترتاد مبنى، أو كنيسة، أو حمامًا، أو مكتبة، أو حانوتًا للكتب، الا وتلتقي شاعراً يلوح، ويومئ كالقردة. حين عاد أغريبا إلى وطنه قادمًا من الشرق، ظن هم ممسوسين. إننا نعيش أزمنة كهذه. القيصر يكتب الشعر، فعلى الجميع إذن أن يقلدوه، شرط الا تضاهي أشعارهم شعره. لهذا السبب قلقت على لكانوس... أمّا أنا فأكتب النثر، ولا أقدم ما أكتبه للآخرين، ولا حتّى لنفسي، ولو ترك الأمر للقارئ لقرأ توصيات فابريكوس فينتو المسكين.
ولماذا المسكين؟
لأنه قدْ نفي، ويلعب الان دور أوديسيوس، ولن يتسنى لهُ الرجوع إلى عائلته الا بصدور مراسيم جديدة. إن رحلته الأوديسية ستكون أسهل بكثير من رحلة أوديسيوس القديمة، لأن زوجته ليست بنلوب، وما من داع لأقول أن فعلتهم هذه حماقة كبرى، ولكن لا أحد هنا يُنظَر إلى الأمور بطريقة مختلفة عما يراها أولئك هناك فوق. الكتاب رديء، وممل لدرجة كبيرة، و لمّ يقرأ جيداً " الا عندما أبعد المؤلف إلى منفاه. و الان صار يردد في كل مكان: "سكاندالا، سكاندالا" أمن الجائز أن يكون فينتو نفسه قدْ ابتدع هذه الفكرة أو تلك، لكني أنا الخبير بأسيادنا وسيداتنا أؤكد لك أن ما يحتويه الكتاب أوهى من الحقيقة. بات الجميع الان يبحثون في الكتاب عن أنفسهم ومعارفهم الآخرين، وهم يتزاحمون ويتدافعون بتلهف. ففي مكتبة أفيرنوس يقوم مئة من الناسخين بنسخ الكتاب وراء من يمليه عليهم، والنجاح مضمون.
- الا يأتي فيه ذكر أي من أفكارك السابقة؟
- بلى. لكنّ المؤلف ضيع الفكرة، أو موه عليها، لأني أكثر سوءاً من جهة، و صريحًا ومنبسطًا بالقدر الذي قدمني فيه من جهة أخرى. أترى كم صرنا لا ندرك الفرق بين ما يمتاز بالجدارة، وبين نقيضه. لكنّ أزعم من جهتي أن لا فرق بينهما، وإن كانَ سينيكا، و موسينيوس و ثراسيا يدعون أنهم يرون ذلك الفرق الأمر عندي سيان. أمّا عن هيركوليس فأقول مايجول في ذهني، مع احتفاظي.ميزة أنني أدرك ما القبيح، وما الجميل، الأمر الذي لا يدركه شاعرنا صاحب اللحية الحمراء، وقائد العربة، والمغني، والراقص، والممثل.
أسفي على فابريسيوس. يا لهُ من ساذج.
كانَ هذاما، يعبد التخريب. الجميع شكك به. لكنّ أحداً لمّ يعرف أمراً مؤكداً عنه. وصار شخصاً لا يحتمل،

يصرخ في السر، أينما حل. هل سمعت بسيرة روفينوس؟
لا ـ دعنا إذن نذهب إلى حوض الماء البارد، نبترد قليلاً، وسأرويها لك.
عبرا إلى الحوض البارد. في وسطه نافورة ترش ماء ورديا يفوح بعبير البنفسج. جلسا فيه يبتردان كل إلى جانب جدار موسد بالحرير. صمتا لحظة. كانَ فينيكوس خلالها يتأمل اله الحقول فونت البرونزي الذي يلامس بشفتيه الشبقتين فم حورية الغابات نيمفا المنثنية إلى الوراء على ذراعه. ثمّ قال:
إنه محق. إنها أفضل شيء في الحياة تقريباً! لكنك تحب الحرب كذلك. أمّا أنا فامقتها. على أية حال الأمزجة تختلف من شخص الأخر. صاحب اللحية الحمراء يفضل الغناء، وغناءه الخاص بالمقام الأول. أمّا سكاوروس العجوز فيفضل الفاز الكورنثي الذي ينتصب قرب سريره. فإن انتابه الأرق ليلاً، ولم يستطيع النوم، يأخذ بتقبيله، حتّى باتت حوافه متأكلة تماماً، من كثرة التقبيل. قل لي الم تحاول أن تكتب الشعر؟
ـ لا. لمّ أقدم أبدًا على نظم أي سداسية.
ـ ولا تعزف على العود، ولا تغني؟
ـ لا؟
ولا تقود عربة؟
ـ فيما مضى شاركت في السباقات دون أن أحقق فوزًا. أنا إذن مطمئن عليك. وفي مضمار سباق الخيل، إلى أي حزب تنتمي؟
ـ إلى الخضر
لقد ازداد اطمئناني عليك. خاصة لأنك، وإن كنت تتمتع بشخصية كبيرة، لست بثراء بالاس أو سينيكا، وكما ترى، شيء جيد عندنا هذه الأيام، أن يكون المرء يكتب الشعر، أو يغني بصحبة قيثار، أو يلعب في السيرك. لكنّ من الأفضل، والاقل خطراً، إن كانَ لا يكتب الشعر، ولا يعزف على القيثار، ولا يغني، ولا يلعب في السيرك ولكن أفضل الأمور أن يقتصر المرء على الإعجاب بهذه النشاطات حين يؤديها صاحب اللحية الحمراء. أنت شاب وسيم، وهكذا فإن أقصى ما يهددك من خطورة أن تقع بوبيا في غرامك. لكنّها على قدر أكبر من الخبرة بحيث لا يُمكن أن تفعل ذلك. حسبها في الحب، ما قاسته من زوجيها الأولين، وهي تصبو إلى شيء آخر في زوجها الثالث. أتدري أن الأحمق أوتومتيم بها حتّى اليوم؟ وهو الان يعكف على تسلق الصخور، ويتأوه. ولقد تخلى عن عاداته السابقة، وأهمل نفسه لدرجة أنّه لا يضيع أكثر من ثلاث ساعات في اليوم لتسريح شعره. من كانَ يظن أن مثل ذلك قدْ يحدث مع أوتو خاصة؟
أنا افهمه أجاب فينيكوس لكني لو كنت مكانه، لفعلت أمورًا أخرى.
ـ وما هي؟
ـ كنت أشكل فيالق مخلصة لي. الايبريون جنود مستقيمون.
ـ فينيكوس! فينيكوس! أجرؤ على الزعم أنك لا تستطيع أن تقوم بذلك أتدري ما السبب؟ لأن بوسع المرء أن يفعلها شرط الا يتحدث. عن ذلك، وإن كانَ على سبيل الفرضية. لو كنت مكانه لسخرت من بوبيا، وسخرت من صاحب اللحية الحمراء، ونظمت لنفسي فيالق من النساء، لا من الرجال. وأقصى ما كنت أفكر فيه الكتابات الساخرة، دون أن أقرأها على أحد كما فعل المسكين روفينوس.
قلت إنك ستروي لي قصته.
سأرويها لك بعد قليل في ركن الدهن بالزيت.
لكنّ ما شد انتباه فينيكوس في ركن التعطير بالزيوت شيء آخر. الخادمات الفاتنات في انتظار المستحمين. من بينهن إثنتان مغربيتان أشبه بتمثالين بديعين من خشب الأبنوس. هما من قامتا بدهن جسديهما بالعطور

العربية الفاخرة. وعند العناية بالشعر أمام مرآة فولاذية صقيلة، أشرفت على التسريحة فتاتان فريجي تان إمتازت أيديهما بطراوة ومرونة افعوانية خبيرة. وأما في ركن الملابس، فكانت هنالك فتاتان يونانيتان من جزيرة كوش. الهتان حقيقيتان كانتا تترقبان اللحظة للعناية برداءي سيديهما.
صرخ ماركوس فينيكوس:
ـ يا جوبيتر الراعد! أي اختيار هذا! فأجاب بترونيوس:
ـ أفضل الانتقاء على الكثرة. هنا في روما، لا يزيد مجموع أفراد عائلتي مع خدمهم عن أربعمئة. الأجيال الجديدة منهم تحتاج إلى عدد أكبر لخدمتها الشخصية.
فعلق فينيكوس قائلاً:
ـ ليس لصاحب اللحية الحمراء حتّى الان فتيات أجمل أجسادًا.
فقال بترونيوس متودد:
ـ أنت قريبي. حتّى أنا لست بذلك المتشدد في اختياراتي كما يفعل باوسوس، ولا مدققًا في التفاصيل الصغيرة حتّى درجة الوسواس، كما يفعل أولوش بلاوتيوس.
لكنّ فينيكوس بسماعه الاسم الأخير، تناسى للحظة أمر الفتيات، وتوجه بالسؤال قابضًا على رأسه:
ـ كيف خطر لك اولوش بلاوتيوس؟ أتدري أن يدي قدْ كسرت أمام المدينة، وأمضيت أكثر من عشرة أيام في منزله؟ حين حصلت لي الحادثة، كانَ يعبر للتو بعربته من هناك، ورأي كم أعاني، فأقلني إلى خادمه الطبيب مريون وعالجني، وهذا ما كنت أنوي أن أحدثك عنه.
لماذا؟ لا تقل لي أنك وقعت في حب بومبونيا مصادفة؟ إن كانَ الأمر كذلك فأنا أشفق عليك. لمّ تعد شابًا، ولا فاضلًا على درجة كبيرة. وليس بمقدوري أن أتصور شيئاً أسوأ من هاتين الميزتين.
ليس في حب بومبونيا بتاتاً.. في حب من إذن؟
لو كنت أدري في حب من. لا أدري حتّى الان ما إسمها. ليفيا أم الينا. في البلد يسمونها ليفيا لأنها تنحدر من أصل ليغوي. لكنّ أسمها البربري كالينا. منزل بلاوتيوس منزل غريب، يعجّ بالناس، و بالهدوء الشديد في أرجائه من الداخل، وفي حدائقه. أكثر من عشرة أيام ولم أعلم أن الوهية تقطن هناك، حتّى لمحتها ذات فجر باكر وهي تغتسل قرب نافورة في الحديقة. وأقسم أنني قدْ لمحت هنالك ضبابًا وُلدت منه أفروديت، حتّى أن أشعة شمس الفجر قدْ عبرت جسدها تماماً. ظننت للوهلة الأولى أن الشمس بدأتْ تشرق وتذوب في حمرة الفجر. رأيتها مرتين بعد ذلك. ومن يومها لا أعرف طعم السكينة. لا التمس رغبة، ولا أحفل بكل ما تمنحه لي المدينة، لا النساء، ولا الذهب، ولا النحاس الكورنثي، ولا حتّى اللبلاب والاحجار الكريمة، واللؤلؤ، والنبيذ، والمآدب. ليفيا وحسب. أصدقك القول يا بترونيوس. أنا أتلهف اليها طوال النهار والليل.
ـ إن كانت من العبيد، تزوجها!
ليست من العبيد.
ـ من تكون إذن؟ هل هي معتوقة بلاويوس؟
ـ إن لمّ تكن عبدة في يوم، فكيف تكون معتوقة؟
ـ من هي إذن؟
ـ إن لمّ تكن ملكة، فهي تشبه الملكات.
ـ تجعلني فضوليًا يا فينيكوس
إن أردت أن تسمعني، سأشفي فضولك. القصة ليست طويلة. لعلك تعرف شخصيًا فانيوس ملك سويفوس الذي نفي من وطنه، وأقام طويلاً في روما، وحقق صيتا ذائعا في السباقات. والقيصر دروسوس أعاد لهُ اولوش. كانَ فانيوس شخصاً ماهرًا، وفق في الحُكم منذ البداية وقاد حروبًا ناجحة، حتّى بدأ فيما بعد، يجور

حتّى على أقاربه، وأفراد عائلته. هذا ما جعل فانغيو، و سيدو، وهما ابنا فيبلوس، وملك هرمودوس، يعقدان العزم على خلعه ليعود إلى روما، ويجرب حظه بمغامرة أخرى.. أذكر ذلك. ليس قديمًا في زمن كلاوديوس.
ـ تماماً. اندلعت الحرب، وطُلب فينوس مساعدة اليازيغ، فقام ابن عمه بطلب مساعدة الليغوس، وقدْ لبى الطرفان الدعوة أملاً في الغنائم، فالتحقوا بحشود لا تحصى جعلت القيصر كلاوديوس نفسه خائفًا على حدوده. لمّ يرغب كلاوديوس في خوض معركة البربر، فكتب إلى التيوس هيستر آخر الليغو إلى ضفاف الدانوب، ان يتابع وقائع الحرب ومجرياتها أولاً بأول، ولا يسمح بتأثيرها على أمن بلادنا. فاشترط هيستر على الليغوبيين أن يعدوه بعدم تجاوز حدودنا، ففعلوا أبعد من ذلك، حتّى أنهم قدْ سلموهم ضمانات. وكان من بين أماناتهم زوجة قائدهم، وابنته كذلك. فالبربر كما تعلم، يصطحبون زوجاتهم، وأبناءهم في الحروب... وفتاتي ليفيا هي ابنة ذلك القائد.
كيف عرفت ذلك؟
قالها أولوسى بلاوتينوس نفسه. الليغوس لمّ يتخطوا حدودنا فعلاً. لكنّ البربر كما يجيئون يبتعدون كهبوب العاصفة. كذلك تخلي الليغوس أيضاً عن مواقفهم فمحقوا أتباع فينوس، وسقط ملكهم جريحًا، ورجعوا هم بالغنائم. أمّا الأمانات فبقيت في قبضة هيستر. وبعد مدة ماتت الام، وحار هيستر في أمر الفتاة، فأرسلها إلى بومبونيوس حاكم جرمانيا بأسرها آنذاك. وبعد انتهاء الحرب عاد إلى الوطن. ودخل روما في موكب نصر كما تعلم، بإذن من كلاوديوس جائت الفتاة معه وبما أن الرهينة لا تعتبر من العبيد، لمّ يدر بومبونيوس ماذا يفعل بها، فأعطاها لأخته الصغري غراسينا زوجة بلاونيوس. بلغت سنّ البلوغ في ذلك المنزل، حيث جميع قاطنيه، بدءًا من الملك حتّى الديكة في الخم، فاضلون. لكنّ للأسف، حتّى هي فتاة فاضلة مثل غراسينا ذاتها. ومن العجيب أنّه حتّى بوبيا مقارنة بها، ليست الا مثل شجرة تين خريفية إلى جانب تفاحة من تفاحات الهسبرديات الالهات اللواتي يحرسن شجرة التفاح الذهبية. وأنا أبوح لك ما يعتمل في قلبي من أشواق، لا تنس أن الثوب الأبقع غالباً ما يخفي جروحًا اليمة ولا بد أن أقول لك أيضاً أنني، بعودتي من آسيا، قدْ امضيت ليلة في معبد العراف موبسوس بن أبوللو، عسى أن أرى حلمًا ينبئني بما هو آت فجاءني موبسوس نفسه في المنام ليقول لي بأن حبي سيحدث تغييرًا كبيرًا في حياتي.
سمعته حين قال بلنيوس إنه لا يؤمن بالالهة، لكنّ بالأحلام نعم. قدْ يكون محقاً. أنا أفرح فقط، لكني أحياناً أعتقد أن هنالك الوهة خالدة، مبدعة تسير كل شيء، هي فينوس جنتريكس الهة الحب مبدع كل شيء. هي التي تقبض على الأرواح، والأجساد، والمادة. إيروس انتشل العالم من الهيولى، من العماء، فهل فعل ما فعل على نحو حسن، هذه مسالة أخرى. ولكن ما أن ذلك قدْ حصل، علينا أن نعترف بسلطانه، دون أن نكون ملزمين بتمجيده.
آه يا بترونيوس! أسهل لنا أن نتفلسف، من أن نسدي نصيحة ناجعة.
ـ قل ماذا تريد بالضبط.
ـ ليفيا. أريد لذراعي اللذين يعانقان هواء الخلاء أن يعانقاها، ويضماها إلى صدري. أريد أن استنشق أنفاسها لتصل إلى أعماقي. لو كانت عبدة لأعطيت أولوس لقاءها، مئة فتاة دبقات الأرجل دلالة على أنهن في السوق لأول مرة. أرغب في أن تبقي معي في منزل حتّى يكسوني المشيب كقمة شوراكتا شتّاء.
ليست من العبيد لكنّها في النهاية واحدة من شعب بلاوتيوس.
وبما أنها طفل مشرد، يُمكن اعتبارها لقيطا و بالتالي باستطاعة بلاوتيوس أن يهبك إياها إن شاء ذلك.
يبدو أنك لا تعرف بومبونيا غارسينا أيضاً. كلاهما، على أية حال، متعلق بها، وكأنها ابنته تماماً.
ـ أعرف. بومبونيا شجرة سرو حقيقية. ولو لمّ تكن زوجة أولوس الأمكن اعتبارها ندابة. منذ وفاة جوليا لمّ

تخلع ثوبها الأسود المميز، كأنما خلال حياتها تعبر حقولًا من زنابق بيضاء. وإلى جانب ذلك فهي تلك المرأة من النساء الرومانيات الفاضلات اللواتي لمّ يتزوجن سوى مرة واحدة. إنها عنقاء خرافية بين نسائنا المطلقات للمرة الرابعة أو الخامسة. لكنّ... أسمعت أن طائر عنقاء قدْ ظهر في مصر العليا. وهي واقعة لا تحصل الا مرة واحدة كل خمسمئة عام.

ـ عزيزي بترونيوس دعنا نؤجل حديثنا عن العنقاء إلى وقت آخر.

ولكن ما الذي يسعْني أن أقوله لك يا ماركوس؟ أنا أعرف أولوس بلاوتيوس، وأعلم أنّه، وإن كانَ يستنكر أسلوبي في الحياة، يكن لي شيئاً من الود، بل يكن لي تقديراً أكثر مما للآخرين، وذلك لعلمه أنني لست ثرثارًا كأولئك الغوغائيين من أتباع أفريد متيوس و تيفالنيوس، ومريدي صاحب اللحية الحمراء، ولم أبد ما يدل على أنني رواقي، ومع ذلك فقد وجهت انتقاداتي أربع مرات لبعض تصرفات نيرون التي تجاهلها سينيكا، و بورروس. فإن كنت ترى أن أتوسط لك عندَ أولوس، فأنا على أتم الاستعداد.

أظن أنك تستطيع فعل الكثير. تأثير كبير عليه، فضلاً عن أنك لا تضاهي في إسدائك للنصائح، آمل أن تتمعن في الأمر، وتكلم بلاوتيوس.

ـ إنك تبالغ في تقديرك لتاثيري، وأفكاري. لكنّ إن كانَ هذا هو كل ما علي ان اقوم به، فسوف أكلمه لمجرد انتقالهم إلى المدينة.

ـ لقد انتقلوا منذ يومين.

إذن سنذهب إلى التريسيلينيوم حيث ينتظرنا طعام الإفطار.

تزود بالقوة، ثمّ ننطلق إلى بلاوتيوس.

تنهد فينيكوس قائلاً:

أحببتك دائماً. لكنني الان سوف أنصب تمثالك بين أكاليل الغار، وأقدم لهُ القرابين.

والتفت ناحية مجموعة التماثيل التي تحتل أحد جدران الغرفة العطرة بالكامل، وأشار بإصبعه إلى أحدها الذي يصور بترونيوس في شكل هرمس، وفي يده الصولجان الذهبي، ثمّ استأنف قائلاً:

ـ بالسطوع هليوس الهة الشمس! إن كانَ باريس شبيهًا بك، فلن تدهشني هيلينا.

كانَ صدق فينيكوس ممتزجًا بشيء من المملاة، لان بترونيوس كانَ مسنًا، ولا يتمتع.مثل ذلك الكمال الجسماني، ولو أنّه أكثر وسامة من فينيكوس. لقد نال إعجاب النساء الرومانيات، ليس فقط لروحه الشفافة، وذوقه الرفيع اللذين منحاه لقب ملك الذوق، بل لجسمه أيضاً. بدا هذا الإعجاب واضحاً على وجهي الفتاتين اليونانيتين. يونيكي، التي أغرمت به في سرها، و راحت ترمق عينيه بنظرات متوسلة توحي بافتتانها الشديد به.

لكنه، وكأنما لمّ يلاحظ ذلك، نظر إلى فينيكوس مبتسمًا، واستشهد، على سبيل الرد، بعبارة سينيكا:

ـ قلة حياء... الخ. ثمّ لف كتف ضيفه، وقاده إلى غرفة الطعام.

عكفت الفتيات اليونانيتان، والمغربيتان على تنظيف ركن التزييت. في هذه اللحظة مدّ المستحمان رأسيهما وراء ستارة الحوض البارد وسمع عندها صوت"بست ت" ، جعل إحدى اليونانيتين، مع الاثيوبيتين، يتسللن فجأة إلى هناك، ويختفين وراء الستارة. بدأ في الحمام اللّهو والفسوق، دون أن يُلقي الأمر ممَّانعه من المشرف العام الذي غالباً ما كانَ يشارك في مثل هذه التسليات.

خالج بترونيوس ظن فيما يجري. ولكنه بامتلاكه روحاً متفهمة لا يحبذ التأثيم والقاء الذنوب على الآخرين، فقد تصرفْ كأنما لا يعلم شيئاً.

بقيت يونيكي وحدها في جناح التزييت. أصغت لوهلة إلى القهقهات، ووقع الاقدام المتجهة إلى المطعم، ثمّ رفعت الكرسي المشغولة بالعاج والكهرمان، التي جلس عليها بترونيوس منذ لحظات، ووضعتها أمام

تمثال الرجل بعناية.
كانَ ركن التزييت يشعشع مضاء بأشعة الشمس، وبالالوان القزحية التي تعكسها المحتويات الرخامية.
وقفت يونيكي على الكرسي، وحين صارت على ارتفاع التمثال، مدت ذراعها حول عنقه، ثمّ ردّت شعرها الاشقر إلى الوراء، والتصقت بجسدها الوردي إلى الرخام الأبيض، ثمّ بكل ما امتلكت من عنف ضغطت بفمها على شفتي بترونيوس.

**(2)**

بعد أن طلب طعام الإفطار، الذي جلس اليه الصديقان الحميمان، حين أنهي عامة الناس طعام الظهيرة، اقترح بترونيوس قيلولة قصيرة. كانَ رأيه أن الوقت مازال باكرًا للزيارة. هنالك آخرون يبدأون زيارة معارفهم عندَ شروق الشمس، وهي عادة رومانية قديمةً، لكنه يعتبرها عادة بربرية. ساعات العصر، في رأيه، أفضل أوقات الزيارات، لكنّ قبل أن تميل الشمس ناحية معبد جوبتير، وتنشر خيط أشعتها النحاسية على الفوروم أهم ساحات روما، حيث كانت تجري الحياة السياسية. ما يزال الطقس دافئًا في الخريف، ويفضل الناس أن يلجأوا بعد تناول الطعام إلى النوم على خرير نافورة الماء في الأتريوم أهم أجنحة المنزل الروماني، وأن يأخذوا بعد نزهتهم المحتومة قيلولة تقيهم في أثنائها الستائر الأرجوانية ضوء الشمس المائل إلى الاحمرار.

وافقه فينيكوس، وانطلقا في نزهة تحدثا خلالها عما يدور من أخبارفي البلاتينوس والمدينة، دون أن يخلو حديثهما من شيء من التفلسف في الحياة. بعدما توجه بترونيوس إلى غرفة النوم، وغفا في الحال.

وبعد نصف ساعة خرج. تناول بيده زيت زهر رعي الحمام، شمه، ثمّ دهن يديه و صدغه، وعلق قائلاً

ـ لا تتصور كم هو منعش، ومنشط. أنا الآن جاهز.

كانَ الهودج و حاملوه بالانتظار منذ وقت طويل. جلسا داخله، وانطلقا إلى شارع بترونيوس حيث منزل أولوس.

كانَ يُمكن لطريقهما أن تؤدي إلى الفوروم، ولكن بما أن بترونيوس أراد أن يعرج على الصائغ، فقد تدبر الأمر مع الحمالين، لكي يقلهما عبر الأبولونيس باتجاه شارع سكالاراتوس الذي تكتظ ناصيته بخيام المعابد النقالة.

رفع المغاربة العمالقة الهودج، وانطلقوا يتقدمهم عبيد يشقون لهم الطريق. لزم بترونيوس الصمت لفترة قصيرة، رافعًا يده العطرة إلى أنفه، كما لو كانَ يفكر في أمر ما، ثمّ قال:

يخطر على الان، إن لمّ تكن الهتك من العبيد، بوسعها أن تغادر منزل بلاونيوس، وتجيئك للإقامة عندك، وتغمرها بحبك، وتغدق عليها بالثراء، مثلما فعلت أنا مع معبودتي كريسوسميس التي لبقائها بيننا، قدْ سئمتها بالقدر الذي سئمتني به.

هزّ ماركوس رأسه فسأله بترونيوس:

أليس كذلك؟ في أسوأ الأحوال تصل القضية إلى القيصر، ثمّ تقوم أنت بالاستيضاح عما إذا كانَ صاحب اللحية الحمراء يقف إلى جانبك أنت لا تعرف ليفيا.

ـ إسمح لي إذن أن أسالك: هل تعرفها على نحو آخر، سوى أنك قدْ أبصرتها؟ هل تحدثت اليها؟ هل بحت لها بحبك؟

ـ رأيتها للمرة الأولى قرب نافورة الماء، وبعد ذلك مرتين. لا تنس إنني في أثناء وجودي لدى أولوس، كنت أقيم في فيلًا جانبية للضيوف. وبما أن ذراعي مخلوعة، لمّ أشاطرهم الطعام مطلقاً. أطلّت، والتقيتها عصرًا قبل ليلة رحيلي، ولم أتمكن من النطق أمامها.

كانَ علي أن أصغي إلى أولوس وهو يروي قصص انتصاراته في بريطانيا، وخضوع الممالك الايطالية الصغيرة لهُ، تلك الممالك التي مازال ليسنيوس ستولو يبذل جهدًا كبيرا لصدها. لا أظن أولوس يجيد الحديث عن شيء آخر. ولا يأخذنك الظن أن باستطاعتنا تفادي ذلك حتّى إن كنا نرفض سماع أي شيء عن هشاشة عصرنا. إنهم يربون الطواويس ولا يأكلونها، لأن مبدأهم أن أي طاووس يؤكل يقرب من سقوط روما. ورأيتها للمرة الثانية، بجانب بركة الحديقة، وبيدها عود طري من القصب، وتسقي السوسنات. أنظر إلى ركبتي. أقسم بترس هيركوليس أنهما لمّ ترتجفا حتّى حين هجم علينا البارثيون

كالغمام يسبقهم الصراخ نحو جيوشنا، لكنهما قرب البركة ارتجفتا و كادتا لا تقويان على حملي. إضطربت كطفل روماني مازال يحتفظ بميداليته الذهبية حول عنقه. بقيت طويلاً أعجز من أن تقوى شفتاي على النطق بكلمة واحدة لكنّ عيني كانتا تتوسلان الرحمة والرجاء.

رمقه بترونيوس بنظرة غيور، وقال متنهدًا:

ما أسعدها من مخلوق. حتّى لو انحدر العالم إلى أسوأ حالاته، سيبقى الشباب ساكنًا فيها.

وسأله بعد مدة وجيزة:

- ولم تكلمها أبدًا؟

- بلى تمالكت نفسي، وقلت لها: حين رجعت إلى الوطن قادمًا من آسيا، خلعت يدي أمام المدينة، وعانيت الكثير، لكنني بعد أن صار الزامًا علي مغادرة هذا المنزل المضياف، أرى أن المعاناة والالمّ أثمن هنا من الفرح والسعادة في مكان آخر، وأن المرض هنا أفضل من الصحة.

حين كنت أتكلم، كانت مطرقة في الأرض تصغي إلى ما أقول، ورسمت بعود القصب شيئاً فوق الرمل. ثمّ رفعت عينيها وأطرقت ثانية. ثمّ كأنما أرادت أن تسألني شيئاً، التفتت نحوي.. لكنّها فرت من أمامي بسرعة كعذارى الغابات أمام الهة الحقول الحمقى.

- لا بد أنها تتمتع بعينين جميلتين.

- عينان بحريتان، جعلتاني أغرق في غوريهما كما في بحر. صدقني إذا ما قلت لك أن زرقتهما أعمق من الزرقة الارخبيلية. وبعد قليل هرولت نحو بلاوتيوس الصغير، وسألته شيئاً، لكني لمّ أفهم ماذا أرادت.

- يا أثينا!صرخ بترونيوس أزح عن عيني هذا الطفل المنديل الذي عقده إيبروس، والا سيهشم رأسه على عامود معبد فينوس.

ثمّ التفتت إلى فينيكوس

- أوو. إنك برعم ربيعي فوق شجرة الحياة، والتفتح الأول لحقل الكرمة. على ان الحقك.مدرسة الأطفال الذين لمّ يعلموا شيئاً عن الحياة بعد.

- ماذا تقصد؟

ما الذي رسمته الفتاة فوق الرمل؟ هل خطت إسم آمور؟ هل رسمت قلبا يخترقه سهم؟ أم كانَ شيئاً يُمكن أن يوحي اليك.ما توشوشه الهة الشبق عن أسرار الحياة في آذان عذراوات الأشجار؟

فأجاب فينيكوس:

- قبل أن يأتي أولوس الصغير القيت نظراً على ما رسمته. أعلم أن الفتيات في بلاد اليونان و روما غالباً ما يكتبن فوق الرمال خواطرهن التي لا ترغب شفاههن أن تبوح بها... خمن ماذا رسمت؟

- إن لمّ يكن ما قدْ خطر لي، فلن اعرف.

- سمكة.

- ماذا؟

قلت لك: سمكة. أرادت أن تعبر بها لك عن أن دمًا باردًا مازال حتّى الان يجري في عروقها. لكنك و أنت الذي سميتني البرعم الربيعي على شجرة الحياة، أدرى مني في أمور كهذه.

- يا كاريس! اسال بلينوس عن مثل ذلك. فهو يفهم بالاسماك جيداً. لو كانَ الشيخُ أبيسيوس حياً لما قال شيئاً عن هذا، لأنه خلال حياته قدْ أكل من السمك أكثر مما يسع خليج نابولس.

إنتهت المحادثة هنا بعد أن بلغا شوارع فيها من الازدحام و الضجيج ما يفسد محادثة كهذه.

وبعد أن عبرا شارع أبولونيوس، إنعطفا نحو الفوروم حيث هنالك، في مثل أيام الصحو هذه، يلتقي الأهالي قبل غروب الشمس، ويتمشون بين صفوف العمدان، يتناقلون ما في جعبهم من أخبار خاصة، وغيرها من

الأخبار المستجدة. وحيث يشاهدون هوادج الأشراف، ويتفرجون، أو يعرجون في نهاية مطافهم على كشوك السباكة، والمكتبات، وحوانيت الصرافة، والمتاجر، وورش الأدوات النحاسية، وشتى أنواع المحلات المنتشرة في أبنية الجهة العليا من الفوروم. ينتشر ما يقرب من نصف مساحة الفوروم في كنف الأشجار المحيطة بالقلعة، وتظلله تماماً. على العكس من ذلك، فقد كانت عمدان المعابد في الجهة العليا ترهج بالضوء الذهبي تحت السماء الزرقاء الصافية. وفي العمق كانت صفوف العمدان تمد ظلالها المتطاولة فوق البسط الرخامية، حتّى امتلأ المكان بالظلال المتقاطعة على نحو يجعل البصر يتوه بينها كما في غابة، ويجعل الأبنية و العمدان تبدو مكتظة لا يتسع لها المكان إلى جانب بعضها البعض. تتبرج إحداها شاهقة فوق الأخرى، وتستطيل يمنة ويسرة، وتتعربش على التلال ممتدة حتّى جدار القلعة أحياناً، وملاصقة لبعضها أحياناً أرى، مثل كثير من جذوع الأشجار الصغيرة والكبيرة، الثخينة والرفيعة، الذهبية والبيضاء التي تتفرع هنا تحت قناطر العمدان إلى أكاليل وعرائش من أزهار الأكانثوس. وتنفتل وتتقرن هناك، وتنتهي في أماكن أخرى على شكل مربعات على الطراز الدوري. وفوق هذه الغابة التمعت البروزات المستطيلة الملونة، وتماثيل الآلهة الحجرية، والعربات الذهبية المجنحة على أهبة الطيران في الفضاء الأزرق فوق المدينة المكتظة بالمعابد. إزدحم وسط الفوروم، كما أطرافه، بحشود الزوار، منها من تنزه تحت أقواس كاتدرائية يوليوس قيصر، ومنها من اقتعد مدرجات كاستور و بولوكس، أو تمشى حول كنيسة فيستا، ومثل أولئك من كانَ في الساحة الرخامية الواسعة، كالفراشات والأسماك من كل لوّن. في الأعلى، من فوق معبد جوبتير الجبار الأرحم، تدفقت أمواج جديدة من البشر منحدرة فوق المدارج الضخمة. في القرب من منصة الخطابة طلعت أصوات الخطباء، وباعة الفاكهة والنبيذ، وشراب التين، وسمعت أصوات المشعوذين الذين يروجون لأدويتهم العجائبية، والمنجمين و السحرة الذين يقتفون مكامن الكنوز الخبيئة، ومفسري الأحلام الذين يعرضون علومهم. وصدحت هنا وهناك أنغام السيتروم الموسيقية المصرية، والنايات الإغريقية. وفي أنحاء اخرى كانَ المرضى والمتدينون، وأصحاب النفوس المعذبة يقصدون المعابد بقرابينهم.

وبين كل هذه الحشود المتنوعة من البشر، كانت مجموعات الحمام تبدو فوق الحجارة المرصوفة بقعًا قائمة أو رقطاء متحركة وهي تنقر الحب بنهم، وترفرف خفاقة في الأعالي، ثمّ تغط في أماكن خالية أخرى. وبين الفينة والأخرى كانت حشود تتباعد مفسحة الطريق أمام هودج برز منه وجه سيدة نبيلة جمدت تقاسيمه وجعده أو أبلاه رفاه الحياة الرغيدة، وقدْ يكون وجه سيناتور أو فارس فيتطرق سكان المدينة، بلكنات من مختلف اللغات، إلى ذكر أسمائهم وشهرتهم وما خطر على البال من تعليقات معيبة أو مفاخر. ولا يخلو الأمر، بين حين وآخر، أن يخترق هذه الحشود البشرية العشوائية فصيل من الجند أو خفر الشوارع بخطواته ذات الوقع المنتظم الرتيب. وكانت اللغة اليونانية تتعلى بكثافة لا تقل عن اللغة اللاتينية.

كانَ قدْ مضى زمن طويل، دون ان يؤم فينيكوس المدينة، فراح يراقب بفضول خاص جموع الناس، وهذا المنتدى الروماني فوروم رومانوم، الذي بسط سيطرته على أمواج العالم، لكنّ أمواج العالم، قدْ طغت عليه، وأغرقته في بحرها، لدرجة جعلت بترونيوس،وقدْ اكتشف ما يدور في بال صاحبه، يقول معلقًا: عش الرومان بلا رومان. والحقيقة أن العنصر المحلي مفقود في وسط هذه الجموع المتشعبة المشارب. كانَ هنالك الأثيوبيون، والعمالقة الشقر من أقصى الشمال، والبريطانيون، والغال، والألمان، والصينيون ذوو العيون المائلة، والفراتيون، والهنود، والسوريون ذوو الطلعة الوديعة، وسكان الصحارى العربية الهزيلون حتّى برزت عظامهم، واليهود ذو الصدور المنبعجة، والمصريون ذو الابتسامة الدائمة على وجوههم، الأفارقة، والإغريق الذين بحكمتهم وفنهم، ومعرفتهم، و حيلتهم، يشاطرون الرومان السيطرة

على المدينة.
كانَ هنا إغريق ينحدرون من الجزر، ومن آسيا الصغرى، و إغريق مصريون، وإيطاليون. ولم تخل جموع العبيد ذوي الأدان المثقوبة من الأحرار العاطلين عن العمل الذين وفر لهم القيصر التسلية، ومدهم بالغذاء و اللباس. وكان هنالك أيضاً الوافدون الجدد الأحرار الذين خدعتهم سهولة الحياة و الالهة فورتونا فقصدوا هذه المدينة العملاقة. وكان الباعة، وكهنة يتبعون الاله المصري سيرابيس يحملون سعف النخيل، وكهنة يتبعون إيزيس الذي خص مذبحه بعدد من القرابين يفوق ما خص مذبح جوبيتر، وكهنة سيبل اله آسيا الصغرى، وبأيديهم مناجل الرز المذهبة، و كهنة جوالون لعديد من الآلهة الأخرى، وراقصات شرقيات مبهرجات، وسحرة الأفاعي، والمجوس، وأخيراً كثير من البشر ممن لا يعملون شيئاً، ولكنهم يظهرون هنا كل أسبوع، بينهم من يرتادون مخازن الحبوب على ضفاف التيبر لشراء القمح، وآخرون يتشاجرون قرب ملاعب السيرك من أجل الحصول على بطاقات اليانصيب، ويمضون لياليهم على الضفة الأخرى لنهر التيبر، في العوامات المائية المتمايلة، بينما يقضون نهاراتهم الرتيبة الحارة، في مطاعم الأزقة الرومانية، والحانات القذرة، أو على جسر ميلفيوس أو أمام مآدب الأغنياء الذين يرمونهم بين الحين والأخر، ما تبقى على موائد العبيد من فتات الطعام.
كانَ بتوونيوس ذائع الصيت، ومعروفًا لدى هذه الحشود، فلم تنقطع عبارة"هذا هو"طارقة سمع فينيكوس كانوا يحبونه لكرمه، لكنّ شعبيته قدْ ازدادت منذ أن رفع صوته أمام القيصر مدينًا حكم الإعدام الذي الحق بحق واحد من العبيد. وغالباً ما عبر بترونيوس علناً أن المسالة لا تعنيه، ولا تمسه بضرر، ولكنه كانَ يكلم القيصر كوسيط مستقل، قدْ مس حكم الإعدام مشاعره الأخلاقية، واصفًا إياه بالجريمة البربرية التي قدْ يرتكبها السكيتان، ولكنها لا تليق بالرومان. ومن يومها يحبونه.
غير أنّه لا يكترث لهذا الأمر كثيراً، خاصة وأنه يعلم أن هذا الشعب يحب أيضاً كلاً من بريتانيكوس الذي سمم، و أغريبينا التي أغتيلت، و أكتافيا التي قضي عليها خنقًا في جزيرة بانداتاريا بعد أن أوهنت قواها بالبخار الحار. وكل أولئك على يد القيصر. هذا الشعب يحب أيضاً بلاوتوس المنفي، و تراس الذي كانَ ينتظر حكم الإعدام في أية لحظة. محبة الشعب في نظره فال سيء، إضافة إلى أنّه شعب ينقاد وراء الخرافة. ناهيك عن أنّه يُنظَر إلى العامة من الناس نظراً لا تخلو من ازدراء لسببين اثنين: أولهما، كأرستقراطي، وثانيهما كفنان. ففي نظره إن المرء التي تنبعث منه الرائحة النتنة لما تحويه جيوبه من فاصولياء مطبوخة، وتعر قه نتيجة مكوثة الدائم في نواحي الشوارع، والحدائق، ولعب القمار، هو غير جدير بصفة إنسان.
حتّى أنّه لمّ يَرد على التصفيق، ولا على القبلات التي انهالت عليه من هنا وهناك في الهواء، وكأن شيئاً لمّ يكن، فاستمر بترونيوس في قص حوادثه لماركوس مزدريًا خلال ذلك تقلب هذه الغوغاء من ابناء الشوارع الذين صفقوا في اليوم التالي لنيرون حين ألهب حماستهم في معبد جوبتير.
لكنه أوقف الهودج أمام مكتبة أفيرنوس. خرج منها، وابتاع مخطوطًا مزركشًا، وناوله للشاب قائلاً لهُ:
ـ هذه هدية لك.
شكرا أجابه فينيكوس، ثمّ سال بعد أن القي نظراً على عنوان المخطوط:
ساتيريكون؟ لا بد أنها شيء جديد لكاتبها.
أنا من كتبها. لكني لا أريد أن أخطو على أثار أقدام روفينوس الذي مازلت أدين لك برواية قصته. وهكذا لا أحد يعلم بهذا الأمر، فلا تحدث عنه أحداً.
وعلق فينيكوس وهو يقلب المخطوط: ـ قلت إنك لا تكتب الشعر، لكني أرى أنّه نثر موشى بالأشعار بكثافة.
ـ عندما تقرأه دقق على مأدبة تريمالثيو. أمّا ما يخص الاشعار فأنا أقرفها منذ أن كتب نيرون شعر الحماسة

والبطولات. لو أراد فيتليوس أن يصيبه إسهال في أمعائه فإنه يسعى إلى تناول مسحوق عظم الفيلة. مخلوطًا بالباليسكا. أمّا أنا فأقرأ أشعار نيرون للغرض نفسه. فكان من نتيجة ذلك أن صارت محط تبجيلي الشديد مدفوعاً بنقاوة المعدة، إن لمّ يكن بنقاوة الضمير.

حين أنهى كلامه أوقف الهودج أمام ورشة الصائغ أدومينيوس. وبعد أن تدبر أمر الجواهر، انطلق إلى منزل أولوس مباشرة.

- سأروي لك في الطريق قصة روفينيوس، كدليل على معنى عبادة المبدع.

ولكن قبل أن يبدأ القصة، كانا قدْ أنعطفا عبر فيكوس بتريركوس وسرعان ما كانا أمام منزل أولوس. قام أحد الفتيان بفتح الباب المؤدي إلى الصالون حيث حياهما ببغاء قائلاً بصوت مرتفع سالفي. حين عبرا الصالون الثاني إلى الأتريوم، قال فينيكوس:

ألم تلتفت إلى أن الواقف عندَ الباب غير مقيد بالسلاسل.

فأجاب بترونيوس هامسًا: منزل غريب هذا. لا بد أنك تعلم أنهم قدْ اتهموا بومبونيا بأنها من أنصار ذلك المعتقد الشرقي الذي يقوم على تقديس كريستوس أمّا التي وشت بها فهي كريستينيلا التي لا تطيق أن تمرر لبومبونيا فكرتها القائلة بأن زوجا واحداً يكفي مدى الحياة...

أنت محق. إنه منزل غريب. سأروي لك فيما بعد ما رأيته وما سمعته هنا.

في أثناء الحديث كانا قدْ بلغا الأتريوم الصالة المركزية، حيث قام العبد مشرف الصالة بإرسال معلن الأسماء للإعلام بقدوم الضيفين، في حين هرع مجموعة من الأرقاء لتقديم كراسي الجلوس. كانَ في تصوّر بترونيوس أن حزنًا دائماً يقيم في هذا المنزل، فامتنع عن القدوم اليه، و لمّ تطأه قدماه أبدًا. والان راح يُنظَر حوله بشيء من الاندهاش مشوب بشيء من الخيبة، فقد كانَ جو الأتريوم أميل إلى البشاشة والاشراق منه إلى القتامة والحزن. عبرت أشعة الضوء خلل فتحة واسعة في الأعلى، فتناثرت الافا مؤلفة من الشرارات الضوئية عكستها مياه النافورة. توسطت النافورة بركة مربعة المُشْكل أحاطت بها الزنابق، ونبات الساتيلا، كانت وظيفتها في الأجواء الماطرة تجميع مياه المطر الهاطل عبر الفتحة العلوية. لا بد أنهم قدْ أحبو الزنابق والالوان في هذا المنزل. فهنالك الزنابق البيضاء، والحمراء، إضافة إلى السوسن. الأزرق، وما أضفت قطرات الماء من لوّن فضي على بتلاته الناعمة، وما غطت الفطريات المتعريشة الرطبة، والأوراق الكثيفة من تماثيل ملائكة صغار، وعصافير نحاسية، وذلك الأيل البرونزي في أحد الأركان مادا رأسه الموشى بصدا مخضر نتيجة الرطوبة، كأنما يريد أن ينهل الماء. كانَ للأتريوم أرضية من الموزاييك، وأجزاء من جدرانه ملبسة بصفائح الرخام الأحمر، وباقي الأجزاء برسوم الأشجار، والأسماك، والعصافير، وطائر الغرفين. كثافة من الاف الألوان تزحلق الابصار. الأبواب المفضية إلى الغرف الجانبية مزخرفة بالصدف والعاج وعلى طول الجدران ما بين الأبواب توضعت تماثيل أولوس. الرخاء والاستقرار باديان في المكان الأكثر نبلا وثقة، والابعد عن التبذير والترف المجاني.

كانَ بيت بترونيوس أكثر أرستقراطية واعتبارًا، لذا لمّ يجد هنا ما يخدش ذائقته. ولقد رغب لتوه أن يعبر عن ذلك لفينيكوس، لولا أن أزاح العبد الستارة الفاصلة بين الصالون وغرفة العمل ( التابلينوم )، فلمّا أولوس بلاوتيوس يقبل مسرعًا نحوها.

كانَ قدْ صار في طور من العمر ينحدر نحو المغيب. أشيب لكنه مليء بعنفوان الشباب. حيوي الوجه، صغير الرأس، لكنه أشبه برأس نسر، الا أنّه في الوقت نفسه قدْ عكس قليلاً من الدهشة والقلق بسبب هذه الزيارة المفاجئة لصديقه نيرون وصاحبه، و واحد من ثقته.

لكنّ بترونيوس كانَ رجلاً حاد الذكاء، ذائع الصيت، لا يعير اكتراثًا لمثل ذلك. فما أن أنهى التحيات الأولية المألوفة، حتّى تخلى عن حالة التوتر المحتملة، وبادر إلى القول بأنه جاء كي يعبر عن امتنانه على ما لاقاه

ابن عمته من عناية علاجية كريمة في هذا المنزل، وأن الامتنان ولا شيء غير الامتنان، هو دافعه الأوحد لهذه الزيارة المستحقة التي تعرضها المعرفة القديمة بأولوس.
ولقد أكد أولوس من جهته أنّه زائر عزيز و مرحب به في منزله، وأما ما يخص الامتنان، فالأجدر أن أولوس نفسه يدين بذلك لبترنيوس، رغم إن بترونيوس لمّ يخمن ما يدعو أولوس لهذا الامتنان.
وواقع الحال أن بترونيوس لمّ يخمن شيئاً و لمّ يجده نفعاً أنّه شخص، وأدار حدقتيه البنيتين وركز تفكيره ليتذكر أبسط الخدمات التي خص بها أولوس أو حتّى أي أحد غيره، فلم يخطر لهُ شيء.
أجاب أولوس:
كم أحبّ وأقدر فيسباسيانوس الذي أنقذت حياته. عندما ساء خطه ذات مرة، وألمت به نوبة نعاس جعلته يكبو في أثناء إنصاته لأشعار القيصر.
فقال بترونيوس:
ـ بل من حسن حظه أنّه لمّ يستمع إلى تلك لأشعار. لكني لا أنكر أنها كبوة تفتح الباب مشرعًا لدخول الحظ السيء. لقد أصرّ صاحب اللحية الحمراء أن يرسل اليه كتيبة من مئة مقاتل لذبحه.
ـ ولكنك يا بترونيوس قدْ سخرت منه.
تماماً لا بل على العكس من ذلك، فقد قلت لهُ: إن كانَ أورفيوس قدْ استطاع بالحانة أن ينوم الحيوانات الضارية، يكفيكم فخرًا أنكم قدْ نجحتم في تنويم فيسباسيانوس. من السهل توبيخ صاحب اللحية الحمراء شرط أن تمزج التوبيخ بكمية كافية من التملق والمداهنة. بوبيا. التي تعشق أوغست الذي يخصنا نحن، تدرك ذلك جيداً.
أجاب أولوس:
ـ يؤسفني أننا نعيش أزمنة كهذه. لقد فقدت سنين من أسناني الأمامية. لهذا السبب أتحدث بشيء من الصفير. أحدهم في بريطانيا كسرها بحجر. ورغم ذلك فقد أمضيت أفضل أيام حياتي هناك.
فقاطعه فينيكوس قائلاً:
ـ لأنها كانت فترة الانتصارات.
لكنّ بترونيوس، متفاديًا أن يخوض القائد الحربي العجوز حديثاً عن حروبه الغابرة، عمد إلى تغيير الموضوع، فقال:
في القرب من برنست عثر الفلاحون على جرو ثعلب ميت برأسين، وحين هبت العاصفة الأخيرة، دمرت أحد أركان معبد لونا الهة القمر. وهذا يعتبر ظاهرة استثنائية، بالنظر إلى فترة أواخر الخريف. أحد العرافين أخبره بذلك، وأضاف إن كهنة المعبد، قدْ نجموا، تبعاً لذلك أن المدينة، أو بناء ضخم على الأقل سوف يُلحق به الدمار ولا يُمكن تجنب الكارثة الا بكثير من القرابين والأضاحي.
وشدد أولوس وهو يسمع الحكاية، أنّه لا يجوز التقليل من أهمية مثل هذه الظواهر، فالالهة قدْ تغضب لما هنالك من شرور هائلة، وتقوم بصب جام عصبيتها في كل مكان. وفي مثل هذه الظروف تكون القرابين هي الوسيلة المناسبة للتوسل اليها.
فأجاب بترونيوس:
ـ منزلك ليس كبيرًا رغم أن إنساناً رفيع المكانة يقيم فيه. في حين أن منزلي ضخم جداً بالنظر إلى منزلة قاطنه، وإن كانَ صغيراً في واقع الحال. إن كانَ الأمر يعود إلى دمار مبنى يتميز بالضخامة، فهنالك مثلاً دوموس ترانسيتوريا منزل نيرون أتراه يستحق أن نقدم القرابين لتفادي دماره.
لمّ يجب أولوس ولقد أزعج تحفظه هذا بترونيوس، فاضطر لتغيير الموضوع محددة، فأخذ يفخم في منزل أولوس ممتدحًا الذائقة الجمالية الغالبة عليه.

فقال أولوس مفسرًا الأمر:
منزل قديم لمّ أسع منذ أن ورثته إلى أي تغيير عليه.
كانَ منزلًا مفتوحاً على طوله منذ أن فُتحت الستارة الفاصلة بين الأتريوم و التابلينوم، فأمكن الاطلالة على الحديقة التي بدت لوحة فاتحة ذات إطار قاتم. سمعت ضحكات أطفال قادمة من هناك.
قال بترونيوس:
عفواً أيها القائد! دعنا نسمع عن كثب هذه الضحكات الصادقة
النادرة هذه الأيام.
وافقه بلاوتيوس، ونهض واقفاً:
ـ قلبي.. صغيري أولوس يلعب الكرة مع ليفيا. أمّا ما يخص الضحك،
يا بترونيوس، فأزعم أن حياتك كلها ضحك.
فرد بترونيوس:
ـ الحياة مضحكة. فأنا إذن أضحك، لكنّ هذه الضحكات شيء
مختلف كليًّا.
وأضاف فينيكوس: ـ على أية حال، بترونيوس لا يضحك خلال النهار، بل الليل بطوله.
وساروا يتحدثون، حتّى بلغوا الحديقة حيث تلعب ليفيا والصغير أولوسر الكرة. كانَ هنالك مجموعة من العبيد توزعت لالتقاط الكرة وإعادتها مجدداً اليهما. اختلس بترونيوس نظراً سريعًا إلى ليفيا. وفيما راح أولوسي الصغير لمجرد رؤيته فينيكوس، يجري نحوه كي يحييه، أحنى الأخر رأسه للفتاة الفاتنة التي وقفت والكرة بيدها، لاهثة محمرة خجلاً أمامه.
لكنّ بومبونيا غراسينا كانت في الحديقة جالسة في ركنها المغطى باللبلاب، والعريش البري، وشجيرات العسل ذات الأزهار المكتظة بالرحيق، فانعطفوا عليها يحيونها. لمّ يكن بترونيوس يؤم هذا المنزل، لكنه كانَ يعرف بومبونيا، فقد كانَ يلتقيها عندَ أنتيستتال بنتروبلوس بلاوتوس، ثمّ عندَ عائلة سينيكا، وعند بوليو كذلك. لمّ يتمكن من كتم اندهاشه النوعي الذي أثاره وجه المرأة البهيج الحزين، وما يتبدى في هيئتها، وحركاتها، وكلماتها من نبل. لقد سبق و شوشت هذه المرأة رأيه في النساء، وأثبتت لهُ خطأه في التعميم.
والان حين عبر عن امتنانه بخصوص علاج فينيكوس صدرت منه بعض الكلمات الأسرة التي لا تخطر لهُ مثلاً حين يتحدث إلى كالفيا، أو سكريبونيا، أو سولينا، أو إلى كبريات سيدات العالم الأخريات. بعد
التحية راح يفصح عن شكواه من ندرة لقائه بومبونيا، سواء في السيرك أو الامغيتريوم، فيما كانَ ردّ المرأة وقدْ أراحت يدها فوق يد زوجها: ـ لقد هزمنا، وصار كل منا يفضل الركون إلى الهدوء في المنزل.
كانَ بترونيوس راغبًا في الرد، لولا أن استبقه أولوس مضيفا بصفير في صوته:
صرنا نجد أنفسنا غريبين بين أولئك الناس الذي يخصون الهتهم الرومانية بأسماء إغريقية.
فعلق بترونيوس قائلاً:
ـ باتت الالهة، منذ فترة، الهة طنانة لا تملك الا إسمها. ومع أننا قدْ تعلّمنا فن الخطابة، والبلاغة من الإغريق، فالاسهل حتّى بالنسبة لي، أن أقول هيرا وليس يونو.
والتفت نحو بومبونيا، في إشارة منه إلى أنّه يتعذّر عليه ذكر الهة أخرى. ثمّ حاول أن يدحض ما قالته المرأة عن الشيخوخة والهرم:
صحيح أن البشر سرعان ما يشيخون، لكنّ ذلك ينطبق على أولئك الذين يعيشون حياة مختلفة تماماً ولكن بغض النظر عن ذلك، هنالك وجوه يبدو أن ساتورنوس قدْ تناساها.
كانَ ما قاله بترونيوس ينطوي على قدر كبير من الصدق، لأن بومبونيا التي قررت العزوف إلى حياة

الراحة، قدْ حافظت على صحة بشرتها. ونظراً لضألة حجم وجهها ورأسها فقد بدت إمرأة في عز شبابها على الرغم من لباسها القاتم، و رصانتها، وما يكتنفها من حزن.
كانَ أولوس الصغير قدْ وطد صداقته بفينيكوس خلال إقامته هنا. تقدم منه الان، وألح عليه للعب معه. تبعته ليفيا، وتوقفت تحت. عريشة اللبلاب. ورهجت بقع ضوئية فوق وجهها، فبدت أكثر حسناً مما رآها في المرة الاولى حورية من حوريات الغابات حقاً. وبما أنّه لمّ بكلمها حتّى هذه اللحظة، فقد نهض من مكانه، وأحني رأسه أمام الفتاة. وبدلاً من عبارات السلام المعتادة ردّد كلمات أوديسيوس في تحية ناوسيكا:
أتساءل يا سيدتي من تكونين؟ الهة؟ أم كائن أرضي فان؟ إن كنت الهة من سكان السماء الواسعة فأنت ابنة الاله زيوس وأنا أشبهك ب أراميس إبداعًا وهيئة. وإن كنت كائناً فانيًا يقطن الأرض فأبوك سعيد أضعافًا ثلاثة. والسيدة أمك سعيدة وإخوتك أيضاً أضعافًا ثلاثة...
حتّى أن غزل الشاب الراقي قدْ لاقى استحسانًا من قبل بومبونيا، لكنه كانَ سبباً في توهج وجه ليفيا بالإحمرار، وهي تصغي مرتبكةً إلى ما يقول، دون أن تجرؤ على النظر في وجهه. ولكن ابتسامة ناعمة بدأتْ ترسم شيئاً فشيئاً على زاويتي فمها، وبدا على وجهها حياء أنثوي مشوب برغبة منها في الرد وكان للأخيرة الغلبة. التقطت أنفاسها، وأجابت على لسان ناوسيكا كما لو تستظهر درسا:
أيها الغريب الطيب الست زائفًا خسيسًا ولا فاقد العقل أحمق ثمّ انتحت جانباً وجرت كطائر جافل.
حان الان دور اندهال بترونيوس. لمّ يساوره ظن بأنه سوف يسمع أشعارًا لهرميروس من فم فتاة صغيرة. أخبره فينيكوس أنها من أصل بربري. التفت إلى بومبونيا بنظرة متسائلة. لكنّ المرأة لمّ يكن بوسعها أن تجيب، لأنها في هذه اللحظة، كانت تلتفت والبسمة على شفتيها لترى أي فخار ينعكس على وجه أولوس العجوز.
لكنّ أولوس لمّ يكن يحتمل أن يكتم سعادته. كانَ واضحاً للجميع أنّه يحب ليفيا وكأنها من صلبه، ويعتبرها قمة في التهذيب، بالرغم من النزعة الرومانية القديمة التي تدعو إلى محاربة اللغة الإغريقية، ومنع انتشارها. وقال ملتفتًا نحو بترونيوس:
في المنزل مرب إغريقي يقوم بتعليم ولدنا بحضور الفتاة التي تستمع إلى الدروس كافة. لقد أحببناهما كثيراً.
القى بترونيوس نظراً نحو الحديقة عبر فروع العريش، فلمح اللاعبين الثلاثة. كانَ فينيكوس قدْ خلع ثوبه الروماني الخارجي مبقيًا على سترته القصيرة، وراح يرمي بالكرة التي حاولت ليفيا المواجهة لهُ أن تلتقطها بيديها. في بادئ الأمر، لمّ توقّع الفتاة تأثيرًا ملموسًا في نفس بترونيوس، لانه رآها شديدة النحول. ولكنه حين أمعن النظر فيها عن كثب، تخيل كيف يبدو أن تكون عندَ انبلاج الفجر، وأدرك، كفنان، أنّه ثمة شيئاً استثنائيًا يكمن في قدها، وروحها. كل ما فيها قدْ. أثار انتباهه، وثمنه عاليًا: وجهها الوردي الشفاف. شفتاها النضيرتان كأنما تنطبقان على قبلة. عيناها الزرقاوان كالبحر. جبينها المرمري. ضفائرها الداكنة الكثيفة. حيدها الناعم. كتفاها الربّانيان. قامتها الممشوقة المتثنية. صباها النضير نضارة الأزاهير المتبرعمة في شهر أيار. إستيقظ فيه الفنان، وعابد الجمال، وسرعان ما أوحى اليه بأنه يُمكن كتابة الربيع أسفل تمثال هذه الفتاة. وخطرت لهُ فجأة كريسوتميس فأطلق ضحكة موحشة، لأن حبيبته، بالرغم من النار الذهبي فوق شعرها، وبالرغم من كحل رموشها الفاحم، صارت تبدو مثل زهرة ذابلة فقدت عبيرها، بعد أن كانَ محط حسد روما بأسرها على الحبيبة كريسونميس هذه. وتذكر بوبيا أيضاً، فلم يجد هذه المرأة الشهيرة الذائعة الصيت، الا تمثالاً شمعيًا لا روح فيه أمّا هذه الفتاة فمخلوق يفوح بالربيع، وتقيم فيها أيضاً بسيشة المشعة، فيشع جسدها الوردي نورًا كنور المصابيح.

فكر في نفسه: ـ فينيكوس محق. و كريسونميس عجوز... عجوز... مثل ترويا. ثمّ التفت إلى بومبونيا، وقال مشيراً ناحية الحديقة.
ـ أدركت الآن أن منزلكما بوجود هذين الطفلين، أحبّ اليكما من مآدب البلاتينوس، والسيرك
فأجابت المرأة وقدْ أدارت وجهها نحو أولوس الصغير، و ليفيا:
ـ تماماً.
أمّا القائد العجوز فقد روى قصة ليفيا، وقصة الليغوس الشماليين، كما سمعها منذ سنوات على لسان أتليوهيستر.
وحين أنهى أولئك اللعب، قاموا بنزهة على الدروب الرملية للحديقة، فبدوا أشبه بثلاثة تماثيل بيضاء تنفصل عن الخلفية القائمة الأشجار السرو، والاس. كانت ليفيا تمسك بأولوس الصغير، وتقوده.
بعد النزهة النوعية جلسوا في وسط الحديقة على مقعد قرب حديقة الاسماك. وبعد لحظات قفز أولوس يعبث مع الأسماك في الماء الشفاف فيما استأنف فينيكوس محادثته التي بدأها خلال النزهة. قال بصوت مرتعش عميق:
هذا ما حصل. ما إن خلعت ثياب الطفولة حتّى التحقت بالفيلق الأسيوي. لمّ يتسن لي أن أتعرف على المدينة، والحياة، والحب. تعلّمت بعض الاشعار الاناكرينية، وشيئاً من الشعر الهوارسي، لكني لا أجيد القاء الشعر مثل بترونيوس، خاصة إذا ما أوقعني الذهول في ارتباك يمنعني من العثور على الكلمات.
التحقت بمدرسة موسونيوس الذي عل مني أن أساس السعادة أن يريد الانسان ما تريده الالهة: أي أن السعادة مرتبطة بإرادتنا. ولكنني أعتقد أن هنالك سعادة أعظم وأثمن، سعادة أخرى غير مرتبطة بإرادتنا، لا يمنحها سوى الحب.. وهي التي ينشدها الالهة أنفسهم. إذن يا ليفيا أنا أيضاً لمّ أذق طعم الحب إلى الان، وأنا كما الالهة أبحث عمن يمنحني هذه السعادة.
سكت. ولفترة لمّ تُسمع الا رقرقة الماء.ما يلقيه أولوس الصغير من حجارة في البركة ليجفل الأسماك. وبعد قليل تكلّم فينيكوس ثانية بصوت أكثر هدوءًا وطراوة:
ـ هل تعرفين تيتوس بن فيسباسيانوس؟ يُقال إنه ما إن بدأ سنّ البلوغ حتّى وقع في حب بير نيس، وتيم فيها. وأنا كذلك، يا ليفيا أستطيع أن أحبّ إلى درجة الهيام... الثراء، والشهرة، والنفوذ، كل ذلك دخان لا قيمة لهُ. الثري يجد من هو أكثر ثراء منه، والشهرة تطغى عليها شهرة الاخرين وتطفئ لمعانها. والسطوة والنفوذ يقهرهما سلطان أشد منهما. لكنّ هل بوسع القيصر، أو حتّى أي الهكانَ، أن يكون أكثر سعادة، أو أن يشعر بمتعة تفوق متعته حين يقبل فم حبيبته؟ الحب إذن يجعلنا في مصاف الالهة.
آه يا ليفيا!
كانت الفتاة تصغي اليه بقلق مشوب بالدهشة، كأنما تصغي إلى ناي أو فيشار إغريقي. شعرت ان فينيكوس يردد لحنا غريباً يخترق سمعها، وأن دوارا يسرع نبضات قلبها، وشيئاً من الخوف، وسعادة غامضة تساورها رغم ذلك. وأحست أيضاً أن الشاب يتكلم بأمور كامنة فيها منذ مدة، لكنّها لمّ تكتشفها أو تفصح عنها، و شعرت أن فينيكوس قدْ أيقظ فيها ما كانَ نائما لديها، حتّى جاءت اللحظة، وانكشف الحلم الضبابي عن صورة أكثر وضوحاً، وروعة، ولطافة.
في أثناء ذلك، كانت الشمس قدْ انزاحت من فوق التيبرس، فملأت أشعتها الحمراء الجو كلّه، وتوارت فوق غابة الصنوبر. وقدْ أفاقت من الحلم، رفعت ليفيا عينيها الزرقاوين نحو فينيكوس، فمال الشاب اليها بكل ما يرتعش في عينيه من ضراعة، ليراها في ضوء الغروب أجمل من البشر، ومن الهة الإغريق والرومان التي تزين تماثيلها واجهات المعابد.
أمسك فينيكوس بأصابعه ساعد الفتاة برفق، وسألها:

الم تكتشفي يا ليفيا لمّ أقول لك كل ذلك؟
فأجابت الفتاة هامسة:
لا.
لكنه لمّ يصدقها فجذب يدها نحوه بقوة. وكان يود لو يضعها عندَ موقع قلبه الذي بدأ يطرق كالمطرقة لشدة المشاعر التي تنتابه تجاه الفتاة، وتجلده. كانَ يتأهب للبوح بعبارات حارة، لولا أن أطلّ أولوس العجوز قادمًا في الممشى اللبلابي. واقترب منهما وقال:
مالت الشمس للمغيب. إحترسا من برودة المساء ولا تمازحا ليبتنا الهة الموت.
فأجاب فينيكوس: - لا. لمّ أرتد ردائي الخارجي حتّى الآن، ومع ذلك لمّ أشعر ببرودة الجو.
فأجاب المحارب العجوز:
لا يبدو من قرص الشمس خلّف الجبال سوى أقل من نصفه.
الجو يشبه طقس سيسيليا اللطيف، حيث كل مساء يتجمهر الناس في ساحات الأسواق، للغناء معاً مودعين فوبوس العائدة إلى مبيتها.
نسي أنّه قدْ حذرهما من ليبتنا منذ قليل، فأخذ يحدثهما عن سيسيليا، وما يعود لهُ فيها من أملاك، وكيف مارس هناك الزراعة التي عشقها كثيراً. وقال إنه فكر كثيراً أن يرجع إلى سيسيليا، ويمضي هنالك ماتبقى من حياته بسلام. حسب المرء ما ناله من قشرة جليدية غطت رأسه في صقيع الشتاء. لمّ تتساقط أوراق الأشجار بعد، وما زالت السماء صاحية تنشر رحمتها فوق المدينة. لكنّ متى اصفرت الأشجار وسقط الثلج فوق الجبال الألبانية، وأرسلت الآلهة عواصفها الشديدة في كامبانيا، من يدري حينذاك إن كانَ السكان لن يهجروها راحلين إلى أعشاشهم في الأرياف.
سأل فينيكوس مبديًا قلقه المفاجئ:
- ولديك الرغبة في مغادرة روما، ورميها وراء ظهرك. فأجاب أولوس:
- رغبتي قائمة منذ مدة طويلة. فالحب هنالك أكثر استقرارًا و أمانًا.
و راح من جديد يفخر بما يملك هنالك من أطيان، وقطعان، ومنزل في كنف الأشجار، وخلايا نحل تعج بها منحدرات سفوحه المليئة بالزعتر البري. لكنّ فينيكوس لمّ يكن مكترث بهذا الفيض من الملكية الرعوية، بل كانَ يفكر بأمر وحيد يشغله: يُمكن أن يفقد ليفيا، فكان يكث في نظراته المتوسلة إلى بترونيوس أملًا منه النجدة والعون.
خلال ذلك، كانَ بترونيوس جالساً إلى جانب بومبونيا، يستمتع بالشمس الغاربة، والحديقة، ومشهد الواقفين قرب بركة الأسماك التي كانت ملابسهم البيضاء ترهج ذهبية تحت أنوار المساء، أمام الخلفية الداكنة لشجيرات الاس. بدأ وهج الغروب يتخذ في السماء لونه الأرجواني، ثمّ البنفسجي، ويتلألأ الأوبال بألوانه البديعة، إلى أن ساد في السماء لونها البنفسجي في النهاية. كانت خطوط السرو الداكنة. ما تزال تبدو أكثر وضوحاً، حتّى خيمت سكينة المساء على البشر، والأشجار، والحديقة.
لقد أذهل بترونيوس هذا الهدوء والسكينة. وانعكس على وجوه كل من بومبونيا، و الوس العجوز، والصبيين، و ليفيا، ما لمّ يلمحه من قبل، على وجوه من يلتقيهم أو يحيطون به كل ليلة، الذين يستمدون أضواءهم وما يكتنفهم من سكينة وبشاشة، من طبيعة الحياة المعاشة هنا، وما لها عليهم بحكم الضرورة من تأثير.
وخطرلهُ بشيء من الاستغراب: هل ثمة يا ترى جانب من الجمال والمتعة لمّ يتذوقه إلى الآن، هو الذي نذر حياته كلها سعياً وراء المتعة والجمال؟ لمّ يسعه التكتم على ما لمع في ذهنه، فالتفت إلى بومونيا قائلاً:
كنت أوازن في نفسي، الفروق الكبيرة بين عالمكم، والعالم الذي يسيطر عليه نيرون.

رفعت المرأة وجهها الناعم نحو وهج الغروب، وأجابت بكل بساطة:
- ليس نيرون من يسيطر على العالم بل الله. ساد سكون لحظي.
ثمّ سمعت خطوات القائد العجوز، و فينيكوس، و ليفيا، و أولوس الصغير، تقترب نحوهما لكنّ بترونيوس، قبل وصولهم اليهما، توجه إلى بومبونيا زوجة الوس بلاوتيوس بالسؤال:
- أنت إذن تؤمنين بالالهة يا بومبونيا؟
- أنا أؤمن بالإله الواحد الحق الكلي القدرة.

ـ تؤمن باله حق كلي القدرة.
كرر بترونيوس وهو يجلس إلى جانب فينيكوس في الهودج، ثمّ تابع يقول:
إن كانَ إلهها كلي القدرة، هو إذن سيد الحياة والموت، وإن كانَ حقاً، فالحاقه الموت بنا حق كذلك. ولكن ما السبب الذي يدعو بومبونيا تقيم الحداد على يوليا؟
إنها بحدادها على يوليا إنما تدين الهها. أجدني مرغمًا على تكرار هذا الاستنتاج أمام قردنا صاحب اللحية الحمراء. أزعم أنني لا أقل معرفة في الديالكتيك عن سقراط. مايخص النساء، أنا أوافق على أن كل واحدة منهن تملك ثلاثة أزواج أو أربعة. لكنهن يفتقرن إلى أية روح عاقلة.أي لوغوس تتمتع به بومبونيا، سينيكا أو كورنوس؟ ويمكنني أن أستشهد بأخريات كثيرات كذلك مثل كسينوفانس، بارمانيوس، زينو، بلاتو اللواتي تسام أرواحهن أرجاء العالم الأخر كالحساسين في الاقفاص. كنت أريد أن أكلم أولوس بأمر آخر تماماً. لكنّ لوكلمتهما مباشرة عن سبب زيارتنا لهما، لجن جنونهما حسب ظني. لمّ أملك الشجاعة، يا فينيكوس. أتصدق أنني لمّ أجرؤ على هذه المفاتحة؟ الطاووس طائر رائع، لكنه يصيح على نحو مرعب. خفت من الصياح. أقدر خيارك عاليًا. فجر وردي الأصابع." أتدري ما ذكرتني أيضاً؟ الربيع. لكنّ ليس ربيعنا في إيطاليا، حيث تغطي الأزهار والبراعم أشجار التفاح، وتبقى أشجار الزيتون رمادية، مثلما كانت قبل إزهارها. لكنّ ذلك الربيع الذي صادفته في هلفتيا. الربيع النضير، الطري، الكلي، الاخضرار. أنت تستاهل حتّى سيلينا الهة القمر بذاتها، يا صديقي فينيكوس، لكنّ ليكن في علمك أنك تحب ديانا، وأن بوسع أولوس و بومبونيا أن يمزقاك إربًا، كما قامت الكلاب بتمزيق اكتاون.
ظلّ فينيكوس يصغي مطرق الرأس حتّى دفعه الشوق ليقول بصوت كسير:
كنت مشتاقًا اليها طوال الوقت، لكنّ اشتياقي صار الان على أشده. حين أمسكت يدها سرت النار عبر جسدي كلّه... ينبغي أن أفوز بها. لو كنت زيوس لعانقتها في صورة غيمة، كما عانق زيوس إيو ، أو لهطلت عليها كالمطر، كما فعل زيوس مع دانا. بي رغبة أن أقبل فمها حتّى أوجعها، وتتأوه ألما وأن تصرخ بين ذراعي. أتمنى لو أقتل أولوس، و بومبونيا، ثمّ أحملها على ذراعي، وأمضي بها إلى المنزل. لن أنام هذه الليلة. سوف أجلد اليوم كل عبيدي لأسمع آهات توجعهم.
فقال بترونيوس: ـ هدئ من روعك! هدئ من روعك!
لا يهم. ينبغي أن أحظى بها. لجأت اليك بالمشورة، لكنك لا تستطيع أن تساندني. سوف أساند نفسي. أولوس يعتبر ليفيا ابنته فلماذا أنظر اليها كواحدة من الرقيق؟ إن اضطر الأمر سأتزوجها.
هدئ من روعك، أية عاقبة هذه! نحن لا نوثق البرابرة و نحرهم
وراء عرباتنا، لكي نتخذ من بناتهم زوجات لنا. حذار أن تتطرف في سلوكك. وابحث عن الوسائل البسيطة التي تلقى قبولًا. إمنحني ما يكفي لي ولك من الوقت للتفكير. أنا كذلك حظيت ب كريسو ميس بنت جوبيتر، لكني لمّ أتخذها زوجة لي، كما لمّ يتخذ نيرون من أكتي زوجة لهُ، وإن كانت ابنة الملك أتالوس. إهدأ... وفكر أولاً ما إذا كانت هذه العائلة يُمكن أن تتخلى عن الفتاة. واعلم تمام العلم أنك لست وحدك الذي يحترق، إنما إيروس قدْ أشعل نار الحرقة في نفسها أيضاً... أنا رأيتها... وعليك أن تثق بي.... كنّ صبورًا. لكل طريقته، وأنا اليوم أوليت الأمر أكثر مما يستوجب من التفكير. وقدْ أرهقت. لكني أعدك بأنني سأفكر بحبك يوم غد من جديد. بترونيوس ليس بترونيوس إن لمّ يجد طريقة مناسبة.
ورجعا إلى صمتهما. بعد قليل قال فينيكوس بنبرة أكثر هدوءًا:
ـ شكرًا. وأرجو أن يكون فورتونا كريمًا معك.
ـ تحمل بالصبر.

ـ أين تأخذنا الان؟
ـ إلى كريسوتميس.
ـ ما أسعدك، وحبيبتك هي لك.
ـ أنا. أتدري ما الذي يسليني أيضاً في كريسو ميس؟ خيانتها لي مع معتوقي ثاوكليس المغني. تظن أنني لا أعرف بالأمر. لقد أحببتها ذات يوم، لكنّ ما يسليني الان افتراءاتها وحماقاتها. رافقني لزيارتها. إن حاولت مغازلتك، وراحت تكتب على الطاولة أحرفا بإصبعها المغمسة بالنبيذ، فلا يخطر لك أنني أغار.
وانطلقا إلى كريسوتميس.
لكنّ بترونيوس، ويده فوق كتف فينيكوس في الباحة، قال:
ـ أبشر! أظنني أكتشف الطريقة.
ـ جازتك الالهة!
ـ أجل إنها طريقة مقبولة. أتدري ما هي يا عزيزي ماركوس؟
ـ أسمعك. يا أثيناي!
ـ بعد أيام سوف تستمتع ليفيا الربّانية في بيتك بحبات ديميتر الهه الزراعة في حفل الزفاف.
فصاح فينيكوس بحماسة:
ـ أنت أعظم من قيصر.

ووفي بترونيوس بوعده.
في اليوم التالي لزيارة كريسوتميس، نام طوال النهار، ثمّ في المساء قصد البالاتينوس حيث كانَ لهُ حديث مغلق مع نيرون. وسبب ذلك عائد إلى ظهور أكثر من عشرة حراس قيصريين، وقائدهم أمام منزل أولوس بلاوتيوس لليوم الثالث على التوالي.
كانت أوقاتًا مضطربة عصيبة. دورية متكررة من هذا النوع تحمل معها أنباء الموت. وهكذا، إذن، عندما دق قائد المئة بالمطرقة باب منزل أولوس، وأبلغ ناظر الأتريوم أن هناك جندًا في الباحة، دب الذعر الشديد، وملأ سائر أنحاء المنزل.
فالتمت العائلة على الفور، وسرعان ما تحلقت حول العجوز، وقدْ أدركت أنّه المستهدف الأول في هذه الحملة التهديدية. لفت بومبونيا عنق زوجها، والتصقت به بكل ما لديها من قوة، وشفتاها المزرقتان ترتجفان ارتحافات متلاحقة سريعة، وتتهدجان بكلام خافت. فيما راحت ليفيا الشاحبة الوجه، تكيل يد بلاوتيوس بالقبلات. وتشبث أولوس الصغير بثوب والده. وفي الممرات، وغرف الخادمات في الأعلى، وفي جناح إقامة الخدم، وسائر أنحاء المنزل، كانَ الجميع رقيقًا ورقيقات يرددون"ويلي، ويلي، بالسوء الحظ". هيو، هيو، مي ميسريوم. وانفجرت النسوة بالبكاء، وكان من بينهن من دفنت وجهها بيديها، وخرجت أخريات يغطين رؤوسهن بالمناديل.
وحده القائد الحربي العجوز من حافظ على رباطة جأشه، و بقى هادئًا.
فهو الذي اعتاد عبر سنوات طويلة، أن يكون في مواجهة الموت. كل ما طرأ عليه أن رأسه الصقري الصغير قدْ قسا وتصلب كأنما قدْ نحت من الصخر، وبعد وقت قصير أخمد ما بدر من صراخ، وقام بتفريق الخدم، ثمّ قال:
ـ دعيني يا بومبونيا. إن كانَ هذا يعني نهاية حياتي فسيكون لدينا الوقت الكافي للوداع.
وأبعدها عنه برفق، بينما قالت المرأة:
ـ أدع الله يا أولوس أن يجعل مصيرنا مشتركًا.
ثمّ جثت على ركبتيها، وأخذت تصلي مطلق إيمان يولده الخوف على شخص عزيز.
عبر أولوس إلى الأتريوم حيث قائد الدورية في انتظاره.
كانَ غايوس هاستا العجوز الادنى رتبة من أولوس ورفيقه في الحروب البريطانية.
حياه قائلاً:
ـ تحياتي لك، أيها القائد! أحمل لك من القيصر أمراً وتحية. جئتك باسمه، واليك هذه اللوائح الممهورة بالختم إثباتًا لذلك.
فأجابه أولوس:
ـ أشكر القيصر على تحيته لي. وأنا مستعد لتنفيذ أمره. شكرا لك يا هاستا.
قل لي ما مضمونه؟
بدأ هاستا بالكلام:
ـ لقد بلغ القيصر أن ابنة ملك اليغوس تقيم في منزلك. كانَ الملك قدْ أودعها لدى الرومانيين قبل أن يفارق الحياة، ضمانة لهم بعدم التعدي على الحدود الرومانية. و نيرون الرباني، أيها القائد، يخصك بالشكر على استضافتك الكريمة للفتاة في منزلك، طوال السنوات الفائتة ، وليس لديه الرغبة لتحميلك المزيد من أعبائها. وباعتبار الفتاة رهينة، فهي تحت رعاية القيصر، ومجلس الشيوخ، وهو يأمرك بتسليمها لي.
كانَ أكثر ما يميز أولوس أنّه كانَ عسكريًا ورجلًا مدربًا عاتيًا. فلم يكن إزاء أي أمر من الأوامر لينطق. ما

من شأنه فضح الامه، أو ليهدر الكلام في شكوى لا فائدة منها. لكنّ تقطيبة قد ارتسمت على جبينه في المقابل، نمت عن الغضب والألم. وهي تقطيبة طالما القت الذعر في نفوس الخيالة البريطانيين. ولقد تبدى هذا الذعر جليًا الان فوق وجه هاستا. ورغم ذلك فقد شعر أولوس بعجزه الشديد إزاء الأمر القيصري. أمعن النظر باللوائح والختم، ثمّ رفع عينيه نحو القائد العجوز وقال بهدوء:

ـ انتظرني في الأتريوم يا هاستا، ريثما تستلم الرهينة.

ثمّ عبر إلى الجهة الأخرى من المنزل، ودخل إلى غرفة حيث كانت بومبونيا، و ليفيا، و أولوس الصغير، ينتظرونه بقلق وفراغ صبر.

ـ بادرهم بالقول:

ـ لا الموت، ولا النفي إلى الجزر النائية في وارد أن يهدد أحداً.

القيصر أرسل الينا بنبأ سيئ يخصك يا ليفيا.

فصرخت بومبونيا ذاهلة:

ـ ليفيا؟

فأجاب أولوس:

ـ أجل

ثمّ التفت إلى الفتاة وقال:

ـ ليفيا! لقد رعيناك وأنت طفلة. وأحببناك أنا و بومبونيا، كما لو كنت ابنتنا، لكنك تعلمين أنك لست ابنتنا نحن. أنت رهينة قدمها بلدكم لروما، وأنت من رعايا القيصر، وهو يسترك الآن منا.

كانَ القائد يتكلم بغاية الهدوء، لكنّ بصوت غريب غير مألوف. وكانت ليفيا تنصت اليه مطبقة عينيها نصف إطباقة، كأنما لاتفهم ما يقول. وشحب وجه بومبونيا. وفي نهاية الممشى ظهرت النسوة مذعورات من جديد.

وجهر أولوس بقوله:

ـ علينا تنفيذ إرادة القيصر.

وصرخت بومبونيا ضامة الفتاة كأنما تريد حمايتها.

ـ أولوس! الأفضل لها أن تموت.

لكنّ ليفيا وقدْ التحمت بصدر بومبونيا، أخذت تردد:

" يا أمي، يا أمي" ، مرات ومرات لعجزها عن النطق بأية عبارة أخرى.

وشى وجه أولوس بقسمات غاضبة أليمة، ثمّ قال متجهمًا:

ـ لو كنت وحيداً أحيا بدونك لما تخليت عن الفتاة وأنا حي ، ولكني لا أملك الحق في أن أضحي بك وبطفلنا الذي تنتظره أزمنة قدْ تكون أكثر سعادة. سأذهب اليوم إلى القيصر، أتوسل اليه أن يلغي أمره هذا. فهل سيرضي؟ لا أدري حتّى ذلك الوقت. أتمنى لك كل العافية يا ليفيا. ولاتنسي أنني و بومبونيا قدْ باركنا ذلك اليوم الذي وطئت فيه منزلنا.

ثمّ وضع يده على رأس الفتاة. و لمّ يجده نفعاً أنّه حاول بكل ما لديه من طاقة أن يحافظ على اتزانه فلم يقو على أن يتمالك نفسه، حين التفتت اليه الفتاة بعينين مغرورقتين بالدموع، ونطق بنبرة الم أبوي عميق:

ـ السماء معك، يابهجة قلوبنا، وضوء عيوننا.

وخرج مسرعًا إلى الأتريوم

في أثناء ذلك قادت بومبونيا الفتاة إلى الكوبيكولوم، وحاولت تهدئتها، ومواساتها، والشد من أزرها

بعبارات مستخدمة على نحو خاص هنا، حيث مازال معبد المنزل قائماً في الجوار، ومازال أولوس بلاوتيوس المخلص لعقيدة الأجداد، يقدم فيه قرابينه للالهة حامية المنزل. حان وقت الاختبار، وبلغ الأمر محكًا مفصليًا فيما مضى قام فرجينيوس بطعن ابنته في قلبها كي يحررها من أبيوس ، وضحت الو كرتيا بحياتها غسلًا لعارها. منزل القيصر مغارة للعار، والشرور، والاثم،"لكننا ندرك يا ليفيا، أنّه ليس من حقنا أن نرفع أيادينا ضد أنفسنا". هذا هو واقع الحال".
والأكثر جدارة هو من يخرج من بؤرة الفساد بكامل نقائه. الأرض تشبه بؤرة فساد، والحياة عليها لحسن الحظ، مجرد غمضة عين، ولا يُمكن الانبعاث إلا من القبر الذي لا سلطان عليه لنيرون، بل للقدرة الرؤوم التي تمنح السعادة والسرور بدلاً من الألم والدموع.
ثمّ أخذت تتحدث عن نفسها، أجل إنها هادئة ومطمئنة، لكنّ فؤادها لا يخلو من الجراح الموجعة. كانَ في عينيها غشاوة، و لمّ يصب فيهما نبع النور بعد، حتّى ابنها لا يجوز أن تقوم بتنشئته بقول الحقيقة لهُ. لكنّ لابد أن تأتي اللحظة التي سينفصل فيها عنهما، وسيكون وقع الانفصال أشد مرارة مما يعانونه الان، فليس بمقدورها أن تصوّر كيف سيكون ابنها سعيدًا بدونهما. لكم أمضت لياليها باكية، ولكم أمضت فترات منها تصلي. لكنّ أوجاعها هذه هبة منها في سبيل الله. إنها تنتظر وتؤمن، والان، وقدْ نالتها صدمة جديدة، وفعل الأمر القيصري فعله مع الفتاة الغالية التي سماها أولوس نور العينين، مازالت على إيمانها لأنها تعتقد بوجود قدرة أعظم من سلطان نيرون ورأفة أشد من شروره.
وضمت رأس الفتاة الصغيرة بحرقة إلى صدرها، وظلت وقتاً طويلاً على هذه الحال، حتّى قالت أخيراً:
- أنا آسفة يا أمي. آسفة يا أبي، ويا أخي الصغير. لكني أعلم أن الاعتراض والمجابهة لا ينفعان في شيئ، بل يؤديان إلى فقدانكما.
لكني أعد أنني لن أنسى، وأنا في منزل القيصر، ما قلته لي. ولفت ذراعها حول عنق بومبونيا، ثمّ اتجها إلى الغرفة حيث قامت بتوديع أولوس الصغير، والمعلم الإغريقي العجوز، والخادمة التي رعتها. ثمّ كل الأرقاء في المنزل. أحد هؤلاء الأرقاء ليغوي من قوم الفتاة، يُطلَق عليه في دياره إسم أورسوس، وهو من الذين قدمو في ذلك الوقت مع أم ليفيا، ومجموعة الخدم إلى معسكر الرومان. دفع الان بنفسه أمام رجلي ليفيا، ومال نحو ركبتي بومبونيا يتوسل قائلاً:
- يا صاحبة السلطان! دعوني أرافق سيدتي لأقوم بخدمتها، وأكون حارسها في منزل القيصر.
فأجابت بومبونيا:
لست عبدنا، بل عبد ليفيا. فهل سيسمح لك بالوصول إلى باب القيصر؟ وكيف ستكون حارسا لها؟
لا أدري يا صاحبة السلطان. كل ما أعرفه أنني...
وصل أولوس للتو، وحين علم.ما يجري، لمّ يقف عندَ رفض رغبة أورسوس، بل قال أن ليس من حقهما أن يحتفظا به هنا. أمّا ليفيا الرهينة فإنهما يرسلانها بناء على أوامر القيصر. وهم ملزمون أن يرسلوا معها سائر أفراد طاقمها الذي ينضوي تحت حكم القيصر.
وهمس في أذن بومبونيا قائلاً لها أن ترسل مع ليفيا ما تراه مناسباً من الرقيقات أن قائد الدورية لن يمانع.
كانَ في ذلك مايواسي ليفيا، وماهو مبعث سرور لبومبونيا، خاصة وأنها ستزودها بطاقم خدمي هي التي تختاره لها. فأرسلت إضافة إلى أورسوس مربيتها الخاصة العجوز. وخصتها للحمام بإمرأتين جرمانيتين، ولتسريح شعرها بفتاتين قبرصيتين ماهرتين. لقد اقتصر اختيارها على أتباع التعاليم الجديدة. وبما أن أورسوس كانَ أيضاً من بين أولئك الأتباع، فقد تسنى لبومبونيا أن تعتمد على طاقم مشهود بوفائه. والأمر الذي أسعدها أن بذور الحق سوق تنثر في منزل القيصر.
وكتبت أيضاً بعض الكلمات تضع فيها ليفيا تحت عناية أكتي معتوقة نيرون. لمّ تصادفها بومبونيا مرة في

لقاءات أتباع التعاليم الجديدة، لكنّها سمعت من أولئك أن أكتي لمّ ترفض لهم شيئاً، وأنها قارئة متحمساً لرسائل بولس الترسوسي.
وتعلم بومبونيا عنها أنها حرّة نيرون الشابة تعاني حزنًا شديدًا وإنها فتاة تختلف كليًّا عن سائر أفراد منزل نيرون وأنها الروح الطيبة للقيصر.
وعد هاستا أن يقدم الرسالة شخصًا لأكتي، واعتبر أن الطاقم المرافق حالة طبيعية، فكيف لأميرة أن تكون دون حاشية.
حتّى أنّه قدْ استغرب قلة عدد المرافقين. لمّ يختلق هاستا معوقات إذن. كل ما هنالك انه استعجل الانطلاق لكي لا يتهم بأنه لا ينفذ الاوامر بتلك الحماسة.
حانت لحظة الفراق، اغرورقت عينا بومبونيا، وعينا ليفيا بالدمع. وضع أولوس يده مرة أخرى على رأس الفتاة، قبل أن يصطحبها الجنود إلى منزل القيصر، وسط صراخ أولوس الصغير، وتهديداته قائد الدورية بقبضته الصغيرة.
لكنّ القائد الحربي العجوز طلب الهودج، وقال لبومبونيا: اسمعي ما أقوله يا بومبونيا. أنا ذاهب إلى القيصر، وأعلم أن لاجدوى في الأمر، وأعلم أيضاً أن كلام سينيكا لايعني لهُ شيئاً.
ورغم ذلك سأقصد سينيكا. في هذه الأيام سوفرونيوس، و تيغالينوس، و بترونيوس هم الأهم. أمّا بالنسبة للقيصر، فقد يكون لمّ يسمع بالقوم الليغوس.
وإذا ما كانَ علم أن ليفيا رهينة و طلبها على أساس ذلك، فلابد أن أحداً قدْ أخبره بأمرها. فمن يكون المخبر؟ ليس عسيرًا معرفة ذلك.
رفعت المرأة رأسها نحوه قائلة:
ـ تمام
ساد صمت آني. ثمّ تابع القائد يقول:
ـ أنظري نتيجة ما يحصل عندما يدخل المرء إلى منزله شخصاً قذرًا عديم الضمير. اللعنة على تلك اللحظة التي اجتاز فيها فينيكوس عتبة منزلنا. هو الذي أني ببترونيوس إلينا. هم لا يريدون ليفيا الرهينة، بل الخليلة.
اشتد صفير صوته نتيجة ما اجتاحه من موجات الغضب، والخنق وشدة الألم على ابنته. اصطرع في نفسه لبعض الوقت، وكانت قبضته المشدودة تقول:
ما أقساه من صراع!
قال:
حتّى الآن، كنت أحترم الالهة. في هذه اللحظة أقول: لاوجود لها في هذه العالم.
هنالك فرد شرير، ورهيب، ومخبول إسمه نيرون.
صاحت بومبونيا:
ـ أولوس! نيرون إذا ما قيس بالالهة ما هو الا قبضة تافهة من الغبار.
وراح الرجل يخبط بخطوات مديدة فوق بلاط الموازييك. لقد شهد خلال حياته كثيراً من الوقائع الجسيمة، ولكنه لمّ يالف أن يتخللها سوء فال ملحوظ لا يحسب لهُ حساب أو خيبات كبرى ذات شأن.
كانَ الجندي العجوز أكثر تعلقا بليفيا مما كانَ يظن.
والآن، لمّ يقو على احتمال فكرة أنّه يفقدها. شعر بوصمة العار، وأن يداً يحتقرها قدْ تطاولت عليه. وشعر في الوقت نفسه أن قوته لاتساوي شيئاً مقارنة بقوى أولئك.
ولكنه بعد أن عبر عن غيظه الذي أربك أفكاره، قال:

ـ سأفترض أن بترونيوس لمّ يأخذها من أجل القيصر تجنبًا لغضب بوبيا عليه، فقد استرجعها منها إذن من أجل فينيكوس.
سأعرف ذاك هذا اليوم.
وبعد قليل من الوقت أقله الهودج باتجاه القصر. وبقيت بومبونيا وحدها، فأسرعت نحو أولوس الصغير الذي فاقم من بكائه على فراق أخته، و من تهديداته للقيصر.

كانَ أولوس محقًا حين ظن أنّه لن يتمكن من المثول أمام نيرون.

كانَ ردهم أن القيصر والحاشية في حفل غنائي خاص. بمن وجهت اليهم الدعوات. ومثل هذا الرد كانَ يعني أن يكف أولوس عن محاولاته المجيء إلى هنا حتّى فيما يلي من المناسبات. بينما كانَ سينيكا، رغم مرضه وحماه، قدْ استقبل المحارب العجوزبما يليق من حفاوة واحترام، وقال لهُ بعد أن عرف الغرض من قدومه:

ـ أنصحك يا أولوس بلاوتيوس النبيل بأن تتكتم أمام القيصر، فلا تفصح لهُ عن شعوري بوجعك، وأنني أود مساعدتك. لأن القيصر، لو خالجه بعض الظن بتعاطفي معك، لن يعيد ليفيا اليك، لسبب وحيد لا ثاني لهُ هو معارضتي والوقوف ضدي.

كما حذره أيضاً من اللجوء إلى تيغالينوس أو فيتاليوس، أو فاتينيوس، حتّى إن كانَ الأمر يسوى عندهم بالمال. لأنهم في الغالب، سوف يشون للقيصر، بمقدار أهمية ليفيا بالنسبة لكل من أولوس و بومبونيا، ومدى حبهما لها، وعندئذٍ سوف يضعف احتمال إعادتها من بين يدي نيرون. ثمّ استأنف قائلاً:

ـ أنت سكت يا عزيزي بلاوتيوس. لقد لزمت الصمت على مدى سنوات طويلة. وقيصر لا يُحبّ أولئك الذين يسكتون. كيف كانَ بمقدورك أن لا تتحمس لجماله وقوته، وغنائه، وأقواله، وفنه في قيادة العربات، وأشعاره؟ كيف كانَ.مقدورك ألا تمجد موت بريتانيكوس، وألا تلقي خطبة تمدح فيها قاتل أمه؟ والا تعبر عن رغبتك، وقبولك أن تخنق أوكتافيا ألا تملك المقدرة على النظر من حولك، وترانا كيف نعيش سعداء في ظلّ البلاط، ونتمتع بقدر كبير من الكفاية والرفاه.

ثمّ أنزل الإبريق المعدني عن خصره، وغرف ماء من النافورة، وتابع يقول:

ـ نيرون يتمتع بقلب فيه مسحة من الامتنان، يحبك لأنك خدمت روما، ونشرت إسمه في أنحاء الأرض، وهو يحبني لأني كنت معلمه في صباه. أنظر! أعرف أن هذا الماء ليس مسمومًا، وأنا أشربه مطمئنًا لكنّ حتّى النبيذ الذي في بيتي مشكوك في أمره. فإن كنت ظمأنًا فاشرب من هذا الماء الذي يأتينا في قنوات مائية من جبال الألب. فإن أرادوا تسميمنا عليهم أن يسمموا كل ينابيع روما. وكما ترى، بمقدور المرء أن يحيا بأمان في هذا العالم، وأن يبلغ شيخوخة آمنة مطمئنة. صحيح أنني مريض، لكنّ روحي هي المريضة، ليس جسدي.

وكان هذا صحيحاً. لمّ يكن لسينيكا تلك القوة الروحية التي تمتع بها كورنوتس أو تريسيا. لمّ تكن حياته إذن الا سلسلة من التنازلات أمام الخسة. لقد أدرك تماماً أن من يتبع مبادئ زينو الكيتيوني، عليه أن يسلك دربًا أخرى تذيقه المرارات.

لكنّ القائد الحربي قطع خيط تلك التأملات المزعجة قائلاً:

ـ أعلم أن القيصر كافأك على حمايتك لهُ في صباه، لكنّ جد لنا الان طريقاً لمقابلته، أو حدد لنا من يشفع لنا عنده، إن كانَ هنالك خيط من صداقة قديمة مازال يربط بيننا.

فأجاب سينيكا:

ـ أنا و بترونيوس ننتمي إلى حلفين متضادين. ولا أدري ما الذي يُمكن أن نحصل عليه منه. لا أحد يستطيع أن يؤثر عليه. وبالرغم من فساده فهو أعلى مقدارًا من أولئك الأوغاد الذين يحيطون بالقيصر. لكنّ إذا ما كنت راغبًا في التأكد من أنّه قدْ ارتكب فعلة شريرة، فهو أمر لا جدوى منه، ومضيعة للوقت. لقد فقد بترونيوس منذ فترة طويلة إحساسه بالفروق بين الصالح والطالح. أثبت لهُ سوء تصرفه، وسوف يشعر بالخجل.

وإذا ما التقيته سأقول لهُ "هذا التصرف لا يليق إلا بأحد المعاتيق ليقوم به." إن لمّ يكن كلامي مجديًا فلا

شيء سيجدي أبدًا.
فأجاب القائد:
ـ أشكرك على هذا الأمر كذلك.
ثمّ انطلق قاصدًا فينيكوس الذي كانَ يجري تدريبًا في المبارزة بالسيف مع المدرب. ركب أولوس حنق شديد لمرأى الشاب يقوم بتدريبات المبارزة، بكل ما هنالك من اطمئنان وبرود رغم عدوانيته على ليفيا. واستحال حنقه إلى ملامة قاسية، وشتائم. أمّا فينيكوس، وقدْ علم للتو باختطاف ليفيا، فقد اعتراه الشحوب والذعر من هول المفاجأة، الأمر الذي أبعد أولوس عن الشك في أن يكون لهُ يد في الإضرار بالفتاة. كانَ جبين الشاب يتصبب عرقاً.
تسارعت خفقات قلبه، وتوهج وجهه بحمرة دموية، وبرقت عيناه بالشرر، وارتجفت شفتاه بتساؤلات مرتبكاً، وتناوبت عواصف الغيرة، والغضب على تمزيقه. شعر أن ليفيا ما إن تتخطى عتبة القصر وتصير في داخله، حتّى يفقدها إلى الأبد.
وعندما ذكر أولوس اسم بترونيوس، ساوره بريق من شك في أن بترونيوس قدْ جعل منه مطية لاستغلاله عندَ القيصر. إما للفوزبمكاسب شخصية بتقديم ليفيا هدية لهُ، وإما لرغبته في أن يحظى بها هو شخصيًا.
فما من أحد تقع عيناه على ليفيا إلا ورغب بها، أو شغلت باله. قال بلهجة متعثرة:
عد إلى المنزل يا سيدي القائد، وانتظرني... وتأكد إن كانَ لبترونيوس ضلع في الأمر، سأنتقم لها منه، عد إلى المنزل، وانتظرني، فلن تكون ليفيا لبترونيوس ولا لقيصر.
ثمّ رفع قبضة يده نحو وجوه الشمع المصفوفة في الخزانة، وصرخ:
ـ أيتها الوجوه الميتة! سأقتله أو لأَتمّ أقتل نفسي.
ونهض واقفاً وكرر طلبه قائلاً لأولوس:
ـ انتظرني.
واندفع كالمجنون قاصدًا بترونيوس.
ورجع أولوس يحمّل شيئاً من الأمل في داخله.
قال في نفسه: إن كانَ بترونيوس قدْ أقنع القيصر باختطاف ليفيا كي يمنحها لفينيكوس، لا مخافة من الأمر، لأن الشاب سوف يعيدها. وإن لمّ يتمكن من ذلك فسوف يلجأ إلى قتلها غسلًا لعارها.
كانَ واثقًا أن فينيكوس سيفي بوعده. لقد لمس شدّة الغضب الذي ألم به، وكان قدْ خبر ما يمتاز به قوم الشاب من حماسة واندفاع.
حتّى هو نفسه الذي أحبّ ليفيا كأب ابنته، يفضل قتلها على أن تكون للقيصر، لولا أنّه يضع في الاعتبار حالة ابنه الوحيد آخر وريث للعائلة.
كانَ أولوس جنديًا فلم يسمع الكثير عن الرواقين، لكنه ليس منأى عن تطلعاتهم، و مناحي فخارهم. الموت في نظرهم أقرب إلى أفكارهم وفخارهم من وصمة العار.
وحين وصل إلى المنزل طمئن بومبونيا، وكرس معها آماله، وانتظر كلاهما الأخبار الموعودة من فينيكوس بفارغ الصبر. أحياناً، حين يتناهى إلى الاسماع وقع أقدام أحد العبيد، كانا يظنان أن فينيكوس قدْ جاء بطفلتهما الحبيبة، وتهيأ لمباركة بعضهما بحرارة. لكنّ الزمن كانَ يمضي، دون أن يصل أي نبأ. لكنّ في المساء دقت مطرقة الباب و بعد قليل، دخل رقيق، وسلم أولوس رسالة. حاول القائد الحربي العجوز أن يتماسك، ويسيطر على نفسه، لكنه فشل في منع يده من الارتجاف حين مدها لاستلام الرسالة. وقرأها بنهم كأن مصير الجميع يتوقف عليها.
وبغتة تجهم وجهه كأن غمامة قدْ ظللته.

اقرأيها قال ملتفتًا إلى بومبونيا.
أخذت بومبونيا الرسالة، وقرأت فيها ما يلي:
"ماركوس فينيكوس" يُبعث تحياته إلى أولوس بلاوتيوس. ما حصل كانَ بإرادة من القيصر. وما عليكم أمام ذلك، الا أن تحنو رؤوسكم كما فعلنا أنا و بترونيوس.
ثمّ ساد صمت طويل.

كانَ بترونيوس في المنزل. لمّ يجرؤ الحاجب أن يدخل فينيكوس المندفع كالعاصفة. لكنّ فينيكوس كانَ يعرف أنّه سيجد سيد المنزل في المكتبة، فاندفع نحوها. وجده هناك منكبًا على الكتابة. اختطف الريشة من يده وكسرها، ورماها على الأرض، ثمّ ضغط بكفه على ذراع قريبه الأكبر، ومال مقتربًا من وجهه يسأله بصوت أجش:

أين هي؟ ما الذي فعلته بها؟

ما حصل شيء غريب. قبض بترونيوس المخنث النحيل بيد واحدة على ذراع الشاب الرياضية التي انغرزت أصابعها في ذراع بترونيوس، ملتقطًا باليد نفسها الذراع الأخرى للشاب، وشد عليهما بقوة حديدية، وقال:

ـ قواي واهنة عندَ الصباح فقط. لكنني سرعان ما أستعيد مرونتي مع اقتراب المساء. حاول أن تحرر نفسك. يبدو أن مدربك على الخفة كانَ حائكا لا علاقة لهُ بالرياضة، وأن مدربك على اللباقة كانَ حدادًا.

لمّ يبد، بعد، على وجهه أي أثر للغضب. لكنّ عينيه توهجنًا بالقوة والجسارة. أرخى ذراعي فينيكوس، وقف الشاب أمامه خجلاً ذليلًا، دون أن يخفي حنقه. قال:

ـ لك ذراع حديدية. لكني أقسم بكل آلهة العالم، إن كنت قدْ

خنتني، سأطعن عنقك بمديتي، حتّى أمام القيصر، وفي منزله.

فأجاب بترونيوس:

ـ دعنا نتكلم بهدوء. ترى أن الفولاذ أقوى من الحديد. وأنا لا أخافك، بل أشفق عليك لأنك أخرق، وساذج. ولو كانَ ما يزال بمقدوري أن أستهجن الجحود الإنساني، لكنت استهجنته فيك بالذات.

ـ أين ليفيا؟

في قصر القيصر

ـ بترونيوس!

ـ هدئ من روعك، واجلس.

توجهت إلى القيصربمطلبين، وقدْ وعدني بتلبيتهما لي. أن يأتي بليفيا من منزل أولوس، وأن تأخذها أنت بعد ذلك. والآن أليس من مدية تخفيها بين ملابسك؟ انتشلها واطعني. أخشى أن تزج في السجن، وتسأم ليفيا نفسها في منزلك.

ساد صمت. تأمل فينيكوس بترونيوس قليلاً، ثمّ قال:

ـ سامحني! أنا أحبّ ليفيا، وما حدث قدْ أربك مشاعري.

ـ تصوّريا فينيكوس ، أمس الأول قلت للقيصر: ابن عمتي واقع في حب فتاة مسكينة ترعرع في منزل أولوس في أجواء من المعاناة والشكوى، وأنت أيها القيصر، وأنا الخبيرين بالجمال الحقيقي ـ لاندفع لأجلها حتّى ألف سستريوم ، لكنّها قدْ أخذت بلب الفتى حتّى هام بها في النهاية.

ـ بترونيوس!

إن كنت لا تصدّق، فسأثبت لك أني قلت الحقيقة. قمت أولاً بإقناع صاحب اللحية الحمراء أن محبًا للجمال مثله، لا يُمكن أن يرى اثرًا للجمال في هذه الفتاة. و نيرون الذي لمّ يُنظَر إلى الأشياء حتّى الان الا بعيني أنا، لن يراها. جميلة. ومادام لا يراها كذلك، فلن يرغب فيها. كنا في حاجة لأن نحكم وثاق القرد لكي نأمن جانبه. والان ليس هو من سيعاين جمال ليفيا الحقيقي، بل بوبيا التي ستؤمن إبعادها من القصر بأسرع ما يُمكن. لك الحق في ذلك، لأن الفتاة رهينة. إن تفعل ذلك، ستوجه صفعة لأولوس. وافق. لمّ يكن لديه أدنى سبب للرفض، خاصة وقدْ منحته فرصة للثأر من الناس الطيبين. سوف يوكلون اليك مهمة الحارس

الرسمي للرهينة، وسيضعون بين يديك هذه الثروة الليغوية. وإنك كحليف للمحاربين الليغويين، وخادم أمين للقيصر في ذات الوقت، لن تفرط بهذه الثروة، بل ستعمل على صونها، وترعى ذريتها. القيصر سيحتفظ بها بضعة أيام كغطاء شكلي على مرأى الآخرين، ثمّ يرسلها اليك أيها الشاب المحظوظ.
أصحيح هذا؟ ألا يهددها شيء في منزل القيصر؟
حتمًا لا يعيش في القصر عشرة آلاف شخص. حتّى أن القيصرلن يراها. خاصة وأنه قدْ أوكلني بكل شيء، وأن قائد الدورية أخبرني بأنه أودعها لدى أكتي. أكتي نفس طيبة. لهذا جعلتها بين يديها. كانَ لبومبونيا الرأي نفسه، فكتبت لها رسالة توصية. تقام غداً مأدبة في القصر، وأنت من المدعوين. وقدْ حجزت لك مكاناً إلى جانب ليفيا.
ـ عزيزي. سامحني على ما يبدر مني من سلوك عنيف. ظننت أنك قدْ تدبرت أمر اختطافها، من أجلك أو من أجل نيرون.
فرد بترونيوس قائلاً:
ـ سلوكك العنيف مصفوح عنه. لكنّ تصرفك الريفي الساذج، وصراخك الأخرق، وصوتك الذي يذكر بالمتسكعين، كلها أمور يشق الصفح عنها، لأنها صفات لا أحبذها. حذار يا فينيكوس! ليكن في علمك أن قواد القيصر هو تيغالينوس. وليكن في علمك أيضاً أنني لو أردت ليفيا لنفسي لقلت لك بصريح العبارة: "سآخذ منك ليفيا يا فينيكوس، وستظل محظيتي حتّى أملها".
وأطلقت عيناه البنيتان نظرة حادة كادت تخترق عيني فينيكوس، وأوقعته بالحرج، فبادر إلى الاعتراف قائلاً:
ـ أنا المخطئ. وأنت شخص طيب نبيل النفس. أشكرك من أعماقي. لكني سأسالك سؤالاً أخيراً، كيف لمّ ترسلها إليَّ مباشرة؟
لأن القيصر يحرص على المظاهر. سوف يتناقلون خبرها في سائر أنحاء روما. وبما أنها رهينة، ستبقى في قصر القيصر مادام اللغط قائماً، وبمجرد أن ينتهي سترسل اليك بكل هدوء، وتنتهي القصة تماماً. صاحب اللحية الحمراء كلب جبان، يعلم أن سلطانه بلا حدود. وعلى الرغم من ذلك فهو يقيم اعتباراً لكل شاردة، ويضفي عليها الغطاء المناسب: هل هدأ بالك، وصار بوسعنا أن نتفلسف قليلاً؟ فكرت كثيراً أسال نفسي: ما السبب أن الشرّ، كلما كانَ ضخمًا كالقيصر مثلاً، ورغم ثقته بأنه سيبقى غير مدان، فإن يسعى إلى أن يضفي على نفسه صبغة من العدالة والحق والفضيلة؟ لمّ كل هذا العناء؟ إن قتل الأخ، والأم، والزوجة، أجدى أن يقوم به ملك أسيوي، لا القيصر. لو يحدث لي مثل هذا، فلن أكتب رسالة للسيناتور لانقاذي. لكنّ نيرون يكتب. نيرون يبحث عن المظهر لأنه جبان. أمّا تيبريوس فلم يكن جبانًا، ومع ذلك كانَ يحاول أن يجد تفسيرًا لكل ما قام به من أفعال. لمّ تجري الامور هكذا؟ غريب هذا الولاء العفوي للشر في مواجهة الفضيلة. أتدري ما جوابي؟ لأن الشر قبيح، والفضيلة جميلة. إن الفنان الحق فاضل بالضرورة. أنا إنسان فاضل. علي اليوم أن أضحي، وأهرق قليلاً من النبيذ على روح كل من جورجيلس، و بروتاغوراس، و بروديكوس. أرى أننا نجني فائدة حتّى من السفسطائي. إسمعني فلدي مزيد من الكلام. أخذت ليفيا من منزل أولوس لأهديك إياها. حسناً لكنّ ليسيبوس قدْ ينحت لكما مجموعة رائعة من التماثيل. كلاكما فائق الجمال، وهذا السبب يجعل ماقمت أنا به من أجلكما جميلاً وبما أنّه جميل يستحيل أن يكون قبيحًا أنظر يا ماركوس، أمامك الان ترقد الفضيلة مائلة جسد بترونيوس لو كانَ أريستيدس حياً لجاء الي الان متوسلًا لأحاضر لهُ عن الفضيلة.
لكنّ فينيكوس كانَ همه الحقيقة أكثر من المحاضرة حول الفضيلة، فقال: غداً سألتقي ليفيا وسوف تقيم في منزلي دوماً حتّى الممات.

ـ لك ليفيا، ولي أولوس الذي سيظل يلاحقني بنقمة كل الهة العالم السفلي. لكنّ على الأقل، قدْ يتلقن ذلك البهيم درسًا في التهذيب واللباقة في الحديث. لا. لا. هو شخص لا يعرف إلا أن يُطلَق الشتائم، مثل حاجبي الواقف عندَ بابي، لا يكف عن تعنيف زبائني، ولذا الحقته بالمركز التأديبي للعبيد في الريف.
جاء إلى أولوس ووعدته بنبأ عن ليفيا.
ـ أكتب لهُ إن إرادة القيصر الرباني من القوانين التي لايعلى عليها. وقل لهُ إن مولودكما الأول سيكون إسمه أولوس. لابد من فخ للعجوز.
أنا مستعد لأطلب من صاحب اللحية الحمراء أن يدعوه إلى مأدبة الغداء، ليراك جالساً قرب ليفيا.
ـ لا تفعل. أنا أشفق عليهما بومبونيا خاصة.
ثمّ جلس ليكتب الرسالة التي جردت القائد الحربي من أخر آماله.

كانت أكتي عشيقة نيرون السابقة. وكان ينحني أمامها كبار رجالات روما. لكنّها لمّ تكن في ذلك الحين، ترغب في التدخل في الشؤون العامة. وإذا ما صادف آنذاك و استغلت ما تتمتع به من تأثير على الحاكم الشاب، فقد كانَ ذلك من باب الشفاعة لأحدهم أمامه. كانت هادئة، ومتواضعة، إستحقت امتنان الكثيرين، ولم تنشئ أعداء، حتّى أكتافيا لمّ تضمر لها الكراهية. و لمّ يعتبرها الحساد بذات خطورة على الإطلاق. عرفوا عنها أنها مازالت تكن لنيرون حباً حزينًا أليما، مفعماً بالذكريات لا بالآمال. حين كانَ نيرون شخصاً أفضل واصلح عرفوا أن روحها، وبالها، لا يستطيعان الانفصال عن تلك الذكريات، لكنّها الان لمّ تعد تنتظر شيئاً وبما أنها قدْ يئست من عودة القيصر اليها، فقد رأوا فيها مخلوقة عزلاء تماماً، فتركوها وشأنها. اعتبرتها بوبيا خادمتها البكماء المسالمة، فلم ترغب في إبعادها عن القصر.

ولكن، بما أن القيصرقد أحبها ذات يوم، فقد انفصل عنها بهدوء، ودونما غضب منها، حتّى يُمكن القول بكل الود والصداقة. أطلق نيرون سراحها، ومنحها مسكنًا مستقلاً في القصر، وبعضا من الخدم، و الخادمات. وبما أن بالاس و نارسيزوس كانَ معتوقي كلاوديوس في ذلك الحين، فقد احتلا مكانيهما على مائدة كلاوديوس باعتبارهما وزيرين رفيعي المستوى، حق لهما أن يدعوا أكتي أحياناً إلى مائدة القيصر. لعل سبب الدعوة جمالها الذي يصلح أن يكون ديكورًا حقيقياً في المأدبة. وعلى أية حال، لمّ يكن انتقاء النخبة من جلساء نيرون على المائدة، يخضع لأي اعتبار. فكان هنالك شتى المراتب والشخصيات الاعتبارية، والسيناتورات، لكنهم في الغالب ممن هم على استعداد ليلعبوا دور مجانين البلاط. ويصادف بينهم من قصدوا المأدبة حباً بالترف، أو طلباً للاستمتاع ، واستقراطيون شبان، وشيوخ راغبون في العربدة واللّهو. حضرت نساء بأسماء كبيرة، ورغم ذلك لا يتورعن كل مساء أن يضعن على رؤوسهن أرخص الباروكات المبتذلة، ويجلن ليلاً في الشوارع المظلمة بحثًا عن مغامرات تسليهن.

وكان هنالك موظفون ذوو مراتب رفيعة، وكان إلى جانب كؤوسهم المليئة جلسوا يهزؤون من الهتهم، يحيط بهم مغنون، وممثلون، وعازفون، وراقصون، وراقصات، وحشود من الشعراء من بينهم من راح يُلقي أشعارًا في مديح أشعار القيصر تكسبًا لبعض المال، وفلاسفة معوزون هزيلو الأجساد تتبعوا بوجوه نهمة، المأكل المفروشة على الموائد، وقواد عربات ذو شهرة واسعة، ورجال أعمال، وفنانون، وسحرة، وحكواتية، وهزليون، ومتسكعون،.مختلف الأزياء والحماقات، من بينهم ذو الشعور الطويلة المنسدلة فوق الآذان لتخفي ثقوبها الدالة على عبوديتهم.

الفئات الأرقى توجهت إلى المائدة مباشرة. والفئات الأدنى مرتبة راحت تسلى المدعوين بانتظار اللحظة المناسبة ليقودهم طاقم الخدم إلى الأطعمة والمشروبات. مثل هذه الفئة من الضيوف مثلها تيغالينوس و فيتيوس، و فاتينوس الذين غالباً ما كانَ عليهم أن يرتدوا لباسًا لائقًا بالمقام قبل الدخول إلى قاعات القيصر. كانَ القيصر يحب مثل هذه الفئات، لأنه يشعر أنّه أقل توترًا وأكثر اريحية بين أفرادها.

لقد أضفى الترف الذي يعم البلاط، المرح والبهجة على كل شيء، وغمر بالاشراقة والغبطة كل من وفد إلى البلاط من علية القوم والعامة الذين يملأون شوارع المدينة، والفنانين الكبار، والمواهب المتسكعة ذات المشاعر المقهورة، ليتحفوا أعينهم بالاحتفال القمة الذي يفوق كل تصوّر إنساني، ولتسنح لهم الفرصة كي يشاهدوا عن كثب ذاك الذي بمقدوره أن يمنح كل شيء، الثروات والخيرات والشفاعات، ونزوة منه قدْ تنزل أي امرئ إلى أسفل السافلين، أو ترفعه إلى أعلى عليين.

في مثل هذا اليوم، كانَ على ليفيا أن تحضر الوليمة. لكنّ الخوف، وانعدام الثقة، ولعبة القدر المباغتة، كانت أسبابًا أوقعتها في الدوار والحيرة.

لقد خافت القيصر، خافت الناس، خافت القصر الذي أجفلتها ضوضاؤه. خافت المأدب التي وصلتها الأنباء

من قبل أولوس و بومبونيا وأصدقائهما عن وضاعتها. ولكونها فتاة في مقتبل العمر، لمّ تكن الأمور على قدر كاف من الجلاء في ذهنها. خاصة وأنها في سني طفولتها،قدْ أشبعت بسماع الامور الرديئة. كانَ كل ما تعرفه أن ما يجري في هذا القصر مصدر تهديد لها حذرتها منه بومبونيا قبل الفراق. إذن، بما أن روحها روح طفلة لمّ يمسها فساد الدهر بعد، وبما أن أمها التي ربتها قدْ زودتها ببعض التعاليم الصارمة، فقد وعدت أمها، و نفسها، ومعلمها الإلهي الذي لا تؤمن به فحسب بل تحبه كذلك التعاليمه القيمة، وموته الأليم، وما قام به من ثورة جيدة، و لقلب الطفل فيه. وفضلاً عن أنها كانت واثقة تماماً في أن أولوس و بومبونيا لمّ يعودا مسوؤلين عن تصرفاتها. فهل من الأصلح لها إذن أن تمتنع عن حضور المأدبة؟ أم العكس هو الصحيح. إصطرعت بين خوفها وقلقها من جهة، وبين رغبتها الشديدة في إثبات جرأتها، ورفضها و استعدادها لتلقي التعذيب والموت إذا ما اقتضى الأمر كذلك. خاصة وأن المعلم الإلهي قدْ أمر بذلك، وقدم نفسه مثالاً حياً على ما أمر به. وخاصة أيضاً أن بومبونيا قالت لها إن الأكثر حماسة وصلابة من بين أخوة المعتقد هم من تمتلئ نفوسهم بالتوق نتيجة المعاناة، وهذا ما يدفعهم للصلاة.

كانت ما تزال في منزل أولوس حين كانَ يراودها بين فترة وأخرى، توق لاهب كهذا التوق. رأت نفسها شهيدة ناصعة البياض ضرجت بالدم والجراح، ذات جمال لا كالجمال الأرضي، كما لو أن ملائكة بيضاً يمضون بها نحو السماء الزرقاء.

بمثل هذه التخيلات والرؤى كانت متعتها. كانت تخيلات طفولية، لكنّ فيها نوعاً من الزهو الذي استحقت عليه التوبيخ من قبل بومبونيا. والآن حين كانَ يُمكن للسلوك الرافض لأمر القيصر أن يواجه بأشد العقاب، وللمعاناة آلا تبقى محض تخيلات فقط، و تستحيل إلى واقع فعلي، فلقد انضاف إلى تلك الرؤى والرغبات الجميلة شيء من الأماني المشوبة بالمخافة، ترى أي عقاب سيلحق بها، وأي طرق للتعذيب ستمارس عليها؟

كانت مازالت تتأرجح بين الاحتمالين المصطرعين في داخلها الطفولي. ولما علمت أكتي باضطرابها هذا، من خلال حديث الفتاة الهذياني معها، رمقتها بنظرات الاندهاش والاستغراب. كيف يُمكن أن تخالف إرادة القيصر وتفسح المجال لنقمته منذ اللحظة الأولى؟

لاريب في أنّه سلوك لا يصدر إلا من طفلة لا تدري ماذا تقول. وها هو ذا حديث ليفيا يدل على أنها ليست رهينة، بل فتاة عادية تناست قومها، فما عاد.مقدور أي قانون حقوقي أن يحميها.

وحتى لو كانَ هنالك ما يحامي عنها، فالقيصر على قدر من القوة و السلطان، إذا ما غضب، أن يطوحها بين الأقدام. لقد أعجبت القيصر فكرة أن يأتي بها، وتكون في عهدته منذ اللحظة الأولى. صار مصير ليفيا رهن إشارة القيصر التي لاتعلوها إرادة في سائر الكون.

تابعت أكتي تقول:

- أجل. أنا كذلك قرأت رسائل بولس الترسوسي. وأعرف أن الله في السماء، وكذلك ابنه الذي قام من الموت، وأن لا وجود في الأرض الا لقيصر. لا تنسي هذا يا ليفيا. وأعرف أيضاً أن معتقدك لا يسمح لك أن تكوني كما كنت أنا. أنتم مثل الستو كوسيين الذين حدثني عنهم أبيكتتوس، وإذا ما خيرتم مابين العار، والموت، ستختارون الموت. لكنّ هل أنت على يقين بأن ما ينتظرك هو الموت وليس العار. ألم تسمعي.ما حل بابنة سيانوس العذراء التي بأمر من تيبريوس، وصمت بالعار قبل موتها. وذلك من أجل ألا يقفزوا من فوق القانون الذي يحظر إعدام العذارى؟

لا تثيري القيصريا ليفيا! إذا ما جائت اللحظة الحاسمة، وكان عليك أن تختاري مابين العار، أو الموت، فافعلي ما يأمر به وجدانك، لكنّ لا تجري جريا وراء موتك، ولا تبحثي عنه، ولا تثيري هذا الاله الأرضي الرجيم لأسباب تافهة.

كانت أكتي تتكلم بشديد الأسف والشفقة، وبما أن بصرها قدْ صار ضعيفاً منذ مدة، فقد قربت وجهها من ليفيا، كأنما أرادت أن تتبين مدى الوقع التي أحدثته كلماتها، في حين أتيح للفتاة أن تلف عنق أكتي بذراعها قائلة لها بثقة طفولية:
ـ أنت جد طيبة يا أكتي.
فما كانَ من أكتي الا أن ضمتها إلى صدرها وقالت:
ـ سعادتي، و ابتهاجي، أودعتهما للماضي، لكني لست بالسيئة. وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا وكأنما كانت تحدث نفسها بدافع القنوط.
ـ أبدًا، حتّى هو لمّ يكن شيئاً. كانَ يظن أنّه صالح، وأراد أن يكون صالحًا. أنا من يعرف ذلك. ما حصل لهُ، لمّ يحصل الا بعد أن صار لا يحبني... الآخرون هم الذين غيروه إلى ما هو عليه الان... الآخرون، و بوبيا.
وامتلأت عيناها بالدموع. وكذلك فعلت عينا ليفيا الزرقاوان، ثمّ قالت:
ـ أتأسفين من أجله يا أكتي؟
ـ أجل
أجابت الإغريقية، واستأنفت تسير في الغرفة حائرة، ضامة قبضتيها بألم. فقالت ليفيا وجلة:
ـ أمازلت تحبينه يا أكتي؟
ـ أحبه
وأضافت بعد قليل:
ـ لا أحد يحبه سواي...
ساد صمت حاولت أكتي في أثنائه استعادة سكينتها التي أربكتها الذكرى. وحينما استرد وجهها تعابير الحزن المألوف قالت من جديد:
ـ دعينا نتحدث عنك يا ليفيا. لا تفكري بمعاكسة القيصر.جنون. الزمي الهدوء. أعرف هذا المنزل جيداً. أزعم أن لا شيء يهددك من قبل القيصر. لو كانَ نيرون قدْ اختطفك لأجله شخصيًا لما أتوا بك إلى القيصر. بوبيا هي صاحبة النفوذ هنا. ومنذ أن أنجبت مولودها وكان بنتاً، صار نيرون تحت سلطانها أكثر فأكثر. لا. صحيح أن نيرون هو من طلب أن تكوني في المأدبة، لكنه لمّ يشاهدك حتّى الآن، ولم يسأل عنك. إذن فهو لا يهتم لأمرك. كل ما هنالك أنّه غاضب من أولوس و بومبونيا، فأراد أن يعاقبهما. كتب لي بترونيوس أن أضعك تحت رعايتي. وأنت تعلمين أن بومبونيا كتبت لي لنفس الغرض. الأرجح أنهما متفقان على ذلك. لعل ما كتبه بترونيوس كانَ بناء على طلب بومبونيا. فإذا كانَ هذا ماقد حصل، فلا خوف عليك من شيء يهددك. لكنّ من يعلم إن كانَ نيرون لن يطلب إعادتك إلى منزل أولوس بناء على نصيحة من بترونيوسي؟ لا أدري إن كانَ نيرون يحبه كل هذا الحب، لكنّ الأكيد أن من النادر أن يأخذ برأي أحد كرأيه.
أجابت ليفيا:
ـ آه، صحيح، يا أكتي. لقد كانَ بترونيوس عندنا قبل أن يأخذوني.
وأمي واثقة أن نيرون طلبني بعد أن كلمه بأمري.
علقت أكتي قائلة: هذه مسالة شديدة السوء.
وتابعت بعد تفكير:
ومن المحتمل أيضاً أن يكون بترونيوس قدْ ذكر أمام القيصر على العشاء أنّه رأى في منزل أولوس رهينة ليغوية، فطلبك القيصر حرصًا على حكمه، لأن الرهائن تحت رعايته. إضافة إلى أنّه لا يُحبّ كلاً من

أولوس و بومبونيا. لا أظن أن بترونيوس سيلجأ إلى هذه الطريقة، لو أنّه أراد أن يأخذك من أولوس. لا أدري إن كانَ بترونيوس أفضل من كل حاشية القصر، غير أنّه يختلف عنهم تماماً. وترقبي خيرًا عسى أن تعثري على أحد سواه يرفع صوته لأجلك أمام القيصر.
الم تتعرفي في منزل أولوس على أحد ما مقرب من القيصر؟
- أكثر من مرة رأيت فسبيانوس و تيوس هناك.
- لا يحبهما القيصر.
- ورأيت سينيكا.
- أية نصيحة يقدمها سنيكا للقيصر يفعل نيرون ما يغايرها كليًّا.
كست الحمرة وجه ليفيا الأبيض.
- ورأيت فينيكوس...
- لا أعرف من يكون.
- قريب بترونيوس. عاد لتوه من أرمينينا
- أتظنين أن نيرون يحبه؟
- الجميع يحبون فينيكوس.
- وهل هو على استعداد لأن يتكلم من أجلك؟
- أجل
ابتسمت أكتي بحنان، وقالت:
إذن سوف تلتقينه حتماً في المأدبة. عليك بالحضور لسببين. أولاً لوجوب حضورك، ولا يخطر إلا على بال طفل ما ينافي ذلك. ثمّ، إن كنت ترغبين في العودة إلى منزل أولوس!، تتوجهين بطلبك إلى كل من بترونيوس و فينيكوس. لوكانا الآن هنا لسمعت منهما أن من الخيل والجنون تشبثك بالرفض. قدْ لا يشعر القيصر بعدم حضورك، لكنه لو خطر لهُ ذلك، واكتشف أمرك، فلا مناجاة لك. تعالي ياليفيا... أتسمعين كل هذا الصخب في المنزل؟ الشمس أشرفت على الغروب، وبدأ المدعوون يتجمَّعون.
أجابت ليفيا:
- أنت محقة يا اكتي. قبلت نصيحتك.
ولكن، في قرارها هذا، أي دور قدْ لعبته رغبتها في ملاقاة فينيكوس و بترونيوس، وكم كانَ فيه من الفضول النسائي لحضور مأدبة هو الأول من نوعه في حياتها، حيث يمكنها هناك أن ترى القيصر، والبلاط و بوبيا الشهيرة، وأمورًا مدهشة أخرى، وتشاهد عن كثب هذا الاحتفال الأبهة الذي يقضون عنه الأعاجيب في روما. أي دور لِرَغَائِبِها في كل ذلك، هي نفسها لا تدري. لكنّ أكتي في كل الاحوال محقة، وهذا ما لمسته الفتاة جيدًا. عليها إذن أن تكون في المأدبة.
وفي نهاية المطاف إذن، حين تضافر الإرغام، واتزان العقل على هزيمة الغواية الخفية، أغلقت فمها وركنت.
لقد فطر جمال الفتاة وبراءتها قلب أكتي، فاصطحبتها إلى جناحها الخاص لكي تعطرها، وتلبسها الثياب. وبما أن منزل القيصر يكتظ بالنساء العبدات، فقد كانت حاشية كثيرة العدد منهن في خدمة أكتي.
قررت أن تلبس الفتاة بنفسها. وسرعان ما تبين أن هذه الشابة الإغريقية تمتاز، إلى جانب ما يلفها من حزن ورصانة، بأنها قدْ اطلعت على رسائل بولس الترسوسي. وقرأتها. وبوافر من خصائص الروح الهيلينية القديمة التي يعنيها الجمال الجسدي أكثر من أي شيء آخر في الكون، قامت بتعرية ليفيا، وحين لمست أعضاء جسدها الشفافة لكنّ المكتنزة أيضاً، وكأنها أخرجت من بين اللالئ والورود، لمّ يكن بمقدورها أن

تكظم دهشتها. صرخت ذاهلة، ثمّ تراجعت قليلاً إلى الخلف، وراحت تتأمل هذه الظاهرة الربيعية الخارقة. قالت أخيراً:

ـ ليفيا أنت أجمل من بوبيا بمئة مرة.

لكنّ ليفيا قدْ ترعرعت في منزل بومبونيا الصارم، حيث كانَ التواضع ساريًا إذا ما خلت النساء لبعضهن. وهاهي ذي تقف هنا الآن مذهلة إذهال حلم بديع، ومتناغمة تناغم تمثال هو مثال في الكمال، وحلوة حلاوة أغنية، لكنّها مرتبكة، مطرقة، مطبقة الجفون، تكسو وجهها حمرة الحياء، وقدْ ألصقت ركبتيها، وغطت صدرها بيديها. وأخيراً رفعت يديها بحركة خاطفة، وانتزعت دبوس شعرها، وبحركة واحدة من رأسها جعلته ينغمر بشلال شعرها الذي انسدل كوشاح. اقتربت أكتي منها وقالت وهي تلمس شعرها الداكن:

ـ أوو. يالروعة شعرك.لن أنثر عليه بودرة ذهبية. فاللون الذهبي يتلالا في ثناياه. يكفي أن أضفى عليه لمعة ذهبية خفيفة هنا وهناك للتأنق فقط. لابد أن بلاد الليئوس بلاد رائعة تنجب فتيات من أمثالك.

فأجابت ليفيا:

ـ لا أذكر تلك البلاد. حدثني أرسوس قائلاً إنها محض غابة خضراء. غابة وراء غابة.

ـ وفي الغابة تتفتح الأزهار أضافت أكتي وقدْ غمست أصابعها بزيت الفيربينا، ورطبت به شعر ليفيا.

وبعدئذ دهنت برفق كامل جسدها بالزيوت العربية الفواحة، ثمّ ألقت عليه رداءً خفيفًا ذهبي اللون، بلا أكمام، وألبستها فوقه ثوباً من البوبلين الأبيض. وجاء دور تسريح الشعر، فلفتها بصدارة فضفاضة، وأجلستها على كرسي، وسلمتها لوقت قصير للخادمات العبدات لكي تتأمل هي بنفسها التسريحة عن بعد.

ثمّ قامت عبدتان بإدخال قدميها بفردتي البابوج الأبيض الموشى بالأرجواني، وصالبت شريطيه الذهبيين حول رسغيها المرمريين. ووضعت أكتي اللآلئ حول جيدها، و مسحت شعرها ببودرة الذهب. ثمّ أمرت أن تلبسها الخادمات الشباب على مرأى من عينيها.

وسرعان ما صارت جاهزة. وما إن بانت الهوادج الأولى عندَ المدخل الرئيسي حتّى كانت أكتي و ليفيا قدْ دخلتا الرواق السري المشرف على المدخل والغاليري الداخلي، والباحة ذات العمدان الرخامية.

وشيئاً فشيئاً بدأ المدعوون يفدون عابرين من تحت قنطرة المدخل، العالية التي تتربع فوقها مركبة ليسياس الثنائية الفخمة المتأهبة للطيران في الجو على متنها أبولو و ديانا. لقد أذهلت ليفيا أبهة هذا المشهد الذي لمّ يزودها منزل أولوس بأدنى فكرة عنه.

كانت الشمس تغرب لتوّها، وتتلامع أشعتها الأخيرة ذهبية مشوبة باللون الوردي، فوق العمدان الرخامية وتماثيل الآلهة والأبطال، وحشود البشر من إلى الرجال والنساء. كانَ أحد تماثيل هرقل العملاقة يراقب الحشود من عل علوي سابح في الضوء ونصف سفلي مغمور بالظل. دلت أكتي ليفيا على السيناتورات ب الأردنية الملونة، والحواشي العريضة، والصنادل الموشاة بأشكال هلالية. وعلى الفرسان، والفنانين ذوي الشهرة، والنساء الرومانيات بأزيائهن الرومانية، أو الإغريقية، أو المقتبسة من الفنتازيا الشرقية، وقدْ وضعن فوق شعورهن أزهاراً للزينة، أو أبراجًا، أو أهرامات، أو تركنها منسدلة كتماثيل الالهات. وقدْ ذكرت أكتي العديد من أسماء الرجال والنساء، واختصرت بعض حوادثها الرهيبة التي أذهلت ليفيا، وملأتها بالخوف. كانَ عالماً فريدا بالنسبة لها، تلقفت عيناها بنهم مافيه من جمال، لكنّ عقل الفتاة الصغيرة لمّ يتقبل خلاف ذلك. كانَ قسط كبير من السكينة يقبع في حمرة الغروب السابحة في السماء، وبين صفوف العمدان الطويلة، وفي هذه التماثيل البشرية كأنما لا وجود بينها الا لنصف اله سعيد ومسالم. لكنّ أكتي كشفت أسرارًا أخرى خبيئة تخص القيصر وهؤلاء البشر. دم كاليغولا المقتول مازالت آثاره حتّى الان تبقع رخام أعمدة المركبة الثنائية وقاعدتها، إثر هجوم قام به كاسيوس و قتلت فيه زوجته، وسحق رأس ابنه فوق الحجارة. وهنالك في ذلك الجناح سجن في القبو زج داخله دروسوس الشاب، وكان يعض يديه جوعًا،

وقتل فيه والده العجوز، وانهار فاميليوس تحت نوبات الهلع والتشنج. وفي مكان ما في ذلك السجن لاقى كلاوديوس و جرمانيكوس أبشع أنواع التعذيب. كل هذه الجدران أصغت إلى أنين المحتضرين وتوجعاتهم. وهؤلاء الناس الذين ترينهم يتوافدون إلى المأدبة بأفخم الدروع، والأردية، ليسوا في منأى عن الخطر، وقد تصدر بحقهم غداً عقوبة الإعدام. ولعلّ الابتسامة المرتسمة فوق وجوههم تخفي، فضلاً عما في قلوبهم من خشية واضطراب، كثيراً من مشاعر القلق ليوم غد. ولعل هؤلاء الأنصاف آلهة الذين يبدون سكينة واطمئناناً ظاهريين، لا يبطن قلوبهم الا الحسد والجشع والحرقة. لم يكن بمقدور ليفيا التي أصابها الذعر أن تتابع ما تقوله أكتي. وبقدر ما كان هذا العالم العجيب يزداد جاذبيّة أمام ناظريها، كان قلبها ينبض، ويشتد حنينها إلى منزل بومبونيا وأولوس، حيث الامان والحب هما السائدان هناك، وليس الحساب والعقاب.

تعاظمت أمواج الوافدين، واشتدّت، وراء المدخل، الضوضاء وضجيج الاسياد ومرافقيهم، وعجت الباحة والعمدان بعبيد القيصر، وعبداته، وفتيانه، وحراس القصر الامبراطوريين. وكان هنالك بين الوجوه البرونزيّة، والبيضاء، بعض الوجوه الزنجيّة السوداء ذات الخوذ من الريش، وأقراط حلقيّة كبيرة في الأذان، حملت الأعواد والقيثارات، والزهور والمصابيح اليدويّة من الذهب والفضّة والنحاس.

اختلط صخب الأحاديث المتعاظم مع صوت انسكاب الماء من النافورة على الأرض الرخاميّة.

كانت أكتي قد كفت عن حديثها، وظلت ليفيا تحول بنظرات حادة كأنما تبحث عن أحد ما في الجموع. احتقن وجهها فجأة بالحمرة ما إن لمحت بين العمدان كلا من بترونيوس وفينيكوس بلباس التوغا، وهما يتقدمان بتؤدة مثل الهين أبيضين واثقين نحو التريسيلينيوم الكبير.

انزاحت صخرة كبيرة عن قلب ليفيا حين وقعت عيناها بين الحشد، ورأت هذين الوجهين الصديقين الانيسين، وخاصة فينيكوس. لم تعد تشعر أنها غريبة كل هذا الحد، وخفت وتيرة حنينها الشديد إلى منزل بومبونيا، وكف أن يكون حنينا له كل ذلك الايلام. استحوذت عليها فرصة أن ترى فينيكوس وتتحدّث إليه، وأزاحت كل ما عداها من أصوات في داخلها وأخمدت حتى ما قالته لها أكتي، وما طرق أذنيها من تخذيرات بومبونيا، وما تردّد أمامها من أخبار، ورذائل البيت القيصري. وبالرغم من كل هذه الأقوال والتحذيرات، فقد باتت تشعر الآن أنها تخون كل تعاليم نقيّة قد نشأت عليها، وتخون بومبونيا، وتصل إلى حد خيانة نفسها أيضاً.

الخضوع للإكراه شيء، والابتهاج له شيء آخر. شعرت بالذنب والضعة، والضياع. ساورتها الحيرة، وودت لو تبكي. ولو كانت لوحدها الان لجثت على ركبتيها وراحت تضرب على صدرها مرددة "أنا مجرمة، مجرمة كبيرة".

والآن أمسكت أكتي بيدها، وقادتها عبر الغرف الداخليّة نحو التريسيلينيوم الكبير، حيث يفترض أن تقام المأدبة. أما هي فحارت عيناها وطنّت أذناها من شدّة انفعالها الداخلي، وكادت انفاسها أن تتوقف من شدّة خفقان قلبها. وكأنما هي في حلم كانت تسمع نداء القيصر محيياً الحضور. ورأت نفسها غارقة في الضباب. لقد أصمّها نداء القيصر، وذهبت الأنوار ببصرها، وأصابتها الروائح بالدوار، وفقدت ما تبقى من وعيها، فلم تتعرف إلّا بمشقة أكتي وهي تجلسها إلى الطاولة وتجلس إلى جانبها.

وبعد قليل جاء صوت عميق مألوف من الجهة الأخرى:

ـ لك التحيّة، يا أجمل عذروات الأرض، ويا أجمل نجوم السماء، لك التحية يا كالينا الإلهيّة.

التفتت ليفيا فرأت فينيكوس إلى جانبها. لم يكن يرتدي التوغا، لأن العادة تقتضي نزع هذا الرداء في المآدب، حرصاً على الراحة هناك. اكتفى بتونيكا قرمزيّة بلا أكمام، موشاة بشجرات نخيل فضيّة. وعلى الطريقة الشرقيّة علق بذراعيه العاريين فوق المرفقين واقيين مذهبين للزينة.

كان مكتنز العضلات، حليق الساعدين الاملسين اللائقين، يحمل السيف والترس. توج رأسه إكليل من الورود. لقد بدا بحاجبيه الكثين، وعينيه الرائعتين، وشعر وجهه البني، جسداً مسبوكاً بالفتوة والعزيمة رأته ليفيا وسيماً إلى حد جعلها تتأتّى في الرد قائلة:
ـ تحية لك يا ماركوس.
فتابع الشاب:
ـ ما أسعد عيني إذ رأتاك، وما أسعد أذني إذ بمقدورهما سماع صوتك الأعذب عندي من صوت الناي والقيثارة. لو كان عليّ أن أختار من سيجلس إلى جانبي في المأدبة، أنت أم فينوس لاخترتك يا ليفيا الإلهيّة.
نظرت اليه كأنما تريد أن تلتهمه بعينيها، فذوّبته إعجاباً.
انزلقت نظراتها ملاطفة، مستمتعة، معانقة، راشفة وجهه وعنقه، وساعديه العاريين، وعضلاته البديعة. لكنها إلى جانب ما تولّد فيها من رغبة لم تستطع كتمانها، فقد غمرها شعور عارم بالسعادة والحب، والنشوة.
تابع الشاب:
ـ كنت أعرف أنني سأراك في منزل القيصر. وعلى الرغم من ذلك، حين لمحتك اهتز كياني من فرط السعادة، كأن سعداً مباغتاً قد حطّ أمامي.
وحين استعادت ليفيا وعيها، شعرت أن هذا الشاب هو المخلوق الوحيد المقرّب منها من بين كل هذه الحشود هنا. انسجمت في حديثها معه، وسألته عن كل ما دار في ذهنها ممّا لم تفهمه، أو يبعث في نفسها الخوف والخشية. كيف عرف أنه سيلتقيها هنا في منزل القيصر؟ إنها خائفة هنا، وتريد العودة إلى بومبونيا، وإنها ستموت من شدة الشوق، والاضطراب، لولا أملها بأن بترونيوس بالتعاون معه سيفعلان شيئاً لدى القيصر.
أوضح لها فينيكوس بأنه لم يعلم بأمرها إلّا من قبل أولوس، وأنه أبداً لا يدري سبب وجودها هنا. فالقيصر لا يناقش أحداً في توصياته، وأوامره. طمأنها بألّا تخاف، وأنه سيبقى إلى جانبها. الأجدر به أن يفقد بصره إن كان لن يراها، وأن يفقد حياته ولا يفقدها. وسوف يحرص على روح ليفيا حرصه على روحه. وسيعتبرها آلهته، وسيبني لها في منزله مذبحاً يملؤه بالرياحين، وفي الربيع بالاكتينيا وأزهار التفاح. أما إن كانت تخشى البقاء في القصر، فإنه يعدها بألّا تبقى هناك. وأنه لن يرفض لها طلباً بعد الآن.
ربما تكلّم بشيء من المكر، وبالغ في حديثه، لكن نبرة صوته وشت بصدق مشاعره. كان مواساة صادقة منه دلت أنه يذوب حبا لها. جمالها يستأثر بمشاعره، وهو راغب في أن يحظى بها، لكنه يشعر أنها عزيزة عليه إلى حد يستطيع حتى أن يعبدها كإلهة. شعر بحاجة لا تقاوم لأن يبوح عما يجول في نفسه، وأن يحدثها عن مدى جمالها، وأن يعبدها عبادة. لكن ضجيج المأدبة كان قد تعاظم، فاقترب فينيكوس من الفتاة، ووشوشها ببعض الكلمات الدافئة العذبة المنبثقة من أعماق النفس، فعلت فيها فعل النبيذ. ولقد أسكرتها فعلاً. شعرت ليفيا أن فينيكوس يزداد لطافة وقربا إلى نفسها، من بين جميع هؤلاء الغرباء الكثر. وإنها تثق به تماماً لأن الشاب متعلق بها. ولقد طمأنها واعداً إياها، أن يحررها من منزل القيصر، وألا يتخلى عنها، وأن يحقق لها كل ما ترغب فيه. وعلى عكس ما جرى حين تحادثا في منزل أولوس، حيث كان حديثه معها عن الحب والسعادة، لكنه الآن يفصح لها مباشرة بأنه يحبها، وأنها أغلى وألطف مخلوق بالنسبة إليه. الآن تسمع للمرة الأولى من فم رجل مثل هذه الكلمات التي غمرتها بالسعادة إلى جانب الطمأنينة، وجعلتها تظن نفسها في حلم لا في يقظة. بدأ وجهها يتوهج، وقلبها يخفق بشدة، وتباعدت شفتاها من كثرة الذهول. ساورها الخوف لسماعها مثل هذه الأمور، لكنها مع ذلك لا تقايض كلمة واحدة منها حتى بكل ثروات الأرض. كانت تغمض عينيها تارة، وترفع وجهها نحو الشاب تارة أخرى، لتبدي تعابير مرتعشة، مرتبكة،

عاجة بالتساؤلات، كأنما تريد أن تقول"مزيداً مزيدا". دوّخها الصخب والموسيقا، وعبق الأزهار، وروائح الابخرة العربيّة: جرت العادة في روما أن يضطجع المرء في المآدب جانب المائدة، فيما كان مكان ليفيا في المنزل بين بومبونيا وأولوس الصغير. أما الآن فإلى جانبها فينيكوس الفتى القوي المتوهج حبًّا، وها هي ذي تشعر بالحياء المشوب باللذة، إزاء ما بدر من الشاب من حرارة متدفقة.

شعرت بشيء لذيذ من الوهن والاسترخاء، والخفة، كأنما شالها الحلم وطار بها.

أحسّ فينيكوس بأن قرب ليفيا منه بدأ يفرض تأثيره عليه، فشحب وجهه، وتوسّع خيشوماه كحصان شرقي فحل. ودلّ تسارع أنفاسه على ضربات قلبه الشديدة تحت الرداء القرمزي. وتعثر نطقه بالكلمات.

ولا غرابة في ذلك، مادام يشعر للمرة الأولى بقربه الشديد من ليفيا.

اضطربت أفكاره، وأحس بسريان النار في عروقه، فلم يجده نفعاً احتساء النبيذ لإخمادها. ليس النبيذ ما أوقعه في الثمالة، وفاقم من سكره، بل وجه ليفيا البديع، وذراعاها العاريان، وصدرها العذري المتموج تحت ردائها الذهبي، وسائر جسدها المتواري في ثنايا قميصها البوبلين. وأخيراً أمسك بمعصمها، كما فعل مرة في منزل أولوس، وجذبها نحوه، وهمس لها بشفتين ترتجفان:

ـ أحبك يا كالينا الالهيّة

ـ دعني أرجوك.

لكن الشاب لم يتوقف عن الكلام، وقد غلّفت عينيه غشاوة ضبابية:

ـ كالينا الالهيّة! أحبيني أنت كذلك.

في هذه اللحظة رنّ صوت أكتي المضطجعة في الجهة الاخرى من ليفيا:

ـ القيصر ينظر نحوكما.

فما كان من فينيكوس على حين غرة، إلّا أن ثار غضباً ضد القيصر وأكتي. فما تفوهت به أكتي أفقده نشوة السكرة. وإن كان كلامها وديًّا، فقد اعتبره حتى هذه اللحظة عدائيًّا، وشعر أن أكتي تتعمد تعكير صفو حديثه مع ليفيا.

رفع رأسه، ومال من وراء كتف ليفيا ليقول للمعتوقة الشابة بغضب:

ـ مضى ذلك الزمن حين كنت تضطجعين في المأدبة إلى جانب القيصر.

ويقال عنك أيضاً إنّ العمى يهددك، فكيف تلمحينه؟

فأجابت الفتاة حزينة:

ـ رغم ذلك ألمحه... وهو أيضاً ضعيف البصر، لكنه ينظر إليكما من خلال الزمرّدة.

ما يفعله القيصر كان يولد اليقظة والاحتراس، حتى في أضيق أوساطه. من هنا نشأ قلق فينيكوس المشروع. هدأ واختلس النظرات نحو القيصر. وكذلك فعلت ليفيا بفضول، ووجل، رغم أنها لم تنظر ناحيته حتى الآن لانشغالها بالشاب وحديثه معها.

كانت أكتي تقول الحقيقة. مال القيصر فوق المائدة، وأغمض إحدى عينيه، ثم بإصبعين من أصابعه وضع المنظار الزمردي أمام عينه الثانية وراح ينظر اليهما. كانت ليفيا أول من شاهدها، فانفطر قلبها من الذعر. تذكّرت تنانين الحكايات في الطفولة. وأحسّت أن تنّينا أخضر العيون ينظر نحوها. ضغطت على يد فينيكوس كطفل مذعور، وتلاحقت الخواطر المزعجة في رأسها. إذن هذا هو! الرهيب، القادر على كل شيء. لم تقع عيناها عليه حتى الان. كانت تتصوره على شاكلة أخرى، وجها مرعباً، وممكناً للشرور. لكن ما تراه الان ليس الا رأس ضخمة تعتلي عنقاً ثخيناً. صحيح أن المشهد كان مريعاً، لكنه أيضاً مثير للضحك. لقد كان يبدو من بعيد برأسه هذه طفلاً حقيقياً. رداؤه أرجواني اللون مشتق من لون الحجر الكريم الجمشت، ولا يجوز لأحد غيره من الفانين أن يرتدي مثيلاً له. انعكس لونه على وجهه العريض القصير.

شعر داكن حسب موضة أوثو بأربعة صفوف من البكرات. كان حليق الذقن بعد أن ضحى بلحيته لجوبيتر منذ وقت قريب، الأمر الذي لاقى استحساناً وحمداً ظاهريين في روما كلها، ولو أنهم قد اشاعوا في الخفاء، أن القيصر قد أقدم على هذه التضحية قبل أن يصبح صاحب لحية حمراء كسائر أفراد أسرته.
لكن السلالة الأولمبيّة كانت سمة لا يمكن اللعب عليها، تبدت جليّة ببروز جبينه إلى أمام، وباتصال حاجبيه الموحي بالقدرة الكلّيّة. وأسفل هذا الجبين النصف الالهي امتد وجه قرد مضحك لواحد من الفاسقين الخليعين يوحي بمختلف الانفعالات والعواطف. كان وجهاً مكتنزاً بديناً بدا عليه المرض رغم حداثة السن.
قرأت فيه ليفيا عدوًّا، لكنها رأته منفّرا قبل أي اعتبار.
وبعد قليل أنزل نظارته الزمرديّة، ولم يعد ينظر ناحية الفتاة.
تمكنت ليفيا الان من رؤية عينيه الزرقاوين المنتفختين، وقد أغمضهما نصف إغماضة بفعل الاضواء المبهرة. كانت العينان زجاجيتين مطفأتين كأعين الموتى.
أما القيصر فقد التفت إلى بترونيوس ليقول له:
ـ أهذه هي الرهينة التي يحبها فينيكوس؟
ـ أجل
ـ ومن أي قوم؟
ـ من الليغوس
ـ وهل يجدها فينيكوس جميلة؟
ـ ضع أي رداء نسائي على جذع زيتونة عجفاء، سيراها فينيكوس جميلة. لكني استطعت من خلال تعابير وجهك، وأنت فنان لا يجارى في رفعة ذائقته، أن أقرأ رأيك فيها. فلا تتعب نفسك وتفصح عنه. طبعاً. شديدة النحول! سقيمة! زهرة خشخاش حقيقيّة على ساق رفيعة. وأنت كخبير إلهيّ في الجمال تقوّم المرأة من خلال قدّها. وإنك لمحق في ذلك أضعافاً وأضعافا. الوجه، منفرداً لا يعني شيئاً. لقد تعلّمت منك الكثير، لكني لم أصل إلى هذه الدرجة من النظرة الثاقبة، وصواب الرأي. أجرؤ أن أراهن إن كان أحد من كل هؤلاء المضطجعين في المأدبة، حتى توليوس، يستطيع أن يكوّن فكرة عن قدّها وهيئتها. لكني أجزم أنك تقول في قرارة نفسك"مؤخرتها أصغر ممّا يجب". فأجاب نيرون مغمضاً عينيه نصف إغماضة:
ـ عجيزتها أصغر ممّا ينبغي
ارتسمت على فم بترونيوس ابتسامة لا تلاحظ. لكن توليوس الذي كان في هذه اللحظة يجادل فيستتوس، لا بل يشن هجوماً لاذعاً عليه، منتقصاً من قدر الأحلام التي يؤمن بها، التفت الآن نحو بترونيوس. وبما أنه لم يكن حتى ليخمن مادة الحديث الدائر قال:
ـ أنت مخطئ، وأنا رأيي من رأي القيصر.
فرد بترونيوس:
ـ حسناً. كنت أحاول أن أثبت أنك، رغم كل شيء، تمتلك قليلاً من العقل. في حين كان القيصر يقول إنك حمار لا حيلة لتزويره.
ـ استحقها!
قال نيرون ضاحكاً، وقلب إبهامه إلى أسفل، مثلما جرت العادة في السيرك، إشارة إلى أن المجالد قد جرح، وصار يستحق طعنة الرحمة.
أما فيستتوس فقد أكد أن الجدال كان يدور حول الأحلام، فقال:
ـ أنا أؤمن بالأحلام. وسينيكا أيضاً قد قال اليوم أنه يؤمن بها.
فمالت كالفيا على المائدة لتقول:

ـ حلمت ليلة أمس أنني صرت عذراء فيستا.
صفق نيرون لهذا، وتبعه بالتصفيق آخرون. استمر التصفيق الصاخب لمدة، باعتبار أن كالفيا كريسبينلا امرأة طالق مرات عديدة، وقد اشتهرت في أرجاء روما بتسيبها الأخلاقي المتطرف. فلم تشعر بأي حرج، وتابعت تقول:
ـ وماذا بعد! هؤلاء جميعاً عجائز وقبيحون. روبريا الوحيد الذي يتمتع بسيماء إنسانيّة، وكان علينا أن نكون معاً الان، لولا أن بثوراً تنفر في وجهه صيفاً.
فقاطعها بترونيوس قائلاً:
ـ عذراً يا كالفيا العذراء. لكنك عذراء فيستا في منامك فقط.
ـ وإن أمر القيصر بذلك؟
ـ عندئذ سأؤمن أن أغرب الأحلام يمكن أن تتحقق.
فقال فيستنوس:
ـ تتحقق فعلاً. أنا أتفهم أولئك الذين لا يؤمنون بالآلهة. لكني استغرب أن أحداً لا يؤمن بالأحلام.
فسأله نيرون:
ـ وماذا عن التنبؤات؟ تنبؤوا لي مرة أن روما ستمحى من الوجود، وأنني سأنصب حاكماً على الشرق كله.
علق فيستنوس قائلاً:
ـ التنبؤات والأحلام. هنالك علاقة تربطهما. ذات مرة قام أحد الحكام العسكريين، وهو من المتشككين الكبار، بإرسال رسالة مختومة إلى معبد موبسوس، محذراً حامل الرسالة أن يحاول فضها؟ أمضى العبد حامل الرسالة ليلته في المعبد لعل حالما يجيئه في المنام. ثم رجع إلى سيده. يقول:
جاءني في المنام شاب مضيئ كالشمس، وقال لي كلمة واحدة لا غير"أسود". شحب الحاكم لسماعه الكلمة، والتفت إلى ضيوفه المشككين من أمثاله وقال:
ـ أتعلمون ماذا كان في الرسالة؟
وقطع فيستنوس حديثه رافعاً قدحه إلى شفتيه واجترع منه.
فسأله سينسيو:
ـ ماذا؟
ـ لقد سألت في رسالتي: أي عجل أختار للأضحية، أبيض أم أسود؟
لكن التشويق الذي ولدته الحادثة في وجود الحضور، قد أربكه فيتليوس الذي جاء المأدبة ثملاً، وفرقع قهقهة فجائيّة لا سبب لها.
فسأله نيرون:
ـ ولم يضحك برميل الشحم هذا؟
فأجابه به بترونيوس:
ـ الضحك يميز الانسان عن الحيوان، وهو لا إثبات آخر لديه بأنه ليس خنزيراً.
كفّ فيتليوس عن الضحك. فغر شفتين لماعتين من الدهن والتبلة، وحدق بالحضور مستغرباً، كأنه يراهم للمرة الأولى في حياته. ثم رفع كفّه المكتنزة، وقال بصوت أجش:
ـ سقط من إصبعي الخاتم الذي ورثته عن أبي.
وأضاف نيرون مكمِّلا العبارة:
ـ الذي كان اسكافياً.
لكن فيتايوس كرّر قهقهته العالية، وبدأ يفتش عن الخاتم في رداء كالفيا.

لكن نيجيديا العانس صديقة كالفيا علقت بصوت مرتفع:
ـ إنه يبحث عن شيء لم يفقده.
وعبّر الشاعر لوكانوس قائلاً:
ـ شيء لا فائدة منه حتى لو عثر عليه.
بلغ جو المأدبة أوجه. جاء الخدم مرة أخرى بأصناف جديدة من المآكل والشراب، وتساقطت الورود من الاعلى فوق الموائد والمدعوين وألح بترونيوس راجياً نيرون أن يتحف حفل المأدبة بغنائه قبل أن يودي اجتراع الشراب بالحضور، ويوصلهم إلى الثمالة، فاستحقت الفكرة الدعم من الجميع، لكن نيرون أبى ذلك معتذراً. ولا يعود اعتذاره إلى خشيته، وعدم جرأته على الغناء، بقدر ما يعود إلى رفضه الأمر لأسباب تتعلق بجودة صوته.
صحيح أنه لا يريد أن يتملص من هذه المهمة الموكلة اليه خدمة للفن، خاصة وأن أبولو قد منّ عليه بقدر من الصوت الحسن، ولا يجوز له أن يضيّع، ولا أن يستهين بهذه النعمة التي منحتها الالهة. وهو يدرك أن ذلك لزام عليه أمام الحكومة، لكن صوته هذا اليوم أجش، ولا ينفع في الواقع للغناء.
في الليل وضع على صدره أثقالاً من الرصاص، فلم تنفعه. حتى أنه فكر في السفر إلى الأنتيوم لاستنشاق الهواء البحري. لكن لوكانوس ألح عليه أيما إلحاح باسم الفن والانسانيّة. ما من أحد الا ويعلم أن الشاعر، والمغني الملهم قد ألّف في مديح فينوس نشيداً إذا ما قورن به نشيد لوكرتيوس كان الأخير أشبه بعواء جرو ذئب. فلتكن هذه المأدبة عيداً حقيقياً. فمن غير المعقول، ولا الجائز أن يقوم حاكم بهذا الصلاح، بتعذيب محكوميه لهذه الدرجة.
ـ لا تكن قاسياً يا قيصر!
فردد كل الجلساء هنا:
ـ لا تكن قاسياً
ففتح نيرون ذراعيه إشارة إلى أنه مرغم على القبول.
أبدت الوجوه علائم الامتنان، وتوجهت اليه كل الأنظار.
كان القيصر قد أبلغ بوبيا من قبل أنه سيغني، لكنه راح الان يشرح للحضور أنها متوعّكة، ولم تأت إلى المأدبة، رغم أن ما تستخدمه من علاجات طبيّة لم يكن يريد أن يحرمها من هذا الحفل.
لكن بوبيا سرعان ما حضرت.
كانت بوبيا تسيطر على نيرون كل السيطرة، كأنه أحد رعاياها. ولكنها، حفاظا على ما يمتلك من أحاسيس تجاه مواهبه من شعر، وغناء، وقيادة عربات، رأت أن لا سبيل لمس هذه الأحاسيس بالأذى. فكان أن جاءت إلى المأدبة بكل هذه الروعة، كالهة شقراء، في جيدها عقد من اللآلئ الضخمة هو من غنائم الحرب في ماسينيا. وعلى الرغم من أنها امرأة طالق مرتين من رجلين آخرين، فقد بدت عذراويّة نضيرة الملامح.
" يا أوغستوس الالهي". عبارة صدحت عالياً ترحيبا بها.
لم تصدق ليفيا ما رأته عيناها من هذا الجمال الخارق، الذي لم تشهده له مثيلاً من قبل، خاصة وأنها تعلم أن بوبيا إحدى أتفه وأرذل نساء الكون. لقد سمعت من بومبونيا أنها من حرضت القيصر لاغتيال أمه وزوجته. ولقد عرفتها أيضاً من خلال أحاديث ضيوف أولوس وخدمه. سمعت أن تماثيلها تحطم ليلاً في المدينة. وسمعت المناشير التي كانت تشاهد كل صباح على جدران المدينة، تدينها بأقسى الاتهامات. وها هي ذي الان وجها لوجه أمام بوبيا الذائعة الصيت، التي يعتبرها أتباع كريستوس المسيح تجسيداً للرذيلة. لكنها مع ذلك لم تطرف، ولم تغض البصر عنها، لأنها بكل بساطة، لم تقو على ذلك. وافترت شفتاها عفوياً بالسؤال:

ـ ما الذي أراه يا فينيكوس؟ أيعقل هذا؟
لكن الشاب، قد أسكره شرب النبيذ، كأنما فقد بصره، وأزعجه أن محبوبته تنشغل عنه وعن حديثه بأمر آخر، فأجاب:
ـ أجل إنها جميلة. لكنك أجمل بألف مرة. أنت لا تعرفين نفسك، ولو عرفتها لوقعت في غرام نفسك مثل كنارسيوس... هي تستحم بحليب الحمير، وأنت تستحمين بحليب فينوس نفسها يا نور عيني.
لا تنظري نحوها. خلي عينيك علي، يا ضوء عيني، ولامسي بشفتيك حافة القدح لتذوب شفتاي هناك.
وجر نفسه ليقترب أكثر فأكثر، فتراجعت ليفيا نحو أكتي. وفي هذه اللحظة أشير إلى الجميع أن يلتزم الصمت لأن القيصر انتصب واقفاً.
ناوله المغني ديودورس آلة العود المثلثية الشكل، بينما تقدم تربنوس بآلته الوتريّة نابليوم ليرافق القيصر بالعزف. أسند القيصر آلته المثلثية على المائدة، ورفع عينيه. وساد لمدة صمت لم يعكره الا خشخشة الورود المتساقطة من الاعلى دون انقطاع. وبصحبة الآلتين الوتريتين بدأ القيصر الغناء، ومن الأفضل القول بدأ أداءه الغنائي الايقاعي لنشيد فينوس. لم يكن الصوت المشوب بشيء من البحة متصفاً بأدنى حد من الرداءة، وكذلك الشعر. فشعرت ليفيا مرة أخرى بتأنيب الضمير بعد أن وجدت النشيد الذي يمجد فينوس الوثنيّة رائعاً. وكذلك القيصر، فقد بدا بشموخ رأسه، والاكليل حول جبينه، أكثر رفعة ورقياً، ولم يكن بتلك البشاعة التي ميزته في بداية المأدبة.
كان رد الحاضرين بعاصفة من التصفيق. وسمعت هتافات جاءت من كل صوب"يا للصوت السماوي". ورفعت بعض النساء أياديهن عالياً تعبيراً عن إعجابهنّ الشديد، وبقين كذلك حتى بعد نهاية الغناء. وراحت نساء أخريات يجففن دموعهن، فبدت الصالة خليّة نشطة من النحل.
أحنت بوبيا الشقراء رأسها الصغير، ورفع نيرون يديه إلى شفتيه وأبقاهما مرة هناك دون أن يتكلم. أما الشاب الإغريقي الفائق الوسامة والجمال بيتاغوراس وهو نفسه الذي نيرون النصف مجنون، وبارك الفلامنكبين بما يستوجب الطقوس كاملة فقد جثا الان على ركبتيه أمام نيرون.
لكن تبررونيوس التفت نحو بترونيوس مشوقاً إلى إطرائه فكان رده:
ـ أما ما يخص الموسيقا، فلابد أن أولوس الآن شاحب من شدة خجله، وكذلك لوكانوس الموجود هنا. أما عن الشعر فيؤسفني أنه وإن كان ليس أضعف من سواه من الشعر، لا أملك كلمات لامتداحه.
لم يغضب لوكانوس من استهدافه، وإثارة غيرته، بل كان منه أن رمق بترونيوس بنظرة امتنان، وغمغم بشيء من الانزعاج.
ـ اللعنة على قدر حكم علي بأن أكون من أتراب شاعر عظيم. ولولا ذلك لأتيح له أن يبقى في الذاكرة الشعبيّة. ولكن قدره الان أن يصبح هامشياً كمشعل للنور إلى جانب الشمس.
واستشهد بترونيوس الذي يتمتع بذاكرة وقادة.مقاطع من النشيد مردداً بعض الأبيات الشعرية ليثني على أجمل العبارات فيها. أما لوكانوس، وكأنه قد تخلى عن إحساس الغيرة، ما أوقعته جماليّة الشعر من تأثير في نفسه، فقد تجاوز عبارات بترونيوس الأطرائيّة. وشع وجه نيرون بسيماء هي خليط لاقرار له من اللذة والزهو بلغا به حد البلاهة. ثم لفت الانتباه إلى أجمل الأبيات في اعتباره. وواسى لوكانوس مشجعاً إيّاه الا يفقد حماسه، فليس بمقدور المرء أن يكون سوى ما قدر له أن يكون، وإن القرابين إذا ماقدمت إلى جوبيتر لا تغني عن تقديمها إلى آلهة أخرى كذلك.
قال ذلك ونهض واقفاً ليرافق بوبيا التي كانت مريضة حقاً، وأرادت أن تنسحب، طالباً من المدعوين المتبقين العودة إلى المأدبة لأنه سيرجع إليهم. وسرعان ما عاد ليستنشق ما يجود به المتملقون من عبق المديح، ويستمتع ما تبقى من البرنامج الذي أعده لهذه المأدبة بمشاركة كل من بترونيوس وتيغالينوس.

وأنصتوا من جديد لما أنشده من شعر، وخاضوا في أمور غريبة بعيدة عن براعة الحديث. ثم جاء باريس أشهر الممثلين ولعب مغامرات ابنة إناكوس. لم يألف الحاضرون، ومن بينهم ليفيا خاصة، مثل هذه المشاهد التي بدت للجميع كأنها عجائب سحريّة.
كان باريس بارعاً في أداء حركات إيحائيّة يعجز الرقص أن يعبر عنها.
بحركات يديه شكل من الهواء سحابة كثيفة مبهجة أخّاذة، لها قابليّة الحركة والاهتزاز، راحت تعانق قدًّا أنثويًّا كان يرتعش تحت تأثير العناق. لم يكن العرض من النوع الراقص، بل مشهداً سحريًّا خليعاً في غاية الجمال، فشى أسرار الحب.
وبعد الانتهاء من اللوحة الايمائيّة الراقصة، دخلت جوقة سيبيل بآلاتها الموسيقيّة من قيثارات، ونايات، وطبول، وصنوج، وأدت بمشاركة الفتيات السوريات رقصة باخوس، بكثير من الصياح والصخب. أحست ليفيا أن نيراناً حيّة ستندلع حالاً، وتقوم بشيّها، وأن صاعقة ستجتاح هذا المنزل، ويتداعى سقفه فوق رؤوس المدعوين.
لكن لم يتساقط من الشبكة الذهبيّة المشدودة تحت السقف، غير الورود. خاطبها فينيكوس وقد انتشى سكرا:
ـ رأيتك قرب النافورة في منزل أولوس، وأحببتك. كان الوقت فجراً، وكنت تظنين أن لا أحد يراك. لكني رأيتك. ومازال طيفك، وأنت في قميصك، ماثلاً أمام عيني حتى الان. الآلهة كما البشر ينشدون الحب جميعاً. لا شيء في الحياة يفوق الحب. أسندي رأسك على صدري، وأغمضي عينيك.
شعرت الفتاة أن قواها تجتمع في قبضتها، وتنبض في صدغيها.
كان شعورها أنها تهوي في هوة سحيقة. فينيكوس الغريب، الحميم، الثقة، الذي وجدت فيه منقذاً، يشدها أكثر، ويدفعها إلى الهاوية.
شعرت بوطأته، وعبئه عليها، وساورتها الخشية منه، ومن المأدبة، وحتى من نفسها.
صوت أشبه بصوت بومبونيا ما يزال يصرخ في صميمها "اهربي يا ليفيا". لكن شيئاً وشوشها قائلاً: لقد فات الأوان. ولا مناجاة لك بعد الان.
ساءت حالها تماماً، وأحست بالغثيان، وبأن شيئاً مريعاً سوف يحدث، كانت تعرف أنها ستثير غضب القيصر ضدها، إذا ما غادرت المكان قبل إعلانه انتهاء المأدبة. فلم تفعل، خاصة وأن قواها قد خارت.
لكن نهاية المأدبة كانت بعيدة. فالعبيد مازالوا يأتون بالأطايب من كل صنف، ويملؤون الاقداح الفارغة. وظهر أمام الموائد المصفوفة على شكل نضوي مصارعان سرعان ما تشابكا لتسلية الضيوف. تلاحم جسداهما الضخمان الملتمعان بالزيت، فاستمتع الجميع أيما استمتاع بالنزال الذي لم يدم طويلاً، لأن كروتون وهو أقوى مصارعي روما بلا منازع، وقائد مدرسة من مدارس المجالدة ما لبث أن أطاح بخصمه الذي تسارعت أنفاسه، وازرقّ وجهه، وانبثق الدم من فمه، ثم خرّ أرضاً.
لوقيت نهاية المنازلة بعاصفة من التصفيق، في حين راح كروتون وقد وضع رجله فوق ظهر خصمه، وصالب يديه فوق صدره يجيل النظر مزهوًّا في أنحاء الصالة.
وبعد ذلك، جاء دور الكوميديين الذين يقلدون الحيوانات والأصوات الحيوانيّة، والمهرجون، لكن الضيوف لم يلتفتوا إليهم كثيراً، لأن النبيذ كان قد أزاغ أبصارهم. كانت المأدبة قد استحالت شيئاً فشيئاً إلى احتفال مخمور صاخب. فالفتيات السوريات اللواتي أدّين رقصة باخوس توزعن بين المدعويين، واستحالت موسيقا القيثارات والاعواد، والصنوج الأرمينيّة، والآلات المصريّة، إلى مجرد قرقعة صاخبة. فإذا ما رغب المدعوون بالتحادث اضطروا أولاً إلى قذف الموسيقيّين بالشتائم طالبين منهم المغادرة.
تطايرت الزهور في الهواء، وامتلأ الجو بعبق الزيوت العطريّة، التي لم ينقطع الفتية الصغار الجميلون عن رذها بين المدعوين طوال فترة المأدبة، فعبقت رائحة الزعفران، واختلطت برائحة الأنفاس، حتى بات

الجو خانقاً، وأضحت المصابيح تنشر أنواراً باهتة، وانزلقت الأكاليل على الجباه، وشحبت الوجوه، وتعفّن العرق فوقها.

هبط فتليوس تحت الطاولة، وأسندت نيجيديا المخمورة النصف عارية رأسها الطفولي على صدر لوكانوس المخمور كذلك، فراح يطرد مسحوق الزينة الذهبي عن شعر المرأة، مبدياً سعادة فائقة.

أما فيستتوس فقد كرر بدهاء السكّير، ردّ موبسوس على رسالة الحاكم العسكري، ليجيبه توليوس الشكاك بصوت متقطع بفعل الحازوقة:

ـ إن كان سفيروزا دائرياً، فباستطاعة المرء أن يدحرجه أمامه كبرميل.

لكن دوميتوس آفر النمّام العجوز، فقد بلغ غضبه إثر هذا الحديث حداً جعله يبلل ملابسه بالنبيذ الغالرنوسي. كان دائماً من المؤمنين بالآلهة. يتناقل الناس أن روما سوف تتدمر، وهناك من يقول أن هذا الدمار قد بدأ من الان. وهذه حقيقة...

لكن لو حدث ذلك، فلن يحدث الا لأن جيل الشباب غير مؤمن. فلا قوة لأحد دون إيمان. حتى أنهم قد تخلوا عن الاخلاق الاصيلة.

ولايكترث أحد من بينهم بأن الابيقورين لن يحموا البلاد من البرابرة. لا جدوى. لكم يؤسفه أنه يعيش أزمنة يلوذ فيها الناس بالمتع هروبًا من المآسي التي تحيق بهم.

واجتذب إليه راقصة سوريّة مهيلاً بفمه الأدرد القبلات فوق عنقها وكتفيها. حين رآه القنصل ريغولوس انفجر ضاحكًا ثم قال وهو يضع الأكليل على رأسه:

ـ من يقول إن روما سيلحق بها الدمار؟ حماقة.... أنا كقنصل، أعرف أكثر من الجميع... ثلاثون فيلقًا يتولون حماية روما.

ورفع قبضته صائحًا ليسمع كل من في الصالة:

ـ ثلاثون فيلقًا! ثلاثون فيلقًا! على طول الحدود من بريطانيا حتى البارثيين!

ثم وضع سبابته على جبينه مستتكرًا، وأردف يقول بصوت مرتفع:

لا أدري إن كانوا اثنين وثلاثين فيلقًا.

لكن هذا العدد من الفيالق والالوية لم تطمئن دومينوس ، وظل مصرًا على أن روما ينالها الدمار في ظل غياب الايمان بالآلهة، وفي ظل قساوة الأخلاق السائدة. لابد من دمار روما، رغم الخسارة الكبيرة الناجمة عنه، لأن الحياة جميلة، والقيصر صالح ورحيم، والنبيذ لذيذ..يا لها من خسارة كبرى!

ثم دس رأسه في حضن الفتاة السوريّة، وانفجر باكيًا يقول:

ـ ما الجدوى من الحياة الآتية؟ آخيل كان محقًا بقوله: فقير تحت ضوء الشمس أفضل من حاكم في العالم السفلي.

كان لوكانوس قد أزال كل المسحوق الذهبي عن شعر نيجيديا التي أكثرت من شرب الخمر، واستسلمت للنوم. أخرج غصون اللبلاب من إناء الزهر أمامه وغطى بها المرأة النائمة.

ـ أنا لست إنسانًا، بل فاون إله حقول.

لم يصل بترونيوس إلى حد السكر. أما نيرون الذي تحفّظ منذ البداية حرصًا على صفاء صوته السماوي، فلم يشرب إلا القليل. حتى أنه أراد أن يتابع الغناء فحاول بالأشعار الإغريقيّة، لكنه لم يفلح لأنها غابت عن ذاكرته، فطلع عفويًا بأغنية أنا كرونيّة رافقه بأدائها كل من فيثاغوراس، و ديودروس و تبرنبوس. وبما أنهم فشلوا جميعًا فقد كفوا عن الغناء. أما نيرون الخبير، والفنان، فراح يثني على جمال فيثاغوراس ويُقبل يدها. لقد رأى في السابق جمالاً مثل جمال هذه اليد... لكن أين؟ ويد من كانت؟

وضع يده على جبينه المتعرق مستفكرًا، وسرعان ماشع وجهه بالخوف.

آها. آها. كانت يد أمه أكريبينا.
ودهمته بغتة صور قاتمة.غمغم:
- يقال أن روحها في الليالي المقمرة تطوف حول بايا و باولا... وكأنها تبحث عن شيء ما. وكلما اقتربت من قارب للصيد نظرت داخله ثم تابعت التطواف. لكن كل من تراه من صيادي القوارب يموت في الحال.
فأوجز بترونيوس قائلاً:
- موضوع حديث ليس سيئًا.
مد فيستنوس عنقه كمالك الحزين، وهمس خفيّة:
- أنا لا أؤمن بالآلهة، لكني أؤمن بالأرواح.
لم يكترث نيرون بذلك وتابع كلامه:
- إني أبارك أعياد أرواح الموتى، وأقدس ذكراها. لم أشأ أن أراها. مضى خمس سنوات على موتها... كان علي ذلك، كان علي أن احكم عليها لأنها أرسلت من يقتلني. ولو لم أستبق الأمر، لما تسنى لكم الآن أن تسمعوا غنائي.
فصاح دوميتوس أفر:
حمدا لك يا قيصر باسم المدينة والعالم بأسره.
هات النبيذ ولتقرع الطبول!
واندلع الضجيج مجددًا، بينما راح لوكانوس يصرخ بأعلى صوته:
أنا لست إنسانًا بل فاون. الغابة مكاني.
وفي النهاية انطفأ القيصر من السكر. ومثله سائر الرجال والنساء، وكذلك على الأقل كان حال فينيكوس، إضافة إلى ما تولّد فيه من رغبة في الشجار، كحاله على الدوام حين يتجاوز حده في الشرب.
بات وجهه أكثر شحوبًا، وتلعثم بالكلام حين قال بصوت آخر:
- هاتي فمك! اليوم أوغدًا لا فرق! كفى من كل هذا. القيصر أتى بك من عند أولوس ليهديني إياك. أتدرين؟ غدًا عند الغروب سأرسلهم من أجلك اتفهمين؟ لقد وعدني القيصر حتى قبل أن يأتي بك... ستكونين لي. هاتي فمك لا أريد الانتظار حتى الغد.
هاتي فمك هيا.
وعانقها. لكن أكتي استنفرت حالاً لحمايتها. وصدّته ليفيا. ما لديها من قوة، لأنها شعرت أن الأرض ستبتلعها.
لكن محاولتها خابت، و لم يجدها نفعًا كل ما بذلته من قوة صد متبقية لديها. خاب ذراعاها وهما يدفعان ذراعي الشاب الأملسين.
خاب صوتها المرتعش وهي تصدّه راجية إياه أن يرأف بها. صارت أنفاسه العابقة برائحة النبيذ تقترب من أنفاسها حتى لامس بوجهه وجهها. لم تعد الفتاة تراه ذلك الشاب اللطيف المقرب إلى روحها، بل وجدت فيه سكيرًا شريرًا ملأها بالقرف والرهبة.
وأشاحت بوجهها محاولة تجنب القبلة، لأن الشاب كان قد نهض واجتذب رأسها بكلتا يديه نحو صدره، والصق فمه بشفتي ليفيا الشاحبتين المنكمشتين. وفي هذه اللحظة أحس بقوة هائلة تضغط على يديه، وتبعدها عن عنق ليفيا. ما الذي حصل؟ أدار فينيكوس عينيه الذاهلتين ليرى عملاقًا إلى جانبه. كان أورسوس الليغوي الذي تعرّف به في منزل أولوس.
انتصب الليغوي هناك بكل هدوء، ولكنه رمق فينيكوس بنظرة مستغربة صدرت من عينيه الزرقاوين فجمد الدم في عروقه. لف الليغوي فتاته الملكيّة بذراعه، وغادر بها التريسيلينيوم بخطوات ثابتة وخافتة.

تسمّر فينيكوس للحظة في مكانه. ثم قفز مندفعًا نحو الباب.

ـ ليفيا! ليفيا!

لكن مزيجًا من الرغبة الحسّية، والذهول، والغضب الوحشي والنبيذ قد أوهن قدميه، وصار يترنّح. وفيما بعد ضغط على ذراع المرأة الباخوسيّة وشالها.

ـ ما الذي حصل هنا؟ تناولت إبريقًا من النبيذ، وقدمته له بعينين ضبابيتين باسمتين

ـ اشرب.

أتى فينيكوس على مافي الإبريق وانطلق.

كانت الغالبية العظمى من الضيوف قد اضطجعت تحت الموائد، وقام آخرون بالتنقل بخطوات مترنحة في التريسيلينيوم، وغط سواهم في النوم على الديوانات قرب الموائد، فيما كانت الورود تنهال متساقطة من الشباك الذهبية المشدودة في السقف فوق المدعويين الثملين من قناصل، وسيناتورات، وفرسان، وشعراء، وفلاسفة، وراقصات. وفوق هذا العالم الذي مازال كلي القدرة، ولكنه بات عديم الروح ولو أنه مازال مزخرفًا بالاكاليل.

وفي الخارج كان الفجر ينبلج.

لم يقف أحد في طريق أرسوس، و لم يوجّه له سؤالاً عما يفعل. وأولئك المدعوون الذين لم يتمددوا بعد تحت الطاولات، لم يبقوا في أماكن جلوسهم. وعناصر الخدم، وقد رأوا العملاق محتضنًا الفتاة الضيفة، ظنوه واحدًا من العبيد يأخذ سيدته الثملة من المأدبة. خاصة وأن أكتي كانت برفقتهما، الأمر الذي أبعد كل شك قد ينشأ بخصوصهما.

وهكذا فقد خرجا متوجهين إلى الغرفة المجاورة. بينما انعطفت أكتي وسلكت الممشي المؤدي إلى منزلها.

كانت ليفيا خائرة القوى إلى حد أنها ألقت بثقلها كله على ذراع أرسوس، لكن لفحة النسائم الصباحية النقية المنعشة جعلتها تفتح عينيها. كان الفجر قد انقشع في الخارج. سارا محاذاة صف العمدان المؤدي إلى حديقة القصر، حيث كانت أشجار السرو قد لونتها حمرة الفجر.

كان هذا الجانب من البناء خاليًا تمامًا ، وضجيج الموسيقى والمدعوين قد تخامد. شعرت ليفيا أنها تخلصت من الجحيم، وأصبحت في ملكوت الله المشرق. ورغم ذلك، كان ثمة خارج التريسيليينيوم شيء يدعو إلى الاشمئزاز. السماء، شفق الفجر، الضوء، السكون. انفجرت الفتاة بالبكاء، واستجارت بالعملاق قائلة:

إلى المنزل يا أرسوس، إلى المنزل، إلى عند أولوس.

نحن ذاهبان إلى هناك.

لكنهما دخلا إلى غرفة من غرف منزل أكتي.

هناك، أجلسها على مقعد رخامي قرب النافورة.

راحت أكتي تهدئ من روعها، وتقنعها بأن تستلقي، مؤكدة لها أن لاشيء يهددها حاليًا، لأن المدعوين الثملين باتوا جميعًا يغطون في النوم، لكن ليفيا ظلت طويلاً مضطربة تضغط براحتيها على صدغها، وتقول كطفل صغير:

- إلى المنزل، إلى عند أولوس.

كان أرسوس مستعدًا لذلك، وكان بإمكانه أن يعبر المداخل رغم وجود الحراس هناك. فالجنود لا شأن لهم بالمغادرين، ولا يمنعون أحدًا من الخارج. ولقد ركن أمام المدخل الكثير من الهوادج. فبوسعهما إذن أن يخرجا من هذه الحشود المغادرة، ويتوجها إلى المنزل. وفي كل الأحوال لاضير في ذلك فما تأمر به السيدة الملكية، على الجميع أن يخضعوا له. ولهذا هي الآن هنا.

أما ليفيا لم تكف عن إلحاحها قائلة:

هيا يا أرسوس، لنذهب.

وكان على أكتي أن تستخدم ذكاءها من أجل كان خروجهما أمرًا يسيرًا، ولن يوقفهما أحد. لكن الهرب من منزل القيصر أمر غير جائز. ومن يقدم عليه يمحقه القيصر. أجل يخرجان، لكن قائد المئة سيتقدم على رأس دوريته، وبيده حكم الإعدام لكل من أولوس و بومبونيا. وسيعيد ليفيا إلى القصر. وعندئذ لا منجاة لها حقًا.

فتلت ليفيا راحتيها حائرة لا تدري ماذا تفعل. عليها أن تختار. إما عائلة أولوس أو ضياعها. لقد حضرت المأدبة بأمل أن تعود إلى بومبونيا بعد أن يطلبها بترونيوس و فينيكوس من القيصر.

لكن النتيجة كانت عكس ذلك تمامًا. لقد اقتادها القيصر من منزل أولوس بناء على طلبها. ولا منجاة لها الآن إلا بأعجوبة، أو بعون من الله.

قالت ليفيا يملؤها القنوط:

- أكتي! أسمعت ما قاله فينيكوس. القيصر سيقدمني هديه له. وأنه في المساء سيرسل من أجلي ليقتادوني

إلى منزله.
- سمعته.
أجابت أكتي ولزمت الصمت. فالحيرة التي تخللت كلام ليفيا، لم تلق صدى في نفسها. ولهذا أسبابه. ألم تكن عشيقة نيرون؟ صحيح أنها طيبة القلب، لكنها لا تحتمل أن تسترجع الخزي الذي الحقته بها هذه العلاقة. أليست في النتيجة فتاة من فئة العبيد؟
لقد ألفت القوانين المتعلقة بالعبيد، ووضعت ذلك في حسبانها. ثم أنها مازالت حتى الآن تحب نيرون. فإن ما رغب القيصر في أن يعود إليها ستفتح له صدرها رحبًا، وبمنتهى السعادة والفرح: فلم تتقبل إذن ما تلغو به ليفيا حائرة بين أن تكون عشيقة فينيكوس الشاب الوسيم، وبين أن تضحي بنفسها، وبعائلة أولوس.
فقالت أخيرًا:
- حتى في منزل القيصر لن تكوني بذلك الأمان
وخطر لها: إن صح ما تقوله فإن كلامها يعني: "صوني قدرك، وكوني عشيقة فينيكوس". لكن الفتاة كانت ما تزال تشعر بقبلات الشاب الحيوانية الشبقة تكوي شفتيها كالجمر، ويحمر وجهها خجلاً
فانفجرت زاعقة:
أبدًا. لن أبقى هنا، ولن أذهب مع فينيكوس أبدًا. أبدًا.
استغربت أكتي تمردها هذا، فسألتها:
- ألهذه الدرجة تكرهين فينيكوس؟
لكنها لم تقوى على الإجابة، لأنها انفجرت ثانية بالبكاء. وحين ضمتها أكتي إلى صدرها، هدأت. ولم يكن من أرسوسي إلا أن ضم قبضتيه الضخمتين من شدة غيظه، لأنه كان يكن للمرأة الملكيّة حبًا وفيًا وفاء كلب لصاحبه. وقد شق عليه رؤية دموعها.
تملكت قلبه الليغوي الساذج رغبة في أن يعود إلى الصالة، ويقوم بخنق فينيكوس، بل والقيصر كذلك، لكنه لم يجرؤ على الجهر بهذا أمام سيدته. أما أكتي وقد ضمت ليفيا إليها، فتوجهت إليها بالسؤال ثانية:
أتكرهين فينيكوس كل هذا الكره؟ فأجابت ليفيا:
- لا. لا يجوز أن أكن له الكره لأني مسيحية.
- أعلم يا ليفيا. وأعرف من خلال رسائل بولس الترسوسي أنه يحرم عليكم الوقوع في العار. وأنكم لا تخافون الموت أكثر من الخطيئة. لكن قولي لي إذا ما كانت تعاليمكم تسمح لكم بالقتل.
لا.
إذن كيف لك أن تعرضي عائلة أولوس لنقمة القيصر؟
ساد صمت لحظي. وانشقت أمام ليفيا من جديد هوة سحيقة لا قرار لها.
لكن المرأة الطليقة تابعت تقول:
- أسالك حرصًا عليك، وإشفاقًا على بومبونيا الطيبة، وأولوس وطفلهما. أقيم في هذا المنزل منذ مدة طويلة، وأدرك أي خطر يهددك جراء غضب القيصر. لا. لايمكن أن تسلموا بجلدكم. لم يبق أمامك سوى حل وحيد، هو أن تطلبي من فينيكوس أن يعيدك إلى بومبونيا.
لكن ليفيا جثت راكعة تتضرع إلى أحد آخر، وتبعها أرسوس بعد قليل.
وبدأ، عند الفجر، يصل يان هنا في منزل القيصر.
كانت هذه المرة الأولى التي ترى فيها أكتي صلاة كهذه. فلم تحتمل أن تشيح بعينيها عن ليفيا الراكعة رافعة الرأس، فاتحة يديها نحو السماء، كأنما تنتظر منجاة تهبط إليها من هناك. كان ضوء الفجر ينير شعرها الفاحم، ورداءها الأبيض، ويشع منعكسًا من عينيها، فبدت تحت النور كأنها هي النور.

وكان في هذا الوجه الشاحب، والفم الفاغر، والذراعين المرفوعين، والعينين المتسمرتين المحدقتين نحو الأعلى، شيء من الجذل والنشوة.
أدركت أكتي الآن أن ليفيا لا يمكن أن تكون عشيقة أحد. كان نيرون أمام عشيقته ستارة قاتمة حجبت عنها عالمًا آخر، غير الذي كانت تالفه. أذهلتها هذه الصلاة، هنا في منزل العار والخطيئة.
كانت حتى الآن، ما تزال تعتقد أن لا خلاص أمام ليفيا، لكنها بدأت تدرك الآن أن أمرًا استثنائيًا يمكن أن يحصل، ويجيئها ذلك العون الاعجازي الذي لا يرد حتى بقوة القيصر. جيش مجنح يهبط إليها من السماء. والشمس تفرش أشعتها تحتها، وتلتقطها صاعدة بها إلى السماء، لقد سمعت بالكثير من الأعاجيب التي حصلت في الأرجاء المسيحية. وبدأت الآن تصدقها أمام مشهد الفتاة المتعبدة.
نهضت ليفيا يشع وجهها بالأمل. ونهض أرسوس كذلك، ثم جلس قرب مقعد صغير يترقب أوامر سيدته.
لكن غشاوة كانت تغلف عيني الفتاة، وانهمرت منهما قطرتان كبيرتان من الدمع سالتا على وجهها. قالت:
ـ بارك الله بومبونيا و أولوس. لا يحق لي أن ألحق بهما الأذى. إذن لن تراهما عيناي بعد الآن.
ثم ألتفت إلى أرسوس، وأوضحت له أنه المتبقي الوحيد لها، وسيكون من الآن فصاعدًا، ولي أمرها وأباها في نفس الوقت.
وليس لهما بعد الآن أن يلجأ إلى أولوس و بومبونيا تجنبًا لنقمة القيصر. لكنها لن تبقى لا في منزل القيصر، ولا حتى في منزل فينيكوس.
وطلبت من أرسوس أن يخرجها من المدينة، وينأى بها بعيدًا عن أنظار فينيكوس وخدمه. وهي على استعداد للذهاب معه أينما يشاء خارج حدود حكم القيصر، حتى إلى ما وراء البحار والجبال إلى حيث البربر الذين لم يسمعوا باسم روما والرومان، ولا يطالهما أحد. فليمض بها بعيدًا وينقدها، لأن أرسوس المتبقي الوحيد لها.
كان الليغوي جاهزًا للقيام بأي شيء. وللدلالة على طاعته، فقد انحنى يعانق قدمي الفتاة. أما أكتي التي كانت تنتظر حدوث معجزة، فقد انعكست على وجهها ملامح الخيبة. أهذا هو كل ما تستطيع أن تفعله هذه الصلاة؟ الهروب من منزل القيصر يعني ارتكاب إثم كبير هو تحدي الهيبة. وهذا فعل لا يمر دون نقمة. فإن تمكنت ليفيا من الاختفاء فإن القيصر يفرغ نعمته في وجه عائلة أولوس. فإن أرادت أن تهرب فلتهرب من منزل فينيكوس لأن القيصر لا يحب أن ينشغل بقضايا الآخرين، وقد لا يساند فينيكوس في ملاحقتها، لأن فعلتها هذه لا تحمس جلالته في شيء.
وكان هذا مافكرت به ليفيا أيضًا، إضافة إلى أنها لن تخبر حتى أولوس و بومبونيا أين ستكون. ثم إنها لن تهرب من منزل فينيكوس، بل في أثناء توجهها إلى هناك. لقد أخبرها الشاب أنه سيرسل أرقّاءه من أجلها مساءً. وقد أخذت كلامه على محمل الصدق مادام قد تلفظ به في حالة من الثمالة جعلته يبوح بمكنونات نفسه. قد يكون فينيكوس و بترونيوس سويًا قد قابلا القيصر قبل المأدبة، وحصلا على وعد منه بأن يطلق سراحها في المساء، فإن أهملا أمرها هذا اليوم، فلن ينسياه غدًا بكل تأكيد.
لكن أرسوس سينقذها فيما بعد. ولكن ربما أن فينيكوس قد يعمد إلى إرسال عدد كبير من رجاله الأرقّاء، فإن أرسوس سيقصد الكاهن لينوس ويطلب منه النصح والعون. وسيقوم الكاهن بتلبية الطلب، ولن يدعها في قبضة فينيكوس، وسيدع المسيحيين يذهبون لمساعدة أرسوسس. سيحررونها، ويسلمونها إلى أرسوس الذي سيتمكن من إبعادها عن أنظار الحكم الروماني.
دهمتها موجة من الاحمرار، وابتسمت. استردت الثقة، وكأن الأمل بالهروب قد استحال إلى أمر واقع. مدت نفسها إلى عنق أكتي، وضغطت بشفتيها الرائعتين فوق وجهها، ووشوشتها قائلة:
ـ لن تشي بنا يا أكتي أليس كذلك؟

فأجابتها أكتي:
- أقسم بطيف أمي أنني لن أشي بكما. لكن توجهي بالدعاء إلى ربك أن يتمكن أرسوس من تخليصك منهم.
وبرقت عينا العملاق الزرقاوان البريئتان مهللتين فرحًا وطاعة. سيان عنده متى سينفذ ما يطلب منه في الليل أو في النهار لا يهم. سيقصد الكاهن الذي تلهمه السماء ما يجوز له أن يفعل. إلا أن بمقدوره أن يحشد المسيحيين، ولو كان معارفه من الأرقّاء، أو المجالدين، أو الأحرار قلّة. لكنه يستطيع أن يحشد ألفًا بل ألفين منهم، ويحرر سيدته، ويخرجها من المدينة، ويمضي بها إذا ما اضطر إلى ذلك، حتى نهاية الكون، حيث لم يسمع أحد بروما.
تسمرت حدقتاه أمامه، وكأنه ينظر إلى شيء بعيد، وقال:
- إلى الغابة. يا لها من غابة. يا لها من غابة كثيفة.
لكنه سرعان ما استعاد وعيه.
أجل سيذهب حالاً إلى الكاهن، وفي المساء سيتجه برفقة مئة من أتباعه إلى الهودج، ولو كان يحيط به عدد لا يحصى من الأرقّاء والحرس. وهناك لن يتحمل أحد قبضته الحديديّة.
لكن ليفيا رفعت سبابتها الطفولية الناعمة، وحذرته بلهجة صارمة.
- أرسوس! إياك والقتل!
مد الليغوي يده الصولجانية الضخمة، وراح يحك قفا رأسه، وهو يدمدم شيئًا ما من شدة حنقه. ولكي يجاهر بحماسه الشديد الطافح على وجهه انحني قائلاً:
- أنا ذاهب إلى الكاهن.
أما أكتي فقد لفت عنق ليفيا، وانفجرت باكية. أدركت مجددًا أن ثمة عالمًا، حيث في ثنايا الألم ينطوي من السعادة أكثر ممافي هذا القصر من أبّهة وترف. لقد انفتح أمامها باب النور الابدي. ولكنها في نفس الوقت أدركت أنها غير جديرة بعبوره.

## (9)

شعرت ليفيا بالشفقة إزاء بومبونيا التي كنّت لها، كما لجميع أفراد منزل أولوس ودًّا عميقًا. لكنها في مقابل ذلك قد تحررت تمامًا مما استبد بها من قنوط. حتى أنها شعرت بالفخر والاعتزاز، لأنها تضحي بالراحة والرفاه فداءً للحق، وتدفع بنفسها إلى حياة مجهولة المعالم. ولعل فضولاً طفوليًّا قد شاب مشاعرها: كيف ستكون حياتها في مكان ما من البلدان القصيّة بين البرابرة والوحوش. لكن شعورها الطاغي كان إيمانها العميق بأن كل ما سوف تقوم به من سلوك، نابع من إرادة المعلم الإلهي الذي سيرعاها مثلما يرعى ابنه المخلّص المطيع، فلا ضير عليها، ولا خوف إذن. وإذا ما شاء الرب أن يلحق بها سوءا فعليها أن ترضى بقدرها، باسمه. وحتى لو قدر لها أن تموت، فسوف يأخذها إليه حيث ستلتقي بومبونيا، ويجتمعان سويا في ملكوت الأبدية.

في منزل أولوس غالبًا ما كان يدور في ذهنها الطفولي الغض أنه لم يكن بوسعها، وهي المسيحية، أن تفعل شيئًا من أجل المسيح المصلوب الذي حدثها عنه أرسوس بذلك الحماس. ولكن اللحظة قد حانت الآن.

شعرت ليفيا بالفرح، وباحت عن سعادتها تلك لأكتي التي لم تستطع أن تتفهمها. تخليها عن المنزل، والثراء، والمدينة، والبساتين، والمعابد، والتركات، وكل متاع جميل. تخليها عن البلاد المشمسة والبشر المقربين إلى قلبها. ومن أجل أي شيء؟ من أجل أن تهرب، وتتوارى عن أنظار حبيبها الفارس الشاب الوسيم.

أمور لم تلق تجاوبًا من أكتي. لم تفهمها أبدًا، ولو أنها كانت تشعر أحيانًا أن فيها جانبًا من الأحقيّة، جانبًا من السعادة العامرة الخفيّة، لكنها لم تجرؤ أن تصارح نفسها بذلك، خاصة وأن ليفيا كانت تنتظرها مغامرة قد تفضي إلى نهاية سيئة، وقد تكون نتيجتها فقدان حياتها. و بالنظر إلى طبيعة أكتي الحذرة المتخوفة كانت تفكر مرتعدة بما سيأتي في المساء. لكنها لم تشأ أن تفصح لليفيا عما يجول في خاطرها من قلق. وبما أن النهار مازال مقيمًا، وضوء الشمس قد تسلل إلى الأتريوم، فقد طلبت من ليفيا أن تذهب إلى سريرها وترتاح بعد ليلة لم تذق فيها طعم النوم. لم تمانع ليفيا، وعبرتا معًا إلى جناح أكتي الشاسع الوثير منذ علاقتها الحميمة بنيرون.

استلقتا جنبًا إلى جنب. وبرغم إرهاق أكتي لم تستطع أن تغفو. كانت حزينة لا تعرف طعمًا للسعادة منذ زمن بعيد. ولكن اضطرابًا استثنائيًّا لا مثيل له من ذي قبل، قد راودها الآن. كانت حتى الآن تشعر أن الحياة قاسية وقاتمة، وفجأة رأتها الآن تافهة لا قيمة لها.

تشوش ذهنها فجأة. كان الباب ينفتح وينغلق، وبانشقاقه ينسرب من خلاله ضوء شديد يمنعها أن ترى بوضوح. الأحرى أن ظنونًا قد ساورتها تقول أن في قلب هذا النور سعادة كبيرة لا حدود لها، بحيث تكون كل الأشياء إلى جانبها عدمًا لا معنى له. فحتى لو قام القيصر بإبعاد بوبيا، وعاد إلى حبها هي بدلاً منها، لما كان ذلك إلا فعلاً بائسًا لا معنى له.

لوهلة لمع في ذهنها أن القيصر الذي أحبته، واعتبرته تلقائيًا واحدًا من أنصاف الآلهة، ما هو إلا إنسان وضيع تافه شأنه شأن أي من هؤلاء العبيد، وأن هذا القصر بكل ما يحتويه من عمدان رخامية ليس أفضل من ركام من الحجارة. مجمل تلك الأحاسيس التي لم تستطع أن تفهمها، قد أرهقتها في نهاية المطاف. تمنت لو تغفو، لكن القلق اللعين أفقد عينيها نعمة الإغفاء.

وفي نهاية الأمر ظنت أن ليفيا ليست نائمة نتيجة ما ينتظرها من مصير مجهول، وما يتربص بها من خطر وشيك، فالتفتت إليها لتحدثها في شأن هروبها مساءً.

لكن ليفيا كانت مستسلمة للنوم. كانت أشعة النهار مشوبة بذرات الغبار الذهبية المرحة، تعبر إلى الداخل من خلل شقوق الستارة. وهذا القدر من الاضاءة أتاح لأكتي أن تلمح وجه الفتاة الناعم، وذراعها العاري

تحت رأسها، وعينيها المطبقتين، وشفتيها المنشقتين قليلاً. كانت أنفاسها منتظمة أشبه بأنفاس الحالمين.
ـ نائمة. تستطيع أن تنام! ما تزال طفلة!
وسرعان ما خطر لها أن هذه الطفلة تفضل الهروب على أن يكون عشيقها فينيكوس، وحياة البؤس على أن توصم بالعار، والاختفاء على المنزل الفخم قرب كارينا، أو الملابس الجميلة، والجواهر، والمآدب، وأنغام الآلآت الموسيقية.
ـ لماذا؟
وعادت تنظر إلى ليفيا كأنما أرادت أن تقرأ الجواب فوق وجهها النائم. رأت جبينها الخالي من الكلف، وقوسي حاجبيها الوديعين، ورمشيها القاتمين، وشفتيها المشقوقتين، وصدرها العذري المتموج من أنفاسها الهادئة، وفكرت من جديد قائلة:
ـ كم تختلف عني!
رأت فيها شيئًا عجائبيًا، ونوعًا من الصور الربانية. رأتها محبوبة الآلهة، وأجمل بكثير من كل أزهار حدائق القيصر، ومن كل تماثيل. القصر. لكن قلبها لم يعرف الغيرة ولا الحسد، بل على العكس من ذلك، فقد أترع بالشفقة حين فكرت في حجم المخاطر التي تهدد الفتاة، واستيقظت فيها مشاعر الأمومة. لم ترها مثل حلم جميل وحسب، بل كائنًا واقعيًا شديد اللطف أيضًا. وقربت فمها من شعر الفتاة القاتم وغمرته بالقبلات.
كانت ليفيا تنام باطمئنان كما لو كانت في منزل أمانها لدى بومبونيا. واستغرقت طويلاً في نومها. وانقضت الظهيرة حين فتحت عينيها مستغربة وجودها في المكان. من البديهي أن استغرابها ناتج عن كونها ليست في منزل أولوس. وحين لمحت وجه الفتاة الإغريقية سألتها:
هذه أنت يا أكتي؟
أنا يا ليفيا.
حل المساء؟
لا يا بنيتي، لكن الظهيرة قد انقضت.
ألن يرجع أرسوس ثانية؟
ـ لم يقل إنه سيعود. كل ما قاله إنه بمساعدة المسيحيين في المساء، سيتدبر أمر الهودج.
ـ صحيح.
ثم غادرتا المهجع نحو الحمام، حيث قامت أكتي بتحميم ليفيا. ثم قادتها لتناول طعام الإفطار، وخرجتا بعد ذلك إلى حديقة القصر، حيث ما من مخاطر الآن للقاء أحد هناك، مادام القيصر ووجهاء البلاط مازالو نياما. كانت المرة الأولى التي تشاهد فيها ليفيا تلك الحديقة الفخمة المليئة بأشجار السرو والبلوط، والزيتون، والأس، وحشود التماثيل فيما بينها، ومرايا بحيرات الأسماء، وشجيرات الورد الجوري حول نوافير الماء، وعرائش الكرمة البرية، واللبلاب التي تغطي مداخل المغائر السحرية، والأوز العراقي يسبح في البحيرات، وغزلان الصحراء الأفريقية، تسرح بين الأشجار، والتماثيل، وكل ما يخطر في البال من أنواع الطيور المنوعة المنشأ المزركشة..بمختلف الألوان ترفرف مجموعات مجموعات.
كانت الحديقة خالية، إلا من عبيد بأيديهم معاول يعملون هنا وهناك، ويتحدثون بهدوء، ومن آخرين في فترة استراحتهم يقتعدون قرب ضفاف البحيرات تحت ظلال البلوط المنقوشة بثقوب مرتعشة الأشعة الشمس، ومن آخرين أيضًا يقومون بسقاية الورود الجورية وأزهار الزعفران.
تنزهت أكتي وليفيا طويلاً وشاهدنا كل ما تحتويه الحديقة من أعاجيب. ولم تتمالك ليفيا أن تكتم دهشتها وفضولها الطفولي، وذهولها لما كانت تقع عليه عيناها، حتى لقد خطر لها أن تقول: لو كان القيصر إنسانًا

صالحًا لكان أسعد ما يكون في هذه القصر وهذه الحديقة.
أحستا بالتعب أخيرًا، فجلستا فوق مقعد يكاد لا يرى بين أشجار السرو المتكاثف، وراحتا تتحدثان عن أشد ما يؤرقهما ويعتصر قلبيهما: هروب ليفيا مساءً. وعلى النقيض من ليفيا لم تكن أكتي مطمئنة أساسًا فيما يخص نجاح هذا الهروب، لا بل كانت على ثقة شبه تامة بأن هذا الهدف المجنون لن يتكلل بالنجاح. ازداد اشفاقها على ليفيا و خطر لها أن من الأكثر أمانًا أن تحاولا كسب فينيكوس إلى جانبها. وبعد قليل سألتها:
- منذ متى تعرفين فينيكوس؟ وهل يمكن إقناعه بإعادتك إلى بومبونيا؟
لكن ليفيا هزت رأسها قائلة بحزن:
- لا. في منزل أولوس كان تصرف فينيكوس على نحو مختلف.
كان طيبًا جدًا. ولكنني منذ المأدبة صرت أخافه. الأفضل لي أن أهرب إلى الليغوس.
سارعت أكتي تسألها:
- إذن كان لطيفًا معك في منزل أولوس فأجابت مطاطئة رأسها:
- أجل.
فعلّقت أكتي بعد تفكير نوعي:
- لأنك لست عبدة كحالي أنا. يمكن لفينيكوس أن يتخذك زوجة. أنت رهينة، وابنة ملك أولوس وزوجته يحبانك كابنهما. وأنا واثقة أنهما يقبلانك ابنة لهما. يجوز للشاب أن يتزوجك يا ليفيا.
لكنّ الفتاة أجابتها بخفوتٍ وحزنٍ أكبر:
- أنا أُفضّل اللجوء إلى الليغوس.
- ليفيا! أتريدين أن أقصد فينيكوس حالاً؟ سأوقظه إن كانَ نائماً، وأقول لهُ ما قلت لك الآن أجل يا حبيبتي سأذهب إليه وأقول لهُ: يا فينيكوس، إنّها ابنة ملك، والطفلةُ المدلّلة لعائلة أولوس. فإن كنتَ تُحبّها حقًّا أرجعها إلى العائلة ثم تزوّجها، وخذها معك.
لكنّ الفتاة أجابت بصوتٍ خافت كما من ذي قبل
- الأفضل أن أرحل إلى الليغوس.
ونزلت قطرتا دمعٍ من جفنيها المسبلين.
لكنّ خطوات مقترِبة قطعت الحديث. وقبل أن تتمكّن أكتي من تيقّنِ الشخص المقترب ظهرت سابينا بوبيا أمام المقعد بصحبةِ بعض الرقيقات. حملت رقيقتان منهنّ مروحةً من ريش النعام المذهّب فوق رأسها، لتهويتها، ووقايتها من شمس الخريف التي ما زالت تحتفظ بشدتها، بينما تقدمتها عبدة إثيوبيّة، شديدة السواد، منتفخة الثديين من اكتظاظهما بالحليب، حملت بين ذراعيها طفلاً ملفوفاً بثوبٍ أرجواني مذهّب.
نهضت أكتي وليفيا واقفتين ظنًّا منهما أنَّ بوبيا ستواصل سيرها دون أن تلتفت إليهما، لكنّها توقفت وبادرت قائلة:
- أخطت الأجراس على الدمية بشكل رديء. شدّ الطفل أحدها، ووضعه في فمه. ومن حسن الحظّ أن ليليثا حضرت في الوقت المناسب.
- سامحيني أيتها الأوغستية؟
أجابت أكتي وصالبت ذراعيها فوق صدرها. لكنّ بوبيا كانت الآن تنظر نحو ليفيا، ثم سألت بعد قليل.
- من هذه الرقيقة؟
- ليست رقيقاً يا أوغستينا الربانيّة، ولكنّها من تربت لدى بومبونيا غريسينيا وهي ابنة ملك الليغوس، وقد وضعها أبوها رهينةً لدى روما.
وهل جاءت لزيارتك؟

- لا يا أوغستينا. إنّها تقيم في القصر منذ أول أمس.
- وهل حضرت المأدبة ليلة البارحة؟
- أجل يا أوغستينا.
- بأمر مَن؟
- بأمرٍ من القيصر.
صارت بوبيا أكثر اكتراثا بليفيا، التي انحنت أمامها مطأطئةً دون أن تخفي فضول عينيها نحوها... وعلى حين غرّة ظهرت تقطيبة خفيفة بين حاجبي أوغستينا. كانت غيورة على سطوتها وجمالها. وعاشت على الدوام في هلع وخوف من أن تأتي منافستها المحظوظة ذات يوم، وتتغلّب عليها، وتنحّيها جانباً كما فعلت هي بأكتافيا. لهذا السبب كانَ كلّ وجهٍ جميلٍ في القصر يولِّدُ فيها الظنون ويثيرُ القلق في نفسها. وبعينين خبيرتين راحت تقيس قدّ الفتاة، وأدهشها كلّ تفصيلٍ في وجهها فأصابتها الرعدةُ. قالت لنفسها:
- نيمفا حقيقيّة. أنجبتها فينوس.
ولمع في ذهنها الآن ما لم يخطر لها من قبل أمام أي جمالٍ آخر.
إنّها - بوبيا أكبر سناً بكثير! استيقظت في داخلها عبادة الذات التي خُدشت الان، واهتزّت. دار في ذهنها شتّى المخاوف: لعل نيرون لم يرها. ولعلّه لمحها سريعاً دون أن يدقّق في ملامحها. ولكن ما الذي يمكن أن يحصل لو صادفها في وضح النّهار، ورآها بمثل هذا الجمال العجيب؟ فضلاً عن أنّها ليست من العبيد. ابنةُ ملك. صحيحٌ أنّها من البرابرة، لكنّها فتاةٌ ملكيّة! آهٍ أيتها الآلهة الخالدة. إنّها جميلة مثلي، وأكثر شباباً منّي.
تعمّقت التقطيبة بين حاجبيها، وقدحت عيناها شرراً. لكنّها التفتت إلى ليفيا وسألتها بهدوءٍ مصطنع:
- هل تحدّثت مع القيصر؟
- لا يا أوغستينا.
- لم تحبين الإقامة هنا أكثر من منزل أولوس؟
- لا أحبّ هنا أكثر يا سيدتي. لكنّ بترونيوس كلم القيصر أن يأتي بي من منزل أولوس. وأنا هنا رغم إرادتي يا سيدتي.
- هل تحبين العودة إلى بومبونيا؟
طرحت بوبيا سؤالها الأخير بنبرة أكثر ارتياحًا ووداعةً، الأمر الذي أيقظ آمال ليفيا فجأة. فصرخت فاتحةً يديها نحوها متضرّعة:
- يا صاحبة الهيبة. القيصر وعد أن يهديني كجارية لفينيكوس. احميني، وأعيديني إلى بومبونيا!
- إذن قام بترونيوس بالتحدّث مع القيصر ليأتي بك من منزل أولوس ويقدمك لفينيكوس؟
- أجل يا صاحبة السطوة. فينيكوس سيرسل من أجلي اليوم. ساعديني!
ثم انحنت وأمسكت طرف ثوب بوبيا منتظرة الردّ بقلبٍ خافق. لكنّ بوبيا نظرت إليها بابتسامةٍ ماكرة، وقالت بعد قليل:
- أعدك إذن أنك ستكونين اليوم عبدة فينيكوس. وتوارت كشبحٍ ماكرٍ جميل.
دمعت عينا ليفيا، وقالت:
- لنعد أدراجنا. سنتقبّل المساعدة من حيث يمكن أن تأتي.
وعادتا إلى الأتريوم. ولم يغادر المكان حتّى المساء. وحين حلّت الظلمة، وبدأ العبيد يدخلون الفوانيس الرباعيّة، كانت كلتاهما شديدة الوهن، شاحبة، متلعثمة الكلام، واكتفتا باستراق السمع، بانتظار أن يصل أحدهم. ومع مرور الوقت كانَ حزن ليفيا يتفاقم وقد أوشكت ساعة الرحيل أن تحين. أرسوس ينتظر في ظلام الليل.

توتّرت واشتدت ضربات قلبها، بينما راحت أكتي تجمع على عجل كلّ ما عثرت عليه من مجوهرات، وعقدته في أطراف الرداء، ورجت ليفيا ألّا ترد هذه الهديّة بالرفض. ساد صمتٌ شديدٌ جعلهما تسمعان كلّ نأمة صوت وهمسٍ وراء الستارة، وبكاء طفلٍ بعيد، ونباح كلب.
وسرعان ما فُتحتً الستارة، وظهرت في الأتريوم شبح تبين أنّه رجل أسود طويل القامة، منمش، وسيم الوجه. عرفته ليفيا في الحال. أتاكينوس عبد فينيكوس، المعتوق الذي غالباً ما كانت تصادفه في منزل أولوس.
صرخت أكتي. لكنّ أتاكينوس قدّم انحناءة عميقة، وقال:
ـ تحية لليفيا الربانيّة من قبل ماركوس فينيكوس الذي ينتظرها على مأدبةٍ في منزله المظلّل بالاشجار.
شحبت شفتا الفتاة تماماً، وقالت:
ـ ذاهبة.
ثم عانقت أكتي مودّعة.

## (10)

كانَ منزل فينيكوس مزيناً فعلاً بأغصان الآس واللبلاب، التي توزعت حبالاً مجدولة على الجدران، وفوق الأبواب. وأحيطت عمدانه بجدائل من أغصان الكرمة البريّة. كانت الأنوار تعمّ الأتريوم الذي غطت نوافذه ستائر أرجوانية من الصوف اتقاءً لبرودة الليل.

كانَ ما أضاء الأتريوم، وأضفى عليه إنارةً كضوء النّهار، فوانيس ثمانية الأفرع أو مدقوقة من النحاس، أو تماثيل لحيوانات وطيور منحوتة من الرخام. صحيح أنّها لم تكن بروعة فوانيس معبد أبولو الشهيرة التي اعتاد أن يستخدمها القيصر، لكنّها كانت جميلة قام بصنعها مهنيون ذائعو الصيت. وكانت تعلوها مظلّات حمراء، وزرقاء، وصفراء، وبنفسجية من الزجاج الإسكندراني، أو من الأقمشة الهنديّة الشفافة جعلت أشعة الضوء الملوّنة تتوزع أرجاء الأتريوم الفائحة برائحة عطر الناردين الذي اعتاد فينيكوس أن يحضره من الشرق. وكان في المنزل المؤتلق بالإنارة فتيان وفتيات من العبيد لا ينقطعون عن الحركة هنا وهنالك في أقسامه الداخليّة. وفي التريسيلينيوم توضعت مائدة فرشت لأربعة أشخاص لأنّ بترونيوس وكريسونميس إلى جانب فينيكوس وليفيا كانا مدعوّين لحضور المأدبة.

لقد اتّبع فينيكوس في كلّ أمرٍ توصيات بترونيوس الذي نصحه أن لا يذهب إلى ليفيا بنفسه، بل أن يرسل إليها أتاكينوس بتفويض من القيصر، وما عليه هو إلا أن يستقبلها في المنزل بغاية اللطف والاحترام.

قال لهُ بترونيوس:

ـ كنت ثملاً ليلة أمس. رأيتك كيف تصرّفت مع الفتاة كقاذف حجارة من فوق جبال الألب. لا تكن فظاً واقتحاميًّا كلّ هذا القدر. ولا تنس أنَّ النبيذ اللذيذ يحتسى بتمهُّلٍ وحذر. واعلم كذلك أنَّ من الحُسن أن تكون راغباً، لكنّ الأحسن أن تكون مرغوباً.

كانَ لكريسوتميس رأيها المختلف تماماً في ذلك. لكنّ بترونيوس الذي دعاها بعذراء فيستا، وبالحمامة الصغيرة، أوضح لها الفرق بين المتمرّس في قيادة العربة في السيرك، وبين الشاب الذي يجلس لأوّل مرّة في الكدريجة ذات العجلتين التي تجرّها أربعة أحصنة.

واستأنف حديثه قائلاً:

ـ نل ثقتها أولاً، وحقّق لها البهجة، وكن كريماً واسع الصدر معها. لا أحبّ أن أرى مأدبة حزينة. أقسم لها بهاديس بأنّك سوف تعيدها إلى بومبونيا. والباقي يتوقّف عليك إن كانَ في اليوم التالي ستفضُّل البقاء عندك بدلاً من العودة إلى منزل أولوس.

ثم أضاف مشيراً إلى كريسوتميس:

ـ أنا، يوماً بعد يوم منذ خمس سنوات أتبع هذا السلوك مع عصفورتي الجبانة، ورغم ذلك لم أعان من سوء معاملتها لي.

لوّحت كريسوتميس.مروحة ريش الطاووس، وجاء ردّها:

ـ وكأنّي لم أمانعك أيها الشبق!

ـ فقط فيما سبق.

ـ وكأنك لم تركع أمام قدمي!

ـ لكي أضع خاتما في إصبعك.

نظرت كريسوتميسي نحو قدميها، ولمّا رأت الحلي تلمع حول أصابعها حقًّا، انفجرا ضاحكين، لكنّ فينيكوس لم يكن ينصت إلى حديثهما لأنّ قلبه كانَ مضطربًا شديد الخفقان تحت الرداء البابوي السوري المرقّش الذي ارتداه لاستقبال ليفيا.

قال وكأنّه يكلّم نفسه:

ـ حانت لحظة الانطلاق من القصر. فأجاب بترونيوس:
حانت. وحتّى ذلك الوقت سأروي تنبؤات أبولونيوس أو حادثة روفينوس التي لا أدري كيف لم أكملها.
لكنّ فينيكوس لم يكن شغوفًا بالتنبؤات، ولا مهتمًّا بحادثة روفينوس. كانت أفكاره كلّها تصبُّ عندَ ليفيا. وأحسَّ لوهلةٍ أنَّ من الأجمل أن يستقبلها هنا في منزله، لا أن يذهب من أجلها إلى القصر على طريقة السياسيين أصحاب المصلحة. ولكنّه، لوهلةٍ أخرى، قد شعر بالنّدم لعدم ذهابه إليها، لا شيء، إلا ليعجّل في رؤيتها، ويجلس إلى جانبها في العتمة في الهودج المخصص لراكبين.
في هذه الأثناء كانَ الخدم يأتون إلى الداخل بأطباق الحملان الساخنة، ويرشّون فوقها فلفل الناردين والطيب.
بادر فينيكوس إلى الكلام ثانية:
ـ الان ينعطفون نحو كارينا.
فعلّقت كريسوتميس قائلة:
ـ إنّه لا يحتمل الأمر، وسيخرج لملاقاتها.
فابتسم فينيكوس قائلاً بهدوء:
ـ بل أحتمل.
واتسع خيشوماه، وأخذ يلهث، بينما هزّ بترونيوس كتفيه معلناً:
ـ لا يتمتع بأيّ قدرٍ من مؤهلات الفيلسوف. لن أستطيع أن أنحت إنساناً من ابن مارس هذا.
لم يسمعه فينيكوس.
ـ لقد صاروا في كارينا.
كانَ أولئك قد انعطفوا باتجاه كارينا، يتقدّمهم العبيد ممن يُطلَق عليهم حاملو الشعل، وكانت مرافقتهم تسير محيطة بالهودج من الجانبين. أمّا أتاكينوس فكان يحرس الهودج سائراً وراءه.
كانوا يتقدمون ببطء، لأنّ المصابيح لم تكن تضيئ على نحوٍ كافٍ شوارع المدينة التي يلفّها الظلام. إلى جانب ذلك كادت الشوارع المجاورة للقصر أن تكون خاليةً تماماً لولا مصباحٌ يسير به أحد المارّة هنا وهناك.
وكلما ابتعدت المسافة عن القصر كانت الحركة أكثر حيويّة وكثافة.
ما من زقاقٍ إلا وبرز منه ثلاثة أشخاص، أو أربعة، وجميعهم بلا مشاعل، وبعباءات سود. بعضهم راح يسير ملازماً الموكب مندمجاً مع العبيد، وآخرون اقتربوا في مجموعاتٍ أكبر قادمين من الاتجاه المعاكس. وكان الجميع يترنّحون كالسكارى. أحياناً كانَ التقدّم إلى الأمام متعثّرا، الأمر الذي جعل حاملي الشعل يصيحون:
ـ أفسحوا الطريق لموكب ماركوس فينيكوس.
كانت ليفيا ترى من وراء الستارة هذه الحشود القائمة متوتّرة يحدوها الأمل من جهة، والخوف من جهة أخرى. فقالت بشفتين مرتعشتين:
"إنّه هو أولوس والمسيحيّون! ساعدني يا مسيح! أنقذني يا مسيح!"
في بادئ الأمر لم يُعر أتاكينوس أهتماماً لهذا الحراك الاستثنائي، لكنّه سرعان ما أخذ يضطرب. أمر مختلف يحدث الآن.
ازدادت صيحات حاملي المشاعل "أوسعوا الطريق لهودج الموكب النبيل".
اقترب أشخاصٌ مجهولون من جانبي الهودج، فأمر أتاكينوس مرافقته من العبيد أن يطردوهم بالعصيّ.
جاءت ضجّة كبيرة من مقدّمة الموكب، وبومضة عين أُطفئت كافّة المشاعل، ثم حصل تدافعٌ وضجيج

أفضيا إلى مشادّة وشجار.
أدرك أتاكينوس: "هجوم سافر".
كانَ معروفًا أنَّ هنالك مجموعات قطّاع الطرق، وعصابات تتبع رجالات الحاشية القيصريّة تمارس العبث والتسلية والفوضى، وتقوم بالضرب والأذيّة على هواها في سوبورا، وسائر أنحاء المدينة. وكان معروفًا أيضاً أنَّ من يحاول صدّها دفاعاً عن النفس قد يلقى حتفه حتّى لو كانَ سيناتوراً. كانت مواقع الخفراء غير بعيدة، ولكنّهم في حالات كهذه يفضّلون عدم التدخل، فيُغمضون أعينهم، ويلزمون الصمت.
كانَ العراك يجري حول الهودج. ولقد وصل حدَّ الضرب المبرّح حتّى القتل، أو الإطاحة أرضًا. خطر لأتاكينوس أن الأهم إنقاذ ليفيا، وإنقاذ نفسه. أمّا الآخرون فيُترك أمرهم للأقدار. التقط ليفيا بين ذراعيه، وسعى إلى الخروج في الظلام.
لكنّ ليفيا صرخت مناديةً:
- أرسوس! أرسوس!
كانت ثيابها بيضاء أمكن رؤيتها بسهولة. وحين حاول أتاكنيوس أن يغطيها بعباءته، شعر بقبضة هائلة القوّة تلفُّ عنقه، ثم بكتلةٍ رهيبة تحطّ كالصخرة فوق رأسه.
سقط أرضًا كالذبيحة أمام مذبح جوبيتر. كانت الغالبيّة العظمى من العبيد ممدودةً أرضًا، أو تُجرجِرُ نفسها لصق الجدران في جُنُح الظلام.
ولم يبق في المكان سوى الهودج المحطّم. توجّه أرسوس بليفيا صوب سوبورا، وكان أصحابه يلحقون به مبعثرين واحداً تلو الآخر. وحين تجمّع العبيد أمام منزل فينيكوس راحوا يتناقشون قبل أن يجرؤوا على الدخول.
وبعد نقاشٍ قصير، عادوا إلى موقع الهجوم حيث وجدوا بعض الجُثث. ومن بين القتلى كانَ أتاكينوس. حملوه وعادوا به إلى المنزل، ووقفوا من جديد أمام المدخل. لابُدَّ أن يخبروا سيّدهم.ما حصل.
تهامس بعضهم:
- لندع غولو يخبره. وجهُهُ مدمّى كوجوهنا. وسيُّدنا يُحبُّهّ. لا خطر عليه مثلنا.
غولو عبدٌ ألماني عجوز. قام ذات يوم بتربية فينيكوس ثم ورثه عن أمّه، وعن أخت بترونيوس الكبرى.
قال العجوز:
- أنا سأخبره. لكن دعونا ندخُلُ معاً لكي لا ينصبَّ كلُ غضبه عليّ وحدي.
ولكن فينيكوس كانَ نافد الصبر حقاً. وكان بترونيوس وكريسوتميس يهزأان منه، وهو يزرعُ الأتريوم جيئةً وذهابًا ويردّد:
- حان وقت وصولهم...حان وقت وصولهم. وأراد أن يذهب ولكنهما منعاه.
وفجأة سمع وقع خطوات. وسرعان ما صار العبيد داخل الأتريوم.
واصطفّوا رافعي الأيدي إلى جانب الحائط وهم يولولون:
- آآ....آ
قفز فينيكوس نحوهم وصرخ بهم:
- أين ليفيا؟
- آآ...
تقدّم غولو دامي الوجه وقدّم شكواه باكياً:
- انظُر إلى الدّم يا سيّدي. لقد دافعنا بكل قوانا، وهذا هو الدم يا سيدي... هذا هو الدم.
لم يتمكّن من إنهاء كلامه لأنّ فينيكوس كانَ قد قبض على حامل الشعل البرونزي فقذف به جمجمة العبد.

ثم أمسكه برأسه، وشبك أصابعه بشعره، وتأوّه بصوتٍ مجلجل:

ـ ويلي! ويلي!

أزرقَّ وجهه، وغارت عيناه، وزبد فمه. وزأر بصوتٍ لا يصحُ أن يكون إنسانيًّا.

ـ الكرباج

فولول العبيد

ـ سيّدي! آآ أرأف بنا.

أمّا بترونيوس فطفت على وجهه تعابير الاشمئزاز فقال:

ـ هيا يا كريسوتميس. إن كنت تريدين أن تشاهدي لحماً فلنذهب إلى محل الجزارة في كاريني. وخرج من الأتريوم. لكنّ المنزل الذي زُيِّن بالآس واللبلاب استعداداً للمأدبة، لم يسمع فيه بعد قليل إلا صوتُ الكرباج، والصرخات والتأوّهات التي استمرّت حتّى الصباح.

لم ينم فينيكوس تلك الليلة. ولأنَّ قيامه بجلد العبيد بعد انصراف بترونيوس بقليل، لم يشف غليله، ولم يخفّف من آلامه وغضبه، فقد استجمع عبيداً آخرين، وانطلق بهم آخر الليل للبحث عن ليفيا. جاب حيّ اسكويلنوس ثم سوبورا، وفيكوس وسيكلاراتوس، وسائر الأرجاء المجاورة. ثمَّ دار في الكابوتوليوم، وعبر جسر فابريكوس إلى الجزيرة، ثم جاب أقصى أحياء المدينة في تيبريس.
لكنّها كانت مطاردة فاشلة لم يكن يأمل منها في الأساس العثور على ليفيا، ولكنّه قام بها رغم كلّ شيئ لكي يمضي ليلته الرهيبة هذه منشغلًا بأمرها.
وفعلاً، لم يعد أدراجه إلى المنزل إلا عندَ الفجر، حين بدأت تظهر في المدينة عربات الخضراوات، وراح الخبّازون يفتحون محالهم. ولمجرّد وصوله أمر بدفن جثمان غولو الذي لم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منه في غيابه. وحكم على العبيد الذين كانت ليفيا في عهدتهم بالاشغال الشاقّة في الارغاستولوم الريفي، وهو حكم أقسى بكثير من الحُكم بالإعدام. ثم استلقي على مقعد في الأتريوم، واسغرق في التفكير ليجد طريقة يستعيدُ بها ليفيا.
التنازل عنها، وفقدانها إلى الأبد، أمران مستحيلان. جُنَّ جنونه.
إنّها المرّة الأولى التي يواجه فيها الجنديّ الشاب بطبعه العنيف مقاومة وإرادة غريبة قاهرة. ولم يرُق لهُ أنَّ أحداً يجرؤ على الوقوف في طريق رغباته. كانَ أهون عليه دمار هذه المدينة، والكون بأسره، ولا أن يبوء مرامه بالفشل. سلبوه كأس المتعة من بين يديه، حين أوشك أن يلامس شفتيه.
وجد أنَّ ما حصل كانَ أمراً فريداً يستحقُ النقمة على كافّة تشريعات الآلهة والبشر.
ولكنّه، قبل كلّ شيئ، لم يحتمل، ولم يشأ أن يكترث بما فرضته عليه الأقدار. لأنّه لم يرغب في شيئ خلال حياته، رغبته في ليفيا. شعر أنّه لا يستطيع أن يعيش بدونها. ولم يقدر أن يعطي حتّى لنفسه إجابةً عمّا يمكن أن يفعله بدونها، فيما يلي من أيام. ومرّت لحظاتٌ شعر فيها أنَّ نوباتٍ من الغيظ والغضب من ليفيا تتملّكه. تمنّى أن تكون لهُ ليوسعها ضرباً، ويُجرجرها من شعرها، ويشفي غليله منها. ومرّت لحظاتٌ أخرى أحسَّ بشوقٍ لا يقاوم إلى صوتها، وقدّها، وعينيها. وشعر أنّه يستطيع أن يركع عندَ قدميها. ناجاها وهو يقضمُ أصابعه، ويفرك رأسه. وحاول بكل ما يملك من قوة أن يفكّر برويّة تمكّنه من إعادتها والحصول عليها، لكنّه باء بالفشل. لمعت في ذهنه الآف والآف من الأفكار، وكل واحدة أكثر بلاهةٍ وخبلاً من الأخرى. حتّى خطرت لهُ أخيراً فكرة تقول أن لا أحد يستطيع أن يحرّرها سوى أرسوس وهو الوحيد العارف بمكانها.
وقفز من مكانه يهمُّ بالانطلاق إلى منزل أولوس. فإن لم يسلّموه إياها، ولم يستجيبوا لتهديداته، سوف يقصدُ القيصر ويشي بالقائد العجوز متّهما إياهُ بالمروق، ويجعل القيصر يحكمُ عليه بالإعدام.
لكنّه سيسعى بادئ الأمر أن يعرف منهم أين تقيم ليفيا الآن. وحتّى لو سلّموه إياه من تلقاء ذاتهم، فسيبقى ناقماً عليهم. صحيح أنّهم قد أحسنوا استقباله فيٍ منزلهم، وأحاطوه بالرعاية، والعلاج، لكن سيّان. فهم بفعلتهم هذه يتسبّبون لهُ بجرح بليغ يجعلُهُ في حلٍ من الامتنان وراحت روحه العارمة بالبغضاء والنقمة الآن، تحلّق ملتذّة بفكرةِ ما الّذي سيحل ببومبونيا، وكم سيلحق بها من قنوطٍ ويأس، حين يصدر حكم بالإعدام كانَ واثقاً تمام الثقة أنَّ باستطاعته استصدار الحُكم بالإعدام. وبدعم من بترونيوس كذلك. على أيّة حال، القيصر لا يرفض طلباً لأيٍّ من أصدقائه الاوغستيان، إن كانَ الأمرُ لا يمسُّ عاطفته الخاصّة، ولا يتعارضُ مع ما قد يكنُّهُ من بغضاءٍ تجاه أيٍّ كانَ.
وسرعان ما راودته فكرةٌ رهيبة: ماذا لو قام القيصر بانتزاع ليفيا منه؟
بات معروفًا للجميع، أنّ القيصر في لحظاتِ سأمِهِ، غالباً ما يروُقُ لهُ البحثُ عن سلواهُ في مغامرات ليليّة

لصوصيّة يسميها هو"صيد اللؤلؤ". وبمشاركة بترونيوس أيضاً. وفي كثيرٍ من الحالات في الأحياء الفقيرة ذات الكثافة السكانيّة العالية مرتع الصبا والجمال. إلى أن يتمَّ السطو على النساء، ويجري تحويل "اللالئ الحقيقية" منهن إلى البلاتينوس، أو إلى واحدةٍ من فيلات القصر المنتشرة بكثرةٍ في أرجاء المدينة. وقد يقوم القيصر بتزويد أنصاره بهنَّ هدايا لا يحلمون بها. لقد شاهدها القيصر في المأدبة، وما من شك، بنظر فينيكوس، أنّها أجمل من وقعت عليها عيناه من بين النساء جميعاً. لا احتمال آخر إطلاقاً. ما دامت ليفيا قد زارت القصر، كانَ بمقدور القيصر أن يأخذها لنفسه علناً، لكنّه بزعم بترونيوسن كان جبانا على القيام بذلك. كانَ علنيّ النيّة، ولكنّه خفيّ الأفعال. يدفعه إلى ذلك خوفه من بوبيا. خطر لفينيكوس الآن أنّ عائلة أولوس قد لا تجرؤ على اختطاف الفتاة التي أهداها القيصر لهُ. ومن يجرؤ على القيام.مثل ذلك؟
لعلّه ذلك العبد الليغوي العملاق صاحب العينين الزرقاوين الذي تجرأ على اقتحام التريسيلنيوم، وأخذ ليفيا بين ذراعيه؟ لكنّ أين أخفاها؟ إلى أين ذهب بها؟ لا، لا يمكن لعبدٍ أن يقوم.مثل ذلك. إذن لم يبق إلا القيصر، ولا أحد سواه.
اسودَّ الكون أمام عيني فينيكوس لهذه الخاطرة، وتعرّق جبينه. ففي هذه الحالة يكون قد فقد ليفيا إلى أبد الآبدين. فلو كانت لديَّ أي أحد آخر، لتمكّن من انتزاعها، أمّا وهي لدى نيرون فمستحيل.
حق لهُ الآن أن يقول: في ميسيرو ميهي ما أسوأ حظي.
تخيّل ليفيا بين ذراعي نيرون، واكتشف لأوّل مرّة في حياته أنَّ هنالك خواطر لا يتحمّل وقعها. شعر الآن كم يحبّها. وكما يقوم الغريق في لحظة الغرق باستعراض شريط حياته، كذلك عبرت ليفيا أمام عينيه الآن. رآها أمامه، وسمع كلّ ما قالته. رآها عندَ البركة، وفي بيت أولوس، وفي المأدبة. شعر بها قريبة منه، واشتمَّ رائحة شعرها، وأحسَّ بدفء جسدها، وروعة القُبَل المختلسة من شفتيها البريئتين. شعر الآن، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أنّها أحلى وأجمل بكثير من سائر البشر الفانين، وآلهتهم. وإذا ما خطر لهُ أنّ كلّ هذه الروعة التي تذيبه شوقاً إليها، وتعلقاً بها، ستكون من نصيب نيرون. شعر بحرقةٍ لا تفوقها حرقة، وبألم جسدي رهيب يدفعه إلى أن يفجّ رأسه بجدران الأتريوم. وأحسَّ أنَّ ذلك يقوده إلى الجنون. ولقد أوشك أن يجنَّ لولا فكرة الانتقام التي راودته. ففي حين كانَ يشعر أنّه لا يقوى على الحياة قبل استرجاع ليفيا، صار يشعر الآن أنَّ حياته مستحيلة بغير الانتقام. إنّها الفكرة الوحيدة التي هدأت قليلاً من روعه"أنا لك". قالها مخاطباً نيرون. وبعد ذلك قبض على حفنة تراب من أصيص الزهور، وأقسم بأريبوس وهيكاتي، ومقدّسه المنزلي الخاص، أن لا رجعة عن الإيفاء بقسمه.
ولقد هدأ فعلاً. صار هنالك على الأقل معنى لحياته، يمضي أيامه ولياليه بالانشغال به. ثم تخلّى عن فكرة ذهابه إلى منزل أولوس، وانطلق إلى البالاتينوس. وفي طريقه إلى هناك فكّر أنّه في حال لم يسمح لهُ بمقابلة القيصر، أو في حال قاموا هناك بتفتيشه بحثاً عن سلاح يحمله، فمعنى ذلك أنَّ القيصر هو من قام باختطاف ليفيا. كانَ يحمل سلاحاً، وكان في حقيقة الأمر، خارجاً عن طوره، لا تنقذه إلا فكرة الثأر التي استحوذت عليه، وأرضخته.
لم يشأ أن يُهزم أمام الزمن. وإضافة إلى ذلك أراد أن يقابل أكتي لأنّه ظنَّ أنَّ الحقيقة عندها. وبين الفينة والأخرى كانت تراوده فكرة رؤيته ليفيا هناك. وكان يرتعد لذلك. ماذا لو كانَ القيصر قد اختطفها دون أن يدري من تكون وحين يخبره بأمرها يتراجع عنها ويعيدها إليه. لكنّه سرعان ما تخلّى عن هذه الفرضيّة. لو أرادوا أن يعيدوها إليه لفعلوا ذلك منذ يوم أمس. الخبر اليقين عندَ أكتي.
لا بدَّ من لقائها أولاً.
وحين حسم أمره، أهاب بأرقائه أن يغذوا المسير، لكنّه كانَ مشوشاً في طريقه، تتجاذبه ناران تضطرمان في كيانه. نار ليفيا، ونار الانتقام. سمع أنَّ الكهنة المصريين يجلبون الأمراض لمن يريدون. وقرّر أنّه

سيسأل عن هذه الطريقة. كما سمع أنَّ لدى اليهود في الشرق طريقتهم في السحر تمكّنهم من نشر القروح فوق أجساد أعدائهم. وكان لديه بعض من الأرقاء اليهود، فقرّر، لمجرّد عودته إلى المنزل، أن يخضعهم للجلد بالكرباج حتّى يفشوا هذه الأسرار. وبشديد التوق فكّر باستخدام السيف الروماني القصير لمضائه الشديد في إسالة الدماء كسيف كاليولا الذي خلّف آثارا لا تمحى من الدماء فوق عمدان الأروقة.
كانَ في هذه اللحظة مستعدًّا لتدمير روما بأسرها، والقضاء على البشريّة جمعاء، ليبقى وحيداً مع ليفيا. وأمام المدخل استعاد كلّ توازنه، وحين أصبح هناك فكّر: لو أقدم هؤلاء على أي سلوك يمنعه من الدخول، معنى ذلك أنَّ ليفيا في القصر، بإرادة القيصر. لكنّ قائد الحرس كانَ ودوداً معه، وتقدّم منه بضع خطوات باسماً ليقول:
- تحيّة لك أيها النبيل. إن كنت ترغب في المثول أمام القيصر، فقد اخترت اللحظة غير المناسبة. لا أدري إن كانَ بمقدورك التحدّث إليه.
فسأله فينيكوس:
- ما الذي حصل؟
- الأوغستينا الربانيّة الصغيرة تعرّضت لمرض مفاجئ. والقيصر وبوبيا هما إلى جوارها برفقة الأطباء الذين استدعوا من سائر أنحاء المدينة.
كانَ حدثاً في غاية الأهميّة. حين وُلدت هذه الطفلة، كاد القيصر أن يجنَّ من الفرح الذي فاق كلّ حدود الفرح البشري. وقبل ذلك كانَ مجلس الشيوخ قد اجتمع ليقدّم. مراسم مهيبة، أمومة بوبيا إلى الآلهة.. ذُبحت النذور، وأجريت في الأنتيوم حيث تمّت الولادة، المبارزات الكبرى، إضافة إلى إشادة معبد تقديراً للأنثيين الآلهيتين، الأم وابنتها. والقيصر الذي لا يقيم اعتباراً ولا وزناً لأي شيئ، فقد أحبّ هذه الطفلة بلا حدود. وكذلك بالنسبة لبوبيا، فقد كانت الطفلة محبّبة إلى قلبها لسببٍ آخر أيضاً: لقد دعمت مقامها وثبّته في القصر، وجعلت تأثيرها داخله لا يقاوَم.
كانَ مصير الحُكم بالكامل متعلّقا بصحة الأوغستينا وحياتها. لكنّ فينيكوس الذي لم يكن منشغلًا إلا بشخصه هو، وقضيّته الخاصّة، وحبّه، لم يكترث لنبأ قائد الحرس وقال لهُ:
- لا أريد أن ألتقي سوى أكتي. ودخل ولكنَّ أكتي كانت منشغلةً بالأطفال، فاضطّر أن ينتظر طويلاً.
لم تأت إليه إلا عندَ الظهيرة، وكانت مرهقةً وشاحبة الوجه وبرؤيتها الشاب تفاقم شحوبها.
- أكتي.
ناداها وسحبها من يدها إلى وسط الأتريوم، ثم قال لها:
- أين ليفيا؟
فأجابت الفتاة بنظرات الملامة والعتاب:
- كنت أريد أن أسألك السؤال ذاته.
ولما كانَ قد اتخذ قراراً باستجواب أكتي بكامل الهدوء والرويّة فقد قبض على رأسه وتكلّم بقسمات مشوبةٍ بالألم والغضب.
- اختفت! اختطفت في أثناء الطريق.
وسرعان ما استجمع قواه، وقرّب وجهه من وجه أكتي وقال ضاغطاً على أسنانه:
- أكتي... إن عزّت عليك حياتك، ولا ترغبين أن تكوني طرفاً في حدوث أمرٍ سيئ رهيب، أجيبيني بصدق:
- أليس القيصر من اختطفها؟
- قسماً بطيف أمي يا ماركوس، ليست في القصر، وليس القيصر من اختطفها. أمس مرضت الصغيرة، وظلَّ القيصر ملازماً لها.

تنفّس فينيكوس الصعداء. ما وضعه في حسبانه على أنّه أكثر الأمور سوءاً، لم يحصل. فقال مطبقاً قبضته وهو يجلس على مقعده:

ـ إذن عائلة أولوس هي التي اختطفتها. يا ويلهم إن صحَّ ذلك.

كانَ أولوس هنا في الصباح. لم يتمكّن من لقائي لأنّي كنت عندَ الصغيرة. لكنّه سأل عن ليفيا كبير الخدم، وخدماً كُثُراً آخرين. وقال إنّه سيعود في وقتٍ آخر لمقابلتي.

أراد أن يبعد الشبهات. لو لم يعرف ما الذي حصل لليفيا، لبحث عنها في منزلي.

كتب قصاصةً صغيرة يُستشف منها أنَّ كلّ ما يعرفه هو أنَّ القيصر طلب ترحيلها من منزله بناءاً على رغبة بترونيوس ورغبتك. وبما أنّه ظنّ أنّها عندك، ذهب إليك منذ الصباح، وهناك أخبروه.ما حصل لها.

قالت أكتي ذلك ودخلت لتعود بالقصاصة.

قرأها فينيكوس ولزم الصمت. وكأنَّ أكتي قد قرأت على وجهه المتجهّم ما يدور في نفسه من أفكار، فقالت بعد وقتٍ قصير:

ـ لا يا ماركوس فينيكوس. لقد حصل ما كانت ليفيا راغبة فيه.

فانفجر قائلاً:

ـ وكنت على علم بأنها تريد أن تهرب!

لكنّ الفتاة ألقت نظرة صارمة في عينيه الضبابيتين.

ـ أعرف أنّها لا تريد أن تكون ضجيعتك..

ـ وأنت ما الذي كنته طوال حياتك؟

ـ كنت عبدةً قبل الآن.

ظلّ فينيكوس غاضبًا. القيصر هو من أهداها ليفيا، فلا يهم إذن من تكون، وسوف يجدها ولو كانت تحت الأرض، وسيفعل بها ما يشاء. أجل! سوف تكون ضجيعته. وسوف يظل يجلدها كلما رغب في ذلك. وحين يسأمها سيرميها لأي من أرقائه، أو سيرسلها إلى أي من أملاكه في أفريقيا، تدير الطواحين اليدويّة. سيبدأ الآن التفتيش عنها، وسوف يجلبها فقط كي يقوم بتحطيمها وإهانتها.

أفقده غضبه الصبر والرويّة، فلم يستطع الإجابة عن السؤال:

ـ ما الداعي لياتي إلى أكتي؟ لم يعثر في البداية على جواب.

لقد جاء إليها لأنّه أراد ذلك. لأنّه ظنّ أنّه سيعرف منها شيئاً. ولكنّه في الحقيقة قد جاء لمقابلة القيصر، وحين لم يره، قصد أكتي. ثم أنَّ ليفيا بهروبها تخالف إرادة القيصر. سيقوم إذن بإخباره. وسيعطي القيصر أوامر بالبحث عنها في المدينة، وسائر أنحاء الإمبراطوريّة. وسوف يقوم بترونيوس بدعم طلبه من القيصر البحث عنها منذ اليوم، وحالاً أجابت أكتي:

ـ حذار أن تخسرها، إذا ما وجدوها بناءاً على أمرٍ من القيصر.

قطّب فينيكوس حاجبيه متسائلًا:

ـ ما معنى ذلك؟

ـ اسمعني يا ماركوس! البارحة كنت مع ليفيا في الحديقة، وصادفنا بوبيا هناك وكانت معها الصغيرة بين ذراعي ليليث. في المساء مرضت الطفلة. زعمت ليليث أنَّ عين ليفيا قد أصابتها. إذا شفيت الطفلة انقضى الأمر، وإلا ستتولى بوبيا بالذّات محاسبتها على فعلتها. لا منجاة لها إذن.

ساد صمتٌ قصير ثم قال فينيكوس:

ـ وهل فتنتها فعلاً؟ لقد فتنتني كذلك.

هذا ما زعمته ليليث. بدليل أنَّ الطفلة سرعان ما راحت تبكي حين عبرت من أمامنا هذا صحيح. لقد بكت.

ربما كانت مريضة حين أخرجت إلى الحديقة. فينيكوس! حذار! ابحث عنها حيثما شئت، لكن لا تتحدّث عنها مع القيصر، إلا بعد شفاء الطفلة، وإلا ستصب بوبيا جام غضبها عليها. لقد بكت عيناها كفاية بسببك. كانت الآلهة في عونها.
فسألها فينيكوس جادًّا:
ـ هل تحبينها يا أكتي؟
ترقرقت الدموع في عيني أكتي:
ـ أجل. أحببتها كثيراً.. لأنّها لم تكن لك الكراهية كما تكن هالي. فرمقته أكتي كأنما تريد أن تعرف إذا كانَ صحيحاً ما يقول. ثم قالت:
ـ ما لك أيها الغضوب الأعمى! لقد أحبتك.
قفز فينيكوس كالممسوس.
ـ ليس صحيحاً! لقد كانت تكن لهُ البغضاء. كيف لآكتي أن تعرف؟ وكيف تصارحها بذلك فور تعارفهما خلال يومٍ واحد؟ أيّ حبٍ هذا الذي يجعلها تفضّل الهروب، والبؤس، والغد المجهول، بل حتّى الموت البائس، عًلى المنزل المكلّل بالغصون، حيث ينتظرها حبيبها على مأدبة! الأفضل عدم سماع مثل هذا الترّهات لأنهّا مبعثٌ على الخَبَل والجنون. تبًّا! كانَ لا يبادل بهذه الفتاة ثروات القصر كلّها. ولكن... ها هي ذي الآن تهرب. أيُّ حبٍّ هذا الذي يخاف المتعة، ويولد الألم؟ من.مقدوره احتمال ذلك؟ من مقدوره تفهُّمُ ذلك؟ لو كانَ لا يأمل أن يجدها لطعن نفسه بخنجر. العادة أنّ الحب يوهب ويعطى، لا يُسلب، ويُستغنى عنه. عندما قابلها في منزل أولوس مرّت لحظات آمن فيها بأنَّ سعادته وشيكة. لكنّه بات الآن يدرك أنَّ ليفيا تكرهه، ويكرهها، وسيموت وقلبه مترعاً بالكراهيّة.
لكنّ أكتي التي ظلت متزنة حتّى الآن، انفجرت غضباً. كيف أراد فينيكوس أن يفوز بـ ليفيا؟ فبدلاً من أن يقوم بطلبها من أولوس وبومبونيا بكل احترام، حاول برضاعة أن يخطفها من أهلها، لا كزوجة لهُ بل كضجيعة فراشه. وهي ابنة الملك المدلّلة التي ترعرت في منزل محترم. جاء بها إلى منزل العار والخطيئة، وعاملها كفتاة شوارع رخيصة. لا بد أنّه قد نسي منزل عائلة أولوس أي منزل يكون. ونسي من تكون بومبونيا التي قامت بتربية ليفيا. لا بد أنَّ عقله أشد قصوراً من أن يدرك أنهما امرأتان غير نيجيدا أو كريسيلينا أو بوبيا، أو كل من التقاهنَّ في منزل القيصر. حين وقعت عيناه على ليفيا لم ير أنّها فتاة شريفة تفضّل الموت على العار. من أين لهُ أن يعرف بأي نوع من الآلهة تؤمن؟ وأنّ إلهها أكثر نقاءً، وصلاحاً من فينوس وإيريس الفاسقتين اللتين تجلّهما نساء روما اَلخليعات. لا. ليفيا لم تبح لها بشيء، وكل ما قالته أنّها تنتظر عوناً من فينيكوس. وكانت تأمل منه أن يخرجها من عندَ القيصر لتتمكن من العودة إلى بيتها، وتسليمها لبومبونيا.
لقد خفق قلبها لفينيكوس، لكنّ الأخير أخافها منه، وأذاها. والآن سيحرص جنود القيصر على البحث عنها. لكنّ هل يعلم أنّه لو حصل أيّ مكروه للطفلة، سوف تقع الشبهات على ليفيا وهذا يعني أنّه سيفقدها حتماً.
استجمع فينيكوس حماساً انضاف إلى غضبه وىلامه.
لقد هزّ كيانه نبأ حُبّ ليفيا لهُ. وخطر لهُ ما دار بينهما من حديث. دافئ في حديقة منزل أولوس، وشعر أنَّ الفتاة بدأت تحبّه منذ ذلك الحين، فامتلأ بهجةً تفوق حدود رغباته، وشهواته، وآمن أنّه كانَ من الممكن أن يحظى بحبها، وتكون لهُ طواعيَّة من تلقاء ذاتها، ويسمعها تردّد عبارة العروس في طقوس الزواج الرومانية:
ـ "أنا غايا، أكون حيث تكون أنت يا غايوس" وتصير لهُ إلى الأبد.
كيف لم يتبع هذه السلوك، وقد كانَ قادرًا على اتباعه؟ ولكنّها ليست هنا الآن، وقد لا يجدها أبدًا. وإن

وجدها فقد يفتقدها، وقد ترفضه هي وعائلة أولوس. استدعت فكرته هذه أن ينتصب شعر رأسه. غضباً ليس من عائلة أولوس أو ليفيا، بل من بترونيوس. هو السبب في كلّ ما حصل لهُ. لولاه لما كانَ على ليفيا أن تتوارى، ولكانت الآن خطيبته دون أخطار تهدّد حياتها الغالية. لكنّ ما حصل قد حصل، وفات أوان إصلاح ما ساء من أمور.

فات الأوان.

وشعر أن الأرض انهارت تحت قدميه. لا يدري ماذا يفعل، وكيف يتصرّف، وأين يذهب. ردّدت أكتي كالصدى: "فات الأوان". وصدرت العبارة من فمها كالحكم بالإعدام، لا يعرف إلا شيئاً واحداً هو كيف يعثر على ليفيا. وفشله في ذلك يعني الطامّة الكبرى.

حين لفَّ رداءه الفضفاض حوله استعداداً للذهاب دون كلمة وداع لـ أكتي، انزاحت الستارة الفاصلة بين الأتريوم والرواق، ليرى فجأة هيئة بومبونيا ماثلة أمامه.

كانَ قد وصلها نبأ اختفاء ليفيا. وكان التقدير أنَّ من الأسهل أن تقابل أكتي. قصدت المكان تستوضح النبأ نيابةً عن أولوس. وحين لمحت فينيكوس أدارت وجهها الضئيل الشاحب نحوه، وعلّقت قائلة:

سامحك الله يا ماركوس على ما ألحقته بنا من أذيّة.

وقف الشاب كئيباً محني الرأس مغموراً بالندامة. لم يفهم أي إله سيسامحه، أو يمكن أن يسامحه. أليس الحريُّ بها أن تتحدّث عن الانتقام لا المسامحة.

اكتظ الرواق بجموع قلقة، امتزج فيها السيناتورات، والفرسان بأرقاء القصر، جاءت بقصد الاطمئنان عن صحة الاوغستينا الصغيرة. ولكي يُقال إنّهم قد حضروا، فقد وقفوا بين العبيد ليكون هؤلاء شهداء على حضورهم. سرعان ما ذاع نبأ مرض الإلهة، فلم تتقطع الوجوه الجديدة عن الوفود عبر المدخل، وتحتشد على طول الرواق. كانَ بعض الواصلين ممن رأى فينيكوس ينصرف، يسأله ما الأخبار، لكنّه لم يردّ على أسئلتهم، وتابع سيره، حتّى مرّ قربه بترونيوس القادم أيضاً بهدف الاطمئنان.

كانَ لهُ أن يهتاج غضباً لمرأى بترونيوس، ويرتكب معه حماقة داخل القصر، لو أنّه لم يغادر أكتي وقد هدأت ثائرته، وخفَّ غيظه. حاول أن يتجنّب بترونيوس ويتابع المسير، لكنّ الأخير استوقفه عنوةً وسأله:

كيف حال الصغيرة الربانيّة؟

لكنّ هذه الاستيقاف العنيف أثار فينيكوس. فقال وهو يضغط على أسنانه:

ـ لتبتلعها نار جهنّم، هي وكلّ هذا المنزل.

فما كانَ من بترونيوس إلّا أن ردعه محذّرا، وهو ينظر حوله:

ـ اخرس أيها الخائب! إن كنت تريد أن تعرف شيئاً عن ليفيا رافقني. لا. لن أقول شيئاً هنا. تعال معي. سأكلّمك في الهودج عما أفكّر فيه.

وأخذه من كتفيه خارجاً به من القصر.

كانَ هذا أهم شيء بالنسبة إليه، بما أنّه لا يعرف عن الأمر شيئاً. وبما أنّه كانَ شخصاً ناريًّا لا يؤجل أمراً. وأشفق على فينيكوس رغم فظاظته البارحة. وأنّه مسؤول بطريقة ما عن كلّ ما حصل، كانَ قد اتخذ خطوات معيّنة، ما لبث أن أفصح عنها فور جلوسهما في الهودج وزعت عبيدي على كلّ المداخل، ليراقبوا، بعد أن زودتهم معلومات دقيقة عن الفتاة، وذلك العملاق الذي أخرجها من مأدبة القصر. ما من شك في أنّه هو من حرّر ليفيا. اصغ جيداً. جائز أنَّ لدى أولوس وزوجته رغبةً في إخفائها في قريةٍ ما من قراهما. فإن صحَّ ذلك سوف نعرف أيَّ وجهة اتخذتها في هروبها. وإن لم يرها الأرقّاء عندَ المداخل، هذا يعني أنّها بقيت في المدينة، وسوف نباشر البحث عنها اليوم.

فأجاب فينيكوس:

ـ أولوس وزوجته لا يعرفان أين تكون.
ـ واثق من ذلك.
ـ التقيت بومبونيا. هما أيضاً يبحثان عنها.
ـ لم تغادر المدينة البارحة، لأنّ كلّ المداخل تغلق في الليل. لديَّ عندَ كلّ مدخل عبدان. مهمّة أحدهما ملاحقة ليفيا والعملاق، ومهمّة الآخر أن يأتي لإخباري. إن كانت في المدينة سنجدها. لأنّ من السهل التعرف إلى العملاق لطول قامته. لحسن حظّك ليس القيصر من اختطفها.
لكنّ فينيكوس كانَ يكتوي ألماً وغيظاً. فراح يروي لبترورنيوس بصوتٍ كسير ما سمعه من أكتي، وأيّة أخطار تهدّد ليفيا. ثم لامه على النصائح التي أسداها لهُ، ولم يجد حرجاً أن يقول: لولا ظهورك على السطح لجرت الأمور بطريقةٍ أخرى. ولكانت ليفيا في منزل أولوس الآن. ولتمكّن من رؤيتها كلّ يوم. وكان أسعد الناس، وحتّى من القيصر.
أمّا بترونيوس الذي ضاع من حسبانه أنّ بمقدور هذا الفتى أن يحبّ كلّ هذا الحب، فقد قال في نفسه بشيءٍ من الاستغراب بعد أن رأى دموع الحيرة في عيني الفتى:
ـ "أوو، يا إلهة قبرص العظيمة، أنتِ وحدك المهيمنة على الآلهة والبشر!".

## (12)

حين خرجا من الهودج أمام منزل بترونيوس، أطلعه كبير الخدم أنَّ العبيد اللذين أرسلوا إلى المدخل، لم يرجع أي منهم بعد. وقال إنّه قد أرسل لهم الزاد، والتعليمات الجديدة الصارمة لاتخاذ الحيطة واليقظة، والمراقبة الدقيقة لكل من يخرج من المدينة.

علّق بترونيوس قائلاً:

ـ كما ترى ما زالت في المدينة دون شك. وما دام الأمر كذلك سوف نجدها. لكن احرص أنت على إرسال عبيدك لحراسة المداخل خاصّة أولئك الذين كنت ترسلهم من أجل ليفيا، لأنّهم يعرفونها إذا ما رأوها.

أولئك حكمت عليهم بالأعمال الشاقّة، لكنّي سألغي أوامري لأرسلهم إلى مراقبة المداخل...

وكتب بعض السطور على لوح شمعي، وأعطاه لبترونيوس الذي أرسله حالاً إلى منزل فينيكوس.

ثم دلفا إلى الداخل، وجلسا على مقعد رخامي يتحدّثان. جرّا طاولة صغيرة إلى جانب المقعد، وراحا يسكبان النبيذ من إبريق رفيع العنق فائق الجمال.

بادر بترونيوس بالسؤال:

ـ هل من بين عبيدك من يعرف الليغيوي العملاق إن رآه؟

كانَ يعرفه كلّ من غولو وأتاكينوس. لكنّ أتاكينوس لقي حتفه يوم أمس قرب الهودج، وغولو أنا من قتله. يؤسفني ذلك. هو من قام برعايتك، ورعايتي أيضاً.

فأجاب فينيكوس قائلاً:

ـ رغم أنّني أردت أن أعتقه لكنّ هذا ما حصل. لنتحدّث عن ليفيا. روما بحر حقيقي... اللآلىء تصطاد من البحر... قد لا نجدها اليوم ولا في الغد، لكنّنا سنجدها. هذا أكيد. لقد اتهمتني، بأنّي اقترحت عليك طريقاً سيئة، لكنّها كانت طريقة صالحة في ذاتها، وتكشف أنّها فاسدة حين اتخذت مجرى سيئاً. ألم تسمع أولوس يقول أنّه يريد أن يرحل وعائلته إلى سيسيليا. وبالتالي كانت ليفيا ستظلُّ بعيدةً عنك.

فردّ فينيكوس قائلاً:

ـ كنت تبعتهم. وكانت ليفيا في أمان. والآن لو ماتت الطفلة لأيقنت بوبيا، ولأقنعت القيصر بأنَّ ليفيا هي السبب في ذلك.

ـ أجل. وهذا ما يؤرقني. لكنّ الطفلة قد تُشفى. وفي كلّ الأحوال، حتّى لو ماتت فسنعثر على طريقة ما.

هنا فكّر فينيكوس قليلاً ثم قال:

ـ كأنَّ بوبيا تعتنق الدين اليهودي، وتؤمن بوجود الأرواح الشرّيرة. القيصر يؤمن بالخرافة... فلو قمنا بإشاعة أنَّ الأرواح الشريرة قد سرقت ليفيا، فسوف يصدّق الجميع ذلك، ما دام القيصر لم يقم باختطافها.

وإن لم يكن أولوس هو الذي اختطفها، فاختفاؤها أمرٌ غريب. ليس بوسع العملاق أن يخفيها لوحده. وبفرض أنَّ هنالك من ساعده، فكيفَ بوسع عبدٍ أن يجمع كلّ هذا العدد الرقيق في كلّ أنحاء روما يساندون بعضهم.

والمدينة كلّ يوم يمكن أن تدفع دماً ثمناً لذلك. أجل يساندون بعضاً، ولا يقف أحدهم ضدّ الآخر. من الواضح أنَّ المسؤوليّة هنا تقع على عاتق عبيدك، وهم المتّهمون. إن تطرح فكرة الأرواح الشريرة أمامهم، فسوف يؤكّدون لك في الحال أنّهم رأوا ذلك بأمّ أعينهم لأنّ ذلك سيبرئهم أمامك... اختبر الأمر، وأسال أيًّا منهم: ألم ترَ أحداً يطير بـ ليفيا في الجوّ، فسيقسم بترس زِيْوس أنَّ ذلك صحيح. وهذا ما حصل.

كانَ فينيكوس أيضاً خرافيَّ المعتقد. فاتّسعت حدقتاه، وخص بترونيوس بنظرات قلقة، وقال:

ـ إن لم يتوافر لأرسوس رفاق يساندونه، ولم يستطع أن يسرقها، فمن الذي سرقها إذن؟

فما كانَ من بترونيوس إلا أن قهقهه قائلاً:

ـ أرأيت، حتّى أنت صدّقت الأمر فكيف هم. سوف يصدّقون ويكفّون عن البحث عنها، فيما سنقوم نحن بإخفائها بعيداً عن المدينة في إحدى فيلاتك، أو فيلاتي.
لكن مع ذلك، من المرجّح أنّه قد ساعد ليفيا؟
فأجاب بترونيوس
ـ إخوتها في المعتقد.
ـ ومن أولئك؟ أي نوع من الآلهة تبجّل هي؟ عليَّ أن أعرف ذلك أكثر منك.
ـ كلّ إمرأة في روما تبجل إلهها الخاص. ولا شكّ في أن بومبونيا قد أنشأت ليفيا على تبجيل إله تبجّله هي. لكنّ أي إله هذا، لا أدري. لكنّ الأكيد أنَّ أحداً لم يشاهد بومبونيا تقدّم الأضاحي لأيّ من آلهتنا في أيٍّ من معابدنا. حتّى أنّها اتهمت بأنّها مسيحيّة. لكنّ هذا مستحيل. المحكمة المحلّيّة برأتها من هذه التهمة. هناك من يقول وهم قلّة عن المسيحيّين بأنّهم يعبدون رأس الحمار، وأنّهم أعداء الجنس البشري، يقدمون على ارتكاب أشنع الأفعال. ولهذا السبب بومبونيا ليست مسيحيّة، فخصالها معروفة، وعدو الجنس البشري لا يعامل الأرقاء بالطريقة التي تعاملهم بها.
قاطعه فينيكوس:
ـ لا أحد، في أيّ مكان، يعاملهم مثل معاملة عائلة الروس لهم.
أرأيت! حدّثتني بومبونيا عن إله وحيد على الأرجح، لا إله غيره. جبّار، ورحيم. أمّا أين ألقت بالآلهة الأخرى، فهذا شأنها. فهل يمكن أن يكون لوغوس إلا على درجة من البؤس، وليس جباراً، لو كانَ من يعبده اثنان فقط هما بومبونيا وليفيا، وأضيف إليهما أرسوس. هم كُثُر إذن أولئك الإخوة في المعتقد. وهم من ساعدوا ليفيا.
علّق فينيكوس قائلاً:
ـ هذا المعتقد يأمر بالتسامح. التقيت بومبونيا عندَ أكتي، وقد قالت: "سامحك الله على ما سببته لنا ولليفيا من أذيّة".
يبدو أنّ إلههم أمين، وذو نيّة طيبة عسى أن يشملك بعفوه، ويُعيد إليك الفتاة تعبيراً عن ذلك.
لكنت سأقدّم لهُ أضحية كبيرة غداً. سأستغني عن الطعام، والاستحمام، والنوم. وأتنكّر مرتدياً عباءة قائمة ذات قلنسوة وأجوب المدينة، على أمل العثور عليها.
ـ أنا مريض.
رمقه بترونيوس بنظرة إشفاق. كانت عينا فينيكوس قد توهّجتا حقاً من الحمّى.
كانَ منكوش الشعر، ولأنّه لم يحلق ذقنه في الصباح، فقد غلّفت القتامة وجهه، فبدا مريضًا بالفعل حتّى أنَّ إراس ويونيكي قد خصّتاه بنظرةٍ من التأسّي.
ولكنّه، شأنه شأن بترونيوس لم يكن يراهما، فلم يكترث لوجودهما ولا لوجود الكلاب المتحلّقة حوله.
قال بترونيوس:
ـ أنت مصاب بالحمّى.
ـ أجل.
ـ اسمعني إذن... لا أدري ما الذي سيصفه لك الطبيب من دواء.
لكنّي أعرف ما الذي سأقوم به لو كنت مكانك. إلى أن ألتقيها سأجد في واحدة أخرى عما أفتقده فيها. رأيت في فيلات أجساداً بديعة. لا ترفض... أعرف ما الحب، وأعرف إذا ما تملّك أحدنا الشوق العارم لإحداهن، فلا بديل عنها، لكنّ بوسع المرء دائماً أن يجد المتعة العابرة في فتاة جميلة من الرق.
ـ لا أريد ذلك.

لكنّ بترونيوس الذي أحبّ حقاً قريبه الأصغر، كانَ يسعى صادقاً للتخفيف من معاناته لكن كيف. فتابع بعد وقتٍ قصير قائلاً:
ـ وقد لا يتحفك جماعتك بالنبأ السعيد، لكنّ انظرْ إلى هذه الفاتنة. كانَ لتوه قد لمح كلاً من يونيكي وإراس، فقام أخيراً بوضع يده على مؤخرة الفتاة اليونانية الشقراء هل رأت عيناك جسداً أجمل. ألوم نفسي لعدم اكتراثي بها حتّى هذا اليوم. إنّها هديّتي لك، خذْها معك.
وبسماع يونيكي الشقراء هذه الكلمات لفّها الشحوب، ونظرت جامدةً إلى فينيكوس بعينين جافلتين، كأنّما تنتظر ردّه بأنفاس مقطوعة.
لكن ما كانَ منه إلّا أن قفز فجأةً، وعصر رأسه بكلتا يديه زائراً:
ـ لا...لا... لا. لا أريد أحداً غيرها... شكراً، لكن لا. سأذهب وأبحث عنها في المدينة: أعطني عباءة سأعبر إلى ضفة تيبرس الأخرى. يمكن أن أجد أرسوس على الأقل.
وخرج مسرعاً.
أمّا بترونيوس وقد رأى أنّ الشاب لا يحتمل الانتظار، فلم يحاول إرجاعه. لقد فهم من ردّ فينيكوس بعدم تقبّله أيّ إمرأة أخرى سوى ليفيا، أنّه كانَ ردًّا أيضاً لا يسري إلّا في اللحظة العابرة بالذّات. لذا فقد خاطب يونيكي قائلاً:
ـ يونيكي! استحمّي، وتعطّري، وبدّلي ملابسك، ثم اقصدي منزل فينيكوس.
لكنّ الفتاة جثت أمامه متوسلةً إياه ألّا يبعدها عن هذا البيت. وهي لا ترغب في الذهاب إلى فينيكوس. الأفضل لها أن يجلدها كلّ يوم ولا يبعدها عن بيته.
ومدّت نحوه يدين مرتجفتين مذعورتين. كانَ بترونيوس يسمعها ذاهلاً. عبدة تقوم برفض الأمر قائلةً: "لا أريد، لا أحتمل".
شيء لا يحدث في روما، ما جعل بترونيوس يُكذّب أذنيه. ولكنّه في نهاية الأمر أرخى حاجبيه، وكان ظاهره ألطف بكثير من أنّه يبدي القسوة. وعلى العموم فقد كانَ أرقاؤه، خاصّة في هذا الزمن، يتمتعون بحريّة كبيرة مقارنة بالأرقاء في منازل أخرى، شرط أن يؤدوا خدماتهم على أكمل وجه، ويولوا سيدهم كلّ الاحترام، وأوامره أشبه بأوامر الآلهة. وخروجهم عن ذلك يعني تعرّضهم دون توانٍ لأشدّ أنواع العقاب. والآن بما أنَّ ما قامت به الفتاة لا يندرج ضمن نطاق المعصية، فقد التفت إلى الفتاة الجاثية قائلاً:
استدعي تيراسياس وعودي معه.
نهضت يونيكي مرتعشةً دامعة العينين، وخرجت. ثم ما لبثت أن عادت برفقة تيراسياس ناظر الأتريوم.
قال بترونيوس آمراً:
ـ خذْ يونيكي، واجلدها خمساً وعشرين، لكن دون أن تُلحق بجلدها أي أذى.
ثم عبر إلى المكتبة وجلس إلى طاولة رخاميّة ورديّة. وبدأ العمل بمؤلفه مأدبة تريمالسيو.
لكنّ هروب ليفيا، ومرض الأوغستينا الصغيرة، قد شتتا أفكاره، وحالاً دون قدرته على العمل طويلاً. كانَ مرض الصغيرة واقعاً في غاية الأهميّة. خطر لهُ: إن ظنَّ القيصر أنَّ ليفيا هي التي أصابت الأوغستينا الصغيرة بالعين، معنى ذلك أنَّ المسؤولية ستطاله أيضاً، لأنّ الفتاة قد دخلت القصر بناءاً على طلبه.
لملم مخاوفه وعزم على النزول إلى التريسيلينيوم، ليشرب شيئاً، ومن هناك مباشرةً يذهب إلى القصر، ثم إلى ميدان مارس وبعدها يقصد كريسوتميس.
وفي طريقه إلى التريسيلينيوم لمح عندَ مدخل جناح الخدم يونيكي بقدّها الممشوق، وخطر لهُ أنَّ طلبه من تيراسياس لا يتعدّى جلدها خمساً وعشرين جلدة. ضمَّ حاجبيه، وراح يجول بعينيه بحثاً عن الناظر.
ولما لم يجده بين الخدم، التفت نحو يونيكي:

ـ هل نلت عقوبتك؟
وأجابت قائلة بصوت كأنه مشوب بالسعادة والامتنان.
ـ أجل يا سيدي، نلتها، أجل يا سيدي!
كانَ باديا عليها تماماً اعتقادها بأنَّ ما تلقّته من عقابٍ بديل عن مغادرتها المنزل، وقد بات بوسعها الآن أن تبقى.
وسرعان ما أدرك بترونيوس أنَّ مم أنعتها تخفي دافعاً من المعاناة استغرب طبيعته.
لكنّه كانَ عالماً محنكاً بالطبيعة الإنسانيّة، جعلته خبرته يضع الحب، وليس أيّ سبب آخر، وراء سلوك الفتاة.
سألها:
ـ هل محبوبك في هذا البيت؟
رفعت عينيها الزرقاوين الدامعتين وأجابت بصوتٍ يكاد لا يسمع:
ـ أجل يا سيدي.
وكم بدت جميلة بعينيها الزرقاوين، وارتداد جدائلها الشقراء إلى الوراء، وتعابير الذعر، والأمل البادية على وجهها، وهي تنظر متوسلة إلى سيدها بترونيوس الذي أفصح هو نفسه أيضاً معترفاً، كفيلسوف، بقوّة الحب، ومفصحاً عن تقديره للجمال بصفته فناناً. شعر بشيءٍ من الشفقة إزاءها. سألها مشيراً برأسه إلى طاقم الخدم.
ـ أيهم حبيبك؟
وبدلاً أن يلقى ردًّا منتظراً من الفتاة، قامت يونيكي بإحناء رأسها تماماً بين قدمي سيدها، وتجمّدت على هذا الحال، جال بترونيوس بعينيه على الأرقاء. كانَ من بينهم شبان وسيمون، وأصحاء الأجسام، لكنّه لم يستطع قراءة شيء على وجوههم، سوى تلك الابتسامة الغريبة القابعة عليها. القى نظرة أخيرة إلى يونيكي الراكعة عندَ قدميه، وانطلق إلى التريسيلينيوم دون أن ينبس حرفاً.
وبعد تناول الطعام ذهب إلى القصر، ومن هناك قصد كريسونميس وأمضى عندها القسم الأطول من الليل.
وما إن عاد حتّى استدعى الناظر بتراسياس ليسأله:
ـ هل نالت يونيكي عقوبتها؟
ـ أجل سيدي لكنّك لم تسمح بإلحاق الأذى بجلدها.
ـ ألم آمرك بشيءٍ أخر يتعلق بها؟
ـ لا يا سيدي.
ـ حسناً. من يكون حبيبها من بين الأرقاء؟
ـ لا أحد يا سيدي.
ـ ماذا تعرف عنها؟
راح تيراسياس يتكلم متعلثماً:
ـ يونيكي لا تغادر المهجع حيث تنام كلّ ليلة مع العجوزين أريسيون وإفيس. وبعد أن تنهي استحمامك يا سيدي، لا تبقى في الحمام مع الأخريات لأنّهم يهزآن منها، ويدعونها ديانا.
قاطعه بترونيوس قائلاً:
ـ كفى. قريبي فينيكوس الذي أهديته يونيكي في الصباح لم يستقبلها، فاضطرت للبقاء في المنزل. بوسعك الانصراف.
ـ هل لي أن أكلّمك أكثر عن يونيكي يا سيدي؟

ـ أمرتك أن تفصح عن كلّ ما تعرفه عنها.
ـ كلّ العائلة تتحدّث عن هروب تلك العذراء التي كانَ عليها العيش في كنف فينيكوس النبيل... جاءت إلى يونيكي وقالت إنّها تعرف أحداً يستطيع أن يجدها.
ـ آ! صرخ بترونيوس ومن يكون؟
ـ لا أعرفه يا سيدي. لكني فكرت أنَّ علي إخبارك بالأمر.
ـ حسناً. لينتظرني ذاك غداً هنا في منزلي وقل لهُ باسمي أن يبدأ بالبحث عنها منذ الصباح.
انحنى اترينسيس وانصرف.
أمّا بترونيوس فقد وجّه نفسه لا إرادياً يفكّر بيونيكي.
بادئ الأمر دار في باله أنَّ من الطبيعي أن تتمنّى يونيكي عثور فينيكوس على ليفيا، لأنـّها في هذه الحالة لا تضطر إلى أن تكون بديلاً لفتاة في منزله. لكن سرعان ما خطر لهُ: لعلَّ الشخص الذي ستقدّمه يونيكي هو محبوبها الخاص. وهي فكرة أيقظت في نفسه شعوراً بالضيق. كانَ.مقدوره بالطبع أن يقف ببساطة على الحقيقة، بعد أن يستدعي يونيكي لكنّ الوقت بات متأخراً، وهو كانَ مرهقاً بعد قضائه فترةً طويلة عندَ كريسوثميس، فسارع إلى النوم وخلال مسيره إلى الفراش خطر لهُ أنّه في أثناء زيارته لاحظ على زاويتي عيني كريسوثميس بعض التجاعيد الناعمة. كما دار في ذهنه أنَّ صيت جمال كريسوثميس في روما أقلّ بكثير مما يستحق، وأنَّ مونتيوس كابيتو الذي قدّم لهُ ثلاثة من الشبّان مقابل يونيكي كانَ يريد الحصول على الفتاة بثمنٍ بخسٍ جدًّا.

ما إن انتهى بترونيوس، في اليوم التالي من ارتداء ملابسه في الانكتواريوم، حتّى وصل فينيكوس الذي استدعاه تيرسياس. كانَ قد علم أنَّ حراس المداخل لم يزوّدوا أحداً بأيّة أخبار جديدة.
وبدلاً من أن يريحه هذا الأمر باعتباره برهاناً على أنَّ ليفيا لم تغادر المدينة، فقد صدمه حين خالجه ظنَّ بأنَّ أرسوس ما إن حرَّر الفتاة حتّى فرَّ بها حالاً من المدينة قبل أن ينشر بترونيوس أرقّاءه على مداخلها. صحيح أنّهم يقومون بإغلاق المداخل في الأيام الخريفية القصيرة، في وقتٍ أبكر، إلا أنّهم يفتحونها أمام المغادرين الكثر. لكنّ الخروج من المدينة كانَ يتم بطرق مختلفة يعرفها أولئك الأرقاء الراغبون في الهروب. كانَ فينيكوس قد نشر رجاله على كافّة الدروب المؤدّية إلى الأرياف، وأبلغ حراس المدن الصغرى عن الرقيقين الفارّين ليفيا وأرسوس، بأدقّ أوصافهما، معلناً عن جائزة قيّمة لمن يقبض عليهما. حتّى أنَّ فينيكوس نفسه قام بعمليّة البحث في أزقّة المدينة بعد تخفّيه بلباس الرقيق، لكنّه لم يجد لهما أثراً أو دليلاً يؤدّي إليهما. صادف في تجواله جماعة أولوس. التي كانت في الغالب تبحثُ عن ليفيا، ممّا عزّز اليقين لديه بأنّه لا علاقة لعائلة أولوس باختطافها، ولا حتّى معرفة أيّ شيء عنها.
إذن حين أعلم تيرسياس بأنَّ هنالك من يتكفّل بالعثور على ليفيا سارع في المجيء لاهثاً إلى بترونيوس. وما إن رحَّب كلٌّ بالآخر، حتّى بادر إلى الاستفسار عن ذلك الشخص. هدأ بترونيوس من روعه قائلاً:
ـ سنرى في الحال. إنّه أحدُ معارف يونيكي. على أيَّة حال الفتاة قادمة لتعمل طيات ثوبي، وهي ستخبرنا عن كثب.
ـ فتاة الأمس التي أردت أن تقدمها لي؟
ـ فتاة الأمس التي رفضتها، وأنا شاكر لك هذا لأنّها الأميز في المدينة كلّها.
ولم يكد ينهي كلامه حتّى دخلت الفتاة. أمسكت عباءته الملقيّة فوق الكرسي الموشّاة بالعاج، وخلعتها على كتفي بترونيوس. كانَ وجهها نقيًّا وهادئاً وعيناها تبرقان بالبهجة.
رمقها بترونيس فرآها في غاية الجمال.
وبعد لحظات، حين بدأت تلقط ثوبه في طيّات، وانحنت إلى الأسفل، لاحظ أنَّ ذراعيها بديعان بلونهما الورديّ، وصدرها قفصٌ من اللؤلؤ، بل من المرمر الصقيل المُشع.
سألها:
ـ يونيكي هل حضر الشخص الذي حدّثت تيرسياس عنه البارحة؟
ـ أجل سيدي.
ـ ما اسمه؟
ـ شيلون سيلونيدس، يا سيدي.
ـ من يكون؟
ـ طبيب، وحكيم، وعرّاف يقرأ أقدار البشر، ومستقبلهم
ـ هل قرأ مستقبلك؟
خجلت يونيكي وغمرت الحمرة جيدها وأذنيها.
ـ أجل يا سيدي.
ـ وماذا قرأ؟
ـ الألم والسعادة
ـ الألم كانَ البارحة على يد تيراسياس. والآن جاء دور السعادة.
ـ لقد جاءت يا سيدي.

ـ وما هي؟
همست الفتاة قائلة:
ـ بقيت هنا.
وضع بترونيوس يده على شعر الفتاة الأشقر:
ـ لقد قمت بالتقاط الطيّات على أكمل وجه. أنا راضٍ عنك اليوم يا يونيكي.
بهذه اللمسات غمرت عيني الفتاة غشاوة من السعادة، وتموّج صدرها سريعاً.
أمّا بترونيوم فقد اصطحب فينيكوس إلى الأتريوم حيث كانَ شيلون سيلونيد بالانتظار. حين لمحهما قدّم انحناءاً عميقاً. ارتسمت ابتسامة على فم بترونيوس حين تذكر ظنّه يوم أمس بأنَّ هذا الشخص قد يكون حبيب يونيكي، فالرجل الذي ينتصب هنا لا يمكن أن يكون حبيباً لأحد. هيئة شوهاء غريبة فيها من القبح الشديد مقدارُ ما ينبعث منها على الإضحاك.
لم يكن بعد، عجوزاً يغزوه الشيب، سوى القليل من الشعرات البيضاء هنا وهناك في رأسه ولحيته. منبعج البطن، مقوّس الظهر، أحدب يقبع فوق حدبته البادية منذ الوهلة الأولى، رأسُهُ الأشوه، ووجهه القردي الثعلبي معاً. صادم الملامح، كثرت الانتفاخات على بشرة وجهه الشاحب، ولكنّها غطت أنفه بالكامل، ما يشهد على إدمان الكحولي. رثُّ الثياب وهي عبارة عن عباءة قائمة من جلد الماعز، تنم عن البؤس. ما إن وقعت عينا بترونيوس على هذه الهيئة، حتّى ذكّرته بشخصية ثرثيتس عندَ هوميروس.
بتقديم الرجل الانحناءة العميقة إذن، ردّ بترونيوس التحيّة بحركة من يده قائلاً:
ـ تحية لك يا ثرثيتس الإلهي! كيف حال دمّلاتك التي حصلت عليها من أوليسيس، وماذا يفعل هو نفسه في الحقول الأليسوميّة؟
فأجاب شيلون شيلونيدس:
ـ يا بترونيوس النبيل! أوليسيس الأكثر حكمة بين الأموات يُرسل لك معي تحيّاته، أنتَ الأكثر حكمةً بين الأحياء، راجياً إيّاك أن تغطّي دُمّلاتي بعباءةٍ جديدة.
صاح بترونيوس:
ـ هيكات تريفورميس! هذا الجواب يستأهل عباءة...
لكنّ تدخّل فينيكوس الفارغ الصبر ليقطع الحديث بسوال مباشر
ـ هل تعرف لم أنتَ هُنا؟
أجاب شيلون قائلاً:
ـ إن كانت عائلتا أفخم منزلين لا حديث لهما سوى هذا الحديث، تردّده وراءهما نصفُ روما، يكون من الطبيعي أن أعرف بالأمر. ليلَ أمس قاموا باختطاف عذراء ترعرعت في كنف أولوس بلاونيوس. اسمها ليفيا وبالأحرى كاليناً. اختطفت الفتاة يا سيدي عندما كانَ أرقاؤك يصطحبونها من قصر القيصر إلى مكان يخصّك. أنا سأتكفّل بالبحث عنها في المدينة. وإن كانت قد غادرتها، وهذا احتمالٌ ضعيف، سأدلّك يا سيدي النبيل إلى أين هربت وأين تختبئ.
فأجاب فينيكوس الذي أعجب بالرد الدقيق:
ـ حسناً. وماذا تملك من أدوات لذلك؟
ابتسم شيلون بمكر:
ـ أنت من يملك الأدوات يا سيدي. أنا لا أملك سوى عقلي.
وابتسم بترونيوس كذلك، فقد كانَ مغموراً بالرضا من ضيفه. فكّر: "هذا الرجل يمكن أن يعثُر على الفتاة".
قطّب فينيكوس حاجبيه وقال:

ـ إن كنت تخدعني من أجل التكسُّب، سأجلدك حتّى الموت.
ـ أنا فيلسوف يا سيدي والفيلسوف لا يكون متكسَّبا. خاصَّة إن كانَ الكسب ما وعدت به.
ـ آ قال بترونيوس إذن أنت فيلسوف. قالت يونيكي إنك طبيب وقارئ مستقبل. كيف تعرّفت على يونيكي؟ قصدتني بنصيحة، بعد أن سمعت عنّي..
ـ وبأي خصوص طلبت نصيحتك؟
ـ مسالة حُب يا سيّدي. كانت ترغب أن تُشفى من حُبٍّ غير متبادل.
ـ وهل أشفيتها؟
ـ فعلت لها الكثير يا سيدي. أعطيتها تميمة للحُب المتبادل. في بابوس في جزيرة قبرص معبد يحتفظ بزنّار فينوس. أعطيتها خيطين منه مغلّفين بقشر اللوز.
ـ وهل طلبت ثمناً ضخماً؟
ـ الحب المتبادل ليس غالي الثمن. لكنّ بما أنّي فقدت أصبعين في كفّي اليمنى، فأنا أقوم بادّخار ما يلزم من نقود، أسديها لمن يقوم بتدوين أفكاري ويحفظُ تعاليمي للأجيال القادمة.
ـ وإلى أيّ مدرسة تنتمي، أيّها الرجل الحكيم الربّاني؟
ـ أنا سينيكي يا سيدي، لأنّ عباءتي مثقّبة، وأنا ستويكي لأنّي أصبر على البؤس، وأنا بريبتكي لأنّي لا أملك عربة مشاة وأتنقّل ماشياً من حانةٍ إلى أخرى، وفي الطريق أقوم بمحادثة أولئك الذين لا يتوانون عن دفع إبريق من النبيذ لقاء تعاليمي.
ـ وإلى جانب قدح النبيذ تتحوّل إلى خطيب؟
قال هيراقليطس: "كلّ شيء يسيل" هل تنكر يا سيّدي أنَّ النبيذ سائل؟
وتقول أنّ النار ألوهيّة وهذه الألوهيّة تشتعل فوق أنفك.
لكنَّ ديوغنس الإلهي الأبولوني الفائق الجمال قال: إنَّ جوهر المسالة الهواء. وكلّما كانَ الهواء أسخن أنتج كائناتٍ حيّة أكمل. ومن أكثر الهواء سخونةً يولد الحكماء. وفي أوقات الطقس الخريفي الباردة يلجأ الحكيم الحق إلى أن يدفّئ روحه بالنبيذ... فأنت لا تستطيع أن تُنكر، يا سيدي، أنّ قدحاً واحداً منه ينشُرُ الدفئ في كافّة عظام الجسد الإنساني السقيم.
ـ وأين تُقيم يا شيلون شيلونيدس؟
ـ على ضفّة أوكسينوس أنا من ميسانبريا
ـ أنت إنسان عظيم يا شيلون
ـ لكني مُساءُ الفهم ردّ الحكيم متجهماً.
لكنّ فينيكوس فقد صبره ثانية. الآن وقد برق الأمل أمام عينيه ودّ لو انطلق شيلون حالاً لأداء مهمّته. وبالتالي اعتبر هذه المحادثة الآن مضيعةً للوقت، ولا تُجدي نفعاً، حتّى أنّها أزعجت بترونيوس الذي سأل اليوناني:
ـ ومتى تبدأ البحث؟
ـ لقد بدأته. وما دمت هنا وأجيب عن تساؤلاتك، فأنا أبحث عنها.كنّ على ثقة، أيها السيد المحترم، وليكن في معلومك إنني إذا ما أضعت فردة صندلك بوسعي أن أجدها أو أدلّك على من انتشلها في الطريق.
ـ هل قمت بعمل مشابه قبل الآن؟
رفع اليوناني عينيه نحو السماء:
ـ لا قيمة كبرى هذه الأيام للأخلاق والحكمة، وهذا ما يجعل الفيلسوف مضطرًا للبحث عن مجالات أخرى للحياة.

ـ أي إمكانيات لديك؟
ـ معرفة كلّ شيء. تزويد من يرغبون بالأنباء.
ـ وبالتحديد لمن يدفعون لقاء ذلك؟
ـ آهٍ يا سيدي. عليَّ أن أحصل على كاتبٍ يدوّن تعاليمي كي لا تندثر بعد موتي.
ـ إن كنت لم تجمع حتّى الآن ثمناً لعباءة، فكيف تكون مؤهلاتك كافية.
ـ بؤسي حجابٌ يمنعني من إظهار مؤهلاتي. المؤهلات هذه الأيام، تُقاس بما يملك الناس من ذهب. ليست مؤهلاتي بالقليلة لكنّ المحسنين هم القلّة. لا حمد ولا شكر. إذا ما هرب رقيق ذو أهميّة، فمن سيجده إن لم يكن ابن الله. وإذا ما ظهرت على الجدران كتابات عن بوبيا، فمن سيدلّ على الفاعلين؟ من يلتقط ومن يحصي عدد بائعي الكتب، الأشعار التي تتحدّث عن القيصر؟ من يطّلع على ما يُهمس به من أحاديث في منازل السيناتورات والفرسان؟ من يوصل الرسائل التي لا ثقة بالأرقاء لإيصالها؟ من يستمع إلى الأنباء الجديدة أمام أبواب الحلاقين؟ أمام من لا أسرار لعمّال المخابز والخمارين؟ من يثق الأرقاء؟ ومن الذي يرى كلّ ما يدور في المنازل بدءًا من الأتريوم حتّى الحديقة؟ من يعرف كلّ شارع، وزقاق، ومخبأ؟ من يعرف ما يدور من أحاديث في السيركات، والأسواق، ومدارس المصارعة، وتُجّار الرقيق، وميادين المجالدة؟
صاح بترونيوس:
ـ بحق الالهة، كفى أيّها الحكيم النبيل، فقد أغرقتنا في طوفان مؤهلاتك. كفى! أردنا أن نعرف من تكون. وها قد عرفنا!
لكنّ فينيكوس كانَ سعيدًا لمجرّد أن فكّر: حتّى لو كانَ هذا الشخص كلب صيد، فإذا ما أُطلق وراء الفريسة لن يدعها حتّى يكتشف مخبأها.
قال:
ـ حسناً. هل تحتاج إلى مرافق يُرشدك على الطريق..
ـ أحتاجُ إلى سلاح.
فسأله فينيكوس مستغربًا:
ـ وأيَّ نوع من الأسلحة.
فتح اليونانّي إحدى كفّيه، وراح يتصرّف باليد الأخرى وكأنّه يعدُّ نقوداً. وقال متنهًّدا:
ـ هكذا أزمنتنا هذه الأيام يا سيدي.
علّق بترونيوس قائلاً:
ـ أنت ستكون الحمار الذي يريد أن يحضن القلعة بأكياس الذهب.
فأجاب شيلون بخنوع:
ـ أنا لستُ سوى فيلسوفٍ فقير، أمّا الذهب فلكم.
رمى فينيكوس نحوه كيساً من الدراهم، فتلقّاه اليوناني بحركة خاطفة أظهرت كفّه اليُمنى وقد فقدت إصبعين من أصابعه.
ثم رفع رأسه قائلاً:
ـ سيدي. صرت أعرف أكثر مما تعتقد. لم آت إليكم فارغ اليدين.
أعرف أنَّ العذراء لم يخطفها أولوس، لأنّي تأكدُّت من ذلك في حديثي مع خدمه. وأعرف أنّها ليست في القصر حيث ينشغل الجميع بمرض الطفلة. ولقد بدأتُ أخمُّن لماذا تفضّلون البحث عنها. مساعدتي، لا بالاستعانة بجنود القيصر. أعرفُ أنَّ من رتَّب هروبها شخصٌ من بلدها. وأنَّ هذا الشخص لم يكن ليحظى

مساعدةً من الأرقّاء لأنّهم سيرفضون تقديم العون ضدّ أرقائك. إذن لم يساعده إلا إخوته في المعتقد.
قاطعه بترونيوس قائلاً:
ـ أتسمع يا فينيكوس؟ ألم أخبرك ذلك بالحرف؟
فقال شيلون بتواضع:
ـ المسالة واضحة وضوح الشمس ثم التفت إلى فينيكوس ثانية واستأنف يقول:
لا ريب في أنَّ الفتاة تعبدُ ذات الإله الذي تعبده الراعية الحقيقيّة بومبونيا أطهر نساء روما. لقد سمعت أيضاً أنَّ بومبونيا وقفت أمام المحكمة القيصريّة لعبادتها إله آخر، لم أتمكّن من انتزاع اسمه من بين أفواههم، ولا معرفة ما يُسمّى أتباعه. لو كانَ بوسعي معرفة ذلك لذهبت إليهم، وصرت الأشد تديًّنا بينهم لأكسب ثقتهم. لكنّك يا سيدي وأنت الذي أمضيت بضعة أيام في منزل المحترم أولوس، فهل استطعت أن تستشف شيئاً من هذه المسالة؟
فأجاب فينيكوس:
ـ لا.
لقد سالتموني مطوًّلا، يا سادتي الكرام، واستفسرتم عن كثيرٍ من القضايا، وأنا أجبتُ عن كافّة أسئلتكم، فاسمحوا لي الآن أن أسألكم بدوري. هل دققت عيناك يا سيديَ على رسم أو تمثال، أو تميمة، أو شارة لدى بومبونيا أو ليفيا؟ ألم تلحظ أنّهما تبادلتا رموزاً معيّنة لا يفهمها سواهما؟
ـ رموز؟... مهلاً!
ـ أجل! لقد رأيتُ ليفيا ترسم سمكة في الرمال..
ـ سمكة؟! أووو! هل فعلت ذلك مرّة واحدة أم أكثر؟
ـ مرّة واحدة.
ـ هل تفهم معنى ذلك؟
فصاح شيلون:
ـ وكيف لي أن أفهم؟!
ثم أضاف وهو ينحني للوداع:
ـ حظًّا سعيدًا يا سادتي المحترمين!
ردّ بترونيوس تحيّة الوداع قائلاً:
ـ خذْ لنفسك عباءة.
فأجاب العجوز:
ـ لـتكن تحيّة أوليسيس لك بدلاً من ترسيتس.
وانحنى ثانيةً قبل أن ينصرف. سأل بترونيوس فينيكوس:
ـ ما قولك في هذا الحكيم النبيل؟
فأجابه فينيكوس بترحاب:
ـ سوف يعثر على ليفيا. أنا أزعم لو كانَ للترونيين بلادٌ لكان ملكهم.
دون أدنى ريب. عليَّ أن أتعرّف على هذا الرواقي عن كثب. وإلى أن يتم ذلك سوف أبخِّرُ الأتريوم وراءه.
أمّا شيلون، وقد التحف العباءة الجديدة، وراح يلاعب كيس الدراهم كالكرة براحته، وينقله من كفٍ إلى كف مستمتعاً بثقله وخشخشة نقوده، كانَ يخطو ببطء وينظر وراءه بين الحين والآخر، مستكشفاً إذا ما كانوا يراقبونه من منزل بترونيوس.
قال لنفسه:

ـ عليَّ أن أعود إلى اللّص سبوروس، وأجترع كأساً حباً بنورتونا. أخيراً عثرت على ما أبحث عنه منذ زمن. شابٌ، ومتحمس، ومعطاء كمناجم قبرص، وعلى استعداد للتخلّي على نصف ثروته مقابل تلك الفتاة. مرادي وقد تحقق. لكن لا بدَّ من الحذر في التعامل معه لأنّ تقطيبة حاجبيه لا تعد بما هو حسن. الثعالب هي التي تحكم العالم هذه الأيام. لا أخاف بترونيوس كما أخافه. يا أيتها الآلهة! لم المهن المخادعة تحقّق مكاسب أكثر من الفضيلة؟ هه. إذن رسمت سمكة في الرمال؟ فلأفطس من لقمة جبن الماعز إن كنت أعرف ماذا يعني ذلك؟ لكنّي سأعرف فيما بعد.بما أنَّ الأسماك تعيش في المياه، فالبحث داخل الماء أصعب من اليابسة. عليه أن يدفع دفعةً خاصّة من أجل تلك السمكة.كيس دراهم آخر، وأرمي بجعبة التسوّل، وأشتري عبداً. لكن ما قولك يا صديقي شيلون إذا ما ابتعت عبدة بدلاً من العبد. أنا أعرفك، وأعرف أنّك تفعلها! وإذا كانت جميلة مثل يونيكي على سبيل المثال، فسوف تستعيد شبابك، وتحقق زيادة في المدخول إلى جانبها. مسكينة يونيكي لقد بعتها خيطين من عباءتي البالية. فتاة حمقاء. لكنّي أقبلها هديّة من بترونيوس. أجل يا شيلون يا بن شيلون لقد فقدت أباك وأمك وصرت يتيماً. فاقتن رقيقاً على الأقل تعوّضك عنهما. لكن أين ستقطن؟ على فينيكوس أن يستأجر لها منزلاً. ويجب أن تلبس أيضاً. على فينيكوس أن يجلب لها الألبسة. ومن سيطعمها؟ فينيكوس أيضاً سيزودها بالطعام. آه، ما أصعب الحياة. أين تلك الأزمنة حينما كانَ كلّ شيء رخيصاً. لأعد إلى سبورس اللص. إلى جانب النبيذ يسهل معرفة كلّ شيء.

وهكذا، بهذه الروح العالية من التأمل دخل الخمّارة طلب قدحاً من النبيذ الأحمر. وحين لاحظ تذمر الساقي أخرج ذهبيَّة من كيس الدراهم، ووضعه على الطاولة وقال:

ـ يا سبوروس! منذ الصباح إلى الآن كنت أعمل مع سينكا. انظرْ ما أعطاني صديقي مكافأة لي.

ازدادت لهذا المشهد استدارة عيني سبورس الدائريتين أصلاً، وسرعان ما كانت القدح أمام شيلون، الذي بلّل أصبعيه بنبيذها ورسم سمكة على الطاولة. ثم سأل:

ـ هل تعلم ما معنى هذه؟

ـ هذه السمكة؟ إنّها سمكة. السمكة سمكة.

ـ يا لغبائك. لقد مددت النبيذ بكميّة زائدة من الماء حتّى صار صالحٌ لحياة السمك. هذا رمز يعني في لغة الفلاسفة: ابتسامة الحظ. لو عرفت لكنت حصلت على ثروة: أعط الفلسفة قسطاً من الاحترام وإلا سأقصد خمّارة أخرى، طالما شجّعني صديقي بترونيوس منذ مدة على ارتيادها.

في الأيام القليلة التالية لم يظهر شيلون في أيّ مكان. وفينيكوس منذ أن أخبرته أكتي أنَّ ليفيا قد أحبّته زادت رغبته أضعافاً مضاعفة لإيجادها.
فهو إذن أراد أن يبحث عنها بكل جوارحه، إلا إنّه لم يكن يريد، وليس بمقدوره أساساً، بسبب مرض الصغيرة، أن يتوجّه إلى القيصر المذعور لطلب المساعدة.
لم تُجدِ نفعاً لا القرابين التي قُدمت في المعابد، ولا الصلوات والابتهالات، ولا علوم الطب ولا حتّى الوسائل السحريّة التي يتم اللجوء إليها، في نهاية المطاف. ماتت الطفلة بعد أسبوع وغرق البلاط بحدادٍ عمَّ روما بأسرها.
ومثلما انشرح صدر القيصر ابتهاجًا بولادة الطفلة، كذلك استبدَّ به القنوط وضاق ذرعاً بحياته، فانكفأ على نفسه وأوصد باب غرفته مدّة يومين لم يذق خلالها شيئاً، ولم يخرج لمقابلة وفود الحشود المعزّية من السيناتورات والنبلاء. اجتمع مجلس الشيوخ في جلسةٍ عاجلة أعلن خلالها الطفلة الميتة إلهة، وقرّر إقامة معبدٍ لأجلها، وأوصى بتعيين كاهن خاص لهُ. وقُدّمت القرابين في المعابد الأخرى على روح الفقيدة، وسُبِكت لها التماثيل من أثمن المعادن. كانَ حفل تشييعها حفلاً مهيبًا بلا مثيل، رأى فيه الشعب بأمّ عينه ما تركته الكارثة في نفس القيصر من ألم لا حدود لهُ. فشاطره الناس البكاء.
أقلقت حادثة الوفاة هذه بترونيوس. صارت روما بأسرها تعرف أنَّ بوبيا قد أرجعت سبب موت الطفلة إلى الإصابة بالعين. وهذا ما أكّده حتّى الأطباء ليغطوا فشلهم بشفائها، وحتّى الكهنة بما أنَّ كافة قرابينهم قد ذهبت جزافاً دون أن تجدي نفعاً، والمشعوذون الذين باتوا يرتعدون خوفاً على حياتهم كباقي الشعب.
بترونيوس الآن أسعده هروب ليفيا، خاصّة وأنّه لم يكُن راغباً في إلحاق الأذى بعائلة أولوس، وأنّه بالطبع يتمنّى كُلّ الخير لنفسه ولفينيكوس. وهكذا ما إن انتهى الحداد في القصر، حتّى أسرع إلى موعد استقبال القيصر للسيناتورات والنبلاء، ليقف على مدى تصديق نيرون لأنباء الإصابة بالعين، ويتمكّن من اتخاذ الإجراءات الأوليّة اللازمة لما يترتّب على ذلك من نتائج محتملة. معرفته لنيرون، وضع بتصوره أنَّ القيصر وإن لم يكن يؤمن بفتنة العين، فسوف يتصرّف وكأنّه يؤمن بها لأكثر من سبب. فبإيمانه بها يخادع آلامه ويتمكّن من إيقاظ نقمته على أحدٍ ما. بصحّة مثل هذه الأنباء دلالةٌ على أن الآلهة بدأت تنتقم منه على شنائعه وشروره. ومعرفتها لهُ أيضاً كانَ على يقين أنَّ القيصر وإن بدا حبّه للطفلة عنيفاً وبلا حدود لكنّه ليس حبًّا عميقاً ووفيًّا بحيث لا يتمكّن من تجاوز آلامه. ولم يكن بترونيوس على خطأ. كانَ القيصر يُصغي إلى المعزّين من السيناتورات والفرسان بسحنةٍ حجريّة، وعينين جامدتين تحدّقان بثباتٍ في نقطةٍ وحيدة لا تتبدّل.
لقد بدا، وإن كانَ في حقيقة الأمر يعاني بعض الشيء، متكلّفا أمام الحضور، يبالغ في إظهار ما للحادثة من تأثير عليه. تصنّع في وضعيّة جلوسه، وثبات نظراته، ولعب دور الوالد المفجوع، لكن على نحوٍ يقوم به ممثل كوميدي. لكنّه لم يكن ليقوى على الحفاظ على تعابير الحزن الجامدة تلك، فكان بين الفينة والأخرى يبدي بعض الحركات. تارةً كأنّما يرشُّ الرمال على رأسه وتارة أخرى يئنُّ بفظاظة، لكنّه حين لمح بترونيوس قفز وصاح بصوت تراجيدي يسمعه الجميع:
أهووو... أنت كذلك سبب موتها! أنت الذي جئت بالروح الشريرة إلى هذا المنزل لتنتزع بنظرة منها الحياة من صدرها... يا ويلي! يا عمى عيني! يا ويلي! أهووو! أهووو!
واشتدَّ صوته يُطلَق التأوهات اليائسة. لكنّ بترونيوس سرعان ما تقدّم منه وسحب المنديل الحريري من حول عنق القيصر، وشدّه على فم نيرون. وقال بجهامة:
- سيدي! احرق بألمك روما والعالم بأسره لكنّ احرص على صوتك من أجلنا.

ذَهل الحضور. وفوجئ القيصر للوهلة الأولى. وحده بترونيوس حافظ على رباطة جأشه. كانَ يُدرك ماذا يفعل. تذكّر ما كانَ يفعل تيربونوس وديودروس حين يرفع القيصر صوته: يُغلقان فمه، لكي لا يتأذّى صوته.
واستأنف يقول بصوتٍ جادٍ مشوبٍ بالحزن:
ـ أيها القيصر لقد تكبّدنا خسارةً فادحة لا تُعُوض. فلنحافظ على هذا الكنز عزاءاً وحيداً لنا.
تجمّد وجهُ القيصر، وسرعان ما دمعت عيناهُ، ومال على ذراع بترونيوس مُسنداً رأسه على صدر صديقه. وكرّر منتحباً:
ـ أنت الوحيد الذي خطر لهُ ذلك. أنت الوحيد من بينكم جميعاً. أنت الوحيد.
شحب تيفاليتوس من الغيرة. أمّا بترونيوس فقد أجاب:
ـ اذهب إلى الأنتيوم حيث وُلدت الطفلة ورأت النور. هناك ستغمُرُكَ السعادة، وتحوز على العزاء. دع هواء البحر يُنعش رئتيك، ويمتلئ صدرك بالرطوبة المالحة نحن أنصارك سنرافقك أينما حللت، ونبلسم جرحك بصداقتنا. وأنت تشفينا بغنائك.
فأجاب نيرون بألم:
ـ أجل. سأكتب من أجلها نشيداً وأقوم بتلحينه.. وسنحوذ بعدها على أشعّة الشمس الدافئة. وعلى السلوان في بلاد الإغريق.
في بلاد الإغريق، بلاد الشعر، والغناء.
وكما تنقشع الشمس من خلف الغيوم، تخلّص المصعوق من جهامته شيئاً فشيئاً، وأخذت الأحاديث الحزينة في ظاهرها تتطرقُ إلى الخطط الآتية والسفر، والفن، وحفلات الاستقبال على شرف ملك تيردانس وأرمينيا. وتطرّق تيغالنيوس ثانيةً إلى موضوع الإصابة بالعين، لكنّ بترونيوس قبل التحدي واثقاً من فوزه فسأل:
ـ هل تقول يا تيغالنيوس أن الإصابة بالعين يمكن أن تُلحق الأذى بالآلهة؟
فأجاب رجلُ البلاط القيصري:
ـ القيصر نفسه تحدّث عنها.
ـ كانَ الألم من نَطَقَ بذلك، وليس القيصر. لكن ما رأيُك أنتَ في المسالة؟
ـ الآلهة أعظمُ بكثيرٍ من أن تتمكّن الإصابة بالعين أن تُلحق بها الأذى.
ـ أنت تُنكر إذن على القيصر وعائلته الطبيعة الإلهيّة؟
فأجاب مارسيلو الجالس في مكانٍ قريب، مردَّدا نفس عبارة الجمهور حين تلقّى المجالد جرحاً بليغاً لا يحتاج بعده إلى طعنة الرحمة:
ـ ضربةٌ قاضية.
كتم تيغالنيوس غيظه. كانَ التنافس قديماً بينهما لكسب ودّ القيصر، وكان لـ تيغالنيوس حظوة في التفوّق على خصمه، من حيث أنَّ القيصر نادراً ما شاحنه، وأبدى انزعاجاً منه. لكنّ بترونيوس في كلّ تجارب الاقتدار التي جرت أمام القيصر حتّى الآن، كانَ يتفوّق على غريمه بعقله وتألقه.
وهذا ما حدث الآن. لزم تيغالينوس الصمت. لكن سرعان ما جمع حوله السيناتورات والفرسان، لمجرّد أن غادر بترونيوس المكان إلى الداخل، ليقنعهم أنّه المفضّل لدى القيصر.
وبمغادرة بترونيوس القصر، قصد فينيكوس، وبعد أن أخبره بما حصل لهُ مع القيصر وتيفالينوس، قال:
ـ لم أُبعد الخطر عن رأسي أولوس وبومبونيا، عن رأسينا نحن فقط، بل عن رأس ليفيا كذلك التي لن يعملوا على مطاردتها لسببٍ وحيد

هو أني أقنعت ذلك القرد ذا اللحية الحمراء بالسفر إلى الأنتيوم ومن هناك إلى نابولي أو بايبا. وسوف يسافر بكل تأكيد ما دام لا يجرؤ إلى الان على الظهور في مسارح روما، وأنا أعلم أنه يعد العدة منذ زمن للذهاب إلى نابولي. وأنه يحلم كثيراً ببلاد الإغريق و الغناء في أشهر مدنها. في هذه الاثناء سنغتنم الفرصة ونبحث بكل اطمئنان عن ليفيا، ونواريها في مكان آمن.
- الم يطل فيلسوفنا المحترم بعد؟
- فيسلوفك المحترم نص اب. لا. لم يأت. لم تتشرح عيناي برؤيته.
ولن نراه أبداً.
. لكن لي رأياً أفضل، إن ليس في نزاهته، ففي عقله الراجح. حصل مرة على نقودك، و سوف يأتي مرة أخرى من أجل نقودك.
- سأمص دمه.
- لا تفعل. كن صبوراً معه، حتى تتيقن أنه نصّاب. لا تمنحه نقوداً، لكن عده بمكافأة إذا ما جاءك بنبأ طيب عنها. لكن هل فعلت شيئاً من أجلها؟
- أرسلت اثنين من أرقائي على رأس ستين من رجالي. ووعدت من يعثر عليها بأن أعتقه. كما وزعت رجالاً على كافة الطرق المؤدية إلى روما، و كلفت بعضهم بالبحث عن ليفيا و أرسوس في الأرياف. وأنا بدوري جبت المدينة بنفسي ليل نهار بحثاً عنهما.
- زودني بما يستجد من أخبار أولاً بأول، لأني مسافر إلى الأنتيوم، حيث ستجد الكثرة من النساء و التسلية.
راح فينيكوس يذرع المكان متوفزاً جيئة وذهاباً. و تابعه بترونيوس بعينيه لوهلة، ثم خاطبه قائلاً:
- قل لي بصدق، لكن ليس كفتى تلهبه الحماسة، ويستحوذه الهاجس، بل كشخص متزن يكلم صديقه، هل مازالت ليفيا هامة بالنسبة اليك؟
توقف فينيكوس للحظة، و حدج بترونيوس بنظرة ساخطة كأنما من تفوه بذلك شخص غريب يلتقيه للمرة الأولى، و هم في الهجوم عليه. لكن سرعان ما كبح جماح نفسه. وانتهى به الأمر، وقد شعر بعجزه، أن ترقرقت في عينيه على خلفية من الألم، والغضب، والرغبة التي لا تنطفئ، دمعتان كانتا أبلغ تعبير من أي رد
فقال بترونيوس بعد تمعن:
- ليس أطلس من يحمل الكون على كتفيه، بل المرأة التي تلعب به كالكرة أحيانا.
فرد فينيكوس:
- فعلاً.
ثم ودعا بعضاً. وفي هذه اللحظة أبلغهما أحد الأرقاء أن شيلون شيلونيدس ينتظر في الصالون، ويطلب السماح بالدخول إلى حضرة السيد.
سمح له فينيكوس في الحال. لكن بترونيوس صاح قائلاً:
- هه. الم أقل؟ هدئ من روعك، وإلا هو من سيبسط سلطانه عليك وليس العكس.
وحين دخل شيلون القى التحية قائلاً:
- التحية والاحترام لك أيها النبيل، ولك أيضا ياسيدي. لينتشر صيتكما في العالم من أعمدة هرقل حتى حدود آرساسيدا!
فأجاب بترونيوس:
- التحية لك. أنت ينبوع العقل والفضيلة. لكن فينيكوس سأله بهدوء مصطنع:
- ما لديك من أخبار طيبة؟

ـ في المرة الأولى جلبت الأمل يا سيدي، أما الآن فلقد جئتك باليقين في أننا سنجدها.
ـ وهذا يعني أنك لم تحدها بعد؟
. حقاً يا سيدي، لكني اكتشفت معنى الرمز الذي رسمته لك. وأعرف من أولئك الذين حرروها. كما أعرف أين سنبحث عنها، بين أتباع أي من الالهة.
أراد فينيكوس أن يقفز عن كرسيه، لكن بترونيوس ردعه واضعا يده على ذراعه، و التفت إلى شيلون قائلاً:
ـ تابع!
ـ هل أنت واثق يا سيدي بأن ما رسمته العذراء كانت سمكة؟ فرد فينيكوس بتوتر.
ـ أجل.
ـ إذن هي مسيحية. والمسيحيون هم من حرروها. ساد صمت لحظي، حتى نطق بترونيوس قائلا:
ـ اسمع! قريبي خصص لك مبلغاً جيداً من أجل العثور على الفتاة. وكذلك عدداً لا بأس به من الجلدات، إذا ما أردت خداعه و الاحتيال عليه. في الحالة الأولى ستحصل على ثلاثة أكياس بدلاً من كيس واحد. وفي الحالة الثانية لن تنفعك فلسفات الحكمة السبع، إضافة إلى فلسفتك، في الشفاء من الجلد.
كرر الإغريقي يقول:
ـ العذراء مسيحية يا سيدي؟
فكر يا شيلون لست شخصاً أحمق. نحن نعلم أن يوليا سيلانا و كالفيا كريسبنيلا اتهمتا بومبونيا غريسينا باعتناق خرافة المسيحيين، لكننا نعلم كذلك أن المحكمة القيصرية برأتها من التهمة.
هل تريد أن توجه لها التهمة من جديد؟ أتراك تريد إقناعنا بأن بومبونيا ومعها ليفيا من بين أعداء الإنسانية، ومن بين من يسممون البئر وماء البئر، ويقتلون الأطفال، ويمارسون أحط الأفعال؟
هل فكرت جيداً يا سيلون أن نقض هذه الفرضية يعني أنك من سيدفع الثمن فيما بعد؟
بسط شيلون ذراعيه مشيراً إلى أن ذلك ليس خطأ ارتكبه هو، ثم استأنف قائلاً:
ـ سيدي! قل باللغة الإغريقية هذه العبارة: عيسى المسيح، ابن الله المخلص.
ـ حسنا. سأقولها. وماذا بعد؟
ـ والان خذ من كل كلمة الحرف الأول منها. ثم جمعها لتشكل كلمة واحدة.
فقال بترونيوس ذاهلاً:
ـ سمكة.
فقال شيلون بافتخار!
ـ أرأيت؟ هذا ما جعل السمكة رمزا للمسيحيين.
خيم صمت لحظي، كان في محاججة اليوناني ما باغتهما، حتى لم يكن بمقدورهما التغلب على ذهولهما الصريح.
تساءل بترونيوس قائلا:
ـ فينيكوس! لعلك مخطئ فيما رسمت الفتاة. هل رسمت سمكة؟ فصرخ الشاب بنبرة عنيفة:
ـ أيتها الإلهة! أنا سأفقد عقلي. لو رسمت طيراً لقلت لك إنها رسمت طيراً.
فكرر شيلون قائلاً:
ـ إذن فهي مسيحية.
علق بترونيوس:
ـ هذا يعني أن بومبونيا و ليفيا تسممان الابار، وتقتلان الأطفال في الشوارع، وتزنيان. حماقة! أنت يا

فينيكوس أقمت معها لفترة طويلة، وأنا لفترة أقل لكني أعرف كلاً من أولوس وبومبونيا وليفيا حق المعرفة، ولهذا أقول حماقة و افتراء. لو كانت السمكة رمزا للمسيحيين لكان من الصعب دحضه. ولو كانتا مسيحيتين لأقسمت أن المسيحيين ليسوا كما نعتبرهم وننظر اليهم.
أجاب شيلون:
ـ تتكلم يا سيد كسقراط. من ناقش يوماً مسيحياً؟ من تعرف على تعاليمهم؟ منذ ثلاث سنوات في طريقي من نابولي روما ليتني بقيت هناك، انضم الي شاب قيل إنه مسيحي، ورغم ذلك أيقنت انه شخص طيب و خلوق.
ـ وهل تعرفت على معنى رمز السمكة من ذلك الرجل الفاضل؟
ـ للأسف يا سيدي، خلال طريقنا طعن أحدهم الشاب، في حين قام تجار الرقيق بخطف زوجته وطفله، ولم أسلم أثناء دفاعى عنهم من الاذية ففقدت هاتين الأصبعين. لكن بما أن العجائب تحدث بكثرة في أوساط المسيحيين، آمل أن تنموا من جديد.
ـ لعلك صرت مسيحيا؟
ـ منذ أمس ياسيدي، منذ أمس. للسمكة الفضل في ذلك. ترى كم من القوة تختزن فيها! بعد أيام سأكون من أشد المتحمسين بينهم من أجل أن يطلعوني على أسرارهم. وحين أعرف هذه الاسرار كلها، سأعرف أين تختفي الفتاة. وعندئذ قد تكون مسيحيتي أكثر نفعاً مادياً من فلسفتي. دعوت مرسيريوس أيضاً ليرشدني و يساعدني في إيجاد الفتاة. سأذبح قربانين من الأيائل من نفس العمر والحجم، وسأحتفظ بقرونهما و أطليهما بالذهب.
ـ إذن مسيحيتك الجديدة، وفلسفتك القديمة تتيحان لك الوثوق بمرسوريوس؟
ـ أثق دائما من أنا في حاجة للوثوق به، و فلسفتي هذه تناسب ذوق الالهة و خاصة مرسوريوس. من سوء حظي، تعرفان يا سيدي المحترمين، أي اله شكاك يكون؟ لا يثق بوعود أصدق الفلاسفة، ويفضل الأيائل قبل أي وعد يقدمونه. من هنا أهمية حاجتي للمبلغ الذي وعد به فينيكوس المحترم، أو لجزء منه.
فصرخ بترونيوس قائلاً:
ـ ولا أبلوس واحد، يا شيلون! ولا أبلوس واحد. كرم فينيكوس يفوق أمانيك، لكن بعد أن تجد الفتاة أو ترشدنا إلى مكانها، سيكون فينيكوس مرغماً على منحك هذين الايلين، ولو أني أظنه غير راض عن ذلك، لكن أثق برجاحة عقله.
ـ اسمعاني أيها السيدان المحترمان! اكتشافي كان عظيماً. ولو أني لم أجد الفتاة، لكني اكتشفت الطريق للوصول اليها. لقد نشرتم رجالكم من الأحرار والعبيد في أنحاء المدينة وريفها، فهل جاءكم أحد منهم بخبر؟ لا. أنا الوحيد الذي جئتكم بشيء هام. وسأقول لكما أكثر من ذلك. قد يكون بين أرقائكما مسيحيون لا أعرفهم، لأن هذه الديانة قد انتشرت في كل مكان. وهؤلاء بدلاً من أن يقدموا المساعدة قد يضمرون الخداع. حتّى وجودي هنا ليس بالأمر المحبذ فقد يرونني معكما. لذلك أرجو منك يا سيد بترونيوس أن تطلب من يونيكي التكتم. و أنت يا سيد فينيكوس انشر خبراً مفاده أنني قصدتك لأعطيك مرهما يساعد في كسب السباق إذا ما دهنت به حوافر الخيل. أنا الوحيد الذي سيبحث عن الهاربين وانا الوحيد الذي سيجدهما. ثقا بي. وأي شيء تمنحانني مقدماً سيكون مجرد مكافأة لي لأن أتعابي أكثر بكثير. اسمعاني جيداً، لقد تشققت قدماي من التجول الدائم. عرجت على الحمارين، والخبازين، والجزارين، وبائعي الزيوت، و صيادي السمك، ومقتلعي الأسنان، وأطباء الجلد و الدمل، وكلمتهم جميعا. كما جلت في المقابر. أندريان ما السبب؟ لأرسم في كل مكان سمكة و أراقب بعدها وجوه الناس، و اسمع ما يقولونه بشأن الرمز. طال الوقت و لم ألاحظ شيئاً، حتى لمحت رقيقاً عجوزاً إلى جانب بئر يقوم بوضع السم في

البئر و يبكي. تقدمت نحوه و سالته عن سبب بكائه. و بسؤالي دعاني إلى الجلوس، فجلسنا و قال إنه أمضى حياته وهو يجمع المال ليعتق ابنه. لكن سيده حين رأى ما معه من مال سلبه إياه دون أن يعتق الولد. قال لي"هذا سبب بكائي". أما أنا فقلت في نفسي سأمتحنه وأرسم سمكة. بللت اصبعي بالماء و رسمت السمكة. فأجابني في الحال: "أنا أيضا أملي في المسيح" فسألته هل عرفتني من خلال الرمز. فقال" نعم. السلام عليك" وراح يبوح لي بكل شيء. قال لي إن ولده يعمل في نقل أحجار البناء حيث يعمل الكثير من المسيحيين. ولأنه عمل شاق أراد أن يعتق ابنه. وجاء دوري للحديث فقلت له شاكياً: لقد وصلت لتوي من نابولي ولا أدري أين أتعبد، لأني لا أعرف أخوة لي هنا، ولا أين يمكن أن يجتمعوا للعبادة. فاستغرب كيف لم يزودني الأخوة المسيحيين في نابولي برسالة إلى الاخوة في روما. فأوضحت له أن الرسالة قد سرقت مني في الطريق. فقال لي أن أذهب ليلاً إلى النهر، و سوف يعرفني على الاخوة، وهم سيصطحبونني إلى المعبد، و إلى الرهبان الذين يتدبرون أمر المسيحيين.

كم كنت سعيداً حين أعطيته كل ما لدي من نقود تساعده في إعتاق ابنه، على أمل أن يردها لي فينيكوس ضعفين.

هنا قاطعه بترونيوس قائلاً:

ـ شيلون. كذبك يطفو فوق صدقك كالزيت فوق الماء. لا أنكر أنك جلبت أخباراً هامة. كما أقر بأنك وضعت أقدامنا على الدرب الصحيح المفضي إلى ليفيا. لكن لا تغلف أخبارك بالكذب. ما اسم ذلك العجوز الذي أكد لك أن السمكة هي رمز المسيحيي؟

ـ يورسيوس ياسيدي. عجوز مسكين، يذكرني بالطبيب الذي دافعت عنه ضد اللصوص. كان هو من حمسني كل هذا الحماس.

ـ صدقت أنك تعرفت إليه، و أنك تستطيع أن توظف هذا التعرف لكنك لم تمنحه نقوداً و لم تمنحه أي شيء.

ـ بل ساعدته في رفع الدلو، و أفضيت معه في حديث المواساة عن ابنه. أجل يا سيدي. ما الذي يمكن أن يخفي عن ذهن بترونيوس الوقاد؟ أنا لم أعطه نقوداً، لكني أعطيته، وإن كان في ضميري فقط و في روحي، وتفكيري، ما كان كافياً لو أنه كان فيلسوفاً حقيقياً. و لقد أعطيته ما أعطيته لأنني أعتبر ذلك خطوة ضرورية، و ناجعة. تصور يا سيدي، كم استمال من المسيحيين نحوي، وكم سدد طريقي نحوهم، وكم من الثقة بي قد أيقظ في نفوسهم.

اعترف بترونيوس قائلاً: ـ هذا صحيح: وكان عليك أن تفعل ذلك.

ـ ولقد جئت لهذا السبب بالضبط. لكي أتمكن من فعل ذلك.

التفت بترونيوس نحو فينيكوس قائلاً:

ـ عدله خمسة الاف سستريوس، لكن فقط في روحك، وفي تفكيرك.

لكن فينيكوس خاطب شلون قائلاً:

. سيرافقك أحد الشبان. هو من يحمل النقود. وأنت ستقول لـ يورسيوس العجوز إنه أحد أرقائك، و تعطيه النقود على مرأى منه. وبما انك قد جلبت خبر أطيبا فستحصل على نفس المبلغ. ارجع في المساء لأجل الشاب و النقود.

أضاف شيلون قائلاً:

ـ قيصر حقيقي. اسمح لي يا سيدي أن أقدم مؤلفي لك. لكن اسمح لي أيضاً أن أتي من أجل النقود فقط. لا يمكن لأحد أن يرافقني لأن يورسيوس قال لي إن قاربه لا يتسع الالإثنين. رافقتكم السلامة! هذا وداع المسيحيين... سأتخذ لنفسي عبدة، أقصد عبداً. السمكة يصطادونها بالسنارة. أما المسيحيّون فبالسمك. رافقتكما السلامة! رافقتكما السلامة!

## (15)

من بترونيوس إلى فينيكوس.

أبعث اليك برسالتي مع أحد أرقائي المؤمنين. ورغم أن يدك اعتادت السيف والرمح، لا القلم، فإني آمل أن تبعث بردّك، دون تأجيل، عن طريق المراسل ذاته. لقد غادرتك و أنت هناك مترع بالأمل، و في أفضل حال، فآمل أنك إذن، إما أن تكون قد أطفأت ظمأ أشواقك بين ذراعي اليفيا، أو أن تتمكن من أن تطفئه و ترويه، قبل هبوب العاصفة الشتائية من قمة سوراست باتجاه كامبانيا. آه يافينيكوس وكما آمل أن تكون ربة قبرص الذهبية سيدتك، ولتكن أنت سيد تلك الليغويّة الجميلة جمال حمرة الفجر، و اهرب قدر الإمكان من أمام شمس الحب. ولا تنس أن الرخام، حتى لو كان الأثمن، لا يساوي شيئا بذاته، و قيمته الحقيقية كامنة بين يدي النحّات الذي يحوله إلى تحفة فنية. فكن أنت النحّات، يا عزيزي. لا يكفي أن نحب، علينا أن نعرف كيف نحب، ونعرف أن نعلم الاخرين الحب. فعامة الناس أيضاً تشعر بالرغبة. وكذلك الحيوانات. لكن الانسان الحق يختلف عن كل أولئك، يجعل الرغبة فناً نبيلاً، يستمتع به على نحو واع، وإدراك لقيمته الالهية، حتى لا تختزل في إشباع الشهوة الجسدية فقط بل الروحية أيضاً. حين أفكر هُنا بالسام وبكون حياتنا جدباء مقفرة، ولا يقينية، يخطر لي: اليس اختيارك هو الأفضل يا ترى! فليس بلاط القيصر أبداً بل الحرب و الحب هما الأمران اللذان يستحقان أن نولد ونحيا من أجلهما.

لقد كنت محظوظاً في حروبك. فكن كذلك في الحب. وإن كنت يدفعك الفضول أن تعرف ما يجري في بلاط القيصر، سأعلمك بذلك بين الحين والاخر. نحن هنا في الانتنيوم، نداوي صوتنا السماوي. أما روما فإننا نمقتها على الدوام. نستعد للذهاب شتاءً إلى بايا، ومن هناك سنقصد نابولي لأن أهلها بكونهم من الإغريق يقدروننا أكثر من شعب الثعالب القاطن في السواحل التيبرية. سوف يحتشد الجموع في كل من بايا و بومبي و بوتيولي و كومي و ستابيا لاستقبالنا بالتصفيق، وأقواس النصر، الأمر الذي يخدم، عفوياً، مسيرنا إلى أكايا.

وفيما يخص ذكرى الاوغستا الصغيرة فلا زلنا نبكيها ونعزف لها المؤلفات والاناشيد الرائعة التي تدفع العازفين جميعاً من شدة حسدهم إلى الاختباء في أعمق مغائر الهة البحر امبترتي. حتى أن الدلافين تقف للإصغاء إذا لم يشغلها هدير البحر. لم يخمد بعد، حزننا الذي نعلنه للناس بأشكالٍ شتّى، تعلّمناها من وضعيات التماثيل المحببة للناس و الأكثر ملاءمة للحالة. آه ياعزيزي، إننا نمارس موتنا كمهرجين، وكوميديين.

هنا كل الرهبان الاوغسطيين، من رجال ونساء، إضافة إلى خمسمئة آتان تستحم بوبيا بحليبها، وعشرة آلاف رقيق. وأحياناً ترانا فرحين باسمين. كالفيا كريسبينلا بدأت تهرم. يقال أنها تتوسل بوبيا لتستحم بعدها في الحليب ذاته. لوكانوس صفع نيجيريا لشكه بعلاقتها بأحد المجالدين. سبوروس بمغامرة منه خسر زوجته بسبب سينيكو. سيلانوس قدم لي لقاء يونيكي أربعاً من خيول السباق المطهّمة، فلم أقبل بها. وأنا ممتن لك بذلك، فقد أخذت بنصيحتك. أما عن توغواتوس سيلانوس فقد صارت أقرب إلى الشبح منها إلى الإنسان. موتها مؤكد. لا مجال لإنقاذها. هذا هو عالمنا. لقد قررنا الحرب منح كوربولو من السلطة والصلاحيات، ما كان لبومبيوس الكبير في الحرب ضد الكالوز.

مرت لحظات نطق فيها نيرون، وأبدى تحفظه على أن بمقدور كوربولو أن يحقق صيتاً ذائعاً إذا ما انتصر في الحرب. فكرنا بأن نوكل أولوس قيادة الجيش، لكن بوبيا عارضت الفكرة لأن نقاء بومبونيا شوكة في عينها.

وعدنا فاتينيوس بمباريات مجالدة عالية المستوى يقيمها في بنفنتوم ترى كم للإسكافيين من أيادٍ طولى في أيامنا هذه. قام اليتوروس البارحة بلعب دور أوديب على نحو بديع. سألته وهو اليهودي هل اليهودي

والمسيحي واحد؟ فأجاب أن الدين اليهودي قديم بالوراثة، أما الدين المسيحي فهو طائفة جديدة نشأت في يوديا. في عهد بترونيوس قاموا بصلب أحد الرجال وتنامت أعداد أتباعه الذين يتخذونه الهاً لهم، يوماً بعد يوم. أظن أنهم لا يؤمنون بأي الهاً آخر ولا حتى الهنا نحن، ولا أدري ما الذي يضيرهم في ذلك.
لقد صرح تيفالينوس بخصومته لي. لكنه لا يستطيع أن يجاريني حتى الان. ميزته عني أنه يكترث بحياته أكثر مني، وأشد وضاعة، مايقربه أكثر من صاحب اللحية الحمراء. وعاجلاً أو آجلاً هو من سيتفق معه أولاً، حتى يأتي دوري أنا. لا أدري متى ستأتي اللحظة المناسبة. حتى ذلك الوقت نتسلى ونمرح. الحياة بذاتها ليست رديئة لولا وجود صاحب اللحية الحمراء. هو من يجعل المرء يسأم من نفسه. لا جدوى من حضورنا كل تلك المباريات، والمجالدات التي تقوم بجوهرها على تغذية عبادتنا لذواتنا. أحيانا أقول لنفسي إني لا أختلف عن شيلون، ولست أفضل منه في شيء البتة. إن كنت لا تحتاجه ابعثه اليّ. لقد أحببت عباراته ذات البناء السليم. بلغ تحياتي فتاتك المسيحية الالهية، واطلب منها باسمي أن لا تكون معك سمكة. أخبرني عن أحوالك، وحبك. واعرف الحب وعلمه. السماء معك.
من فينيكوس إلى بترونيوس
ليفيا لم تحضر بعد. ولولا أملي في العثور عليها في وقت قريب، لما جاءك ردي، لأن المرء إذا ما سئم حياته، لا يستطيع حتى أن يكتب. أردت أن أتجاوز فكرة أن شيلون يحتال علينا في ذلك المساء، حين رجع من أجل المال الذي سيعطيه لأوريسيوس، البسته سترة عسكرية وأرسلت معه شابا، وتبعتهما خلسة. حين بلغا المكان، أختبأت خلف عمود المرسي ورحت أراقبهما عن بعد. وتأكدت أن يوريسيوس ليس هيئة زائفة. وكان في الاسفل عند ضفة النهر، مجموعة من الرجال على ضوء المشاعل تقل الحجارة من قوارب ضخمة، وتركنها على الضفة. رأيت شيلون يذهب باتجاههم، ليحدث عجوزاً سرعان ما ركع على قدميه. تحلق حولهما الآخرون، وسمعت منهم صيحات استغراب. رأيت بأم عيني كيف قدم الشاب الكيس ليوريسيوس فأخذها وراح يصلي بيدين مرفوعتين، وكان يجثو إلى جانبه شخص آخر لا بد أنه ابنه. قال شيلون شيئاً لم أسمعه جيداً. ثم انضم إلى الرجل وابنه، وبقية الآخرين، وراحوا يرسمون في الهواء إشارات الصليب. وددت لو أذهب اليهم، وأعد من يرجع لي ليفيا بثلاثة أكياس. لكني خشيت من أن أفسد على شيلون عمله. وهكذا، بعد إمعان في التفكير، عدت أدراجي إلى البيت.
حدث هذا بعد اثني عشر يوماً من سفرك. وبعدها جاء الي كثيراً.وحدثني كم يلقى بين المسيحيين من التقدير. قال إنه لم يجد ليفيا حتى الآن، لأن روما باتت مكتظة بالمسيحيين، فلا يعرف الجميع بعضهم، ولا كل مايحصل لأي منهم. إضافة إلى حبطتهم وندرة أحاديثهم. لكنه سيسعى إلى التقرب من كهنتهم لانتزاع الاسرار. تعرف على بعض منهم، وحاول جس نبضهم، لكن بحذر، كي لا يزرع الشك في نفوسهم، ويفسد الأمر. عرف أيضا أن لهم أماكن مشتركة للعبادة. غالبا ما تكون خارج أسوار المدينة في بيوتٍ مهجورة، أو في مناجم الحجارة، حيث يقومون بتقديم احترامهم للمسيح، ويغنون، ويأكلون. هناك العديد من هذه الأماكن. يعتقد شيلون أن ليفيا عمدت أن ترتاد أماكن أخرى غير التي تقصدها بومبونيا، لسبب وجيه هو أن يتاح البومبونيا أن تقسم أمام القضاء أنها لا تعرف مكان اختفاء الفتاة. قد يكون الكهنة هم من أشاروا الها بذلك. لمجرد أن اكتشف شيلون هذه الأمكنة سأرافقه اليها، وإذا ما قدرت الالهة أن أرى ليفيا، فأني إقسم بجوبيتر أنها لن تفلت مني ثانية.
لا تغيب عن بالي أمكنة العبادة تلك. لا يريد شيلون أن أرافقه اليها. يخاف. لكني لا أستطيع التحمل والقعود. سأتعرف عليها حتى لو تخفت بوشاح، أو تنكرت بلباس. هم يتجمعون كل مساء، وأنا سأعرفها حتى في الليل. أعرف حركاتها، ونبرة صوتها. سأذهب متنكرا إلى هناك، وأراقب الداخلين والخارجين. على شيلون أن يجيني في الغد. وسننطلق معا.

سأحمل سلاحا. رجع بعض أرقائي الذين أرسلتهم إلى الريف، لكن بلا نتيجة. والان أنا أكيد أنها هنا في المدينة. وفي مكان قريب. عاينت بنفسي كثيراً من البيوت بحجة استئجارها.

أنت تكتب لي: كان اختياري سليما. أجل في المشاكل، والشقاء.

سنقصد أولاً منازل المدينة، ثم المنازل خارجها. الأمل قائم، والّا تتعذر الحياة. تقول: ينبغي أن نعرف أن نحب. وأنا عرفت أن أحدث ليفيا عن الحب، لكنّي الآن أقتصر على الشوق، وأنا في انتظار شيلون، لأن الحياة في المنزل لا تحتمل. السماء معك.

أما شيلون فقد طال غيابه، حتى لم يعرف فينيكوس ماذا سيفعل. لم ينفعه إقناع نفسه بجدوى التحريات ونتائجها المثمرة، لأنها باتت ستسير بطيئة. ثارت ثائرته الدموية والنارية في آن، وتغلب على صوت العقل فيه. القعود بذراعين معقودتين لا يفعل شيئاً ولا يثمر سوى الانتظار. وهو أمر يناقض طبيعته فلا مصالحة معه، ولا تنازل عن غاية وضعها نصب عينيه. إذا ما نطق عبارة أريد فلا حدود لإيقافها. عبادة ذاته تسبب له ألماً وتكبده المعاناة. إلى جانب ذلك فقد كان ثمة في هروب ليفيا لغز لم يفهمه أبداً. وهو على استعداد ليقدم حياته ثمناً من أجل حله. شعر أن أكتي محقة حينما قالت له: لست بالنسبة لليفيا مجرد شخص عادي كأي أحد آخر، لكن لو كان ما قالته صحيحا فلماذا اختارت التخفي والبؤس، بدلاً من الحب والمنزل الواعد برغد العيش؟ لم يعثر على إجابة. لكنه بدلاً من ذلك، قد شعر أن هنالك فارقا بينه وبين ليفيا، وتفاوتا بين أفكاره وأفكارها، وكذلك بين عالمه وعالم بترونيوس، وبين عالمي ليفيا و بومبونيا. هوة عميقة من سوء الفهم، لا يجسرها رابط. شعر عندها، أن عليه أن يفقد ليفيا، ففقد توازنه للفكرة التي شجعه عليها بترونيوس. مرت لحظات لم يدر خلالها إذا كان يحب ليفيا أم يكرهها. لكنه، في الحالتين، أراد أن يعثر عليها ويحظى بها والا فلتبتلعه الأرض إلى جهنم تذكر كل كلمة قالها للفتاة، وكل كلمة سمعها منها. وشعر، ويداه معقودتان، كم يتملكه الشوق. وكم أحبها، وأرادها. ومرت أيام فكّر خلالها، أية آثار سيخلفها سوطه على جسد ليفيا، وأنه في نفس الوقت سيقوم بتقبيل كل أثر منها، وفكر أحياناً كم سيكون سعيداً إذا ما قام بقتلها.

في خضم هذا التمزق، والتعب، والحيرة، والتكبد، انهارت صحته، وفقد وسامته. بات سيداً غامضاً، وجائراً، تحاشاه الأحرار، وارتجف أمامه الأرقاء، وتسلط عليهم بجور أحكامه لسبب وبغير ما سبب. حتّى باتوا يضمرون له الكراهية. شعر بذلك، ففاقم من عقابه ونقمته عليهم. ولكنه كبح جماح نفسه أمام شيلون خشية تخليه عن مهمته. لكن شيلون بملاحظته هذا الأمر، أخذ يتع إلى عليه ويزيد من مطالبيه. فكان في كل مرة يجيئه، يبادره أولاً بزرع الثقة في سهولة وسرعة انجازه لمهمته، لكنه كان يلاقي أعذاراً ، ويضع صعوبات جديدة في كل مرة، حتى صار أخيراً يصرّح بأنّ العثور عليها بات أمراً طويل الأمد.

في نهاية المطاف، وبعد انتظار دام أياماً، جاءه شيلون متجهما عكر السريرة، فشحب الشاب لمرآه، فهب لسؤاله:

ـ ليست بين المسيحيين؟

فأجاب شيلون:

ـ كيف لا يا سيدي، وقد رأيت الطبيب غلاو كوس هناك..

ـ عم تتحدث؟ من يكون ذاك؟

ـ هل نسيت يا سيدي ذلك الشخص الذي رافقني في رحلتي من نابولي إلى روما، والذي فقدت إصبعي دفاعا عنه، وبت لا أستطيع استخدام القلم؟. اللصوص الذين خطفوا زوجته وأولاده، طعنوه ، واضطررت إلى تركه يحتضر في الحانة، وبكيته طويلاً. أسفي عليه. لقد تأكدت أنه حي، يرزق، وأنه ينتمي إلى المسيحيين في روما.

لم يفهم فينيكوس شيئاً. لكنه أدرك أن كلاوسوس يمثل عائقاً ما أمام العثور على ليفيا. كظم غيظاً شديداً تجاه شيلون وهاجمه قائلاً:

ـ ما دمت قد دافعت عنه، فعليه أن يكون ممتناً لك، ويساعدك في مهمتك؟

ـ آ.آ.آ. حتى الالهة لا تكون ممتنة دائماً فكيف البشر. حقاً إنه يدين لي بامتنان. لكنه، لسوء حظي، رجل عجوز خرف. ليست المسالة في عدم امتنانه فقط لكنني علمت من إخوانه في العقيدة، أنه يتهمني بكل ما

حصل له، لأني تشاحنت مع اللصوص. وكانت مكافأتي فقدان إصبعي
فعلق فينيكوس قائلاً:
ـ أنا واثق أنه عجوز وضيع إذا ما تفوه بذلك.
فرد شيلون:
ـ إدراكك ياسيدي. أشد من إدراكه. لقد زعم ذلك على سبيل الافتراض والتخمين، ومع ذلك فهو افتراض يجعل المسيحيين ينقمون عليّ. لحسن الحظ أنه لا يعرف اسمي، وأنه لم يلمحني في مكان العبادة حيث كنا معا. أما أنا فقد عرفته وأردت أن أدق عنقه. لكن حيطتي ردعتني. حين خرجت إذن من المكان، قمت بالسؤال عنه للتأكد فأجابني معارفه بأنه من وشى به رفيق طريقه من نابولي إلى روما. عندها عرفت أنه ينقم علي.
ـ وما يهمني من كل ذلك؟ قل لي ماذا رأيت في بيت العبادة.
ـ لا يهمك في شيء يا سيدي، لكني يهمني لأنه مسالة حياة بالنسبة لي. ولذا فأنا ساستغني عن مكافأتي وأبتعد عن الموضوع. وحسبي أن أعيش كفيلسوف، يبحث عن الحقيقة الالهية.
فكان رد فينيكوس عنيفا:
ـ ومن قال لك إن الموت على يديه أسرع من يدي أنا. ومن أين تدري، أيها الكلب، أن قبرك لن يحفر هنا في حديقتي؟
كان شيلون جباناً، فما أن لمح وجه فينيكوس النافر بالوعيد حتى أدرك أن عبارة طائشة أخرى منه، ستعني نهايته.
فبادر إلى الرد سريعاً:
ـ سأبحث عنها، يا سيدي، وسأجدها.
ساد سكون لم يتخلله إلا لهاث فينيكوس، وصوت الغناء البعيد للأرقاء العاملين في الحديقة.
لم يستأنف الإغريقي كلامه الا بعد وقت قصير، حين أيقن أن الشاب قد هدأ:
ـ الموت مر بقربي، لكن نظرت اليه باطمئنان كما فعل سقراط. لاياسيدي. لا. أنا لا أقول إني سأتخلى عن الفتاة، لكني أردت أن أعبر عما يهددني الآن من أخطار أثناء بحثي عنها. لقد سبق لك يا سيدي، وشككت في شخص يدعى يورسيوس والان تشكك في وجود كلاوسيوس وتظنه من اختراعي. لكن للأسف المسالة غير ذلك. لو أني قد اختلقت كلاوسيوس اختلاقاً، وكان بمقدوري مخالطة المسيحيين و التحرك بينهم بأمان كما في السابق، لكنت تخليت عن المرأة الرقيقة العجوز التي اشتريتها قبل ثلاثة أيام لتخفف عني شقائي، وتعينني في بؤسي.
لكن كلاوسيوس حي يرزق، وإذا ما لمحني ذات مرة، فلن تراني بعدها. فمن سيبحث عن العذراء من بعدي؟
وصمت من جديد، يكفكف دموعه ثم أردف:
ـ لكن كيف أبحث عنها و كلاوسيوس حي؟ فقد التقيه في أيّة لحظة، وتكون نهايتي، ويتم القضاء على الأمل في إيجاد الفتاة.
ـ إلى أين تبغي أن تصل؟ ما العمل الان، وما الذي نريد أن تفعله؟
ـ علّمنا أرسطو طاليس، يا سيدي، أن نضحي بالمسائل الصغرى من أجل المسائل الكبرى. والملك برياموس كثيراً ما كان يردّد أن الشيخوخة عبء ثقيل. شيخوخة كلاوسيوس و نحسه باتا يثقلان عليه منذ فترة طويلة، حتى صار يتمنى الموت، لأن الموت منجاة كما يقول سينكا.
ـ تلفّظ بهراءاتك أمام بترونيوس وليس معي. قل ماذا تريد؟

- إذا كانت النزاهة هراء فلتسمح لي الآلهة أن أبقى مجنوناً إلى الأبد. أريد أن أبعد كلاوسيوس عن طريقي، لأنه مادام حيًّا فحياتي في خطر دائم. وكذلك العثور على الفتاة.
- جِدْ أشخاصاً يخلصون عليه، وأنا سأدفع لهم.
- سينهبونك يا سيدي، بجشعهم و استغلالهم سرّك هذا. الوضيعون كثر في روما، كرمال الصحراء. ومع ذلك لا تتصوّر مقدار غرورهم، واعتدادهم بأنفسهم إذا ما أرغموا على استخدامهم كمأجورين. لا أيها السيد المحترم! فقد يفضح أمر المجرمين ويعرفون، ويقرّون باسم من دفع لهم. لأنك ذائع الصيت. أما اسمي أنا فمجهول بالنسبة لهم. خطأ تفعل إن لم تثق بي، أو تجاهلت نزاهتي، وغضضت النظر عن أمرين اثنين: حياتي، والجائزة التي وعدتني بها.
- كم تحتاج؟
- الف سسترتيوس. مع الأخذ بعين الاعتبار أني سأبحث عن وضعاء يتحلون بالنزاهة، ولا يغرون بالدفعة الأولى من أجرهم، العمل الجيد يتطلب مبلغاً جيداً. سأشترط عليهم أن كل يوم يعيشه كلاوسيوس يقابله حسم مئة سسترتيوس من الأجر. ولدي فكرة أخرى أظنها لا تخيب.
وعده فينيكوس بالمال مرة أخرى. ومنعه من التحدث عن كلاوسيوس، و كان يسأله دائماً عما فعله حتى الآن، وما الذي رآه، وتوصل اليه. لكن شيلون لم يأته بشيء ذي أهميّة، سوى زيارته لمعبدين ومراقبة كل من كان فيهما، والنساء خاصة. لكن لم يلمح واحدة تشبه ليفيا. أما المسيحيون فقد باتوا يعتبرونه شخصاً مقبولاً بينهم. ومنذ أن أعطى النقود من أجل إعتاق ابن بورسيوس، وهم يكنّون له الاحترام كشخص سائر على خطى المسيحيين. وسوف يقوم بالتعرف على أحد مشرعي المعتقد، ويدعى بولس وهو سجين في روما، لأن اليهود قد تذمروا منه وقدموا شكوى ضده. والخبر السار الأهم أن أحد أتباع المسيح، وهو كاهن من أهل الثقة خوّله المسيح لقيادة المسيحيين، سيصل خلال أيام إلى روما. وسيحضر جميع المسيحيين دون استثناء، لرؤيته وسماع مواعظه. وبما أن الجمهور سيكون كثيفاً يتيح التخفي عن الأنظار، فسيحضر شيلون أيضاً و يصطحب فينيكوس معه. وسيجدان ليفيا هناك. خاصة إذا ما أزيح كلاوسيوس من طريقهما. ولو كان المسيحيون أيضا ينقمون، لكنهم على العموم بشر مسالمون. تذكر فينيكوس ما قالته بومبونيا عن أكتي، فتقبل كلام شيلون بابتهاج. بدا مطمئناً منشرح الصدر لسماعه أن التعاليم التي تعتنقها كل من ليفيا و بومبونيا ليست من الأفكار الشريرة، أو المجافية للأخلاق. ولكن إحساساً غامضاً خالجه للتو، وهو أن هذا التقديس السري الغامض للمسيح قد أقام جداراً فاصلاً بينه وبين ليفيا، وزرع الخشية في نفسه من هذه التعاليم، وبات يكنّ لها الكراهية.

كان من مصلحة شيلون حقاً أن يزيح كلاوسيوس من طريقه. صحيح أنه كان في سن متقدم من العمر، لكنه لم يكن عجوزاً قاصراً. ما قاله شيلون لفينيكوس كان في معظمه صحيحاً. كان قد تعرف على كلاوسيوس، و خانه بالاتفاق على اللصوص، وجرده من عائلته، وثروته، وجعله بين أيادي القتلة ثم تركه يقضي في الحقول، وليس في الحانة. أمر وحيد لم يضعه شيلون في حسبانه، وهو أن كلاوسيوس قد شفي من جروحه، وجاء إلى روما. حين لمحه في دار العبادة ارتعد بالطبع للوهلة الأولى، ورغب في التخلي عن متابعة البحث، لكن فينيكوس قد أخافه أكثر، وأدرك أن عليه أن يختار بين خوفه من كلاوسيوس ونقمة فينيكوس الهائلة، حتى قرر أخيراً أن يقف إلى جانب فينيكوس. وبترونيوس لأن مناصبتهما العداء أمر يكلفه الكثير، إذا ما قورن بعدائه لكلاوسيوس، شرط أن يتخلّص منه، فاتّخذ قراره بذلك.
وهكذا، بات من أولوياته الآن، اختيار الأشخاص، لتنفيذ الفكرة التي أطلقها أمام فينيكوس. وبما أن لياليه كلها كان يمضيها في الحانات بين فئات مهترئة من قاع المجتمع لا معتقد لها ولا شرف، كان من اليسير أن يعثر على مبتغاه بين الذين لا يتورعون عن القيام بأي عمل، وخاصة إذا ما اشتموا رائحة المال. لكن ثقته بهم كانت معدومة، ورأى فيهم أدوات تحمل ما تحمل من الأخطار والمطامع، الأمر الذي ينقلب عليه ويودي به. كان شيلون أيضاً، قد وصل به أمر مخالطة الرّعاع والسوقة، والعصابات المجرمة، حد القرف من تلك الهيئات القائمة المخيفة المقيمة في منازل مشبوهة في سوبورا. ولكن بما أنه لا يتبع الا ما تمليه عليه نفسه، ولا يعيش شيئاً الا بمقاييسه الذاتيه الخالصة، وباعتباره حتى الآن لا يعرف المسيحيين، ولا تعاليمهم حق المعرفة فقد ظن أنه سيجد بينهم ما يصبو إليه من أدوات مطواعة. وبما أنه يعتبرهم أكثر شرفاً ونزاهة من غيرهم، فقد قرر أن يتوجه اليهم ويكلفهم بهذه المهمة، ليس فقط من أجل المال، ولكن بما يخدم المعتقد أيضاً.
وخدمة لهدفه، قصد في المساء يونيكوس، الذي أبدى استعداداً تاما لمساعدته في كل ما يريد أن يفعله. وبما أنه كان شخصاً حذراً بطبعه، فقد أراد أن يحظى بأشخاص يطمئن إليهم بكتمان السرّ، ولا يتورعون عن القيام بأي شيء.
بعد أن أعتق يورسيوس العجوز ابنه، استأجر كشكاً حول مبنى السيرك يبيع فيه الزيتون والفاصولياء، والكعك، والماء المحلى للمتفرجين.
طبّ عليه شيلون وهو يقوم بترتيب محتويات الكشك. ما إن حيّاه باسم المسيح حتى أوضح له سبب مجيئه. لقد سبق أن قدّم للعجوز معروفاً، وهو الآن يضع في حسبانه أن يردّ له معروفه هذا. ويحتاج إلى اثنين أو ثلاثة من الرجال الأشداء الشجعان، للإسهام في درء خطر معين لا يخص شيلون وحده، بل المسيحيين بأسرهم. وعلى الرغم من كونه شخصاً فقيراً أعطى كل ما يملك من مال ليورسيوس، لكن سيدفع أتعاب هؤلاء الرجال شرط أن يثقوا به، وينفذوا كل ما يقوله.
كان يورسيوس وابنه كوارتوس يصغيان جاثيين إلى ما يقوله، باعتباره فاعل خير بالنسبة لهما، وسرعان ما صرحا بأنهما على استعداد لفعل أي شيء يطلبه لأنهما يعتقدان أن قديساً مثله لا يمكن لرغباته أن تخل بتعاليم المسيح، وقد أكد لهما شيلون أن الأمر كذلك، ثم رفع يديه إلى السماء كأنه يصلي، لكنه في حقيقة الأمر كان يفكر بالألف سستريوس التي يمكن أن يوفرها من جراء قبوله بمبادرتها الطوعيّة. إلا أنه سرعان ما حسم الموقف وتخلي عن هذه الخطة. كان يورسيوس هر ما أثقلته الأعباء والمرض أكثر ممّا فعلت به السنين. وكان كوارتوس لا يتجاوز السابعة عشرة، في حين كان والده في حاجة إلى رجال أشداء ذوي خبرة. أما ما يخص الألف سستريوس، فكان يعول على خطته أن يقتصد مبلغا كبيراً منها.
ظل الأب وابنه على عهدهما بقبول مبادرته، حتى قرر شيلون إبعادهما عنها، فاقتنعا بذلك وبادر الابن إلى

القول:
- أعرف ياسيدي خبَّازا يدعى ديماس يعمل في مطحنته اليدويّة أرقاء، وعمال أجرة. أحد هؤلاء يعادل أربعة في قوته، لأني رأيته وهو يرفع حجارة المطحنة، التي عجز عن تحريكها أربعة منهم.
فأجاب شيلون
- إن كان هذا الرجل يخاف الله، وبمقدوره أن يضحي بنفسه من أجل أخوته، فعرفني به.
- الرجل مسيحي يا سيدي، لأن معظم عمال ديماس كذلك.
هناك عمال نهاريون، وليليون، وهو في الوردية الليليّة. إذا ما قصدنا المكان الآن، فسنجدهم على العشاء، ونكلمهم بارتياح. ديماس يقطن قرب السوق.
وافق شيلون. لقد أنشئ السوق في أسفل جبل افنتنوس، ليس بعيداً إذن عن السيرك المدرج. وللوصول اليه اختصاراً للمسافة ينبغي السير بمحاذاة ضفة النهر، دون الاضطرار إلى التفاف حول الجبال.
حين اقتربوا من صف العمدان علق شيلون قائلاً:
- أنا عجوز، تخونني ذاكرتي أحياناً. أجل! من خان سيّدنا المسيح كان أحد تلامذته. لا أذكر اسمه الآن.
أجاب كوارتوس مستغرب كيف يمكن للمرء أن ينسى هذا الاسم!
- يهوذا يا سيدي. الذي شنق نفسه.
فسارع شيلون قائلاً:
- أو، صحيح، يهوذا! شكراً.
وساروا معا صامتين لفترة. وحين وصلوا إلى السوق، وجدوه مغلقاً، فتابعوا المسير على أطرافه. وحين تجاوزوا صوامع القمح، انعطفوا يساراً على طول فيا أوستنسيس حتى تبة تستاكيوس، باتجاه الأكواخ المنتشرة هناك. توقفوا قرب مبنى خشبي سمع من داخله ضجيج الطواحين اليدويّة. دخل كوارتوس البناء، فيما فضل شيلون أن لا يظهر نفسه أمام الآخرين هناك، مخافة أن يجمعه القدر بالطبيب كلاوسوس. سيبقى إذن في الخارج.
قال في نفسه وهو يشاهد الكون القمري المضيء: "كلّي فضول لأرى هذا الهرقل الذي يعمل طحَّانا هنا. فإن كان شخصاً وضيعاً وذكياً فسيقبل بنقودي القليلة. أما إذا كان مسيحياً فاضلاً وأحمق فسينفذ بالمجان، ما سوف أطلبه منه".
انقطع خيط تأمّلاته بخروج كوارتوس برفقة رجل آخر يرتدي سترة تكشف يده اليمنى والنصف الأيمن من صدره. وهي سترة يرتديها العمال في الغالب، لأنها تتيح حريّة تامة في الحركة. وحين أبصر شيلون الرجل القادم تنفس الصعداء، وشعر بالرضى لأنه لم ير ساعداً وصدراً كهذين طوال حياته.
تكلم كوارتوس قائلاً:
-انظر يا سيدي. هذا هو الشخص الذي أردت أن تراه.
فقال شيلون:
-عليك سلام سيدنا المسيح، أما أنت يا كوارتوس فقل لأخينا إن كنت أستحق منه الثقة والقبول، ثم عد إلى منزلك للعناية بأبيك العجوز.
فقال كوارتوس:
- شخص قدّيس، قدّم كل ثروته من أجل أن يعتقني من العبوديّة رغم أنه لم يكن يعرفني. ليمنحه سيّدنا المخلّص رحمة السماء.
بسماع العامل العملاق هذه العبارات، انحنى وقبّل يد شيلون.
فسأله الإغريقي:

- ما اسمك أيها الأخ؟
- في العمادة القداسيّة حصلت على اسم أوربانوس.
- أخي أوربانوس. هل لديك الوقت لنتحدث معا بهدوء؟
- عملنا يبدأ عند منتصف الليل، ولا عمل لنا الآن سوى تحضير طعام العشاء.
- الوقت كاف إذن. سنتمشى على ضفة النهر، وتصغي لما سأقوله لك.
ذهبا، وجلسا على مقعد حجري، في سكون كوني عميق لا يعكر صفاءه سوى صوت المطحنة وخرير المياه. عاين شيلون وجه العامل فقرأ منه شيئاً من التوعد و الحزن اللذين يميزان سكان روما من البرابرة على العموم. ورغم ذلك رآه شيلون صادقاً حسن النيّة.
قال في نفسه: "حسنا! هذا واحد طيب وأحمق، سيقتل كلاوسيوس بلا مقابل".
ثم سأله:
- أوربانوس! هل تحب المسيح؟
- من كل قلبي، ووجداني.
- وتحب إذن إخوتك وكل الذين علموك الحق و الايمان بالمسيح؟
- أحبهم كذلك يا أبتي.
- سلام عليك إذن.
- وعليك يا أبتي.
ساد الصمت ثانية.
سرح شيلون في ضوء القمر المنير، وأطلق العنان لنفسه، وراح يتحدث عن موت المسيح بهدوء و أناة كأنما كان يحدث نفسه لا أوربانوس، أو كأنما كان يروي للمدينة النائمة سر رحلة المسيح في آلامه. كان حديثاً مؤثراً، جعل العامل يبكي. أما حين بدأ شيلون يتنهد متألماً لموت السيد الذي واجه الموت وحيداً دون أن يقدم أحد على إنزاله عن الصليب، أو حتى منع إلحاق الأذى به من قبل اليهود و الجند، فقد بدأ يشد قبضتيه العملاقتين حنقاً وحزناً. لكنه حين فكر بأولئك الرعاع اللذين فرطوا بالمسيح، ثارت روحه الساذجة وتملكتها رغبة غريزيّة في الانتقام.
سأله شيلون على حين غرة:
- أوربانوس! لعلك تعرف من كان يهوذا!
صرخ العامل:
- أعرف، أعرف، لكنه قد شنق نفسه.
بدت نبرته مشوبة بخيبة أمل، لأن الخائن قد نفذ عقوبته بنفسه، وليس بالإمكان الآن أن يمثل بين يديه.
تابع شيلون يقول:
- لكن لو لم يشنق نفسه، وصادفه أي مسيحي برًّا أو بحراً، أليس من واجبه أن يثأر منه لآلام الملخص و دمه، وموته؟
- ومن لا يثأر له يا سيدي؟
- سلام عليك، يا خادم المسيح الوفي. أجل! يمكن للمرء أن يصفح عن أذى يلحق به، لكن من يصفح عن أذيه ألحقت بالسيد؟ وبما أن الافعى تنجب أفعى، والشرّ شراً، والخيانة خيانة، فقد ولد يهوذا جديد من سم يهوذا القاتل. وبما أن ذاك قد سلّم المخلّص لليهود، وجند روما، فإن هذا الذي يحيا بيننا يعد العدة للقضاء على أتباع كريستوس المسيح. وإن لم يوقف أحد هذه الخيانة، ويهرس رأس الأفعى في الوقت المناسب، فالإبادة في انتظارنا جميعا، ومعنا ستتلطخ سمعة المسيح واحترامه.

نظر اليه العامل باضطراب غاضب، كأنه لا يصدق ما يسمع، بينما راح الإغريقي يكرر بتباكٍ:
ـ ويلكم، يا عباد الله الحق، ويلكم، أيها المسيحيون رجالاً ونساء!
ساد صمت، إلا صوت الطاحونة، ودندنات الطحّانين، وخرير المياه.
سأل العامل أخيراً:
ـ من هو الخائن، يا أبتي؟
هزّ شيلون رأسه قائلاً:
ـ من؟ ابن يهوذا، ابن سم الأفعى المدّعي الذي يرتاد المعابد ليشي بإخوانه عند القيصر، بقوله إنهم لا يريدون الاعتراف بالقيصر إلهاً، وإنهم يسمّمون الآبار، ويقتلون الأطفال، ويرغبون في تدمير هذه المدينة عن بكرة أبيها. وهاهي الأوامر وقد تلقّاها الجند بقتل الشيوخ، والنساء والأطفال كما فعلوا منذ مدة بأرقاء سكوندس. كل ذلك كان من فعل يهوذا الثاني. فإن لم يعاقب الأول بإقدام أحدهم على الثأر منه، فهل ننتظر حتى ينهي سم الأفعى الثاني كل فعلته حتى يعاقب، وقد لا يبادر أحد إلى الانتقام منه. أليس من الواجب هرس رأس الأفعى و إنقاذ الأخوة والمعتقد؟ من سيقوم بذلك؟
نهض أوربانوس عن المقعد الحجري وقال:
ـ أنا يا أبتي.
نهض شيلون أيضاً. نظر في وجه العامل على ضوء القمر، ثم فتح يديه، ووضعها على رأس أوربانوس. وقال بلهجة احتفاليّة حبور:
ـ خالط المسيحيين، واذهب إلى أماكن العبادة، واسأل الاخوة عن الطبيب كلاوسيوس. وحين تتحقق من أمره، اقتله...
ـ كلاوسيوس؟ كرر العامل كأنه أراد أن ينبش الاسم من ذاكرته.
ـ هل تعرفه؟
ـ لا. لا أعرفه. روما تعج بآلاف المسيحيين. ولا يعرف الجميع بعضهم. لكن مساء الغد سيلتقي في الأستريانوم كل الاخوة من الرجال والنساء. لقد وصل حواريّ المسيح، وسيحضرون لسماع مواعظه. وهناك سيدلني الأخوة على كلاوسيوس.
ـ في الأستريانوم؟ لكنه خارج أبواب المدينة. الرجال والنساء كلهم؟ ليلاً؟ وفي الأستريانوم خارج الابواب؟
ـ أجل يا أبتي. هذه مقبرتنا وتقع بين فياسالاريا و نومنتانا. أم أنك لا تدري أن الحواريّ سيعظ هناك.
ـ كنت خارج البلاد لمدة يومين، ولذلك لم تصلني رسالته. لكني لا أدري أين يقع الأستريانوم، لأني هنا منذ وقت قصير بعد مغادرتي كورنثوس حيث عهد لي بقيادة جمهور المسيحيين هناك. لكن إذا ما ألهمك المسيح يا بني، فستذهب في المساء إلى الأستريانوم وتبحث بين أخوتك عن كلاوسيوس، وعندما يتوجه إلى المدينة في طريقه إلى البيت تقوم بقتله، فتكفر بذلك عن كافة خطاياك. والآن رافقتك السلامة.
ـ أبتي...
ـ ما الذي تريده يا عبد المسيح الوفي؟
عكس وجه العامل اضطرابا، فلم يمض وقت طويل على قتله شخصاً، وربما اثنين، بالرغم من أن وصايا المسيح تحرم قتل الناس. لم يقتله دفاعاً عن النفس رغم تحريم القتل حتى في هذه الحالة. الكاهن نفسه أرسل معه رجالاً لمساعدته محذراً الجميع من ممارسة القتل. لكنه أقدم على القتل دون قصد، ومع ذلك حكم عليه، من قبل ربه، بالخطيئة الكبرى. وهو الآن يطلب الكفارة والتوبة بكل ما يملك من قوة. الآخرون يغنون قرب الطاحونة، وهو يفكر بالذنب الذي ارتكبه، وبما لحق بالمسيح من آلام... كم صلّى. وكم بكى حتى الآن، وكم توسّل المسيح للصفح عن خطاياه. وشعر أنه لم يكفر له خطيئته. ما فيه الكفاية، بدليل

الوعد الذي قطعه من جديد، لقتل الخائن... لكن أين الخطأ في ذلك؟ أليس خائناً وقتله مشروع؟ لكن ماذا لو كان كلاوسيوس بريئاً وأقدم على قتله؟ كيف سيتقبل ضميره إثماً آخر، لا يرضي المسيح.

أجاب شيلون:

ـ لا مجال الآن للمحاكمات يابني. لأن الخائن فور خروجه من الأستريانوم، إما أن يقصد القيصر، أو يختبئ في منزل أحد أعوانه. لكني سأعطيك شارة تقدمها بعد قتلك كلاوسيوس للكاهن أو الحواريّ الكبير وسيباركان ما أقدمت عليه.

أخرج قطعة من النقود، وراح يفتش عن خنجر حول خصره، وحينما وجده، حفر به صليباً على قطعة النقود، وأعطاها للعامل.

ـ خذ! الخنجر لإقامة حكم كلاوسيوس. والشارة لك إذا ما قدمتها للكاهن، فسوف يعفو حتى عن جرمك الذي ارتكبته دون قصد.

بسط العامل كفه من أجل قطعة النقود. مثلت أمامه جريمته الاولى وكأنها حدثت للتو، فقال بتوسل، وكأنما شعر بخشية ما:

ـ هل ضميرك مرتاح لهذه الفعلة، وهل سمعت كلاوسيوس بنفسك وهو يشي بأخوتنا.

أدرك شيلون أن عليه أن يقدم الاثباتات ويذكر بعض الأسماء، وإلّا سيتسلل الشك إلى قلب العملاق.

وسرعان ما خطرت له فكرة أنقذته فقال:

ـ اسمع يا أوربانوس! أنا أسكن في الكورنوس، لكني ولدت في كوس. أما هنا في روما، فأقوم بتعليم إحدى الفتيات العبدات وصايا المسيح. الفتاة تدعى يونيكي وهي من قومي. وتخدم في منزل بترونيوس أحد أصدقاء القيصر. في هذا المنزل بالتحديد سمعت أن كلاوسيوس تكفل بقتل عدد من المسيحيين، وأنه وعد صديقاً آخر للقيصر بالبحث بين المسيحيين عن فتاة...

هنا توقف عن الكلام مشدوهاً وهو يلمح عيني أوربانوس تلتمعان بغتة، كعيني حيوان مفترس، ويقرأ على وجهه غضباً ووعيداً.

فسأله شيلون مرتعداً بحق:

ـ ما المشكلة؟

ـ لا شيء يا أبتي. غدا سأقتل كلاوسيوس!

لكن الإغريقي ظلّ صامتاً. وبعد قليل قبض على ساعدي العامل، وأداره حتى أصبح ضوء القمر مسلطاً على وجهه. واجهه وأمعن النظر فيه. ترى هل يتابع استنطاقه، أم يكتفي الآن بهذا القدر الذي استخلصه منه، أو شكّ في استخلاصه.

وفي النهاية، كانت الغلبة لطبعه الحذر الذي نشأ عليه. تنهد مرة وثانية. ثم وضع يده على رأس العامل وسأله بشيء من الحبور:

ـ قلت لي أنك حصلت في العمادة القداسيّة على اسم أوربانوس؟

ـ أجل يا أبتي.

ـ سلام عليك إذن يا أوربانوس؟

من بترونيوس إلى فينيكوس
لديك مشكلة يا عزيزي. لا بد أن فينوس قد أربكت ذهنك، وسلبتك عقلك، وذاكرتك، ومقدرتك على التفكير بأي شيء آخر غير الحب. اقرأ ردك على رسالتي وسترى كم ألحق بتفكيرك من عطالة، إزاء كل شيء عدا ليفيا شغلك الشاغل الوحيد، الذي تحوم فوقه كالصقر فوق فريسته. جدها بأسرع وقت و إلّا ستحرقك النار وتجعلك رماداً أو تتحول إلى أبو الهول المصري الذي وقع في حب إيزيس ذات الوجه الباهت، وغض بصره، وسمعه عن كل شيء عداها، مترقباً حلول الليل ليتمكن، بعينيه الحجريتين، من الاستماع لمحبوبته.
جُلْ كل مساء متنكراً في المدينة، بل ورافق فيلسوفك إلى معابد المسيحيين. افعل كل ما يمنحك أملاً، ويقتل الوقت. وافعل، لأجل صداقتنا، شيئا آخر بعد: يقال أن أورسوس عبد هائل القوة، فاسْعَ في تجوالك أن لا تكون وحيداً بل برفقة كروتون مهما كلفك من مال. ذلك أكثر أماناً و حذقاً فالمسيحييون، إن كانت بومبونيا، وليفيا منهم، ليسوا أناساً وضيعين. لكنهم باختطافهم ليفيا قد برهنوا أنهم لا يتساهلون في أمر يخص أحد الحملان في قطيعهم. أعرف أنك إذا لمحت ليفيا، فسوف تقتفي أثرها لكي لا تغيب عن بصرك بين الجموع. لكن كيف ستنتزعها من بينهم وليس برفقتك إلا شيلون؟ أما كروتون فقادر على البلاء حسناً حتى لو كانوا عشرة مثل أورسوس في حمايتها.
لا تدع شيلون يستغلك. لكن لا تأسف على ما تدفع من مال لكروتون هذه نصيحتي الفضلى لك.
باتوا هنا لا يتحدثون عن موت الطفلة، ولا عن إصابتها بالعين القاتلة. بوبيا تلمح للموضوع أحياناً لكن القيصر مشغول بأمور أخرى. نحن منذ عدة أيام في نابولي وبالتحديد في بايا. لو أن.مقدورك الانشغال بأي أمر، لكنت حتما سمعت عن إقامتنا هذه، لأن روما بأسرها تتحدث عنها. لقد توقفنا في بايا حيث أثقلت علينا ذكرى الأم وتأنيب الضمير. ولكن هل تعلم كيف آل المآل بالقيصر؟ صار قتل الأم مجرد موضوع شعري، وحافزاً لابتكار مشاهد تمثيله تراجيديّة. في السابق شعر حقا بتأنيب الضمير، بسبب جبنه فقط. لكن بعد أن أيقن أن العالم بأسره، مازال خاضعاً له كالسابق، وأنه بات في منجى من نقمة الآلهة، صار يتكسب ويطرح نفسه كشخص معذب للفوز بعطف العالم وتقوية نفوذه. يجفل أحياناً في الليل، لأن أرواحاً شريرة تلاحقه، فيوقظنا. ويتخذ وضعيّة ممثل جوال يلعب دور أوريستيس، ويقرأ لنا أشعاراً إغريقيّة، وهو يسترق النظرات ليعرف إن كان قد حاز على إعجابنا. نحن بالطبع سنعبر عن إعجابنا. وبدلاً من أن نواجهه بالقول: "عد إلى النوم أيها الممثل" ، كنا نتقمص الحالة المأساويّة، ونقوم بحماية الفنان العظيم من الأرواح. يا للهول! لا بد أنك سمعت أنه خرج للجمهور في نابولي. لقد جمعوا كل ما في نابولي والمدن المجاورة من متسكعين إغريق، وحشروهم في الميدان وفاحت منهم رائحة الثوم والعرق لتملأ الجو. وحمداً للآلهة أني لم أكن أجلس في الصفوف الأولى بل كنت وراء المنصة، مع صاحب اللحية الحمراء. وهل تصدق أنه كان خائفاً؟ كان خائفاً حقاً. أمسك بيدي، وضغطها على قلبه الذي خفق بشدة. وكان هو لاهث الأنفاس. ولما حانت لحظة خروجه لفه الشحوب التام، وتعرّق جبينه رغم علمه التام أن عناصر الحرس الامبراطوري يملؤون الأمكنة وأنهم في أتم الجاهزيّة بعصيّهم إذا ما لزم الأمر. لكن شيئاً لم يحصل. فلم يكن الحماس رعاعياً. صدقني أن رائحة الثوم وصلت إلى المنصة. وأن نيرون ترنّح، وضغط بيده على قلبه، وزرع القبلات، وبكى. ثم عاد إلينا خلف المنصة في حالة من النشوة جعلته يصرخ قائلاً: "لا يقاس أي نصر بما يحصل الآن". في الخارج كان الجمهور لا ينقطع عن الهتاف والتصفيق، أملاً في أن يقابل هذا الحماس برحمة القيصر. وهداياه، ومآدبه، وبطاقات اليانصيب، والعروض التمثيلية الجديدة. أنا شخصيًّا لم أستغرب تصفيقهم لأنهم لم يروا من قبل مثيلاً لما شاهدوه. في حين كان هو يردّد معبّرا عن

دهشته:
يا لليونانيين! يا لليونانيين! ومن يومها، في رأيي صار يكره روما.
سنذهب برعاية هيلينا إلى بلاد اليونان.
أما عني أنا فأقول: إن كان المرء بين المجانيين سيصبح مجنوناً مثلهم، ويرى في الجنون سحراً معيَّنا. بلاد اليونان، والسفر برفقة آلاف الوتريات الموسيقيّة، احتفالات أشبه بطقوس النصر الباخوسيّة بمشاركة حوريات الغابات، والنساء الباخوسيات المكللات بالرياحين، والكرمة والغار، فوق العربات التي تجرها النمور، وأقواس النصر، والهتافات، والموسيقا، والشعر، والمصفقون، كل هذا جميل. لكن طموحنا أبعد من ذلك. نرغب في إقامة إمبراطوريّة شرقيّة تشبه الحكاية. وفي إنشاء بلاد من الروعة المحض، و النخيل، والشمس الساطعة، والواقع السحري. يشطح بنا المزاج أن ننسى روما، ونضع ميزان العالم بين اليونان، وآسيا، ومصر، وأن نعيش كالآلهة، لا كبشر، وأن نوحد أبوللو و أوزيريس و بعل، في واحد. لا مكان للرتابة اليوميّة، بل للتجدد وللطواف في الارخبيلات على متن السفن الشراعيّة الذهبيّة تحت الفجر الشفقي، وأشعة الشمس الذهبيّة، وضوء القمر الفضي. سيادة، وغناء، وأحلام. وهل تصدق: حتى أنا الذي مازلت أملك شيئاً من عقل رزين، ومقدرة راجحة على الحكم، أجد هذه الفنتازيا مشروعة، وإن كانت مستحيلة التحقيق، لكنها عظيمة و استثنائية. هذه الامبراطوريّة الاسطوريّة كانت نصب أحلام البشر منذ قرون. لو أن فينوس لم تتخذ هيئة ليفيا أو يونيكي على الأقل، فالحياة بحد ذاتها إن لم يجملها الفن رتيبة وبشعة في الغالب. لكن صاحب اللحية الحمراء لم يحقق أحلامه تلك، ليس فقط لأن في مملكة الشعر الشرقيّة الاسطوريّة لا مكان للخيانة، والوضاعة، والموت، بل لأن هنالك تحت قناع الشاعر كوميدياً تافهاً، وقائد عربة أحمق، وشرطياً ضعيفاً. وفي حقيقة الأمر، حتى ذلك الوقت سنسحق كل من يقف في طريقنا. بات سيلانوس المسكين مجرد ظل. قضي عليه. أما ليسينوس فقد قبل بالقنصليّة مرتعداً. والعجوز تراسي لا منجى له من الموت لأنه تجرأ أن يكون نزيهاً. وفشل تيفالينوس من تجريدي من قواي. ما زالوا في حاجة ماسة إلي، ليس فقط كوسيط لبق، بل كشخص ذي نظرة سديدة ونصائح صائبة خلال الرحلة. كثيراً ما يخطر لي أنني سأواجه نهايتي عاجلاً أم آجلاً، وأنت تدرك ما الأمر الهام عندي في مثل هذه الحالة. أن لا يصل صاحب اللحية الحمراء إلى كأسي من السم الذي تعرفه وتندهش له. إن كنت إلى جانبي في لحظة موتي سأعطيك إياه، وإن كنت بعيداً عني سأقوم بتحطيمه. لكن حتى ذلك الوقت ما زال أمامنا بلاد اليونان الاولمبية، والقدر الذي يخبئ لنا جميعا طريقاً مجهولاً. احرص على سلامتك، واستعن ب كروتون، فإن لم تفعل سيتمكنون ثانية من اختطاف ليفيا منك، وإن كنت في غنى عن شيلون فأرسله لي، فقد أجعل منه فاتينوس آخر، يوقع السيناتورات، والسفراء بالضربة القاضية أمامه. مشهد جدير بالحدوث. إذا ما استعدت ليفيا أخبرني لأتمكن من تقديم بعض قرابين البط، والحمام، في معبد فينوس. منذ مدة قريبة رأيت ليفيا في المنام، جالسة في حضنك، وأنت تقوم بتقبيلها. جاهد كي يتحقق منامي. آمل أن تكون معافى، والسماء في عونك.

ما إن أنهى فينيكوس قراءة الرسالة، حتى دخل شيلون المكتبة دون استئذان. كان الخدم قد تلقوا الأوامر بالسماح له بالدخول في أي وقت من النهار أو الليل.

ـ لتوسعك الأم الالهية الرؤوم برحمتها، مثلما غمرتني رحمة مركوريوس بن مايا.

فسأله فينيكوس قافزاً عن الطاولة:

ـ هذا يعني...؟

فأجابه شيلون باليونانية مستخدما عبارة أرخميدس:

ـ وجدتها

كان انفعال الشاب على قدر جعله لا يستطيع الكلام على الفور.

سأله أخيرا:

ـ هل رأيتها؟

ـ رأيت أرسوس وتكلمت معه.

ـ وعرفت أين تختبئ؟

ـ لم أكن فضوليا بخصوص مكانها، فقد يدخل فضولي الشك في صدر أرسوس فينقلها ليلاً إلى مخبأ آخر. لم أفعل ذلك و اكتفيت بمعرفة أن أرسوس يعمل لدى طحان قرب الأمبوريوم اسمه كاسم معتوقك ديماس. اكتفيت بهذا لأنه بات بمقدور أي من أرقائك المؤتمنين أن يقتفوا أثر أرسوس، ويتعرفوا على موقع المخبأ. لقد جئت بهذا النبأ الموثوق، ياسيدي. فإن كان أرسوس هنا، فالفتاة إذن في روما، أما النبأ الاخر فمن المرجح أن تكون الفتاة ليلاً في الأستريانوم.

قاطعة فينيكوس قائلا وقد أراد أن ينطلق حالا إلى المكان؟:

ـ في الأستريانوم؟ أين يقع هذا؟

ـ بين مقبرة فياسالاريا و نومنتانا. الحبر المسيحي الأعظم الذي حدثتك عنه قد وصل اليوم، وسوف يخطب بهم ليلاً في تلك المقبرة، مادام لم يصدر حتى الآن أي توصية تحظر ذلك. لكن السكان يكرهونهم، وعليهم إذن أن يكونوا حذرين. وبما أن النساء والرجال سيحضرون معا لسماعه، فلن تتغيب الاّ بومبونيا لأنها لا تستطيع أن تبرر لأولوس الذي يقدس الالهة القديمة، سبب خروجها ليلا. أما ليفيا فسوف ترافق النساء الأخريات إلى هناك ما دامت في رعاية أرسوس و الاخرين.

كان فينيكوس حتى اللحظة يغلي، لكن الأمل وقد بدا قيد التحقيق، هو الذي هدّأ من روعه، كالمتجول الضال وقد بلغ هدفه بعد تطواف شاق يفوق مقدرة البشر. لاحظ شيلون ذلك وانتهز الفرصة لاستغلاله.

ـ رجالك يا سيدي يحرسون المداخل، والمسيحيون يدركون ذلك بالطبع، ولكن المداخل لا تقلقهم أصلاً. لأن بمقدورهم إمّا أن يتجنبوها للوصول لرؤية الحبر الأعظم، أو حتّى أن يعبروها ولهم طرقهم الخاصة في ذلك. كل ما في الأمر أن على رجالك إما أن يقتفوا أثر أرسوس لمعرفة مكان ليفيا، أو أن يقبضوا عليه كمجرم، ويجيئوا به اليك، وتعرف منه أين خبّأ ليفيا. أنا قمت بما علي فعله. أحد غيري سيقول أن الأمر يتطلب عشرة كؤوس من النبيذ الفاخر يحتسيها بصحبة أرسوس حتى يتمكن من انتزاع هذه المعلومات منه، وآخر سيقول لقد وزّع ألف سيستريوس ليحظى بهذا السر. أنا على يقين أنك ستضاعف اليّ المبلغ، لا استطيع الاّ أن أكون شريفا، كعهدي على الدوام. وأن مكافاتي منوطة بسعة صدرك وكرمك.

لكن فينيكوس كان جنديّا، وقد اعتاد أن يلتقط مفاتيح الحلول، وأن يتصرف على أساس ذلك. فما كان منه إذن الا أن استحال بعد ضعف استحوذ عليه فترة، إلى سيد قوي، وقال:

ـ لن تخذلك سعة صدري، لكن خذني أولا إلى الأستريانوم. فسأله شيلون وقد بدا غير راغب بالذهاب:

ـ أنا، إلى الأستريانوم؟ أنا يا سيدي وعدتك أن أدُلّك على مكان وجود ليفيا، لا أن أقبض عليها. تصور يا سيدي ما الذي سيحصل لي، لو أن ذلك الدُّب الليغوي بعد أن يقوم بتمزيق كلاوسيوس، عرف أن تحريضي له لم يكن على وجه حق؟ كيف سأقنعه، وأنت تعلم أن الفيلسوف كلّما كان كبيرا، شقت عليه الاجابة عن أسئلة العامة غير المثقفة من الناس. كيف سيكون ردّي إن سألني لماذا اتهمت كلاوسيوس! وإن كنت ياسيدي تشك في احتيالي وخداعي لك، فلا تدفع لي حتى أدُلّك على مكان ليفيا. ادفع قسطا يسيراً من المال يعينني في تدبر شؤوني، فقد تقع أنت يا سيدي ضحيّة حادث مفاجئ لا سمحت الالهة، فأغدو خالي الوفاض، دون مكافأة. قلبك لا يحتمل ذلك.

خطا فينيكوس نحو صندوق صغير فوق قاعدة رخاميّة، وأخرج منه كيساً وقذفه إلى شيلون، معلقاً بالقول:

ـ وحين تصبح ليفيا في منزلي ستحصل على كيس مليء بالنقود الذهبية.

فصاح شيلون:

ـ يا جوبيتر!

لكن فينيكوس قطب حاجبيه قائلاً:

ـ احصل الان على طعامك هنا. ثم خذ قسطا من الرّاحة، ولا تغادر. سترافقني مساء إلى الأستريانوم.

للحظة ارتسم على وجه اليوناني شيء من الخوف، والارتباك سرعان ما تبدّدا، فقال وهو يخشخش كيس النقود:

ـ ومنْ مقدوره أن يخالفك يا سيدي. لهذه النقود وقعها الخاص فضلاً عمّا تعنيه لي صحبتك الممتعة من فأل حسن... فرغ صبر فينيكوس فقاطعه ليسمع منه تفاصيل حديثه مع أرسوس. فكرته كانت واضحة تاما: إما أن يكتشفا ليلاً مخبأ ليفيا، وإما أن يتمكّنا من خطفها من الأستريانوم، والعودة بها إلى البيت. أبهجت الفكرة فينيكوس وأغدقت عليه قدراً من السعادة جعلت جهامته وغضبه منها يتبددان. صفح لها عن كل خطاياها، وباتت في اعتباره مخلوقة لطيفة، يشتاق اليها كغائبة تعود اليه من سفر طويل. وعندها لن يتمكن مسيحيو. الكون بأسره أن ينتزعوها منه، ولا حتى القيصر ذاته.

أمّا شيلون، حين لاحظ سعادة الشاب، فقد تجرأ ورفع نبرة صوته مكيّلا النصائح. لا يجوز في رأيه، اعتبار القضية وكأنها نجحت، لأن نجاحها يتطلب كثيرا من الحيطة، والاّ فقد تبوء بالفشل، وكان رجاؤه الاّ يقوم فينيكوس بخطف ليفيا من الأستريانوم. بل بتتبعها عن بعد، ومعرفة المنزل الذي تقيم فيه، ثم عند فجر اليوم التالي تقوم مجموعة كبيرة من الأرقاء بمحاصرة المنزل، والعودة بالعذراء. وبما أن الفتاة رهينة، وفي عهدةِ القيصر، يمكن القيام بذلك دون اعتبار للمحظورات القانونية. وفي حال لم تكن ليفيا في الأستريانوم ، نتبع أرسوس، والنتيجة نفسها. لا يجوز الذهاب إلى المقبرة بأعداد كبيرة لأن ذلك يلفت الانتباه، وعندها سيعمد المسيحيون إلى إطفاء مشاعلهم، كما فعلوا عند الاختطاف الأول، والاختباء تحت جنح الظلمة في أماكن لا يعرفها سواهم. كما ينبغي التزود بالسلاح، واصطحاب شخصين قويين مؤتمنين يقومان بحمايتهما إذا ما لزم الأمر.

أعطاه فينيكوس الحق في كل ما قاله. وخطرت له نصيحة بترونيوس، فأمر أرقاءه أن يأتوه بالمصارع كروتون. ولما كان شيلون يعرف الجميع في روما، فقد سمع باسم المصارع الذائع الصيت، الذي غالبا ما أدهشته قوته الخارقة في الميدان. اطمأن تماما، و أعلن أنه سيذهب إلى الأستريانوم. ورأى أنه سيسهل عليه، بمساعدة كروتون، الحصول على كيس كبير مليء بالمال.

وهكذا فقد احتل مكانه بكثير من التفاؤل حول المائدة التي دعي اليها من قبل ناظر الأتريوم شخصيا. وخلال تناوله للطعام حكى الأرقاء أن سيدهم قد ابْتاع منه مرهما سحريا يكفي أن يدهن به حافز الجواد حتى يفوز في السباق، بعد أن يخلف وراءه الجميع. لقد تعلم كيفية تحضير هذا البلسم من أحد المسيحيين،

لكون المسيحيين يجيدون القيام بالسحر والعجائب أكثر من التيساليين المشهود لهم بالشعوذة وتحضير الارواح. قال لهم أيضا أن المسيحيين يثقون به كثيرا، وأنهم جميعا يعرفون سر السمكة. كان يتكلم وهو يتفرس وجوه الأرقاء لعله يقع بينهم على مسيحي يمكن إخبار فينيكوس عنه. ولمّا فقد أمله في ذلك، سلط حديثه على مديح الطّعام والشراب، دون أن يفوته الثناء على الطباخ، مؤكدا لهم أنه ينوي شراءه من فينيكوس. كان في أفضل حالاته من المَرح والابتهاج، لم يعكره سوى الالتزام بالذهاب ليلاً إلى الأستريانوم. لكنه واسى نفسه بأنهما ذاهبان باللّباس التنكري وبرفقة رجلين أحدهما أشهر رياضيي روما المحبوبين، والاخر رجل نبيل، وهو عسكري ذو رتبة عالية. وقال لنفسه"لو تعرّفوا على فينيكوس، لن يجرُؤوا على رفع أيديهم، وإذا ما لمحوني سرعان ما سيوقفون عند حدهم من قبل مرافقتنا".
ثم تذكر حديثه مع العامل، وتحدد تفاؤله. لم يخامره أي شك بأن العامل هو أرسوس. لقد عرفت من حديث فينيكوس، وأقوال الأرقاء الذين رافقوا ليفيا من قصر القيصر، كم الرجل خارق القوة. عندما وقف إذن بعض الرجال الأقوياء الذين أتى يونيكوس على ذكرهم، كان من المؤكّد أن أرسوس إذن واحد منهم: ولقد دل اضطراب أرسوس و انفعاله حين تطرق إلى ذكر فينيكوس و ليفيا، أنهما شخصان يهم انه كثيرا. ثم الَم يقل العامل أنه سعى إلى التوبة لأنه قام بقتل أحدهم؟ والذي فعله أرسوس أنه قتل أتاسينوس. العامل و أورسوس لهما نفس مواصفات القوة، لكن بإسمين مختلفين. و شيلون على اطلاع بأن المسيحيين غالبا ما يحملون أسماء أخرى غير أسمائهم.
قال شيلون لنفسه: إن يقتل أرسوس كلاوسيوس فهذا الأفضل، لكن حتى إن لم يقتل فلا بأس في الأمر، لأنه مؤشر يدل على أن المسيحيين يشق عليهم القيام بعملية القتل. ما أطيب هؤلاء المسيحيين، وكم ينعتونهم بصفات رديئة. أيتها الالهة هل من عدالة في هذا العالم؟ أنا أحب تعاليمهم لأنّها تحظر القتل، وتحرم السرقة والغش، وشهادة الزور. ومن تعاليمهم الموت بشرف، وحب الحياة. إذا ما تحسنت أحوالي في يوم، وصرت أملك منزلاً وأرقاء فقد أصير مسيحياً ، واستمرّ في اعتناق هذا المعتقد مادام يعود عليّ بالفائدة. لأن الشخص الثري يبيح لنفسه كل شيء، حتى الفضيلة والأخلاق. أجل. إنه دين الأثرياء. وإن كنت لا أفهم سبباً لوجود كثير من الفقراء بينهم. ما الفائدة التي يرجونها من كونهم أولي فضيلة؟ ولماذا يحتملون من الفضيلة أن تكبل أيديهم؟ ينبغي أن أفكر ذات يوم بالأمر. حتى ذلك الوقت أنا ممتن لك يا هرمس أنّك أتحت لي العثور على ذلك الظبي ، لكن إن كنت قد فعلت ذلك من أجل العجلين الأبيضين... بعمر السنتين، اللّذين يتوجب عليّ أن أذهّب قرونهما، فأنا لا أعترف بك. عار عليك، ياقاهر ارغوس! كيف لاله ذكي مثلك، أن يغض الطرف ولا ينظر إلى الإمام ليرى أنه لن ينال شيئا. لك مني الحمد والامتنان. وإن كنت تقدر العجلين أكثر من امتناني، فلا بد أنك ثالثهما، وفي أفضل الأحوال أنت أجدر بأن تكون راعياً لا إلهاً. حذار مني كفيلسوف أن لا أفضحك بين البشر و أبرهن لهم أنك غير موجود، فيمتنعون عن تقديم القرابين. لا ضير في حسن معاملة الفلاسفة.
ما إن أنهى حديثه الداخلي مع نفسه، ومع هرمس، حتى تمدد على المقعد، ووضع عباءته تحت رأسه، ونام. لم يفق حتى أيقظوه بقدوم كروتون، فعبر إلى الأتريوم لتقع عيناه على هيئة المجالد العملاق التي خيمت على فسحه الأتريوم بالكامل. كان كروتون يساوم للتو على مكافأته لقاء قبوله بالمهمة. قال لفينيكوس:
-يا هرقل! حسنٌ يا سيدي أنك أرسلت هذا اليوم بطلبي، لأني سأذهب غدا إلى بنافنتوم. لقد دعاني النبيل فاتينوس لمصارعة شيفاكس وهو أقوى المصارعين الأفارقة، بحضور القيصر.
لك أن تتصور يا سيدي كيف سيتحطم عموده الفقري، بين ذراعي.
إضافة إلى سحق فكه بلكمة واحدة مني.

أجاب فينيكوس معبًّرا عن دهشته:
ـ يا بولوكس! أنا واثق من كفاءتك يا كروتون.
فأضاف شيلون:
ـ ستفعلها باقتدار. أجل... سحق فكّه! فكرة جيدة تليق بك. أنا مستعد لتقبل فكرة سحق فكّه، لكن لا تنس يا هرقليس أن تواظب على دهن جسدك بالزيت حتى ذلك الوقت وهىء نفسك جيداً. لأنك ستواجه مصارعاً حقيقياً. أرسوس أيضاً رجل خارق القوة.
قال شيلون ذلك ليثير حماس كروتون، وقد وافقه فينيكوس قائلا:
ـ تماماً. لم أره بأم عيني، لكنني سمعت أنه قادر على جر ثور من قرنيه، في أي اتجاه يشاء.
أبدى شيلون اندهاشاً مفتعلاً وكأنه لا يعرف مقدرة أرسوس:
ـ يا لطيف! لكن كروتون ابتسم باحتقار:
ـ اراهنك، يا سيدي المحترم، أن أقبض بإحدى يدي على من ذكرت الآن، وأقاتل باليد الأخرى سبعة من أمثال ذلك الليغوي، وأجلب الفتاة إلى منزلك، حتى لو طاردتني روما بأسرها.
صرخ شيلون:
ـ لا تدعه يفعل يا سيدي. قد يقذفونك بالحجارة فيما بعد. وعندها ما نفع القوة التي يتمتع بها؟ أليس من الأفضل إبعاد الفتاة عن المنزل، وتفادي المغامرة بحياتها وحياتنا؟
فقال فينيكوس:
ـهذا ما ينبغي أن تفعله يا كروتون.
ـ أنت تدفع، أنت تأمرا لكن لا تنس أني ذاهب في الغد إلى بنافتوم.
أجاب فينيكوس:
ـ ولدي في المدينة خمسمئة رقيق.
قال ذلك، و أومأ لهما بالانصراف. ثم توجه إلى المكتبة وخط الرّسالة التالية لبترونيوس:
"شيلون عثر على ليفيا. هذا المساء سأذهب بصحبته إلى الأستريانوم ومعنا كروتون. إمّا أن أقبض على الفتاة، حالاً هناك، أو من بيتها في الغد. باركتك الالهة على فعل كل ما هو صالح. دمت بصحة جيدة لك تحياتي. ومن فرط سعادتي لا مزيد لأكتبه".
وضع قصبة الكتابة، وراح يذرع الغرفة بخطوات سريعة جيئة وذهابا.
فإلى جانب سعادته العارمة التي أثلجت كيانه، شعر بالحمى تلوكه.
قال في نفسه: غدا ستكون ليفيا هنا في هذا البيت. لم يكن يدرك بعد كيف سيعاملها، لكنه شعر أن الفتاة إذا ما أحبته فسوف تكون خادمته. خطر له ما قالته أكتي بأن ليفيا تحبه. فازداد اندفاعاً. كل ما هنالك أنه سيترتب عليه التغلب على نوع من الحياء العذري والارتهان لبعض الامور التي يتطلبها الدين المسيحي. لكن مادام الأمر كذلك فلا بد للفتاة، بعد أن تعيش في بيته، إن كان بالتفاهم، أو بالأرغام، أن تخضع للأمر الواقع، وتنقاد له ثم تحبه فيما بعد.
لكن شيلون قطع عليه خيط تفكيره حين بادر بالقول:
ـ سيدي. خطر لي ما يلي: اليس من المحتمل أن يكون للمسيحيين كلمة سر، أو بطاقة لدخول الأستريانوم؟ أعلم أنه إجراء يتيح للمرء أن يؤم المعابد. لقد سبق وحصلت على مثل هذه البطاقة من يورسيوس. دعني أذهب اليه وأستفسره، وآتي بالبطاقات إن لزم الأمر.
أجاب فينيكوس ببشاشة:
ـ حسنا أيها الحكيم النبيل! ما تقوله ينطوي على إحاطة تامة بكلّ الأمور، تستحق عليها الثناء. فلتذهب إلى

بورسيوس أو حيثما تشاء، لكن دع كيس النقود الذي منحتك إياه على هذه الطاولة.
من شيم شيلون أنه لا يدير ظهره للمال برغبة منه. أبدى تكشيرة اشمئزاز ، لكنه خضع للأمر وانصرف.
لم يكن السيرك حيث حانوت يورسيوس بالقرب منه، بعيدا من هنا، ولذلك فقد عاد قبل مغيب الشمس
- إليك بالبطاقات يا سيدي. بدونها ما كان من الممكن الدخول.
استفسرت عن الطريق بدقة. لأنّي قلت لبورسيوس أنني في حاجة إلى بطاقات تخص أصدقائي فقط. فأنا عجوز لا أستطيع قطع كل تلك المسافة. خاصة وأنني سألتقي الحبر الأعظم غداً، وسيحدثني عن تفاصيل خطبته.
جهر فينيكوس قائلا:
- ماذا؟ ألن تذهب؟! بل عليك أن تكون هناك.
- أعرف أن عليّ الحضور. لكني سأتخفى بغطاء للرأس. وأنصحكما بذلك والاّ سنجفل العصافير.
وبعد وقت قصير بدؤوا يستعدّون للانطلاق، لأن الشمس باشرت بالمغيب... ارتدوا عباءات بقبعات رأس، وحملوا الفوانيس. وتسلّح فينيكوس وأصحابه بخناجر معقوفة قصيرة. وضع شيلون فوق رأسه باروكة كان تزود بها في طريق عودته من عند يورسيوس. وانطلقوا مسرعين كي يبلغوا بورتا نومنتانا البعيدة قبل الاغلاق.

انطلقوا حتى بلغوا بورتافيمناليس القديمة. عبروا السهب الذي أقام عليه ديوكلاتينوس حمّامه الفخم، و تجاوزوا أطلال سرفيوس عابرين القفار حتى بلغوا فيانوفنتانا أخيرة. و من هناك انعطفوا يساراً باتجاه سالاريا حتى وطئوا هضاباً ريفيَّة مليئةً بحفر الرّمال، و المقابر. كان الظلام قد حلّ. وبما أن القمر لم يظهر بعد، فقد بات من العسير التعرف على الطريق، لولا أن قام المسيحيون السائرون بتحديد مساره. و كان شيلون قد استوضح ذلك مسبقاً و فعلا لقد وقعت أعينهم على هيئات كالحة منتشرة يمنة ويسرة و أماماً، و في كل مكان، و هي تتقدم بحذر نحو البقع الرملية المتفرقة. كان البعض يحمل الفوانيس و يسعى لإخفائها تحت العباءات، و البعض الاخر ممن يعرف الطريق أكثر، كان يعرج متقدما في الظلام. كان فينيكوس بعينه العسكرية الخبيرة يميز من بينهم الشبان و العجائز المتعكزين، و النساء المتدثرات بأروابهن الطويلة. و كان هناك مشاة فيماندر، و قرويّون خارجون من المدينة و بينهم عمّال مسرعون إلى الحفر الرملية، و أخوة يمارسون طقوس زيارات قبور أخوتهم الموتى. كان البعض يغني بصوت حزين، و قد أعجب فينيكوس بغنائهم لما ينطوي عليه من عبارات الحنين التي ميزها تلقائيا بين حين وآخر، مثل استيقظ يا نائم. انهض من موتك، دون أن يغيب ذكر المسيح أحيانا. لكن فينيكوس لم يكن ليدقق كثيرا في عباراتهم لأن تركيزه كان على ليفيا إن كانت بين هذه الهيئات الداكنة، التي حيت بعضها بعبارة السلام معكم، المجد للمسيح. اضطرب فينيكوس، و خفق قلبه شديدا، و قد شعر أنه يسمع صوت ليفيا. وقع في حيرة و بات لا يميز في الظلمة بين هيئة و أخرى، حتى لم يعد يثق بعينيه.

لقد وجد الطريق هائلاً في طوله. كان قد عرف هذه الأرياف، لكنه لم يهتد في ظلام الليل، إلى ما يصادفه من أزقة حول المدينة، و من بقايا جدران و ابنية. أخيرا بدأ البدر يبزغ من وراء الغيوم، و يضيء الأرجاء الريفية على نحو أفضل من السراجات الواهنة. لمح في البعيد ما يشبه نار الرعاة، أو لهب المشاعل. مال فينيكوس نحو شيلون و سأله إن كان ذلك هو الأستريانوم.

كان للظلمة، و البعد عن المدينة، وهذه الأشكال الشبحية بالغ الأثر في نفس شيلون، فأجاب بشيء من فراغ الصبر:

ـ لا أدري، يا سيدي، لم أكن مرة في الأستريانوم. كان بالإمكان أن أمجد المسيح في مكان آخر أقرب إلى المدينة.

غير أنه بعد فترة وجيزة، و قد شعر أنه في حاجة للكلام، و إظهار جسارته أضاف:

ـ إنهم يتجمعون كاللصوص، لكنهم لا يبيحون القتل إلا إذا أقدم ذلك الليفوي على خداعهم.

كان فينيكوس يفكر بليفيا، ومع ذلك فقد أدهشته هذه الطريقة السرّية الحذرة التي يتبعها أخوة ليفيا في تجمعهم، فقال:

ـكأي معتقد آخر، لهذا الدين أيضا أنصاره بيننا، لكن المسيحيين زمرة يهودية. فما الذي يجعلهم يجتمعون هنا، و المعابد اليهودية

منتشرة بعد نهر التيبريس، حيث اعتاد اليهود إقامة شعائرهم في وضح النهار؟

ـ لا، يا سيدي اليهود بالذات أشرس أعدائهم. سمعت أن حربا جرت بينهم و بين اليهود، في عهد القيصر كلاوديوسي الذي ضاق ذرعا بهذه الاضطرابات، فقام بطرد اليهود. أما الآن فالأمر معكوس. صار المسيحيون يتخفون أمام اليهود و باقي السكان تفادياً للتهم.

تابعوا المسير صامتين لفترة. لكن شيلون الذي تفاقمت مخاوفه كلما ابتعدوا عن مدخل المدينة، تكلم قائلا:

ـ في أثناء عودتي من عند يوريسيوس استعرت باروكة، و دسست في أنفي حبتين من الفاصولياء. آمل ألا يتعرفوا الي. و ألاّ يقتلوني إذا ما تعرفوا اليّ. ليسوا بشراً سيئين. بل على العكس من ذلك فهم في غاية

الاستقامة و أنا أجلهم و أحبّهم.
فأجاب فينيكوس:
ـ لا تضع نصب عينيك مسبقاً أن تكسبهم بالمديح.
و تابعوا المسير حتى بلغوا درباً خندقياً ضيًّقا، ما إن وطئوه حتى لمحوا في نهايته جداراً مغطى بعريشة لبلاب كثيفة لمعت فضية تحت ضوء القمر. كان هذا هو الأستريانوم.
بدأ قلب فينيكوس يخفق بشدة.
كان يقف عند المدخل حاجبان يستلمان بطاقات الدخول. بعد قليل وصل فينيكوس و مرافقوه مكاناً فسيحاً ومسوراً مليئاً بشواهد القبور، يتوسطه سرداب، وأمام مدخله الذي يفضي إلى المدفن تحت سطح الأرض نافورة ماءٍ. من البديهي ألاّ يتمكن كل هذا الحشد من النّاس دخول السرداب مماجعل فينيكوس على يقين بأن الاحتفال سيجري في الهواء الطلق. صحيح أن الفوانيس قد انتشرت بكثافة على مد النظر، إلا أن الكثيرين قد جاؤوا بدونها. كانت الرؤوس المكشوفة معدودة، لكن الغالبية العظمى تخفت بقبعات العباءات، إمّا تحسباً من أعين الوشاة، أو توقياً لبرودة الجو. كان قلق فينيكوس مشروعاً حين وجد أن من المستحيل تحت هذه الأضواء الواهنة التعرف على ليفيا بين هذه الجموع لكن سرعان ما أضيئت بعض المشاعل إلى جانب السرداب، جعلت المكان مناراً على نحو مقبول. تلا ذلك أن بدأ الحشد بإنشاد التراتيل كان نشيداً غريباً، خافتاً في البداية ثم أخذ يعلو. لم يسمع فينيكوس مثيلاً لهذه التراتيل طوال حياته. ذات الدنف الذي استشعره فيما سمعه من غناء و هو في طريقه إلى هنا. الحنين ذاته في هذا الانشاد الان، لكنه حنين على نحو أكثر شفافية و قوة و كأن تأثيره لم يقتصر على البشر، بل شمل أنحاء المقبرة، و التلال، و الدروب العميقة، و سائر أرجاء الريف. كان شيئا أشبه بالاستغاثة، و التوسل في طلب الخلاص. كان العيون الناظرة إلى السماء قد رأت أحداً في الأعالي، و كأن الأيادي المفتوحة تتضرع لهبوطه. حين خفتَ الغِناء، ساد ترقب لحظي آسر هو الاخر، جعل فينكوسس و رفاقه ينظرون نحو النجوم، و في نفوسهم خشية من أن يحدث أمر خارق فعلاً، و يهبط أحد الان من هناك. لقد سبق لفينيكوس أن رأى كنائس مختلفة في أنحاء آسيا الصغرى، و مصر، و روما، و عرف أدياناً عديدة هناك، و سمع كثيراً من الوان الغناء، لكنه هنا يشاهد لأول مرة، بشراً ينادون الإله ليس لمجرد ممارسة طقس من الطقوس، بل من أعماق قلوبهم، وبمثل هذا الحنين الاشبه بحنين الطفل إلى أمه و أبيه. الأعمى فقط من لا يرى أن هؤلاء البشر لا يقتصرون على تبجيل الههم، بل يحبونه من أعماق قلوبهم. و هذا ما لم يعهده فينيكوس في أي من البلاد، و الطقوس، و المعابد. لأن النّاس في روما أو بلاد الإغريق ممن ما زالوا يقيمون الطقوس احتراماً للالهةِ، فإنّما يفعلون ذلك إما كسباً لودهم، و طمعاً في تلقي المساعدة، و إما خوفاً منهم. لكن أحداً لا يخطر له أن يهيم بهم حباً.
صحيح أن أفكاره كانت تدور حول ليفيا، و تركيزه منصب على رؤيتها و معرفتِها بين الجمهور، و رغم ذلك كان من المستحيل الاّ يلتفت إلى هذه الامور الاستثنائية الفريدة الأسرة التي تجري أمام عينيه. وفي أثناء ذلك أضرمت النار في المشعلة، فغمر ضوءها الاحمر كافة أنحاء المقبرة، و طغى على أضواء الفوانيس. في هذه اللحظة خرج من السّرداب كاهن حاسر الرأس يرتدي عباءة ذات قبعة، و صعد حجرا توضعت قرب المشعلة.
ماج الحشد لِمَرْآهُ. وسمع فينيكوس إلى جانبه همسات تقول: بتروس، بتروس. بعضهم جثا، و آخرون مدّوا أيديهم نحوه. و ساد صمت عميق لا يسمع خلاله إلا قرقعة العربات البعيدة، و تنهدات النسائم بين فروع بعض الصنوبرات المنتصبة إلى جانب المقبرة.
مال شيلون نحو فينيكوس و وشوشه قائلا:
ـ إنه هو. أول تلميذ للمسيح. صيادُ سمك.

أما الكاهن فقد رفع رأسه، وحيى الجماهير الجاثية برسم شارة الصّليب. فينيكوس ورفاقه، وقد أرادوا الحفاظ على إخفاء أنفسهم، حذوا حذو الاخرين و جثوا على رُكبهم. لم يكن بمقدور الشاب حتى هذه اللحظة أن يهدئ نفسه و يتخلص من اضطراب أعصابه، لأنه شعر أن الشخص الواقف أمامه أشبه بفلاّح بسيط، و لكنه، في آن، ذو طلعة استثنائية خارقة مردّها تلك البساطة ذاتها. كان حاسر الرأس و الجبين، لا يحمل سعفة نخيل في يده، و لا يتقلد لوحة ذهبية على صدره. و لم يكن رداؤه الأبيض مطرّزا بالنجوم أو أيّة شارة أخرى تميز الكهنة الشرقيين أو المصريين أو الإغريق أو حتى الرومان. خالج فينيكوس نفس الشعور حين سمع أغاني المسيحيين في الطريق، لأنه لم ير هذا"الصيّاد" ، بثيابه الرسمية. بل كان نموذج التلميذ البسيط المسن الجدير باحترام فائق، خاصة و أنه قطع المسافات ليتكلم هنا عن حقيقة شاهدها بأم عينه، و آمن بها، و أحبّها كذلك. شعّ وجهه بقوة اليقين النابع من قوة الايمان الحقيقية حصراً. لكنّ فينيكوس لم يدع نفسه وهو من ذوي الخبرة الحياتيّة عرضةً لتأثير سحر الكاهن، بل كان ينتظر بفارغ الصبر ليعرف ما الذي سيتمخض عنه حديث هذا الحواريّ، و ما هي الوصايا التي شدت كلاّ من ليفيا و بومبونيا، و أخذنا بها.

بدا بطرس الحديث. تكلم في البداية كأب يعظ أطفاله، و يعلمهم كيف ينبغي عليهم أن يمارسوا الحياة. أوصاهم بالابتعاد عن الإسراف و المتع، وبمحبة الفقر، و التزام النقاء الخلقي، و العدالة، و الطّاعة. و حذرهم من الخيانة و الغش و الكذب و أن يكون كل منهم قدوة أمام أخيه و مثالاً يحتذى حتى من قبل الوثنيين وبما أن فينيكوس يربط صلاح أي أمر بما يخدم علاقته بليفيا، فقد كانت كل وصية تفوه بها مصدراً للسوء و إثارة للحزن و الغضب لديه. لأن الكاهن، في حديثه هذا إنّما يدعو إلى مكافحة الاشواق و الرغائب، و يتعدى على حبه، ويحرض ليفيا عليه. لقد وضع في حسبانه أن ليفيا، إذا ما كانت هنا بين هذه الجموع، فهي لا تصغي و حسب إلى ما يتفوه به الكاهن من عبارات، بل سوف تؤمن بما تصغي اليه و تحفظه في القلب. و بالتالي فإن فينيكوس نفسه سيُضْحي في نظرها عدو لدوداً، و غير جدير بها. الفكرة بثّت السّم في قلبه. "ما الجديد الذي أسمعه". قال في نفسه."هذه هي التعاليم الجديدة؟" ما من أحد هنا الاّ و يعرف ذلك و سمع به. هذا ما دعا اليه سقراط. و حتّى سسينيكا الذي يملك الكثير من الثروة، يمجد التقشف و يدعو إلى العدالة، و التسامح بين الأعداء، و الصبر على الشدائد. لقد خاب ظنّه بالحواري، و قد انتظر أن يسمع موعظة مذهلة، فلم يجد ما يذهله سوى إصغاء الحاضرين المطلق وصمتهم المطبق. بينما استمر الكاهن يخاطب مستمعيه النجباء، ويدعوهم ليكونوا صالحين و هادئين، و عادلين، و فقراء، وأنقياء ليس فقط ليحظوا بالسّلام في حياتهم، بل ليدخلوا بعد مماتهم، دار الأبدية، و يعيشوا هناك في مسرّة و مجد لا يمكن لأحد أن يحظى بجزء يسير منهما في الأرض. ولما كان تأثير ما تقدم مزعجا أيّما إزعاج في نفس فينيكوس، كان من المستحيل أن لا يُدرك الشّاب أن هناك فرقاً جوهرياً بين تعاليم الحواريّ و بين ما يقوله السينكيون و الرواقيون و الفلاسفة الاخرون. ففي حين دعا هؤلاء إلى ذات الأفكار من الصلاح و الفضيلة باعتبارها القيم الوحيدة الناجعة لممارسة الحياة على الأرض، فقد راح الكاهن يبشر الناس بجني ثمار الفضيلة بالخلود بعد الممات في دار الأبدية. حتى أنه ليس خلوداً وضيع تحت الأرض يكتنفه السأم، و العوز، لكنه خلود عظيم يقارب الحياة الابدية عند الالهة. تحدث عن الأمر بثقة تامة. حتى بدت كل جوانب الحياة ليست ذات معنى. فالمعاناة الانية لبلوغ السعادة القصوى شيء غير المعاناة باعتبارها سنة من سنن الطبيعة و الكون. و من جملة ما قاله الكاهن: ينبغي إيلاء الفضيلة و العدالة الحب لذاتهما، لأن أعظم الخالدين الفاضلين الصالحين هو الله. فمن يحبهما فقد أحب الله إذن، و سيغدو بالتالي حبيب الله و ابنه البار."فينيكوس" لم يفهم هذا جيدا، لكن عرف منذ مدة من خلال ليفيا و بومبونيا أن الله في نظر المسيحيين كليّ القدرة. وبمقارنة ذلك مع الهة مثل جوبيتر، و ساتورنوس، و أبوللو، و يونو، و فيستا، و فينوس، فما

هؤلاء إذن الاّ مجرد بؤساء و قرقعات جوفاء. لكن دهشة الشاب الفائقة كانت حين أوضح الحواري أن محبة البشرية جمعاء هي أساس المحبة. لأن ابن الله قد أهرق دمه من أجل الجميع، ولم يدع إلى محبّة من وقفوا معنا فقط، بل لقد تسامح حتى مع اليهود الذين أسلموه للموت، و مع الجنود الرومانيين الذين صلبوه. و اعتبر أن التسامح معهم لا يكفي، بل علينا أن نخصهم بالحب، و نقابل أذاهم بعمل الخير لهم. لا يكفي أن نحب الصالحين، بل الأشرار كذلك. لأننا بالمحبة وحدها يمكن لنا انتزاع الشر من نفوسهم. شيلون بدوره خاب أملاً من هذه العبارات، لأن عمله ذهب هباءً، لكون أرسوس لن يقدم في هذه الليلة على قتل غلاوسيوس. ولكي يواسي نفسه استخلص من كلام الحواري نتيجة أخرى مفادها أن غلاوسيوس أيضا لن يقدم على قتله حتى لو اكتشف ما يرمي اليه. و أبعد فينيكوس التفكير بعدم ورود أي جديد في كلام الكاهن، مفسحا المجال للسؤال في نفسه: أي اله؟ و أية تعاليم؟ و أي شعب هذا؟ كل ما سمعه لا قيمة له الا في نفوس هؤلاء. أما بالنسبة اليه فليس سوى هراء، و ما عليه الان الا أن يتخلي تماما عن طريقته في التفكير، وعن عاداته، و طبعه الذي نشأ عليه، و يجسر على بدء حياة جديدة، و التحلي بروح مختلفة كليّا. شعر أن التعاليم التي تدعو إلى محبة البارثيين، و السوريين، و الإغريق، و المصريين، و الغال، و البريطانيين، و التسامح مع أعدائه، و الرد على أذيتهم بطيبة القلب، ما هي إلاّ ضرب من الجنون. إلاّ أنه وجد في هذا الجنون شيئاً أعظم من كل ما جاءت به الفلسفة حتى الآن. و بحكم أنّها تعاليم مجنونة فهي إذن غير قابلة للتحقيق. و عدم قابليتها للتحقيق يجعلها ربانية. شعر بعطر خفي يفوح في روحه، و تطفو فوقه طبقة من عبق الزهور إذا ما اشتمه المرء ينسى كل شيء، و يحضه حالا على الرغبة. شعر أن لا شيء حقيقيا في هذه التعاليم، لكن كل الحقائق إذا ما قورنت بها، تضحي بلا نفع و لا معنى لها. يا لهذه العوالم الجديدة، و الفضاءات الهائلة، و الغمائم التي أحاطت به، و لم يكن يعرف عنها شيئا حتى الان. هذه المقبرة باتت في نظره مكاناً لاجتماع المجانين، و لكنه مكان مخيف، تكتنفه الخفايا، و تولد فيه عجائب لم يعرفها العالم إلى الان. و مرة أخرى استرجع ما قاله الكاهن حول الحياة و العدالة و المحبة، و الله، فانبهرت أفكاره كما ينبهر البصر بالبرق. قاس كل شيء بانعكاسه على حبه لليفيا ـ معاناته الوحيدة، فلم ينجل أمامه إلا أمراً واحداً: إن كانت ليفيا هنا، و سمعت هذه التعاليم، فعلى الحب السّلام، ولن يغدو حبيبها بعد الان. منذ أن تعرف اليها عند عائلة الوش، يشعر للمرة الأولى أنه حتى لو استعادها الآن، فلن يكسبها حبيبة له أبداً. كان شعوراً كاسحاً بسوء الفال. اضطرب، و سرعان ما انقلب اضطرابه العاصف إلى نقمة عارمة على المسيحيين، و الكاهن خاصة. هذا الصياد الذي بدا له فلاحاً أول الأمر، ها هو ذا الان يملؤه جزعاً، و يقرر له مصيرا تراجيدياً، على حين غرة.

تطاولت السنة النيران في المشعلة أكثر فأكثر، بينما راح الحواري يتحدث عن موت المسيح الذي شهده بأم عينه. فانقطعت أنفاس الحضور، و خيم سكوت جعل دقات القلوب مسموعة. لقد مات. ياللهول. يا لهول الكارثة. و تابع الكاهن حديثه قائلا: حين غادرت مكان الصلب أنا و يانوش ظللنا يومين متتاليين لا يغمض لنا جفن ونحن جالسين قرب الجدار يتملكنا الذهول و الحيرة. و في صباح اليوم الثالث عند طلوع الشمس، هرعت مريم المجدلية تولول منفلشة الشعر، و هي تصرخ:

ـ "لقد خطف السيد" ، و بسماعنا صراخها قفزنا مسرعين نقصد المكان. سبقنا في الوصول يانوش الفتى. و حين وجد القبر خاليا، لم يجرؤ على الدخول. وحين وصلنا و صرنا ثلاثتنا عند المدخل، دخل و رأي الكفن و الاقمطة فوق الحجر دون أثر للجسد.

جزعنا لأننا ظننا أن الكهنة قد سرقوا المسيح، فعدنا إلى البيت بأعظم الالم و الانكسار. ثم جاء التلامذة الاخرون واحدا بعد الاخر.

مضى اليوم الثالث على موته، و لم يفهم التلامذة سببا لتخلي لأب عن ابنه.

و من ثقل المصاب الجلل عليهم، كانوا يتمنون الموت دون أن تشرق عليهم الشمس بعد الان. وما زالت تلك الأيام العصيبة حية في ذاكرة الحواري فذرف دمعتين، شوهدتا على وهج النار المشتعلة، تتدحرجان فوق لحيته الشيباء. ارتعش رأسه العجوز الاصلع، و ذبح صوته في حنجرته.
قال"فينيكوس" لنفسه:
"هذا الشخص يقول الصدق، و هذا الأمر يبكيه حقا".
غصت حناجر السامعين الطيبين. لقد سمعوا الكثير عن معاناة المسيح و الامه، و عرفوا أن المسرة تأتي بعد الاحزان، لكن ما قاله الحواري الان عما شاهده بأم عينه جعلهم يندبون لاطمين صدورهم بأيديهم. لكنهم شيئا فشيئا خمدوا بدافع فضولهم لمعرفة ما تضمنه بقية الخطبة. أغمض الكاهن عينيه، كمن يرغب في تبصر الأمور البعيدة، و تابع يقول:
- و بينما كان الجميع يبكون، دخلت المجدلية مسرعة لتقول بأنها قد رأت السيد، و لم تعرفه بسبب النور الشديد، و ظنت أنه البستاني لولا أن خاطبها السيد قائلا: "مريم"! فأجابته صارخة: "ربي"! و ارتمت على قدميه. و أتاح لها بعدئذ أن تقصد التلامذة، ليختفي بعدها. لكن التلامذة لم يصدقوها. عندما بدأت تبكي من السعادة ظن الجميع أن الالم قد خلب لبها، خاصة بعد أن قالت أنها رأت ملائكة في القبر. و لما عاينوه وجدوه فارغا. و في المساء جاء كلوفاس مسرعا برفقة شخص آخر ليعلنا قيامة المسيح: "السيد قام."عقدوا حديثهم خلف الابواب المغلقة خوفا من اليهود. و كان"هو" بينهم يتوسط الغرفة، و عندما لاحظ مدى جزعهم قال: "سلاما". أنا رأيته كالاخرين كان كالنور، أو كبهجة قلوبنا، لأننا آمنا بأنه قد"قام" ، و أن مجده لا يزول حتى إن جفت البحار، و سويت الجبال. و بعد ثمانية أيام وضع ديدموس تاماس إصبعه في جراح السيد و لمس جنبه، ثم صاح و هو يركع عند قدميه"سيدي، و الهي". فأجابه هو قائلا: بما أنك رأيتني يا تاماس فقد آمنت. لكن السعداء هم الذين لم يروني و آمنوا. لقد سمعناه يقول هذه الكلمات، و رأيناه بأعيننا لأنه كان بيننا.
كان فينيكوس يصغي، ثم حدث له شيء غريب. للحظة نسي أين يكون. كان شاردا غائبا عن الوجود. فأضاع قدرته على الحلم و التبصر. بات محاصرا بين حالتين من العجز، لم يعد.مقدوره أن يصدق ما تفوه به الكاهن، و الان يكذبه و هو يدهش الحضور بقوله"رأيته". ثم كلمهم الحواري عن كل شيء، حتى بلوغ الجنة. كان يستريح بين حين وآخر، لأنه كان يدخل كثيرا في التفاصيل، و كأن الوقائع كانت في ذاكرته كالنقش في الحجر. أما مستمعوه فباتوا مذهولين ثملين فأنزلوا قبعاتهم لكي يسمعوه جيدا دون أن تفلت من أسماعهم أية كلمة. كأن قوة خفية فوق الانسان طارت بهم إلى الجليل، و هناك راحوا يتنزهون بصحبة التلامذة في الغابات على ضفاف المياه، و كأن هذه المقبرة قد استحالت إلى بحيرة، و المسيح يقف على ضفتها في الصباح الضبابي، و يانوش يصبح من زورقه ها هو ذا السيد هناك بينما قفز بطرس في الماء ليسبح اليه بسرعة و يرتمي على أقدامه. كانت الوجوه ذاهلة، هائمة، فرحة تشع بمحبة بلا حدود. بدا خلال حديث الحواري الطويل أن بعضا من الحضور قد تقمص الحالة و غاب عن الوعي. و عندما بدأ يتحدث عن دخول السيد السماء و كيف غطته الغيوم على مرأى من الكهنة، راح الجميع يرفعون عيونهم مترقبين نحو السماء، أملا في رؤيته مرة أخرى، أو هبوطه مجددًا على الأرض قادما من الملكوت السماوي. بالنسبة للجميع كان كل شيء غائبا. روما، و القيصر المخبول، و المعابد، و الالهة، و الوثنيون، وحده المسيح كان حاضرا يملأ الأرض، و البحر، و السماء و الكون.
شد شيلون طرف رداء فينيكوس و وشوشه قائلا:
- سيدي، هناك بقرب الكاهن أرى أريانوس و الفتاة. و كأن فينيكوس قد أفاق من حلمه، ليري ليفيا في الجهة المشار إليها.

ارتعشت كل قطرة دم في عروق الشاب لمرأي الفتاة. تجاهل الجموع، و الكاهن، و نسي ذهوله، و لم ير أمامه إلا ليفيا. ها قد وجدها بعدما بذل كثيرا من المعاناة و الجهد و الاضطراب. شعر للمرة الأولى في حياته أن السعادة حيوان شرس قد تطبق على صدره و تخنقه. لم يصدق عينيه، و كاد أن يكذب وفرة حظه. كان له أن يتصرف كما يمليه طبعه الخامى، لكنه أراد أن يتأكد أولا أنه ليس في حلم، و أن ما يراه ليس استمرارة للعجائب التي عبأت رأسه الان. لكن لا. لا ريب في صحة ما يري. هذه هي ليفيا، ولا يفصله عنها سوى عشرات الخطوات. كانت تحت الانوار، فأشبع عينيه منها. و كانت مكشوفة الرأس، مرخية الشعر، منفرجة الشفتين قليلا، ترنو مشدودة إلى الكاهن. و كانت ترتدي ثوبا صوفيا كالحا، أي أنها تشبه في لباسها أي طفل من عامة الشعب، و مع ذلك لم يرها فينيكوس، في أي وقت، أجمل منها الان. لكن على الرغم من لباس الرق هذا، فقد أذهله ما أظهر رأسها البديع من نبل. سرى الحب ناريًا في كيانه، و امتلأ شوقًا، و تقديرًا و رغبة. شعر بالمسرة التي منحتها له رؤية الفتاة، فترشفها كالماء الذي يحيي العطشان بعد ظمأ طويل. رآها إلى جانب الليغوي العملاق أصغر مما عرفها، و أكثر طفولية، و نحول جسد. كانت كيانا كله جاذبية، مثل زهرة سكنتها الروح. ازدادت رغبته في هذه الفتاة المختلفة عن بقية النساء اللواتي عرفهن في الشرق أو في روما، و كن له. و شعر أنه يدفع لأجلها كل شيء، حتى روما، و كل العالم.

كان سارحًا تمامًا في ليفيا، عندما شده شيلون من طرف ردائه مخافة أن يقدم الشاب على ارتكاب ما يعود عليهم بالسوء. في هذه الأثناء كان المسيحيون قد بدؤوا يصلون، و يرتلون حتى صدحوا بعد قليل قال: "تعال يا سيدنا". ثم راح الكاهن الكبير يعمد. ماء النبع القريبة منه أولئك الذين جهزهم القساوسة للعماد. ظن فينيكوس أنها ليلة لا نهاية لها. بات راغبًا بأسرع ما يمكن في تتبع ليفيا ليخطفها من البيت أو في الطريق إليه.

و أخيرًا لما بدأ البعض يغادرون المقبرة، وشوشه شيلون قائلا:

ـ لنخرج ياسيدي إلى أمام المدخل، لكي لا نضطر إلى إنزال قبعاتنا فيعرفنا الناس. و هذا ما حصل. حين بدأ الجميع، خلال خطبة الكاهن، يرجعون القبعات إلى الخلف، ليسمعوه على نحو أفضل، لم يمتثلوا هم لسلوك الاخرين. بدت نصيحة شيلون سديدة. وقوفهم عند الباب أتاح لهم رؤية كل من يخرج. و من بينهم أرسوس الذي لم يكن التعرف به شاقا نظرا لهيئته العملاقة.

قال شيلون:

ـ هيا بنا يا سيدي، سنرى أي منزل سيقصدان، و غدا، أو هذا اليوم بالاحرى، تنتشر خدمك عند مداخل البيت، و تخطفها.

قاطعه فينيكوس قائلا:

ـ لا.

ـ ما رغبتك يا سيدي؟

ـ نتبعها إلى البيت، و هناك نقبض عليها في الحال. اليس هذا ما تكفّلت به يا كروتون؟

فأجاب المصارع:

ـ أجل سأكون عبدك يا سيدي، إن لم أقصم ظهر ذلك الرب الذي يحرسها.

لكن شيلون بسط يديه بحذر متوسط الآلهة ألا تدعه يفعل ذلك. خاصة و أنهم جاؤوا بكروتون لكي يقوم بحمايتهم إذا ما تعرضوا للأذى، و ليس لاختطاف الفتاة. لأن اختطافها من قبل شيلون و فينيكوس فقط قد يعرض حياتهما للخطر، و قد يخسران الفتاة، و تفلت منهما، و تتخذ مكانا آخر للتواري قد يكون خارج روما. فما الذي يحصل عندئذ؟ اليس من الأفضل إذن الا يغامرا بحياتهما، و يفرطا بنجاح الخطة؟

بلغ حماس فينيكوس أقصاه للقبض على الفتاة هنا في المقبرة، لكنه وجد الإغريقي محقا فيما يقول، و كان حريا به أن يتقبل نصيحته لولا وجود كروتون الذي يضع في حسبانه استعجال المكافأة، فقال:
- أخرس هذا التيس العجوز، و إلا فجعت رأسه بقبضتي. لم أقل باختطاف الفتاة من بين الجموع، لأنهم سيدحرجون الحجارة أمام أرجلنا. بل لمجرد بلوغها البيت سأمضي بها إلى حيث تشاء يا سيدي.
تقبل فينيكوس كلامه بسعادة فائقة، فأجاب:
- وهذا ما سيحصل. قد لا نجدها هناك إذا ما انتظرنا إلى الغد. و إذا ما أجفلناها هنا فقد يخفونها عن أعيننا.
تفوه شيلون قائلا:
- أظن أن الليفري شخص شديد البأس.
فكان رد كروتون سريعا:
- لست أنت من كلفت بتثبيت يديه.
لكنهم انتظروا طويلا، حتى لمحوا أرسوس يخرج من المدخل تتبعه ليفيا، برفقة آخرين، عرف شيلون من بينهم الكاهن الكبير و إلى جانبه كاهن آخر قصير القامة، و امرأتان متقدمتان في السن، و شاب فتي ينير لهم بفانوسه الطريق. ثم تبع هؤلاء مجموعة تقدر بمئتي شخص، فاندمج بها كل من فينيكوس و شيلون و كروتون.
علق شيلون قائلا:
- يبدو أن عذراءك تحت حراسة مشددة. و تسير في موكب الكاهن. انظر هناك كيف يجثون أمامه.
كان الجميع يجثون حقا، لكن فينيكوس لم يلتفت تلك الناحية لكي لا يحول نظره لحظة واحدة عن ليفيا.
كان المسير طويلا. فكر فينيكوس خلاله بالشروخ التي فصلته عن ليفيا نتيجة أفكارها الغريبة. لقد أدرك الان كل ما حصل في الماضي، وما هي أسبابه. تجلي أمامه كل شيء على نحو كاف. لم يكن يعرف ليفيا حتى هذه اللحظة. لم ينظر اليها الا كأجمل عذراء بين عذراوات الأرض، الهبت مشاعره. لقد أدرك الأن أن أفكارها تلك هي التي ميزتها عن باقي النساء. و أن ما بناه من آمال لاجتذاب الفتاة.
ما يملك من حرارة مشاعر، و جموح رغبة، و ثراء، و مسرة، ليس الا محض أوهام خادعة. لقد أدرك الان، ما لم يدركه هو، ولا بترونيوس أن الدين الجديد يسري في نفوس البشر على نحو شديد البعد عن عالمه، و يجعل من ليفيا مسيحية لا تتخلى عن شيء من معتقدها من أجل فينيكوس حتى لو كانت تحبه. و أن المسيرة التي يمنحها الدين غير المسرة التي يسعى اليها هو و بترونيوس و القيصر و بلاطه، و روما بأسرها.. كان بمستطاعه أن يتخذ كل من عرفه من النساء عشيقات له، إلا ليفيا فهي ضحية.
أشعرته الفكرة بالم حارق، و ولدت في نفسه غضبا لكنه غضب خل بي، لا يجدي نفعا."دعنا في الممكن"قال لنفسه. كان على يقين أن بمقدوره اختطاف ليفيا مكللا بالنجاح، لكنه لم يشك لحظة في أن كل ما يتمتع به من شجاعة و سطوة لا يعني شيئا أمام تلك التعاليم. و كان هذا النبيل العسكري الروماني على يقين أن السيف و القبضة كانا وما يزالان لا يعلى عليهما في إخضاع العالم منذ الأزل، إلى الآن، و إلى أبد الابدين، لكنه رأى للمرة الأولى في حياته أن هنالك شيئا ما يبذهما[1] في العلو و السطوة. جعله يطرح السؤال لنفسه: ما هو يا ترى؟
لكنه لم يكن يملك الاجابة. و ظل شريط الصور يمر في ذهنه:
المقبرة، الجموع المجتمعة، ليفيا التي ترشفت كل كلمة قالها الكاهن و هو يتحدث عن الام ابن الله، و موته، و قيامته، و وعده بخلاص العالم و سعادته. تزاحمت الأفكار في رأس فينيكوس، حتى بات في حالة من التشوش الذهني يرثى لها. لكن تدخل شيلون انتشله منها حين راح يندب، و يتشاكى. كانت مهمته تقتصر على معرفة مكان ليفيا، و قد غامر بحياته من أجل ذلك. فما الذي يبغون منه بعد؟ هل كُلف هو باختطافها؟

و من يرجو ذلك من عجوز هرم فقد إصبعين من أصابعه، وسخر حياته كلها خدمة للحكمة و العلم، و الفضيلة؟ و ما الذي سيحصل لو تعثر فينيكوس في أثناء عملية اختطاف الفتاة؟ صحيح أن الالهة ملزمون بحماية من اصطفوهم من البشر، لكن الم يحدث في مرات كثيرة أن الالهة كانت تلعب"الضامة"لاهية عما يجري في الكون.
وقال أيضا أن الالهة فورتونا كما هو معلوم معصوبة العينين، لا ترى في النهار، فكيف في الليل! و طلب من فينيكوس أن يعطيه الان كيس المال الذي وعده به.
استجاب فينيكوس لما قاله شيلون و أخرج الكيس من طرف حزامه و القاه في قبضة شيلون.
ـ خذ. والزم الصمت.
هنا تجرأ الإغريقي على القول:
ـ أنا أعقد الأمل على هيركوليس الذي أنجز أفعالاً أعظم بكثير. ومن لي صديق حميم أعتز بصداقته أهم من هير كوليس؟ أما أنت يا سيدي فلست في نظري نصف إله مثله، بل إلها كاملا لا يتخلى عن رعاية خادمه الوفي المسكين كلما دعت الحاجة، كما يفعل هو حين يستغرق في كتبه، و ينصرف عن رعاية كل شيء. على أية حال سأتوسل إلى جوبيتر كذلك أن يتولى مساعدتك في المهمة. أنا سأغادر الان، يا سيدي. لكن الطريق شاق للغاية، و فانوسي خلا من الزيت، فما الضير لو قام كروتون المعروف بشهامته ونبله إضافة إلى قوته الفائقة، بحملي على ذراعيه حتى المدخل وسيكسب رضا الآلهة.
ـ سأحملك إن منحتني الكيس الذي وهبت إياه السيد المحترم.
ـ فأجاب الإغريقي:
ـ يالخيبة الأمل! هل هكذا استوعبت تعاليم الكاهن المحترم الذي اعتبر الفقر والرأفة على رأس الفضائل. ألم يأمرك إذن أن تحبني؟ لن يكون منك مسيحي كما أرى. لأنك عنيد، ومن الأسهل أن تخترق أشعة الشمس جدران سجن مامرتينوس من أن ينفذ الحق إلى جمجمتك الشبيهة بجمجمة حصان الماء.
فكان رد كروتون الذي تمتع بقوة حيوانية، دون أن يتأثر بالكلام الذي سمعه:
ـ لا تخف، لن أصير مسيحيًا. لا أريد أن أخسر لقمة عيشي.
ـ أجل، لكن لو أنك تقربت من الفلسفة لوجدت أن الذهب حقيقة جوفاء بائسة.
ـ هيا صار عني متسلحا بفلسفتك، وأنا سأنطحك نطحة واحدة في بطنك، وسترى من سيكون الفائز.
فرد شيلون:
ـ كان يمكن أن يواجه أرسطو طاليس بنفس الرد.
بدأت تلاويح الفجر تنثر لونها الرمادي على الأشجار والأبنية وشواهد القبور المنتشرة. بات الطريق ليس خاليا تماما. بائعو الخضار يتجهون بحميرهم وبغالهم المحملة بالبضاعة نحو البوابة، لكي يصلوا اليها عند افتتاحها. و عجلات العربات المحملة باللحوم تقرقع هنا و هناك. كان الضباب خفيفا، لكن السائر إذا ما أراد النظر خلاله من بعيد وجد الآخرين أشباحا متحركة. ظل فينيكوس يتابع هيئة ليفيا النحيلة الهيفاء، التي سبحت في ضوء فضي كلما تقدم الفجر في مجيئه.
قال شيلون:
ـ سيدي! كرمك لا حد له. وبما أنني قد تلقيت مكافأتي المالية منك، فمن غير الممكن أن تساورك الظنون في أن لي أية مصلحة فيما سأقوله لك الآن: أنصحك حال معرفتك منزل ليفيا أن تعود لتأتي بأرقائك، و هودجك، و أن لا تصغي إلى كروتون الذي قد يخطف العذراء لنفسه طمعا بأموالك.
قال كروتون:
ـ أنا مدين لك بشدة من ذراعي تقصم ظهرك، و هذا يعني موتك المحتم

فأجاب العجوز:
- أنا مدين لك بإبريق من النبيذ السيفالوني و هذا يعني أنني سأبقى على قيد الحياة.
لم يجب فينيكوس بشيء بعد أن اقتربوا من البوابة حيث رأوا مشهدا غريبا. جنديان يركعان أمام الكاهن حين صار قربهما، فباركهما بوضع يده للحظة على خوذتيهما، ثم رسم فوقهما إشارة الصليب. لم يخطر ببال فينيكوس بحال من الأحوال أن يكون بين الجنود مسيحيون. وقف يتأمل فيما جرى أمامه للتو، فذهب إلى التساؤل عما إن كان المعتقد الجديد بات يسري في النفوس سرياناطوفانيا لا حدود له، و لا مجال لإيقافه.
و إن صح ذلك فقد يجعل هروب ليفيا خارج المدينة أمرا ممكنا، إذ لا بد أن يكون بين الحراس من يتعاطف سرا مع الفتاة، و يسهل هروبها. و حمد كل الالهة أن ذلك لم يحصل.
ما إن غادروا البوابة حتى بدأ المسيحيون يتفرقون إلى مجموعات، و صار تتبع ليفيا يتطلب الحذر الشديد، و المراقبة عن بعد كى لا ينكشف أمرهم. شكا شيلون من الام في قدميه، فأبطأ في المسير، دون أن يهتم فينيكوس لتخلف الإغريقي الجبان العاجز، بعد أن شعر بعدم الحاجة اليه. حتى أنه كان ليسمح له بالانفصال عنه و اتخاذ الوجهة التي يريد، لكن الحكيم الجدير بالتقدير كان يقترب منه بين الحين و الاخر ليزوده مايستجد من نصائح و مشاهدات. منها مثلا أن من يسير مع الكاهن جنبا إلى جنب يشبه كلاوسوس.
كانوا قد ابتعدوا كثيرا عن الترنستبريس، و اقترب موعد شروق الشمس، حين تفرق عناصر المجموعة التي تضم ليفيا. ففي حين اتخذ الكاهن، و المرأة المسنة، و الفتى وجهتهم صعودا في محاذاة النهر، انعطف أرسوس وليفيا و رفيقهما القصير القامة و سلكوا طريقا ضيقة، ما إن ساروا عليها قرابة مائة خطوة، حتى دلفوا بيتا فيه حانوتان. أحدهما لبائع زيوت، و الاخر لتاجر طيور.
كان شيلون قد تخلف عن فينكوس و كروتون ما يقارب خمسين خطوة. فتوقف متسمرا في مكانه، ثم استند على الحائط و هو يهمس لهما يرجوهما الرجوع اليه.
و هذا ما فعلاه، لأنهما في حاجة إلى النصيحة. ثم أمره فينيكوس قائلا:
- اذهب، و تأكد إن كان للبيت مخرج آخر من الجهة الاخرى.
نفذ شيلون الأمر و سرعان ما عاد لينبئ:
- لا. لا مخرج آخر.
و أشبك يديه ليستأنف يقول:
- بحق جوبيتر و أبوللو و فيستا و سيبالا و إيزيس و أوزيريس و ميتراس، و بعل، و كل الهة الشرق و الغرب، لا تقدم يا سيدي على هذه الخطوة"اسمعني".
لكنه توقف عن الكلام حين لاحظ شحوب وجه فينيكوس من شدة الاندفاع، و أن عينيه باتتا كعيني الذئب تقدحان شررا. حسب المرء أن يراه حتى يتيقن في الحال أن لا قوة في الكون تثنيه عن مرامه. كان كروتون قد نفخ صدره الهرقلي إلى أمام، و راح يحرك جمجمته في كل اتجاه، كرب سجين، دون أن يبدي مسحة من ارتباك، و قال:
- سأدخل أولا.
فردعه فينكوس بنبرة آمرة:
- ستأتي بعدي.
وبعد لحظات اختفى كلاهما في ظلمة البيت. فيما قفز شيلون إلى بيت آخر و تلطى خلفه يراقب ما سوف يحدث.

حين دخل فينيكوس اكتشف صعوبة ما هو فيه. كان البناء ضخمًا، مؤلفًا من عدة طوابق شأنه شأن الالاف من ابنية روما التي شيدت بهدف الايجار، وما مر عام الا و انهدم أحد هذه الابنية على رؤوس ساكنيه. كانت ابنية شاهقة في الواقع، و ضيقة أشبه بخلايا النحل، اكتظت بالقمرات التي عشش فيها القاطنون الفقراء بالجملة. في المدينة، حيث العديد من الشوارع لم تحمل أسماء لها، و لا الأبنية تحمل أرقاما تدل عليها. وبما أن مالكيها كانوا يعهدون إلى أرقائهم جمع أموال الايجارات، ولم تكن السلطات تلزمهم بالاعلان عن أسماء المستأجرين لديهم، فلم يكن ملاك الأبنية يعرفون هوية المستأجر، ولا حتى اسمه. في مثل هذه الأبنية يصبح السؤال عن قاطن ما أمرا شاقا، خاصة حين لا يكون للعمارة بواب.

بعد أن عبر فينيكوس و كروتون ممرا طويلا، بلغا فناء صغيرا بأربعة جدران تجعل منه صالونا مشتركا للبناية. و في وسطه نافورة تصب ماءها في حوض حجري مقام على مستوى الأرض. و عند كل جدار درج صاعد خشبي أو من الحجر، يفضي إلى موزع يقود إلى المساكن. و كان في الأسفل أيضا مساكن أخرى، بعضها بأبواب خشبية، لكن العديد منها مفصول عن الموزع بستائر ممزقة، وسخة.

كان الوقت مبكرا، فلم يظهر في الفناء أثر لأحد ما. كان الجميع مازالوا نياما، إلا من وصل لتوه قادما من الأستريانوم.

سال كروتون و قد توقف:

- ماذا نفعل يا سيدي؟

- لنتريث، فقد يظهر أحدهم. و لايهم حتى لو رآنا في الفناء.

وفي آن دار في باله أن نصيحة شيلون سديدة. فلو كان يرافقه الآن بعض العبيد لاحتل البوابة الوحيدة في البناء، و فتش كل المساكن، و عثر بسهولة على ليفيا. لكن فيما هو يفكر: ترى هل يذهب إلى البيت لإحضار العبيد، و إذا من وراء الستائر يخرج أحدهم حاملا سلة في طريقه إلى النافورة.

و من النظرة الأولى عرف الشاب أنه أرسوس.

همس فينيكوس:

- إنه الليغوي.

- هل أحطم عظامه في الحال؟

- تريث.

لم يلمحهما أرسوس لأنهما واقفان في العتمة. غسل خضار السلة بماء النافورة، و عاد بها إلى حيث أتي من خلف الستارة. تبعاه أملا بالعثور على مسكن ليفيا.

دهشا حين لاحظا أن الستارة لا تنفتح الا على رواق عالم آخر ينتهي بحديقة و كوخ صغيرين. اطمأنا بعد أن شعرا بأن مهمتهما باتت أكثر سهولة، و أن بقدورهما حالًا التخلص من أرسوس و خطف ليفيا، و الخروج بها سريعا إلى الشارع حيث يضحي تدبر الأمر سهلا للغاية. كانا يأملان أن لا يقف أحد في طريقهما، لكن حتى إن حصل ذلك سيقولان إنها مسالة هروب رهينة لدى القيصر، و إن اضطر الأمر سيكشف فينيكوس عن وجهه تحت القبعة، و يطلب مساعدة الجميع.

أوشك أرسوس على دخول الكوخ، حين سمع وقع أقدام، فتوقف و أنزل السلة، و رجع باتجاههما و سألهما:

- ما الذي تريدانه هنا؟

ما إن أنهى سؤاله حتى أعطى فينيكوس أمرا لكروتون قائلا له بصوت خافت:

- اقتله!

قفز كروتون عليه كالنمر، و خلال لحظة، و قبل أن يتمكن ارسوس من تجنب المباغتة، و يتعرف إلى

خصومه، كان كروتون قد لفه بذراعيه الحديديين.
كان فينيكوس يثق بقوة كروتون الفائقة، فلم ينتظر النتيجة التي ستسفر عنها المجابهة، فتركهما قافزًا إلى الباب، و دفعه ليصبح داخل غرفة مظلمة لا تضيئها إلا نار المدفأة، التي ضرب نورها وجه ليفيا مباشرة. كان إلى جانبها العجوز الذي رافقها حين غادرت و أرسوس الأستريانوم.
طبّ فينيكوس عليهما قبل أن تتعرف إليه ليفيا. أمسك الشاب بيدها و اتجه بها نحو الباب. اعترضه العجوز، لكن الشاب دفعه بإحدى يديه، قابضا على الفتاة باليد الأخرى. و في أثناء ذلك كشف الشاب عن رأسه، فتجمد الدم في عروق ليفيا حين عرفت الشاب، و تعثر الكلام في حنجرتها، و لم تقو على الصراخ طالبة العون، و لم تفلح في مقاومتها و محاولتها التمسك بأصابعها بالباب. كان ممكنا أن تغيب عن الوعي لولا أن لمحت مشهدا رهيبا طالعها حين خرج بها فينيكوس إلى الحديقة. كان أرسوس يعتصر بذراعيه رجلا مضرجا بالدم. لكنه ما إن رآها بين يدي الشاب، حتى كال للرجل لكمة على رأسه، و اندفع كوحش مسعور نحو فينيكوس صارخا "جاءك الموت" يريد أن يشج نافوخه، لولا أن سمع و كأنه في حلم صراخ ليفيا: "لا تقتله".
أما شيلون فقد ظل متلطيا خلف المنزل يترقب ما يجري بهلع مشوب بالفضول. بدأ يشعر بأن انتظاره قد طال، و بأن الهدوء الذي يغلف مدخل البناء ينذر بالشوم. قال لنفسه:
"إن لم يعثرا على مكانها، و أحدثا أية ضجة، فسوف ينبهان إلى وجودهما. لكن لا يهم. فكل ما سيقومان به، و كل ما سيحدث سيان، و يصب في مصلحتي و يرضيني، أدعو الآلهة أن لا يكتشف فينيكوس سري هذا"
و شعر فجأة أن أحدا ما يخرج من البناء، فالتصق بالجدار، كابت الأنفاس، و ظل يراقب.
لم يكن مخطئا. لمح رأس أحدهم كان يستطلع ملتفتا يمينا ويسارا.
لكن سرعان ما توارى.
فكر شيلون:
- هذا فينيكوس أو كروتون. لكن إن أمسكا بالفتاة، فلماذا لا تستغيث صارخة؟ و لم عليهما أن يستطلعا الشارع، ما داما سيواجهان الناس أولا و أخيرًا؟ ما هذا بحق الآلهة؟
و فجأة انتصب شعر رأسه.
كان أرسوس هو من ظهر في الباب و على كتفيه جثة كروتون. تلفت حوله ثانية، و انطلق في الشارع الخالي باتجاه النهر.
التصق شيلون بالجدار حتى كاد أن يدخل فيه، قائلا لنفسه:
- لو رآني، لكانت نهايتي.
لكن أرسوس مر مسرعا جانب المنزل الركني المنفرد، و توارى خلف البيت التالي. شيلون بدوره لم ينتظر بعد ذلك، و أطلق رجليه للريح في شارع آخر، وقد اصطكت أسنانه، و تسارعت خطواته كشاب في مقتبل العمر، و ما برح يردد لنفسه:
لو رآني في طريق عودته سيلحق بي و يقتلني أنقذني يا زيوس أنقذني يا أبوللو، أنقذني يا هرمس، أنقذني يا إله المسيحيين! سأغادر روما و أعود إلى مسامبريا، لكن أنقذوني من بين يدي هذا الوحش.
لقد أيقن أن الليغوي، الذي أطاح بحياة كروتون، مخلوق فوق بشري حقا، بل إنه إله تقمص هيئة بربري. في هذه اللحظة آمن بالخرافة، و بكل آلهة العالم التي احتقرها حتى الآن.
ولمع في ذهنه: لعل من قتل كروتون هو إله المسيحيين. فانتصب شعر رأسه لقوة سلطانه.
لم يهدئ من روعه، حتى قطع مسافة طويلة. و ارتاح باله أكثر حين لمح من بعيد عمالا يأتون باتجاهه.

تنفس الصعداء، و اقتعد عتبة أحد البيوت، و راح يمسح عرق جبينه بطرف ردائه. قال:
ـ صرت عجوزا، آن لي أن أنعم بالسلام.
انعطف العمال القادمون إلى شارع فرعي، و بقي وحيدا مرة أخرى. كانت المدينة هاجعة. و ككل صباح كانت الحركة أول ما تدب فيها ضمن الاحياء الأكثر ثراء، لأن العبيد هنالك يستيقظون باكرا. أما تلك الارجاء حيث تتوطن الفئة الحرة العاطلة من الناس، فلا حياة فيها الان، لأن قاطنيها نيام حتى الظهيرة، و خاصة شتاء. شعر شيلون بالبرد بعد أن مضى وقت طويل على جلوسه فوق العتبة. نهض، و بعد أن تأكد أن كيس المال الذي أخذ من فينيكوس ما زال في حوزته، انطلق بخطوات متمهلة باتجاه النهر. فكر: " قد أعثر على جثة كروتون في مكان ما. يا الهة! لو كان هذا الليفوي عاقلا لأمكنه أن يجمع الملايين. فإن كان قد قضى على كروتون بهذه البساطة، فمن سيصمد أمامه في المدرج الكبير من المصارعين. سيجني من الذهب ما يعادل وزنه. بمقدوره أن يحمي الفتاة أكثر من سيربيروس جهنم. فليبتلعه الجميع، أنا لا أحتمل لقاءه. شخص رهيب. لكن ماذا حل بفينيكوس، مادام قد حطم عظام كروتون؟ لا بد أن روحه صارت تتأوه فوق ذلك البيت اللعين. الطفي أيتها الالهة! إنه فينكوس باتريسيوس و ليس أي أحد. صديق القيصر، و قريب بترونيوس، و سيد من أسياد روما المعروفين، و قائد عسكري مرموق. لن يتقبلوا موته على نحو عابر.
صمت هنا، و سرح مستفكرا. و بعد هنيهة نبس قائلا:
ـ ويلي! من الذي قاده إلى ذلك البيت غيري؟ أحراره، و عبيده يعرفون أنني ذهبت اليه، و بعض منهم يعرفون السبب. ما الذي سيحصل؟ سيتهمونني بأني تعمدت أن أدله على البيت الذي لقي حتفه. بت في موقع اتهام. حتى أني لا أستطيع مغادرة روما لأن الشبهة استفاقم.
وقع شيلون بين أمرين أحلاهما مرّ.
لكن اختار أن يبقى في روما، سيذهب شخصيا إلى بترونيوس لانبائه ما حصل مستبقا أن يصله خبر قتل قريبه من الاخرين. إن بترونيوس شخص رزين، و سيسمعه حتى النهاية.
ولكن قبل أن يذهب اليه، عليه أن يعرف بدقة ما الذي حصل للشاب. كل ما يعرفه أن أرسوس كان يحمل جثة كروتون متوجها إلى النهر، ولا شيء آخر. و مثلما قد يكون فينيكوس قتيلا، فقد يكون جريحا، أو أسيرا. و خطر له الان أن المسيحيين لا يجرؤون على قتل سيد عظيم الشأن من أمثاله تجنبا للمتاعب و الملاحقات. الارجح إذن أن يكون في قبضتهم، لتكسب ليفيا الوقت الكافي للاختباء من جديد.
كان عزاؤه دائما كيسي النقود. كيس قد حصل عليه في بيت فينيكوس، و كيس آخر رمي اليه في أثناء العودة من المقبرة. انشرح صدره، و قرر أن يكافئ نفسه، و يتناول طعاما فاخرا إلى جانب نبيذ أكثر جودة من المعتاد.
لما حانت أخيرا ساعة افتتاح الحانة، فعل ما يلزم فأشبع معدته طعاما، و ارتوى نبيذا حتى غاب عن باله حاجته إلى الاستحمام. كان في حاجة إلى النوم. فقصد منزله في سوبوران حيث كانت العبدة التي اشتراها بنقود فينيكوس في انتظاره.
دخل غرفة النوم العائمة كجحر ثعلب، و ارتمى على فراشه ليغط في نوم عميق. لم يستيقظ حتى المساء. أيقظته العبدة بقولها إن أحدهم يسال عنه، ويريد أن يكلمه في الحال. استعاد شيلون صحوه، و تناول رداءه آمرا الفتاة أن تبتعد عن طريقه، و القي نظرة أولية حذرة إلى الخارج.
و تجمد في مكانه، حين لمح أمام الباب أرسوسس العملاق. شعر ببرودة تسري في أرجاء جسده، و تتركز جليدا في رأسه و قدميه. توقف قلبه. و شعر بظهره كأن قرية بكاملها من النمل تتحرك عليه.
فقد في البداية قدرته على النطق، ثم اصطكت أسنانه، فراح يتأتئ:

ـ سيرا، لست في البيت... لا أعرفه... هذا... الشخص...
ـ قلت له يا سيدي إنك هنا، لكنك نائم. فطلب مني أن أوقظك.
ـ أود... يا الهة!... إذن...
لكن أرسوس، وكأنما فقد صبره، تقدم نحو الباب، ودس رأسه مناديا
ـ شيلون شيلونيدس!
ـ سلام عليك، سلام، سلام عليك يا أصلح المسيحيين. أنا شيلون، لكني لا أعرفك.
كرر أرسوس نداءه:
ـ شيلون شيلونيدس. يأمرك سيدك فينيكوس أن ترافقني اليه.

أيقظ فينيكوس الم مبرح فلم يدر للوهلة الأولى أين هو، و لا ما قد حصل له. ضربه الصداع، و اغبشت عيناه. لكنه استرجع وعيه شيئا فشيئا، فلمح ثلاثة أشخاص ينحنون فوقه. عرف منهم اثنين. كان الأول أرسوس، و كان الثاني العجوز الذي دفعه عنه حين أخذ الفتاة. أما الثالث فكان غريبا أمسكه من يده اليسرى و راح يجس ذراعه منتقلا حتى كتفه، ما جعل فينيكوس يشد على أسنانه الما و يقول:

ـ اقتلوني.

لكن أولئك لم يكترثوا بالأمر. إما لأنهم لم يسمعوه، و إما لكونهم اعتبروا أن ما يقوله ناتج عما يعانيه من الام فظيعة. وقف أرسوس هناك بادي الاهتمام، لكنه في الآن نفسه أفصح عن وجه بربري متوعد، و بيده بعض شرائط الضماد البيضاء الطبية. خاطب العجوز الفتى الذي يجس ذراع فينيكوس:

ـ أواثق أنت يا كلاوسوس أن جرح رأسه غير مميت؟ فكان رد كلاوسوس:

ـ بالتأكيد أيها السيد المحترم. أعرف ذلك من خبرتي في نابولي. إنه

جرح طفيف. لقد حمى رأسه بذراعه، فأنقذها و أنقذ حياته.

ـ لقد عالجت العديد من الاخوة المسيحيين، و لك سمعة طيبة جيدة، لذلك أرسلت أرسوس من أجلك.

ـ لقد اعترف لي في الطريق أنه كان ينوي قتلي.

ـ لقد صارحني بنيته منذ مدة. لكن معرفتي بك وبمحبتك للمسيح، دفعاني أن أوضح له أنك لست الخائن بل ذلك الشخص المجهول الذي أقنعه بقتلك.

علق ارسوس متنهدا:

كان روحا شريرة، و أنا رأيته ملاكا.

قاطعه كلاوسوس:

ـ ستحكي فيما بعد، دعنا الان، سنعتني بالجريح.

وبدأ يجبر ذراع فينيكوس المكسورة فيما كان كريسبوس يرش الماء دون انقطاع على وجه الشاب الذي يتأوه ألما. كانت تلك أفضل الشروط الطبية التي جرت فيها ذراع الشاب، و ساقه، حيث استعان الطبيب بجبيرتين خشبيتين و شدهما حول عظمتي الساق، و الذراع.

و استعاد المريض وعيه ثانية بعد العملية، فلمح ليفيا إلى جانبه.

وقفت قرب سريره، و بيدها قدر نحاسي استعان كلاوسوس.مائه من أجل رأس المريض.

راح فينيكوس ينظر اليها، ولا يصدق عينيه. ظن أنه في حلم، أو أنه يهذي من شدة الحمى. و بعد صمت طويل تمتم:

ـ ليفيا!

ارتجف القدر بين يدي ليفيا، لكنها حولت وجهها الحزين نحوه مجيبة بصوت لطيف:

ـ السلام عليك.

وظلت واقفة يعكس وجهها العزاء، والألم.

بينما كان الشاب يرنو اليها على نحو كأنه أراد أن يشبع عينيه منها، حتى إذا ما أغمضهما بقيت صورتها طويلا تحت جفنيه. نظر إلى وجهها الأكثر شحوبا و نحولا من ذي قبل. نظر إلى بكرات شعرها القاتم، و ثوبها العمالي البائس. كان ينظر.مكر جعل جبين الفتاة الناصع البياض يتورد حمرة. و كان أول ما دار في باله أنه ما زال يحب هذه الفتاة. ثم فكر أنه السبب فيما تعانيه من شحوب في وجهها، و بوس في ملابسها. اليس هو من أخرجها من بيت العائلة التي رعتها و أحبتها، و غمرتها حنانا و رفاها و رغدا في العيش. اليس هو من دفعها التنزلق في مهاوي البؤس، و الجزع و العذاب. أنبه ضميره و تمنى لو يرمي بين أقدام

ليفيا لو كان يستطيع الحراك. قال:
- ليفيا. لم تسمحي بقتلي.
لكن الفتاة أجابت بوداعة:
- السيد سيعيدك إلى عافيتك.
تجاوز فينيكوس الان كل تلك المواجع التي سببها للفتاة من ذي قبل، و شعر أن كلامها يقع في نفسه موقع البلسم الشافي. و أبعد عن ذهنه الان أن ماتتفوه به الفتاة عائد لقناعاتها في التعاليم المسيحية، و تقبله كلاما غاية في الحنان، شديد الحلاوة، تنطق به الحبيبة التي تقف إلى جانبه كمسحة الهية.
في هذه الأثناء أنهى كلاوسوس تنظيف جرح الرأس، و وضع عليه الدواء. أخذ أرسوس القدر من ليفيا. فيما أمسكت الفتاة من على المنضدة، إبريقا من النبيذ، و قربته من شفتي الجريح، فنهل فينيكوس كل ما فيه، فشعر براحة أكبر. لكن الأمه بدأت تخف تدريجيا مع سير عملية الضماد، حتى زالت تماما و بدأ يستعيد وعيه. و تفوه بالطلب:
- هاتي لأشرب!
عبرت ليفيا بالابريق الفارغ إلى الغرفة المجاورة. و تقدم كريسبوس من السرير، بعد أن كلم كلاوسوس بضع كلمات، و خاطب فينيكوس قائلا:
- فينيكوس! لم يدعك الاله تسلك سلوكا شريرا، بل حافظ على حياتك، لتعود إلى نفسك روحياً. المسيح الذي نؤمن به أمرنا أن نحب حتى أعداءنا. لقد ضمدنالك جروحك. و كما قالت ليفيا سوف نصلي لكي يعيد لك الله العافية، لكننا لن نتمكن من العناية بك بعد الآن. رافقتك السلامة. و فكر جيدا، هل تجدها فكرة سديدة أن تستمر في ملاحقة ليفيا التي جردتها من عزوتها، و بيتها، و في ملاحقتنا نحن الذين قابلنا الأذية بالمعروف، و الشر بالخير.
فسأله فينيكوس
- هل تنوون مغادرتي؟
- ننوي مغادرة هذا البيت تفاديا لملاحقة الجند و عناصر الشرطة لنا.
شريكك فقد حياته. وأنت العظيم بين رجالك جريح. لسنا السبب فيما حصل لكما، لكن عصا القانون ستطالنا نحن.
-لا تخافوا من الملاحقة. سأحميكم.
لم يشأ كرسيبوس أن يقول له إن الأمر لا يعود فقط إلى الجند و عناصر الشرطة، بل إلى عدم ثقتهم به شخصيا كذلك. و إنهم يريدون أن لا تطال الملاحقة ليفيا.
تابع العجوز قائلا:
- سيدي، يدك اليمنى سليمة، وها هو اللوح و الريشة، اكتب لأرقائك أن يأتوك بالهودج، و يقلوك إلى البيت. أفضل لك من هنا. نحن نسكن لدى عجوز بائسة ستعود لتوها إلى البيت برفقة ابنها. سيحمل الفتي رسالتك إلى ذويك. وسنبحث نحن عن مخبأ جديد لنا. شحب فينيكوس لما شعر أنهم سيبعدونه عن ليفيا. إن فقدها الان مرة أخرى فقد لا يراها طوال حياته. لقد أدرك أن هنالك أمورا ضخمة تفصل بينهما، و إذا ما أراد الفوز بالفتاة فعليه أن يسلك دروبا جديدة، لم ينشغل يوما بالتفكير فيها. و أدرك أيضا أن أي شيء يقوله لهؤلاء، كأن يقسم لهم أنه سيرجع ليفيا إلى بومبونيا، لن يكون كافيا، و جديرا بالثقة. شعر أنهم لن يقتنعوا بوعوده لأسباب كثيرة، منها أنه ليس مسيحيا وأن قسمه بالهه خالدة هو نفسه لا يؤمن بها، ليس ضمانة كافية، خاصة وأنهم ينظرون اليها كارواح شريرة. وقع في حيرة، و فكر في مهادنة ليفيا و جماعتها، و كسب رضاهم. فهو بحاجة لبعض الوقت إذن أيام قليلة للتقرب أكثر من الفتاة. فكرة جديدة يطرحها.

حصول أي شيء يخدمه.
استجمع أفكاره إذن و قال:
- اصغوا إلي أنتم المسيحيين. أمس كنت معكم في الأستريانوم. و استمعت إلى تعاليمكم. و إن كنت لا أعرفها فسلوككم نحوي مثال على أنكم بشر طيبون جديرون بالاحترام. قولوا للعجوز القاطنة هنا أن تبقى هنا، و ابقوا معها، و اسمحوا لي أن أبقى معكم.. هذا الطبيب و أشار إلى كلاوسوس سيساعدني على البقاء بحكم أني جريح، و من الخطورة أن يدعني وشأني. و إن لن تقبلوا بفكرتي فسوف أتشبث بالبقاء هنا حتى تبعدوني بالقوة.
أنهى كلامه لأن أنفاسه نفدت من صدره.
فقال كريسبوس:
- لن يرغمك أحد على مغادرة المكان. نحن من سنرحل. قطب الشاب غير المعتاد على سماع الرفض جبينه و قال:
- دعوني أسترح قليلا
و بعد هنيهة استأنف كلامه قائلا:
- كروتون الذي قضى عليه أرسوس، لن يكون موضع سؤال أي كان حين دخلنا هذا المنزل لم يرنا أحد غير الإغريقي الذي كان معنا في الأستريانوم. سأقول لكم أين يسكن، لتستدعوه الي. وأنا سأمره أن يلزم الصمت، لأنه أجيري. وإذا ما كان قد أخبر رجال الشرطة بالأمر، فسأعترف أني من قتل كروتون لأنه قام بكسر يدي. أقسم بطيف أمي، انني سأفعل ما أقول. و هكذا سأبقى هنا بأمان. ولن تتأذى شعرة واحدة لأي منكم - جيئوني بالإغريقي سريعا. اسمه شيلون شيلونيدس.
فأجاب كريسبوس:
- إذن سيبقى كلاوسوس بقربك يا سيدي، و سيعتني بك إلى جانب العجوز.
زادت تقطيبة فينيكوس و شدد من نبرته:
- اسمعني جيدا أيها الرجل العجوز. أنا مدين لك بالامتنان. و أرى أنك شخص نزيه و طيب، و لكنك لا تفصح عما يجول في نفسك من مخاوف. تظن أنني حين أدعو أرقائي، سأخطف الفتاة من جديد. اليس كذلك؟
فأجاب كريسبوس بشيء من الفجاجة:
- أجل.
- اعلم إذن أني سأكلم شيلون أمامكم، و أمامكم سأكتب الرسالة.
أخبر فيها جماعتي أنني سافرت، و لا تثرني أكثر.
و أظهر غضبا جعل وجهه ينقبض متجهما، و قال بحماسة:
- لا بد أنك ظننت أنني لن أفي بوعودي، و أنني أريد البقاء هنا لكي أتمكن من رؤية ليفيا. و سأقول لك شيئا آخر. إن لم تبق ليفيا هنا، فسأفك رباط ذراعي بيدي اليمنى هذه، ولن أذوق الطعام أو الشراب، حتى أنتزع أرواحكم أنت و إخوتك.
صار شاحبا من شدة الغضب والوهن. لكن ليفيا كانت تصغي إلى كل ما قاله في الغرفة المجاورة. وكانت على ثقة أن الشاب يفعل ما يقول. لذلك فقد ارتعدت من تهديداته، و لم تكن تريد الموت. فمنذ أن هربت و هي تعيش هنا بكل أمان، ووئام مع أخوة لها في الدين، و نصب عينيها الوفاء،والاثرة، والتضحية تعويضاعن منزلها، و عائلتها، و سعادتها، فأضحت إحدى العذراوات المسيحيات اللواتى غيرن روح العالم القديم. و في حقيقة الأمر كان فينيكوس جزءا من حياتها، و قد فرض نفسه على مشاعرها، و لم يكن

بوسعها أن تنساه و كانت تدعو الله أن تجيء تلك اللحظة التي تتيح لها طبقا للتعاليم أن ترد له أذيته بالخير، و ملاحقته لها بالعطف، و كل ذلك كرمى للمسيح. شعرت إذن أن اللحظة قد سنحت الان، و أن صلواتها قد استجيبت فتقدمت من كريسبوس وراحت تكلمه بنبرة بدت مختلفة تماما:
ـ دعه يا كريسبوس بينا. وسنظل إلى جانبه حتى يكلله المسيح بالشفاء.
لكن العجوز المؤمن بالايحاء الإلهي، و قد لمس مدى إصرار الفتاة، على فكرتها، سرعان ما دار في باله قوة علوية هي التي كلمته بفم الفتاة، فارتعش فؤاده، و قال مطرنا برأسه الاشيب:
ـ ليكن ما تقولين.
لم يكن فينيكوس يحول عينيه عنها طوال الوقت. و لقد أثرت موافقة العجوز السريعة تأثيرا عميقا في نفسه. فكر أن ليفيا قد تكون بين المسيحيين قسيسة أو سيبيلا، تتمتع بالاحترام و الطاعة. امتزج حبه لها بخوف جعل هذا الحب يبدو حبا مغامرا أعمى، الا أنه لم يقو على الاستسلام لفكرة أن علاقتهما قد تبدلت، و أن ليفيا هي، لا هو، من يملك القيادة، ما دام الان يستلقي تحت رحمتها كطفل قاصر مجرد من القوة، أفلت منه زمام المبادرة و الجسم. شعر بالفخر،والامتنان لهاوكأنها أضحت سيدته حقا. كانت أحاسيس خرساء وخفية لم تجد طريقها يوما إلى ذهنه، حتى في هذه اللحظة، و يتعذر التعبير عنها في كلمات. وطبيعية لم يشأ البحث عن أسبابها، مكتفيا الان أنه في غاية السعادة لأنه سيبقى مقيما هناك.
كان يرغب في توجيه الامتنان لليفيا، لكن شعورا آخر خفيا تمازج مع رغبته، هو الشعور بالضعة و العار. فلم يقو على النطق، و اكتفى بتقديم الامتنان بعينين تتوهجان فرحا ببقائه هنا، ورؤيته لها اليوم، وغدا وبعد غد، وربما طويلا. لكنه ظل خائفا من فقدانها، و تفاقم خوفه حين قدمت له الماء مرة أخرى، فهم لرغبته الشديدة أن يمسك يدها لكنه لم يجرؤ. خاف. خاف هو نفسه فينيكوس الذي تجرأ في المأدبة القيصرية أن يقبل عنوة فم الفتاة، و كان، بعد المأدبة ينوي جر الفتاة من شعرها إما إلى غرفة النوم، أو العقاب.

بات خائفا أيضا من أن يأتيه العون في وقت غير مناسب، فيفسد عليه سعادته. جائز أن يكون شيلون قد أخبر الجند، أو المنزل، أو معتوقيه، عما جرى، فيغدو دهم البيت في أي وقت أمرا محتملا. خطر له أن يقوم حينئذ بالقبض على ليفيا و احتجازها، لكنه استبعد ذلك وشعرأنه سلوك مرفوض،وغيرلائق، وليس بمقدوره أن يتبعه. صحيح أنه كان شخصا أنانيا جريئا و فاسدا بما فيه الكفاية، وعند الضرورة لا يعرف الرحمة، لكنه في النهاية ليس نيرون. فقد تركت فيه الحياة العسكرية قدرا معينا من الشعور بالصلاح، والتزام العدل، والصدق، و النزاهة، ليدرك أنه سلوك وضيع بشع. ولقد كان سيسلكه لو أنه في أتم الصحة والمعافاة، و لكنه، وهو في هذه الحالة المرضية، كان أقصى ما يهمه أن لا يقف أحد بينه و بين الفتاة.

لاحظ باندهاش أنه منذ كلفته ليفيا ودافعت عنه، لم تطلب هي أو كريسبوس منه شيئا، و كأنهما على ثقة أنه سوف يقوم ذات يوم بحمايتها من قوة غاشمة ما،إذا مادعت الحاجة إلى ذلك.بات يعتقد أن كل شيء ممكن وفي وارد الحدوث. و حين أمعن في التفكير وزان الامور جيدا، تذكر ما قال له الإغريقي، فطلب اليهم استدعاءه إلى أمامه.

وافقه كريسبوس،وقرروا إرسال أرسوس من أجله. حدد لليفيا موقع منزل شيلون. وخط بعض الكلمات على الرسالة، و التفت نحو كريسبوس قائلا:

ـ كتبت هذه الكلمات لأن شيلون شخص ماكر، و شكاك. و حين كنت أستدعيه، غالبا ما كان يقول لرجالي أن يخبروني أنه ليس في البيت، وخاصة عندما لايحمل خبرا طيبا. قال أرسوس:

ـ دعني أجده أولا، و سأتكفل بالإتيان به شاء أم أبى. ورد قبعة عباءته على رأسه و انصرف.

في روما لم يكن من السهل العثور على أحدهم مهما بلغت دقة المعلومات. لكن الغريزة كانت عونا لأرسوس الذي عرف روما شبرا شبرا، وسرعان ما كان في بيت شيلون.

لكنه لم يكن يعرفه، لأنه لم يصادفه وجها لوجه سوى مرة واحدة كانت في المساء، فاستحال عليه أن يكتشف أنه ذلك العجوزالإغريقي الذي حرضه على قتل كلاوسوس. فلما أيقن شيلون أن أرسوس ينظر اليه كشخص غريب بعيدعن الشبهة، ولم يره من قبل، سرعان ما اضمحلت مخاوفه. و تعززت الطمأنينة لديه لما قرأ سطور فينكوس. و خطر له أن المسيحيين لم يقوموا بقتل فينيكوس لأنهم لا يجرؤون أن يمدوا أيديهم على أمثاله من الأشخاص المعتبرين.

قال لنفسه:

ـ والحال هذه سوف يقوم فينيكوس بحمايتي إذا ما لزم الأمر، ولم يستدعني ليتخلص مني.

و تسلح بجسارة نوعية ليوجه سؤاله:

ـ أيها الرجل الطيب، الم يرسل فينيكوس النبيل هودجا من أجلي؟

رجلي تؤلمني، ولا أحتمل المشي مسافة طويلة.

ـ لا. سنمضي سيرا على الأقدام.

ـ و إن رفضت ذلك؟

ـ لا تفعل. عليك أن تأتي.

ـ سأذهب بإرادتي. ليس بوسع أحد أن يرغمني لأنني إنسان حر. و حاكم المدينة صديقي. و أنا كفيلسوف لدي أدواتي ضد العنف، و بوسعي أن أسحر البشر، و أحولهم إلى أشجار و حيوانات. لكني سأذهب... سأذهب! سأتخفى بعباءة أخرى و قبعة لكي لا يعرفني أرقاء الحي و ينهالون علي بتحياتهم و يلهونني عن المسير.

ارتدي عباءة أخرى و اعتمر قبعة واسعة تمنع أرسوس من التعرف على قسماته و هما يعبران مناطق

أكثر إضاءة. سال في أثناء الطريق:
- أين تأخذني
- إلى الترانستبريس.
- أنا في روما منذ وقت قصير، ولا أعرف ذلك. هل يعيش هنا الكثيرون ممن يحبون الفضيلة؟
صحيح أن أرسوس شخص ساذج، لكنه كان قد سمع فينيكوس يقول أن اليوناني قد رافقه إلى الأستريانوم. ثم إنه قد رآه عندما دخل بناء ليفيا مع كروتون. صمت قليلا ثم قال:
- لا تكذب أيها العجوز فقد كنت برفقة فينيكوس في الأستريانوم، وأمام مدخلنا.
أجاب شيلون:
- آها! بينكم إذن بعد التّيبر. أنا في روما منذ مدة قصيرة، ولا أعرف أسماء الأماكن والاحياء فيها. الحق معك ياصديقي. لقد كنت أمام مدخلكم. ولقد رجوت فينيكوس الايدخل. و كنت في الأستريانوم. لكن أتدري ما السبب؟ أتدري كم بذلت من مجهود لأقنع فينيكوس بالايمان؟ و سنحت الفرصة لما جاء الحواري فأخذته ليستنير بنصائحه. أعلم أنك مسيحي وترغب أن ينتصر الحق على الباطل.
- تماما أجاب أرسوس بخشوع. استعاد شيلون جرأته كليا، فقال:
- السيد العظيم فينيكوس صديق القيصر، وما زالت الارواح الشريرة توسوس في صدره، لكن إذا مست شعرة واحدة منه فالقيصر سينتقم من المسيحيين شر انتقام.
- هناك قدرة أعظم تحمينا.
فسال شيلون بقلق متجدد:
- حسنا. حسنا. لكن ما الذي تنوون فعله مع فينيكوس؟
- لا أدري. المسيح يأمر بالرأفة.
- قولك صحيح. لا تنس ذلك أبدا، و الاستشوى في نار جهنم.
تنهد أرسوس، بينما خطر لشيلون أن بمقدوره أن يوجه هذا الانسان الذي يبدو مرعبا للوهلة الأولى، و يفعل به ما يشاء.
ولكن، بما أنه أراد أن يعرف كيف تم اختطاف ليفيا، فقد تكلم بنبرة القاضي القاسية:
- ماذا فعلتم ب كروتون؟ قل ولا تكذب.
تنهد أرسوس ثانية و أجاب:
- سيخبرك فينيكوس بذلك فيما بعد
- سامحك بلوتو، أقصد المسيح.
و تابعا المسير صامتين لفترة وجيزة حتى تفوه شيلون قائلا:
- لن أشي بك، لكن حذارمن الشرطة
-أنا أخشى المسيح، و لا أخشى الشرطة.
- عظيم. ليس هنالك من ذنب أكبر من جريمة القتل. سأصلي لأجلك فيما بعد. لكني لا أدري إن كانت صلاتي ستنفعك في شيء، إن لم تقسم أنك لن تؤذي أحدا بعد الآن فأجاب أرسوس:
- لم أقصد قتله.
كان شيلون يريد أن يؤمن على نفسه ويسد كافة الثغرات، فراح يثير اشمئزاز أرسوس بالتذكير بجريمة القتل، و حثه على القسم. و كان الليفوي يردعلى أسئلته كلها بقوله: سنعرف كل شيء من فينيكوس في الوقت المناسب. هكذا أمضيا معا طريقهما الطويل، حتى وصلا البيت. اشتد خفقان قلب شيلون، حين لاحظ أن أرسوس يرمقه بنظرات نهمة. أخفى وجهه جيدا بالقبعة متذرعا بشدة برودة الجو. و حين عبروا في

النهاية، الرواق، ثم الفناء الأول، و صاروا في الممر المفضي إلى حديقة المنزل، توقف فجأة ليقول:
ـ انتظر، دعني آخذ جرعة من الهواء،والا فلن أتمكن من التحدث إلى فينيكوس، وأسديه بعض النصائح.
و توقف بعد أن صار واثقا من نجاته، و بات لا يهدده أي خطر. وفي أثناء ذلك طرق سمعه ترانيم آتية من البيت.
ـ ما هذا؟ سأل
فأجابه أرسوس:
ـ تقول إنك مسيحي، ولا تدري أن من عاداتنا تمجيد المخلص و شكره بعد كل طعام؟ لقد رجعت ميريام وابنها حتما إلى البيت، ومن الجائز أن يكون الحواري هنا، لأنه يوميا يقوم بزيارة العجوز وكريسبوس.
ـ خذني مباشرة إلى فينيكوس.
ـ وهو أيضا هنا، حيث الاخرون في الغرفة الكبرى، لأن بقية الغرف صغيرة نرتادها للنوم فقط. هيا فلنذهب وهناك ستأخذ قسطا من الراحة.
دخلا. كانت الغرفة عاتمة بعض الشيء، لأن أضواء الاسرجة، في مثل هذه الأماسي الشتائية الغائمة، لا تستطيع أن تبدد الظلمة تماما. شك فينيكوس لمجرد أن لمحه من وراء زجاج النافذة أن القادم هو شيلون الذي ما إن حطت عيناه على فينوس فوق السرير حتى أسرع اليه ضامنا الامان التام بقربه. و صاح و هو يمسك بيديه:
ـ آه يا سيدي، لم لم تأخذ بنصيحتي؟
فردعه فينيكوس مخاطبا إياه:
ـ اسكت، و انتبه لما سأقول!
و رمقه بنظرات حادة، و راح يكلمه بتؤدة و كأنه أراد منه أن يعتبر كل ما يقوله أوامر لن ينساها طوال حياته:
ـ انظر، لقد أراد كروتون أن يقتلني، و يسرقني أتفهم؟ قمت أنا بقتله. و قام هؤلاء بتضميد جراحي التي منيت بها، في عراكي معه.
أدرك شيلون في الحال أن حديث فينيكوس على هذا النحو، يعني أنه اتفق مع المسيحيين على ذلك. فأجابه رافعا وجهه إلى السماء:
ـ كان شخصا خطيرا يا سيدي، قلت لك أن لا تثق به. عبثا حاولت تعليمه، لكنه مخادع لا رادع يردعه، ولا شرف يتمسك به. أيتها الالهة، كيف يجرؤ على مهاجمة سيد عظيم من أمثالك!
لكنه سرعان ما تذكر أنه قال لأرسوس أنه مسيحي فصمت. و جاء دور فينيكوس ليقول:
ـ لو لم أكن أحمل مدية لقتلني.
ـ بوركت تلك اللحظة، حين نصحتك بحمل مدية. فسأله فينيكوس و هو يرمقه بنظرة:
ـ ماذا فعلت اليوم؟
ـ كيف؟ كنت سأقول لك أنني انشغلت باستقبال الزائرين الذين جاؤوا للاطمئنان على صحتك؟
ـ و ماذا أيضا؟
ـ كنت أتأهب لزيارتك، حين جاءني هذا الشخص الطيب ليخبرني أنك استدعيتني.
ـ خذ هذه الرسالة إلى منزلي في الحال. و اعثر على معتوقي، وسلمها له. كتبت فيها أنني مسافر إلى بنغتوم. و قل لديمون عن لساني أنني سافرت هذا الصباح لأن بترونيوس استعجلني بالحضور اليه هناك.
ثم كرر مشددا:
ـ سافرت إلى بنغنتوم، أتفهم؟

ـ سافرت ياسيدي سافرت. و لقد ودعتك عند مبنى البريد. و منذ ذلك الحين و أنا أتشوق لرؤيتك، وأكاد أموت من شدة البكاء والحزن، كما حصل لزوجة أتيلوس من شدة حزنها على زوجها.
كان فينيكوس مريضا، فلم يكن بمقدوره حتى أن تند شفتاه عن ابتسامة لهذا التناغم الخبيث بينه و بين شيلون.وأسعده أن شيلون سرعان ما استجاب لمقاصده. فقال:
ـ سأضيف في الرسالة إذن، أن يكفكفوا دموعك. هات السراج!
و بطمأنينة تامة خطا شيلون نحو المدفأة و تناول سراجا.
في هذه اللحظة. انزلقت القبعة عن رأسه، فأنار ضوء السراج وجهه، فقفز كلاوسوس عن مقعده، و وقف أمامه بسرعة، و سأله:
ـ كايفاش، الا تعرفني!
كان صوته مرعبا أجفلهم جميعا.
في هذه اللحظة رمى شيلون السراج أرضا و قال:
ـ لست كايفاش... لست كايفاش... الرحمة!
التفت كلاوسوس نحو الجميع و هم يتناولون العشاء و خاطبهم:
ـ إنه الشخص الذي خانني و تسبب في أذاي أنا و عائلتي.
كانت سيرته قد شاعت بين المسيحيين كلهم. و بسماع أرسوس ما تفوه به كلاوسوس، قفز كالبرق إلى أمام شيلون، وحين تعرف عليه، أمسكه بذراعه و فتله إلى الوراء، وصاح:
ـ هو من أقنعني بقتل كلاوسوس.
فالتفت شيلون نحو فينيكوس يتوسله:
ـ الرحمة! أنقذني يا سيدي. لقد وثقت بك، قل شيئا من أجلي أنا سأحمل رسالتك يا سيدي.
أما فينيكوس فقد كان يشهد ما يجري أمامه بحياد تام لسببين. أولهما أنهما ماعاد في حاجة إلى شيلون بعد أن أنجز ما كلف به. و ثانيهما أن قلبه لا يستجيب أصلا للتوسلات. فقال:
ـ ادفنوه في الحديقة. الرسالة سيوصلها شخص آخر.
و هكذا شعر شيلون أن هذه الكلمات تعني نهايته. و كانت عظامه تتحطم بين يدي أرسوس الجبارتين، فامتلأت عيناه بالدموع من شدة المه. فصرخ:
ـ أستحلفكم بربكم أن ترحموني. أنا مسيحي، باكس فوبكسوم. أنا مسيحي. و إن لم تصدقوني عمدوني مرة أخرى. مرتين أخريين، بل عشرات المرات! لا بد أنك مخطئ يا كلاوسوس. اسمعوني... اعتبروني أحد أرقائكم و لا تقتلوني. الرحمة!
وخفت صوته من المه. هنا تحرك الحواري بطرس من جانب الطاولة، هازا برأسه الأشيب، و عيناه مطبقتان، لكنه ما لبث أن فتحهما و نطق مبددا وطأة الصمت المطبق:
ـ خاطبنا المخلص قائلا: "إن أخطأ معك أخ لك، عاتبه، و وجه له اللوم. و إن ندم على فعلته سامحه. و إن أخطأ معك سبع مرات في اليوم، و لكنه في كل مرة كان يلتفت اليك ليقول: "أنا نادم" فسامحه".
و أطبق الصمت من جديد.
ظل كلاوسوس واقفا لفترة طويلة، دافنا رأسه براحتيه، ثم أرخاهما
ليقول:
ـ سامحك الله يا كايفاس على ما أوقعت بي من أذية. لأني سامحتك باسم المسيح.
بينما قام أرسوس بتحرير ساعدي اليوناني و أضاف قائلا على الفور:
ـ سامحك الله لأني سامحتك باسم المسيح.

بهذا ارتمى اليوناني أرضا، و هو يدير رأسه بين يديه مجيلا النظر، كفريسة عالقة في الشباك، ليعرف متى ومن أية جهة سيوافيه الموت. حتى أنه ما كان يصدق عينيه ولا أذنيه، و لم يجرؤ ولو لحظة أن يعيش على أمل أنه قد فاز بالصفح.
ولكنه شيئا فشيئا استعاد رشده. كانت شفتاه الزرقاوان ترتجفان من الرعدة. قال الحواري في هذه الأثناء:
- انصرف بسلام!
نهض شيلون، لكنه لم يقو بعد على الكلام. تقدم من سرير فينيكوس، كأنما كان ما يزال يسترحمه، و يجد عنده المنجاة و الحماية.
و كان يريد أن يبرح المكان خشية أن يحصل أي طارئ يعطل فرصته في الهروب، فخاطبه بصوت متهدج:
- هات الرسالة يا سيدي! هات الرسالة!
وبعد أن تناول الرسالة منه، توجه بانحناءة نحو المسيحيين و بأخرى نحو فينيكوس و خرج محدودبا من الغرفة. حين بلغ الحديقة، انتصب شعر رأسه من الرعدة مرة أخرى. فقد كان واثقا أن أرسوس سوف يتبعه، و يتخلص منه في العتمة. استجمع كل قواه، لكن قدميه لم تسعفاه للفرار. و فجأة، بعد لحظات وجيزة، تجمد من هول الصدمة، لأن أرسوس كان إلى جانبه فعلا.
آرتمى شيلون على وجهه أرضا و راح يتباكى:
- أوربانوس... باسم المسيح! لكن أوربانوس أجاب:
- لا تخف. الحواريّ أمرنا أن نقودك خارج المبني لكي لا تتوه في العتمة، و أن نوصلك إلى البيت إن كنت تشعر بالوهن.
فرفع شيلون عينيه: - ماذا تقول؟ ماذا؟ الن تقتلني؟
- لا. لن أقتلك. و إن كنت قد آلمتك من شدة ما ضغطت على عظامك، فأنا آسف.
فقال الإغريقي:
- ساعدني على الوقوف. لن تقتلني؟ اليس كذلك؟ رافقني حتى الشارع، و من هناك سأنصرف بمفردي.
رفعه أرسوس بسهولة كحشرة، و أوقفه على ساقيه، و قاده عبر ممر مظلم إلى الفناء الاخر الصغير، و منه إلى غرفة أوليّة تفضي إلى الشارع.
قال شيلون لنفسه و هو في الممر "اقتربت نهايتي". ولم يشعر بالامان حتى صارا في الشارع. فقال:
- سأذهب مفردي.
- رافقتك السلامة ، و إياك أيضا، و إياك أيضا. دعني أسترح!
وحين ابتعد أرسوس تنفس الصعداء. ثم تحسس بيديه جذعه و أضلاعه، و كأنما أراد أن يتحقق من أنه ما زال حيا، و انطلق بخطوات سريعة.
لكنه، بعد خمسين إلى ستين خطوة توقف. و قال:
- لكن لماذا لم يقوموا بقتلي؟
ولم يجد جوابا شافيا على سؤاله هذا بالرغم من استغراقه الطويل بما سمع من التعاليم المسيحية، من اربانوس أو من الحواريّ في الأستريانوم.

فينيكوس بدوره لم يكن بمقدوره أن يستجلي ما حصل من هذه الأحداث، فاضطربت روحه، و تملكته الحيرة كشيلون. صحيح أن الطريقة التي عامله بها هؤلاء من تلطف بحاله و بلسمةٍ لجراحه، بدلا من النقمة عليه لمهاجمته إياهم في مخبئهم، قد أرجعها إلى صلب تعاليمهم، و بالذات إلى شخصية ليفيا و تأثيرها الكبير بينهم، الا أنه ما كان ليتصور مقدار التسامح الذي أبدوه إزاء شيلون. و تساءل أيضا لم لم يقتلوا الإغريقي؟ خاصة و أنه كان بمقدورهم أن يقوموا بذلك دون أن يجرَّموا على فعلتهم، فيقوم أرسوس بدفنه في الحديقة، أو حمله ليلا و إلقائه في النهر. فكم شاهد القيصر في تجوالاته الليلية جثثاً ملفوظة على ضفة النهر، دون أن يطلب من أحد التحقيق في الأمر. إلى جانب ذلك، في رأي فينيكوس، أن المسيحيين لم يكن بإمكانهم أن يقتلوا شيلون و حسب، بل كان ينبغي عليهم أن يقتلوه. فالقسوة لم تكن بالشيء الغريب تماما في العالم الذي عاش فيه الشاب. ففي أثينا أشادوا المذابح، و ظلوا لوقت طويل يرفضون إقامة نزالات المصارعة حتى الموت. و في روما أيضا كان يصادف أن يحصل المهزومون على الرحمة. مثال على ذلك ما حصل لملك بريطانيا كاليكراتوس الذي وقع أسيرا لدى كلاوديوس وقام الأخير بإكرامه و تركه يمارس حياته حرا في المدينة. لكن الثأر الشخصي حسب فينيكوس، و الاخرين كان أمرا حسنا و مشروعا. و إهماله لا يتفق و توجهات تفكيره. صحيح أنه قد سمع في الأستريانوم أن محبة العدو واجبة، لكنها من وجهة نظره، فكرة نظريّة لا أهمية لها في واقع الحياة. و خطر في باله، للتو، أنهم لم يقوموا بقتل شيلون، لمناسبة دينية تصادف في هذه الآونة يحرم فيها على المسيحيين القتل. سمع أن هنالك أقواما تحرم الحرب في مواسم محددة. لكن لِمَ لمْ يسلّموا الإغريقي إلى العدالة، و لماذا قال له الحواريّ أنه لو ارتكب الخطيئة سبع مرات لسامحناك سبع مرات، و لماذا قال كلاوسوس لشيلون: سامحك الرب كما سامحتك أنا، رغم إقدامه على تقصد الاذيّة لهم. و حتى أرسوس قد صفح عنه. الجواب واحد على كل هذه الأسئلة: في قلوبهم قدر من الطيبة لا يمتلكها أي إنسان آخر في هذا العالم. محبة لا محدودة للبشريّة تحدوهم أن يديروا ظهورهم لما يواجهونه من مصير مشؤوم، و تجعلهم يتمتعون بأثرة يتناسون فيها أنفسهم و سعادتهم، و يوقفوا كل حياتهم من أجل الاخرين. أما ماذا ينتظرون من جزاء على تفانيهم هذا، فقد عرفه فينوس في خطبة الحواريّ في الأستريانوم، لكنه لم يستوعبه، و في مقابل ذلك شعر أن الحياة بائسة لا معنى لها فوق هذه الأرض، إذا ما كانت وقفا من أجل الاخرين. و شعر لطبعه الروماني أنهم حِمْلان وديعون في هذا العالم، ولا بد أن يأتي يوم يلتهمهم فيه الذئاب. و في نهاية المطاف رجع إلى رشده، و فاجأه مدى البِشْر والحبور فوق الوجوه من فرط السعادة فور انصراف شيلون. تقدم الحواريّ من كلاوسوس، و وضع يده على رأسه و قال:

ـ كان المسيح في نُصْرتك!

ورفع الطبيب بصره فشعت عيناه ببهجة نادرة لا تقرأ الا مبعثها الايمان. و بدت ليفيا فرحة لشعورها أن نظام العالم قد استتب الآن. و دخل أرسوس ليحدث الاخرين كيف رافق شيلون إلى الشارع و كيف طلب منه أن يسامحه على ما سببه له من آلام في ذراعه، فاستحق مباركة الحواريّ. بينما أعلن كريسبوس أن هذا اليوم هو يوم النصر بامتياز أما فينيكوس، بإصغائه إلى ما يجري أمامه من مشاعر الآنتصار، فقد أضاع شريط أفكاره تماما.

ولكن حين قدمت له ليفيا الشراب من جديد احتفظ بيدها لحظة وسألها:

ـ و أنتِ هل سامحتني؟

ـ نحن مسيحيون، ولا يجوز أن نضمر البغيضة في قلوبنا.

ـ ليفيا! أيا كان ربك، يستحق مني قرابين الاحترام، فقط لأنه ربك أنت.

ـ سوف تكن له هذا الاحترام في باطن قلبك، إذا ما أحببته.
ـ فقط لأنه ربك أنت أعاد فينيكوس الكرة هامسا. و أطبق عينيه بعد أن وهنتا.
خرجت ليفيا. وسرعان ما عادت، و انحنت فوقه لتتأكد أنه نائم. شعر فينيكوس بقربها ففتح عينيه و ابتسم، فيما وضعت ليفيا يدها على عينيه بحنان، كأنها تريد أن ترغمه على النوم. فغمرته السعادة من جراء ذلك، رغم أنه أحس أن مرضه شديد. و هذا هو واقع حاله. كان الليل قد حل تماما و جلب معه الحمّى الشديدة. فلم يستطع النوم. و راح يتابع ليفيا أنى تحركت. و كان يسهو بين الحين و الاخر، و لكنه يسمع ويرى كل ما يجري حوله، و لو كان على نحو مشوش و غير جلي من شدة الحرارة. و رأي في هذيانه كنيسة على شكل برج في مقبرة مهجورة، و ليفيا هي القس الذي يديرها. لم يمَل بعينيه عنها، و رآها على قمة البرج. كانت أشبه بالراهبات الشرقيات اللواتي، كل مساء، ينشدن الآناشيد لتمجيد القمر، و رأى نفسه صاعدة إليها على سلم البرج الحلزوني لاختطافها، يتبعه شيلون صارخا به: " سيدي لا تفعل، لأن التي تسعى للإتيان بها ناقمةً عليك". و حين بلغ القمة وجد إلى جانب ليفيا الحواريّ الأشيب اللحية يخاطبه قائلا: " لا ترفع يدك عليها لأنّها لي"ثم انطلق بالفتاة على ضوء القمر نحو السماء، فيما راح فينيكوس يتضرع إليهما ليضُمّاه إليهما.
ثم استيقظ و قد عاد إلى رشده شاخصاً أمامه. كانت جمرات المدفأة قد وهنت، لكنها جادت بنور كاف. و كان الجميع يتحلّقون حولها يتدفؤون. كانت الغرفة باردة، و شاهد فينيكوس أبخرة أنفاسهم و هي تتصاعد من أفواههم. كان الحواريّ يتوسط الجميع وليفيا بقربه على مقعد خفيض، ثم كلاوسوس فكريسبوس فمريام و أخيراً أرسوس. و على مقعد آخر نازاريوس و ابن مريام، و فتى آخر وسيم الطلعة تنسدل على كتفيه جدائل شعره السوداء الطويلة.
كان وجه ليفيا باتجاه الحواريّ، كما الآخرون، تصغي إليه، و هو يقول شيئا ما بهدوء. حذق إليها فينيكوس بخشية متوجسة، لا تقّل عما يعانيه من حُمّى. ولمع في ذهنه أن ما رآه و هو في حالته الهذيانيّة كان حقيقيا، و أن أحدا ما قد جاء من وراء الضفاف النائية ليأخذ ليفيا من بين يديه، ويمضي بها إلى دروب مجهولة. كان واثقا أيضا أن الحواريّ يتحدث في أمر يخُصّه، و يتقدم بتوجيهاته ليفصل بينه و بينها، إذ من غير المعقول أن يتحدث عن أمور أخرى، و هكذا فقد استجمع كل وعيه و قواه ليلتقط ما يقول بطرس.
لكن كان مخطئا جدا. لأن الحواريّ كان يتحدث عن المسيح مرة أخرى. فكر فينيكوس:
ـ إنهم يحيون في هذا الاسم فقط.
أما الحواريّ فكان يروي قصة القبض على المسيح:
ـ جاءت مجموعة من الجند برفقة خدم الكهنة، ليقبضوا عليه. حين سألهم المخلّص عمن تبحثون أجابوا: "عن عيسى الناصريّ". لكن حين قال لهم"أنا هو". ذهلوا أمامه و لم يجرؤوا أن يرفعوا أيديهم عليه، و لم يقبضوا عليه الا بعد أن سالوه للمرة الثانية. هنا توقف الحواريّ عن الكلام، ثم مد يده نحو النار و تابع يقول:
كانت ليلة باردة كهذه الليلة الآن، لكن قلبي صار يغلي، فامتشقت سيفي للدفاع عنه، و جدعت أذن خادم كبير الكهنة. كان بوسعي أن أستمر في دفاعي و أذود عنه، لكنه ناداني قائلا: "أرجع سيفك إلى غمده، فالكأس التي أعطانيها أبي كيف لا أشربها؟"ثم أمسكوا به و قيّدوه.
هنا صمت الحواريّ دافنا رأسه بيديه محاولاً الحد من تدفق ذاكرته قبل متابعة حديثه. لكن أرسوس و قد فرغ صبره، قام يتدبر أمر الموقد بمحراك معدني جعل النار تنثر شررها الذهبي، و تزداد اضطراما. ثم عاد و جلس في مكانه. و صاح:
ـ ليت شيئاً آخر قد حصل، يا ويلاه!

لكن سرعان ما كف عن الكلام، بعد أن أغلقت ليفيا فمه بأصابعها، فصار يلهث لَهاثاً مسموعاً يشير إلى غضب داخلي عنيف، و كأنّه يقول للحواريّ لو أنه كان هناك لأبلى على نحو مختلف. و لما حصل ما حصل. لكنه لم يستطع حبس دموعه.
و بعد قليل أبعد الحواريّ يديه عن وجهه، و تابع الحديث. لكن فينيكوس كان قد غرق مجدداً في حلمه الهذيانيّ. رأى نفسه على ضفة البحيرة التي وقف عليها المسيح. و وجد نفسه في قارب تلطمه الأمواج، و يحاول كثيرون أن يلحقوا به سباحة في الماء، كان بعض منهم يرفع يديه طلبا للنجدة. خاف فينيكوس حين لاحظ أن القارب من الصعب أن يتسع لكل هؤلاء، و إذا ما صعدوا اليه، لا بد أن ينقلب بهم و يغرقوا جميعاً. لكن ليفيا طمأنته مشيرةً إلى بقعة من الضياء ناحية الضفة الأخرى. نظر حيث أشارت فوجد بطرس يقود سفينة الآنقاذ التي كانت تقترب منهم شيئا فشيئا، فيزداد الضياء شدةً. كانت الأمواج قد بدأت تخمد حتى تلاشت تماما، و تهاوى القارب فوق سطح الماء حتى بلغ الشاطئ الرمليّ بأمان. هنا مدت ليفيا يدها و نادته: "تعال معي". و قادته نحو هالة الضياء.
أفاق فينيكوس ثانية. لكنه لم يستعد وعيه على الفور. لأن صور الحلم كانت تتلاشى بطيئة. و شعر لوهلة أنه ما يزال على ضفة البحيرة، يحيط به جمع غفير. و حين راح يبحث بينهم عن بترونيوس، استغرب عدم وجوده هناك. كان الجميع قد انفضوا من حول المدفأة التي شعت نارها ضوءاً شديدًا في الغرفة. و حين استعاد وعيه تماما، لمح ليفيا جالسة قرب سريره.
انتعشت روحه لمرآها. تذكر أن الفتاة قد أمضت ليلتها الفائتة في الأستريانوم، و رغم ذلك لم تفارقه طوال اليوم لتسهر على العناية به، و هاهي الآن، و قد انفض الجميع ليرتاحوا، تقبعِ وحيدةً إلى جانبه. كان التعب باديا عليها، و عيناها مغمضتان. لم يدر فينيكوس إن كانت نائمةً أم مستغرقةً في أفكارها. أمعنَ النّظر في وجهها و جفنيها المغمضين، و يديها المعقودَتين على صدرها. و راودت رأسه الوثني الفكرة التالية:
إلى جانب ذلك الجمال الإغريقي و الروماني الفائق، ثمة في هذا العالم جمال فتّان آخر بالغ النقاء لكنه مشبع بالروح.
لم يصل به الأمر أن ينعته بالجمال المسيحي، لكن إذا ما فكر بليفيا لم يستطع أن يفصلها عن التعاليم التي تؤمن بها. حتى أنه كان مدركا أن ليفيا، بعد كل ماسبب لها من أذية، قد بقيت إلى جانبه بدافع من دينها الذي يأمرها بذلك. و بقدر ما أذهلته هذه الفكرة و جعلته ينظر بإعجاب إلى هذا المعتقد، إلا أنها أزعجته. كان يتمنى على ليفيا أن يكون دافعها حبها له لجاذبية طلعته، و عينيه، و جمال جسمه، أي للسّبب ذاته الذي جعل أذرع النساء الإغريقيات و الرومانيات البيضاء تلتف لاحتضانه.
لكن سرعان ما خطر له أن ليفيا لو كانت تشبه تلك النساء، لما أثارت إعجابه. ما الذي أثاره إذن؟ ما الذي أثار فيه هذا الجديد من الأحاسيس و المشاعر الغريبة كل الغرابة عن الحياة التي عاشها حتى الآن.
في أثناء ذلك فتحت ليفيا عينيها، و حين رأت أنه ينظر اليها، تقدمت نحوه و قالت:
ـ أنا إلى جانبك.
بينما كان جوابه:
ـ رأيتُ طيفك في منامي.

في اليوم التالي أفاق مضعضعاً واهن الجسد، لكن ذهنه كان نقيا متماسكا بعد أن فارقته الحمّى. شعر أن وشوشة ما توقظه، لكن حين فتح عينيه لم يجد ليفيا إلى جانبه. لمح أرسوس وحيداً يجلس قرب المدفأة، يبحث في رمادها عن جمرات. و حين عثر على واحدة، راح يوقدها بنفخات لا تشبه الآنفاس، بل كور الحدادة. خطر له أن هذا الرجل قضى أمس على كروتون فقال في نفسه:

ـ حمدا لِمركوريوس أنه لم يدقّ عنقي. لو كان كل الليفيويين مثله. لأوقعوا فيالق الدانوب في مصاعب لا تحمد عقباها.

وصاح بصوت مسموع:

ـ هيه، أيها العبد!

سحب أرسوس رأسه عن الموقد، ابتسم و أجاب على نحو ودود:

ـ عافاك الله، يا سيدي. يوما طيباً! أرجو أن تكون في عافيّة، لكني إنسان حر، و لست عبداً.

كان يوّد فينيكوس أن يكلم أرسوس و يستفسر منه عن بلد ليفيا، لذلك فقد وقع ما سمعه من أرسوس موقعا طيّبا في نفسه، فالتحدث مع شخص حر، و إن كان بسيطاً من العامة، لا يقلل من مكانته الرومانية، ولا يتعرض لصيته الذائع، كما لو كان يحادث عبدًا لا يعترف بإنسانيته قانون أو عرف.

سأله:

ـ ألسْت من أتباع عائلة اولوش؟

ـ لا ياسيدي. أنا أخدم كالينا كما كنت أخدم أمها، لكن بدافع ذاتي مني.

قال هذا، و دسّ وجهه ثانية في الموقد، ينفخ جماره بعد أن كان وضع فوقها بعضا من الاخشاب، لكنه سرعان ما أخرجه ليقول:

ـ عندنا لا وجود للعبيد.

لكن فينيكوس سأله:

ـ أين ليفيا؟

ـ لقد خرجت. أنا سأحضّر لك الفطور، ياسيدي. لقد بقيت إلى جانبك طوال الليلة الفائتة.

ـ لمَ لمْ تقف بدلا منها.

ـ هي من أراد ذلك، و ما عليّ الا الطاعة. هنا تجهمت عيناه. و أضاف بعد قليل:

ـ لو أنني لا أطيعها، لما كنت، يا سيدي، على قيد الحياة.

ـ و هل يوسفك أنك لم تقتلني.

ـ لا يا سيدي، المسيح لا يريدنا أن نقتل.

ـ و كروتون؟

ـ ما كان ممكنا على نحو آخر.

غمغم أرسوس، و هو ينظر إلى يده التي حافظت على ميزتها الهمجيّة، و لو كانت روحه قد اعتنقت الصليب.

و قرفص يحدّق في المدفأة مستغرقا في التفكير إلى حين، ثم قال:

ـ أنت السبب يا سيدي. لماذا رفعت يدك على ابنة الملك؟

استيقظت كبرياء فينيكوس للوهلة الأولى. كيف لفلاح و بربري أن يجرؤ و يكلمه بكل هذه الثقة، لا بل و يسائله كذلك. كظم غيظه، و ابتلع الاهانة الموجهة اليه، لأن رغبته كانت تكمن في معرفة تفاصيل معينة عن حياة ليفيا.

ما إن استعاد هدوءه، حتى بدأ يسال أرسوس عن حرب الليفوبيين ضد فانيوس و السوفوسيين. كان أرسوس يجيبه بسعادة لكن دون أن ينبئه بأي جديد عن هذه الحرب التي أفاض أولوس بلاوتيوس في الحديث عنها. لم يسهم أرسوس في الحرب، لأنه أوكِل باصطحاب النساء الرهينات إلى معسكر أتيلوس هيستر. و كل ما عرفه أن الليفوبيين في نهاية المطاف قد سحقوا السوفوسيين و الياسيغيين، لكن قائدهم و ملكهم قد سقطا بسهم يازغي. وسرعان ما جاءهم النبأ أن السمنونيين قد أشعلوا أطراف الغابات، فكان منهم أن عادوا حالا لينتقموا لما لحِق بهم من أذى، فبقي الرهائن لدى أتيلوس هيستر، الذي أكرم الملوك، و عاملهم باحترام لائق. و فيما بعد توفيت أم ليفيا. لم يدْر القائد الروماني ماذا يفعل بالطّفلة. أراد أرسوس أن يعود بها إلى بلدها، لكن طريق العودة كان خطرا بسبب الحيوانات المفترسة، و القبائل المتوحشة. و حين جاء نبأ أن لدى بومبونيوس ممثلي سفارة ليفوبيين يمكن أن تقدم المساعدة، أرسلهم أتيلوس اليه. و حين وصلوا تبيّن عدم صحة النبأ. و هكذا ظلوا في المعسكر، حتى اصطحبهم بومبونيوس إلى روما و هناك سلّم الطفلة لبومبونيا غراتسينا.

بقيت بعض التفاصيل الصغيرة التي لم يسمعها فينيكوس في هذه المحادثة، ولكنه كان بالغ السعادة من كلام أرسوس، الذي أكّد، كشاهد مقرب، أن ليفيا تتحدر من سلالة ملكية. وعلى هذا الأساس فقد عوملت في بلاط القيصر كابنة ملك شأنها شأن كل فتيات العائلات الراقية، خاصة و أن الشعب الذي نصب والدها ملكا عليه لم يشن حربا على الرومان، رغم أنه شعب بربري يمكن أن يشكل على روما خطرا كبيراً، لأن أعداد مقاتليه كبيرة، لا تحصى.

ولقد قوى أرسوس هذا الرأي، فعندما سأله فينيكوس عن الليفوبيين أجاب:

ـ نحن نعيش في الغابات في أراض شاسعة لا حد لها، يقطنها أعداد كبيرة من البشر. لدينا قلاع مبينة من الخشب تحتوي على ثروات هائلة، لأن كل ما يغنمه السمنونيون و الماركو منيون في حروبهم، نقوم نحن بالسطو عليه أما هم فلا يفكرون يوما بغزونا، وتقتصر أفعالهم على حرق الغابات. نحن لا نخشاهم ولا نخشى قيصر روما.

أجاب فينيكوس بفجاجة:

ـ لقد جعلت الالهة من الرومان أسياد الأرض.

فرد أرسوس ببساطة:

ـ الآلهة أرواح شريرة. و حيث لا وجود للرومان، لا وجود لسلطة رومانية.

سوى وضع النار، و هو يقول لنفسه:

ـ حين القيصر استحضر كالينا إلى بلاطه، و ظننت أنه سيلحق بها أذية، أردت أن أقصد الغابات لأحضر الليفوبيين لنجدة الفتاة الملكية. كان الليفويون سيستجيبون، و يندفعون باتجاه الدانوب، فهم شعب طيب، لكنه بدائي. كنت سأخبرهم، على الأقل،"بالنبأ المبارك"لم يسمعوا بأمر المسيح لأنه وُلد في منطقة بعيدة، هو يعرف أكثر مني، أين مكانها في العالم. لكن لو صادف و كان عندنا في الغابة، لما سمحنا بموته الأليم، و كنا أنشأنا الطفل أجمل تنشئة، فلا يشعر بيننا بالعوز، لأن كل ما سنغنمه من السوفوسيين و الكومانيين سيكون من نصيبه ليحظى بالراحة و رغد العيش.

في أثناء حديثه هذا، كان قد وضع القِدْر المليء بحساء النبيذ المعدّ لفطور فينيكوس، فوق الموقد، ثم سكت. و ظلت أفكاره، بالطبع، تطوف في الغابات الليفوية، حتى جاش الحساء فوق النار، فسكبه في صحن واسع، و حين ابترد على نحو مناسب، خاطب فينيكوس قائلا:

ـ ينصحك كلاوسوس، يا سيدي، أن تخفف من حركة حتى يدك السليمة، و أمرتنى كالينا بأن أطعمك بنفسي. ليفيا أمرت بذلك! لا رد على ذلك. لم يخطر له أن يقاوم إرادة ليفيا، و كأنها أصبحت ابنة القيصر،

أو إحدى الآلهات. فلم ينبس بكلمة. في حين جلس أرسوسي إلى جانب سريره، و بعناية فائقة، و ابتسامة سمحة تجلت في عينيه الزرقاوين، قرب أرسوس صحن الحساء من فم فينيكوس الذي لم تصدّق عيناه ما تَريانه. وللمرة الأولى في حياته راح يفكر فيما يمكن أن يدور في خلد مثل هذا الفلاح البسيط، الخادم البربري.
ما إن بدأ أرسوس بإطعام الشاب حتى بان وجه ليفيا الرقيق من وراء الستارة. و بادرت بالقول:
- سأساعدك.
وسرعان ما حضرت قادمة برداء نومها الذي يغطي صدرها بالكامل، و كان شعرها مرخيا. اشتد خفقان قلب فينيكوس لمرآها، و أبدى نوعا من العتب لأنها لم تهجع بعد إلى النوم، لكن الفتاة أجابته ضاحكة:
- كنت أستعد للنوم، لكن جئت أساعد أرسوس.
وراحت تطعمه. أحرج الشاب ذلك، لكنه كان في غاية السعادة. حين انحنت الفتاة فوقه، أحس بالدفء المتدفق من جسدها، وكان شعرها قد انسدل على صدره، وفي غمرة ارتباكه والرغبة التي انتشرت في كيانه، شعر أيضا: هي ذي تلك الفتاة الأغلى في الكون والمعبودة فوق الجميع، فيما سبق كان يشتهيها ولا شيء آخر، لكنه بات الآن يحبها من كل جوارحه. كانت الآنانية العمياء هي ما تستحوذ على مشاعره، لكن الآن بدأ يوجه عنايته نحو ليفيا.
أوضح بعد قليل أنه غير راغب بالمزيد من الحساء. وبعد أن حظي بمتعة لا تفوقها متعة في حضور ليفيا إلى جانبه، وتأمله إياها، خاطبها قائلا:
- كفى. اخلدي إلى النوم، يا ليفياي الربانيّة.
فأجابت الفتاة:
-لا تَدْعُني هكذا. ليس جائزاً أن اسمع هذا.
لكنها ابتسمت، ثم قالت إن النعاس قد فارق جفنيها، وإنها لا تشعر بالتعب، وهي لن تعود إلى النوم حتى يرجع كلاوسوس. كان فينيكوس يصغي إلى جرس كلامها الموسيقي، بقلب خفاق، وامتنان لم يَدْر كيف سيفصح عنه، فقال بعد لحظات:
- ليفيا. لم أكن أعرفك قبل الآن. لكني أدركت الآن أنني أردت الحصول عليك بطريقة خاطئة. لذلك أقول لك الآن: اذهبي إلى بومبونيا، وكوني على ثقة أن أحدا لن يمسك بأذى.
انقبض وجه الفتاة:
- سأكون سعيدة، إذا ما تمكنت من رؤيتها من بعيد، لكن ليس بوسعي الآن أن أعود اليها.
فسألها فينيكوس مستغربا:
- لماذا؟
- نحن المسيحيين، نعرف عن طريق أكتي ما يحصل في البالاتينوس. ما زلت لا أدري إن كان القيصر قد استدعى اولوس و بومبونيا إلى قصره لاعتقاده بأنهما ضالعان في قصة هروبي، وهل هددّهما بسبب ذلك؟ ومن حسن الحظ أن أولوس كان بمقدوره أن يقول له: "تعلم يا سيدي أنني لا أكذب، وأقسم أنني لم أساعدها على الهروب" ولا تدري ماذا حصل بعد ذلك. هل صدقه القيصر؟ ونسي الحادثة. تصور أنني لا أكتب لأمي عن مكان وجودي، لكي تظل صادقة في قسمها حين يطلب منها معرفة أين أقيم. لعلك تتفهم مسالة هي أننا لا نكذب حتى لو تعلق الأمر بحياتنا. هذا هو ديننا، ونريد أن نخضع قلوبنا لتنسجم معه. لم أر بومبونيا منذ أن غادرت منزلها. أما هي فقد أبلغها جار بعيد أنني مازلت حيّة، وفي أمان.
باغتها حنين شديد، فامتلأت عيناها بالدموع لكنها سرعان ما هدأت لتقول:
- أعلم أن بومبونيا مشتاقة إلي كثيرة، لكننا نملك من العزاء والمواساة ما ليس لدى الآخرين.

فأجاب فينيكوس:
ـ أجل عزاؤكم هو المسيح، لكنني لا أستطيع أن أفهم هذا الأمر.
ـ انظر الينا على أن لا ألم لدينا ولا معاناة. وحتى لو وجدا فسيستحيلان إلى سعادة. أما الموت الذي تعتبرونه نهاية للحياة، فهو بداية الحياة بالنسبة لنا. سعادة من درجة أدنى، استحالت إلى درجة أعلى. سعادة مشوبة بقليل من الطمأنينة استحالت إلى سعادة كلها طمأنينة، إلى سعادة أبدية. تمعن في هذا الدين الذي يتطلب منا أن نسامح حتى أعداءنا، ويحرم الكذب، وينقي نفوسنا من الغضب، ويعدنا، بعد الممات، بسعادة لا حدود لها.
ـ سمعت كل هذا في الأستريانوم، ورأيت كيف عاملتم شيلون. حين أفكر بذلك، أظن أنني في حلم، ولا أجرؤ أن أصدق أذني وعيني. لكن الآن أجيبي عن سؤال آخر:
ـ هل أنت سعيدة؟
أجابت ليفيا قائلة:
ـ سعيدة! أنا أؤمن بالمسيح، إذن لا يمكن أن أكون تعيسة، وبائسة.
رمقها فينيكوس و كان ما تقوله قد تخطى كل حد للمفاهيم الآنسانية.
ـالا ترغبين في العودة إلى بومبونيا؟
ـ أحبها من كل قلبي، وأعود اليها إذا شاء الله أن أعود.
ـ إذن افعلي ذلك، وأقسم لك بالهتي أنني لن أرفع يدي عليك. فكرت ليفيا قليلا ثم قالت:
ـ لا. لن أسبب المخاطر لأحبائي. القيصر لا يحب عائلة بلاوتيوس. وإذا ماعدت... سينتشر النبأ في روما عن طريق الأرقّاء، وتضج به المدينة، حتى يصل إلى نيرون. وسوف يقوم باتهام عائلة أولوس، وسيعمد على الأقل إلى إبعادي عنها من جديد.
أطبق فينيكوس جفنيه موافقا:
ـ حقا قد يحصل ذلك. قد يعمد إلى إبعادك ليفرض مشيئته. صحيح أنه قد نسي أمرك، وربما لم يشأ أن يعير الموضوع أهمية، لأنه لم ينعكس عليه، بل علي أنا. لكن قد يبعدك عن العائلة ويأتي بك الي. وعندها سأعيدك إلى بمبونيا.
فسالته ليفيا بحزن:
ـ فينيكوس، هل ترغب في رؤيتي مجدداً في البلاتينوس؟
ضغط الشاب على أسنانه، وأجاب:
ـ لا. الحق معك. حماقة! لا!
وبغته، كأنما شاهد هوة سحيقة تتشق أمامه. كان بترونيوس فينيكوسي قائدا عسكريا وإنسانا عظيما ذا سطوة، لكن فوق كل ما يتمتع به من عظمة كان ثمة شخص آخر يفوقه عظمة وجنونا بحيث لا يمكن استشفاف إرادته وسوء نواياه مسبقا. المسيحيون وحدهم من كان بمقدورهم الاّ يخافوه، والاّ يحسبوا له حسابا، لأن الألم والمعاناة، وحتى الموت، أمور لا تعني لهم شيئا. الجميع ما عداهم كانوا يرتعدون منه. صاحب سطوه و نفوذ لا حدود لهما. ونظرا لأن فينيكوس يدرك ذلك تماما فما كان بوسعه أن يعيد ليفيا إلى أهلها، لكي لا ينصب جام غضب المجنون عليها، وعلى أولوس و بومبونيا وحتى عليه أيضا. وكذلك قد لا يستطيع أن يتزوج الفتاة للسبب نفسه. الآن شعر فينيكوسي للمرة الأولى أنه ينبغي على العالم إما أن ينبعث من جديد، ويتغير، وإما أن لا معنى لهذه الحياة بتاتا، بعد أن أدرك أيضا أنه في هذه الاونة حيث كل شيء زائف ومغلف بالخداع والريبة، لا أحد يعرف طعم السعادة سوى المسيحيين. وتضاعف ألمه حين أحس أنه أفسد حياته وحياة ليفيا، و لم يعد ثمة من مخرج أمامه، فنطق تحت تأثير تألمه:

ـأتدرين أنك أكثر سعادة مني؟ أنت في فقرك، وفي هذه الغرفة بين الناس البسطاء، كان لك دينك، ولك مسيحك، أما أن فلا أحد لي سواك، وحين أضعتك كنت كالمتسول الذي لا مأوى له ولا لقمة. أنت كنزي الأغلى. بحثت عنك لأني لا أقوى على الحياة بدونك. امتنعت عن المآدب، والنوم. ولولا أملي بأني سأجدك لطعنت نفسي. أخشى الموت فخافة الاّ أراك، صدقيني إذا ما قلت لك أنني لا أحتمّل الحياة بدونك. والأمل بلقائك ثانية هو ماصان روحي من العطب والتمزق. أتذكرين ما جرى بيننا من أحاديث في منزل أولوس؟ رسمتِ لي سمكة في الرمال، و لم أدرك ما معنى ذلك. أتذكرين كيف تقاذفنا الكرة؟ حينها كنت قد أحببتك أكثر من حياتي، وقد خالجك الظن بأنني أحبك: جاء أولوس، وأخافنا بليبتنا، وقطع علينا الحديث. قالت بومبونيا لبترونيوس في أثناء الوداع أن الله قدير ، ورحيم لكنّنا لم ندرك أن الهكم المسيح. سأحبه إذا ما أعطانيك. اليس هو اله العبيد، والغرباء، والبؤساء. تجلسين الآن بقربي ولا تفكرين الا به. فكري بي أيضا، فإن لم تفعلي سأكرهه. بالنسبة لي أنت الألوهة الوحيدة. طوبي لأمك وأبيك، طوبي للأرض التي أنجبتك. أود لو أعانق قدميك، وأصلي متعبدا واهبا نفسي لك. أود لو أنحني أمامك متضرعا: يا ليفياي الالهيّة. أتدرين كم أحبك...

ومرّر راحته يمسح جبينه الشاحب، وأطبق عينيه. لا يقبل الروادع، ولا يقف عندها، لا في الغضب، ولا في الحب. تكلم باندفاع كأنما لا يستطيع السيطرة على نفسه، فلا يحسب حسابا لما يقوله، ولا لما يبديه من مشاعر. لكن ما يتفوه به كان صادقا نابعا من أعماق روحه. واضح أن قلبه كان طافحا.مزيج من اللألم والذهول، والرغبة، والتعب، فانفجر الآن فيضا منداحا من الكلام. ليفيا رأت في كلامه إهانة، لكن قلبها خفق بشدة حتى ضغط على صدرها تحت الرداء، لم تستطع التغلب على ما انتابها من شفقة تجاه الشاب ودمعاته. لقد حركت مشاعرها هذه الطريقة المحترمة التي تحدث بها الشاب. أحست بحبه لها حتى درجة العبادة، وشعرت أن هذا الشخص الخطير، الشديد البأس بات خاتماً بأصبعها، وصار لها بكليّته روحاً وجسداً، وأنّ سعادةً ملموسةً قد بدأت تشوب ما يتمتع به من سلطان، وما يعتريه من و ضاعة. تبخرت ذكرياتها للحظة، ورجع فينيكوس ليكون في نظرها من جديد، ذلك الشاب الرائع الجميل الأشبه بإله وثني، الذي حدّثها عن الحب في بيت عائلة أولوس، وأيقظ قلبها الطفولي من نومه، وما تزال تشعر بقبلته مطبوعة فوق شفتيها، والذي خلصها أرسوس يوم مأدبة القصر، من أحضانه كأنما ينتشلها من الحريق. لقد رأته الآن، بما يبدو عليه من تألم ولهفة، وبجبينه الشاحب، وعينيه المتضرعتين، وبجروحه، وكسوره، وبإحساسه بالآنكسار العاطفيّ، وتواضعه وقبوله الإيمان، كما تود وترغب أن تراه، ولقد أحبته من مجامح قلبها، وهو الآن أغلى عليها من أي وقت مضى.

وأحسّت فجأة أنه يمكن أن تجيء اللحظة التي ستعصف بها، وتجعلها تحب ذلك الشاب، فانتابها شعور، كان قد حصل لفينيكوس قبلها، أنها تقف على حافة هاوية. ولكن الهذا غادرت منزل أولوس؟ أهذه هي المنجاة التي بحثت عنها في هروبها؟ ثم من هو فينيكوس؟ جندي أوغوستياني لدي نيرون، وأحد رجالات البلاط الذين يشاركون في حفلاته اللاّ أخلاقية، وأكبر دليل على ذلك ما حصل معها في المأدبة الأخيرة، ويوم المعابد مع الأخرين ليقدم القرابين لألهة موصومة بالعار، قد لا يؤمن بها ولكنه يقدم لها الاحترام. لعله تبع الفتاة ليتخذ منها عبدة، وعشيقة، ويغرقها في عالم قذر من الترف، والخطيئة، والعار، في تحد سافر للسماء. صحيح أنه يبدو الآن قد تغير، لكنه قال بعظمة لسانه إذا ما أحببت المسيح أكثر منه، فسوف يمقت حتى المسيح. هنا شعرت ليفيا أن مجرد تفكيرها في حب خارج حبها للمسيح يعد خطيئة في حق المسيح وتلامذته. وحين رأت أن قلبها يمكن أن تخالجه مشاعر ورغبات أخرى، استبد بها الجزع.

في هذه اللحظة من التمزق الداخلي جاء كلاوسوس ليعاين المريض ويعتني بضمادة. ارتسمت على وجه فينيكوس علامات غير خفية من الغضب وفراغ الصبر. بات عصبيا لمقاطعة حديثه مع ليفيا، وراح يجيب

على أسئلة كلاوسوس بازدراء. وسرعان ما استجمع قواه ليحاكم الأمور فإذا ما كانت ليفيا تبني على بعض كلمات سمعها في الأستريانوم، وتظن أن تؤثر في طبيعة الشاب المطواعة، فسوف يحسم أمره الآن، ويتعد عن هذا المعتقد الخاطئ. لقد تغير فيما يخصها فقط. وما عدا هذا الشعور تجاهها فقد بقي هو صاحب القلب الذئبي الروماني الآناني الفج غير المستعد لتقبل التعاليم المسيحية الوديعة، ولا حتى للشكر.

أخيراً انصرفتْ ليفيا من جانبه يعتصرها التفكير والقلق. منذ مدة وجيزة كانت تصلي، ومنح للمسيح قلبها المطمئن النقي كالبلَّوْر. لكن الاطمئنان استحال إلى قلق. لقد عاشت الدودة السامة فساداً في نسغ الزهرة، وهي تنخر الآن فيها، حتى النوم لم يمنحها الراحة، رغم أنها لم تعرفه لليلتين متتاليتين. حلمت أنهم كانوا في الأستريانوم فجاءهم نيرون على رأس نساء باخوسيات وجند ومجالدين، يقتحم بعربته جماهير المسيحيين، ثم تقدم منها قينيكوس وأخذها من ذراعها وأدخلها عربته ووشوشها ضاغطا على صدرها: "تعالي معنا".

منذ ذلك الوقت كان حضورها في الغرفة نادراً، وإذا ما حضرت كان يندر أن تقترب من سرير فينيكوس. رأته وهو يتابع حركاتها بنظراته المتوسّلة آملا أن تنطق بأية كلمة رحيمة تحد من معاناته، دون أن يجرؤ على الشكوى مخافة إجفالها وإعراضها عنه، وهي منبع سعادته، وبلسم جراحه الوحيد. سرعان ما اكتشفت أنها كلما تقرّبت منه أكثر ستتفاقم شفقتُها عليه، وانتابتها مشاعر أكثر رقة تجاه الشاب. جافتها السكينة. أحيانا كانت تواسي نفسها بأن عليها ان تبقى دائما إلى جانبه. أولا لأن الوصية الالهية تأمرها أن تقابل السيّئة بالحسنة. وثانيا لأن الحديث المباشر معه قد يشد الشاب إلى هذه الوصايا. لكن وجدانها أجابها في الحال: هذا كله خداع الآن ما يشدّها إلى فينيكوس ليس سوى سِحْر الشاب وحبّه. وهكذا ظلت الفتاة تعيش في حيرة وتمزق تفاقما يوما بعد يوم، حتى اعتادت على حالتها هذه. فكان عليها أن تعترف لنفسها أنه كلما مر يوم اشتّد شوقها إلى رؤيته، وسماع صوته، وباتت تبذل كثيرا من الجهد حتى تبارح مكانها قرب سريره. حين كانت تدنو فيه، ويتوهج وجهُ الشاب احمرارا كانت السعادة تغمرها. وذات يوم دمعت عيناه، وكم ودت لو تُجفف دموعه بقبلاتها. لكنها ارتعدت للفكرة، وشعرت أنها تحتقر نفسها، فظلّت تبكي طوال الليل.

أما الشاب فكان صبورا، وكأنّه قد أقسم على ألاّ يفقد قدرته على الصبر. وإذا ما لمعت عيناه ذات مرة، تعبيراً عن فراغ صبره، كان يحدث ذلك رغماً عنه، أو نتيجة لغضب تملكه. لكن سرعان ما كان يكبحه، ويرمق الفتاة بنظرة وديعة هادئة، كأنّما يريد أن يعتذر منها. وكان ذلك عامل جذب إضافي نحوه. لم تشعر يوما أنّها محبوبة كل هذا القدر. وحين كانت تفكر في ذلك كانت تشعر بالذنب، والسعادة معاً. واقع الحال أن فينيكوس قد تغيّر. كان يبدو ذلك في محادثاته مع كلاوسوس التي قل فيها التباهي والتبجح. غالبا ما دار في ذهنه أن هذا الطبيب العبد المسكين، الغريب، و ميريام العجوز التي اهتمت بعلاجه، و كريسبوس الذي رآه يستغرق في الصلاة، في نهاية المطاف، هم جميعا بشر. ومع مرور الوقت نظر إلى أرسوس بعين الحب، وصار يحدثه دون انقطاع طوال اليوم لأن حديثهما كان يدور حول ليفيا، وكانت جعبة العملاق لا تخلو من الحوادث، فضلاً عن ذلك أن أرسوس كان يقدم خدماته مهما صغرت أو كبُرت دون اي تذمر. حتى أنه بدأ يتعلق به. لكن ليفيا كانت في نظر الشاب نوعاً مختلفاً تماماً، وأرفع مرتبةً بكثير من هؤلاء المحيطين به كلهم. ومن الآن فصاعداً بدأ يرى فقراء الناس والبسطاء منهم بعين أكثر جدية، كما لم يفعل من ذي قبل. واكتشف فيهم صفات جديرةً بالانتباه، لم يخطر له أنها يمكن أن توجد أساساً.

وحده نازاريوس لم يكن مطاقاً بالنسبة له، لأنه ظنّ أن هذا الشاب قد بلغ حداً من الوقاحة والجُرأة جعلاه يقع في حبّ ليفيا. كظم غيظه طويلاً قبل أن يعبر عما يعتلج في نفسه، ولكن حين أقدم الشاب وأهدى ليفيا شيئا طار صواب فينيكوس واستيقظت فيه بذرة العصبيّة التي تنظر إلى الشعب الغريب الذي ينتمي اليه الشاب بعَين الخسة، ولا تراه الا دودة من أتفه أنواع الدود. وبسماعه ليفيا تشكره على هديّته، شحب تماما، وما إن خرج الشاب ليحضر الماء حتى بادرها بالقول:

ـ كيف تحتملين ياليفيا أن يُحضر لك الهدايا؟ الا تعلمين أن اليونانيين ينعتون أبناء هذا الشعب بالكلاب اليهودية؟

ـ لا أدري ماذا ينعته اليونانيون، لكني أعرف أن نازاريوس مسيحي، وهو أخ لي.

أجابت ليفيا ورمَقَتْه بنظرة استغراب وملامة، تريد بها أن تقول أنها باتت تترفع عن مثل هذه الاعتبارات. فيما ضغط فينيكوس على أسنانه بدلا من أن يكون في ميسوره إصدار الأوامر بجلد هذا النوع من الاخوة حتى الموت، أو إرسالهم إلى إحدى قراه في سيسيليا للعمل في الحقول. كبح غيظه و لم يتفوه بكلمة الاّ بعد حين ليقول:

-عفواً ليفيا! لكنك في نظري ابنة الملك، والابنة المتبناه لدى عائلة أولوس.
كان قد استجمع قوّة كافية مكنّته، فور ظهور نازاريوس ثانية في الغرفة، أن يعده، لمجرّد عودته إلى الفيلا، بتقديم طاووسين من مجموعة الطيور التي تعُجّ بها حديقته. أدركت ليفيا أن مايبديه فينيكوس من إنكار للذات، وما يقدمه من تنازلات، إنما يصب في مصلحتها، ويعزّز من شعورها بالفوز، لكنه يزيدها تقرّبا منه، ويجعل قلبها أشد تعلقا به. والحقيقة كان مايوليه فينيكوس من اهتمام بأمر نازاريوس أقل بكثير مما قد تتصوره ليفيا. إذ كيف يمكن أن يكون ابن مريام غريماً وهو في نظره لا يتعدّى كونه مجرد جرو صغير، وفي أفضل الأحوال مجرد ولد صغير، إذا ما أحب ليفيا فحبه لها حب غير واعٍ، ويندرج تحت عنوان تعلق خادم بسيّدته.
كان يمكن أن ينفجر في وجهه، ويقحم نفسه في معركة كبرى، وإن ضمنيا، لكنه كف عن ذلك واضعاً في الحسبان، باسم المسيح، احترام من هو بينهم. راودته أفكار غريبة شتّى. أليس هذا نابعاً من تعاليم تؤمنُ بها ليفيا؟ فهو إذن على استعداد لتقبّلها. وكلّما مرّ الوقت وتعافت صحته صار يسترجع شريط الوقائع ويستجلي مجمل الافكار التي استجدت في ذهنه، منذ ليلة الأستريانوم. راح يتأمل في القوة الفائقة لهذه التعاليم، ومدى قدرتها على النفاذ بعمقٍ في الروح الآنسانية، وإعادة تشكيلها. أدرك أنها تتضمن شيئا استثنائيا لم يكن قائما في العالم من ذي قبل، وشعر أنه فيما لو قدر لهذا المعتقد أن ينتشر في أنحاء المعمورة، بما يحمله من محبة وسماحة، فسينفتح الباب أمام عصر، لا يسود فيه جوبتر. انتصبت أمام فينيكوسي مسألة لا يجد لها حلاً. لقد رأى أن هذا الدّين على درجة عالية من التناقض مع النظام السائد للأشياءِ، ومن المستحيل تحقيقه على أرض الواقع، وكل ما جاء به خبل بخبل، ويختلف عنه أي دين آخر. وفي رأيه أنه قد يكون البشر في روما أو في سائر الكون، بشراً سيّئين، لكن نظام العالم صالح. وعلى سبيل المثال، لو كان القيصر رجلاً شريفاً، ولم يكن السيناتور منحطا أخلاقيا، وكان المجتمع مجتمعا إنسانيا يعيش فيه بشر حقيقيون مثل تراسي مثلاً، فماذا يمكن أن يطلب أكثر من ذلك؟ فما تنعم به روما من أمن، يجعل الامبراطورية الرومانية أمرا حسنا، وفئات الناس فيها مقسّمة على نحو سليم وعادلٍ. على النقيض من ذلك، في رأي فينيكوس، يأتي هذا الدين ليحطّم كل نظام، ويقضي على كل مكانةٍ أعلى، ويمحو كل فرق. ما الذي سيلحق إذن بنفوذ روما وحكومتها؟ هل يمكن أن يتخلى الرومانيون عن سلطتهم، ويعتبرون الشعوب المغلوبة على قدم المساواة معهم؟ لم يستوعب ذهنه كل هذا. إلى جانب ذلك، وفيما يخصه هو، يأتي هذا الدين على عكس كل تصوراته ونظراتِه وعاداتِه. لم يكن في ميسوره أن يتصور كيف ستغدو حياته إذا ما تقبل هذا الدين. خشيه، نظر اليه بإعجاب، لكنه طبيعته بكل بساطة ترفضه. في نهاية المطاف أدرك أن لا شيء يفصله عن ليفيا سوى هذا الدين. وإذا ما فكر بذلك، شعر نحوه ببغض شديد.
لكنه أيقن أن هذا الدين هو الذي منح ليفيا كل هذا الجمال الاستثنائي، الّذي وَلَّد في قلبه إضافة إلى الحب، احتراما، وخارج الشهوة خشوعاً، وتوج ليفيا، في عينيه، على عرش العالم. في مثل هذه الحالة كان يدفعه مزاجه ليحب المسيح من جديد. كان يشعر أنه إما أن يحبه، أو أن يكرَهه، ولا إمكانية لموقف حيادي فيه. في هذه الأثناء وكما لو كانت تتجاذبه موجتان متعاكستان، كان متأرْجِحاً في أفكاره، متأرجحاً في أحاسيسِه، فاقد قدرته على الاختيار، لكنه استجمع قوةً ذهنية، وحسم أمره وقرر أن يحترم هذا الإله، ولو لم يستطع أن يستوعبه. أن يحترمه فقط لأنه كان إله ليفيا.
أما ليفيا فقد رأت بجلاء ما يدور في ذهن الشاب، وكيف ترفض طبيعته هذا الدين. وإن كان ذلك يحزنها حتى درجة الموت، فإن شعورها بالشّفقة، والمواساة، والامتنان كان يفعل فعله في قلب الفتاة، ليغدو ميَّالا بقوة لا تقهر نحو الشاب لما يبديه من احترام ضِمني تجاه المسيح. تذكر بومبونيا و أولوس. بالنسبة لبومبونيا كان وجعها الأبدي، و منبع دموعها الثر الذي لا يجف، فكرة أنها لن تلقى أولوس بعد مماته

ودفنه. لم تدرك ليفيا جيدا إلا الآن، هذه المرارة، وهذا الأم. هي التي عثرت على من أحبتها ورعتها، وباتت مهددة بالآنفصال عنها إلى الابد. أحيانا كانت تُمنّي نفسها بأن فينيكوس سيفتح قلبه أمام حقيقة المسيح. لكن شعورها هذا لم يكن ليدوم طويلا. لقد صارت تعرفه وتفهمه جيدا. فينيكوس و مسيحي. مستحيل. لم تستوعب ذلك. فإن كان حتى أولوس الرّزين التفكير، لم يصبح كذلك بتأثير من بومبونيا الحاذقة والناضجة، كيف لفينيكوس أن يغدو مسيحياً؟ لا إجابة على ذلك. بل ثمة جواب وحيد لا غير: لا أمل هنالك لكن ولا مهرب كذلك.
لكن ما كان يذهل ليفيا أن كل ما أقدم عليه الشاب لالحاق الأذى بها، صار لا يعنيها، وباتت الشفقة هي دافعها الأساسي للتعلق به. أحيانا كانت الرّغبة تدفعها لتبوح له بصدق عن مستقبلها القاتم، وحين ذات مرة جلست إلى جانبه قالت له لا حياة خارج الدّين المسيحي فعدل الشاب من اضطجاعه على مرفقه السليم، ومائلاً برأسه نحو حضن الفتاة وقال: "أنت الحياة". شهقت ليفيا وطار صوابها، وارتعشت أوصالها طربا لسماع ذلك. أمسكت رأس الشاب بكلتا يديهما وحاولت رفعها، واضطرت أن تنحني و تقترب منه أكثر حتى لامست شفتاها شعر الشاب، فشعر اللحظة بنشوة الحب الذي لا ينفك يمارس معها لعبة الوصال والفصال.
وأخيرا نهضت ليفيا هاربةً، بعد أن شعرت بدوار في الرأس، وبنارٍ تسري في أوصالها. لكن ذلك كان القطرة التي طفحت بها الكأس. لم يكن فينيكوس يقدر كم ستكلفه هذه اللحظة السعيدة، من ثمن باهظ، وأحست ليفيا أنها في حاجة إلى عون. أمضت الليلة التالية ساهرةً مصليةً باكيةً، لكنها شعرت أنها غير جديرة بالصلاة، وصلاتها غير مستجابةٍ. وفي الصباح الباكرِ خرجت من غرفة النوم واستدعت كريسبوس إلى الحديقةِ. وباحت له بكل دواخلها. وسألته أن يسمح لها مغادرةَ منزل مريام لأنها باتت لا تثق بنفسها، ولا تقوى على مقاومةِ حبّ فينيكوس في قلبها. كان كريسبوس عجوزاً صار ما يعيش حماسا دينيا لا هوادة فيه. فاستحسن عزم ليفيا مغادرة منزل مريام، لكنه لا يعثر على كلمات يفصح بها للفتاة عن هذا الحب الآثم حسب تعبيره.
انقبض قلبه، وأحزنته الفكرة: ليفيا هذه وهي التي عهد على رعايتها، هي التي أحبّها وغرس في صدرها قوة الإيمان، والتي نظر اليها كوردة أزهرت فوق تربة المعتقد المسيحي، وفاحت عطراً لم يلوث بأية نفحةٍ أرضيةٍ، هي ذي الآن تفتح صدرها لحبّ آخر غير الحبّ السماويّ ليجد مكانا له في قلبها. قبل الآن لم يكن ليظن أن ثمة قلبا في العالم أكثر نقاء وإخلاصا في تمجيد المسيح من قلبها. لقد رغبت أن تمنحه إياه كحبة لؤلؤ،، أو حلية، أو تحفة ثمينة من صنع يديها. والآن يا للخيبةِ، لقد أصيب بالذهول وطفح قلبه بالمرارة حقاً.
- اذهبي وتضرّعي إلى الله أن يصفح عن خطاياك قال بكدر. اهربي قبل أن تتمكن الروح الخبيثة التي أوقعتك بشباكها من تدميرك تماماً، وجعلك تجدين بالمخلص. لأجلك مات الربّ على خشبة الصليب، ولأجل خلاص روحلك نذر دمه، لكنك مقابل ذلك فضلت حبيبك الذي أراد أن يجعلك ضَجيعتهُ. لقد أنقذك الله بأعجوبة من بين يديه، لكنك فتحت قلبك وسيعاً أمام الرغبة القذرة، وأحببت ابن القتامة والظلام. من عساه يكون؟ إنه صديقُ عدوّ المسيح وخادمه، و شريكه في الشعر والمروق، والانحلال. أين سيأخذك إن لم يكن إلى تلك الهوة السديميّة حيث يعيش، والتي سيحرقها الرب بنار غضبه؟ أما أنا فأقول: لو أنك متّ، وتهدمت جدران البيت على رأسك، ولا تسللت تلك الأفعى إلى صدرك، ونفثت فيه سمَّ رذيلتها.
ثم هدأ شيئا فشيئا، لأن الإثم الذي ارتكبته ليفيا لم يملأه غيظا وغضبا فحسب، بل شحنه بكل الوان القرفِ والاحتقارِ، ليصبّ كل ذلك دفعة واحدة في مواجهة الطبيعة الانسانية، و الانثوية منها على وجه الخصوص. لا فائدة مرجوة. حتى التعاليم المسيحية لم تحفظ هذه المرأة من كونها حواء لقد شعرت ليفيا

أنها مذنبة، لكن ليس لدرجة الأثم. لا بل أكثر من ذلك فقد اعتقدت أنها بمغادرتها المنزل سوف تتغلب على ما يؤرقها، وتخفف من ذنبها، وأن العجوز كريسبوس، الذي اعتبرته بعد هروبها مقام أبيها، سوف يكون رحيما ويشجعها ويشد من أزرها، ويفعمها بالروح.
قال:
ـ أسلم خيبتي وألَمي إلى الله، أما أنتِ فقد خذلت المخلّص، لأنك لوّثت روحك بوقوع في الخطيئة. كان بوسعك أن تهبي نفسك، كوعاء ثمين، للمسيح قائلة: "املأه يا سيدي بالرحمة"؛ لكنك فضلت أن تقدمي نفسك خادماً للروح الشريرة. سامحك الله وشفع لك: أما أنا، و إلى أن تطردي الأفعى من داخلك، أنت بنظري جاحدة. لكنه قطع كلامه، وقد لاحظ أنهما ليسا وحيدين. برز رجلان من بين الفروع أحدهما الحواريّ بطرس، أما الآخر فلم يتميز في الحال، لأن قبعة ردائه كانت تخفي جانبا من وجهه. للوهلة الأولى ظن كريسبوس. أنه شيلون.
وبسماعهما صوت كريسبوس المرتفع ابتعدا قليلا، وجلسا فوق مقعد حجري. ولما كشف الاخر عن وجهه النحيل، ورأسه الأصلع، وشعره المجعّد الذي يغطي فوديه، وعينيه الحمراوين، وأنفه المعقوف، عرف كريسبوس أنها ملامح بولس الترسوسي.
جثت ليفيا على ركبتها، وارتمت على قدمي بطرس لا تدري ماذا تفعل.
بادر بطرس إلى القول:
ـ السلام لأرواحكم.
وحين رأي الطفلة بين قدميه سألها ما الأمر؟ فأجابه كريسبوس شارحاً له ما باحت به ليفيا، عن حبّها الآثم، وأنها تريد مغادرة بيت ميريام. وأوضح له مقدار الألم الذي الحقته به، لأن روحها قد تخلّت عن المسيح، وتبعت رجلا لطخ نفسه.مشاعر أرضية، وارتكب كل انواع الشرور التي يفرق فيها العالم الهمجي، فاستحق غضب السماء. كلما أسهب كريسبوس في كلامه، تمسكت ليفيا على نحو أشد بقدمي الحواريّ كأنما تبحث فيهما عن منجاتها. أو على الاقل تلتمس لديها شيئا من الرحمة.
وبعد أن استمع الحواري إلى كل ما قاله كريسبوس، مسح بيده على رأس الفتاة، ثم التفت إلى القس العجوز وقال:
ـالم تسمع يا كريسبوس أن معلمنا الحبيب قد بارك حب الرجل والمرأة.
اكتفى كريسبوس بالنظر إلى محدّثه، دون أن ينبس بكلمة. فيما استأنف الحواريّ يقول بعد صمت قصير:
ـ هل تزعم يا كريسبوس أن المسيح الذي سمح لمريم المجدلية أن تركع عند قدميه، وصفح عن المرأة الخاطئة، سوف يتخلى عن هذه الطفلة الآنقى من نرجسةِ الحقول.
انتحبت ليفيا وزادت من شدة التصاقها بقدمي بطرس، وقد أيقنت من جدوى لجوئها اليه. فيما رفع الحواريّ وجه الفتاة الغارق بالدموع وخاطبها قائلا:
ـ إلى أن يتكشف نور الحقيقة أمام عيني حبيبك، ظلّي معه، شرط ألا يوقعك في الخطيئة، لكن صلي من أجله، واعلمي أن لا إثم في الحب أبدا أبدا. وأن جزاءك مأمول ما دمت ترغبين في مقاومة الأرواح الشريرة. لا تحزني، ولا تبكي، لأنني واثق أن رحمة المخلّص لن تفارقك، وأن صلواتك مستجابة، وأن الاتراح ستتفرج عن أيام البهجة والأفراح.
بهذا وضع كلتا راحتيه على رأس الفتاة، وباركها رافعا عينيه نحو السماء، وقد شعت من وجهه طيبة تتجاوز الأرض فيما حاول كريسبوس وقد شعر بالآنكسار أن ينقِذ نفسه قائلا:
ـ ظننت أنها بسماحها للحب الأرضي بارتياد قلبها قد خالفت المسيح...
لكن رد الحواريّ كان على هذا النحو:

ـ أنا خالفته ثلاث مرات، ورغم ذلك صفح لي، لا بل أوكل إلي العناية بحملانه.
فقال كريسبوس: ـ وهناك سبب آخر... هو أن فينيكوس أوغستيني.
فأجاب بطرس:
ـ لقد روض المسيح أشد الأفئدة قساوة. هنا جاء دور بولس الترسوسي الذي لزم الصمت إلى الآن. أشار بأصابعه إلى صدره وقال:
ـ أنا الذي طاردت العبيد أتباع المسيح، وجلدتهم حتى الموت. وكنت ثقة السيد، فأوكل إلي نشر عدالته في أنحاء الأرض. ولقد نشرتها: في يوديا، وبلاد الإغريق، وفي الجزر، وحتى في هذه المدينة الملحدة حين عشت فيها أسيرا. والآن حين دعاني بطرس وهو قدوة لي، لأدخل هذا البيت وأحني هذا الرأس الفخور بين قدمي المسيح، وأغرس البذرة في هذه التربة الحجرية التي يحولها السيد إلى تربة خصبة تعج بالثمار. ثم نهض واقفاً. أما كريسبوس في هذه اللحظة فقد رأى هذا الانسان المحدود الضئيل الجسد كما هو في حقيقة الأمر، ذلك العملاق الذي يحرك العالم ويخضع شعوباً وبلداناً.

من بترونيوس إلى فينيكوس.

رفقاً بي لا تقلّد في رسائلك الاسبارطيين، ولا يوليوس قيصر. وعلى الأقل إن كان بمقدورك أن تكتب ما كتبه هو: "أتيت، رأيت، فزت" فسوف يتسنى لي أن أفهم مثل هذه العبارة المختصرة. لكن رسالتك لا تعني في النتيجة الا "أتيت، رأيت، هربت". وبما أن ذلك يتعارض من طبيعتك، وما أنك جريح، وهذا يعني أن أموراً خطيرةً قد حدثت لك، فإن رسالتك في حاجة ماسةٍ إلى مزيد من التوضيح. لم أصدّق عيني حين قرأت أن ذلك الليغوي قد قضى على كروتون.مثل تلك البساطة. وهذا يعني أنه يساوي وزنه ذهبا. وأن يكون من رجالات القيصر المفضلين، ذلك بات أمرا يعود إلى مجرد رغبته هو في ذلك. لمجرد عودتي إلى المدينة سأتعرف اليه عن كثب، وسأسبك له تمثالا من البرونز. وسوف يندهش صاحب اللحية الحمراء إذا ما قلت له أن التمثال طبق الاصل عنه. في إيطاليا، واليونان نادرة هي الأجسام الرياضية الحقة. وكذلك في الشرق. أما الجرمانيون فيتميزون بكتلهم الضخمة، لا بقوتهم العضلية. اسال الليغوي إذا ما كان هو استثناء، أم يكثر أمثاله في بلاده، فقد يخطر لنا ذات يوم أن ننظم مباريات نحتاج فيها إلى أنسب الرجال أجساما.

لكن حمدا لكل الالهة الشرقيين و الغربيين، أنك قد نجوت روحا وجسدا من بين تلك الأيادي. وسبب نجاتك عائد إلى كونك من الأعيان، ومن عائلة بترونيوس: كل ما حدث معك أذهلني، بدءا من وجودك في المقبرة مع المسيحيين، ثم طريقة معاملتهم لك، وهروب ليفيا، وأخيرا الحزن و القلق المبثوثين في رسالتك. أوضح لي أكثر، لأن هنالك أمورا كثيرة لم أفهمها. وإن كنت تريد أن أكون صادقاً فأنا لا أفهم المسيحيين، ولا أفهمك أنت ولا أفهم ليفيا. ولا تستغرب منّي انا الذي لا أكترث خارج نفسي إلا ما ندر في هذا العالم أني كثير الفضول الآن. لقد أثارني كل ما حصل، وهو إذن بدرجة ما يعنيني. اكتب سريعاً، لأنني لا أدري متى سنلتقي على وجه الدقة. صاحب اللحية الحمراء الآن في بنفنتوم، وهو راغب أن يتوجه من هناك قاصدا بلاد اليونان، وليس العودة إلى روما. رغم أن تيفالينوس يشير اليه بالعودة، لأن الشعب بات في شوق شديد اليه اقرأ: جريا وراء العاب السيرك والخبز، كما بات قادراً على البدء بأعمال الشغب. لا أدري ما الذي سيحصل. قد نذهب إلى مصر. يخطر لي أن أحثّك على القدوم إلينا لترفه عن نفسك، لكني أخشى أن لا تلحق وتجدنا هنا. لكن في جميع الأحوال اليس الأفضل لك أن تقصد أملاكك في سيسيليا بدلاً من بقائك الآن في روما. اكتب عن أحوالك بالتفصيل. كانت السماء معك. أتمنى لك صحة جيّدة ولا شيء آخر لأنّي، وقسما بولوكس لا أدري ماذا يسعني أن أتمني لك.

قرأ فينيكوس الرسالة، ولم يكن في نيّته الرد بادئ الأمر. شعر بعدم جدوى ذلك، إذ لا فائدة لأحد من رده عليها، مادام الرد لن يوضح شيئا، ولن يحل أمراً. كان عكر المزاج، وشعر أن الحياة بائسة بأكملها. وأحس أن بترونيوس لا يفهمه بأي شكل من الأشكال، وأن شيئا ما قد حصل وفرقَهما عن بعض. حتى أنه لم يستطيع اسْتِجماع نفسه. وسُرعان ما أحس أنه يعيش في دائرة مفرغة، وأن كل ما أعطى لحياته معنى من المعاني كان شيئا خرافيا لا وجود له. كأنما قطعت في روحه تلك الاوتار الّتي شدته إلى الحياة، ولم تعوض بأخرى. فكرة سفره إلى بنغنتوم ولدت في نفسه لذة جيدة في الحياة، لكنها أيقظت فيه خواءً عاماً."لماذا؟ ما الفائدة المرجوّة من كل ذلك"؟ أسئلة لمعت في ذهنه لأول مرة. ولأول مرة كذلك فكر أن حديثه مع بترونيوس قد يرهقه كثيرا، لما يتمتع به الأخير من دقة وعجرفة في البحث عن العبارات. لكن الوحدة بدأت ترهقه كذلك، بعد أن صار كل معارفه برفقة القيصر في بنغنتوم، الأمر الذي أرغمه على البقاء وحيداً، يعج رأسه بالأفكار، وقلبه بشتّى أنواع الأحاسيس التي لا يفهمها. ولكن مرت لحظات كان يشعر فيها أنه لو تحدث مع أحد ما.ما يعتمل في نفسه لكان توصّل إلى فهم لهواجسه، والتعرف بما يصطرع في

داخله على نحو أفضل. تفاؤل دفعه بعد أيام من الجدل الذاتي أن يتخذ قراراً بالكتابة إلى بترونيوس. ورغم كونه لم يكن واثقاً أنه سوف يرسلها، الا انه قام بكتابتها على هذا النحو:
"أراك راغباً في أن أسهب لك بالكتابة. لا بأس إذن: لكن لا أدري إن كان بمقدوري أن أكون مفهوماً، لأن أموراً كثيرةً أنا نفسي لا أفهمها. كنت قد كتبت لك أنّني كنت بين المسيحيين، وكيف عاملوني وعاملوا شيلون. وكيف عالجوني واعتنوا بي بقلوبهم الطيّبة. وكتبتُ لك عن اختفاء ليفيا. لا يا عزيزي، لم يخصوني برعايتهم لأنني من الأعيان. هم لا يقيمون اعتبارا لمثل ذلك. خاصة وأنهم قد صفحوا عن شيلون أيضا، رغم أنه كان بمقدورهم أن يدفنوه في الحديقة. إنهم بشر لم يسبق أن وُجد أمثالهم في العالم. وكذلك دينهم لم يسمع به العالم من قبل. ليس بوسعي أن أقول لك شيئا آخر. فإذا كان أحد ما يريد أن يحكم عليهم مقاييسنا سوف يخطئ هدفه. سأقول لك شيئاً: لو أنّي عالجت ذراعي المكسورَة في منزلي بين أفراد عائلتي لكنت شعرت براحة أكبر، لكني لما كنت تلقيت تلك العناية الفائقة التي أولوني إياها وأنا بينهم. واعلم أيضاً أن ليفيا كالاخرين. لو كانت أختي أو زوجتي لما قدمتا لي كل هذا الحنان. غالبا ما يفيض قلبي بالسعادة حين أفكر أن كل هذا الحنان ناجم عن حالة الحب. وغالبا ما قرأت ذلك في وجهها وسيمائها، وحينئذ تتضاعف سعادتي عن أي وقت آخر، وأنا في هذه الغرفة الفقيرة التي تحتوي على المطبخ أيضاً. لا. لا لم أكن حيادياً بالنسبة لها، واليوم كذلك أشعر أن من المستحيل أن أفكر على نحو آخر. ورغم ذلك فإن ليفيا نفسها غادرت منزل ميريام ولا أدري عنها شيئا. والآن أجلس أياماً بطولها دافناً رأسي بين راحتي، أفكر لم أقدمت على فعلِها هذا؟ لعلي كتبت لك أنني عرضت عليها أن أعيدها إلى عائلة أولوس، ولكنها أجابت بأن ذلك مستحيل، خاصة وأن العائلة سافرت إلى سيسيليا، إضافة إلى سبب آخر ، هو أن نبأ عودتي سينتشر من بيت إلى آخر على السنَة الأرقاء، حتى يصل إلى البالاتينوس، وقد يقدم القيصر على استدعائها من جديد من منزل أولوس. هذا صحيح. لم تكن لتقبل ذلك، ولذلك كانت ستبقى في منزلي بناء على رغبتي. لكنها هربت. لماذا هربت؟ رغم أن لا شيء كان يهددها؟ لو لم تكن تحبّني لرفضتني. تعرَّفت على شخص غريب يدعى بولس الترسوسي، حدثني عن المسيح وتعاليمه، وشعرت أن كلماته تهز كل أساس في عالمنا، وتقوم بتفتيته. الشخص زارني بعد اختفاء ليفيا وقال لي: " إذا من الله عليك، وفتح عينيك للنور، وأزال عنها الغشاوة كما فعل معي فستشعر فيما بعد أن ليفيا سلكت سلوكاً حسناً وقد تلتقيها ثانية". ومنذ ذلك الحين وأنا أفكر بمغزى هذه الكلمات، وكأني أسمعها من عرافة أبولو التي لا تجيب قاصديها الا بردود غبشة، غائمة. أشعر أحيانا أنني بتّ أفهم شيئا ما. إنهم يحبون البشر، وبالتالي فهم أعداء لحياتنا، والهتنا، ولشرورِنا. إذن فهي قد هربت منّي لأني أنتمي إلى هذا العالم، ولأنها كانت ستشاطرني حياة يعتبرها المسيحييون آثمة. أنت ستقول لي كان بوُسعها أن ترفضني دون أن تضطَر للهروب. لكن لعلها تحبني. وقد هربت من حبها.
لهذا السبب الوحيد يخطر لي أن أنشر أرقّائي في كل شبر من روما، وينادون"تعالي يا ليفيا".لكني بتّ لا أفهم لماذا هربت، خاصة وأنّي لم أمنعها من حريّة اعتقادها بالمسيح, فما الأذية التي يمكن أن تلحق بي من إله جديد، ولم لا أؤمن به أنا الّذي بِتُّ لا أؤمن بالالهة القديمة؟ أدرك جيدا أن المسيحيين لا يكذبون، ويؤمنون بقيامة المسيح. ليس بوسع إنسان أن يفعل ذلك. بولس الترسوسي، وهو مواطن روماني، لكنه يهودي لديه كتب عبرية قديمة، يقول: إنّ قدوم المسيح قد بشّرت به الآنبياء منذ الاف السنين. كل هذا يندرج في إطار الأمور الاستثنائية. الخارقة. لكن أليس هنالك يا ترى كثير من الأمور الخارقة تحيط بنا من كل جانب؟ معجزات أبولو مثلا. ما يقوله بولس من أنه لا وجود لحشد من الالهة، بل لاله واحد فقط، فكرة أجدها ذكية. أظن أن سينكاله رأي مشابه، وقبله كثيرون. لقد ظهر المسيح، وقام بصلب نفسه لكي يخلص العالم، ثم قام من موته. كل ذلك مؤكد، ولا أدري سبا لتشبثي بما يخالف ذلك من آراء. بت لا أجد

ضيرا في رفضي لبقية الالهة، التي بات لا يؤمن بها عقل راجح. لكني أعتقد أن المسيحيين لا يجدون ذلك كافيا. لا يكفي بالنسبة اليهم تبجيل المسيح، وإنما عليهم أن يعيشوا تبعاً لتعاليمه. أنت تدري كم أُحبُّ ليفيا، وأنني أفعل أي شيء من أجلِها. لست فيلسوفا، لكنّي لستُ بتلك الحماقة التي ظننتني بها أحيانا. لا أدري ما الّذي يفعله المسيحيون ليتمكنوا من ممارسة حياتهم، لكني أعرف بالمقابل أنه حيث يبدأ دينهم، تكون نهاية السيادة الرومانية، وروما، وفكرة الغالبين و المغلوبين، والأغنياء والفقراء، والفوارق بين الأسياد و أرقائهم. حيث يبدأ دينهم، تكون نهاية القيصر، والقانون وكافة أنظمة العالم، ليحل محلّها المسيح، وتعم الرحمة والخير كما لم يحصل من قبل. الحق أقول: إن ليفيا تعنيني أكثر ما تَعنيني سائر روما وسُلطانها، فلْيَفْنَ العالم مقابل أن أجدها هنا في منزلي. لكنّ هذه مسالة أخرى. لا يكفي المسيحيين أننا نتفق بالأقوال، يجب أن نشعر معا أن الأمور حسنة، وهم يشترطون أن قلوبنا لا يشغلها شاغل آخر. لكني الالهة تشهد علي لا أحتمل. أتَفْهم ما أعنيه! ثمة شيء في طبيعتي، يجفل من هذا الدّين، وإذا ما كان لساني يقوم بتمجيده، وصرت أنا متأقلماً مع أوامره، لكن عقلي وروحي يقولان أنني أفعل ذلك من أجل حبيبتي ليفيا، ولو لم تكن في حياتي سأجدني أبعد ما يكون عن ذلك الدّين. والغريب أن بولس الترسوسي يفهم ذلك، وكذلك بطرس رغم بساطته، وأصله المتواضع، و حتى ثيورغوس العجوز أكبرهم سنّا، الذي كان واحدا من تلامذة المسيح. كلهم يفهمون ذلك. أتدري ماذا يفعلون؟ يصلّون من أجلي راجين لي ما يسمونه الرحمة. ولكني لا أعرف الّا القلق وشدة الشوق إلى ليفيا. كتبتُ لك أنها غادرَت المنزل في الخفاء، لكنها تركت لي صليباً وجدته حين استيقظتُ قربَ سريري. وهو الآن معي. كم أحبُّ هذا الصليب لأنها نسجته بيديها، وكم أكرهُهُ الآن فرق بيننا. كثيراً ما أظُنُّ أن فيه سحراً وأن بطرس الذي يعتبر نفسه صياداً بسيطاً هو أعظم من أبولو، و أي أحد آخر قبله. وأنه فتن الجميع هنا، ليفيا، وبومبونيا، وفتني كذلك معهم.

تقول لي أن رسالتي مشبعةٌ بالقلق، والحزن. أما عن الحزن فمنبعه أنّني فقدتها ثانية. أما القلق فنابع من أن شيئا ما قد تغير في. الحقّ أقول أن لا شيء يتناقض مع طبيعتي أكثر من هذا الدّين، ومع ذلك، فإني منذ أن التقيتها لا أعرف نفسي. فِتْنة أم حبّ؟ سيرس يغير جسد المرء المجرد ملامسته، لكنهم غيروا لي روحي، و ليفيا هي التي فعلت ذلك بالدرجة الأولى، والأصح ليفيا و دينها. حين غادرتهم عائدا إلى منزلي لم يتوقع أحد رجوعي. ظنوا أنني في بنفنتوم، وأنّني لن أعود إلى المنزل بسرعة. كانت الفوضى تعم المنزل، وكان الأرقاء ثملين قد أقاموا مأدبة لأنفسهم. كانوا يفضلون انتظار الموت وليس عودتي، ولو كان الموت لا يخيفهم كما أخيفُهم. تَعلمْ مدى صرامتي في إدارة المنزل. فبادر الجميع إلى الركوع أمامي، ومنهم من تقيأ من شدة جزعه. أتعلم ماذا فعلت؟ للوهلة الأولى أردت أن يأتوني بالسوط، والحديد المحمي، لكني سرعان ما شعرت بالخجل. وصدّق أو لا تصدّق، لقد شفقت على بوسهم. بينهم أرقاء عجزة جلبهم جدّي في عهد أوغستوس من شاطئ راينا. خلوت بنفسي في المكتبة، حيث راودتني هناك أفكار شديدة الغرابة، مفادها و تبعاً لما سمعته، ورأيته بين المسيحيين، أن التعامل بقسوة مع الأرقاء فكرة غير مقبولة ولا يجدر بي أن أقوم بعقابهم. ظلّوا على أعصابهم ليومين ظنوا خلالهما أنني ترثيت في الأمر، لكي أوقع بهم أقسى العقوبات. لكن الحقيقة أنني لم أحتمل ذلك. في اليوم الثالث دعوت الجميع وقلت لهم: "لقد صَفحتُ عنكم، وأنتم فعلتم ما بوسعكم لتُخلصوا في خدمتي تكفيرا عن ذنوبكم". ركعَ الجميع، يبكون، باسطين الأيادي نحوي يدعونني"سيدنا، أبانا". أعترف لك بكل حياءٍ، أن مشاعري قد ازدادت ليونة، وحساسيةً. شعرت في هذا اللحظة أنني أرى وجه ليفيا السّمح، وقد امتلأت عيناها بالدموع تشكرني على فعلى هذا مناديةً"يا للروعة"! ودمعت عيناي. سأبوح لك بشيء آخر. لا أقوى على الحياة بدونها، وأنا تعيس في وحدتي، وأكثر حزناً مماتتصور. أما عن الأرقاء، بعد صفحي عنهم، فقد بات ما يشغلهم، إضافة إلى تسابقهم في القيام بالخدمات على أكملِ صورة، أن يكتشفوا ما في داخلي من أفكار. أذكر لك ذلك، لأنه في اليوم السابق

لِمغادرتي المسيحيين قال لي بولس: "المحبّة أقوى تعويذة ضد الخوف". أراها الآن فكرة صائبة في كثير من الحالات. ولقد تأكدت من ذلك حين جاءني أرقائي يطْمئنون علي بعد معرِفتهم بقدومي. حين وقعت عيناي على أولئك الجياع شعرت بالشفقة مرة أخرى. قدمت لهم الطّعام، وحادثتهم، وخاطبت بعضا منهم باسمِه، وسألت آخرين عن زوجاتهم وأطفالهم، ورأيتُ الدّموع في أعين الجميع، وشعرت من جديد أنّني أرى وجه ليفيا طافحاً بالسّعادة، يثني على فعلتي. لا أدري إن كان عقلي يتفتق، أم أن الحب هو الذي يخلط علي مشاعري. كل ما أعرفه أن ليفيا تراقبني عن بعد، فلا أقوى على فعل أي شيء أظنّ أنه يجرحها أو يوقع الحزن في نفسها. لقد تمكنوا من التأثير في روحي ويسعدني ذلك أحياناً، لكن أحياناً تؤرّقني فكرة أنهم قد سلبوا مني شجاعتي السابقة، وطاقتي القديمة، وبِتّ عاجزا ليس فقط عن تقبل المناقشة وإبداء الرأي، وحضور المآدب، بل عن المشاركة في الحرب كذلك ولقد غيروا في الكثير، سأقول لك ما خطر لي حين كنت مريضا هناك، لو كانت ليفيا مثل نيجيديا و بوبيا و كريسبنيلا، وغيرهن من النساء المطلّقات، ولو كانت بهذه القذارة، والسهولة اللّتين يتحلين بهما، لما كنت أحببتها كما أحبّها. لكن لوكنت أحبها للسبب نفسه الذي يفرقني عنها، فلك أن تتصور أي عماء يدهم روحي، وفي أي ظلمة أحيا، وكم ثمة من الدروب الواضحة التي لا أبصرها أمامي، وكيف أني لا أدرك ما الذي عليّ أن أقبض عليه. وإذا ما شبهنا الحياة بالنبع، فإن نبعي ينبثق منه القلق بدلاً من الماء. أعيش على أمل العثور عليها، وأن ذلك لا بدّ أن يحدث. لكن ما الّذي سيحصل لي بعد عام أو عامين، فلا أدري، ولا يمكن لي حتى أن أتصوره. لن أُغادر روما. لا أقوى على احتمال أصحابي الأوغستينيين. فكرة وحيدة تنأى بي عن قلقي وحزني، وهي أن ليفيا قريبةٌ منّي، وأنني قد أعرف شيئا عنها إن كان عن طريق الطّبيب كلاوسوس الذي وعد أن يزورني، أو عن طريق بولس الترسوسي. لا.لا. لن أغادر روما حتى لو وعدوني بحكم مصر. وأعلم أيضا أنني طلبت إلى النّحات أن ينحت شاهدة لقبر غولو بعد أن قمت بقتله بلحظة غضب. خطر لي لاحقا أنه كان يحملني بين ذراعيه، وأنه هو أول من علمني كيف أضع السهم في القوس. لا أدري لم استفاقت في ذكراه الآن. كان الذكرى ندم، أو تبكيت ضمير... إذا كنت مندهشاً فاعلم أنني أكثر اندهاشاً منك، لكني أكتب ما أكتبه صادقاً. كانت السماء معك.

لم يتلق فينكوس رداً على رسالتِه. لم يَكتب بترونيوس لأنّ القيصر قد يأمر في أية لحظة، بالعَودة إلى روما. انتشر هذا النبأ في أنحاء المدينة، وأيقظ في نفوس العامّة بهجة لا توصف، لكونهم باتوا في غاية الشوق لألعاب السيرك والمنازلات، وتوزيع القمح، والزيت المختزنين بكميات كبيرة في الصوامع والمستودعات. وأخيراً أعلن هليوس معتوق القيصر، في السيناتوس أن القيصر عائد إلى الوطن. لكنّ السفن التي تقل القيصر وحاشيته تباطأت في العودة، لأنهم عند نقطة ميستوم كانوا يتوقفون في المدن على طول الشاطئ الساحلي، إما لاتخاذ قسط من الراحة، أو ليؤُمّ القيصر المسارح هناك. ولقد أمضى عشرة أيام في مينتوريا يغني أمام الجمهور، حتى أنه كان يفكر بعدم المرور ثانية في نابولي ، كيلا يفوته موسم الربيع الحار، الذي حل هناك أبكر من المعتاد. في أثناء ذلك، وطوال تلك المدة، اعتزل فينيكوس بنفسه داخل منزله يفكر بليفيا تحت وطأة أفكار جديدة شتّى تراوده و تضغط على روحه، مولدةً في داخله لأول مرة أنواع من الأحاسيس والمفاهيم الغريبة. لم يكن يلتقي أحداً في بعض الأوقات سوى الطبيب كلاوسيوس، الذي كان يحقق له بحديثه عن ليفيا كلّما التقاه سعادةً لا تلبث أن تزول بانصرافه. لا يعرف كلاوسوس أين عثرت ليفيا على مخبأ لها، لكنه طمأن فينيكوس أنها في أحضان أشخاص مسيحيين يولونها الرّعاية الكافية. وذات مناسبة قال لفينيكوس متأثرا ما ينتابه من الحزن الشديد أن بطرس أنَّب كريسبوس لأنه عاتب ليفيا محتقراً حبّها الأرضي. تحمس فينيكوس بسماعِه هذه العبارات من شخص غريب، ومسيحي، وأراد في هذه اللحظة أن يهرع إلى بطرس يقدم له امتنانه، وحين علم أنه ليس في المدينة، وإنّما يقيم في أطرافها بنشر التعاليم، تولّ إلى كلاوسوس ليأخذه اليه، ووعده بأن يقدم العطايا الكثيرة للفقراء. وكان يظن أيضا، إذا ما كانت ليفيا تحبه، فلا عائق أمامهما، فمن جهته كان على استعداد في أية لحظة أن يتقدم باحترامه للمسيح. لكن كلاوسوس في سعيه وراء فينيكوس ليعتنق المسيحية، لم يجرؤ أن يعده بمكافأة حصوله، بعد ذلك مباشرة، على ليفيا. وأوضح له أن الرغبة في اعتناق المسيحية بغيتها محبة المسيح، والمسيحية ذاتها، ودون أي شيء آخر وقال: "من الضروري أن تكون روح الآنسان كذلك مسيحية". اغتاظ فينيكوس لكنّه هدأ بعد أن أدرك أنّ كلاوسوس يتكلّم كما ينبغي عليه أن يتكلم كمسيحي، وبعد أن أيقن أنّ تغيّرا ما قد طَرأ على طبيعته، حين كان يقيس كل أمر، ويحكم على أي إنسان من زاويةِ أنانيته الخاصة، وبات الآن يعوّد نفسه على فكرة أن عيناً أخرى قد ترى الأمور على نحو آخر، وأي قلب آخر، له أن ينبض.مشاعر أخرى، وأن الحقيقة ليست مطابقة دوما لمصلحته الذاتية. غالبا ما كان يشتاق لرؤية بولس الذي كان يثيره بأحاديثه معه، ويضعه في حالة من الفضول والقلق. كان يضع حججاً وذرائع مسبقة تجعله يدرأ تعاليم بولس. صحيح أنه كان على نقيض معه، إلا أنه أحبه ورغب في رؤيته وسماعه. لكن بولس سافر إلى أرسيا، ولما صارت زيارات كلاوسوس نادرة، بات فينيكوس وحيداً لا رفيق له، وصار يرتاد الأماكن العامة في سوبورا، ويجول في أزقة ترانستيبرس الضيقة، متمنيا النفس برؤية ليفيا ولو عن بعد على الأقل. لكن حين يئس من أمله هذا، غلب عليه السأم و نفاد الصبر. حتى حان الوقت أخيراً لترجع اليه طبيعته السابقة كما ترجع الموجه من جديد إلى البحر بعد بلوغها الشاطئ. شعر أن من الحماقة أن يوجع رأسه بلا طائل بأمور لا يناله منها الا الحزنَ والكآبةَ، فالأحرى به أن يمنح من نبع الحياة كل ما يستطيع اليه سبيلا. قرر أن يَنْسى ليفيا، أو على الأقل أن يبحث بعدها عن المتع والملذّات المؤهل أساسا لتتدفق عليه حينما يشاء. الشتاء يشدّ رِحاله، والمدينة التي عانت طويلاً من السُّبات، باتت تضج بأمل العودة السريعة للقيصر. كان يدنو، والصقيع على قمم جبال الألب بدأ يذوب تحت صفعات الرياح الإفريقية. ملأت الزهور الحدائق، وراحت حشود الناس تخرج إلى الفوروم، وتستلقي فوق المُروج، تحت أشعة الشمس المشتدة، وازدحمت الشوارع بالعربات المزيّنة. والمتنزهون بدؤوا نزهاتهم في الصعود إلى

الجبال الألبية. وبدأت الشابّات من النساء يغادرن منازلهن إما لغاية تقديم الاحترام لجونو في اللانوفيون أولديانا في أريسيا، أو بحثا خارج المدينة عن آمال، وأصحاب ومواعيد، ومتع. هنا في وسط هذه الأبّهة البديعة لمحَ فينيكوس ذات يوم عربة كريسوثميس بترونيوس، التي يعدو أمامها كلبا صيد مولوسي آن ويحيط بها حشد من السيناتورَات المسنين. كانت كريسوثميس نفسها هي الّتي تقود الخيول الأربعة الصغيرة التي تَجُرّ العربة، موزعةً ابتساماتها، وهزات رأسها الخفيفة في كل اتجاه، لكن حين لمحت فينيكوس أوقفت العربة وأجلست الشاب إلى جانبها مصطحبةً إياه إلى مأدبتها الّتي استمرت الليل بطوله. أكثر فينيكوس من الشّراب، حتى الثمالة، فلم يدر متى أوصلوه إلى البيت، لكنه تذكر، بالمقابل، أنه حين سألته كريسوثميس تتبع أخبار ليفيا، أغضبه سؤالها، فما كان منه، وهو في حالة من السّكر، الا أن سكب ابريق النبيذ على رأس المرأة. و الآن، وهو في حالة الصحو واتزان رأس، يستعيد ما جرى، ما زال يشعر بالغضب. لكن بعد مضي يوم على ذلك، وكان قد نسي ما حصل منها بالطبع، قامت كريسوثميس بزيارته في البيت، واصطحبته إلى فيا أبيا، ثم رجعت برفقته وتناولت طعام العشاء عنده،

وصارحته في أثناء ذلك أنها باتت منذ زمن تَقرف بترونيوس، وأنها الآن حرّة القلب. مرحا معاً مدّة أسبوع، لكن علاقتهما هذه لم تَعِد بالدوام. صحيح أن ذكر اسم ليفيا لم يرد بينهما منذ حادثة النّبيذ، الاّ أنه لم يستطيع نِسيانها. كان إحساسه دائما أن عيني ليفيا تلاحقانه وتوقعانه في شيء من الخوف. لم يستطِع التّملص من فكرة الحزن الذي سببُهُ لليفيا، ولا من الألم الذي ولّدته هذه الفكرة في نفسه. وبعد أولى حالات الغيرةِ الّتي أبْدتها كريسو ميس لأنه اشترى فتاتين سوريتين، بدأ يصد المرأة عنه، دون أن يتخلى حالاً عن استمتاعه معها، مبرِّرا سلوكه لنفسه بالانتقام من ليفيا. لكنّه اكتشف في النهاية أن ليفيا لا تفارقُ تفكيره، وأنّها المحرّك الأوحد لكل ما يقوم به خيراً كان أم شراً، وأنّ لا أحد غيرها محطّ اهتمامه. ثم ما لبث أن تغير المذاق في فمه، وأحسّ بالانهاك وقرفِ الملذّات الّتي لم تُخلّف إلا تبكيت الضمير لديه. استشعر عمق هوّة البُؤس التي سقَط فيها، وراح يتأمل كم اختلفت أحواله، عن ذي قبل، وكيف كان في السّابق يتذوق بلذّة كل ما وجده محبَّبا لديه. حتى فقدَ الآنَ طمأنينته، وثقته بنفسه، وعكف. إلى نفسه، حتى أن نبأ رجوع القيصر لم يهزّه. بات لا يكترث لأي أمرٍ، ولم يخرجِ للقاء بترونيوس حتى دعاه الأخير، وأرسل نقالته الخاصة من أجله. وفي حين استقبله بترونيوس بكل ودٍّ، لم يرد هو على أسئلته كما ينبغي. أما في النهاية، فقد انفجر بكل ما استجمع في نفسه سابقاً من أفكارٍ وأحاسيسِ مكبوتةٍ. و راح يتحدث في كل شيء. حكى مرةً أخرى بالتفصيل قصة البحث عن ليفيا، والوقت الذي أمضاه بين المسيحيين، وكل ما شاهدته عيناه، وما سمعته أذناه، وكل ما راود عقله وقلبه، حتى وصل أخيراً إلى تخوم الشّكوى، أيُّ تيه وتخبُّطٍ أفقداه أمانه، وعصفا بِاتزانِ عقله وجدارته في الحكم على الأمور. لا شيء يثيرَه، لا شيء يستسيغه، ولا يدري أي أرض صلبة يثبت عليها قدميه وكيف يتصرف. إنه مستعد لتقديم احترامه للمسيح، ولمطاردته في الوقت نفسه. يتفهم روعةَ تعاليمِه، ولكنْ في الآن ذاته يشمئز منها أيّما اشمئزاز. يشعر إذا ما كان يحب ليفيا، فلن تكون ملكه لوحده، الآن للمسيح حصة يشاطره فيها. حتى قال أخيرا إنه يحيا على نحو كأنه لا يحيا، وهو بلا أمل، ولا مستقبل، ولا إيمان بالسعادة، القتامة تغلف كل ما من شأنه أن ينير له درب النجاةِ المفقود. في أثناء حديثه، كان بترونيوس يراقب كم تغيرّت ملامح وجهه، وكيف يبسط يديه أمامه على نحو غريب، كأنما يتحسس طريقه في الظلمة، ثم لا يلبث أن يتوقف عن الكلام سارحاً في التفكير. نهض بترونيوس فجأةً، وتقدم نحو الشاب، ومسح على فوديه لاما خصلة شعره هناك خلف أذنيه، قائلا له:

ـ أتعلم أن شعرك يتخلله بعض الشعرات البيضاء؟

فأجاب فينيكوس:

ـ جائز. لا يثير دهشتي إذا ما شبت باكراً.

ثم ساد صمت. كان بترونيوس شخصاً ذكياً، وكثيرا ما استفكر في خفايا روح الآنسان، والحياة الآنسانية. لكن الحياة التي عاشها كلاهما قد تكون سعيدةً، أولا تشوبها أية سعادة، ولكنّها كانت هادئةً يسودها الاطمئنان الداخلي. وكما تُحطّم الصاعقة، أو الزلزال صُروح الكنائس وتجعلها أنقاضا، كذلك يمكن للأحزان أن تحطم الحياة ذات المسارات القويمة المتناغمة الخالية من العقد على النقيض من ذلك، فإن ما قاله الآن فينيكوس، تضمن شيئا مختلفا، فوقف بترونيوسي للمرّة الأولى وجها لوجه أمام حزمة من الهموم الروحيّة، التي لم يفلح أحد حتى الآن بإيجاد الحلول لها. كان على درجة من النضج تخوِّلُه لاستيعاب ثقل هذه الهموم، الاّ أنه رغم ذكائه النابغ لم يتمكن من الاجابة على الاسئلة الحرِجة المطروحة. فكان جوابه، أخيرا على النحو التالي:

-لا بد أنّها إصابة بالعين.

فأجاب فينيكوس:

- ظننت ذلك. كثيرا ما فكرت أن الجميع يحسدوننا.

فسأله بترونيوس:

- أتذهب مثلا إلى كهنة سيرابيس؟ لا شك أن بينهم كثيرا من المشعوذين، كما هو معلوم بين الكهنة عموماً، لكن بعضاً منهم يجدون النفاذ إلى أعمق أعماق الخفايا الغريبة.

لكنه كان يتكلم غير مؤمن بِما يقول، وبنبرة غير واثقة، حتى أنه كان يشعر ببُؤس ما تفوه به، وكم يتضمن من الكوميديا- حك فينيكوس جبينه قائلا:

- سحر! لقد رأيت سحرةً يستخدمون قوى مجهولةً من العالم السفلي من أجل الحصول على المنافع، وسحرةً آخرين يستخدمون هذه القوّة لالحاق الأذى بأعدائهم، لكنّ المسيحيين يعيشون في الفقر، ويتسامحون مع أعدائهم، ويسعون إلى التواضع، والفضيلة، فما مصلحتهم في السّحْر ليستخدموه؟

الأمر الذي أغضب بترونيوس وأثار في نفسه غيظاً شديداً، أن عقله لم يستنبط إجابة على أي من الأسئلة، لكنّه أبى أن يعترف بذلك، ولكي ينطق بأي شيء، قال:

- هذا سخف جديد

وأردف بعد لحظة:

- ياللهول كيف يفسد كل هذا الحياة! أنت تثمن عاليا أخلاق هؤلاء الناس، وطيبَة قلوبهم، أما أنا فأقول بأنهم أشرار، لأنهم أعداء الحياة، كالأمراض، والموت. أما يكفي للحياة من كثرَة الأعداء، فما من حاجة للمسيحيين. عُدَّ معي: الأمراض، قيصر، تيفالوس، أشعار قيصر، الاسكافيون الذين يحتلون مواقع في سيناتوس. أقسم بكاستور كفانا من كل ذلك! هذا سخف مدمر يثير القرف. هل حاولت أن تنفض عنك هذا الحزن، وتستمتع بالحياة؟

- أجل.

فصاح بترونيوس مقهقها:

- آه أيّها الخائن، الآنباء تنتشر بسرعة على ألْسنة الأرقّاء بأنّك أغويت كريسونميس!

هز رأسه فينيكوس معترفاً.

فقال بترونيوس:

- أنا أشكرها على أيّة حال. سأرسل لها بعضا من الأحذية المحلاة باللؤلؤ، وهذا يعني في مراسلاتي العشقيّة"لكِ أن تذهبي". أما انت فتستحق شكرا مضاعفا، لأنك أولا، لم تستقبل يونيكي، وثانيا لأنّك حررتني من كريسوثميس. أصغ ِإلي. من تراه أمامك الآن شخص كان كل يوم يستيقظ، ويستحم، ويقصد المآدب، وكان لديه كريسوثميس، ويكتب الهجاء، حتى أنه أحيانا يصوغ النثر أشعارا، لكنه شخص سئم من

نفسه كما من القيصر، وغالباً عجز من التحرر من أفكاره السوداء. فهل تعلم السّبب في ذلك؟ لأني كنت أبحث في منأى عني، عما كان مقرباً منّي... المرأة الجميلة تساوي ثقلها ذهباً. لكنّ المرأةَ الّتي تحبك أيضا إلى جانب ما تتمتع به من جمالٍ أخّاذ، لا تقدر بثمن. وليس مقدورك أن تشتري واحدةً مثلها بكل كنوز الدنيا. أقول الآن لنفسي بأنني سأُمْضي بقية حياتي بسعادة، وسأحتسي أفخر أنواع النبيذ، حتى تشل يداي، وتعجز شفتاي عن ملامسة حافة الكأس. أما ماذا سيحصل بعدها، إنه أمر لا يعنيني ولا أكترث له. وهذه هي أحدث فلسفاتي.

- كنت تقول دائما أن لا شيء جديد فيها البتة.

- لكنها ذات محتوى لم تكن لتتضمنه من قبل.

قال ذلك، ونادى على يونيكى. جاءت الفتاة، شعرها كالذهب، يلف جسدها رداء أبيض. لم تكن العبدة القديمة المالونة، ولكنها بدت الآن ربة الحب والبهجة.

فتح بترونيوس ذراعيه، مناديا إياها:

- تعالي!

توجهت الفتاة نحوه، وجلست في حُضْنه، ولفت ذراعها حول عنقه، واستندت بنهديها على رأسه. شاهد فينيكوس كيف اكتسي وجه الفتاة بالحمرة شيئا فشيئا، وكيف غامت عيناها بغشاوة ضبابية عميقة. بدا معا هكذا كتمثال فائق الجمال للحب والسعادة. مال بترونيوس نحو صحيفة فوق طاولة قريبة منه، وتناول منها جفنة وريقات من زهر البنفسج، ورشة فوق رأس يونيكي، وصدرها، وعنقها، ثم أزاح الرداء عن كتفيها وقال:

- سعيد مثلي كل من عثر في غمرة مشاغله على حبيبة... أشعر أحيانا أننا الهان... تمعن فينا جيدا:هل ابتدع أحد من براكسيتليس أو ميرون أو سكوباس أو ليسيبوس في أي مكان خطوطا أكثر روعة؟ هل هناك نصب وردي اللون، وحار، ودفاقٍ بالحب في باروس أو بوتاليكون؟ هنالك من يمكن لقبلاتهم مهما عنفت أن تقرض حواف الأقداح، أما أنا فأُفضّل البحث عن الروعة حيث يمكن أن تكمن فعلا.

وراح يمرر شفتيه فوق كتفي الفتاة وعنقها، فيما استجابت يونيكي مسترخيةً لهذه القبلات، وقد أغمضت عينيها تارة، وفتحتها تارة، مبدية أقصى مشاعر اللذّة. وبعدئذ رفع بترونيوس رأسه الناعمة متلفتا نحو فينيكوس ليقول:

- أمّا الآن فعليك أن تفكر من يكون مسيحيوك البائسون قياساً إلى هذا. وإن كنت قد رأيت الفارق، عندها فقط اذهب اليهم... لكنك ستكون قد شفيت.

تنشق فينيكوس عطر البنفسج الفائح في أرجاء الغرفة، فدوّخه ضوعه، وفكر، في ذات الوقت، لو أنه تيسر له ان يقوم بتقبيل كتف ليفيا هكذا، لكانت متعة لا حدود لها، و إن كانت متعة مارقة خارقة للقداسة، ليأت بعدها الطوفان، و دمار الكون. غير انه كان قد اعتاد أن يقلب سريعا أي أمر يعتمل في نفسه، فما كان الاّ أن خطر له لفوره، أنه حتّى في هذه اللحظة لا يفكر الا بليفيا، وبليفيا وحدها.

- أعدي لنا يا يونيكي الإلهيّة، الأكاليل لرؤوسنا، وفطوراً.

وحين ابتعدت الفتاة توجه إلى فينيكوس بالقول:

- أردت أن أعتقها، لكن هل تدري ما قالته؟ "أفضل أن أبقى عبدة لك، ولا زوجة للقيصر". ولم توافق. لكني عتقتها دون علمها، ودون الحاجة لمثولها أمام البراتور. هي لا تعلم ما قمت بفعله من أجلها، كما لا تعلم أنها سترثُ، بعد موتي، هذا المنزل، وكل ما أملك من الحلِيّ، ما عدا الجواهر.

ثم نهض، ومشى حتى نهاية الغرفة حتى أردف قائلاً:

- تأثير الحب يختلف من شخص إلى آخر. قد يؤثر في أحدهم تأثيراً فائقاً، ويكون تأثيره في أحد آخر

ضعيفاً. وأنا ممن قد أثر فيهم الحبّ. في حقبة ما كنت أحبذ رائحة فيربينا، لكنني بت أحب رائحة البنفسج أكثر لأن يونيكي تحبها. حتى بتنا الآن، منذ جاء الربيع، لا نستنشق الا عِطر البنفسج.
ثم توقف أمام فينيكوس ليسأله:
ـ وأنت أما زلت تكره رائحة الناردين؟
ـ دعك من هذا.
ـ أردتك أن ترى يونيكي، وأنا أتكلم عنها، عساك أيضا أن تبحث في منأى عنك عمّا هو مقرب منك. عسى أن يخفق قلب وفي، بسيط لأجلك من بين عبيدك. داوِ جراحك بهذا البلسم. هل تقول عن ليفيا تحبّك؟ جائز! لكن أي حبّ هذا إذا ما تخلى عنك؟ الا يعني هذا أنَ هنالك ما هو أقوى من هذا الحب؟ لا يا عزيزي: ليفيا ليست يونيكي، فأجاب فينيكوس:
ـ ما هذا كله إلا عذاب شديد. حين رأيتك تقبل كتفي يونيكي خطر لي لو أن ليفيا تدع نفسها لي هكذا، فلا هم بعد ذلك أن تنشق الأرض تحتنا.
ـ ليفيا ليست يونيكي، صحيح، لكنّي أفهم الفارق بينهما لا كما تراه أنت. حبّك أنت بدل فتحتي أنفك، فصرت تحب البنفسج أكثر من فيربينا. أما أنا فقد أصاب روحي وأجرى تغييره وهناك، فصرتُ ما أنا فيه من بؤس وشوق، أحب ليفيا كيفما تكون، لمجرد كونها ليست كالأخريات. هز بترونيوس كتفيه معلقاً:
ـ المُفترض في ذلك إذن الاّ يؤثر عليك سلبا. أنا لا أفهم هذا. وافقه فينيكوس بحرارة:
ـ فعلا!... لقد بِتنا لا نتمكن من فهم بعضنا.
وساد صمت قصير، حتى بدأ بترونيوس الكلام ثانية:
ـ فليبتلع هادس مسيحييك هؤلاء! لقد عبؤوك بالقلق، وأفسدوا حسّك في الحياة. فليبتلعهم هادس! تخطى إذا ما اعتقدت أن هذا دين فالح. الفالح والصالح ما يحقُّق السّعادة للبشر، مثل الجمال، والحب، والقوة، وهم يسمون كل هذا خطيئة، وتخطى أيضا إذا ما ظننتهم محقين وعادلين، فإذا ما كنا سنرد على الاساءة بالحسن فبماذا نرد على الحسن؟ وإن كان الرد على الوجهين هو نفسه، فلم يضطر البشر أن يكونوا خيرين؟
ـ لا. ليس نفسه. لأن دينهم يقوم على أن الحياة تبدأ في العالم الاخر، وهي الحياة الأبدية.
ـ لا أناقش في أمر، سنراه فيما بعد، ما يعنيني هو الحاضر. أورسوس قضى على كروتون الفولاذي الجسد، لأنه الضعيف القلب، ولا مكان في المستقبل لضعاف القلوب.
ـ عندهم تبدأ الحياة لحظة الموت.
ـ مثل هذا القول كأنْ يقول أحدهم أن النهار يبدأ بحلولِ الليل. هل تريد أن تخطف ليفيا؟
ـ لا لنْ أرُدَّ جميلها بإساءة. لقد أقسمت أن لاّ أفعل هذا.
ـ هل تُريد أن تعتنق الدين المسيحيّ؟
ـ أجل. لكن طبيعتي لا تحتمل ذلك.
ـ وهل بوسعك أن تنسى ليفيا؟
ـ لا.
ـ سافر إذن.
وفي هذا اللحظة، أبلغه الخدم أن طعام الفطور بات مُعدّا، إلا أن بترونيوس، وقد لمعت في ذهنه فكرة هامة، قد استمر في الحديث وهما في الطريق إلى غرفة الطعام:
ـإنك جُبت بلاداً عديدةً، لكنك كجندي مُلزم دائما أن يهرع في العودة إلى قطعته، ولا يستطيع أن يتوقف في أي مكان قاطعاً طريقه المرسومة. تعال ورافقنا إلى أكايا. القيصر لا يلتزم أبداً بخطة رحلته. غالبا ما

يتوقف قاطعا الرحلة هنا وهناك، يغني، ويجمع أقواس النصر، وينهب المعابد، ثم يعود أدراجه إلى إيطاليا. ستراه وكأن باخوس و أبوللو قد اجتمعا معاً في شخص واحد. الأوغستيان، نساء ورجالا على حد سواء، والف قيثارة، مشهد جدير بالمشاهدة، لأن العالم لم يشهد من قبل شيئا كهذا. وجلس إلى جانب يونيكي على مقعد قرب الطاولة، وفيما كانت الفتاة تسوي الإكليل على رأسه تابع كلامه:

ـ ما الّذي شاهدته في أثناء تولّيك مهامك في كوريو؟ لا شيء! هل تمعّنت جيدا في المعابد الإغريقية كما فعلت أنا حين تداولني القادة من يد إلى يد، ومن مكان إلى آخر، على مدار سنتين؟ هل كنت في رودوس ليتسنّي لك رؤية أين ينتصب كولوس؟ هل رأيت في فوكيشي بانوبي الطينة التي صنع بروميثيوس منها! الانسان؟ وهل رأيت في شارتا البيوض التي وضعتها ليدا؟ وهل كنت في أثينا؟ أو في أوبويا حيث سفينة أغاممنون، أو القدح الذي استخدمته هيلين من أجل ثديها الأيسر؟ هل شاهدت الإسكندرية، وممفيس، والأهرامات، وشعر إيزيس الذي قصّته حداداً على فراق أوزيريس؟ هل سمعت تأوهات ممنون؟ العالم شاسع، ولا ينتهي كل شيء عند ضفة التيبر! أنا سأرافق القيصر، لكني في طريق العودة سأفترق عنه، وأسافر إلى قبرص، لأن الهتي الشقراء هذه راغبة في أن نذبح الحمام في بافوس قربانا لسيبريس، وعليك أن تعلم أن كل ما تتمناه سوف أحققه لها. فقالتْ يونيك:

ـ أنا عبدة بين يديك. لكنّ الرجل أراح رأسه في حضن الفتاة وأجابها مبتسماً:

ـ ما أنا إذن الاّ عبد بين يدي عبدة. أنا مشدوه بك، يا يونيكي الإلهية، ولا أصدّق عيني.

والتفت بعد هُنيهة نحو فينيكوس:

ـ تعال ورافقنا إلى قبرص. لكن لا تنس أن عليك قبْلها أن تلتقي القيصر. من السّوء أنّك لم تزُره حتى الآن.

ـ مقدور تيفالينوس أن يستغل هذا للإضرار بك. صحيح أنّه لا يضمر البغيضة لك، الاّ أنه بالتأكيد لا يُكنّ لك الحب لأنك قريبي... سنجد حلا ونقول إنك كنت مريضا. علينا أن نفكر جيدا بالاجابة إذا ما دفعه الفضول وسأل عن ليفيا.

الأفضل أن يكون ردّك بأنّها أقامت عندك، حتى مللتها. سيتفهم ذلك. وقل له أيضا إن المرض جعلك رهين المنزل، مما زاد من شدة حمّاك أنك لم تكن في نابولي ولم تستمع إلى غنائه.

والآن بات الأمل يحدوك لتسمعه في القريب العاجل، الأمر الذي سرّع في شفائك. لا تخش المبالغات والشائعات.

ـ أعرف عمن تتحدث؟عن المسيحيين.

ـ علينا أن ننتظر من تيفالينوس أن يجد للقيصر مأخذاً علينا كبيراً، وضخماً. أخشى أن يتناولني في شيء. كما أخشى من حالتك البائسة.

فسأله فينيكوس:

ـ أتدري أن هناك نوعا من البشر لا يخاف القيصر، ويحيا في طمأنينة و كأنّه غير موجود أصلاً؟

ـ أعرفُ عمن تتحدث عن المسيحيين.

ـ تماما. هم الوحيدون! ما حياتنا نحن سوى صخب وضوضاء.

ـ دعني من مسيحيّيك. إنهم لا يخافون القيصر، لأنه في الغالب لم تصله أخبارهم، ولا يعرف عنهم شيئا. أنا لا أقول عنهم سوى أنهم فجّون تعوزهم الخبرة. هذا إحساسك كذلك. وإذا كان طبعك يجفل من دينهم، فلأنك تشعر بفجاجتهم. أنت مخلوق من طينة أخرى. فدعهم وشأنهم، ودعني منهم. نحن نعرف أن نحيا، ونموت، ولكن الذي يعرفونه هم مازال خفيّا.

باغتت فينيكوس هذه العبارات، وحين عاد إلى البيت استغرق في التفكير، ليخلص إلى تساؤل مفادُه:

أليس كون المسيحيين طيبين ورحماء إثباتاً في واقع الحال على فجاجة روحهم، وافتقارهم إلى المراس.

شعر أن الأقوياء ذوي الصلابة لا يعرفون هذه الدرجة من التسامح. ولمع في ذهنه أن روحه الرومانية وجدت سببا كافيّا لنفورها من ذلك الدين."معرفة الحياة والموت". هذا ما قاله بترونتيوس. أما هم؟ إنهم لا يعرفون الاّ المُسامحة ويجهلون الحبّ الحقيقيّ، والكُرهَ الحقيقيّ.

وصل القيصر إلى روما، وكان منزعجاً لعودته. وما هي إلا بضعة أيام حتى هاجه الشوق متمنياً السفر إلى أكايا. حتى أنه نشر بياناً يعلن فيه أن غيابه لن يدوم مدة زمنية طويلة يمكن أن تخلّف أي تأثير في القضايا العامة. ثم، برفقة حاشيته الأوغستينية، وكان فينيكوس من بينهم، قصد، الكابيتوليوم لتقديم القرابين للالهة من أجل التوفيق والنجاح في رحلتهم. ولكنه في اليوم التالي، حين كان في زيارة لكنيسة فيستا، حصل أمرٌ غيّر في نيته. لم يؤمن نيرون بالآلهة، لكنه كان يخشاهم، ومن بينهم على وجه الخصوص فيستا المكتنفة بالغموض. فما إن رأت عيناه هناك نار الألوهة القدسية، حتى انتصب شعر رأسه، واصطكّت أسنانه، وارتجفت أوصاله من الرّعدة و الخوف. وللمصادفة في هذه اللحظة فقد كان فينيكوس واقفا خلف ظهره، فارتمى بين ذراعيه. نقل سريعا إلى القصر، ورغم استعادته وعيه على الفور، ظل طريحَ السّرير يوماً كاملاً. ثم أعلن أيضاً، وقد أثارت فحوى هذا الاعلان اندهاشا كبيراً عمّ سامعيه من الحاشية، أن رحلته بإيحاء من الالهة حرصاً عليه من العجالة في أموره باتت مؤجلة إلى إشعار آخر. وانتشر في أنحاء روما، نبأ يقول أن القيصر، بعد أن قرأ الحزن في وجوه النّاس، قد قرّر، بدافع المحبّة الأبوية نحوهم، أن يبقى الآن إلى جانبهم ويتشاطر معهم السرّاء والضرّاء. سُرّ الشعب لهذا القرار المتخذ، ليقينه أنه لا ينفصل عن إقامة العاب السيرك، وتوزيع القمح، فغصّت الجموع محتشدة أمام مدخل القصر، يهتفون للقيصر الربّاني، الذي رفض المغامرة بالأوغستينين وحياتهم.

فقال:

ـ أجل. كان لا بد من التأجيل. لا يمكن التّفريط بالسيطرة على مصر والشرق، فكيف بأكايا. سوف أهدم ازموس الكورنسوسي. وسأنصب في مصر العديد من التماثيل والنصب تغطي على الأهرامات وأبني أباهول آخر. بحجم يفوق سبع مرات حجم الذي يقوم قرب ممفيس متطلقًا نحو الصحراء. لكنه سيحمل وجهي منحوتاً عليه. وسيبقى تمثالاً يشغل حديث الناس لقرون عديدة.

قال بترونيوس:

ـ لقد بنيت لنفسك من حسابك الخاص تمثالاً أكبر من خفرع بثلاث مرات، وليس بسبع مرات.

فسأله نيرون:

ـ أمِنْ غنائي؟

ـ تستأهل أن ينحت لك تمثال كتمثال ممنون، يصدح بصوتك عند كل مطلع شمس. البحار التي تحد سواحل مصر، تمخرها دون انقطاع سفن سيتسنى أن يسمع على متنها غناءك مسافرون من أرجاء العالم الثلاث.

فتنهّد نيرون قائلا: للأسف ليس هناك من يجيد عملاً كهذا.

ـ يمكن أن تنحت لنفسك تمثالاً، وأنت تقودُ العربة.

ـ صحيح. سأفعل ذلك.

ـ وتقدمها هدية للبشرية.

ـ في مصر، سأتّخذ من لونا العانس زوجة لي، وسأصبح الهاً حقيقيًّا.

أما نحن فتمنحنا النجوم زوجات لنا، وفيما بعد سنشكل مجموعة كواكب جديدة سيطلق عليها اسم مجموعة نيرون. وتزوج فيتليوس و نيلوس، وتهدي تيفالينوس الصحراء هناك، ليكون ملكاً على أبناء آوى.

فسأل فاتينوس:

ـ وما نيّتك أن تمنحني؟

ـ باركك أبيس. لقد أتحفتنا في بنغنتوم ورتبت لنا تسليات تجعلني لا أتمنى لك شرا: اعمل بعض الأحذية لأبي الهول لأن قدميه تتجمدان في الليالي النديّة، و آخر دومينوس المعروف بنزاهته مثلاً، سيغدو صرافا.

كم أحببت من القيصر أنه يحلم بمصر، لكن ما يحزنني أنه أجّل الرحلة.
لكن نيرون أجابه:
ـعيونكم الفانيّة لم تر شيئا، لأن الألوهة تحتجب أمام من تريد أن تحتجب أمامه. كونوا على ثقة أنني حين كنت في معبد فيستا انتصبت الالهة إلى جانبي ووشوشتني قائلة: "أجّل الرحلة". حصل ما حصل على نحو مباغت جعلني أرتَعد، الاّ أنّي ممتن للالهة على قبولهم لي كل هذه المدّة في مذبحهم.
نطق تيفالينوس قائلاً:
ـ لقد ارتعدنا جميعاً. أمّا العذراء فيستا روبريا فقد أغمي عليها.
التقط نيرون العبارة ليقول:
ـ روبريا! ما أنصع جيدها.
ـ لكنّها تحمر لمجرد رؤيتها لك أيها القيصر الرباني.
ـ تماماً. لاحظت ذَلكَ بنفسي. مذهلة! في كلّ من عذراوات فيستا شيء إلهي. روبريا جميلة جداً.
وفكر قليلاً ثمّ سأله:
ـ أخبروني، لمّ يخاف الناس فيستا أكثر من الآلهة الآخرين؟ ما السبب في ذَلكَ؟ حتّى أنا قدْ ركبني الخوف رغم أني كبير كهنة. كلّ ما أتذكره أني تعثرت وكدت أقع على ظهري لو لمّ يسندني أحدهم. ما كانَ ذاك؟
وأعلن فينيكوس نفسه قائلاً:
ـ أنا.
ـ أووووه، كيف لمّ تكن معنا في بنغنتوم؟ سمعت أنك كنت مريضًا، والحقيقة أن وجهك قدْ شابه بعض التغير. وسمعت أيضاً أن كرتون أراد أن يقتلك. هل النبأ صحيح؟
ـ صحيح.. وكسر ذراعي، لكني دافعت عن نفسي.
ـ بذراع مكسورة؟
ـ هب لنجدتي أحد البرابرة، وكان أقوى من كروتون.
ـ ماذا عن تلك الفتاة... ذات العجيزة النحيلة... التي وقعت في حبها، والتي أخذتها من عائلة ألوش وأعطيتها لك؟
ارتبك فينيكوس أيما ارتباك. لكنّ بترونيوس في هذه اللحظة سارع إلى إنقاذه، فقال:
ـ أراهن أنّه قدْ نسيها. ألا ترى ارتباكه؟ اسأله كم عشيقة كانت لديه بعدها؟ أراهن أنّه لا يدري كم عددهن. الفينكوسيون جنود مميزون، إلا أنّهم ديكة على نحو أميز. يحتاجون إلى مدجنة بحالها. عاقبه يا سيدي، ولا تدعه إلى المأدبة التي وعدنا بها تيفالينوس على شرفك، في بحيرة أغريبا.
ـ لا لن أفعل ذَلكَ. أنا أثق بأن تيفالينوس لن يدع مجالاً لأي نقص في الدواجن.
فأجاب تيفالينوس:
ـ هل يُمكن أن يحصل أيّ نقص حيث يحضر أمور.
لكنّ نيرون بدأ في شكواه:
الضجر يلوّكني. لقد بقيت في روما بمشيئة الآلهة، رغم أني لا أحتمل الأمر. سأذهب إلى الأنتيوم. تخنقني هذه الأزقة الضيقة، والمنازل الموشكة على السقوط، والمحلات القذرة. والهواء العفن يخترق منزلي وحديقتي. أمّا من هزة أرضيّة تطيح بروما وتبيدها. لو يفعلها أحد الآلهة الغاضبين ويسويها بالأرض. وسأريكم بعدها كيف تبني المدينة وتصبح عاصمة العالم وأنا على عرشها.
فسأله تيفالينوس:
ـ قلت، أيها القيصر، لو أنّ إلهاً غاضبًا يبيد المدينة أليس كذلك؟

ـ أجل، وماذا بعد؟
ـ وأنت الست إلهاً؟
وافقه نيرون على مضض ثمّ قال:
ـ سنرى ما الذي ستتحفنا به فوق بحيرة أغريبا. بعدئذ سأذهب إلى الأنتيوم. أنتم جميعاً ضحلون بحيث لا تدركون ما الذي أحتاجُه وأصبو إليه من أمور عظيمة.
وأطبق عينيه، في إشارة منه، إلى أنّه في حاجة للراحة. فأخذ الاوغستينيون ينصرفون حقاً. وانصرف بترونيوس بصحبة فينيكوس فخاطبه قائلاً:
ـ إذن فأنت مدعو رسميًّا إلى الهرج. تنازل ذو اللحية الحمراء عن السفر، لكنّه سيَلهو في المدينة أكثر من أيّ وقت مضى، وسيتصرف هنا كما لو كانَ في بيته. حاول أن تروح عن نفسك. وتجد شيئاً يُسليك، وما تبقى للشيطان! لقد أخضعنا العالم، أليس من حقنا الترويح عن أنفسنا. أنت يا ماركوس شاب وسيم جداً وهذا سبب لإعجابي بك. رموشك الكثة، وجهك المتورد، وكل أولئك ما هم إلى جانبك غير أرقاء معتوهين هذه حقيقة. لولا هذا الدين البدائي لكانت ليفيا في منزلك الآن. حاول مرّة أخرى أن تثبت لي أن هؤلاء ليسوا أعداء الحياة، والإنسانية... لقد أحسنوا معاملتك، لذا أنت ممتن لهم، لكني، لو كنت مكانك، لكرهت هذا الدين، وبحثتُ عن متعي وملذاتي حيث يُمكن أن أجدها. اكرر قوي لك بأنك شاب وسيم، وروما تعجّ بالنساء والمطلقات.
فأجاب فينيكوس:
ـ أستغرب أنك لمّ تتعب بعد من هذه الأمور.
ـ ومن قال لك هذا؟ لقد أصابني التعب منذ مدة طويلة. لمّ أعد شاباً مثلك. ولكن لي ميولاً أخرى أملأ بها حياتي، تفتقدها أنت. أحبّ المزهريات والمجوهرات. وهنالك العديد من الأمور التي لا تلتفت أنت إليها. ظهري يؤلمني أحياناً، وأنت لا. وأخيراً اكتشفت يونيكي. في حين لمّ تكتشف أنت أحداً. أحبّ الإقامة في منزلي بين التحف الرائعة في حين لا أجد فيك ميولاً نحو الجمال والفن. أعلم أنني لن أحظى بأكثر مما قد حظيت به ونلته حتّى الآن وأنت لا تدري أنك ما زلت تعوّل على الآمال، والبحث. إذا ما طرق الموت بابك، فإنك بالرغم من كلّ تلك الشجاعة، والحزن اللذين تتحلى بهما، سوف يذهلك أنك ستموت، وتغادر عالم الظلال هذا. أمّا أنا فسأستقبل الموت كضرورة وحاجة، مقتنعاً أن لا متعة في العالم إلا وتذوقتها. لست أستعجل الموت، لكني لا أستجره نحوي، وسأبذل ما بوسعي لأعيش مرحاً، حتّى آخر لحظة في حياتي. في حين أن مسيّحييك لا يجلبون إلى العالم سوى الحزن، ليغمر حياتهم كالمطر الطبيعة. أتدري ما الذي توصلت إلى معرفته؟ في الاحتفالات التي ينظمها تيفالينوس على ضفة بحيرة أغريبا تقام بيوت متعة ترتادها النساء من أرقى منازل روما. هل يعقل ألاّ يكون بينهن واحدة على قدر من الجمال تجد فيها سلواك؟ وبينهن عذراوات يخرجن إلى الضوء للمرة الأولى... الواحدة منهن أشبه بالنيمغا (عذراء الغابات المترجم). هذه هي امبراطوريتنا الرومانية... بات الجو دافئاً! الرياح الجنوبيّة تدفق المياه، ولا تقرص الجسد العاري. كنّ على علم، أيها الشاب الوسيم أن لا فتاة تستطيع مقاومتك، حتّى لو كانت عذراء فيستا.
راح فينيكوس يضرب رأسه بكفيه كمن لا يشغل تفكيره سوى فكرة واحدة وقال:
ـ أحتاج إلى كثير من الحظّ حتّى أحظى بواحدة مثلها..
ـ ومن فعل هذا إن لمّ يكن المسيحيون!... لكنّ كلّ من تحمل شعار الصليب لا يمكن أن تكون من صنف آخر. أصغ إليَّ: بلاد الإغريق جميلة جداً، وقدْ ابتدعت الحكمة للعالم. ونحن ابتدعنا لهُ القوة، فما الذي تنتظر من الدين أن يبتدع؟ إن كنت تعلم، نورني، لأني، وحق بولوكس، لا أمتلك حتّى تخميناً.
هزّ فينكوس رأسه. ثمّ قال:

ـ يظن المرء أنك تخشى أن اعتنق الدين المسيحي.

ـ أخشى أن تفسد حياتك. وإن لا تستطيع أن تكون كاليونان، فكن كروما. احكم واستمتع. إن ما يجعل على وجه التحديد، جنونياتنا تخبئ نوعاً من العقل، أنّ هذه الفكرة كامنة فيها. أحتقر صاحب اللحية الحمراء لأنّه، كيوناني، مهرج، ولو كانَ يعتبر نفسه رومانياً لأعطيته الحق في أن يسمح لنفسه أن يكون عربيداً. عدني أنك إذا ما عدت إلى البيت، ووجدت مسيحيًّا هناك، أن تعنّفه. إن كانَ كللاوسوس الطبيب لن يستغرب ذَلكَ. إلى اللقاء على بحيرة أغريبا.

أحاط الحراس بالغابات الخضراء على ضفة بحيرة أغريبيا، تفادياً لما تسببه حشود الناس من إزعاج للقيصر وضيوفه، لأنّ كلّ ما في روما من أثرياء، وعقول، وجميلات، ممن اعتادوا الظهور في الحياة العامة، قدْ حضروا المأدبة التي لمّ يشهد تاريخ المدينة مثيلاً لها. لقد أراد تيفالينوس، من جهة، أن يعوض للقيصر ما افتقده بسبب تأجيله رحلة أكايا. ومن جهة أخرى فقد اعتزم أن يسجل تفوقاً على كلّ ما سبق واستضاف القيصر حتّى الآن، كما أراد أن يثبت أن لا أحد بمقدوره أن يبذخ مثله. لهذه الغاية، ومنذ أن كانَ القيصر في نابولي، ثمّ في بنفنتوم، قدْ قام بتحضيراته، وأصدر أوامره باستجلاب كلّ مستلزمات الحفل من جهات العالم البعيدة. الطرائد، والطيور، والأسماك النادرة، والنباتات، والأقمشة، والقدور، فمن شأن كلّ ذَلكَ أن يرفع من مستوى المأدبة، ويضفي على أضوائها إبهاراً فائقاً. لقد أنفق ما يفوق كلّ حد، من أجل تأمين هذه المتطلبات الباذخة إلا أنّه كأحد معجبي القيصر الكبار، لمّ يكن ينبغي عليه أن يكترث لتبديده الأسطوري للثروة. فقد كانَ تأثيره في ازدياد يوماً بعد يوم. صحيح أنّه لمّ يكن مفضلاً لدى القيصر أكثر من الأخرين، إلا أنّه بات في موقع لا يمكن الاستغناء عنه. كانَ بترونيوس يفوقه كثيراً بالثقافة والدماثة والروح، ورجاحة العقل، وحتّى في أثناء حديثه فقد كانَ بترونيوس الأبرع في تسلية القيصر. كلّ ذَلكَ من سوء حظه، لأنّه كانَ متفوقاً حتّى على القيصر، فأيقظ في داخله الغيرة. لمّ يستطيع أن يكون أداة عمياء في كلّ شيء. وإذا ما تعلق الأمر بالذائقة فقد كانَ القيصر يخشاه، في حين لمّ يشعر أمام تيفالينوس بأي حرج. كانَ لقب"ملك الذوق" العائد لبترونيوس يغضب القيصر لأنّه يعتبر نفسه الأجدر بلقب كهذا. كانَ لدى تيفالينوس من العقل ما يكفي ليدرك نواقصه الخاصّة. ولقناعته أنّه لن يفوز بالسباق مع بترونيوس ولا مع لوكانوس، أو آخرين ممن اشتهروا بمواهبهم، وعلومهم، وأصولهم، فقد اعتزم أن يخيم عليهم بخدماته المناسبة، وبذخه الصاعق حتّى لتصورات القيصر.

لقد أقيم الحفل إذن على عوامة عملاقة شدت من عوارض مذهبة زينت حوافها بالمحار الفاخر ذي الألوان القزحية، والمرجانية التي صيدت في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وأحاطت بها من كلّ جانب أشجار النخيل، وشجيرات الورود المفتحة، والرياحين التي تخللتها نوافير الماء المعطر، وتماثيل الآلهة، وشتّى أنواع الطيور الذهبية والفضية. توسطتها خيمة عملاقة. وبتعبير أدق، فالخيمة المعمولة من الأرجوان السوري قدْ ارتفع سقفها مشدوداً على قضبان فضية بحيث تظل مفتوحة الجوانب حتّى لا تعيق الرؤية. تحتها صفت الموائد للضيوف، وبرقت كلها كحشد من الشموس الكثيرة، لما استوى عليها من الزجاج الاسكنراني، والكريستال، وتحف الآنية الإيطالية، واليونانية، والأسيوية الصغرى، التي لا تقدر بثمن. كثافة النباتات التي أحاطت بالعوامة جعلتها تبدو أمام الأعين جزيرة، أو غابة شدت بحبال من الذهب والقماش الأرجواني إلى مجاديف اتخذت هيئة أسماك، وبجع وببغاوات، وعلى متنها مجدفون ملوّتون إلى جانبهم شبان وشابات عراة في منتهى الوسامة والجمال، وجوها وعضلات، بتسريحاتهم الشرقية، أو شعورهم المضمومة تحت شبكة ذهبية. وحين عبر نيرون وبربايا و الأوغستينون من حاشيته المدخل الرئيسي للعوامة، واتخذ مكانه تحت الخيمة الأرجوانية. بدأ المجدفون يلطمون الماء فتحركت المجاديف، وأنشدت الحبال الذهبية، وتحركت العوامة، وبدأت، بما عليها من ضيوف المأدبة، ترسم دوائر فوق البحيرة. وأحاطت بها مجاديف أخرى، وعوامات صغيرة، مليئة بالفتيات وآلاتهن الموسيقية الوترية، والنفخية، اللواتي، أمام خلفيّة من السماء الزرقاء والمياه، وفي لمعان ضوء الآلات الموسيقية الذهبية، كأن أجسادهن الوردية قد رشفت الضوء والزرقة، وفي وسط هذه الألوان راحت تلك الزهرات يبدعن في العزف. ومن الغابة الشاطئية، وأبنية الاحتفالات الغريبة التصميم المتخفية بين الأشجار، صدحت الموسيقى، وصدحت معها أرجاء المكان كافة، وترجع صداها محمولاً على أجنحة النسائم في الغابات

البعيدة. وكان من شأن ذَلكَ كلّه أن يذهل حتّى القيصر وعلى ميمنته بوبويا، وميسرته فيثاغورس. وبدا ذهوله واضحاً حين ظهرت بين القوارب الرقيقات الشابات بأوشحتهن الخضراء المتوجات بالورود، فالتفت، كعادته في مثل هذه الحالات، إلى"الذواق" بترونيوس يسأله رأيه فيما يرى. كانَ بترونيوس يشاهد ما يجري بحياد ينم عن برود المشهد، فكان ردّه على سؤال نيرون:
- أظنّ، يا سيدي، أن عذراء عارية واحدة ذات تأثير أكبر بكثير من عشرات الآلاف.
لكنّ القيصر كانَ شديد الإعجاب بالمأدبة العائمة لجدتها بالدرجة الأولى. ناهيك عن تشكيلة المشروبات والأطعمة الواسعة المقدمة جرياً على العادة في مثل هذه المآدب إلا أنها في هذه المأدبة تشكيلة فاضت على مخيلة أبيسوس، وجعلت أوتو، الذي قدم في مأدبة أقامها ثمانين نوعاً من النبيذ، يتمنى لو يُدفن رأسه في الماء خجلاً من كثرة الأنواع التي وقعت عليها عيناه. لقد اقتصر الجلوس حول الطاولات، على الاوغستيان، والنساء. إلا أن وسامة فينيكوس غطت عليهم جميعاً. فيما سبق، كانَ وجهه وقامته يشيان باحترافه العسكري، أمّا الآن فإن وطأة أعباءه الداخلية وآلامه الجسدية الفيزيائية قدْ نحتت تقاسيم وجهه، كأن نحاتاً من أمهر النحاتين قدْ مرّ بيده عليه، فأزالت بشرة وجهه التي لفحتها الشمس، وأبقت على ألقه الذهبي الرخامي الصقيل. فقط نصف جسده العلوي قدْ احتفظ بعضلاته الضخمة القديمة، كأن الدم قدْ خلق لها وحدها من بين كامل أعضائه. وتألقت تعتليه رأسه الفخور الناعمة، كإله يوناني. نطقت الخبرة، حين تفوه بترونيوس قائلاً إنه ليس بوسعها، ولا تريد أيّ امرأة أوغسيتانية هنا، أن تقاومه. الجميع الآن ينظرون إليه، ولم تكن بوبيا استثناء، ولا روبريا ولا حتّى عذراء فيستا التي حضرت المأدبة بناءً على رغبة القيصر.
ما لبث النبيذ المثلّج الموصى به من الأماكن المختلفة، أن أدفأ قلوب المدعوين ورؤوسهم. وتزايد ظهور قوارب جديدة أخرى من بين الأشجار. كانت صفحة البحيرة الزرقاء، كأنما مغطاة بالزهور، وحشود من الأقمار تتراقص عليها، وفوق القوارب هنا وهناك، رفرفرت، فضية وزرقاء، أنواع الحمائم والطيور الهنديّة والإفريقية مربوطة بخيوط. كانت الشمس قدْ اجتازت معظم مساحة السماء، وبما أن المأدبة قدْ أقيمت في أوائل أيار، فقد كانَ الجو دافئاً، بل حاراً. ارتجت مياه البحيرة من ضربات المجدفين المتناغمة مع وقع الموسيقا، إلا أنّ الهواء بقي ساكناً، فلا هبوب ليهوّي النسائم فوق المكان، فبقيت الغابة الشجرية بلا حراك، كأنها وقفت تحدق وتصغي إلى الحدث المائي أمامها. ظلت العوامة تدور فوق البحيرة، آخذة معها المحتفلين الذين باتوا أكثر سكرة وصخبة. ولمّ تبلغ المأدبة نهاية نصف زمنها الأول، حتّى أضحى الجميع لا يعبؤون بالنظام الذي وزعت الموائد على أساسه. ولقد قدم القيصر المثال الأول على خرقه، فنهض من مكانه، وأبعد فينيكوس من جانب روبريا ليحتل هو مكانه، وراح يهمس في أذن الفتاة. صار فينيكوس إلى جانب بوبيا التي طلبت منه فاتحة إليه ذراعيها، أن يشد رباط كتفها المرتخي. وحين قام الشاب يفعل ذَلكَ بيدين مرتعشتين بعض الشيء، اختلست المرأة نحوه نظرة خجولة من بين رموشها الطويلة، وهزت رأسها الناعم الجميل، كأنما تعترض على شيء ما. في أثناء ذَلكَ، كانَ قرص الشمس قدْ كبر، وصار أكثر احمراراً، واستلقي شيئاً فشيئاً، خلّف تيجان الأشجار في الغابات. كانَ معظم المدعوين قدْ ثملوا تماماً، وأضحت العوامة تتحرك محاذية لشاطئ البحيرة، حيث كانَ الرجال المتنكرون بأقنعة ساتير وفان، يعزفون ويطبلون، والفتيات المتزيات بملابس النيمغا يتحركن في كلّ اتجاه. واستقرت الشمس أخيراً. في هذه اللحظة سمعت صيحات ثملة منبعثة من تحت الخيمة، تمجد لونا، وتوهجت ألاف المصابيح في الغابات. وانبعثت أشعة الضوء من بيوت المتعة المنتشرة على طول الشاطئ، وظهرت على الشرفات مجموعات شبه عارية جديدة من فتيات ونسوة أرقى المنازل الرومانية، تستدعي إليها مدعوّي المأدبة بأبذأ الحركات والكلمات. وحين رست العوامة أخيراً على الشاطئ نزل القيصر وحاشيته إلى الغابة، وتوزعوا

الأكواخ والخيم المتخفية بين الأشجار، والمغاور الفاخرة المقامة بين الينابيع ونوافير الماء. الجميع ثمل، وفاقد الاتزان. لمّ يدر أحد أين ذهب القيصر، ولا من يكون هنا. السيناتور، والفارس، والراقص، والموسيقي. الساتير ولفان تبعوا النيمفاوات. وراحوا بعيداً عن الأشجار، يحطمون المصابيح ليطفئوها. فأظلمت بعض الأرجاء في الغابة، لكنّ الصياح، والضحك، والضجيج، والتأوهات، واللهاث الحار، كانَ يعم الأمكنة كلها. لمّ تشهد روما مثيلا لذلك من قبل.

لمّ يثمل فينيكوس طوال حياته ثمالته في تلك المأدبة التي أقيمت في قصر القيصر وحضرتها ليفيا، إلا أن أحداث اليوم قدْ جعلته منتشياً، فأخذته حمّى الاستمتاع. فانطلق في الغابة، يجري كالآخرين، ويبحث بين النيمفات عن أجملهن. كانت مجموعات الفتيات تعبر متتالية على جانبيه وكان الفان والساتير والسيناتورات، والفرسان يفرون مغنين زافين، هرباً من صوت الموسيقا، حتّى لمح أخيراً مجموعة تقودها عذراء بزي ديانا. قفز نحوها أملاً رؤية الآلهة عن كثب، وتوقف قلبه بغتة في صدره. إنها الآلهة التي وشى رأسها القمر فبدت كأنها ليفيا.

راحت الفتيات الوحشيّات يتحلقن حوله راقصات، ثمّ بالطبع لكي يثرن حماسه لملاحقتهن عدون أمامه كقطيع من الظباء. إلا أنّه لزم مكانه، وقدْ تقطعت أنفاسه، بعد أن رأى أن ديانا هذه لمّ تكن ليفيا، حتّى أنها لا تشبهها عن قرب، فخارت قواه بعد اندفاعته الحامية. هاجه شوق أشد ما يكون إلى ليفيا، وغمرت فؤاده أمواج عنيفة طاغية من الحب. لمّ يخامره من قبل شعور يوازي هذا الشعور. كم هي عزيزة ونقية. وكم يحبّها وهو الآن هنا في هذه الغابة بين هذه الجموع من المخبولات، المتسيّبات. كانَ لتوه راغباً في أن ينهل من هذه الكأس وأن يسهم في هذا الفلتان الداعر للأحاسيس، وها هو الآن يشمئز ويتقزز منها. ويشعر أن القرف يكاد يقضي عليه، وأن صدره في حاجة إلى هواء، وعينيه إلى ضوء نجوم صافيه عصية على ظلمة هذه الغابة وكثافتها. واتخذ قراره بالهروب من هنا. وما إن هم بالتحرك حتّى مثلت أمامه هيئة امرأة تلف رأسها بوشاح. أسندت ذراعيها على كتف الشاب وهمست لهُ على نحو أشعر فينيكوس بحرارة أنفاسها: " أحبك!... تعال! لا يراك أحد. أسرع"

فسألها فينيكوس وكأنه قدْ استفاق من حلم:

ـ من أنت؟

لكنّ صدر المرأة كانَ قدْ لامسه، فخاطبته:

ـ أسرع! انظرْ، لا أحد هنا، وأنا أحبك. تعال.

فكرر فينيكوس سؤاله:

ـ من تكونين؟

ـ احزر!

وضغطت بشفتيها عبر الوشاح على شفتي الشاب، وجذبت رأسه نحوها، و لمّ تبعد وجهها عن وجه فينيكوس حتّى آخر أنفاسها.

فقالت وقدْ تلاحقت أنفاسها طلباً للهواء:

ـ الحب!...إنها ليلة السلوان الذاتي... اليوم حريّة. أنا لك!

لكنّ القبلة أحرقت فينيكوس وملأته اشمئزازاً. كانَ في مكان آخر قلباً وروحاً، وسوى ليفيا لا أحد في الوجود.

دفع عنه الهيئة الموشحة وقال:

ـ كنت من تكونين، أنا أحبّ واحدة أخرى، ولست في حاجة إليك.

مالت المرأة برأسها نحوه:

- أزح وشاحي...
ولكنّها في اللحظة نفسها فزت مبتعدة تحف بأوراق الشجر، حتّى تلاشت مثل صورة جاءت في حلم، ولا يسمع الآن إلا قهقهاتها الغبية.
مثل بترونيوس أمام فينيكوس ليقول:
- لقد سمعتها ورأيتها.
فاستعجله فينيكوس:
- لنذهب من هنا.
وذهبا. انطلقا أمام الأكواخ وعبرا الغابة، مروراً بملعب الفروسية فوجدا عربتهما.
قال بترونيوس:
- سأذهب معك.
- وجلسا معاً. ظلا صامتين في الطريق، وحين صارا في صالون فينيكوس تكلم بترونيوس قائلاً:
- أتعلم من كانت تلك؟
- روبريا؟
- لا.
- من إذن؟
- أخفض بترونيوس من صوته:
- صارت نارفيستا محتقرة، لأنّ روبريا كانت عندَ القيصر. لكنّ التي تحدّثت معك...
وأخفض صوته أكثر:
- كانت الأوغستية ديفا
ساد صمت آني.
ثمّ تابع بترونيوس:
- لمّ يستطيع القيصر أن يخفي أمامها رغبته تجاه روبريا، فأرادت أن تنتقم لنفسها على هذا النحو. أمّا طلوعي أنا أمامك هناك، فلأنك لو عرفتها وأعلمتها بالأمر، لخسرت نفسك، وليفيا، ولخسرتني كذلك.
- صرت أضيق ذرعاً بروما والقيصر، والمآدب، والأوغستيّة وتيفالينوس، وبكم جميعاً. أكاد أموت. لا أحتمل الحياة هكذا، لا أحتمل. أتفهم؟
- لقد فقدت عقلك، ورشدك، واتزانك، يا عزيزي فينيكوس!
- لا أحبّ سواها في هذا العالم.
- بعدئذ؟
- لا أريد حباً آخر، لا أريد حياتكم، مآدبكم، وقاحاتكم، شرور كم.
- ما الذي حصل لك؟ هل أنت مسيحي؟
فيما ضرب الشاب على رأسه، وقال بصوت حائر!
- ليس بعد! ليس بعد!

غادر بترونيوس غير راض إلى منزله. لقد اقتنع الآن أنّه على خلاف تام في الفهم مع فينيكوس. لن يفهما بعضاً بعد الآن. والمسافة بينهما على المستوى الروحي باتت شاسعة.

في حقبة ما كانَ تأثير بترونيوس كبيراً على الجندي الشاب. كانَ مثله في كلّ شيء، وغالباً ما كانت كلمة منه كافية لردعه، أو إقدامه على أيّ أمر. لمّ يبق شيء من كلّ هذا، حتّى أن بترونيوس لمّ يُعد يستخدم أيّ أسلوب من أساليبه وطرقه القديمة لأنها سترتد مهزومة عندَ أسوار فينيكوس الروحية المشادة بالحبّ، والمحصنة بالت ماس بعالم المسيحية الغامض. أدرك الرجل الخبير أنّه قدْ أضاع مفتاح روح فينيكوس.

وهو أمر لمّ يشحنه بعدم الرضا فحسب، بل ملأه بالخوف، الذي عملت وقائع الليلة على تفاقمه. فكر قائلاً لنفسه: "إن كلّ ما حصل ليس نزوة عابرة بالنسبة لديفا بل مكايدة دائمة، فهناك احتمالان. إما أن فينيكوسس لن يستطيع مقاومتها وهذا ضياع لهُ، ولي أيضاً، لكوني قريبه، وإما أن يقاومها ويكون الأمر منتهياً، دون أية ذيول وتأثيرات.

وإذا ما انتشرت أخبار هذه المكايدة ضمن العائلة كلها، فإن تأثيرها سيرجح كفة الميزان لصالح تيفالينوس".

كلاً الحالين مرّ. كانَ بترونيوس رجلاً شجاعًا لا يهاب الموت، ولكنّه لا يطلبه أو يستدعيه، لأنّه لا ينتظر منه شيئاً. بعد تفكير طويل قرّر أخيراً أن أفضل الحلول إبعاد فينيكوس عن روما، ودفعه للسفر. وكم سيكون سعيدًا بتقبل الفكرة لو كانت ليفيا رفيقة سفره! كانَ يأمل بإقناعه دون مشقة. وإن تم ذَلكَ وأقنعه لا بد من إذاعة خبر في القصر يفيد أن فينيكوس مريض، لأبعاد الخطر عنهما معاً. في نهاية المطاف لا تعلم الأوغستية إن كانَ فينيكوس قدْ تعرف إليها أم لا.

وعلى افتراض النفي، فليس هنالك إذن ما يخدش غرورها. وقدْ يتبين في المستقبل خطأ هذا الافتراض. لكنّ كسب الوقت كانَ هو المهم بالنسبة لبترونيوس. لقد شعر أن القيصر حين ينطلق في رحلة إلى أكايا فإن تيفالينوس الذي لا يفقه شيئاً بالأمور الفنية، سوف يحضر في الزاويّة ويفقد تأثيره. وهكذا سوف يحرز بترونيوس في اليونان انتصاره الساحق على خصومه كافة، وفي أثناء ذَلكَ صمم على أن يظل حريصاً على فينيكوس حاثاً إياه على السفر.

واعتزم، بعد تفكير طويل دام أياماً، أن يقنع القيصر بإصدار مذكرة بطرد المسيحيين من روما، وهكذا ستضطر ليفيا أيضاً إلى مغادرة المدينة، سوّية مع فينيكوس. وفي هذه الحال لا حاجة لإقناع الشاب بالسفر، كانت المسالة في حد ذاتها ممكنة. فمنذ فترة ليست ببعيدة، حين بدأ اليهود ينزعجون من المسيحيين نتيجة كرههم لهم، فإن القيصر كلوديوس دون دراية منه في التفريق بين الطرفين، قام بطرد اليهود من روما.

فما المانع إذن أن يقدم القيصر نيرون على طرد المسيحيين من المدينة؟ بعد تلك"المأدبة العائمة"كانَ بترونيوس يلتقي القيصر كلّ يوم، إن كانَ في القصر أو في بيوت أخرى. وكان من السهل عليه أن يوشوشه موسواً في صدره مثل هذا، بما أن نيرون لمّ يتخلص أبدًا من تقبل أفكار من شأنها أن تؤدي إلى أذية أحدهم مهما كبرت أو صغرت. قلّب بترونيوسس الفكرة بكافة وجوهها، وأعد الخُطة كاملة. فاعتزم إقامة مأدبة يحدث في أثنائها القيصر بإصدار مذكرة الطرد. حتّى أنّه كانَ يأمل، دون أن يخلو هذا من الأمل من تبرير، أن يكلفه القيصر بتنفيذ المذكرة. فيقوم حرصاً منه على عزيزه فينيكوس بإرسال ليفيا إلى بايابا مثلاً، حيث يتاح لهما ممارسة حبهما، مع ما يتيسر لهما من المسيحيّة.

في أثناء ذَلكَ كانَ لا ينقطع عن زيارات فينيكوس الكثيفة، لأنّه أولاً وبالرغم من كلّ أنانيته الرومانية لمّ يستطع أن يتنازل عن تشبثه به ولرغبته ثانياً بإقناعه في السفر، تظاهر فينيكوس بالمرض، ولم يظهر في القصر حيث الخطط والمشاريع في تغير دائم. وذات يوم علم بترونيوس على لسان القيصر نفسه، أنّه

سيسافر إلى الأنتيوم خلال ثلاثة أيام، فأبلغ فينيكوس حالاً بالنبأ.
لكنّ الشاب أراه قائمة بالأشخاص المدعوين إلى الأنتيوم كانَ معتوق القيصر قدْ أحضرها إليه صباح اليوم.
وقال فينيكوس:
- اسمي، واسمك ضمن القائمة. وستجد القائمة نفسها حال وصولك إلى منزلك.
فعلق بترونيوس:
- إن لمّ أكن في دائرة المدعوين، يعني أنّه ينبغي عليّ أن أموت. ولا أظنّ أن ذَلكَ سيحصل قبل رحلة أكايا لأنّ القيصر في أمس الحاجة إليَّ هناك.
والقى نظرة على القائمة ثمّ قال:
- لمّ نكد تصل روما، حتّى بات لزامًا علينا مجدداً مغادرة منازلنا، والمتابعة إلى الأنتيوم لكننا ملزمون، فهذا أمر، وليس دعوة فقط.
- وإن رفض أحدهم ذَلكَ؟
- عندها قدْ يتلقى دعوة أخرى إلى رحلة أطول لا عودة منها. خسارة أنك لمّ تقبل بنصيحتي، وتسافر حيث أمكن ذَلكَ. والآن عليك أن تأتي إلى الأنتيوم.
- عليّ الان أنِ أذهب إلى الأنتيوم..... أترى أية آونة نعيش، وإلى أيّ درجة نحن عبيد.
- الم تكتشف ذَلكَ قبل اليوم؟
- لا؛ لقد حاولت أن تثبت لي أن الدين المسيحي عدو الحياة، لأنّه يضع القيود في طريقها. لكنّ هل ثمّة قيود أشد من قيودنا نحن؟ قلت لي إن اليونان ابتدع الحكمة والجمال، وروما ابتدعت القوة. أين قوتنا نحن؟
- ادعُ شيلون، فليس لي اليوم مزاج لأتفلسف. وا هرقل! لست أنا من خلق هذه الآونة التي نحياها، ولست المسؤول عنها. دعنا نتحدث عن الأنتيوم. كنّ على علم أن خطراً كبيراً يهددك هناك. ولعل من الأيسر عليك أن تواجه أرسوس الذي قضى على كروتون من ذهابك إلى هناك. ومع ذَلكَ عليك أن تذهب.
- خطر! كلنا نفكر متلمسين دروبنا في عتمة الموت. وواحداً فواحداً نغرق فيها.
- دعني أعدد كلّ من ضاقت أحوالهم، ولمّ يتمكنوا من تناول إلا القليل مما يشوى، ستجد أنّهم، بالرغم من أزمنة نيرون، أو تبريوس أو كاليفولا أو كلوديوس، قدْ بلغوا الثمانين، بل التسعين حولاً. منهم على سبيل المثال لا الحصر، أفر ديميتوس. كانَ لصاً في حياته ومع ذَلكَ فقد شاخ في آمان.
- فأجابه فينيكوس
- لعل هذا بالضبط السبب في ذَلكَ.
وتصفح القائمة كلها ليقول معلقًا:
- تيفالينوس، فاتنيوس، أفريكانوس سكتوس الخ......... أية قذارة! أية لصوصية! وإذا ما فكر المرء بأن هؤلاء من يحكمون العالم! أليس الأجدى لهم، لينالوا رغيف خبزهم، أن يمارسوا أعمالاً أخرى؟ كأن يدورون في البلدات يشعوذون ويقرؤون المستقبل.
وأردف يقول:
- أو يعرضون قروداً ذكية، أو كلاباً تجيد العدو، أو حميراً تنفخ بالمزامير كلّ هذا صحيح. لكنّ دعنا نتحدث عن قضايا أهم. اسمعني جيداً. لقد أذعت في البالاتنيوس القصر نبأ أنك مريض، ولا تستطيع مغادرة المنزل، ومع ذَلكَ فقد ورد اسمك، مما يعني أن أحدهم لمّ يصدقني، وتعمد وضع اسمك في القائمة.
لكنّ ما حصل لا يهم القيصر، لأنك لست في نظره سوى مجرد جندي يُمكن أن يحدثه في أفضل الأحوال، عن مسابقات السيرك، لأنك لا تفقه شيئاً في الشعر والموسيقا. بديهي أن بوبيا من فكر في أمرك، وأوردتك في القائمة، مما يعني أن معاناتها تجاهك، ليس مجرد نزوة عابرة. وهي تريد أن تخضعك.

ما أشجعها من أوغستيه بوبيا هذه؟
ـ شجاعة بالفعل. إنها تكتب نهايتها. فينوس تدفعها لحب آخر بأسرع ما يُمكن. وما دامت راغبة فيك، فعليك أن تلزم أعلى درجات الحذر والحيطة. بات صاحب اللحية الحمراء حيادياً حيالها، وأضحى منجذباً نحو روبريا أو فيثاغوراس. لكنّه بدافع من غروره المحض، قدْ ينعم عليكما أشد النعمة.
ـ في الغابة، لمّ أكن أعرف من التي قابلتها، وأنت سمعتني أقول لها بأنني لا أريدها وأحب واحدة أخرى.
ـ أمّا أنا فأستحلفك بكل ما تحت الأرض من آلهة، ألا تفقد ما أبقاه لك المسيحيون من عقلك. كيف ستتصرف إذا ما كانَ عليك أن تختار بين الفناء المحتمل والفناء الأكيد؟ ألم أقل لك إنك إن خدشت غرور الاوغستينة فلا منجاة لك؟ إن سئمت حياتك فاستجمع كلّ ما لديك من قوة لمواجهة أقسى أشكال الموت إن أغضبت بوبيا. فيما سبق كانَ الحديث معك أكثر يسراً. فما الذي تبغيه الآن؟ فكر جيداً!
ولا تنس أن بوبيا قدْ شاهدت ليفيا في البالاتينوس، ولن يشق عليها أن تعثر على من كانت السبب في رفضك هذه النعمة الرفيعة، وتأتي بها من تحت الأرض. وعندئذ ستخسر نفسك وتخسر ليفيا أتفهم؟
كانَ فينيكوس يسمع وكأن عقله في مكان آخر، حتّى تكلّم أخيراً:
ـ ينبغي أن أقابلها.
ـ من؟ ليفيا؟
ـ أجل.
ـ أتدري أين تكون؟
ـ لا.
ـ أي أنك تريد البحث عنها في المقابر القديمة، وراء نهر تيبريس؟
ـ لا أدري، لكن علي أن أقابلها.
ـ حسنا. حتى لو كانت مسيحيّة، فقد يتبين أنها أذكى منك، ولا تريد أن تفقدك.
هز فينيكوس كتفيه قائلاً:
ـ لقد أنقذتني من بين يدي أرسوس.
ـ أسرع إذن، لآن القيصر لن يرجئ سفره. ويمكن له أن يصدر أحكام الموت حتى في الأنتيوم.
لكن فينيكوس لم يكن يسمع ما يقول، لأنه كان ساهما يفكر بليفيا وكيف يلتقيها.
في هذه الأثناء حصل ما يبعد كل صعوبة. في اليوم التالي طب عليه شيلون. جاءه محطما، رثا، جائعا، مهدل الملابس، لم ينتظر حتى يسمح له الخدم، فدخل مباشرة إلى الأتريوم، ووقف أمام فينيكوس قائلاً:
ـ فلتجعلك الالهة خالدا لا تموت، وليقتسموا معك سلطان العالم العلوي.
بادئ الأمر رغب فينيكوس أن يطرده، لولا أن خطر له أنه قد يعلم شيئاً عن ليفيا، فتغلب فضوله على اشمئزازه.
ـ هذا أنت؟ ما الذي حصل لك؟
فأجاب شيلون
ـ خطب عظيم، يا بن جوبيتر. الفضيلة الحقة سلعة لا تلزم لأحد، والحكمة الحقيقيّة ينبغي أن تفقد العقل، إذا لم يكن بمقدورها، الأكل خمسة أيام مرة واحدة، أن تشتري من عند الجزار رأس نعجة، وبعد أن تقتاتها في كوخها الفقير، تروي عطشها بدموع عينيها. آه يا سيدي كل ما أعطيتنيه أنفقته على الكتب، ثم نهبوني ودمروني، والعبدة التي كان ينبغي أن تخط تعاليمي هربت بكل ما بقي من عطايا جودك علي. صرت شحاذا، لكني فكرت من أقصد، إن لم تكن أنت الذي أحب، وأبج ل، وأغامر بحياتي من أجله.
ـ لم آتيت؟ وما الذي في حوزتك؟

ـ من أجل المساعدة، آه، يا بعل، جالبا معي بؤسي ودموعي ومحبتي وأخبارا جمعتها بدافع المحبة لك. أتذكر، يا سيدي، ما قلته لك في ذلك الحين، أني سحبت من حزام فينوس خيطا لأجل إحدى رفيقات بترونيوس؟..... ثم تتبعت الأمر، ترى هل أفادها الخيط في شيء؟ وأنت، يابن الشمس، يا من تعلم ما الذي يحصل في ذلك المنزل، تعلم أيضاً ما مصير يونيكي الان هناك. في حوزتي الان خيط آخر مثله. احتفظت به لأجلك يا سيدي.

اكتفي.ما قاله لما شعر أن الغضب قد تركز بين حاجبي فينيكوس فأراد أن يستبق الانفجار، قائلاً:

ـ أعلم أن تقيم ليفيا الربانيّة. سأدلك على المكان.

ـ أين هي؟

ـعند لينوس كبير بابوات المسيحيين، ومعها أرسوس، لكن أرسوس يقصد أيضاً طحانا، يدعى ديماس. أجل ديماس! أرسوس يعمل في الليل. فإذا ما طوقت البيت ليلا لن نجده هناك..... لينوس شيخ عجوز، ولا أحد غيره في المنزل سوى امرأتين عجوزين كذلك.

ـ من أين لك هذه المعلومات؟

ـ لعلك تتذكر أنني كنت في قبضة المسيحيين ولم يؤذوني. يخطئ كلاوسيوس حين يعتقد أني السبب في نحسه. لكن المسكين آمن بذلك، وما زال حتى اليوم، ورغم ذلك لم يؤذوني!

لا تستغرب يا سيدي أن قلبي عارم بالامتنان. أنا من الجيل القديم الاصيل. سالت نفسي: هل علي أن أتخلى عن أصدقائي، وعمن أحاطوني بفضائلهم؟ اليس نكرانا للجميل عدم الاكتراث بهم وبأحوالهم، وأين يقطنون. أقسم ب سيبل بسينوس أني لا أقوى على فعل ذلك. ترددت بادئ الأمر في الذهاب، خشية أن يساء الفهم فيما أرمي اليه من زيارتي لهم. لكن محبتي غلبت خشيتي. والذي على وجه الخصوص، منحني القوة هو أنهم يصفحون بسهولة عمن يؤذيهم. فكرت بك، يا سيدي، قبل أي أحد آخر. صحيح أننا فشلنا في مهمتنا السابقة، لكني الان واثق من كل شيء. والأمر يتعلق بك وحدك، لتكون البنت الملكيّة الطيبة، هذه الليلة، في منزلك. فإذا ما تم ذلك، فكر في أن الفضل في ذلك يعود إلى هذا الجائع المدقع الماثل أمامك.

فار الدم في رأس فينيكوس، وهز الجنون كيانه، كأن مسا قد أصابه.

إذا ماصارت ليفيا عنده في المنزل، فمن يجرؤ على سلبها منه؟ وإن أتيح له أن تكون حبيبته، فما الذي يشغله في الحياة بعدئذ سوى تشبثه بها كحبيبة أبديّة؟ فلتندحر الاديان جميعها! لن يكترث بعدها لا بالمسيحيين، ولا بسماحتهم ولا بمعتقدهم البائس. أما آن الأوان لينفض كل هذا عنه؟

أما آن له أن يعيش الحياة كما يحياها الاخرون؟ أما ما الذي ستفعله ليفيا فيما بعد، وكيف ستوائم بين قدرها ودينها، فهذا شأنها.

ولعله أمر ليس بذات أهميّة! ستكون ليفيا له أمام أعين الجميع، والان وحالا، وفي هذا اليوم. لكن السؤال: ترى في عالمها الجديد هل ستستقيم تلك التعاليم في روح ليفيا التي ستستسلم للمعاناة والمتعة على حد سواء؟ كل هذا يمكن أن يحصل هذا اليوم. لا داعي لإبقاء شيلون هنا أكثر من ذلك. عند الغروب سوف يصدر أوامره. وبعدها السعادة اللانهائية. فكر فينيكوس. ما حياتي أنا سوى معاناة، ورغبة لم أقو على إشباعها دون أجوبة لا تنتهي. ومن الآن فصاعدا كل ذلك انتهى ولا رجعة له.

وخطر له أنه وعد ليفيا بالا تمتد يده عليها. لكن لم يكن قسما، وإن كان قد أقسم فباي شيء قد أقسم؟

من المؤكد أنه لم يقسم بالالهة، لأنه لا يؤمن بها في الأساس، ولا بالمسيح لأنه لا يؤمن به بعد. وعلى أية حال إذا ما شعرت ليفيا أنها مهانة فسوف يتزوجها، وبذلك يعوضها عن كل شيء. أجل هذا لزام عليه تجاهها، اليست هي من أنقذ حياته. لا يمكن أن يعاملها كرقيقة، فهو لا يشتهيها فقط بل يحبها أيضاً. وحبه لها عائد إلى أنها هي كما هي، دون مقارنة بسواها. ولمع في رأسه أنه لا يكفي أن تكون ليفيا هنا في

منزله. لا يكفي أن يشدها بعنف من ذراعها، فحبه يطمح للوصول إلى أكثر من ذلك: تقبلها، وحبها، وروحها. مباركا سيكون مسعاها إذا ما وطئت بيته من تلقاء ذاتها. مباركة ستكون تلك اللحظة، وذلك اليوم، ومباركة ستكون الحياة. وستكون سعادتها لا نهائيّة كالبحر، وكالشمس. لكن اختطافها بالقوة، يعني اغتيال تلك السعادة العظيمة والقضاء عليها إلى الأبد. كما يعني تدمير، وإهانة من أحب، و الحاق العار بأغلى ما لديه في هذه الحياة.
تملكته الرعدة لمجرد التفكير على هذا النحو. التفت إلى شيلون الذي تسمر أمامه فارغ الصبر داسا يديه في ثيابه الباليّة.
فاشمأز لمرآه، وتمنى لو يقوم، ويسحق هذا المعاون السابق، كما يسحق المرء دودة أو أفعى سامة. بعد فترة قصيرة أدرك ما عليه أن يفعل. وبما أنه لم يعرف لأي شيء قيمة، وأنه كان في كل شيء ينقاد وراء طبعه الروماني الصلد، فقد التفت إلى شيلون قائلاً:
ـ لن أفعل ما تنصحني به، لكن لن أدعك تذهب دون مكافأة تستحقها. ستنال ثلاثمئة عصا.
شحب شيلون. كان البرود يضفي جمالا إضافيا فوق وجه فينيكوس، فظن العجوز أن العقوبة ليست جادة، وما هي الا مجرد مزاح أراده الشاب. ولكن سرعان ما اكتشف عكس ذلك، فجثا على ركبتيه، واحد ودب منكمش الجسد، يتأوه متوسلا:
ـ كيف يا ملك برجيا؟ لماذا؟..... يا هرم الرحمة؟ لماذا؟ أنا رجل عجوز، جائع وبائس.... هكذا ترد لي جميلي. هذه مكافأتي منك على خدماتي لك؟
فأجاب فينيكوس:
ـ ومن أنت بالنسبة للمسيحيين؟
واستدعى رئيس الخدم.
لكن شيلون قفز إلى قدميه، وضمهما متوسلا، متأوها، وكان شحوب وجهه موحيا بالموت:
ـ سيدي! سيدي! أنا عجوز! خمسين، وليس ثلاثمئة...
خمسين... مائة وليس ثلاثمئة... الرحمة!
ركله فينيكوس بقدمه، وأعطى أمره. جاء رئيس الخدم وفي إثره عبدان قويان، فأمسكا شيلون بما تبقى من شعره، داسين رأسه في ثيابه، وأخرجوه إلى المجلد.
ـ باسم المسيح! صاح اليوناني عند باب الممشى.
بقي فينيكوس وحيدا. الأمر الذي أصدره جعله أكثر نشاطا وحيويّة.
حاول في هذه الأثناء أن ينسق أفكاره. شعر براحة كبيرة. انتصاره على ذاته شد من أزره، وقوى روحه. وأحس أنه اقترب خطوة كبيرة من ليفيا فاستحق هذه الراحة.
في اللحظة الأولى لم يخطر له البتة، أنه قد الحق بشيلون ظلما كبيراً، وأن العقوبة بالضرب كانت لنفس السبب الذي كافاه لأجله في المرة السابقة. وحتى لو خطر له هذا الخاطر، فبالنظر إلى طبعه الروماني، كان سيشعر أنه تصرف حسنا تجاه هذا الرجل الوضيع. كان لا يفكر الا بليفيا، وكان في أعماقه يناديها: "لن أقابل معروفك بالشر. وإذا ذات يوم، عرفت كيف عاملتُ ذلك الرجل الذي نصحني بأن أقسو معك، ستكونين ممتنة لي على ما فعلت". ولكنه سرعان ما طرح السؤال على نفسه: ترى هل ستثني ليفيا على ما فعله مع شيلون؟ خاصة وأن دينها يدعو إلى الصفح والمساحة، وقد مارس المسيحيون صفحهم عن هذا البائس، رغم دافعهم الأكبر للنقمة عليه. ترجع في أذنيه النداء"باسم المسيح"وتذكر أنه بهذا النداء قد فاز شيلون بالإفلات من يدي أرسوس، فاتخذ قرارا بأن يعفو عما تبقى من عقوبته.
كان موشكا أن يستدعي كبير الخدم، لما دخل الاخير تلقائيا ليعلن:

ـ سيدي، العجوز فقد وعيه، ولعله قد مات. هل أتابع ضربه؟
ـ أنعشوه، و هاتوه!
كان ناظر الأتريوم وراء الستارة، لكن، على ما يبدو، أن عجلة الانعاش لم تجر بسهولة، لأن فينيكوس قد انتظر طويلاً، وبدأ صبره ينفد حين أدخل الأرقاء شيلون. وانسحبوا في الحال بإشارة من فينيكوس. كان شيلون شديد الشحوب. وكان الدم ينزف من قدميه على أرضيّة الأتريوم. كان بوعيه وجاثيا على ركبتيه، باسطا يديه. تلعثم قائلاً:
ـ شكرا سيدي! أنت كبير ورحيم.
فصرخ به فينيكوس:
ـ كلب! كن على علم أنني عفوت عنك من أجل ذلك المسيح الذي أدين له بحياتي مثلك.
ـ أنا خادم له يا سيدي، ولك أيضاً.
ـ اسمعني جيدا! انهض! ستأتي معي، وتدلني على المنزل حيث تقيم ليفيا.
قفز شيلون ناهضا، وما إن وقف على قدميه وكان شاحبا كميت حتى قال بنبرة واهنة:
ـ سيدي، أنا جائع بالفعل... سأذهب، يا سيدي، سأذهب لكني خائر القوة... أطعمني لو بقايا كلابك في التربة، وسأذهب بعدها.
طلب فينيكوس له الطعام، وأن يعطوه ذهبيّة، وعباءة، لكن شيلون قد أوهنه الضرب والجوع حتى لم يقو بعد الطعام على الحركة، وانتصب شعر رأسه مخافة أن يعتبر فينيكوس وهنه هذا مقاومة ورفضا، فيأمر بضربه من جديد.
كرر ما قاله مبديا أسنانا ضاحكة:
ـ فور أن يشحنني النبيذ، سأقوى على الذهاب حتى إلى بلاد الإغريق الشاسعة.
وبعد فترة قصيرة استجمع شيئاً من قوة، فانطلقا. كان الطريق طويلاً. لينوس كغالبيّة المسيحيين، كان يسكن في ترانستبريس. ليس بعيدا عن بيت ميريام، أشار شيلون إلى بيت صغير مفرد محاط بجدار حجري.
ثم قال:
ـ هذا هو يا سيدي:
ـ حسنا. انصرف الان إلى أشغالك. لكن اسمع أولا ما أقوله لك: انس أنك خدمتني، انس اين تسكن ميريام، و بطرس و كلاسوس، انس هذا المنزل، وانس كل مسيحي. تعال إلي كل شهر مرة، وسيدفع لك المعتوق ديماس ذهبيتين. لكن لو استمريت في التجسس ضد المسيحيين، سأمر بضربك على رأسك، أو أسلمك إلى شرطة المدينة.
ـ سأنسى.
وما إن توارى فينيكوس بعد منعطف الزقاق، حتى ضم شيلون
قبضته، وصاح متوعدا:
ـ قسما ب أي و فويكا أنني لن أنسى.

توجه فينيكوس مباشرة إلى منزل ميريام. صادف أمام الباب ابنها نازايوس. ارتبك الشاب لمرآه، لكن فينيكوس حياه بمودة، وطلب منه أن يدخله إلى المنزل.

كان ممن رآهم، إضافة إلى ميريام كل من بطرس و كلاوسوس و كريسبوس و بولس الترسوسي، الذي وصل لتوه من فريكيلا. اندهش أيما اندهاش لمرآى فينيكوس الذي بادر بالقول:

ـ أحييك باسم المسيح الذي أُجله.

ـ تمجد اسمه إلى أبد الابدين.

ـ لقد عاينت فضائلكم، ولمست طيبكم، فجئتكم كصديق طيب.

فرد بطرس قائلاً:

ـ ونحن أيضاً نحييك كصديق طيب.

ـ سأجلس وأشارككم طعامكم، لكن اسمعوني أولا. أنت يا بطرس، وأنت يا بولس، كونا على ثقة أني أعرف أين ليفيا. أتيت من منزل لينوس القريب من هذا البيت. من حقي وقد منحني القيصر هذا الحق، أن أطوق المنزل بخمسمئة من أرقائي، وأنتزع ليفيا من بينكم، لكني لم أفعل ولن أفعل ذلك.

فقال بطرس:

ـ باركك السيد على هذا، وطهر قلبك.

ـ شكرا، لكن اسمعوني جيدا. لم أفعل ذلك رغم الأوجاع والاشواق التي تلوكني. في أثناء غيابي عنكم، كان بوسعي أن أخذها بالقوة، وأحتفظ بها لنفسي، لكن أخلاقكم، وتعاليمكم، التي لا اعتنقها أساسا، قد بدلت في روحي شيئا يمنعني أن الجأ إلى العنف. لا أدري ما الذي حصل، لكنه قد حصل! جئتكم إذن، بصفتكم أهل ليفيا عوضا عن أمها وأبيها، لأقول لكم: أعطوني إياها كزوجة، وأقسم بأني لن أقف حائلا وأمنعها عن إيمانها بالمسيح، لا بل أعدكم أني سأتعلم منها الدين المسيحي.

تكلم برأس مرفوعة، ولهجة واثقة، لكن رجليه صارتا ترتجفان حين أنهى كلامه. وران صمت موحش، فسارع إلى التدخل مستبقا سماع رد غير مرغوب فيه:

ـ أعرف العوائق، لكني أحبها كحياتي. صحيح أني لست مسيحيا، لكني لست عدوا لكم ولا للمسيح. رغبتي أن أحظى بثقتكم. هذه لحظة مصيريّة لحياتي، وأنا أحدثكم بكل صدق. لعل أحدا غيري سيقول: "اجعلوني مسيحيا" لكني أقول: "نوروني!". فأن يكون المسيح قد قام بعد الموت، فذلك يقوله من يعيشون حقيقه أنهم قد رأوه بعد موته. أنا رأيت بنفسي ما يتضمنه دينكم من الصدق والفضيلة، والسماحة، لا من أفعال الخبث التي تسيء فيكم الظنون. لا أعرف، بعد، هذا الدين حق المعرفة. لكنها معرفة نلتها منكم، ومن معاملتكم، ومن أحاديث ليفيا عنكم. أعيد الكرة وأقول أن شيئاً قد تبدل في. كنت في السابق أعامل أرقائي بيد حديديّة، أما الان فبت لا أقوى على ذلك. لم أكن أعرف الرحمة، والأن أعرفها. كنت أحب متع الحياة، لكني الان هربت من مأدبة بحيرة أكريبا لأني لا أطيق هذا القرف. كنت في السابق مؤمنا بالعنف والقوة، وقد تخليت عنهما. كونوا على علم بأنني بت لا أجد نفسي، لكني أقرف المآدب، أقرف النبيذ، والغناء، والات الموسيقا، والاكاليل، وأقرف البلاط القيصري، والأجساد العاريّة، وكافة الشرور.

وكلما فكرت كم ليفيا نقيّة كثلج الجبال، وأن نقاءها مرده إلى دينكم، ازداد حبي لها، ولهذا الدين. وبما أني لا أفهمه ولا أدري إن كنت أحتمل، بالنظر إلى طبعي، أن أحياه، وأعيش تعاليمه، لذا أجد نفسي، متروكا للعذاب والحيرة والتمزق، وكأني أحيا في سجن مظلم.

ثم تقطب جبينه، واكتسى وجهه بالحمرة، واسترسل في الكلام من جديد:

ـ ترون كم يؤرقني الحب و غبش البصيرة. قيل لي أن دينكم لا يقيم اعتبارا للحياة و السعادة، ولا للحقوق

والنظام، ولا للتفوق وسلطة روما. اليس كذلك؟ وقيل لي أنكم جميعا مجانين، فقولوا لي ما الذي أنتم جئتم به؟ هل الحب خطيئة؟ هل الشعور بالسعادة خطيئة؟ هل الفرح خطيئة؟ هل أنتم أعداء الحياة؟ هل على المسيحي أن يكون شحاذا؟ هل علي أن أتخلى عن ليفيا؟ ما الصحيح لديكم؟ مساعيكم وكلامكم كالماء العذب، ولكن ما الذي يرقد في قاع هذا الماء؟ ترون مدى صدقي. بددوا هذه الظلمة من أمامي! فقد قيل لي أن اليونان جاء بالحكمة، والجمال، وجاءت روما بالقوة، فما الذي جئتم به أنتم؟ قولوا لي ذلك. وإن كانت أبوابكم تنغلق على أنوار، فافتحوا أبوابكم لي.

قال بطرس

ـ جئتنا بالمحبة.

وأضاف بولس الترسوسي:

ـ لو تحدثت بلسان البشر أو الملائكة، وقلبي خال من المحبة لكان كلامي طنانا أجوف لا معنى له. لكن قلب الحواريّ العجوز خفق لهذه النفس المتخبطة كطائر محتجز في قفص يضرب بجناحيه نحو الفضاء والشمس، ففتح يديه نحوه قائلاً.

ـ من يدق الابواب تفتح له. لقد نلت رحمة السيد فأنا الان أباركك، وأبارك روحك، وحبك، باسم مخلص العالم.

كان فينيكوس يتحدث بحماسة. والان، وقد سمع ما نطق به بطرس، قفز إلى بطرس، وبحركة غريبة أمسك بيده وقر بها من شفتيه تعبيرا عن امتنانه.

كانت بهجة بطرس لا توصف، وقد أدرك أن غرسته أثمرت، وشبكته صادت روحا جديدة أخرى. أما الحضور، وترحابا منهم ما أبداه فينيكوس من احترام لحواري السيد، فقد صاحوا مهللين صيحة شخص واحد:

ـ المجد للرب في الاعالي.

صحا فينيكوس بوجه مؤتلق ليقول:

ـ أرى أن السعادة يمكن أن تقيم بينكم، لأني أشعر بالسعادة. وأظنكم ستفوزون في أمور أخرى لكن ذلك لن يتم في روما. القيصر سيسافر إلى الأنتيوم، وعلي أن أكون بأمر منه معه. تعلمون أن رفض الأمر يعني الموت. لكن إن كنتم تنشدون الرحمة أمام أعينكم، فتعالوا معي وابدؤوا بتعليمي، فهناك أكثر أمانا لكم. قيل أن أكتي مسيحيّة، وأن بين الحرس كثيرين مثلها، وأنا رأيت بأم عيني كيف عند مدخل نوفتانا ركع الجنود أمام قدميك يا بطرس. لدي في الأنتيوم فيلا يمكننا في ظل نيرون أن نجتمع فيها ونصغي إلى تعاليمكم. قال كلاوسوس إنكم قد تصلون إلى نهاية العالم من أجل الفوز بشخص واحد. افعلوا من أجلي ما تفعلونه للآخرين الذين جئتم لأجلهم من يهودية البعيدة. افعلوا ذلك ولا تتخلوا عن روحي!

أماهم، فراحوا يتشاورون بعدما سمعوا ما سمعوه. فكروا بالفوز الكبير لدينهم، وبما يعنيه اعتناق أحد الاوغستينيين من أعرق أقوام روما الوثنيين الدين المسيحي. وبما أنهم حقا على استعداد لبلوغ أطراف الدنيا من أجل نفس واحدة، فلم يكونوا في وارد الاعتراض على فينيكوس، لكن بطرس في هذه الاونة، كان راعي الجموع كلها هنا، فليس بمقدوره أن يذهب.

على العكس، بولس الترسوسي الذي جاب أريسا و فريغلا، ويستعد الان للعودة في طريق طويلة إلى الشرق، للاطمئنان على أحوال الجموع هناك وإيقاظ هممهم، فقد قرر مرافقة الشاب إلى الأنتيوم حيث من اليسير إيجاد سفينة في البحار اليونانيّة.

أما فينيكوس، فقد أحزنه أن بطرس الذي يدين له بامتنان شديد، لن يرافقه. ومع ذلك فقد قدم شكره الجزيل، وتوجه نحو الحواريّ العجوز برجاء أخير:

ـ أعلم أين تقطن ليفيا، فبوسعي إذن أن أذهب اليها بنفسي، وأسألها كما تستوجب اللباقة و الادب، إن كانت تقبل بي زوجا. رضيت روحي بالمسيحيّة. وأرجو منك بالتحديد يا بطرس أن تسمح لي بزيارتها، أو أن تأخذني اليها بنفسك. ولأني لا أدري كم سيطول بقائي في الأنتيوم، وكما تعلمون لا أحد مقربا من القيصر يمكن أن يكون ضامنا لحياته. كان بترونيوس قد قال لي أنني لست في آمان كبير هناك. فدعني أرها. دعني أشبع عيني منها. دعني أسألها إذا ما كانت قد سامحتني، وإن كانت على استعداد لمشاطرتي الحياة الصالحة.

فأجابه بطرس بطيبته المعهودة مبتسما:

ـ ومن ذاك الذي يمنع عنك السعادة الحقيقيّة يا بني؟

انحنى فينيكوس مجدًّدا على يد الحواريّ، لأنه لم يستطع أن يكبح فرحته العارمة، واندفاعة قلبه، لكن الحواريّ أمسك رأس الفتي بيديه قائلاً له:

ـ لا تخف من القيصر، لأن شعرة منك لن تمس بأذى.

وأرسل ميريام لتأتي ب ليفيا، منبها إياها الا تخبرها بمن جاء لزيارتها فتكون فرحتها أكبر. لم يكن المنزل ببعيد من هنا، فما لبثت ميريام أن عادت مصطحبة الفتاة.

أراد فينيكوس أن يجري إلى الفتاة، لكن رؤيّة المحبوبة جعلته من فرط سعادته، يفقد كل عزم لديه. بقي في مكانه خافق القلب، مرتبك الأنفاس، لا تقوى ساقاه على حمله. كان انفعاله أضعاف ما كان عليه حين سمع لأول مرة سهام البارتوسيين تئز قرب أذنيه.

دخلت الفتاة مسرعة تجهل الأمر، لكنها ما إن لمحت الشاب حتى تسمرت أيضاً في مكانها. طفح وجهها بإحمرار تلاه شحوب مخيف، ثم جالت بعينين جافلتين مذهولتين فيمن حولها من الحضور. لكنها لم تلمح سوى وجوه مؤتلقة تشع هدوءا وطيبة. تقدم نحوها بطرس وقال:

ـ أما زلت تحبينه يا ليفيا؟

تلا ذلك صمت آني. ارتعشت شفتا الفتاة كطفل تقوس فمه أثناء البكاء، وكمن يشعر بنفسه مذنبا وعليه الان أن يعترف بذنبه.

استعجلها بطرس:

ـ أجيبي:

فتقدمت راكعة أمام قدمي الحواريّ، وبصوت خفيض جافل همست قائلة:

ـ أحبه.

وفي هذه اللحظة كان فينيكوس قد صار راكعا إلى جانبها، أما بطرس، فقد وضع يديه فوق رأسيهما، وقال:

ـ أحبا بعضا كرمى للسيد ولمجده، لأن حبكما ليس خطيئة.

تنزّها في الحديقة، وأعاد فينيكوس لليفيا بعبارات متسرّعة، نابعة من القلب، ما كان قد باح به للحواري قبل قليل: ما يعانيه من قلق روحي، وما طرأ عليه من تبدلات، وأخيراً مقدار شوقه اللامحدود الذي استحوذ عليه وملأ كيانه، منذ أن غادر منزل ميريام. واعترف لها أنه أراد أن ينساها لكنه لم يحتمل. وأنه كان يسهر الليالي الطوال دون أن تغيب عن باله لحظة واحدة ويذكره بها ذلك الصليب الخشبي الصغير الذي تركته له هناك، ويعرضه في أحد رفوف منزله، وينظر إليه باحترام وكأن فيه شيئاً الوهيا. لكم اشتدّ شوقه إليها، بفعل حبه العنيف لها. حياة الاخرين تنسجها الاقدار، لكن حياته منسوجة بالحب، والشوق، والحزن.
كانت أفعاله سيئة، لكنها أعطت الحب. لقد أحبها عند عائلة أولوش، وأحبها في البالاتينوس، وأحبها حين رآها في الأستريانوم وهو يستمع إلى موعظة بطرس، وأحبها حين أراد أن يختطفها بمساعدة كروتون، وحين لم تبارحه في مرضه، وظلت قرب سريره، وأحبها حين غادرته. جاء اليه شيلون ووشى بمنزل ليفيا، ونصحه باختطافها من هناك، لكنه فضل أن يقصد الحواريّ، ويسأله عن صحة الدين، ويطلب يد الفتاة منه،... بوركت اللحظة التي جاءت بهذه الفكرة، وجعلته الان بقربها. ليفيا لن تفارقه بعد الان، ولن تهرب منه كما فعلت من قبل في منزل ميريام.
قالت ليفيا:
ـ لم أهرب منك.
ـ لم فعلت ذلك إذن؟
رفعت الفتاة عينيها الزرقاوين، ثم أطرقت خجولة وقالت:
ـ أنت تعرف جيدا.
ثم أمسك يد الفتاة، و لم يقو على متابعة الكلام.
راح يحدق فيها بانشداه، وكأن حياته قد استرجعت السعادة، وأنه يريد أن يتأكد أنه قد وجدها وأنها الان بقربه حقا.
اكتفى بترديد اسمها متأوها:
ـ آه، ليفيا، ليفيا!
وأخيرا، راح يبوح بما يدور في أعماق روحه، كما اعترفت له الفتاة أنها قد أحبته مذ كانت في منزل اولوش، ولو أن فينيكوس قد أعادها آنذاك من القصر إلى ذلك المنزل، لباحت له بحبها، ولتوسلت لأولوش، وبومبونيا أن يسامحاه.
ـ أقسم لك باليفيا أنه لم يخطر لي أن أبعدك عن عائلة اولوش.
في ذات يوم سيوضح لك بترونيوس أنني أفصحت له عن حبي لك وأني أريدك زوجة لي. لكنه سخر مني، واقترح على القيصر أن يعاملك كرهينة، ويعيدك الي. لقد اصطدمت بكثير من العناء والالم، لكن عسى أن يكون القدر قد أراد ذلك لأتعرف على المسيحيين، وأفهمك جيدا.
فأجابت ليفيا:
ـ تأكد يا ماركوس أنها مشيئة المسيح ليقربك منه.
فهز رأسه مبديا الدهشة، وقال بنبرة حيوية:
ـ صحيح! حصل كل شيء على نحو غريب حيث بحثت عنك، التقيت المسيحيين.... وأصغيت باندهاش لما قاله الحواريّ في الأستريانوم من أمور لم أسمع بها من قبل. هل صليت لأجلي.
هزت رأسها موافقة:
ـ أجل!

سارا بجوار تعريشة من الشجيرات، حتى وصلا إلى المكان حيث قام أرسوس بخنق كروتون، وهجم على فينيكوس.
ـ هنا كنت سأفقد حياتي لو لم تكوني هناك.
فقاطعته الفتاة:
ـ لا تذكرها، وأنس ما فعل أرسوس!
ـ هل أنقم عليه لأنه حماك؟ لو كان عبدا لعتقته حالا.
ـ لو كان عبدا لعتقت أرسوس منذ زمن بعيد.
فسال فينيكوس:
ـ أتذكرين أنني أردت أن أعيدك إلى عائلة اولوش؟
كانت إجابتك: لو عرف القيصر سينقم على العائلة. أما الآن فبوسعك أن تزوريها متى تشائين
ـ لماذا يا ماركوس؟
ـ قلت "الان" لكني فكرت أن بوسعك فيما بعد أن تزوريها بكل اطمئنان حين تكونين لي. اليس كذلك!..... لأنه في حال سالني القيصر: ماذا حل بالرهينة التي في عهدتي، لأجبته أنني أتخذتها زوجة لي، وأنها تزور عائلة اولوش بإرادتي. لن يبقى القيصر طويلا في الأنتيوم، لأنه يتطلع إلى أكايا، لكن حتى لو بقي هناك مدة أطول، فليس الزاما علي لقاؤه كل يوم. فما أن يقوم بولس بتعليمي ديانتكم، حتى أعتنق المسيحيّة حالا، وأعود إلى هنا، وأفوز بصداقة عائلة اولوش التي تعود في هذه الاونةه إلى المدينة، ثم أتزوجك. آه أيتها السماء!
وفتح يديه كأنه ينادي السماء لتشهد على حبه. أما ليفيا فقد رفعت وجهها المؤتلق نحوه وقالت:
ـ وعندئذ سأقول: "حيث تكون أنت غايوس، أكون أنا غايا".
صاح فينيكوس:
ـ لا ياليفيا! أقسم أن ليس هنا امرأة ستحظى باحترام رجلها كما ستحظين به عندي من قبل الجميع.
تمشيا قليلا صامتين، لا يتسع صدراهما لفرحتهما الهائلة. كان غارقين في حب بعض، وكانا كالهين، وجميلين كأن الربيع قد طلع بهما مع أزهاره.
وأخيرا توقفا قرب باب المنزل أمام شجرة السرو المخضوضرة. استندت ليفيا على جذع الشجرة، أما فينيكوس فقد بدأ يتوسل اليها بصوت مرتعش:
ـ أرسلي أرسوس إلى عائلة اولوش، وليجمع كل متاعك والعاب طفولتك، ويأتي بها إلى عندي.
لكن الفتاة احمرت، كوردة جوريّة أو كالفجر، وأجابت:
ـ اللباقة تقول غير ذلك.
ـ أعلم. لكن أفعلي ذلك لأجلي. سآخذ متاعك معي إلى الفيلا في الأنتيوم لتذكرني بك على الدوام.
وجمع راحته على طريقة طفل يتضرع مكررا:
ـ بومبوينا ستعود هذه الايام. افعلي ذلك من أجلي.
ـ اللباقة أن تفعل بومبوينا ما تراه مناسبا. هي العقيلة، وليّة الأمر.
وتفاقم احمرار وجهها عند ذكر بومبوينا ثم صمتا من جديد، لأن الحب قد قطع أنفاسهما.
كانت ليفيا تستند بظهرها إلى شجرة السرو، ذابلة الوجه كزهرة في الظل، وقد أغمضت عينيها، وماج صدرها عابقا بالحرارة. أما وجه فينيكوس فقد استحال إلى شحوب. كانا يسمعان دقات قلبيهما في صمت الظهيرة. وفي هذا الثمالة المتبادلة استحالت السروة، والريحان، والعرائش بالنسبة اليهما إلى حديقة للحب.
لكن مريام ظهرت في الباب، ودعتهما إلى الغداء. جلسا بين الحواريين الذي راحا ينظران اليهما،

مستمعين.مشهدهما كجيل جديد يرث بعد موتهما مسؤولية غرس بذار التعاليم. قطع بطرس الخبز وباركه. مسحت الطمأنينة الوجوه، كأن أرجاء الغرفة قد ملئت بسعادة لا حدود لها.
التفت بولس إلى فينيكوس قائلاً:
ـ أحقا نحن أعداء الفرح والحياة؟
فأجابه الشاب؟
ـ الان عرفت الحق، لأني ما كنت سعيدا يوما مثلما أنا بينكم الان.

في ليل ذات اليوم، حين كان فينيكوس متجها نحو منزله، لمح هودج بترونيوس المذهب عند مدخل فيكوس توسكوس. كان يحمله ثمانيّة من العبيد، فلو ح لهم فتوقفوا. ثم اقترب من ستارة العربة.
أحلاما سعيدة!
قالها ضاحكا حينما رأى أن بترونيوس غارق في النوم، فجفل الاخير وقال:
ـ آ. هذا أنت! أجل لقد سهوت قليلا لأني أمضيت الليلة في البالاتينوس. وخرجت الأن لأبتاع ما يقرأ في أثناء إقامتنا في الأنتيوم... ما الأخبار؟
ـ هل درت على المكتبات؟
ـ أجل لا أريد أن أقلب في مكتبتي، اشتريت كتبا خاصة للطريق. سمعت أن مؤلفات جديدة صدرت ل سينكا و موسونيوس. واشتريت ل- برسيوس أيضاً. ونسخة من قصيدة الرعاة ل- فرجيلوس التي لم أكن اقتنيها. آه كم أنا متعب، وكم تؤلمني يداي لكثرة ما أنزلت من اللفائف... حين يكون المرء في مكتبة، يستيقظ فضوله للاطلاع على هذا وهذا، وذاك.
كنت عند أفيرنوس، و أتراكتوس، و أرغلاتوم، وقبلها عند سوسيوس و فيكوس، سندالايوس. كم يغلبني النعاس؟
ـ أنت كنت في البالاتينوس، فأنا الذي اسالك ما الأخبار؟ لكن لا. أرسل الهودج، واللفائف، وتعال معي، سنتحدث عن الأنتيوم وعن شيء آخر كذلك.
فأجابه بترونيوس وهو يترجل:
ـ حسنا. عليك أن تعرف أننا سنطلق بعد غد.
ـ وكيف لي أن أعرف؟
ـ في أي عالم تعيش؟ أنا أول من يخبرك بالنبأ إذن. كن جاهزا صباح بعد غد. لا مجال للتأجيل. صاحب اللحيّة الحمراء لا يني يشتم روما وهواءها، حيث لم ينفعه كل ما استخدم من زيوت لبحّة صوته. يود لو يقوض روما، ويحرقها بالنار، وهو متلهّف لبلوغ البحر بأسرع ما يمكن. يقول إن الروائح التي يحملها الهواء صوبه من الأزقة الضيقة تخنقه. لقد قدمت اليوم أضخم القرابين في المعابد لاسترجاع صوته. والويل لروما، وخاصة لسيناتوس، إن لم يشف حالاً.
ـ إذن لا سبب للسفر إلى أكايا
فطرح بترونيوس السؤال ضاحكا:
ـ وأي موهبة يتمتع بها قيصرنا، سوى أن يشارك في الالعاب الأولمبيّة كشاعر.مؤلفه"احتراق طروادة" ، أو كقائد عربة، أو موسيقي، أو كرياضي، وحتى كراقص، ويفوز بالاكاليل. أتعلم ما سبب البحة في صوت هذا القرد؟ تصور القد طلع في عقله أن يؤدي النا راقصا قصة ليدا، فتعرق تعرقا شديدا، وابترد. كان مبللا كسمكة الحنكليس الخارجة لتوها من الماء. راح يبدل الأقنعة واحدا تلو الاخر، ويفتل كالمغزل، ويومئ كبحار ثمل، وكان مشهد كرشه الكبير وساقيه النحيلتين يبعث على القرف.
استمر تدريبه اسبوعين تحت إشراف باريس، تخيلْ ليدا أو بجعة. هو وبجعة! مستحيل. لكنه يريد أن يشارك بهذه الرقصة في الأنتيوم، ثم في روما.
ـ لقد فضحوه لأنه غني أمام الجمهور. لكن أن يظهر قيصر روما كممثل! لا. لن تتقبل روما ذلك.
ـ يا عزيزي! روما تتقبل كل شيء. مجلس الشيوخ يحضر لإقامة احتفال شكر لقائد الوطن.
وأضاف يقول:
ـ والعامة فخورة بأن القيصر مهرج.

ـ هل هناك وضاعة أشد من ذلك؟
فهز بترونيوس كتفيه قائلاً
ـ إنك تعيش في المنزل رهين أفكارك. ليفيا، أصدقائك المسيحيون. من الطبيعي أنك لا تدري ما الذي حصل خلال الأيام القليلة الماضيّة. لقد أعلن القيصر بيتاغوراس زوجة له كان الشاب هو الخطيبة. الا يظن المرء أن هذا منتهى الخبل والجنون؟ ما قولك باحتفال قد أقيم بمناسبة قدوم الكهنة لعقد قرانهما. أنا كنت هناك، واحتملت لأني شديد الاحتمال والصبر، لكني فكرت بأن هناك الهة ينبغي أن تعطي إشارة ما... لكن القيصر لا يؤمن بالالهة وهو محق في هذا.
فعلق فينيكوس قائلاً:
ـ فهو إذن كبير الكهنة، والاله، والجاحد بالالهة في شخص واحد.
قهقه بترونيوس:
تماماً لم يخطر لي ذلك أبدا. إنه فريق كامل، لا مثيل له في العالم.
ثم نهض وقال:
ـ أضف إلى ذلك، أن كبير الكهنة هذا الذي لا يؤمن بالالهة،
ويشمئز منهم، يخشاهم في الوقت نفسه كونه ناكرا لهم.
ـ أكبر مثال على ذلك ما حصل في معبد فيستا.
ـ أي عالم هذا!
ـ والقيصر على شاكلة هذا العالم، لكن ذلك لن يدوم طويلاً.
وظلا يتحدثان على هذا النحو، حتى بلغا منزل فينيكوس. طلب الشاب إعداد العشاء مبتهجا، ثم التفت إلى بترونيوس قائلاً:
ـ لا يا عزيزي. ينبغي على العالم أن يبعث من جديد.
فأجاب بترونيوس:
ـ نحن لن نقوم ببعثه، فقط لأن الإنسان في عهد نيرون، كالفراشة التي تعيش تحت شمس النعمة لكنها شاءت أم آبت ستفنى من أول هبة ريح حارة. أقسم بابن مايا أنني كثيرا ما أطرح السؤال على نفسي، بأيّة أعجوبة استطاع واحد مثل لوسيوس ساتونيوس أن يبلغ الثالثة والتسعين من العمر، وكيف له أن يتفادى تيبريوس و كاليفولا و كلاوديوس؟ لكن دعنا من ذلك. أتسمح لي بإرسال هودجك من أجل يونيكي؟ لقد غادر النعاس عيني، وأرغب أن أروح عن نفسي. اطلب الة وتريّة على العشاء، وسنتحدث عن الأنتيوم. علينا أن نفكر بهذا جيدا.
أمر فينيكوس بأن يحضروا يونيكي، لكنه حبذ الا يدور الحديث عن الأنتيوم تفادياً لوجع الرأس.
ـ دع ذلك لمن لا يستطيعون العيش إلا تحت أشعة نعمة القيصر. ليس البالاتينوس نهايّة العالم، خاصة لأولئك الذين تجيش صدورهم بأمور مختلفة تماماً.
قال ذلك بمرح وحيويّة وعدم اكتراث، على نحو أذهل بترونيوس الذي حدق فيه لحظة ثم قال:
ـ ما الذي حصل لك؟ أنت اليوم كأنك تحمل اشارة البابويّة حول عنقك.
ـ أنا سعيد. ولذلك استدعيتك اليوم، لأعلن لك مدى سعادتي.
ـ ما الأمر؟
ـ أتذكر حين كنا معا في منزل أولوس وشاهدت تلك الفتاة الالهيّة التي اسميتها بنفسك فجرًا، وربيعاً؟ أتذكر تلك البسيشة الاجمل بين العذارى كلهن، وكل الهاتك؟
حدق بترونيوس فيه بذهول، كأنه يتحقق فيما إن كان الشاب ما زال يحتفظ بعقله، وقال:

ـ في أي لغة تتكلم؟ طبعا أتذكر.
ـ أنا خطيبها ونهض قافزا يستدعي كبير الخدم، ليقول له:
ـ ليأت العبيد كلهم، من أولهم إلى آخرهم. فكر بترونيوس:
ـ خطيبها؟
وقبل أن يذهب بعيداً في إبداء دهشته، كان الأرقّاء قد بدؤوا يحتشدون في الأتريوم. هرول العجائز لاهثين، وجاء الرجال والنساء والشبان، والشابات، حتى اكتظ الأتريوم لحظة بعد لحظة. وتصاعدت صيحات من مختلف اللغات، حتى امتلأت الأروقة، فيما وقف فينيكوس قرب المدخل مناديا معتوقه ديماس:
ـ كل من أمضى عشرين عاما في هذا المنزل، ليحضر غدا عند كبير الخدم، وسيكون حرا.
أما الذين لم يمضوا هذه المدة، فسينال كل منهم ثلاث ذهبيات، وضعف وجبات الطعام لمدة أسبوع. ابعث إلى معسكرات الاعمال الشاقة في القرى أن يوقفوا كافة العقوبات، ويفكوا قيود أرجل الأرقّاء هناك، ويحرصوا على تغذيتهم جيدا. ليكن في علمكم أنني في غايّة السعادة اليوم، وأردت أن يكون كل بيتي سعيدا.
وقف الجميع للحظة مخبولين، لا يصدقون آذانهم، ثم ارتفعت الايدي كلها دفعة واحدة، وصاحت الأفواه:
ـ آآ. سيدي! آآ.
وصرفهم جميعا بإيماءة من يده. كان بود الجميع أن يركعوا أمام قدميه تعبيرا عن امتنانهم، لكنهم أسرعوا في الانصراف، وملؤوا المنزل بالترحاب البهيج.
ـ وغدا سوف أجمعهم في الحديقة، وآمرهم بأن يرسم كل منهم أيّة رموز يشاء، ومن سيرسم سمكة، ستعتقه ليفيا.
أما بترونيوس الذي لا يدهشه العجب، فقد وقف خامدا وسال:
ـ سمكة؟ آها، تذكرت. شيلون قال إنها رمز المسيحيين.
ثم مد يديه نحو فينيكوس وقال:
ـ السعادة دائما حيث يراها المرء. لتنثر فلورا الأزهار أمام أقدامكم سنين طويلة. أتمنى لك كل ما تتمناه لنفسك.
ـ أشكرك على هذا، فقط ظننت أنك ستثنيني عما أقدم عليه، وإن كان لا فائدة من مساعيك، ومضيعة وقتك في ردعي.
ـ أنا أثنيك؟ أبداُ لا بل أقول أن ما تسلكه حسن.
صاح فينيكوس مرحا:
ـ هه! أيها الانتهازي؟ أنسيت ما قلته حين كنا عائدين من عند غريسينا؟
فأجاب بترونيوس ببرود:
ـ لا، لكني غيرت نظرتي.
وأضاف بعد قليل:
ـ يا عزيزي، كل شيء يتغير في روما! الرجال يبدل ون زوجاتهم، والنساء رجالهم، فلمَ لا أبدل أنا رأيي؟ وأي انتقاص في الأمر؟ نيرون ذاته كان يمكن أن يتزوج أكتي التي صنفوها، خدمة له، بأنها تنحدر من سلالة ملكيّة. فما الذي كان سيحصل؟ بالنسبة له ستكون زوجته الطاهرة، وبالنسبة لنا ستكون أوغستا الطاهرة. قسماً ببروتيوس، وبكل القيعان البحريّة، أنني سأظل أبدل في آرائي ما دمت أرى ذلك سليما، ومبعث ارتياح. وما يخص ليفيا، فإن انحدارها الملكي أكثر موثوقيّة من أكتي. لكن في الأنتيوم، احذر بوبيا لأنها من الصنف الناقم جدا.

ـ ليست في بالي. لا أحد في الأنتيوم يستطيع أن يخدشني.
ـ أن كنت تظن أنك ستخبلني مرة أخرى، فأنت مخطئ. لكن من أين لك هذه الثقة؟
ـ هذا ما قاله له الحواريّ بطرس.
ـ آ. الحواريّ بطرس قال ذلك! لا جدال في هذا. لكن اسمح لي أن أقوم ببعض التدابير من منطلق الحيطة، حتى لا ينكشف أمر بطرس على أنه رسول سيء، لأن خطأ واحدا منه يجعلك تفقد هذه الثقة، التي يحتاجها منك في تقديم خدمات طيبة له حتى في المستقبل.
ـ أفعل ما تشاء، لكني أثق فيه. إن كنت تظن أنك ستنفرني منه بذكرك اسمه على الدوام، فأنت مخطئ.
ـ سؤال آخر إذن: هل صرت مسيحيا؟
حتى الآن لا. لكن بولس الترسوسي سيأتي معي ليشرح لي وصايا المسيح، وبعدها سأعتنق المسيحيّة، لأن ما قلته أنت عن أن أولئك أعداء الحياة و السعادة غير صحيح
ـ أفضل لك ولليفيا. لكن الغريب كيف يتمكن هؤلاء من كسب أنصارهم. وكيف ينتشر هذا المعتقد؟
فكان وفاء من فينيكوس أن يرد وكأنه مسيحي حقا:
ـ تماماً بلغ عددهم في روما عشرات الالاف. وهم في المدن الايطالية واليونانية، وآسيا. وهناك مسيحيون في ليفيو و بريتوريا، وحتى في البلاط القيصري. وهذه التعاليم يتبعها أرقاء، ومواطنون، وفقراء، وأغنياء، وعامة، ونبلاء، و أشراف. هل تعلم أن بين الكورنليين أيضاً مسيحيين، وأن بومبونيا منهم، وعلى الأرجح كانت أكتافيا أيضاً مسيحيّة. وبالتأكيد أكتي. هذه حقيقة. وعلى ما يبدو أن هذا الدين سيجتاح العالم. وأنه الوحيد الذي.بمستطاعه أن يقوم ببعث العالم. لا تهز كتفك، فمن يدري بعد عام إن كنت أنت بالذات، سوف تعتنقه أم لا.
ـ أنا؟ لا. أقسم باين ليتو أنني لن أعتنقه، حتى لو تضمن كل حقيقة، وحكمة بشريّة أو الهيّة... ذلك يحتاج إلى جهد كبير، وأنا لا أريد أن أتنازل عن أي أمر حياتي. إن طبيعتك الحاميّة كالنار والماء المغلي، تؤهلك للانجذاب بسهولة، أما أنا؟ فلدي أزهاري وبراعمي ومزهرياتي، وجواهري. كما لدي يونيكاي أيضاً. أنا لا أؤمن باولمبوس، لكني أبتدعه لنفسي هنا على الأرض. وبراعمي ستظل تتفتح ما دامت سهام الرماة الالهيّة لا تخترق جسدي، أو ما دام القيصر. لا يخاطبني بالمتبجح في قواي. أحب رائحة البنفسج إلى حد كبير، والحياة الرغيدة، وأحب حتى الهتنا كهيئات بلاغيّة منمقة، كما أحب أكايا إلى حيث نستعد للذهاب برفقة قيصرنا الالهي الخارق، صاحب الكرش، والقدمين النحيلتين، وحاشيته من الاوغستيين، و المتسابقين، وهرقل، ونيروننا.
والحق أنه فرح لفكرة كونه يمكن أن يتقبل تعاليم الصيادين الجليلين. وراح يدمدم شيئاً مّما يحفظه منهم. لكنه كف عن ذلك لأن إحدى الرقيقات أبلغته أن يونيكي قادمه.
ولمجرد قدومها أحضر طعام العشاء. وفي أثنائه غني أحد العازفين بعضا من الأغاني، ثم راح فينيكوس يحكي لبترونيوس عن زيارة شيلون، فقال أن زيارته ولدت لديه فكرة أن يقصد حالا. ولقد جاءته الفكرة حين كان شيلون يلقى عقابه بالضرب.
بدأ بترونيوس يشعر بالنعاس من جديد. فرك عينيه وقال:
ـ كانت فكرة جيدة إن أوتيت ثمارها. أما عن شيلون فكان يستحق منك خمس ذهبيات، وما دمت قد عاقبته، كان عليك أن تضربه حتى الموت لكي لا يستغله السيناتورات كما فعلوا بفارسنا فاتينوس. ليلة سعيدة؟
أنزلوا الأكاليل عن رؤوسهم، وتهيأ بترونيوس و يونيكي للرحيل إلى البيت. وحين خرجا دخل فينيكوس إلى المكتبة وكتب الرسالة التاليّة إلى ليفيا:
"أريد من هذه الرسالة لمجرد أن تفتحي عينيك الرائعتين، أن تقول لك صباح الخير! أكتب لك الان لنلتقي

غداً، لأن القيصر سينطلق إلى الأنتيوم بعد غد. وعلي أن أرافقه. فالرفض يعني المغامرة بالحياة، وليس شجاعة مني أن أموت الان. وإن كنت لا ترغبين بسفري فاكتبي لي ذلك، وسأبقى هنا، والباقي سيتكفل به بترونيوس ساعيا الدرء الخطر عني، اليوم في يوم الفرح قمت.بمكافأة كل أرقائي فمن خدم لدي عشرين عاما ساصحبه غدا إلى القاضي لأعتقه، وينال حريته. لذلك فأنا أستحق منك يا عزيزي، الثناء لأني قمت. ما هو ملائم للتعاليم النفسيّة التي تعتنقينها، ومن أجلك أنت سأقول لهم غدا أنهم بنو الهم الحريّة قد يدينون لك أنت بالامتنان والشكر، وبتمجيد اسمك. وأضع نفسي، مبادلة، عبدا أبديا لا انعتاق له، لك وللسعادة. اللعنة على الأنتيوم. اللعنة على كل ترحال يقوم به صاحب اللحيّة الحمراء. سعادتي مضاعفة مرات ومرات لأني أتمتع بذكاء بترونيوس، والا لاضطررت لمرافقة القيصر إلى أكايا. فراقك أيضاً سيحلو، لأن كل لحظة منه سأمضيها بالتفكير بك. ولن تسنح لي فرصة من حريّة هناك، الا وأمتطي جوادا يعود بي إلى روما، ولو للحظة واحدة أكحل بها عيني.بمرآك، وأمتع أذني بسماع صوتك. وكل مرة لا أتمكن فيها من المجيء سأبعث لك برسالة مع رفيق يزودني بأخبارك شكرا لك يا ليفيا الالهيّة، وأحضن قدميك. لا تغضبي إذا ما دعوتك بالالهيّة. فإن كنت ممانعين سأنصاع ولن أكررها. لكني اليوم لا أقوى على مخاطبتك بصورة أخرى. تحيّة من أعماق روحي تصلك من بيتك المستقبلي".

كان معروفا في روما أن القيصر يريد في طريقه أن يزور أوسيتا أضخم سفن العالم، التي جاءت من الاسكندريّة تحمل شحنة من القمح. ومن هناك يتجه إلى الأنتيوم عبر فيا ليثوراليس. كانت الأوامر قد أطلقت بهذا الشأن منذ أيام، فاجتمعت منذ الصباح حشود الناس المحليين، ومن كافة الأقوام، عند بورتا أستنسيس لرؤيّة الموكب القيصري. لم يكن الطريق إلى الأنتيوم شاقا، ولا طويلاً، لكنه يخترق المدينة ليمر بالقصور والفيلات الفخمة، ويسمح. مشاهدة أكثر مناطق العصر ترفاً ورفاه. وكان من عادة القيصر أن يصطحب معه في طريق رحلته كل مستلزماته المفضلة من آلات موسيقيّة، وأثاث منزلي، وتماثيل، وموزاييك، توفر له الراحة والامداد المتنوع مهما يكن الطريق قصيراً. وإضافة إلى الحاشيَة القيصريَة، كان يرافقه جميع الأرقّاء من خدم وحشم للقيام بخدمات النزهة، فضلاً عن فصائل الحرس القيصري والأوغستيان الذين بينهم من يصطحب معه مرافقته الخاصة من الرق.

منذ الصباح الباكر في ذلك اليوم، جاء الرعاة، وقد سمّهرت الشمس وجوهم، بأجراس و بأحذيّة من جلد الماعز، يقودون خمسمئة أتان، ويعبرون بها البوابة لتوفير حليب الحمير من أجل حمّام بوبيا المعتاد كل صباح بعد وصولها إلى الأنتيوم. أثارت هذه القطعان السابحة في النقع الغباري ضحك العامة من الناس الذين قد أمتعهم أما إمتاع أزير السياط وأصوات الرعاة الوحشيّة. وبعد مرور قطيع الحمير، جهدت مجموعات الشبان بتنظيف الطريق، وتغطيتها بنثر الأزهار، وإبر الصنوبر فوقها، وكانوا جميعا فخورين بأن طريق الرحلة حتى الأنتيوم قد صار مغطى بالأزهار التي جيء بها من الحدائق، والحقول المجاورة، وابتيع بعض منها بأثمان غاليّة من بائعي ناحيّة بورتا موغيونيس. ما إن انقضت فترة الصباح الباكرة، حتى تزايدت الحشود لحظة بعد لحظة. بعض منهم أحضر كافة أفراد الأسرة، لقتل الوقت فقط، فوضعوا أغراضهم فوق أحجار جيء بها من أجل بناء كنيسة سيريس الجديدة، وأمضوا فترتهم كلها تحت قبة السماء الطلقة. وانعقدت المجموعات هنا وهناك تبادل أطراف الأحاديث في الشؤون الراهنة. تحدثوا فيما يخص رحلات القيصر القادمة، وفي الرحلات على العموم. وفي أثنائها، راح البحارة، والجنود يتحدثون عن البلدان الشهيرة التي سمعوا عنها خلال حروبهم البعيدة، فلا يحلم الروماني أن يطأ أرضها. وقف الفقراء الرومان الذين لم يبرحوا أمكنة إقامتهم و لم يتخطوا فيا أبيا يصغون باندهاش إلى ما يحكى قربهم عن بلاد العرب، والهند، وعما يحصل في إحدى الجزر البريطانيّة من عجائب حيث يقوم برياروس بحراسة ساتورنوس النائم حيث تسكن الأرواح، وعن البحار المتجمدة، وعما تصدره مياه المحيط من هسيس وفحيح كبيرين لحظة المغيب وغرق الشمس فيها. ومن السهولة في أوساط العامة أن يحوز على التصديق كل الحكايا المشابهة التي مازال أمثال بلينوس و تاكتوس يعتقدون بها. وجرت الأحاديث عن السفينة التي يتحفز القيصر لمشاهدتها، وتحمل على متنها من القمح ما يكفي لسنتين، ومن الركاب أربعمئة، ونفس العدد من الشبان، وكثيرا من الحيوانات البريّة التي ستستخدم فيما بعد في المباريات الصيفيّة. وهذا ما يجعل القيصر يشعر بارتياح لا مثيل له، لأنه برهان على أنه لا يقوم بتزويد الشعب بالغذاء فقط، بل يسعى جاهدا لتسليته، والترويح عنه استعدت الحشود التحيته بحماس تنامي مع مرور الوقت.

في هذه الاثناء ظهرت إحدى فصائل خيالة الحرس بأزيائهم الصفراء وأحزمتهم الحمراء، وأقراطهم الكبيرة التي راحت تعكس أشعتها الذهبيّة فوق الوجوه القائمة، ورؤوس أسنتهم الخيزرانيّة التي برقت كالقناديل تحت نور الشمس. وما أن عبر هذا الفصيل من الخيالة، حتى ظهر فصيل آخر يتخذ مسارا دائريا فاقتربت الحشود متراصة لمشاهدة العرض. لكن قدوم فصيل مشاة الحرس حال دون ذلك بانقسامه صفين متقابلين عند المدخل. في المقدمة جاءت العربات تحمل خياما حريريّة بيضاء محلاة بخيوط مذهبة، وخياما

أرجوانيّة، وحمراء وبنفسجيّة، وسجادا شرقيا، وطاولات من خشب الصنوبر، وصفائح من الموزاييك، وتجهيزات مطابخ، وأقفاصا في داخلها طيور من الشرق والغرب والجنوب، يصار إلى تمرينها، فتغدو بأصواتها والسنتها مناسبة التوضع على مائدة القيصر، إضافة إلى دنان الخمر، وسلال الفاكهة.
أما تلك المواد القابلة للكسر أو التقوس، فكان يحملها مشاة من العبيد، ينقسمون إلى مئات. مئة منهم تحمل التماثيل والانيّة الكورنثيّة الطراز. ومئة منها تحمل تماثيل وآنيّة من طراز أتروري، وأخرى آنيّة يونانيّة، واستقلت مجموعة منها حاملة الانيّة الزجاجيّة الذهبيّة والفضيّة والاسكندرانيّة.
وكانت تفصل بين المجموعات عناصر قليلة من الحُرس مشاة وخيالة، وعلى رأس كل مجموعة من العبيد مراقب يقودها وبيده كرباج ينتهي ذيله بقطعة من الرصاص أو الحديد. كان موكبا أشبه بالاحتفال، أو الطقس الديني. واشتدت حماسة المشهد حين جاء حملة الالات الموسيقيّة الخاصة بالقيصر وحاشيته. قيثارات مصريّة ويهوديّة، ويونانيّة، ووتريات، ودفوف، والات نفخيّة، وصنوج نحاسيّة، وأبواق مستقيمة ومتعجرجة. إذا ما شاهد المرء هذا العدد الهائل من الات الموسيقا اللامعة تحت أشعة الشمس، البارقة بالوان الذهب والفضة واللؤلؤ، المحلاة بالاحجار النفيسة، ظن أن أحدا من أثنين: أبولو أو باخوس يجوب الان العالم. ثم جاء دور الموكب الفني الفخم، من معدات وكوميديين ومجموعات من راقصين وراقصات بأيديهم صولجانات، كل مجموعة منهم لوحة فنيّة مبهرة يتبعها عبيد لا أهميّة أخرى لرفقتهم الا لمجرد الديكور وإضفاء الفخامة، وقد جيء بهم من كل أنحاء اليونان، ومن آسيا الصغرى. فكانت مجموعات الراقصين من شبان وشابات بشعورهم المسترسلة الطويلة، أو المشبوكة ببكرات وشباك مذهبة، كأسراب من الهة والهات الحب والجمال.
ومرة أخرى عبر فصيل من الحرس، كل عناصره شبان شقر، زرق العيون، ملتحون، يتقدمهم ما يسمى حاملو الالويّة. وهؤلاء الذين يحملون العقبان الرومانيّة واللائحات وتماثيل الهة الرومان والجرمان، وتماثيل القيصر الكاملة والنصفيّة. وماعري من أجساد الجنود تحت الأرديّة الجلديّة والدروع قد لوحته الشمس بسمرتها. وهم جنود ذوو أذرعة قويّة تقدموا كالات حربيّة، فارتحت الأرض تحت وقع خطواتهم الصلبة. ولكنهم قليلو العدد هنا، لأن جل هم القوة الرئيسيّة للحرس قد بقي في معسكرات الوطن يحرس المدينة، ويحافظ على لحمة السكان. المجموعات التالية كانت تقود النمور والاسود اللازمة العربة القيصر إذا ما أحب أن يقوم بتأديّة دور ديونيسوس.
كان ساسة ماهرون من عرب وهنود يجرونها بسلاسل فولاذيّة غلفت بالازهار بكثافة جعلتها تبدو سلاسل محدلة بكاملها من الزهور.
ثم جاءت العربات القيصريّة، والهوادج بأحجامها الصغيرة والكبيرة والوانها الذهبّية والأرجوانيّة، تبرق بما لُبست ووشيت به من العاج، واللؤلؤ الحقيقي، والاحجار الكريمة. تبعها فصيل آخر من الحرس، بزيهم الايطالي المحض وسلاحهم الروماني، يتلوه العبيد والشبان المراسيميون، ثم اخيرا القيصر نفسه الذي أعلنت قدومه من بعيد صيحات الجموع.
كان هناك من ضمن الحشد، الحواري بطرس الذي أراد مشاهدة القيصر مرة واحدة في حياته. وكان بصحبته كل من ليفيا التي غطت وجهها بوشاح كثيف، و أرسوس الذي يمثل في هذه الفوضى العارمة، القوة الأكثر فاعليّة لحمايّة ليفيا. حمل أرسوس حجرا من أحجار الكنيسة، وقدمها للحواري ليقف عليها فيتمكن من الرؤيّة أكثر من الاخرين. وجاء القيصر جالسا في عربة على شكل خيمة يجرها ستة من فحول الاحصنة البيضاء نضواتها ذهبيّة. عمد أن تكون الخيمة مكشوفة من الجوانب لكي يتسنى للحضور مشاهدة القيصر.
ورغبة منه في لفت الانظار اليه، كان وحده يقود العربة عابرا بها المدينة، رغم أنها تتسع لستة آخرين

استعاض عنهم بقزمين اشوهين تحت قدميه. كان يرتدي تونيكا رومانيّة بيضاء، و توغا بنفسجيّة عكست زرقة عميقة على وجهه، وكان يضع على رأسه إكليلا أرجوانيا.
كان يتقدم ملتفتا برأسه هنا وهناك يراقب الجماهير التي جاءت لتحيته بالهتاف وبعواصف التصفييق. "تحيّة لك أيها الامبراطور القيصر الالهي". تحيّة لك أيها الغالب! تحيّة لك يا بن أبولو الذي لا مثيل له. تحيّة لك يا أبولو! وبسماعة هذه الهتافات كان يبتسم طوال الوقت، لكن سحابة من كدر خفي كانت بين الحين والاخر، ممسح تعابير وجهه، فالجماهير الرومانيّة جماهير ساخرة بغالبيتها، فكانت تسمح لنفسها بالقاء تعليقات حادة وجارحة، حتى أمام القادة العسكريين الامجاد الذين استحقوا حب الرومانيين
وتقديرهم. فمن المعروف أن يوليوس قيصر حين دخل روما، سمع هتافات مثل "أيها الناس خبئوا زوجاتكم فقد جاء اللعوب الاصلع "لكن غرور نيرون الفائق جعله لا يحتمل سماع أخف التعليقات وأبسطها، رغم أن شيئاً من هذا قد تع إلى مثل يا صاحب اللحيّة الحمراء! يا صاحب اللحيّة الحمراء! أين تأخذ لحيتك المشتعلة؟ لعلك خائف من أن تلتقط روما نارها وتحترق؟ لكن من هتفوا هذه العبارة الساخرة لم يعرفوا أن ثمة نبوءة مريعة تكمن في ثناياها. وفي كافة الاحوال لم تكن مثل هذه الأصوات لتغضب القيصر كثيرا ولا قليلا، لأنه لم يكن الان صاحب لحيّة، بعد أن قدمها منذ وقت طويل هديّة لجوبيتر الكابيتوليوني في صندوق من الذهب.
لكن آخرين هتفوا من خلف أكوام الحجارة وزوايا المعبد "نيرون قاتل أمه" وآخرون: "أين أوكتافيا؟" وآخرون وجهوا هتافهم نحو "بوبيا" قائلين "أم الشعر الأشقر" وهو لقب تنادى به نساء الشوارع في العادة. كانت أذنا نيرون الحادتا السمع تلتقطان مثل هذه العبارات، وكان عندئذ، يسلط عينيه نحو مصدر الصوت كأنه يريد أن يتيقن من معرفة مطلقيها. وهكذا فقد وقع بصره على الحواري الواقف فوق الحجارة.
كلاهما نظر إلى الاخر، والتقت عيونهما للحظة. لكن أحدا، سواء من عناصر الموكب الباهر أو من الجماهير الهائلة العدد لم يخطر بباله أن من ينظران في هذه اللحظة كل في الاخر، هما سيدا العالم وأن أحدهما سوف يتلاشى عما قريب كما يتلاشى حلم دموي، أما الاخر فسوف يتسنى له أن يملك العالم ومعه هذه المدينة إلى الأبد.
بعد أن مر القيصر، تلاه مباشرة ثمانيّة من الأفارقة يحملون هودجا فخما في داخله بوبيا البغيضة في أعين الشعب. كانت ثيابها بنفسجيّة كملابس نيرون، ووجهها مجم ل بالمساحيق السميكة الحمراء استقرت
جالسة مستفكرة بلا حراك، ودون أن تبدي أيّة تعابير، كالهة جميلة لكن شريرة. في إثرها حاشيتها الخدميّة من النساء والرجال، وأرتال العربات المليئة بوسائل الراحة، وخزن الملابس. وكانت الشمس قد تجاوزت الظهيرة حين مر موكب الاوغستيان المتألق الفخم: بترونيوس الكسول الذي راح يحيي الجماهير بمودة، وهو في هودجه برفقة رفيقته اللائقة بإحدى الالهات. تيفالينوس يقف في عربة تجرها أحصنة صغيرة زينت بريش أحمر وأبيض. كان باديا للعيان أنه يمط رقبته، مترقبا إشارة من القيصر ليجلس إلى جانبه. ليسيونوس بيسو الذي حيته الجماهير بالتصفيق من بين الجميع. وحيت فيتليوس بالابتسام،، وفاتينوس بالصفير. وقوبل كل من القنصلين ليسيونوس وليكانوس بحياديّة. أما تولوس سينكو الذي لم يعرف السبب في محبة الناس له فقد قوبل بالتصفيق أيضاً.
كانت الحاشيّة القيصريّة بأعداد لا حصر لها، حتى ليظهر المرء أن ما من أحد ميسور أو نبيل في روما الا وهو الان في طريقه إلى الأنتيوم. لم يسافر نيرون مرة بأقل من ألف عربة وبعدد من المرافقين لا يقل عن عدد الجيش الليفوي بأكمله.
أما دوميتيوس أفتر فقد حملقت فيه الجماهير مشيرة اليه بالبنان، وكذلك لوسيوس ساتورنينوس الذي بدا شيخا معتلا تماماً. وشوهد فسبسيانوس الذي ما كان يلتحق بحملته العسكريّة في يهوديا حتى عاد من أجل

التاج القيصري. والكثير من النساء الشهيرات بثرائهن، وجمالهن، وترفهن، ورذيلتهن. وقفت جماهير العامة المتعددة المشارب والاقوام، بعيون نهمة حيرتها هذه التحفة البصرية، المتوهجة بألوان الذهب، والارجوان، والمؤتلقة بالأحجار الكريمة واللؤلؤ، والعاج، فبدا كل ذلك كأن أشعة الشمس ذاتها هي التي تلتمع في هذا البحر من الأنوار. كان بين العامة بؤساء جوعى لم يحرك فيهم هذا المشهد الحسد والغيرة فحسب، بل ملأهم بالافتخار المبهج، بعد أن شعروا بقوة روما العظيمة التي قهرت العالم وركعت أمامها البلدان.

وفي الحقيقة ليس هناك أحد في الكون يجرؤ على الاعتقاد بأن امبراطورية روما لن تدوم لقرون وبأنها لن تستغرق كل الاقوام، وأن بمقدور أحد فوق البسيطة أن يقف ضدها.

سار فينيكوس في نهاية الموكب، وحين لمح كلا من الحواريّ، وليفيا اللذين لم يتوقع وجودهما هنا، قفز من العربة، وحياهما بأسارير مشرقة، ثم سرعان ما ابتدر الكلام كمن ليس لديه وقت يضيعه.

ـ جئت؟ لا أعرف كيف أشكرك يا ليفيا! إنها إشارة طيبة لي من الله. وداعا، لكنه وداع لن يكون لمدة طويلة. سأجيئك كلما سنحت لي الفرصة إلى أن أعود نهائيا. دمت بالصحة والعافية.

فأجابت ليفيا:

ـ رافقتك السلامة يا ماركوس.

ثم أضافت بخفوت صوت:

ـ رعاك المسيح وفتح أذنيك لأقوال بولس!

ابتهج قلب الشاب وقد أحس بأهمية عودته بالنسبة إلى ليفيا فقال:

ـ ليكن ما ترغبين. أحب بولس أن يسافر مع رجالي، لكنه معي وسيكون معلمي وصاحبي أزيحي وشاحك، يا رائعتي، دعيني أشاهد وجهك بعد، قبل أن أرحل. لم تتخفين إلى هذا الحد؟

كشفت الفتاة عن وجه هادئ، بديع، وعينين باسمتين، ثم سألته:

ـ وأين الخطب في هذا؟

وكان في ابتسامتها مسحة من عتب مشوب بدلال طفولي، لكن فينيكوس نظر اليها وقال بحرارة:

ـ خطب لعيني اللتين لا ترغبان الا في رؤيتك وحدك من الان وحتى أن أموت. ثم التفت نحو أرسوس:

ـ احرص عليها كضوء عينيك، لأنها ليست الأعز لديك فقط بل أعز ما لدي أيضاً.

وأمسك يد الفتاة وضعها إلى شفتيه أمام استغراب الحضور الذين لم يفهموا سر هذا الاحترام الذي يبديه أوغستيني من الأسياد نحو فتاة من البسطاء ملابس يرتديها الرقيق.

ـ دمت بعافيّة!

وانطلق مسرعا بعد أن ابتعد عنه الموكب القيصري كثيرا.

ودعه الحواريّ بطرس برسم إشارة صليب خفيفة لا تلحظ، أما أرسوس الورع فقد بدأ بالتسبيح والحمد لأن سيدة الشاب تصغي اليه بتلك اللهفة والتوق، ورمقها بنظرة امتنان.

ابتعد فينيكوس، وظلت نظراتهم عليه حتى تقدم منهم ديماس الطحان الذي عمل عنده أرسوس كل ليلة.

حيا الحواريّ، وطلب إليهم أن يرافقوه إلى المنزل القريب من الامبوريوم لتناول شيء من الطعام، فلا بد أنهم جائعون، ومتعبون بعد أن أمضوا كل النهار عند المدخل.

وساروا معا. وبعد أن استراحوا في بيت ديماس، وتناولوا طعامهم عادوا إلى الترانستبريس. رغبوا في عبور جسر إيميليوس إلى الضفة الأخرى، فساروا ضمن كليثوس بوبلوس التي تقود إلى معبد ديانا وماركوريوس. راح الحواريّ بطرس يجول ببصره في تلك الأنحاء وبيوتها. فأذهلته السطوة والضخامة التي تتحلى بها المدينة التي كلفه السيد بنشر دعوته فيها.

كان قد جال في بلاد عديدة وشاهد فيها كثيرا من المعالم والتجمعات، والفيالق الرومانية، لكن ما رآه قياسا إلى ما شاهده هنا، لا يمثل الا عناصر قليلة من الإمبراطورية، خاصة وأن القيصر قد عبر أمام ناظريه لأول مرة. هذه المدينة الكبرى جوفاء وآسرة، ومتعفنة حتى العظم، لكن سلطانها صلب. وهذا القيصر الذي قتل أخاه وزوجته وأمه، ومع ذلك يرافقه الان عدد هائل من البشر.
هذا المهرج التافه، وهو في نفس الوقت قائد لثلاثين فيلقا يسود من خلالها في أرجاء الأرض، وهؤلاء العجزة من أفراد الحاشية الذين لا يضمنون بقاءهم على قيد الحياة حتى اليوم التالي، الا أنهم أكثر سطوة من الملوك. الا يدل كل هذا على أنها ملكة جهنمية للشر والرذيلة.
وتعجب قلبه الطيب البسيط: كيف يمكن للرب أن يعطي كل هذا السلطان للشيطان، وكيف يمنحه الأرض ليديرها ويعبث بها فسادا، ويريق فيها الدموع والدماء، ويخلعها كالعاصفة، ويدمرها كالإعصار، ويحرقها كالنار. اهتز قلب الحواريّ لهذه الأفكار وخاطب معلمه قائلاً: "سيدي ما الذي سأصطاده في هذه المدينة التي أرسلتني اليها؟ إنه يملك كل البلدان والبحار، وكل كائن حي إن كان فوق اليابسة أو في أعماق المياه، وكل مملكة، وقوة، وثلاثين فيلقا تحميه وتدافع عنه، وما أنا يا سيدي سوى صياد في بحيرة. فما الذي سأصطاده هنا؟ وكيف سأتغلب على شروره؟"
قال ذلك رافعا رأسه نحو السماء، متضرعا إلى الله بكل ما يخالجه من مخافة وحزن. لكن ليفيا قطعت عليه صلاته:
ـ كأن المدينة تحترق بالنار.....
وفعلا في هذا المساء هبطت الشمس إلى مغيبها على نحو غريب جدا. غاب قرصها العملاق حتى منتصفه وراء قبة لانيكولس, وسبحت قبة السماء بكاملها في ضوء أحمر.
ومن حيث هم في ذلك المكان شاهدوا فسحة واسعة، وإلى يمينها قليلا، بانت لعيونهم جدران السيرك الكبير الممتد طويلاً، تلاها، إلى الأعلى، البالاتينوس بأجنحته المتراصة، وأمامهم مباشرة كان الفوروم بواريوم وفالابروم، وقمة الكابينوليوم وعليها معبد جوبيتر. لكن جدران الكنيسة وأعمدتها، وقممها قد بانت من هناك وكأنها غارقة في ذلك الضوء الأرجواني المذهب، شأنها في ذلك شأن ما أتيحت رؤيته من أجزاء الأنهار البعيدة الملتمعة بالحمرة. وكلما ازداد قرص الشمس هبوطا وراء القبة، نشر حمرته الاغمق فالاغمق، حتى استحال إلى قرص ناري شعت أنواره لتطال القمم السبع، وتنعكس من هناك إلى باقي الجهات.
كررت ليفيا قولها:
ـ كأن المدينة بكاملها تحترق.
فقال بطرس مظللا عينيه بكفه:
ـ ليحل عليه غضب الله!

**من فينيكوس إلى ليفيا**

عبدي فليفون الذي يحمل رسالتي هذه مسيحي. فهو إذن، يا حبيبتي، من بين أولئك الذين سيحصلون على حريتهم على يديك. إنه خادم قديم في بيتنا، وأنا أثق به لأحمله رسالتي، فلا تقلقي. أكتب لك من لاورنتوم حيث الحرارة شديدة. هنا كان لأوتو فيلا فخمة أهداها ذات يوم لبوبيا، لكن المرأة حتى بعد طلاقها منه استحسنت الإبقاء على هذه الهدية... إذا ما فكرت فيك، وقارنتك بهؤلاء النسوة من حولي، أشعر أن أصنافاً مختلفة لا تشبه بعضها من البشر قد نتجت من أحجار ديوكاليون، وأنك تنتمين إلى ذلك الصنف المخلوق من البلور.

متيم بك وأحبك إلى حد لا أرغب في الحديث الا عنك. الآن سأرغم نفسي على الكتابة اليك عن الرحلة، وأخبار الحاشية، وكل ما قد حصل معي. لقد حلّ القيصر ضيفاً على بوبيا التي أقامت له مأدبة فاخرة، لم يدع اليها الا قلة، منها أنا وبترونيوس.

قمنا بعدها بنزهة بالمجاديف في مياه البحر الهادئة الزرقاء كعينيك، يا ليفيا الالهيّة، نحن من قام بالتجديف نزولا عند رغبة القيصر الذي أراد أن يتملق أوغستا فيجدف بها رجال قنصليون وابناؤهم. وقف القيصر بردائه الأرجواني في المقدمة، وغنى مقطوعته الشعرية التي كتبها الليل الفائت في تمجيد البحر. ولقد ردّدها معه في مراكب أخرى عبيد هنود يجيدون استخدام القواقع البحرية. خرجت بعض الدلافين من المياه على وقع الموسيقا. أتدرين ما الذي فعلته أنا؟ فكرت بك، وغلبني الشوق إليك، وودت لو قبضت على هذا البحر، وهذا الزمن الجميل كالموسيقا لآخذها اليك. أترغبين يا ليفيا أن نقطن على شاطئ البحر بعيداً عن روما؟

لي أملاك في سيسيليا، من ضمنها غابة من اللوز تتفتح عن أزهار وردية في الربيع، وتمتد حتى شاطئ البحر فتكاد فروعها تلامس المياه. هناك سأحبك وأعطي ذلك الدين الذي علمني إياه بولس حق قدره، لأني أدركت الآن أنه لا يفصل الحب عن السعادة. هل ترغبين؟... لكن قبل أن أسمع الرد من فمك الحلو، دعيني أتابع كتابة ما حصل في القارب.

حين نأينا عن الشاطئ لمحنا في البعيد سفينة شراعية تبحر باتجاهنا. وسرعان ما بدا الجدل فيما إن كانت السفينة مجرد مركب بسيط لصيد السمك، أم سفينة نقل كبيرة. أنا من عرفها أولا فقالت أوغستا: يبدو أن لا سر الا وينكشف أمام عيني.

وما كان منها على الفور، الا أن ردت الوشاح على وجهها وسالت إن كنت أعرفها وهي كذلك؟ أجابها بترنيوس قائلاً بأنه حتى الشمس لا يمكن معرفتها خلف الغيوم. ابتسمت بوبيا وأجابت على نحو مخادع بأن هكذا عينين حادتين لا يحد من قوة بصرهما إلا الحب.

ثم راحت تذكر الاوغستيانات واحدة تلو الأخرى، محاولة انتزاع أيهن أوقعتني في حبها. وكنت أجيبها عن كل واحدة بكل هدوء وبرود لكنها في النهاية ذكرت اسمك حين تحدثت عنك كشفت عن وجهها مرة أخرى، ورمقتني بنظرة متجسسة خبيثة. أنا ممتن كثيرا لبترونيوس لأنه في هذه اللحظة جنح بالقارب قليلا فأبعد بذلك الانتباه عني. والا فلو صدرت عن أحدهم أية تعليقات ساخرة، أو تضمر العداء لك، ما كنت لأحتمل الأمر، ودافعت عنك تحدوني رغبة في أن أفج بالمجداف رأس تلك المرأة الغادرة اللعينة. لا بد أنك تذكرين ما حكيته لك في منزل لينوس عشية سفرنا عما حصل في بحيرة أغريبا. بترونيوس خشي علي، وما يزال يرجوني بالا أخدش غرور الاوغستينا.

لكنه بات لا يفهمني، ولا يستطيع أن يتفهم أنه ما عداك بالنسبة لي لا وجود للروعة والجمال والحب، وأني لا أشعر نحوها الا بالقرف والاحتقار. ما حصل أنك قد عدلت في روحي، وغيرت في كياني، حتى بت لا

أحتمل العودة إلى حياتي الماضية. لكن لا تقلقي علي هنا، فلن يصيبني أي مكروه.
بوبيا لا تحبني لأنها لا تعرف أن تحب أحدا، وما تقلباتها ونزواتها الا ردود أفعال لغيرتها وغضبها من القيصر.
مازال القيصر واقعا تحت تأثيرها، ولعله ما زال يحبها، لكنه بات لا يخصها بالتفضيل، ولا يخفي أمامها صفاقته هذه. سأقول لك شيئاً يطمئنني، فقد قال لي بطرس وهو يودعني بالا أخاف القيصر فلن يمسني أي أذى، وأنا أصدقه. صوت ما في داخلي يقول:
أن كل أقوال بطرس سوف تتحقق. وبما أنه قد بارك حبنا، فلن يستطيع لا القيصر، ولا قوة هادس، ولا القدر أن تنتزعك مني. إذا ما فكرت في ذلك أشعر أني سعيد كالسماء لأنها وحدها التي تملك السعادة والاطمئنان. هل يغضبك ويخدش شعورك، كفتاة مسيحية، ما أقوله عن السماء والقدر؟
إن صح ذلك، فأستميحك العذر، لأنه صدر بغير إرادة مني. الماء المسيحي لم يغسلني بعد، لكن قلبي كالمغارة الفارغة، وينبغي على بولس أن يملأها، بالعلم السعيد الأكثر سعادة من أي شيء لأنك تملكينه. أما أنت يا ليفيا الالهيّة فأرجو أن تثقي بأني قد أرقت كل السائل الذي كان يملأ مغارة قلبي، ولن أعيده اليها لأني أشرعتها وهي الان كظمآن صادف نبعا صافيا.
خذيني بالرحمة، وأنا في الأنتيوم سأمضي نهاراتي ولياليي في سماع بولس الذي كان له منذ اليوم الأول تأثير كبير في أوساط عناصري الذين لم يروا فيه صانع أعاجيب فحسب بل وجدوه كائنا فوق مستوى الطبيعة. أمس لاحظت أن وجهه يشع بالسعادة، وحين سألته عن السبب أجابني بالقول:
"أزرع بذرة". بترونيوس يعلم أنه هنا بيننا، ويرغب في لقائه، وكذلك سينكا الذي سمع عنه من غالوس والان النجوم تتوس. آه يا ليفيا، ونجمة الصباح تزداد تألقا. الفجر يوشك أن يلون البحر بالوردي. كل شيء في الأنحاء نائم، وأنا ساهر أفكر فيك وأحبك. أنا وغسق الفجر نحييك، يا خطيبتي.

**من فينيكوس إلى ليفيا**

**حبيبتي هل زرت يوما الأنتيوم برفقة عائلة أولوش؟**

إن لا، فسأكون سعيداً إذا ما عرّفتك به بنفسي. صارت الفيلات منتشرة من لاورنتوم حتى تبلغ الشاطئ. والأنتيوم نفسه عدد لا يحصى من القصور والأروقة المشادة في صف فائق الطول أعمدته في أوقات الصحو، تنعكس جميعها على صفحة الماء. وأنا أيضاً أملك فيلا عند الشاطئ مباشرة، وخلفها حديقة من الزيتون، وغابة من السرو. وحين أفكر في أن منزلي هذا سيكون لك، أرى رخامه أشّد بياضا، وحدائقه ظليلة، وبحره أشدّ زرقة. آه يا ليفيا ما أجمل أن نحيا ونحب. العجوز مانيكلس، وهو المشرف على هذا المنزل، ملأ المكان سوسنا، وزرعه تحت شجر الاس فذكرني بمنزل الوش وحدائقه حيث جلسنا معا مرات. وهذه السوسنات سوف تذكرك بمسقط رأسك، وهذا ما يؤكد لي أنك سوف تحبين الأنتيوم والفيلا، هناك. فور وصولنا تحدثنا بطرس وأنا طويلاً تحت البرنديوم.

تحدثنا عنك، ثم بدأ بطرس دروسه معي. أصغيت له طويلاً، وسأكتفي بالقول: حتى لو أني أجيد الكتابة كبترونيوس، فلن أستطيع التعبير عن كل ما يجول في عقلي وروحي.

لم أكن ليخطر لي أبدا أن ثمة بعد سعادة وجمالا، وطمأنينة لا يعرفها البشر. لكني سأدع الان كل شيء لأحدثك به وجها لوجه في أقرب فرصة تتاح لي للسفر إلى روما.

قولي لي كيف تحمل الأرض عليها في زمن واحد أمثال بطرس وبولس والقيصر؟ أسألك هذا لأني، بعد أن أنهى بطرس درسه أمضيت الليلة عند نيرون.

أتعلمين ما الذي سمعته هناك؟ قرأ أولا قصيدته عن دمار طروادة، ثم أبلغنا بأنه لم يشاهد بعد مدينة محترقة. حسد بriاموس ونعته بالإنسان السعيد، لأنه تمكن من مشاهدة مدينته وهي تشتعل وتدمر. فصاح تيفالينوس: "ما هي إلا كلمة واحدة منك، وقبل حلول الليل سأحمل مشعلا وترى الأنتيوم يحترق".

لكن القيصر رمقه بنظرة لائمة تقول: أيها الأحمق! وأين سأستنشق بعدئذ هواء البحر العليل، حفاظاً على صوتي هدية الآلهة لي، والنعمة التي مني بها الشعب لمصلحته في النهاية.

اليست روما هي المدينة التي الحقت بي الأذى؟ أليست أدخنة سوبورا هي التي سبّبت بحّة صوتي. ثم أليس إحراق روما بالمشهد الأعظم والأكثر تراجيدية من إحراق الأنتيوم؟

وبدأ الجميع يتكلمون عن المشهد التراجيدي المفترض لإحراق المدينة الجبارة التي اكتسحت العالم، وتحولت إلى رماد. ومن جملة ما قاله القيصر في هذا الشأن أن قصيدته في إحراق روما ستبذ قصائد هوميروس، وراح يحكي تصوراته في بناء المدينة الجديدة على أنقاضها. وكيف ستمجد العصور التالية هذا العمل العظيم الذي يفوق الأعمال الإبداعية للإنسانية جمعاء. فكان أن استجاب لهذا المدعوون الثملون بأعلى أصواتهم: "أفعلها! افعلها؟" لكنه قال: "لكني في حاجة إذن الأصدقاء أكثر وفاء وتفانيا" الحقيقة أن هذا الحديث قد أقلقني، يا ليفيا، فأنت في روما يا حبيبتي. لكن سرعان ما سخرت من قلقي هذا، وأقول لك إن هؤلاء مجانين وأنا لست بقادر على ارتكاب مثل هذا الجنون. تلاحظين كم يغار المرء على من يحبه ويخاف عليه. وفي رأيي أن كافة قصور البالاتينوس غير ملائمة لإقامتك فيها. فاقترح عليك أن تنتقلي إلى منزل أولوش بكافة متاعك وحليك التي اعتدت عليها منذ طفولتك.

انتقلي الآن يا ليفيا. أنا أفكر كثيراً في هذا حين يكون القيصر في روما، فإن نبأ انتقالك سينتشر على ألسنة العبيد حتى يصل إلى أسماع القيصر في البالاتينوس، وتتوجه أنظاره اليك فيشملك بغضبه لأنك خالفت مشيئته. لكنه الان في الأنتيوم وسيبقى هنا طويلاً حتى يعود.

سيقيم معك كل من لينوس وأرسوس. وما إن يعود القيصر حتى تكوني في منزلي. بورك اليوم والساعة،

واللحظة التي تطئين فيها عتبتي. وإذا ما كان المسيح الذي أتعلم كيف أؤمن به، يمن علينا بهذا، فليتبارك، وليتمجد اسمه أيضاً. سوف أكون خادما له، وأبذل حياتي ودمي لأجله. كان تعبيري خاطئا، والأصح: سنكون كلانا، خادمين له، ما دمنا معا على قيد الحياة. أحبك، وأحبك بكامل روحي".

غرف أرسوس ماء من الحوض بقارورة ذات عروتين، وهو يدندن بهدوء معزوفة ليفوية غريبة، كان خلالها يبتهج مهللا لرؤيته ليفيا وفينيكوس يتحدثان بين صنوبرات حديقة لنيوس، وقد انتصبا كتمثالين أبيضين، يدا بيد لا يرف لهما ثوب بفعل النسيم المسائي اللطيف. وكان الجو قد بدأ يتشح بلون البنفسج المذهب.

سألته ليفيا:

ـ الا يترتب عليك أية عواقب يا ماركوس كونك قد غادرت الأنتيوم دون معرفة القيصر؟

فأجاب الشاب:

ـ لا يا حبيبتي. فقد أعلن القيصر أنه سيحتجب مدة يومين لنظم أغنيتين جديدتين. غالباً ما يفعل ذلك، ولا يكترث حينها بأي أحد آخر، ولا يتذكر شيئاً. وعلى أية حال ما الذي بوسع القيصر أن يفعله لي إذا ما كنت معك. كم أشتاق اليك حتى أني لم أستطع النوم الليلة الفائتة. ما إن سهت عيني من شدة التعب، حتى أفقت مرتعدا لشعوري أنك في خطر. يخطر لي أحيانا ماذا لو قاموا بسرقة أحصنتي من أحد مواضعها، فلا أستطيع الارتحال إلى روما لرويتك. بتّ لا أقوى على الاحتمال بدونك.

ـ أحبك جدا، يا كنزي الوحيد!

ـ عرفت أنك ستأتي. لقد أرسلت أرسوس مرتين للسؤال عنك في منزلك. وقد هزأ مني كل من لنيوس وأرسوس.

والحق أنه بان عليها أنها كانت تنتظره، لأنها بدلا من ثوبها الداكن المعتاد، كانت ترتدي روباً أبيض فضفاضًا طلع منه رأسها وذراعاها, كزهرة الربيع المتفتحة في الثلج. وكانت تزيّن شعرها ببعض زهرات وردية.

قرّب فينيكوس شفتيه من يد الفتاة وقبلها، ثم جلسا على مقعد حجري توضع بين عرائش الكرمة البرية. وبكتفين متلاحمين راحا يرقبان شفق الغروب الذي بات يعكس آخر التماعاته الحمراء في أحداقهما. وشيئاً فشيئاً أخذهما سحر سكون المساء.

علّق فينيكوس هامساً:

ـ أي سكون هنا وما أروع الكون. الليلة بديعة. أشعر أني سعيد كما لم أكن ذات يوم. قولي يا ليفيا عبّري ما هذا الذي نحن فيه؟ لم أكن لأظن يوما أن حبًّا كهذا الحب يمكن أن يكون في هذا العالم. كنت أعتقد أن الحب لا يتعدّى كونه شوقًا معذبًا، وناراً متأجّجة تدور في دم الإنسان. لقد اكتشفت الآن أن بوسعنا أن نحب بكل قطرة من دمنا، بكل نفس من أنفاسنا، وأننا في سلام وطمأنينة كأنما قد سكن أرواحنا اله الموت، أو اله الأحلام. هذا أمر جديد كل الجدة بالنسبة لي.

آرى سكون الاشجار العميق، فأشعر أن السكينة قائمة في كياني. لم أشعر الا في هذه اللحظة بطعم السعادة التي لم تعرفها البشرية حتى الان. ولم أفهم الا الان لم أنت وبومبونيا بهذا اللطف والوداعة.... أجل!.... إنها هبة المسيح...

في هذه اللحظة اتكأت الفتاة برأسها الفاتن على كتف الشاب وهمست قائلة:

ـ يا حبيبي ماركوس. يا ماركوسي الحبيب...

ولم تقو على المتابعة. السعادة، الامتنان، إدراكها بأنه بات يحق لها أن تحبه، هو ما منعها من الكلام، متيحه المجال لدموع الانفعال أن تغرق عينيها. لف الشاب جسد الفتاة الرقيق، وضمها اليه بعض الوقت ثم قال: ـ ليفيا! بوركت اللحظة التي سمعت فيها اسمك للمرة الأولى. فهمست الفتاة: ـ أحبك، يا ماركوس.

ثم صمتا من جديد، لأن طوفان السعادة قد أطاح بالكلمات. كانت أشعة الغروب البنفسجية الاخيرة قد ناست

على شجر السرو، وارتدت الحديقة نوراً فضيًّا استمدته من عباءة القمر.
وبعد قليل بادر فينيكوس إلى القول:
ـ أعلم... ما إن وطئت المكان، وقبلت يديك حتى قرأت بعينيك سؤالا فيما إن استوعبت تلك التعاليم الالهية التي تعتنقينها، وصرت مسيحيا. لا. لم يعمدوني بعد. أتدرين ما السبب يا زهرتي؟ لأن بولس قال لي "أنا من أقنعك أن الله قد هبط إلى هذا العالم، وصلب نفسه ليخلص العالم، لكن في منبع الرحمة، دع بطرس هو الذي يطهرك لأنه أول من بسط اليك يديه وباركك". أنا نفسي فضلت يا حلوتي أن تشهدي على عمادي، وأن تصبح بومبونيا أمالي.
لهذا السبب لم أصبح مسيحيا بعد، رغم إيماني بالمخلّص وتعاليمه الثمينة. بولس أقنعني، أصلحني. وهل كان ممكنا بطريقة أخرى؟
كيف لي أن أشكك في أن المسيح قد هبط إلى هذا العالم وقد قال ذلك كل من بطرس الذي كان أحد تلامذته، وبولس الذي تجلّى له؟ كيف لي أن أشكك في أنه الرب ما دام قد قام من موته؟ وما دام قد شاهده في المدينة، وعند البحيرة وفوق الجبل، أناس لم تنطق أفواههم إطلاقا بكلمة كاذبة؟
لقد آمنت بذلك منذ سمعت بطرس يتحدث في الأستريانوم، وقلت لنفسي حينها: "الأحرى بأي أحد آخر أن يكذب لكن ليس بطرس الذي يقول"لقد رأيته"لكني خفت من دينكم. ظننت أنه سيجردني منك. وأنه خال من الحكمة والجمال والسعادة. أما اليوم وقد عرفته، فأي إنسان أكون إن لم أرغب في أن تعم العدالة الأرض، بدلا من الافتراء والدجل، والمحبة بدلا من البغيضة، والخير بدلا من الشر، والوفاء بدلا من الجحود. والرحمة والتسامح بدلا من النقمة والثأر؟ هل ثمة إنسان لا يحب كل هذا ولا يرغب فيه؟ اليست هذه تعاليمكم الدينية؟ أديان أخرى أيضاً تريد العدالة لكن دينكم ينفرد بتعليم القلب ليكون صادقا، ويجعله نقيا، وفيا، كقلبك أنت وقلب بومبونيا.
سأكون أعمى، إن لم أر ذلك. كيف إن كان الرب، إضافة إلى ذلك، يعد بالحياة الابدية والسعادة المطلقة. ما الذي يبتغيه المرء أكثر من هذا؟ إذا ما سالت سينكا عن السبب في أنه يوصي بالاستقامة حيث الحياة الخاطئة تجعلنا أكثر سعادة، فلن يملك جواباً فطناً. لكني الآن أدرك لم علي أن أكون مستقيما. والجواب لأن الخير والمحبة منبثقان من عند المسيح، ولأني بعد أن يطبق الموت عيني، سألقى الحياة، والسعادة، والقى نفسي، والقاك، يا وحيدتي... فكيف للمرء أن لا يحب ويتقبل هذه التعاليم التي إضافة إلى صحتها، تنتصر على الموت؟
من الذي لا يفضل الخير على الشر كنت أظن أن هذا الدين يتعارض مع السعادة لكن بولس أقنعني انه دين ليس فقط لا يتخلى عن السعادة بل ينميها أيضاً. آه يا ليفيا! عقلي يقول إنه الأفضل، إنه الدين الالهي، وقلبي أيضاً يحس ذلك، فمن بمقدوره أن يقاوم مثل هاتين القوتين الجبارتين؟
كانت ليفيا تصغي، دون أن يرف لها جفن، وعيناها الزرقاوان في ضوء القمر أشبه بزهرتين مكتنفتين بالأسرار، لا بل جعلتها الدموع زهرتين نديتين حقا.
ـ أجل، يا ماركوس، أجل قالت وهي تلتحم أكثر بكتف الشاب.
كلاهما في هذه اللحظة كان سعيدا، لأنهما أدركا أن هنالك قوة أخرى تربطهما إضافة إلى الحب، وأن هذه القوة لها من الحلاوة بقدر مالها من الجبروت، وهي التي تبقي الحب أبديا غير عرضة للتبدل، وتهديد الخداع، وحتى لسيادة الموت عليه. امتلأ قلباهما بالأمان والثقة، فمهما حصل سيظلان يحب كل منهما الآخر، ولن يفرق بينهما شيء. وشعر فينيكوس أن هذا الحب لا يتسم فقط بنقائه وعمقه، بل بكونه حبا من نوع جديد تماماً، لا عهد للعالم بمثله، وليس بمقدوره أن يمنحه من قبل كل شيء كان مكونا من مكونات الحب في قلب فينيكوس: ليفيا، تعاليم المسيح، الطاقة، ضوء القمر خلل شجر السرو، وهذه الأمسية الوديعة

الهانئة. كأن المجرة على اتساعها غدت مملوءة بهذا الحب.
بعد قليل قال بصوت خافت مرتعش:
- سيكون روحا لروحي وأغلى ما لدي في العالم. سينبض قلبانا معا، وستكون صلاتنا مشتركة، ومشتركا سيكون شكرنا تجاه المسيح. آه يا وحيدتي! نحيا معا، ونصلي معا للرب الطيب. ونعلم أننا إذا ما متنا فسوف تستيقظ عيوننا ثانية، على ضياء جديد، بعد أن أغمضت على حلم سعيد. أي تصور يرقى على هذا التصور؟ أعجب لنفسي كيف لم أفهم ذلك من قبل؟ أتدرين ما الذي أفكر فيه الان؟ لا أحد بمقدوره أن يقاوم هذه التعاليم. بعد قرنين، أو ثلاثة قرون سوف تعم العالم. سينسى الناس جوبيتر، ولن تكون هنالك الهة سوى المسيح، ولا معابد الا كنائس المسيحيين من الذي لا يرغب في سعادته الخاصة؟ لقد سمعت حديث بولس وبطرس، أتعلمين ما الذي قاله بترونيوس في النهاية؟"هذا لا يعنيني" ولم يكن بمقدوره أن يتفوه بشيء آخر.
- قل لي ما قاله بولس طلبت اليه ليفيا.
- حدث ذلك عندي ذات ليلة. كعادته بترونيوس راح يتكلم ويمزح بخفة دم، فقال بولس: "كيف يمكن لك يا بترونيوس وأنت إنسان ذكي، أن تنكر أن المسيح قد سار على الأرض، وقام من الموت، في حين أنك لم تكن مولودا بعد؟
لكن بطرس ويوهان قد شاهداه، وأنا رأيته على طريق دمشق. دع حكمتك تثبت أولا أننا دجالون ثم ادحض ما جئنا به من بينة" لكن بترونيوس قال إنه لا يقصد الدحض والانكار، وهو يعلم أن كثيرا من الامور اللامعقولة تحصل في العالم، ثم يقوم بتغذيتها مصدقوها ومروجوها.
لكنه أضاف أن اكتشاف اله جديد شيء، واعتناق دينه شيء آخر."لا أريد أن أعرف عن أي شيء من شأنه أن يفسد حياتي، ويطيح بجمالها. ليس مهما أن تكون الهتنا الهة حقيقية، لكنها الهة جميلة، ونحيا قربها مرحين، بلا أعباء" فأجابه بولس قائلاً: "إنك تحتقر المحبة، ودين الصدق والرحمة، لأنك تخشى أعباء الحياة، لكن قل لي هل حياتكم التي تحيونها خالية من الاعباء؟ وإنكم إذا تحنون رؤوسكم خنوعا، لا أنت ولا أحد منكم حتى الأكثر ثراء ونفودا، بمقدوره أن يتوقع ما يمكن أن يطاله من أحكام قد تودي بحياته. لكن قل لي إذا ما القيصر قام باعتناق هذا الدين الذي يدعو إلى الحق والضراعة، اليس ذلك أكثر ضمانة لسعادتك؟ تخشى على متعك، لكن الن يكون من شأن ذلك أن يجعل حياتكم أكثر مرحا وسرورا؟
أما ما يخص جمال الحياة وبهرجها، فإذا كنتم قد أقمتم كل هذا الكم من المعابد، والنصب الفخمة لألهتكم السيئة المنتقمة الزائفة، الفاسقة، فما أكثر ما كنتم ستفعلونه لتمجيد اله الصدق و المحبة الواحد الاحد. الا فلتبارك قدرك لأنك ذو سطوة ونفوذ وتنحدر من أسرة ذات سطوة ونفوذ، فماذا لو رأيت النور وأنت من أسرة بائسة مدقعة، اليس من الافضل لك أنك تعيش في عالم يقوم على اعتناق دين المسيح؟
في مدينتكم بعض من أعيان القوم يرمون بأطفالهم هروبا من أعباء تنشئتهم، وهؤلاء الأطفال يطلق عليهم"اللقطاء". كان يمكن يا سيدي أن تكون لقيطا من أولئك. وعلى العكس من ذلك لو كان والداك قد عاشا على ديننا، لن يحدث مثل ذلك. وببلوغك سن الرجولة كنت ستتزوج من امرأة تحبها، وتمضي معها بقية حياتك.
لكن أنظر حولك الان لدى ما يحصل عندكم. كم من الصفاقة وكم من العار، وكم يجرى من اتجار مطلق بالوفاء الزوجي! أنتم أنفسكم بتم تستغربون وجود امرأة تتسم بالوفاء. لكني أقول لك أن النساء اللواتي يكنزن المسيح في قلوبهن يفين بالعهد، ولا يتخلين عن إخلاصهن تجاه أزواجهن، وكذلك الرجال المسيحيون تجاه زوجاتهم.
أما أنتم فلستم ضامنين لا أسيادكم، ولا آباءكم، ولا زوجاتكم، ولا ابناءكم، ولا حتى خدمكم. العالم بأسره

يرتعد منكم خوفا، وأنتم ترتعدون من أرقائكم، لأنكم تدركون أنكم قد تجابهون انتفاضهم عليكم كما حصل غير مرة. أنت ثري، لكنك لا تدري ما يخبئه لك الغد من أوامر تسلبك هذا الثراء، أنت شاب لكنك قد يفرض عليك في الغد أن تموت. أنت تحب لكن الخيانة قد تفاجئك. أنت محب للفيلات، والنصب، لكنك في الغد قد تنفى إلى جزيرة ما.
عند الاف الأرقاء لكنهم غدا قد يريقون دمك. وما دامت هذه هي أحوالكم فأية سعادة، وطمأنينة تعيشون؟ أما أنا فأدعو إلى المحبة و إلى تعاليم تطلب من أصحاب النفوذ، والاكابر أن يحبوا الاصاغر، والاسياد أن يحبوا العبيد والعبيد أن يخدموهم.محبة، تعاليم تطلب التزام الحق، والضراعة، تعاليم تعد، أخيرا، بالسعادة الواسعة كاتساع البحر. كيف يمكنك القول يا بترونيوس أن هذا الدين يفسد الحياة، فيما هو يدعو إلى إصلاحها، وإنك لأكثر سعادة ويقينا مرات ومرات لو أن هذا الدين يملا العالم، كما يملؤه نفوذ روما الان.
أجل يا ليفيا هذا ما قاله بولس. فكان رد بترونيوس: "هذا لا يعنيني". ثم خرج، وكأن النعاس غلبه، لكنه قال مودعا: "يونيكي" أحب إلي من عملك هذا، وأنا لست راغبا في إقامة سجال معك".
كنت أصغي إلى بولس بكل كياني، وحين تحدث عن نسائنا أكبرت الدين الذي أنشأك، فنموت نمو الزنبقة في التربة الربيعيّة. قلت لنفسي هاهي ذي بوبيا قد تخلت عن زوجين لها لأجل القيصر، وها هي كريسبنيلا، و نيجيديا، وكل من أعرفهن، باستثناء بومبونيا، قد بعن عهودهن، وكل ما آمن به، لكن فتاتي هي الوحيدة التي لم تتخل عني، لم تخني، لم تطفئ النار، ولن تفعل ذلك، حتى لو خدعتُ وفقدت رجائي في كل شيء. أقول لنفسي كيف أرد جميلك هذا، يغير الحب والتقدير؟ لقد أحببتك أضعافا لأنك هربت مني في قصر القيصر. بات قصرا لا يعنيني. لا تعنيني متعه، ولا موسيقاه، أنت وحدك من تعنيني. كلمة واحدة منك تجعلني أغادر روما.ما فيها، وأذهب بك بعيدا لنستقر في أي مكان و الفتاة بدلا من أن ترفع رأسها عن كتف الشاب، جالت بنظرها على تيجان أشجار السرو المفضضة، وقالت مستفكرة:
ـ حسنا يا ماركوس. أنت كتبت لي عن سيسيليا، حيث ترغب عائلة اولوش بالاستقرار في الشيخوخة...
فقاطعها فينيكوس مستبشرا:
ـ أجل يا حبيبتي! ملكياتنا متجاورة هناك. إنه ريف ساحلي بديع، قبة السماء أكثر صحوا ولطافة، من سماء روما. الأماسي أكثر وداعة، وعطرا. الحياة و السعادة هناك شيء واحد لا يتجزأ وراح يحكي. تصوراته عن المستقبل:
ـ يمكن للمرء هناك أن ينسى أعباءه. ستتمشى بين أشجار الزيتون، ونستريح في ظلالها، آه يا ليفيا! ما أروعها من حياة: أن نحب، أن نواسي بعضا، أن نستمتع معا بالبحر والسماء، أن نصلي معا للاله الخير، ونسلك بكل آمان، وفي كل شيء، سلوك الحق والخير.
ثم لزما الصمت، سارحين في المستقبل، وقد ضم الشاب الفتاة اليه بقوة أشد، وفي أثناء ذلك تحت ضوء القمر، لمع بإصبعه الخاتم الفروسي الذهبي. كان كل شيء قد استسلم في الحي العمالي الفقير إلى هجعته، ولم يعكر الخفيف الناعم اللطيف سكون الليل.
سألت ليفيا:
ـ وهل ستسمح لي عندئذ بزيارة بومبونيا؟
ـ طبعا يا حبيبتي. سنقوم بدعوتهم لزيارتنا، أو نقوم نحن بزيارتهما. أترغبين في أن نصطحب معنا الحواريّ بطرس؟ لقد صار في سن يجهده العمل المتلاحق كثيرا. وبولس أيضاً سوف يكثر من زيارتنا، ويعم د أوسوس بلوتوس، وكما يقوم العسكر بإنشاء المستعمرات في البلدان البعيدة، سننشئ نحن مستعمراتنا المسيحية.
رفعت ليفيا يدها، وأمسكت بكف فينيكوس اليمني تريد أن تقربها من شفتيها، لكن الشاب استبق ذلك،

وكأنما قد خشي أن يجفل السعادة إذا ما رفع صوته ولو قليلا، فقال للفتاة هامسا:
- لا. لا تفعلي يا ليفيا. أنا أحترمك، وأقدرك، فهاتي يدك.
- أحبك.
لكن الشاب كان قد أخذ بيدها الناصعة البياض إلى شفتيه ولم يسمعا لبرهة الا خفق قلبيهما.
لم تتسم أخف ما هنالك من نسائم، فظلت أشجار السرو ساكنة لا تهتز وكأنها انسجاما مع الحالة قد كتمت أنفاسها أيضاً.
وعلى نحو مباغت قطع هذه السكينة هدير عميق كأنما جاء من أعماق الأرض، فارتعدت له أوصال ليفيا، لكن فينيكوس نهض وقال:
- الاسود تزأر في أقفاصها في الملاعب. وأصغيا كلاهما. في هذه الأثناء تلاحق الزئير زأرة بعد أخرى، أولى وثانية وثالثة، وجاءت الزارة العاشرة من كل أرجاء المدينة، و من كل الأنحاء. في المدينة كانوا قد حشروا بضعة الاف من الاسود في المجتلدات، وميادين المصارعة فكانت هذه الوحوش كل ليلة تسند رؤوسها الضخمة على جدران الأقفاص وتبدأ زئيرا يعلن عن شوقها للحريّة و الفلاة.
وهكذا، في وحشة السكون هذه الليلة، بعد أن يزأر أحد الأسود زارته الأولى، يسلم دوره لأسد آخر وزأرة ثانية، وثالثة، حتى امتلأت أرجاء المدينة زئيرا. كان ذلك تعبيرا عن قوة هائلة متوعدة تنذر بتحطيم رؤى السلام والوداعة الاتّية. كانت ليفيا تصغي بقلب منقبض، وخوف، وحزن.
لكن فينيكوس ضمها اليه قائلاً:
- لا تخافي يا حبيبتي، المصارعة تقترب، ولهذا فالميادين ممتلئة بالاسود.
وعلى وقع زئير الأسود الهادر المشتد شيئا فشيئا، اتجه كلاهما إلى منزل لنيوس.

في خلال ذلك بعد يوم، كان بترونيوس في الأنتيوم يحقق مجدا وتفوقا على زملائه الاغستيين الذين تسابقوا و باروه لكسب رضا القيصر والفوز برحمته. هبطت أسهم تيفالنيوس وأمحي تأثيره تاما. ففي روما، إذا ما استوجب الأمر إبعاد الناس الخطرين من أمام الأقدام، فالحيل كثيرة: إما الثروة ووضعهم تحت الأضواء وإبهار الاخرين بولوغهم في التبذير والترف على نحو ينافي كلية الذوق واللباقة، وإما إشباع رغبات القيصر المرعبة.

وفي ذلك كله كان تيفالنيوس الماكر الرجل الأقدر من بين الجميع. في الأنتيوم عاش القيصر حياة هيلينية إغريقية في قصوره المنعكسة في مياه البحر الزرقاء اللازورديّة.

فكانوا منذ الصباح حتى المساء يقرؤون الاشعار، ويفندون بناءها، وماثقل منها على الاسماع، مستمتعين بكل لفتة موفقة فيها، أو ينشغلون بالموسيقا والمسرح، وباختصار بكل ما أنتج العقل المبدع الإغريقي من إبداعات زخرفت حياتهم.

هنا في هذا الميدان كان بترونيوس لا يجارى قياسا بتيفالنيوس والاوغستيين الاخرين. كان أكثرهم ثقافة ما لا يقاس، أبرعهم حديثا، أشف هم أحاسيسا، أرفعهم ذوقا.

وجد فيه القيصر الصاحب، والمستشار، والناصح الابداعي، وانفتح عليه بصداقة أعمق من أي وقت مضى، حتى ظن الجميع أن تأثير بترونيوس بات في حكم المؤكد، وأن أواصر صداقته بالقيصر تقوم الان على أسس صلبة، وأنها ستمتد سنين طويلة إلى الأمام. وحتى أولئك الذين كانوا ينظرون إلى الأبيقوري المرموق باستهجان، باتوا الان يتجمهرون حوله أملا برضاه.

ولقد سر كثيرون حقا بأن يتقدم واحد مثله ويتصدر الواجهة فهو بخبرته ولباقته قد عرف في الأمس كيف يتقبل بابتسامة شكاكة مداهنة الخصوم وتملقهم. وسواء أكان ذلك نتيجة للكسل أو اللباقة الأرستقراطية فهو ليس بالشخص المتحامل ذي النزعة الانتقامية، الذي يستغل نفوذه في أذيّة الاخرين.

مرت آونة أتاحت له أن يخسر حتى تيفالنيوس، لكنه فضل بدلا من خسرانه أن يهزئه، ويكشف له، باستمتاع منقطع النظير، عما تتميز به ثقافته من سطحية ونقص شديدين.

وفي روما كان مجلس الشيوخ مرتاحا، فمنذ شهر ونصف لم يصدروا فيه حكما بالاعدام. صحيح أنهم هنا في الأنتيوم كما روما أيضا، قد رووا العجائب عن الدرجة التي بلغها القيصر من اللين والانحلال، لكن الجميع كانوا يفضلون برحابة صدر أن يحكمهم قيصر يتسم باللين، على أن يكون العوبة في يد تيفالنيوس المتسلط المنحط حتى درجة التوحش. حتى تيفالنيوس نفسه قد فقد عقله، فراح يتشدق ويشدد في طرح نفسه، على اعتبار أن القيصر كثيرا ما أفصح في روما أن لا أحد في البلاط ولا في روما بأسرها سوى شخصين هيلينيين يفهمانه حقا: هو و بترونيوس.

إن مهارة بترونيوس المدهشة قد عززت اليقين لدى الاخرين بأن قوة تأثيره تفوق كل من عداه. فلم يعد.مقدورهم أن يتصوروا القيصر بدونه، لا في أحاديثه عن الشعر والموسيقا، والمباريات، ولا عما إذا كانت نتاجاته الشعريّة، والموسيقية قد بلغت حد كمالها لكن بترونيوس برحابة صدره المألوفة، كان يحادثه دون إعطاء أيّة أهمية لمكانته. متلكئ، وخمول حاذق وشكاك كما هي عادته.

كثيرا ما أحس الاخرون أنه يتهكم ساخرا منهم، ومنه، ومن القيصر، ومن العالم بأسره. كان يجرؤ أحيانا ويقرع القيصر وجها لوجه، وحين كانوا يعتقدون أنه قد تجاوز حدوده، و بالغ في توتير القوس لدرجة قد تقوده مباشرة إلى حتفه، كان يبرع في حرف المسالة موحيا بأن هذا التقريع إنما هو لمنفعة القيصر.

كان من شأن ذلك أن يوقع الحاضرين في الذهول، ويجعلهم متيقنين بقدرة بترونيوس على التملص بنجاح وفخر من أي مطب، قد يعترضه. ذات مرة وكان فينيكوس قد عاد من إحدى رحلاته إلى روما، قرأ

القيصر أمام دائرة ضيقة، أبياتا من قصيدته عن طروادة، وحين أنهاها فوجئ بعدم تصفيق الحضور إعجابا بالابيات، فالتفت إلى بترونيوس بنظرة متسائلة، فأجابه الاخير:
ـ عمل زائف، مصيره النار.
ارتعدت أوصال الحضور خوفا، لأن القيصر لم يعتد على سماع حكما كهذا منذ طفولته. وحده تيفالنيوس بدا مسرورا عمت البشاشة أساريره. على خلاف ذلك صار فينيكوس شاحب الوجه، معتقدا أن بترونيوس الذي لا يدع نفسه للإسراف في الشراب، هو الان في حالة من الثمل لا ريب.
أما القيصر فقد سأله ببالغ اللطف، ولو أن نبرة صوته قد شفت عن غرور مطعون:
ـ اين مواطن الرداءة فيها؟
فاستأنف بترونيوس تقريعه قائلاً:
ـ لا تصدقهم. هؤلاء لا يفهمون في أي شيء. تسألني عن مواطن الرداءة في هذه الاشعار؟ وما دامت تلك رغبتك فسأقول: هذه أشعار جيدة لو كانت من فرجيلوس أو من أوفيدوس، وحتى من هوميروس، لكنها ليست جيدة منك. لا يجوز لك أن تكتب أشعارا كهذه. هذا الحريق الذي تكتب عنه ليس مندلعا بالقدر الكافي، ناره لا تحرق، ونارك ليست من الحرارة الا قليلا. لا تصغ إلى إطراء الآخرين، وتملق لوكانوس أنا أرى أن مثل هذه الاشعار هي العنصر اللاهب، والحد الاعظمي لواحد مثله، لكنها لا تعبر عنك أبدا. أو تدري لماذا؟
لأنك أعظم منهم جميعا. من وهبته الالهة ما وهبتك، علينا أن ننتظر منه الأكثر فاكثر.
لكنك بدأت في التكاسل والخمول، فمن الأفضل أن تنام قليلا، لا أن تظل منهمكا في العمل. وفي مقدورك أن تقدم إبداعات لم يالفها العالم بعد. لذلك فأنا أواجهك بقولي: عليك بالكتابة الافضل!
على هذا النحو كان بترونيوس يناكد القيصر. لكنه يجرح ويداوي. اغرورقت عينا القيصر بغشاوة هي مزيج من الاستمتاع والنشوة.
فقال:
ـ لقد باركتني الالهة. موهبة نوعيّة، لكنها إضافة إلى ذلك، قد زودتني بصديق فنان، وحده من يواجهني بالحقيقة.
ومد يده المكتنزه المغطاة بالشعر الصدئي اللون، نحو الشمعدان الدلفي ليحرق الاشعار.
لكن بترونيوس انتزعها منه قبل أن تمسها النار وقال:
ـ لا. لا! حتى الاشعار غير الخليقة بك، هي ملك البشرية. دعها عندي.
فأجاب نيرون معانقا صديقه:
اسمح لي أولا أن أعمل لها صندوقا يروق لي، وسأبعث بها اليك. وأردف بعد قليل:
ـ تماماً. أنت محق. في قصيدتي، احتراق طروادة ليس لاهبا، وناره ليست متوقدة بالقدر الكافي. كنت أظن أن بلوغي بها سوية هوميروس يكفي. بعض الجبن، والحط قليلا من قدر نفسي، كانا العائقين في تحليقي. أنت من فتح عيني. لكن أتدري لم هي الحال كما تقول؟ لأنه لو أراد النحات أن يعمل نصبا لاله، فسوف يبحث له أولا عن نموذج. أما أنا فلا نموذج لدي. لم أشهد في حياتي مدينة تحترق. لهذا كتاباتي تعوزها الحقيقة.
ـ يمكنني القول أن من يقول مثل ذلك هو فنان كبيره سرح نيرون مستفكرا وقال بعد قليل:
ـ أجبني عن سؤالي يا بترونيوس. هل تأسف أنت لاحتراق طروادة؟
ـ أما أنني آسف أم لا؟... أقسم برأس فينوس المائل، أنني لا أشعر ولو بقليل من الاسف. ولماذا آسف. لم تكن طروادة لتحترق، لو لم يأت بروميثيوس بالنار للناس، ويأذن الإغريق لبرياموس بالحرب. لكن لو لم

تكن هناك نار، فكيف سيكتب اسخيلوس بروميثيوس. وكذلك هي الحال، فلو لم تنشأ تلك الحرب، لما كتب هوميروس الالياذة. أما من جهتي أنا فأفضل وجود بروفينوس و الالياذة عن استمرار قيام تلك المدينة الصغيرة القذرة، والبشعة.
فأجاب القيصر:
- الأمر كذلك، إذا ما أراد المرء أن ينطق بالحق من أجل الشعر، والفن يضحي، وينبغي أن يضحي بكل شيء. الجميع في أكايا سعداء منحهم هوميروس موضوعا من أجل الالياذة، وسعيد برياموس لأنه شهد احتراق مدينته. وأنا؟ أنا لم أر مدينة تحترق.
ساد صمت قصير، اخترقه تيفالنيوس بالقول:
سبق وقلت لك أيها القيصر، ما هي الا كلمة منك، وسأقوم أنا بإحراق الأنتيوم. بل أتدري ماذا؟ إذا كنت ستفتقد هذه الفيلات والقصور، سأحرق السفن في أوستيا، أو أقوم ببناء مدينة من خشب في قاعدة جبال الألب، وأنت بنفسك تلقي بالجمرة هناك. أترغب في ذلك؟
لكن ما كان من نيرون الا أن قاسه بنظرة ازدراء، وقال:
- لا أرى أكواخا خشبيّة تحترق؟ أي هراء هذا منك يا تيفالنيوس. أستنتج من هذا أنك إذ تحط من قدر موهبتي وقصيدتي الطرواديّة، فإنك تزعم أن مواهبي لا تستحق تضحيات كبرى.
ارتبك تيفالنيوس. فيما أراد نيرون أن يغير الموضوع فأضاف:
- الصيف آت... ما أنتن روما الان... لكن علي أن أعود من أجل المباريات الصيفيّة.
فرد تيفالنيوس:
- حين تصرف الجميع أيها القيصر، دعني أبق معك قليلا.
وبعد ساعة من الان كان فينيكوس يقول لبترونيوس بعد أن خرجا من فيلا القيصر، في طريقهما إلى البيت:
لقد أوقعت الرعب في قلبي. ظننت أنك ثمل، وتسارع إلى حتفك. حذار لأنك تعبث بحياتك، فأجابه بترونيوس لا مبالياً:
- هذه هي قاعة قتالي. وأنا فيها أفضل المجالدين. أرأيت كيف كانت النهايّة. وسوف يبلغ تأثيري حدا أعظم في المساء. سيبعث لي بأشعاره في صندوق شديد الشناعة من كثرة زخارفه التي تفتقد إلى الذوق. هل تأتي معي؟. سأقول لطبيبي أن يضع فيه الأدوية المسهلة للأمعاء. وإضافة إلى ذلك فقد قمت.ما قمت به، لأن تيفالنيوس، وقد انتهت الأمور إلى ما انتهت عليه، سوف، ولاشك، يحاول تقليدي. وأنا أتصور ما الذي سيحدث. دب يحاول الرقص على حبل. مهزلة سأسخر منها كما فعل ديموقريطس. إن أردت أعزل تيفالنيوس، وأحل محله قاضيا للقضاة. وعندها سيكون القيصر رهن إشارتي. لكني أكسل من أفعل ذلك... الأفضل أن أتقبل الحياة التي أحياها، حتى لو تخللتها أشعار القيصر.
- يا لمهارتك التي تجعل من التقريع منافحة وتقريظاً. لكن هل أشعاره مثل تلك الرداءة؟ أنا لا أفهم في هذه الأمور.
- ليست أسوأ من أشعار الاخرين لوكانوس يتمتع.موهبة أفضل، ولكن ذا اللحيّة الحمراء أيضاً لا يعوزه ذلك. أهم ما في الأمر أنه يمتلك قدراً كبيراً من الجاهزيّة للشعر والموسيقا. سنكون عنده بعد يومين لنستمع منه إلى "نشيد أفروديت" الذي قد ينهيه اليوم أو غدا.
سنكون قلة قليلة. أنا، وأنت، وتوليوس سينكو، والشاب نيرفا. لكن بالعودة إلى الاشعار، ليس صحيحا ما قلته أنا عن أنني استخدمها بعد المادية، كما يستخدم فيتليوس ريشة الفلامينكو... لا تخلو أحيانا من قوة في التعبير. كلمات هيسوبا مثيرة... شكواها نابعة من آلام الولادة، وقد عثر نيرون على التعابير الموفقة، ربما

لأنه ينجب كل شطر شعري في أو خضم معاناة. أحيانا تعتريني الشفقة، قسما ببولوكس! أي خليط غريب! كاليغولا افتقد إحد مسنناته لكنه لم يكن مثل ذراع التدوير لهذا المهووس.
ـ ومن يقرأ المستقبل كي يرى أين سيقود جنون ذي اللحيّة الحمراء؟
ـ لا أحد بالطبع. تحصل حوادث توقف ذكراها شعر الرأس لقرون. لكن الهام هو ما يحرك الانسان، ما يشوطه، ويعطيه دفعا. وإذا ما كان يعتريني السام من نفسي ككوكب المشتري السيار فوق الصحراء، أظن أنني سأكون في ظل قيصر آخر أكثر سأمة بكثير. علي أن أعترف أن صديقك بولس اليهودي يجيد التحدث، وإذا ما كان أمثال هؤلاء البشر سينشرون التعاليم، فإن الهتنا في خطر. فكرة صحيحة أنه لو كان القيصر على سبيل المثال، مسيحياً، لشعرنا جميعا بأمان أكبر. لكن رسولك الطرسوسي حين واجهني بحججه، لم يفكر في أن هذا الاضطراب تحديدا، هو ما يمنح حياتي سحرها. من لا يغامر، لا يفقد ثروته، ورغم ذلك ترى البشر يدفعون بأنفسهم إلى أتون المغامرة، لما في ذلك من متعة وسلوى. أعرف فتيانا هم ابناء فرسان، وسيناتورات، اختاروا أن يكونوا مجالدين. تقول إنني أعبث بحياتي، وأنت محق، لكنني أفعل هذا لأنه يسل يني، في حين أن الأخلاق المسيحية ستشعرني من أول يوم بالسأم شأنها شأن محاضرات سينكا. عليه أن يفهم أن أمثالي من البشر لن تخترقهم هذه التعاليم. أنت شخص مختلف تماماً! من حيث طبعك يمكن أن تكره اسم المسيح، كالطاعون، كما تكره نفسك أن تكون مسيحيا. أنا أعطيهم الحق، لكن وأنا أتثاءب. نقامر، ونحري باتجاه الهاويّة ، شيء ما يتقدم نحونا آتيا من المستقبل، شيء ما يقرقع ويضج تحت أقدامنا، شيء ما يموت بقربنا، هذا كله صحيح، لكننا من ناحية نستطيع أن نموت، أما من ناحية أخرى، فلا نفرط بحياتنا فنثقلها بالاعباء خدمة للموت قبل أن يأتي بنفسه. الحياة قائمة من أجل الحياة، وليس من أجل الموت.
ـأما أنا فأشفق عليك يا بترونيوس.
ـ لا تشفق علي أكثر مما أشفق أنا على نفسي. كنت فيما سبق تشعر بالسعادة بيننا، وحين كنت تحارب في أرمينيا كنت تشتاق إلى روما.
ـ والان كذلك اشتاق إلى روما
ـ طبعا لأنك وقعت في حب عذراء فيستا مسيحية تقطن هناك. لا أستغرب ذلك. لكن ما أستغربه بك أنك حينما تقول إن الدين بحر للسعادة، وأن حبك سرعان ما سيتكلل بإكليل النصر، أرى الحزن لا يفارق وجهك. بومبونيا غراسينا حزينة على الدوام، وأنت، منذ أن صرت مسيحيا، لم أقرأ على وجهك ابتسامة. لا تحاول إقناعي أنه دين فرح. حتى من روما قد رجعت حزيناً. إذا كان هذا هو الحب، عندكم أنتم المسيحيين، فأقسم بضفائر باخوس الشقراء أنني لن أتبع مثالكم هذا.
فأجاب فينيكوس:
ـ الأمر مختلف كليا. أنا أيضاً أقسم، ليس بضفائر باخوس، بل بروح أبي أنني ما ذقت طعما لتلك السعادة التي تملأ قلبي الآن.
لكن ما يحزنني هو إحساسي بأن ما يهدد ليفيا قائم بعيدا عنها. لا أعرف ذلك الخطر، وما هو مصدره، لكني أشعر به مسبقا، كالشعور المسبق بقدوم العاصفة.
ـ أتكفل بأنني سأوفر لك فرصة كي تغادر الأنتيوم لأي مدة تشاء. كان بوبيا أكثر اطمئناناً الآن، وأؤكد لك أن لا خطر عليك منها، ولا على ليفيا.
ـ اليوم سالتني ماذا فعلت في روما، رغم أن سفري كان سريا.
ـ لعلها تجسس عليك، لكنها الأن باتت تحسب حسابي.
نهض فينيكوس وقال:

ـ قال بولس أن الله يعطي تحذيراً مسبقا للإنسان، لكنه لا يسمح بتصديق التنبؤات. أنا إذن أقاوم هذا الاحساس المسبق مني، ولا أستطيع التحرر منه. سأقول ما حصل لأريج قلبي. كنا معا أنا وليفيا، نخطط لمستقبلنا في أمسيّة وديعة كهذه الأمسية. لا أستطيع وصف السعادة والطمأنينة اللتين لف تانا. وبغتة سمعنا زئير الأسود. صحيح أنه مالوف في روما، لكني منذ ذلك الحين بت لا أعرف الطمأنينة. أشعر أنه ما جرى كان تهديدا، ونذيرا للشؤوم. تعرفني أني بعيد عن الخوف، لكن ما حصل آنذاك قد ملأظلام الليل بالجزع. كان أمرا غريبا جعل أصوات الزئير إلى الآن لا تفار سمعي، وتملأ قلبي قلقا، وكأنما ليفيا الان في خطر محدق وفي أمس الحاجة لحمايتي. يا لعذابي... ساعدني الأسافر اليها، والا سأذهب دون إذن من أحد. لا أحتمل البقاء هنا.

أكرر قولي، لا أحتمل بقائي هنا.

ابتسم بترونيوس:

ـ لم نبلغ بعد درجة أن ندع ابناء المسؤولين وزوجاتهم عرضة للأسود في الميادين. ومن يدري إن كانت تلك أصواتا لأسود، لأن الجواميس الوحشيّة الجرمانية تزأر هكذا. ومن جهتي فأنا ابصق على كافة التنبؤات وتنجيمات البروج. أمس كان الظلام دامسا، وأمطرت السماء بالنيازك الهاوية. هناك من ييتئس لمثل هذا المشهد، وأنا لست من هذا النوع.

وصمت قليلا، ثم عاد ليقول بعد تفكير قصير:

على أية حال، إن كان مسيحكم قد قام من موته، فبمقدوره أن يحميكم من الموت.

أجل أجاب فينيكوس وهو ينظر إلى السماء المدروزة بالنجوم.

غنى القيصر على شرف سيدة قبرص، وعزف نشيداً هو من ألف كلماته وموسيقاه. يومها كان صوته متألقاً، وشعر أن لحنه قد اجتذب الحضور حقيقة أيما اجتذاب. فمنحه ذلك من قوة الحنجرة، وطلاقة الروح، ما جعله يبدو موهبة حقيقية، حتى أوصله صدق الحماس والاندماج، درجة الاعياء التام. كانت هذه أول مرة في حياته، لا يرغب فيها سماع التمجيد والإطراء من الحاضرين. جلس محني الرأس يستند على القيثار هنيهة، لكنه سرعان ما نهض بغتة وقال:

ـ أنا متعب، وأحتاج إلى الهواء. دوزنوا أنتم الأوتار خلال هذه الفترة.

ولفّ منديله الحريري حول عنقه. ثم التفت نحو بترونيوس و فينيكوس الجالسين في ركن القاعة ليقول:

ـ أنتما اتبعاني. وأنت يا فينيكوس هات يديك، لأن قواي قد خارت، أما بترونيوس فسوف يحدثني فيما بعد عن اللحن.

وخرجوا معا إلى فناء القصر المرمري المنشور بالزعفران. هنا يتنفس المرء بطلاقة قال نيرون روحي حزينة، متوفرة، وكما أرى فإن ما قمت بتقديمه لكم من غناء، يؤهّلني أن أمثل أمام الملأ، وأجني فوزاً لم يسبق لروماني أن جناه.

فأجابه بترونيوس:

ـ يمكن أن تصعد هنا، وفي روما، وفي أكايا. لقد أذهلتني حقا أيها القيصر الإلهي.

ـ أعلم. إنك من الكسل المريع مايجعلك لا تكلف نفسك مشقة الادلاء بعبارات الإطراء. وأنت صادق شأنك شأن توليوس الا أنك أكثر فهما للأمور منه. قل لي ما رأيك في اللحن؟

لو كنت أسمع شعرا، أو أشاهد عربة تقودها أنت في السيرك، أو أرى ممثالا جميلا، أو كنيسة، أو لوحة، فسأشعر أن بوسعي أن أقبض على كل ما أراه من هذه الابداعات، ويكون محط إعجابي. لكني حين أسمع الموسيقا، وبخاصة موسيقاك أنت، تحتشد أمامي دفقات متلاحقة متجددة من الجمال والروعة. فأجري وراءها مستعجلا القبض عليها، لكن ما إن أوشك على الإمساك بها، حتى تتدفق حشود جديدة وجديدة كأمواج البحر القادمة من اللانهاية.

أنا أقول أن الموسيقا كالبحر. نقف عند شاطئه، ونرنو بعيدا، فيتعذر علينا رؤية شاطئه الاخر تحمس نيرون:

ـ ما أميزك من خبير في الفن!

تمشوا قليلا صامتين، يخشخش الزعفران تحت أقدامهم، حتى بادر نيرون بقوله:

ـ لقد نطقت، بما أفكر تماماً. لهذا السبب أقول دائماً انك الوحيد من يفهمني في روما. هذا واقع هذه هي نظرتي إلى الموسيقا. حين أعرف أو أغني أرى آموراً لم أكن أعرف أنها قائمة في إمبراطوريتي، أو حتى في العالم. ألست القيصر، وأملك العالم، وأستطيع أن أفعل أي شيء. لكن الموسيقا تفتح أمامي مملكة جديدة، وجبالا أخرى، وبحاراً، وروائع لم أعهدها من قبل. وغالبا ما أعجز عن تسميتها، وإدراكها بوعيي. أحسها فقط.

أحس بالآلهة، أرى جبل الأولمب. تهب علي رياح آتية من خارج نطاق الأرض، فالمح عبر الضباب أشياء غاية في الكبر، لكنها هادئة ومضيئة كشروق الشمس... العالم بكليته يتغنى حولي بالالحان... ويمكنني أن أقول هنا يرتعش صوته بالدهشة الصادقة أنني وأنا القيصر الاله أشعر عندئذ بضحالتي وكأني ذرة من غبار. أتصدق؟

ـ حقا. الفنانون الكبار وحدهم من يشعرون بضحالتهم أمام الفن.

ـ هذه ليلة الصدق. سأفتح روحي أمامك كصديق لي. وسأقول لك أشياء كثيرة... تظن أنني أعمى، أو فاقد

العقل، تظن أنني لا أعرف أنهم في روما يخطون على الجدران الشتائم ضدي، ويسمونني قاتل أمه، وقاتل زوجته، ويعتبرونني وحشالا رحمة في قلبه، لأن تيفالنيوس انتزع مني أحكاما بالاعدام لبعض أعدائي.
أجل يا عزيزي إنهم يرونني فظيعا، وأنا أعرف ذلك. وكثيرا ما سالت نفسي هل أنا حقا شخص فظيع؟ لكنهم لا يدركون أن أفعال المرء أحيانا قد تكون فظيعة، دون أن يكون الشخص كذلك.
لا أحد يصدق، وربما أنت منهم يا عزيزي، أنني أحس بنفسي بريئا وطيبا كوليد في مهده أقسم بالنجوم المؤتلفة فوقنا أنني أقول الصدق:
الناس لا يعرفون كم من الخير مخبأ في هذا القلب، وكم من الكنوز أكتشف في داخلي إذا ما الموسيقا فتحت لي الباب.
لم يشك بترونيوس قيد ذرة، أن نيرون الان يتكلم بصدق ونقاء، وأن الموسيقا تظهر من روحه العواطف الأكثر نبلا، المدفونة عميقا تحت راقات الانانية، والخلاعة، والشر. فقال:
ـ ينبغي معرفتك عن قرب، كما أعرفك أنا. ما عرفت روما يوما أن تعطيك حق قدرك.
وكأنما أحدودب القيصر تحت وطأة الباطل، فاستند بقوة أكبر على ذراع فينيكوس وأجاب:
ـ أسمع من تيفالنيوس، ويتهامسون في مجلس الشيوخ أن ديودروس و ترنيوس أكثر مهارة مني في العزف على القيثار. صاروا يجادلونني حتى في هذا. أما أنت فتقول الحق. أجبني بصراحة: هل هما يفوقاني مهارة في العزف؟ أم أن عزفهما جيد كعزفي؟
ـ لا أبدا. استعمالك للأوتار أكثر ليونة، وفي عزفك الكثير من القوة. والمرء يجد فيك الفنان، بينما يجد فيهما الخبرة والدربة. فلو سمعها المرء قبل أن يسمعك سيكتشف بجلاء ما أنت.
ـ ما دام الأمر كذلك، دعهما على قيد الحياة. لن يدركا أبدا أي خدمة قدمتها أنت لهما اليوم. وافرض أني أدنتهما بحكم ما، الن أكون مضطرا لاستقبال آخرين سواهما.
ـ فضلا عن أن الناس سيتحدثون أنك بدافع حبك للموسيقا، تقوم باستئصال الموسيقا من البلد. تجنب أن تقدم على اغتيال الفن لأجل الفن، أيها القيصر الالهي.
فأجاب نيرون:
ـ ما أميزك عن تيفالنيوس. لكنك ترى أنني فنان في كل شيء وما أن الموسيقا تفتح أمامي مطارح جديدة لم أكن أحلم بوجودها، وبلدانا لا أبسط عليها نفوذي، ومتعة، وسعادة لم أعرفهما من قبل، فليس إذن بوسعي أن أمارس حياة عادية. الموسيقا تقول لي أن ثمة أمورا فوق العادة، فعلي إذن كي أحصل عليها، أن اسخر كل ما وهبتي الالهة، وأمدتني به من قوة وسلطان.
أفكر أحيانا أنه إذا ما أراد المرء أن يعلو إلى ذلك العالم الاولمبي، فعليه أن يفعل ما لم يفعله أحد غيره من قبل، عليه أن يحلق ويمنح أجنحة للقيمة الانسانية خيرا أو شرا. كما أني أدرك أن الناس يتهمونني بالجنون. واقع الحال أني لست مجنونا، ولكني أبحث عن الجنون، وأبدو في حالة من القلق وفراغ الصبر، لأنني لا أجده.
أنا أبحث عن الجنون، أتفهمني؟ لهذا السبب أريد أن أعلو فوق الانسان، لأكون الاعظم بين الفنانين جميعا.
ثم أخفض من نبرته، فلم يعد فينيكوس يسمع ما يقول، وقرب فمه من أذن بترونيوس هامسا له:
ـ أتدري أنه السبب الرئيس في قتلي لأمي وزوجتي؟
أردت أن أضع أمام بوابة العالم المجهول أعظم قربان يمكن أن يقدمه الانسان كنت أظن بعدها أن أمرا ما سوف يحصل وتتفتح البوابة فالمح
من خلالها شيئا لا أعرفه. كان يمكن أن يحصل أمر أجمل وأفظع مما يتصوره عقل... لكن الفدية لم تكن كافية. لكي تنفتح بوابة المعرفة، فثمة بالطبع حاجة لأضحية أكبر. ليكن إذن ما تشاؤه التنبوءات.

- ما قصدك؟
- سوف ترى، سوف ترى، وأسرع مما تتصور. لكن حتى ذلك الحين، ضع في حسبانك أن هنالك نيرونين: أحدهما الذي يعرفه الناس، والاخر الفنان الذي لا يعرفه الا أنت، والذي إذا ما كان قاتلا كالموت، أو خصيبا كباخوس، فإنما يفعل ذلك، لأن ضحالة الحياة اليومية وهشاشتها تضغطان على صدره وتخنقانه، ويريد اقتلاعهما ولو كان مضطرا للقبض على الحديد والنار... آه، يا له من عالم رمادي بدوني!
لا أحد يتصور، ولا حتى أنت يا عزيزي، أي فنان أكون. هنا يكمن السبب في معاناتي، وأصارحك القول: قلبي حزين أحيانا، كهذه الأشجار الداكنة أمامنا. ما أشق على المرء أن يحمل على كاهله دفعة واحدة أعلى سلطة، وأعظم موهبة.
- قلبي معك أيها القيصر، وكذلك الأرض والبحر، دون ذكر فينيكوس الذي في أعماق قلبه، يؤلهك.
فأجاب نيرون:
- كان عزيزا على قلبي دائما، ولو أنه يخدم مارس إله الحرب ولا يخدم الموزيات الالهات التسع اللواتي يحمين الفنون والعلوم.
- هو قبل كل شيء يخدم افروديته الخاصة.
وبغتة اتخذ قراره بأن يرتب الان أمر فينيكوس، ويبعد عنه أي خطر محتمل. فاستأنف كلامه قائلا:
- لكنه عاشق. دعه يا سيدي يذهب إلى روما، فقد أصابه هنا النحول. أتدري أن تلك الفتاة الرهينة الليغوية التي أهديتها له قد عثر عليها، وحين جاء فينيكوس إلى الأنتيوم وضعها في رعاية أحدهم يدعى لينوس؟ لم أتحدث بهذا بعد لأنك كنت منشغلا بالنشيد وهذا أهم من أي شيء. أراد فينيكوس في البداية أن يجعل منها عشيقة له، لكنه وجدها فتاة فاضلة، فوقع في حب فضيلتها، وهو الآن يرغب فيها زوجة له. إنها فتاة ملكية لا يحط من قدر فينيكوس الزواج بها. وبما أنه جندي حقيقي، يعاني ويتالم ويصاب بالنحول، لكنه ينتظر إذنا من الامبراطور.
- لكن الامبراطور لا ينتقي زوجات لجنوده، فلم ينتظر إذني؟ قلت، يا سيدي، إنه يؤلهك.
- الفتاة جميلة، لكنها ضئيلة المؤخرة قليلا. لقد شكت منها الاوغستا بوبيا بأنها فتنت طفلتنا في حديقة البلاتينوس، وأصابتها بالعين.
- لكني قلت لتيفالنيوس أن الالهة لا تخضع للسحر الشرير.
تذكر، أيها القيصر الالهي، اية حفلة كانت فيها، وكيف صرخت أنت بأعلى صوتك: "هابت"!.
- كيف لا.
ثم التفت نحو فينيكوس:
- أحقا تحبها بمثل هذا القدر الذي يتحدث عنه بترونيوس؟
- أحبها يا سيدي.
- إذن سأعطي أوامري بأن ترحل غدا إلى روما، وتتخذها زوجة. ولا تدعني أراك بلا خاتم الزواج.
- أشكرك يا سيدي من قلبي وروحي.
وتنهد القيصر قائلا:
- آه ما أمتعه من شعور أنك تسعد الناس. كم أحب الا أفعل في حياتي شيئا غير هذا.
فقال بترونيوس:
- لنا رجاء أخر أيها القيصر الرباني. أعلن مشيئتك هذه أمام الاغستا بوبيا كذلك. لا يجرؤ فينيكوس أن يتزوج إحداهن إذا كانت الاوغستا تكن لها كرها. لكن بكلمة منك يا سيدي تستطيع أن تلغي حكمها على الفتاة إذا ما أخبرتها أنها أوامر منك.

ـ حسنا، لا أستطيع أن أرفض طلبا لك، ولا لفينيكوس.
وانطلقوا معا باتجاه الفيلا تحدو كلا من بترونيوس وفينيكوس فرحة الفوز.
في أتريوم الفيلا كان الشاب نيرفا و توليوس سينكو پسليان الاوغستا بالحديث، فيما كان كل من نترنيوس و ديودرس بدوزنان القيثار. دخل القيصر وجلس على كرسي ثم همس شيئا للشاب اليوناني من خاصة خدمه، وانتظر.
وسرعان ما عاد الفتى بصندوقته المذهبة. فتحها نيرون، وأخرج منها عقدا من الأوبال حجر كريم، وقال:
ـ إنها حلية تليق بأمسية اليوم.
فردت بوبيا لمعرفتها الوثيقة بأن القيصر قد خصها بالحلية:
ـ يا لروعة بريقها!
فيما راح القيصر ينق ل العقد من كف إلى أخرى، وقال:
ـ فينيكوس! هذه هدية باسمي تقدمها للأميرة الليغوية التي أمرك بالزواج منها.
رفعت بوبيا القيصر بنظرة أطلقت من خلالها شرارة غضبها وذهولها الفجائي، تحولت بعدها إلى فينيكوس، واستقرت عند بترونيوس الذي راح يحك عنقه في هذه اللحظة.
خلال ذلك كان فينيكوس يعبر عن شكره من أجل الهدية، ثم خطا نحو بترونيوس ليقول:
ـ لا أدري كيف سأرد لك هذا الجميل.
فأجابه ذاك:
ـ قدم بضع بطات فدية ليو تربا، بحد أغاني القيصر، وصفر للتنبؤات. آمل أن زئير الأسود لن يعكر بعد الان لياليك، ولا أحلام زنبقتك الليغوية.
ـ لا. لقد صرت مطمئنا الان.
ـ أوسعتكما فورتونا برحمتها. واحترس الان لأن القيصر سيتناول القيثار اكتم أنفاسك، واستمع، واذرف الدموع.
أمسك القيصر فعلا بالقيثار، ورفع عينيه. انبتت في القاعة كل الأحاديث، وثبت الحاضرون في أماكنهم كالجمادات.
وحدهما ترنبوس و ديودروس العازفان المرافقان لغناء القيصر كان يلتفتان هذه الناحية و تلك. تارة ينظران ببعض، وتارة يرقبان فم القيصر في انتظار البدء.
في هذه الاثناء صدرت حركة، وضجيج في الصالون. وبعد قليل تقدم من خلف الستارة فاون معتوق القيصر، يتبعه القنصل لاكونوس قطب نيرون جبينه
قال فاون لاهثا:
ـ عفوا أيها الامبراطور. في روما نيران. معظم أجزاء المدينة يعمها اللهب! قفز الجميع من أماكنهم، فيما وضع القيصر القيثارة وصاح:
ـ أيتها الالهة!... سأشاهد المدينة المحترقة، وأنهي قصيدتي الطروادة. ثم التفت نحو القنصل:
ـ إذا ما انطلقت في الحال، هل أتمكن من مشاهدة النيران؟ فأجاب القنصل يعلو وجهه شحوب الموتى:
ـ سيدي! المدينة غارقة في بحر من اللهب، والدخان يخنق السكان، والناس يغمى عليهم، أو يلقون بأنفسهم بالنار كالمجانين. روما تفنى يا سيدي!
ساد صمت لحظي قطعته صرخة فينيكوس: في ميسيرو ميهي ورمى بسترته، وخرج من القصر بردائه فقط. فيما رفع نيرون يديه نحو السماء صارخا:
ـ ويلي عليك، يا مدينة القديس برياموس

لم يملك فينيكوس من الوقت ليأمر الا بعض خدمه ليتبعوه بالأحصنة. امتطى حصانا وانطلق في ظلمة شوارع الأنتيوم الخالية ميمماشطر لاورنتوم. لقد فقد صوابه، جراء سماعه النبأ المروع، وتشوشت مداركه فلم يعد يدري ماذا يحدث له. كل ما كان يعرفه أنه فوق صهوة الحصان، والنحس قاعد خلف ظهره ويصرخ في أذنه: "روما تحترق" ، ويطاردهما معا بالسوط هو وجواده ليلقيهما في النار.

انحنى برأسه الخاسرة فوق عنق الجواد، دافعا بجبينه إلى أمام دون مبالاة بالعوائق التي قد تودي به إلى الوقوع والتحطم. في هذه الأمسية الوادعة الهادئة المتلألئة بالنجوم، كان الحصان والفارس السابحان في ضوء القمر، أشبه مشهد في حلم.

انطلق الحصان، ماطا عنقه إلى أمام، وأذنيه إلى الوراء بين أشجار السرو المنتصبة دونما حراك، والفيلات البيضاء المتوارية بينها. فاجفلت ضربات حوافره فوق الحجارة هنا وهناك، الكلاب التي لاحقت بنباحها المروع هذا البادي الغريب، وبعدها نتيجة لاضطرابها الشديد من المباغتة، رفعت رؤوسها إلى القمر، وشرعت تعوي عواء مريرا. وسرعان ما تخلف أرقاء فينيكوس فوق أحصنتهم الضعيفة، عن سيدهم.

كان يعدو كالعاصفة عابرة لأورنتوم الهاجعة إلى النوم، ثم انعطف باتجاه ارديا. وما إن أشرف على الوصول اليها حتى رأى في السماء أنواراً وردية آتية من الجهة الشمالية الشرقية.

قد تكون أنوار الفجر، لأنه يطلع باكرا في حزيران. لكن فينيكوس بيقين منه أنها أنوار الحريق لم يتمكن من كتمان صرخة القنوط والغضب المسعورة.

حضرت له كلمات ليكانيوس: "المدينة بحر من اللهب". ظن اللحظة أنه سيجن، لأنه فقد كل أمل بإنقاذ ليفيا، وبلوغ المدينة قبل أن تتحول إلى رماد. تسارعت أفكاره القانطة الرهيبة حتى جاوزت سرعة حصانه، وراحت تتطاير أمامه كسرب من الطيور السوداء. لم يدر في أي نقطة من المدينة بدأت النيران، لكنه افترض بأن شرارتها الأولى كانت في المستودعات الخشبية المنتشرة بكثافة بين المنازل، والاسطبلات الخشبية لتجار الرقيق. كثيرا ما تحدث حرائق في روما نتيجة أعمال العنف والنهب خاصة في أحياء الفقراء، والبرابرة. تذكر الان أرسوس وقوته الجبارة، لكن ما الذي مقدوره أن يفعله أمام قوة النار المدمرة؟

كانت مخاوف روما من تمرد الرقيق تتفاقم منذ سنوات. يقال إن مئات الآلاف من هؤلاء العبيد يحلمون باسترجاع زمن سبارتكوس، ويترقبون اللحظة المناسبة للانتفاض، وحمل السلاح في وجه ظالميهم وضد المدينة. وهاذي قد جاءت، وقد يجر الحريق معه حربا وبمجازر. وقد ينتهك الحرس الامبراطوري المدينة، ويقتل الشعب بأمر من القيصر. انتصب شعر رأسه لهذه الافكار.

تذكر الأحاديث التي بدأت تجري منذ حين في البلاط الامبراطوري عن إحراق المدن، وخطرت له شكوى القيصر من أنه لم يشهد احتراق مدينة يلهمه الغناء والشعر، وتذكر مبادرة تيفالنيوس الصريحة أمام القيصر، واستعداده للقيام بإحراق الأنتيوم، أو مدينة خشبية مصطنعة لتلبية طموح الامبراطور الذي لم يخف قرفه و اشمئزازه من أزقة المدينة وقذارتها. تبين الأمر. القيصر قام بإحراق المدينة. وحده من يجرؤ على القيام بمثل هذا الفعل، بعد أن كل ف تيفالنيوس بذلك. ولكن بما أن المدينة تحترق بأمر من القيصر، فمن يجزم أنه لن يقدم على الفتك بالمواطنين وقتلهم جماعيا؟ إنه من الفظاعة بحيث يفعل ذلك. إذن حريق، انتفاضة عبيد، حمام دم.

وهذا هو المشهد إذن: فوضى عارمة، فلتان، نقمة مسعورة، هياج كاسح. وليفيا في وسط هذا الاتون. اختلطت تنهدات فينيكوس بأنين حصانه الذي بلغ أوجه، وهو ينهب الطريق الصاعد نحو أريسا. من

سيخرجها من المدينة المحترقة؟ من سينقذها؟ استلقي على حصانه، غارزة أصابع كفيه في شعره. كان في مقدوره، ومن شدة ألمه أن ينهش عنق الحصان.
لكن فارسا كان يعدو بحصانه في الاتجاه المعاكس مر بقربه صائحا: "إنها نهاية روما" وتابع عدوه. كل ما استطاع فينيكوس أن ينطق به: "يا الهة". كلمة جعلته يستعيد توازنه. يا الهة! أمسك برأسه فجأة رافعا كلتا يديه نحو السماء وبدأ يصلي: "لا أدعوكم أنتم يا من معابد كم تحترق، إنما أدعوك أنت.... يا من عرفت الألآم. يا من أنت وحدك الرحيم! يا من أنت وحدك فهمت ألم الإنسان. يا من أتيت إلى العالم كي تعلم البشرية الرحمة، فاشملنا الآن! إن كنت كما يقول بولس وبطرس فأنقذ ليفيا، ارفعها بذراعيك وأخرجها من لهب النيران. بوسعك أن تنقذها! فأعدها الي وسأهرق دمي من أجلك. وإن لم تفعل ذلك من أجلي فمن أجلها. هي تحبك وتثق بك إنك تعد بالحياة والسعادة بعد الممات لكن السعادة بعد الموت لن تنصرف عنا، وليفيا الا تريد الان أن تموت. اسمح لها أن تعيش بعد.
خذها بذراعيك وانتشلها من روما. بوسعك أن تفعل لو شئت.
اكتفي بذلك، لأنه شعر أن متابعة الصلاة قد تؤدي إلى وعيد، وخشي أن يجرح الألوهة في وقت هو في أمس الحاجة إلى رحمتها. راح يهمز الحصان مجددا بعد أن لاحت لعينيه جدران أريسيا البيضاء. وبلغت اندفاعته أقصاها حين بلغ غابة المدينة ومر أمام المعبد المقام هناك.
ورأى حوله حركة غير معهودة. بشر مسرعون تحت المذبح وبين الاعمدة على أنوار المشاعل باتجاه الغابة. وحشود أخرى سلكت الطريق العام، شتتها الحصان في طريقه، وصدم من بينها بعض الأفراد. وتعالت الأصوات تنادي "روما تحترق! المدينة في بحر من اللهب، أيتها الآلهة أنقذي روما".
وما إن وصل إلى مكان يتبع لأملاكه، بقصد أن يبدل حصانه المنهك، حتى تجمهر أمامه العديد من الأرقاء، فطلب إليهم أن يأتوه بالحصان المستريح.
في هذه الأثناء لمح رهطا من فرسان الحرب الامبراطوري دفعهم النبأ للهروع إلى الأنتيوم، فسارع إليهم يسال:
- أي أجزاء المدينة يحترق؟
فسأله قائدهم:
- من أنت؟
- فينيكوس، قائد عسكري، وأوغستيني! هيا تكلم!
- بدأ الحريق في الاكواخ المجاورة للسيرك، يا سيدي حين أطلقنا لمهمتنا، كان مركز المدينة يشتعل.
- و الترانستبريس؟
- لم تصله النيران بعد. لكنها تتوسع في كل لحظة لتشمل أنحاء جديدة وجديدة من المدينة. السكان يموتون من الحرارة، والدخان، ولا جدوى من كل محاولات الانقاذ.
في هذه اللحظة جاؤوا بالحصان، فاعتلاه الشاب وتابع طريقه.
اتخذ الأن وجهة البانوم مخلفا عن يمينه البالونغا وبحيرتها الرائعة.
كان يدرك أنه إذا ما سلك الطريق العام وصعد الجبل، فسوف يشرف بنظره، ليس على بوفيلا و أوسترنيوم فحسب حيث تنتظره أحصنة أخرى، بل على روما كذلك.
قال في نفسه: - سأشاهد النار من قمة الجبل. وهمز الحصان محددة.
لكنه قبل أن يبلغ قمة الجبل، راحت الريح تلفح وجهه، حاملة معها رائحة الدخان. وباتت قمة الجبل تسبح بالأنوار الذهبية. فكر فينيكوس:
- أضواء النار.

وحين بلغ القمة انكشف أمامه مشهد مروع. اكتست السهوب كلها بسحابة من الدخان سبحت على مقربة من الأرض، وتلاشت فيها المدن، وأنابيب المياه، والفيلات، والاشجار. وفوق التلال عند نهاية هذه السهوب الرمادية المرعبة، كانت المدينة تحترق.
لكن الحريق لم يتخذ هيئة عمود ينشأ في حالة احتراق مبنى وحيد مهما يكن المبنى ضخما. بل كان امتدادا طويلا كشفق الفجر. وفوق هذا الامتداد الشفقي انسحبت ستارة دخانية توزعها السواد في ناحية منها، والوردي والدموي في ناحية أخرى، وتكاثفت هنا، وانقشعت هناك، ثم تلوت كالافعوان. وكان من شأن هذه الستارة الدخانية اللعينة أن تغطي أحيانا حتى المنطقة النارية نفسها فتجعلها شريطا ضيقا أحيانا، لكن الشريط الناري يعود في أماكن أخرى ليلقي بأنواره من الأسفل على الستارة الدخانية فيبديها تموجات قد اشتعلت أسافلها. كان كلاهما الشريط الناري، والستارة الدخانية يستحوذ على حدود الرؤية في كل مكان، حتى أغلقا المدى مثل غابة كثيفة. فلم تبن الجبال السابينية أبدا.
بدا فينيكوس في اللحظة الأولى أن ما يحترق ليس روما وحدها، بل العالم بأسره، فلا فرصة لكائن حي بالنجاة من البحر الدخاني الناري هذا.
كانت الرياح قد بدأت تشتد في هبوبها فوق النيران، حاملة رائحة الاحتراق، والدخان الذي غلف كل شيء مجاور.
وبدأت الشمس تشرق وتنير الكون، فأنارت تماما القمم المحيطة ببحيرة البا. لكن أشعة الفجر الذهبية خلعت على العباءة الدخانية لونا واهنا محمرا. فينيكوس، بانحداره صوب البانوم بلغ منطقة دخانية أكثر كثافة يصعب اختراقها، أغرقت فيها حتى المدينة الصغيرة بالكامل، فخرج قاطنوها إلى الشوارع، وقد شق عليهم أن يتصوروا مقدار الهول الذي حل بروما، ما دام الأمر هنا على هذه الحال من صعوبة التنفس.
تملكه القنوط ثانية، وانتصب شعر رأسه من الهلع. لكنه سعى إلى أن يتمالك نفسه قدر المستطاع. قال في نفسه "يستحيل أن يعم الحريق المدينة كلها دفعة واحد. الرياح تهب من الشمال، وتدفع بالدخان إلى هذه الأنحاء. الجهة المقابلة تخلو من الدخان، ما يدل على أن ال ترانسبرس في منجى، خاصة وأن النهر يفصله عن النيران، وهو الأمر الكافي ليتمكن أرسوس من عبور مدخل المدينة من جهة يانو كولوس، وينتشل ليفيا من الخطر.
ومن المستحيل أيضا أن يهلك جميع السكان، أو أن تغني المدينة التي تحكم العالم في لحظة عن وجه الأرض. لقد دلت التجارب أن قسما من السكان ظل على قيد الحياة بالرغم من الحرائق، والمجازر التي ارتكبت في المدن المنتهكة بقوة السلاح، فكيف من المفترض إذن أن تهلك ليفا؟ خاصة وأنها في رعاية الله القاهر للموت".
عكف على الصلاة من جديد، فأكثر من دعواته، ووعد المسيح بالقرابين، والتقدمات الغالية. ولم يهدأ له بال حتى غادر البانوم حيث كان كافة السكان يجلسون على الأسطح، وفوق الأشجار، يتفرجون على روما. استعاد برودة دمه. فكر أن ليفيا ليست فحسب في عهدة أرسوس و لينوس، بل في رعاية بطرس كذلك. فكرة منحته القوة وجددت آماله. كان بطرس في نظره كائنا مبهما وفوق البشر. منذ أن سمعه في الأستريانوم، وتأثيره مازال قائما، وقد عبر عن ذلك حين كتب لليفيا قائلا: كل ما يقوله هذا الحواري صحيح، أو سيثبت الزمن صحته. وحين عرفه عن كثب في أثناء مرضه، اشتد هذا التأثير، واستحال إلى إيمان راسخ. إذن. ما أن الحواري قد بارك حبه، ووعده بليفيا، من المؤكد أن الفتاة لن تهلك في الحريق. يمكن أن تحترق المدينة، وتفنى عن بكرة أبيها، لكن ليفيا لن تمسها شرارة واحدة من النار.
لا بل أنه، نتيجة للسهاد والقلق، والعدو المسعور، والاهتزازات التي لحقت بأوصاله، قد وصل به الأمر حد المغالاة في تصوراته ليصبح المستحيل، لديه، ممكنا: بطرس يرفع الصليب أمام السنة اللهب فيشقها إلى

شطرين ويتمكنون من العبور بينهما. فضلا عن أن بطرس رأى المستقبل، فلا بد إذ من أنه قد توقع هذا الحريق، فعمد إلى إخراج المسيحيين من المدينة ومن بينهم ليفيا التي أحبها كابنة له. امتلأ قلب فينيكوس بالأمل. فكر أنهم لو هربوا من المدينة، فسوف يلقاهم في بوفيلا أو في مكان ما في الطريق.
لقد ازداد يقينه في ذلك وهو يمر بأعداد هائلة من البشر الذين غادروا المدينة، ميممين شطر جبال الألب، هربا من السنة النيران، وسحائب الدخان. وقبل أن يبلغ الأوسترنيوم كان عليه أن يتمهل لأن الطريق كان مقطوعا. مشاة يحملون المتاع على ظهورهم، أحصنة، وبغال، وعربات مثقلة بالأحمال، وعبيدا يعتلون نقالات تقل أسيادا. كان الأوسترنيوم عاجا بالنازحين من روما، ما جعل فينيكوس عاجزا عن العبور بينهم.
اكتظت الأسواق، والمعابد، وصفوف الأعمدة والشوارع بحشود الناس. وضربت الخيام هنا وهناك يلوذ بها عائلات بكاملها. وآخرون افترشوا العراء، منهم من يدعون الالهة طلبا للعون ومنهم من يلعنون قدرهم.
كان من العسير فعل أي شيء في وسط هذه الحمى الشاملة من الرعب. لا أحد يستجيب لأي نداء منه، لكن الجميع كانوا يرفعون نحوه عيونهم المرتعدة يندبون روما التي تحترق، ويحترق معها الكون بأسره. لم ينقطع وصول الحشود من جهة روما. رجال، ونساء، وأطفال، انخرطوا في الزحام العشوائي والذي فصل بعضهم عن اهليه، وبحث بعضهم في حيرة عمن ضاع عنهم. آخرون تشاجروا من أجل أمكنة لضرب الخيام.
رعاة قصدوا المدينة الصغيرة مجموعات إثر أخرى، تقف يا لابناء، أو بحثا عن فرص السطو في الفوضى العارمة. وهنا وهناك مجموعات من المجالدين والأرقاء من مختلف الأقوام بدأت تقتحم المنازل والفيلات وتطبق على الجنود الذين يحمون السكان.
أمام مطعم هناك محاط بالعبيد، لمح فينيكوس السيناتور يونيوس الذي زوده بالأخبار الأكثر دقة عن الحريق اندلعت النيران أول الأمر في محيط السيرك الكبير في المنطقة التي تحد البالاتينوس، وهضاب سيليوس، لكنه انتشر بسرعة تفوق التصور، حتى بلغ وسط المدينة. منذ برينوس لم تتلق المدينة مثل هذه الصفعة. احترق السرك بكامله مع ما حوله من بيوت ومحلات وشملت النيران أفنتوس و سيليوس. لكنها أحاطت بالبالاتينوس من جانب، ثم انتشرت حتى كارينا.
هنا قبض يونيوس صاحب الاعمال الفنية العديدة في كارينا، على حفنة من الغبار القذر وصبها على رأسه، وراح يولول. لكن فينيكوس أمسك بكتفه، وربت عليه، مواسيا:
- ومنزلي أنا أيضا في كارينا. فإذا احترق كل شيء هناك، فليحترق معه. ثم خطر له أن ليفيا لو قبلت بنصيحته، لكانت انتقلت إلى منزل أرسوس. فسأله:
- وفينيكوس بتروسيسوس؟
- إنه يحترق أجاب يونيوس
- وترانستريس؟ رمقه يونيوس بنظرة استغراب:
- وماذا يعني ترانستيريس؟ فصرخ فينيكوس بعنف:
- أهم عندي من روما كلها.
- يمكن أن تصل إلى هناك عبر فيا بتونسيس... ترانستيريس؟
لا أدري، إن كانت النيران وصلت إلى هناك... من يدري... بعد هذا اللغو من يونيوس أخفض صوته قليلا ليستأنف قائلا:
- أعلم أنك لن تشي بالأمر. فما حصل ليس حريقا عاديا. لم يسمح بإطفاء السيرك... سمعت بنفسي... حين بدأت النار تلتهم البيوت تعالت الاف الأصوات التي تنادي: "الموت للمنقذين" كان أشخاص معينون يركضون في الشوارع. مشاعلهم ويلقونها على المنازل... وفي أمكنة أخرى قام الناس يصرخون بأن روما

تحترق بأمر ما لن أقول لك شيئا آخر.
ويلي على المدينة، ويلي علينا جميعا، ويلي أنا إما يحصل هناك يعجز اللسان عن التعبير عنه البشر تأكلهم النيران، أو يدهسون بعضهم في الزحام... هذه نهاية روما.
وبدا يولول ثانية: ويلي على المدينة، ويلنا! لكن فينيكوس كان قد اعتلى الحصان وانطلق، وسط عويل الناس الذين باتوا لا يطيقون الحرارة الرهيبة القادمة من بحر النار والدخان، ولا تستطيع نداءاتهم أن تدفع عنهم هسيس الحريق، ولا السنة اللهب.

كلما اقترب فينيكوس من الأسوار تبين له أن طريقه حتى بلوغ أطراف المدينة أسهل من الدخول إلى قلبها. ذلك أن من العسير اختراق الكتلة البشرية المتدافعة النازحة منها عبر فيا أبيا. كل ما أقيم على جانبي الطريق من صفوف المنازل، وحقول ومقابر، وحدائق، ومعابد قد تحول إلى مخيمات. وأقدمت الحشود على اقتحام باب معبد مارس المشاد قرب بورتا أبيا، طلبا لملاذ آمن هذه الليلة.
وخاضت في المقابر اقتتالا دمويا لاحتلال أمكنة الاضرحة. حصلت خسائر بشرية كبيرة بعد أن اخترقت القوانين، وانتهكت هيبة الأنظمة، ولم يقم أي وزن للعلاقات العائلية والفروق الاجتماعية.
شوهد العبيد الذين يضربون المواطنين الأحرار بالهراوات، والمجالدين السكارى بفعل النبيذ المنهوب في الامبوريوم يقتتلون بجماعات كبيرة، ويطلقون زئيرا وحشيا وهم يلاحقون البشر، ويسحقونهم، أو يغرقونهم في الاراضي على طول الطريق، والبرابرة الهاربين من أسواق النخاسة. كان احتراق المدينة يعتبر بالنسبة إليهم، نهاية العبودية، ومجيء ساعة الانتقام. فحين راح السكان المحليون الذي فقدوا في هذا الحريق كل ما يملكون، يرفعون أياديهم بانكسار نحو الالهة توسلا للعون، راح أولئك يفرقون الحشود، ويمزقون الملابس عن أجساد الناس، ويخطفون الجميلات من النساء، ولقد انضم إليهم عبيد روما القدماء، والمقاطيع من شجرة البؤساء العراة الا مما يستر عوراتهم.
الاشكال المرعبة التي لفظتها الازمة الضيقة فخرجت الآن في وضح النهار على غير العادة، والتي لم يكن أحد يتصور وجود أمثالها في روما.
آسيويون، أفارقة، يونانيون، جرمان، بريتان، ومن يصرخ ويزأر بشتى لغات العالم، وقد جاءتهم الفرصة للخروج من معاناتهم على مدى سنوات طويلة. أمواج بشرية هائجة بانت خلالها على ضوء الشمس، والحريق، مجموعات أكثر هدوء من السكان النازحين تحت حماية فصائل الحرس الامبراطوري التي اضطرت في أماكن كثيرة لضرب مهاجميهم من الرعاع.
كم من المدن شاهد فينيكوس في أثناء الحروب التي خاضها، لكنه لم ير مثلا لما يحصل الان في المدينة، من انكسار، وحيرة، ودموع، وتأوهات، وسعادة وحشية، وهياج، وغضب مسعور، وحماس وحشي. وفوق هذا كله من الخليط البشري العشوائي النادر نشب الحريق الهائل فأحرق فوق الرؤوس أعظم مدن العالم، وأطلق أنفاسه النارية في هذه الفوضى الكلية، حتى غطى دخانه قبة السماء الزرقاء.
جاء فينيكوس مخاطر بحياته حتى وصل إلى بورتا أبيا، فرأى استحالة دخوله المدينة عبر بورتا كابيتا، ليس فقط بسبب الزحام، بل نتيجة للحرارة الهائلة التي تختلط بالهواء عبر البوابة.
وإذا ما أراد الوصول إلى الترانستبريس فعليه أن يعود ليعبر جسر سوبلبسيوس أقدم وأعرق جسور روما، أو يتقدم. محاذاة أفنتيوس لكن عبر بحر من اللهب يغلف ذلك الجزء من المدينة. كان أمرا مستحيلا. فرأى فينيكوس أن عليه إذن العودة نحو اوسترينوم، متجنبا فيا أبيا عابرا النهر تحت المدينة، حتى يبلغ فيا بورتونسيس التي تقوده مباشرة إلى ترانستيريس. لم يكن ذلك بالأمر الهين خاصة بسبب ما تعانيه فيا أبيا من فوضى، حيث كان يمكن له أن يستخدم سيفه لشق طريق لنفسه. الا أنه لم يملك الان سلاحا لأنه غادر الأتريوم على نبأ الحريق ملهوفا.
عند منبع مركوريوس التقى أحد معارفه من قادة المائة على رأس بعض جنوده يحمي مدخل الكنيسة، فأمره بأن يتبعه، فلم يشأ قائد المائة أن يرفض طلب الاوغستين الحاكم.
تسلم فينيكوس قيادة الفصيل بصراحة تجاوزت وصية بولس في المحبة الأخوية، متوخيا بلوغ مكان طلق خارج هذا الزحام، الا أنه واجه مشقة كبيرة، فالكثير ممن ضربوا الخيام لم يشاؤوا إخلاء الطريق، فراحوا يلعنون القيصر والحرس الامبراطوري، ويتهمونهم بإحراق روما، متوعدين القيصر و بوبيا بالموت.

"مهرج، ممثل جوال، قاتل أمة" وتكفل آخرون بإلقائه في نهر التيبر، وصاح آخرون "كفى صبرا لروما".
كان واضحا أنها صيحات وعيد متمردة تنتظر قائدا مناسبا لتنفجر في أية لحظة. في أثناء ذلك تحول غضب الجموع المسعور ضد الحرس الامبراطوري الذي لم يتمكن من اختراق الزحام نتيجة لقطع الطريق ما تراكم عليه من متاع، وحاويات أطعمة، وصناديق، وأثاث، وآنية وأسرة أطفال، وشراشف، وعربات، ونقالات يدوية. فكان لا بد من الشجار مع هذا الحشد الأعزل من العامة.
مشقة بالغة، عبروا فيا لاتين و نوميساو أرديتين و لافينا و أوستنسيس، والفيلات، والحدائق، متجنبين المقابر والكنائس حتى وصلوا أخيرا بلدة فيكوس الكسندر ومن خلفها نهر التيبر. كان التحرك هناك طلقا، والدخان أقل كثافة. النازحون هنا أيضا بأعداد كبيرة، فعرف منهم فينيكوس أن الحريق لم يدهم حتى الان سوى بعض الشوارع من الترانسبريس، لكن ما تبقى من الحي لا منجى له من الحريق، لأن هنالك من يضرم فيه النار عمدا، دون أن يسمح لأي كان بإطفائها. الأمر جلي إذن.
الحريق ناتج عن أمر مسبق بإضرامه. أيقن فينيكوس الان أن كل ما يجري بأمر من القيصر، وأنه من أراد إحراق روما حقا، وأن تعطش الناس إلى الانتقام محق ومشروع.
ما الذي أمكن أن يفعله ميترادس أو أي أحد آخر من أعداء روما أكثر مافعله القيصر؟
لقد طفح الكيل وبلغ الجنون حده المتوحش، وباتت الحياة الانسانية مستحيلة. أدرك فينيكوس أن ساعة نيرون قد حانت، وأن أنقاض روما عليها أن تدفن تحتها هذا المهرج الشاذ، وتدفن معه كل أفعاله الشريرة.
لو كان هناك ذلك الشاب الشجاع كفاية، ووقف على رأس هذه الجموع الحائرة، لحصلت هذه الامنية خلال ساعات. لمعت أفكار جريئة في ذهنه الناقم. ماذا لو كان هو ذلك الشاب؟ إن قومية فينيكوس شهيرة في روما كلها، وهذه الحشود لا تحتاج الا إلى اسم خاصة أن الحكم بالإعدام على أربعمئة من أرقاء بدانيوس سكوندوس، كاد يؤدي إلى انتفاضة وحرب داخلية. فما الذي يمكن أن تحدثه واقعة الشؤم الرهيبة التي تفوق هولا كل الوقائع التي حصلت لروما منذ ثمانية قرون.
من يدعو الشعب إلى حمل السلاح لا بد أن يسقط نيرون، ويرتدي محله اللون الأرجواني الرفيع. فلم إذن لا يفعلها بنفسه وهو الامهر والأقوى، والأكثر فتوة وشبابا من جميع الاوغستيان. صحيح أن القيصر هو آمر الفيالق الثلاثين المنتشرة على حدود البلاد، ولكن هل ترضى هذه الفيالق وقادتها بإحراق روما ومعابدها؟ الا يغضبهم الأمر؟ وفي هذه الحالة سيكون فينيكوس هو القيصر، خاصة وأن الاوغستيان قد تهامسوا فيما بينهم أن أحد العرافين قد تنبال أوتو بارتداء الزي الأرجواني القيصري. وهو ليس أسوأ من أوتو هذا. وقد يساعده المسيح بقوته الالهية. تنهد فينيكوس من أعماقه.
قد ينقم على نيرون بسبب ما تعرضت له ليفيا من مخاطر، وما لحق به شخصا من متاعب، فيأخذ على عاتقه الانتصار للعدالة والحق. وينشر تعاليم المسيح من أوروبا حتى شواطئ بريتانيا الضبابية، ويخلع على ليفيا الرداء الارجواني، ويجعلها سيدة الأرض.
لكن هذه الأفكار التي لمعت آنيا في ذهنه كشرارات تطايرت من منزل محترق، ما لبثت أن خمدت كتلك الشرارات. ذلك أن الأولوية الان إنقاذ ليفيا. والان بات في موقع قريب من الحريق، يشاهد بحر نيرانه ودخانه بأم عينه، فتملكه الخوف من جديد، وفقد يقينه بأن الحواري بطرس ما زال قادرا على إنقاذ ليفيا.
لقد كان في حيرة عند خروجه من بورتونسيس المفضية إلى ترانستيبرس، لكنه استعاد رباطة جأشه عند البوابة حيث أكدوا له ما كان قد سمعه على لسان النازحين، من أن القسم الأعظم من الترانسبرس لم تصل اليه النار، رغم أن اللهب قد بلغ ضفة النهر الاخر في بعض الأماكن.
كان الترانستريس بدوره مغلفا بالدخان يعج بالنازحين الذين شق دخولهم قلب الحي، لكثرة المتاع المنقولة من المنازل القريبة، وانقطاع الطرقات، والنزاعات الدامية بين الأفرقاء هناك. تشتتت العائلات، وتعالت

نداءات الامهات لأطفالهم. انتصب شعر رأس فينيكوس الفكرة ما حصل من أهوال في الأماكن القريبة من الحريق.
في أتون هذه النداءات، والصرخات، والصخب الفظيع، كان السؤال للوقوف على الانباء شاقا كما سماع أي نداء بجلاء. وبين الحين والحين كانت موجات الدخان الداكنة تعبر النهر لتغلف وجه الأرض، والبيوت، والبشر، والموجودات، كظلمة الليل. لكن الرياح المدفوعة بفعل الحريق كانت تشتتها أحيانا، فينجلي الطريق أمام فينيكوس للتقدم نحو الأزقة، حيث منزل لينوس. كان حرارة شمس حزيران لا تحتمل، وقد انضاف اليها ما يتدفق من حرارة بثتها أحياء المدينة المحترقة. الدخان أحرق العيون، والصدور تعذر عليها استنشاق الهواء.
ومن بقي منذ البداية في المنازل أملا في الا تجتاز النيران الحاجز المائي، قد غادرها الان فبات الزحام يشتد مع مرور الوقت. الأمر الذي جعل الحرس الامبراطوري المرافق ل فينيكوس مضطرا للتخلف عنه، حتى أن أحدهم وسط هذا الزحام، عمد إلى استخدام البلطة حالا جواده على الاسراع، فأدمي رأسه، فراح الجواد يشب واقفا على قائمتيه الخلفيتين رافضا القياد. ولما عرف الناس الاوغستياني من ردائه الموشى، بادروا حالا إلى إطلاق الصيحات: "الموت لنيرون وأعوانه".
كان الموقف صعبا شديد الخطورة. فقد امتشقت مئات السيوف وشهرت نحو فينيكوس، لكن الجواد باندفاعه مخترقا الجموع، قد تفاداها، وكانت موجة جديدة من القتامة الدخانية قد أخفت وراءه الطريق، حين رأي فينيكوس أنه لا يستطيع التقدم وهو على ظهر جواده، ترجل عن الجواد، وحث الخطى لائذا بالجدران، تاركا حشود النازحين تعبر إلى جانبه. شعر أن مساعيه باءت بالفشل، وأن ليفيا لم تعد في المدينة، وهي الان تسعى على الطرقات الإنقاذ نفسها، وبات من الأسهل عليه العثور على إبرة صنوبر في كثبان الشواطئ الرملية، من أن يلقى فتاته في وسط هذا الزحام والفوضى. ومع ذلك قرر أن يصل إلى منزل لينوس حتى لو كلف الأمر حياته. كان بين الحين والحين يقف فاركًا عينيه. أخذ مزقه من طرف ردائه، وعصب أنفه وفمه، وحث خطاه مسرعا.
كانت الحرارة تشتد كلما اقترب من النهر. ولعلمه أن الحريق اندلع في محيط السيرك الكبير، فقد أيقن أن هذه الحرارة غير المحتملة منبعثة من احتراق السيرك، وفوروم بوريوم وفيلا بروم كان آخر من التقاهم فينيكوس عجوز نازح صاح به قائلا:
- " لا تذهب ناحية جسر كستيوس لأن الجزيرة تحترق!". وحين تقدم باتجاه فيكوس يوديروم حيث منزل النيوس شاهد الحاكم الشاب لهب النيران والسحب الدخانية هناك، الأمر الذي جعله يوقن أن ما يحترق ليس فقط الجزيرة بل الترانستيبرس كذلك، وفي الجهة التي قطنتها ليفيا.
تذكر فينيكوس أن منزل لنيوس تحيط به حديقة، وراءها، من جهة نهر التيبر، فسحة ترابية فسيحة.
شحنته الفكرة بأمل جديد. فالفسحة الترابية الحالية تشكل عائقا أكيدا لتقدم النيران. اندفع يحدوه هذا الأمل، رغم أن كل هبة للريح باتت تحمل شرارات نارية إضافة إلى سحب الدخان. فانسدت طريق العودة.
لكنه في نهاية المطاف لمح خلل الدخان صنوبرات حديقة لنيوس كانت البيوت الواقعة خلف الفسحة الترابية قد أتت عليها النار وراحت تحترق كالمشاعل، لكن جزيرة لنيوس لم تمسها النيران. رفع فينيكوس عينيه بنظرة امتنان نحو السماء، ثم اقترب سريعا من المنزل، وكانت حرارة الجو قد أحرقته. كان الباب مغلقا، لكنه ركله ودخل.
خلت الحديقة من أي صافر لنار. وبدا البيت خاليا كذلك.
"ربما أغمي عليهم من الدخان والحرارة"فكر فينيكوس ونادى عاليا:
- ليفيا! ليفيا!

كان الصمت العميق هو الرد. لم يسمع خلاله الا ضوضاء الحريق البعيدة.
- ليفيا!
وفجأة طرق سمعه ذلك الصوت المتوجع الذي سمعه ذات مرة حين كانا معا في هذه الحديقة. لا بد أن يكون قد احترق في الجزيرة المجاورة قرب كنيسة اسكولبيوس ذلك المربي الذي يضم شتى أنواع الحيوانات البرية والاسود التي تزأر ذعرا. ارتعدت أوصال فينيكوس. مرة أخرى حينما يتركز كل تفكيره بليفيا، يسمع هذه الأصوات الرهيبة، نذير شؤم عليه.
لكن جفلته كانت لحظية، لأن دوي الحريق كان أكثر روعة من زئير الأسود، فأرغمه ذلك على التفكير بسواه. ليفيا لم تجب على ندائه طبعا، لكنها قد تكون في البيت المعرض للخطورة قد أغمي عليها، وفقدت وعيها من تنشق الدخان. دخل فينيكوس المنزل. كان الأتريوم فارغا، يملؤه الدخان تماما.
وبفتحه باب الغرفة الأخرى لمح مصباحا مضيئا، فاقترب أكثر، ورأى القائم الذي توضع عليه الصليب بدلا من الالهة الحارسة للبيت. تحت هذا الصليب أضاء المصباح. لمعت في ذهن التلميذ المرشح لاعتناق الدين المسيحي فكرة أن الصليب هو الذي بعث اليه بالمصباح ليتمكن من العثور على ليفيا.
تناول المصباح باحثا عن مخادع النوم. أزاح ستارة وأدخل المصباح وجال بعينيه.
لم يكن هناك أحد. رغم ذلك كان فينيكوس على يقين أن ليفيا في المخدع، لأن ثوبها كان معلقا على الحائط، وقميصها الداخلي ملقيا على السرير. رفعه فينيكوس وضغطه على شفتيه. ثم رده على ذراعه وتابع بحثه. كان البيت صغيرة، دار على جميع غرفه وزواياه بقليل من الوقت.
لم يجد أحدا. كان واضحا وضوح الشمس أن ليفيا و لنيوس و أرسوس، وجميع سكان الحي قد هربوا من الحريق. فكر فينيكوس: "علي أن أبحث عنهم بين الجموع خارج المدينة".
لم يستغرب كثيرا أنه لم يجدهم في فيابور تونسيس لأنهم قد غادروا الترانستريس من الجهة الاخرى، باتجاه فاتيكانوس. المؤكد، على أية حال، أنهم هربوا من النيران. انزاحت صخرة كبيرة عن قلب فينيكوس. صحيح أن هناك مشقات كبيرة يواجهونها في أثناء نزوحهم، الا أنه تعشم في قوة أرسوس الفائقة للمقدرة البشرية، فانتعشت روحه بطاقة جديدة".
علي الان أن أنجو بنفسي وأغادر هذا المكان. سأعبر حديقة دوميتا إلى حديقة أغريبنا سأجدهم هناك. الدخان ليس بتلك الكثافة هناك، لأن الريح تهب من جهة جبال السابين.
كان لديه الان حقا الوقت الكافي ليفكر بالنجاة، لأن العاصفة النارية بدأت تقترب من جهة الجزيرة، والدخان يملأ الشوارع تماما. والمصباح بدأ ينوس.
خرج إلى الشارع جاريا بما لديه من طاقة باتجاه فيا بورتونسيس، وهي الجهة ذاتها التي أتى منها. تابع الجري خشية أن تلحق به النار. ويخنقه الدخان. امتلأ فمه حقا برائحة الاحتراق والسخام.
والتهبت حنجرته ورئتاه كالنار. فار الدم في رأسه، فاحمرت المرئيات في عينيه، حتى الدخان بداله أحمر.
قال لنفسه "هذه نار حية، الافضل لي أن أستلقي على الأرض وأموت" أنهكه الجري. وأغرق رأسه، وعنقه وظهره بالعرق اللاهب كالماء المغلي. ولو لم يكن يذكر اسم ليفيا، ويشم قميصها لخارت قواه حقا.
لكنه لم يعد يلمح الشارع الذي يجري فيه. وشيئا فشيئا بدأ يفقد وعيه، فلم يع الا أمرا واحدا: الهروب، وأن ليفيا التي وعده بها الحواري بطرس تنتظره في الحقل الطلق. وفجأة تملكه ما يشبه صحوة ما قبل الموت، عليه أن يراها، ويتخذها زوجة، وبعدها يموت في الحال.
بات الان يجري متمايلا على نحو اعتراضي في الطريق، كالثمل. وفي هذه الاثناء تبدل شيء ما في الحريق المرعب الذي يلف المدينة العملاقة.
كل ما كان يتقد متوهجة حتى هذه اللحظة، بات الان بحرا من اللهب المشتعل، والرياح التي تهب لم تعد

تحمل معها الدخان الأسود، بل الشرر الناري. بملايينه، وبات فينيكوس لا يجري في سحب دخانية بل في طوفان ناري كاو. لكن الرؤية باتت أوضح. وفي هذه اللحظة بالذات الذي أوشك فيها على السقوط المح نهاية الشارع. منحه ذلك مزيدا من القوة.
وبتجاوزه المبنى الركني عند المنعطف، بلغ الشارع المفضي إلى فيا بورتو نسيم وحقل كرديتا. لم يعد الشر الناري يلاحقه. أدرك أنه إذا ما احتمل الوصول حتى بورتونسيس فإنه في منجى، حتى لو أغمي عليه.
وعند نهاية الشارع كأنه قد لمع سحابة تغلف المخرج فكر: "إن كانت سحابة دخانية فلن أعبرها". صار يجري حاشدا كل قوة متبقية لديه. وفي الطريق القى عنه عباءته التي احترقت في أكثر من مكان، وباتت تحرقه كقميص نيسوس.
ركض عارية تماما إلا من قميص ليفيا على رأسه وفمه. حين اقترب أكثر تبين له أن ما رآه دخانا لم يكن الا سحابة غبارية جاءته منها أصوات بشرية. "الرعاع ينهبون البيوت" قال لنفسه.
لكنه أسرع باتجاه الأصوات، حيث وجود بشر قد يسعفونه بعونهم. محدياً بهذا الأمل، وقبل أن يصل إلى المكان، راح ينادي بأعلى صوته، طلبا للمساعدة. وبندائه هذا استنفد آخر ما يملك من قوة: احمرت الأشياء أمام عينيه، وانقطعت أنفاسه، خارت كل قوة لديه، وسقط.
كانوا قد سمعوه، وربما رأوه، فأسرع اليه بإبريق الماء رجلان منهم. كان فينيكوس قد سقط من الإعياء، دون أن يفقد وعيه، وحين لمح الابريق اجترع نصفه.
ـ شكرا لكم. أنهضوني. على أن أتابع المسير.
العامل الاخر سكب ما تبقى من الماء على رأسه، وبعد أن أنهضاه على قدميه قاداه إلى رهط آخر، التم أفراده حوله، وتفحصوا بعناية إما كان يعاني من أية جروح بليغة. تعجب فينيكوس للرعاية فسألهم:
ـ من أنتم؟
فأجاب أحد العمال:
ـ نهدم البيوت لنمنع النار من بلوغ بور تونسيس.
ـ هرعتم الي لمساعدتي حين سقطت، شكرا لكم.
ـ لا يجوز لنا أن نرفض طلب المساعدة أجابت بعض الأصوات.
جال فينيكوس بعينيه على وجوههم جميعا وقال:
ـ جازاكم المسيح لأجلها.
ـ المجد لاسمه أجابوا بصوت واحد
فسأل فينيكوس:
ـ لنيوس؟
لكنه لم يتمكن من تتمة سؤاله، ولم يسمع أي رد، لأن العاطفة المشوبة بالإعياء الشديد، قد غيبته عن الوعي.
استعاد وعيه في حديقة كامبوس كودتانوس، حيث وقف حوله بضعة رجال ونساء. وحين تمكن من التكلم كان سؤاله الأول:
ـ أين لنيوس؟
لم يسمع ردا في البداية، لكن صوتا مالوفا أجابه بعد قليل:
إنه خارج بورتا نومانتان... قصد الاوستريانوم... منذ يومين.. سلام عليك يا ملك الفرس.
جلس فينيكوس معتمدا على الآخرين، وعلى غير توقع، لمح شيلون إلى جانبه اردف اليوناني يقول:

منزلك قد احترق يا سيدي. لكنك تبقى ثريا على الدوام كالملك ميداس أي خطب هذا!
المسيحيون تنبؤوا منذ زمن طويل بأن هذه المدينة ستأكلها النيران... أما لنيوس وابنه جوبتر فهما معا في الأوستريانوم... أور، أي خطب الم بهذه المدينة!
ساءت حال فينيكوس من جديد. فسأله:
ـ وهل رأيتهما؟
ـ رأيتهما يا سيدي. الحمد للمسيح، وكل الالهة لأني تمكنت من رد جمائلك بنبأ طيب. لكني أقسم بروما المحترقة، بأنني سأقدم لك كثيرا من الامتنان بعد.
بدأ الظلام يحل. لكن الحديقة كانت منارة كما في النهار لأن الحريق أخذ يشتد، ويتفاقم كأن ما يحترق ليس جزءا معينا من المدينة، بل المدينة كلها. وعلى مد البصر كانت السماء تكتسي بالحمرة فخيمت ليلة قانية على الكون.

عم ضوء المدينة المحترقة تانيا أرجاء السماء طولا وعرضا. ومن وراء الجبال بزغ القمر بدرة، سرعان ما انعكس عليه الوهج الناري، فأمسى متوهجا كالنحاس، وهو يرمق عاصمة الكون الهالكة. وكذلك النجوم في فسحة السماء القانية، لألأت لألاء وردية. وعلى النقيض من كل الليالي في العادة، كانت الأرض أكثر إضاءة من قبة السماء كانت روما مشعلا عملاقا أنار الاشياء والأجرام. فبانت على ضوئه الجبال البعيدة، والمدن، والفيلات، والمعابد، والنصب، والأقنية المائية المنحدرة من الجبال المحيطة باتجاه المدينة، وعليها أعداد البشر الذين احتشدوا هنالك إما هربا من الخطر، أو لرؤية الحريق من عل على نحو أكثر جلاء.
في هذه الأثناء كان العنصر المروع يطيح بأجزاء أخرى وأخرى من المدينة. لم يكن من شك في أن ايادي آثمة هي التي أضرمت النار في المدينة، ولا تنفك تضرمها في أماكن بعيدة منفصلة عن البؤر النارية.
كانت النار تسكب لهبها أمواجا متدفقة من فوق التلال التي بنيت عليها المدينة، نحو الوديان المكتظة بالأبنية ذات الطوابق الخمسة أو السنة، والتي ما تزال ممتلئة بالحوانيت، ومستودعات الخشب والزيت وصوامع القمح، والجوز. هنا اختزنت المخاريط الصنوبرية التي يتغذى على بذورها العامة الفقراء، والأقمشة التي يتكرم القيصر وينعم بتوزيعها بين الحين والاخر على قاطني الازقة المعدمين.
في هذا المكان استحال الحريق، وقد وجدت النار ما يكفي من عناصر إزكائها، إلى انفجارات إلى وتشتد وتبلغ الشوارع بسرعة فائقة.
من تجمع من البشر خارج المدينة، أو من كان فوق الأقنية المائية قد عرف من لون اللهب، ما الذي يحترق. كان النسيم يختار من بحر اللهب الالاف المؤلفة من قشور الجوز واللوز المتقدة ويطيرها في الأعالي، كأسراب لا حصر لها من الفراشات المضيئة، لتتبدد بعدئذ محومة في الهواء، أو لتستقر، محمولة على جناح النسيم، فوق مناطق جديدة من المدينة، أو فوق الأقنية المائية، أو الحقول المحيطة بالمدينة. ما زالت فكرة النجاة تبدو مستحيلة أمام هذا التفاقم المريع للفوضى، وخروج السكان أفواجا أفواجا من أبواب المدينة كلها، إضافة إلى أن الحريق قد أغرى الألاف من سكان البلدات المحيطة، والفلاحين، والرعاة للنزول طمعا باقتناص فرص السلب والنهب.
" نهاية روما"نداء لم يخمد على السنة الجموع، وكأن هلاك المدينة كان يعني للجميع نهاية للإمبراطورية الرومانية، وانحلال كافة الخيوط التي ربطت السكان، إلى الآن، وجعلت منهم نسيجا واحدا وشدت لحمتهم. الغالبية العظمى من الرعاع التي شك لها الأرقاء والمهاجرون، سلكت سلوكا تهديديا هنا وهناك، لأن الأمر الهام بالنسبة إلى هؤلاء ليس سلطة روما، بل تلك الانعطافة التي تخلصهم من قيودهم.
وها هي الان. متناول أيديهم، وعليهم أن يحققوها بأهم وسيلتين:
أعمال العنف والسرقة.
وغاب عن بال مئات الالاف من الأرقاء أن لروما عشرات الفيالق منتشرة في أنحاء العالم، إضافة إلى فيالقها على حدود المدينة، وكلها بانتظار إشارة أو كلمة.
صار يتردد اسم سبارتكوس، رغم أن سبارتكوس ما عاد موجودا، فيما كان المواطنون يتوحدون ويتسلحون، إفراديا حسب المستطاع.
كانت تأتي أبشع الأنباء عند كل بوابة زعم بعضهم أن فولكانوس هو من يقوم بأمر من جوبيتر، بإحراق المدينة بنيران تنبع من تحت الأرض. وأكد بعضهم الآخر أن ما يحدث ما هو الا انتقام الإلهة فيستا من أجل عذراء فيستا روبريا. فمن كانوا يعتقدون بهذه الواقعة المقدسة لم يكونوا مستعدين لإنقاذ المدينة، واكتفوا بالتزام المعابد، متوسلين من الإلهة الرأفة. لكن أكثر الأنباء انتشارا وقبولا هو أن القيصر قد أحرق

المدينة، ليتخلص من الروائح المنتشرة من سوبورا، ويتمكن من بناء مدينة جديدة باسم نيرونيا. استعر غضب الشعب لهذا. ولو كان هنالك قائد كما يفكر فينيكوس. مقدوره أن يستغل هذا التفجر الحاقد، لا تنتهي أمر نيرون منذ سنوات.

وقيل أيضا أن القيصر قد جن، وأصدر أوامره للحرس الامبراطوري، والمجالدين، بالتنكيل بالشعب وإحداث المجازر وحمامات الدم. وهناك أقسم بالآلهة أن الوحوش قد أفلتت من مرابيها ومعاقلها بأمر من القيصر. وأنهم شاهدوا في الشوارع أسودا ولبوات تحترق، وفيلة نافقة وجواميس هائجة تقوم بدهس جموع الناس. كان في هذا قدر كبير من الصحة، لأن الفيلة في بعض الأماكن، وقد روعها اقتراب الحريق منها قامت بتشليع حظائرها، وفرت مذعورة في الاتجاه المعاكس للنيران، مدمرة كالعاصفة الهوجاء كل ما يعترض طريقها.

وشاع خبر قدر الخسائر البشرية نتيجة الحريق بعشرات الآلاف. وهذه حقيقة. كان هناك من خسر كل ثروته، وفقد أعز أحبائه فدفعه اليأس لألقاء نفسه بين السنة النيران. آخرون اختنقوا بالدخان. وآخرون غيرهم واجهتهم النيران في كل اتجاه أو طريق سعوا للهروب منه، إن كان في مركز المدينة أو في أي مكان آخر اندلع فيه الحريق، فلقوا أبشع الهلاك: الموت حرقا.

كانوا من الذعر على قدر جعلهم يضلون السبيل، فلا يعرفون أي وجهة يتخذون للهرب من النار التي لاحقتهم وواجهتهم في كل مكان: الساحات، المعابد، الشوارع، الطرقات.

الجثث المتفحمة في كل مكان وحيث لم تصل النار كان هلاكهم من شدة الحرارة القاتلة منهم من راح يدفن نفسه نصفياً بالأتربة، أو يشق البلاط احتماء به من لهب الحرارة. حتى يمكن القول إن ما من أسرة واحدة من الاسر القاطنة داخل المدينة، استطاعت أن تهرب بكامل أفرادها، ما أدى عند كل مدخل للمدينة، وفي كل شارع وطريق إلى سماع ولولات الامهات، وصراخ النساء لما أضعن من أحباء، أو فقدن حرقا من أعزاء.

وهكذا، ففي حين كان البعض يتضرعون إلى الالهة، وقف آخرون يشتمون أسماءها لهذا الدمار الرهيب. شوهد مسنون يبسطون الايادي نحو معبد جوبيتر ويتقدمون بالدعاء:

"أنت المنقذ، فأنقذ مذبحك ومدينتك". فيما كان التذمر منصبا على الالهة الرومانية القديمة التي حسب تصورات السكان تتحمل قسطا من المسؤولية. وبما أنها قد برهنت عجزها عن تقديم هذا العون، فقد سقطت من عيون الناس، فاستحقت ازدراءهم.

وعلى النقيض من ذلك، فقد حصل أنه لما ظهرت في فيا أسيناريا مجموعة من الكهنة المصريين تخرج نصب إيزيس من المعبد الواقع في محيط بورتا كاليمونتانا، انضمت اليها حشود أخرى ورافقت العربة التي تحمله حتى بورتا أبيا، فأنزلوا النصب وأدخلوه معبد مارس، بعد أن قاموا بضرب كهنة المعبد الذين اعترضوا على وضعه هناك، ضربا مبرحا. وفي أمكنة أخرى توجه بالنداء إلى سيرابيس وبعل و يهوه، أنصار سوبورا بعد أن خرجوا من أزقتهم المجاورة للترانستيبريس يملؤون المدى بالصراخ والعويل.

وبالمقابل كأنما أصوات النصر أيضا قد ترددت في هذه النداءات، في محاولة منها لإسكات الأصوات الصاخبة التي راحت تمجد"سيد العالم". في مكان آخر قام رجال كهول، و كهنة ونساء وأطفال، يرددون غناء غريبا لم يفهم معناه، لكنه تضمن عبارات مثل: "لقد جاء القضاء في يوم الغضب والهلاك". هكذا كبحر هادر راح الطوفان البشري المائج الساهر يطوق المدينة المحترقة.

ولكن لم يكن بمقدور لا حالة اليأس ولا الشتائم، ولا الغناء أن يبدل في الأمر شيئا. وبدا أن الواقعة لا تقاوم، ولا يكبح جماحها، وهي ماضية لا محالة حتى نهايتها المحتومة كالقدر. امتدت النار لتلتهم مستودعات الجبال والقنب الواقعة إلى جانب الأمبيتتروم، باعتبار أن هنالك حاجة لكمية هائلة من الحبال اللازمة

لمختلف أنواع الأجهزة والآلات المستخدمة في ميادين السيرك، والمجلدات، والمنافسات الرياضية، ولتلتهم هناك كذلك مستودعات براميل الزيت الخاص بطلاء الحبال.
ولمدة بضع ساعات نشر الحريق ضوءه لينير بالأصفر الصارخ كامل شطر المدينة، ومعه ميدان مارس الممتد وراءه، حتى ليظن الرائي من شدة الذعر أن انقلابا كونيا كبيرة وتخلخلا قد حصل فجأة، وأنه الان في النهار لا في الليل.
ولكن مع مضي الوقت، بدأ اللون القاني يطغى على كل الوان اللهب صارت النوافير والاعمدة النارية العملاقة تتحرر من بحر اللهب وتنفذ عاليا نحو قبة السماء المتوهجة، وتتبدد في الأعلى إلى ريش وعناقيد نارية، حملتها الرياح ثم شل عتها إلى شرارات خيطية وشعرية ووصلت بها حتى جبال الألب.
صارت الليلة أكثر إضاءة، والهواء مشبعا بالضوء واللهب الناري. وبات نهر التيبر يموج بالنار. واستحالت المدينة البائسة إلى جحيم، كان يتسع ليشمل كبرى المساحات، والتلال، وانداح على السهوب، وأغرق الوديان، وعصف، ولعلع، وأرعد.

الحائك مكرينوس الذي أدخل فينيكوس إلى منزله، قام بتحميمه، وقدم له الثياب، وأحسن ضيافته، وحين استعاد الحاكم الشاب كامل قواه، أعلن أنه سيستأنف مسيره ليلاً بحثا عن لنيوس. مكرينوس المسيحي أكد أقوال شيلون بأن لنيوس، وكبير الكهنة كليمنس قصدا الأستريانوم حيث يقوم الحواري بطرس بتعميد مجموعة من معتنقي الدين الجديد. كان جميع سكان هذا الشطر من المدينة يعرفون أن النيوس منذ يومين قد أوكل. منزله شخصا يدعي غينوس.
كان هذا بالنسبة لفينيكوس، تأكيدا آخر على أن ليفيا وأرسوس قد غادرا المنزل وذهبا إلى الأستريانوم.
اطمأن فينيكوس لهذه الفكرة. كان لنيوس رجلا مسنا يشق عليه مغادرة الترانستيبرس كل يوم إلى بورتا نومنتاتا البعيدة، ومن ثم العودة ثانية. ومن المحتمل إذن أنه خارج سور المدينة، يقيم عند أحد أخوته في الدين، ومعه ليفيا وأرسوس، وفي هذه الحالة فإنهم في منجى من الحريق الذي لم ينتشر ليبلغ المنحدر الاخر للأسكيلنيوس.
لقد رأى فينيكوس في هذا وصية المسيح، وشعر بأنه مشمول برعايته، فامتلأ قلبه. محبة أكبر إزاءه، وأقسم أنه سيظل طوال حياته ممتنا لما أنعم عليه من إشارات الرأفة.
لكن الأهم الان الذهاب إلى الأستريانوم. هناك سيلتقي ليفيا، ويلتقي لنيوس ويلتقي بطرس، ويذهب بهم إلى مكان ما في أحد ممتلكاته، وليكن إلى سيسيليا.
ها هي ذي روما تحترق، وبعد أيام لن يبقى منها سوى الرماد، فلم بقاؤهم هنا عرضة لهذا الخطر بين السكان المنفلتين بلا قياد؟ في حين أن فريقا كاملا من العبيد سيحيطهم هناك بالرعاية، حيث الهدوء التام، والحياة الامنة مباركة بطرس، وتحت حماية المسيح. والان عليه أن يجدهم.
لم يكن العثور عليهم بالأمر السهل. تذكر فينيكوس كم عانى من مشقات كثيرة للوصول إلى الترانستيبرس قادما من فيا أبيا، وكم اضطر التغيير طريقه لبلوغ فيابورتونسيس، فاتخذ الان قرارا بتجنب المدينة من الجهة المعاكسة، والتقدم عبر تريباليس على محاذاة النهر للوصول إلى بونس إميليوس، ومن هناك، بالالتفاف حول بنسيوس على طول حقل مارس، يمكن الوصول إلى فيانومنتا. كانت أقصر الطرق رغم أن مكرنيوس و شيلون لم يقترحاها مسلكا لمسيره. الحريق لم ينتشر بعد في هذا الشطر من المدينة، لكن الاسواق والطرقات مقطوعة من قبل جموع الناس ومتاعهم. نصحه شيلون بالذهاب إلى بورتا فلامينا عبر أغر فاتيكانوس، وهناك يعبر النهر، ويتجه إلى بورتاسالاريا خارج الاسوار خلق حديقة اسيليوس. وبعد مناقشات سريعة قبل فينيكوس بالنصيحة.
كان على مكرينوس أن يبقى هناك ليحمي المنزل، لكنه كان يعتني ببغلين أمكن أن تستخدمهما ليفيا في متابعة السفر. كان راغبا في إرسال أحد الأرقاء أيضا، لكن فينيكوس منعه من ذلك، أملا اصطحاب أول مجموعة من الحرس يلتقيها في الطريق، تحت إمرته إلى هناك. وبعد قليل انطلق. بمرافقة شيلون باتجاه فياتريمباليس كانت المساحات الرحبة مليئة بالبشر لكنها كانت قابلة لعبورها، لأن الغالبية العظمى من السكان قد هربت باتجاه البحر.
تقدما بين النهر وحديقة دوميتيا الفخمة، التي التمعت سرواتها بحمرة الحريق كما لو كانت تغتسل بشفق الفجر. كأن الطريق هنا بات أسهل العبور، رغم اضطرارها أحيانا لمواجهة تدفقات الفلاحين في الاتجاه المعاكس كان فينيكوس لا ينفك يحث بغله على الاسراع، لكن تابعه شيلون كان طوال الطريق يقول لنفسه:
- الحريق بات وراءنا، وهو الان يسخن ظهورنا. لم يكن الليل في هذه الطريق. مثل هذه الاضاءة يا جوبيتر! إن لم ترسل و ابل أمطارك فوق هذه النار، فذلك يعني أنك لا تحب روما. القوة البشرية لا تطفئها. بالمدينة التي أخضعت بلاد اليونان، وسائر العالم! والان يمكن لكل عابر سبيل يوناني أن يدنسها. من كان

يتخيل ذلك الن تكون روما. بعد الان... ولن يكون هنالك سادة رومان. صار أي كان يمكن له أن يتبختر مددنا بصفيره فوق رمادها. صار أي كان يتجرأ وينتهك هيبتها. أيتها الالهة! أتستحق هذه المدينة التي كانت سيدة العالم أن تهان بالتبختر والصفير فوق رمادها. أي يوناني أو بربري بالأخص قد تصور مثل هذا؟ أجل بات الصفير والتبختر متاحين فوق رماد المدينة. فالرماد رماد سواء أكان رماد نار الرعاة، أم رماد مدينة بكاملها، كلها ستذروها الرياح.
كان يكلم نفسه وهو يلتفت نحو أمواج النيران، وترتسم على وجهه تعابير من الفرح والغضب معا. واستأنف كلامه:
- هالكة! هالكة! ولن تقوم لها قائمة مرة أخرى. إلى أين سيصدر العالم بعد الان أقماحه، وزيوته، وأمواله؟ وما نفع الذهب والدموع؟
الرخام لا يحترق، لكنه يتشقق بفعل النار. سيستحيل الكابينوليوم والبالاستينوم إلى أنقاض. واجوبيتر! كانت روما كالراعي وباقي الشعوب كالقطعان. إذا ما جاع الراعي كان يذبح نعجة ويأكل لحمها، ويخصك أنت، يا رب الالهة، بجلدها قربانا.
يا أيتها السحب من سيذبح بعد الان النعجة، ولمن ستسلمين عصا الراعي؟ فروما يا أبت تحترق عن آخرها وكأنك أنت من قمت بإضرام النار فيها.
استعجله فينيكوس:
- أسرع! ما الذي تفعله هناك؟
فأجاب شيلون:
- أبكي روما يا سيدي. يا لها من مدينة الهية!
وتابعا المسير دون كلام، فكانا يسمعان فرقعة الحريق وخفق أجنحة الطير. كانت أعداد هائلة من الحمام التي تعشش في الابراج والفيلات، مع أنواع شتى من الطيور الساحلية، وطيور البيئات المحيطة، تلقي بنفسها في النار ظنا منها أنها في ضوء النهار.
كسر فينيكوس جدار الصمت:
- أين كنت حين اندلعت النيران؟
- كنت أقصد صديقي يوريسيوس صاحب الحانوت الصغير قرب السيرك الكبير، وكنت في طريقي أفكر بتعاليم المسيح أخذوا يصيحون أن نارا تندلع. فتجمهر الناس قرب السيرك يدفعهم الفضول من جهة، والحمية في انقاذه من جهة أخرى. ولكن حين طالت النار السيرك وبدأت تشب في أماكن أخرى، بتنا نفكر بإنقاذ أنفسنا.
- هل رأيت أشخاصا يلقون بالنار على المنازل؟
- لقد رأيت الكثير يا حفيد إنياس. رأيت أناسايشقون طريقهم بالسيف بين الجموع، رأيت صدامات، وأمعاء بشرية في الشوارع. لو رأيتها يا سيدي بنفسك لظننت أن البرابرة قد احتلوا روما، وبدؤوا سفك الدماء فيها. كان الناس حولي يصيحون: هذه نهاية العالم. كان هنالك من فقد رشده، فأحجم عن الفرار منتظرا أن يبتلعه بحر اللهب. آخرون جنوا، وآخرون يصرخون من شدة اضطرابهم. لكني رأيت من يصرخون من شدة سعادتهم، فكم من الاشرار الذين لا يقدرون فضائل سلطتكم، وسلامة القوانين التي تحيز لكم أن تستولوا من الجميع على كل شيء. لا يقبل الناس الاستسلام لمشيئة الالهة.
اشتد تأثير أفكاره وخواطره، فلم ينتبه إلى ما يكمن في كلام شيلون من استهزاء لاذع. كان مرتعد الأوصال من فكرة أن ليفيا قد تكون في قلب هذه الفوضى العارمة، وسط الزحام الرهيب الذي يتخبط فيه البشر، فراح يكرر اسئلة كان قد وقف على أجوبتها:

ـ ورأيتهم بأم عينك في الاوستربانوم؟
ـ بأم عيني يا بن فينوس. رأيت العذراء، والليغوي الطيب، ولنيوس الناسك، والحواري بطرس.
ـ أمام الحريق؟.
ـ أمام الحريق، وحق الالهة!
لكن فينيكوس لم يكن على يقين من أن شيلون يقول الصدق، فأوقف بغله، ورمقه بنظرة تهديدية، وسأله:
وما الذي كنت تفعله هناك
ارتبك شيلون. صحيح أنه كان مثل كثيرين غيره، يعتقد أن هلاك روما يعني نهاية امبراطورية روما، لكنه الان كان وحيدا برفقة فينيكوس فأخذ تهديداته على محمل الجد، وتذكر أنهما يسعيان وراء المسيحيين، وخاصة ليفيا ونيوس. فقال:
ـ سيدي إلماذا لا تصدق أنني أحبهم؟ هذا ما حصل. كنت في الأستريانوم لأني نصف مسيحي عل مني بيرهون أن أقدر الفضيلة، وأن احترم الأخلاق أكثر من الفلسفة، لذا فأنا الوب بحثا عن الفاضلين من البشر1. و إلى جانب ذلك، ياسيدي، أنا إنسان فقير، وا جوبيتر! ففي الوقت الذي كنت فيه تمرح في الأنتيوم، كنت أنا أعاني من الجوع وأنا منكب فوق كتبي.
وهكذا فقد لزمت مكاني في الأستريانوم إلى جانب السور لأن المسيحيين، ولو أنهم فقراء، كانوا يجودون بالصدقات أكثر من سكان روما قاطبة.
كان عذرا مقبولا لدى فينيكوس، فسأله بلهجة وادعة:
ـ الا تعرف أين أقام لنيوس خلال ذلك الوقت؟
فأجابه اليوناني:
ـ أما أنزلت بي، مرة، أقسى العقاب على فضولي وحشر أنفي في كل أمر؟
سكت فينيكوس وتابعا المسير
لكن شيلون سرعان ما نطق قائلاً:
ـ لولاي يا سيدي ما وجدت الفتاة. فإذا ما وجدناها الان فهل ستنسى هذا الحكيم الفقير؟
ـ ستنال منزلا وحقل كرمة قرب أميريولا
ـ شكرا، وا هرقل! حقل كرمة؟... شكرا! أجل حقل كرمة.
باتا الان يسيران قرب روابي فاتيكانوس التي أضفت على النيران لونها الأحمر، وما لبثا أن انعطفايمينا كي يبلغا النهر، ويعبراه إلى بورتا فلامينيا. توقف شيلون فجأة وقال:
ـ سيدي! لقد راودتني فكرة هائلة.
ـ قل!
ـ بين خرائب پانيكولوسى و فاتيكانوس، خلف حديقة أغريبنا، هناك مناجم تحت الأرض، كانوا يجمعون منها الحجارة والرمال اللازمة لبناء سيرك نيرون ، اسمعني ياسيدي! اليهود الذي يقطنون الترنستيبريس بكثافة، راحوا في الاونة الاخيرة يلاحقون المسيحيين. أتذكر ما حصل في عهد كلاوديوس الالهي من تمرد وأعمال شغب اضطرت القيصر لطردهم من روما. والآن، وقد عادوا، يشعرون بالامان تحت رعاية الاوغستا، وهذا يجعلهم يضايقون المسيحيين أكثر مما مضى. أنا أعرف لأني رأيت. صحيح أنهم لا يصدرون المراسيم ضد المسيحيين. لكن اليهود يتهمونهم أمام المحاكم بأنهم يقتلون الأطفال، ويعبدون الحمار، ويدعون إلى تعاليم وبدع جديدة فيقومون من تلقاء أنفسهم بضربهم واقتحام أماكن عبادتهم، الأمر الذي يضطر المسيحيين للاختباء من أمامهم، والتواري عنهم.
ـ ما الذي تبغي أن تصل اليه؟

ـ في الترانستيبريس ياسيدي معابد يهوديّة علنيّة، لكن على المسيحيين، تجنبا للملاحقة، أن يمارسوا عبادتهم سرا، فيجتمعون إما في أماكن مهجورة أو في ميادين خارج المدينة، ومن يقطنون الترانستيبريس اختاروا لأنفسهم ملحقات في الأبنية المشادة على طول نهر التيبر. والان والمدينة تحترق، لا بد أن أتباع المسيح يقيمون الصلوات، وسنعثر عليهم بأعداد لا تحصى في السراديب. نصيحتي في طريقنا أن نعرج ونلقي نظرة هناك.
فصاح فينيكوس لفوره:
ـ خاصة وقد قلت أن لنيوس قصد الأستريانوم.
ـ أما وقد وعدتني.منزل وحقل كرمة، فإني راغب في البحث عن العذراء في كل مكان أجد فيه رجاء بالعثور عليها بعد اندلاع الحريق قد يكونون عادوا إلى الترانستيبريس. تجنبوا المرور في المدينة كما فعلنا نحن الان. لدى لنيوسى منزل هناك، ولعله أراد أن يبقى قريبا منه ليراه النار لم تنتشر في تلك الأنحاء إن كانوا قد عادوا فأنا أقسم ب بر سوفوني أنني سأجدهم يتعبدون في السراديب أو آتي بأخبار عنهم في أسوأ الأحوال.
ـ أنت محق. هيا بنا! وافقه الحاكم الشاب ودونما تفكير انعطف شيلون ناحيّة الرابية اليسرى، التي اخفت النيران لمدة قصيرة، دون أن تمنع انتشار ضوئها فوق الروابي القريبة نتمكنا من المسير في ظلها. وما إن خلفا السيرك حتى انعطفا يسارا مرة أخرى، ليفاجئهما مسلك ضيق مظلم. لكن فينيكوس سرعان ما المح في الظلمة العديد من القناديل المضيئة.
قال شيلون:
ـ أنظر ها هم! إنهم بأعداد كبيرة أكثر من أي وقت آخر، لأن بيوت العبادة قد احترقت، أو صارت ملآى بالدخان.
فعلق فينيكوس قائلاً:
ـ أجل. أسمع أصوات غناء.
وفعلا ترددت أصوات غناء وتراتيل أتت من فرجة مظلمة غائرة في الجبل. وراحت القناديل تنطفئ واحدا تلو الاخر. وخرجت من المسلك الضيق حشود من الناس سرعان ما أحاطت بفينيكوس وتابعه شيلون.
نزل شيلون عن البغل ونادي أحد الشبان هناك قائلاً:
ـ أنا كاهن المسيح، وقس، احرص على هذين البغلين، وستحظى ببركتي وبالغفران عن خطاياك ودون أن ينتظر ردا، أسلم العنانين ليد الصبي، وتقدم إلى جانب فينيكوس لينخرطا في الجموع السائرة.
وخلال وقت قصير كانا تحت الأرض، وسارا في نفق مظلم على أضواء الفوانيس الباهتة، حتى صار الجميع في مغارة فسيحة، تشكلت نتيجة استخدام المكان مقلعا للحجارة، دلت طراوة الجدران على حداثة حفره في الجبل.
كان الداخل أكثر إضاءة من النفق، نتيجة لوجود المشاعل هنا، الأمر الذي أتاح لفينيكوس أن يتبين كامل الحشد على ضوئها. كان الجميع راكعين، رافعين الايادي، لكنه لم ير أثرا لأي من ليفيا أو بطرس أو النيوس. كانت وجوه الجميع معبرة عن حالة احتفاليّة، وشع في عيون البعض ما ينم عن ترقب، وانشداد مشوبين بالأمل. كان الضوء ينعكس نحو الأعلى من بياض العيون، والعرق يتقطر من الجباه الشاحبة، وكان البعض يطلق التراتيل، وآخرون يرددون بلا انقطاع اسم المسيح. وبدا عليهم جميعا أنهم في انتظار شيء استثنائي كبير، قد يحدث في أية لحظة.
انقطعت التراتيل. وفي حفرة جداريّة علت أرضيّة المغارة، لاح الفينيكوس ما هو من الصرامة والتعصب والشحوب أشبه بوجه كريسبوس. ارتفعت اليه الانظار تنتظر كلمات الطمأنينة والرجاء. رسم إشارة

الصليب، وشرع يتحدث:
ـ اندموا على ما ارتكبتم من خطايا، فقد أرسل السيد نارا هالكة على هذه المدينة الشريرة الفاسقة، بابل الجديدة. جاء القضاء ودقت ساعة الغضب... أما قال السيد إنه سيعود، وسترونه على الفور. لكنه الان لا يأتي كحمل الله الوديع الذي يقدم دمه لأجل خطاياكم، بل كقاضى صارم أصدر حكمه العادل ليدفع بالخاطئين، والكفار إلى الظلمة الخارجيّة... الويل للعالم، والويل للخاطئين، فلن تحل عليهم الرحمة بعد الان... أراك يا سيدي المسيح! النجوم تتساقط غزيرة على الأرض، والشمس تكسف، والأرض تنشق، والأموات ينبعثون. وتأتي أنت طالعة في قلب البروق، والرعود تتوسط البواقين والملائكة.
أراك وأسمعك، يا مسيحي!
صمت ثم رفع وجهه كأنما أراد أن يجمده على شيء رهيب بعيد. هنا سمع دوي خفيف جاء من تحت الأرض، تلاه دوي ثان... وعاشر.
كانت الأبنيّة المحترقة قد بدأت تنهار دفعة واحدة و تحدث هذه الجلبة. لكن غالبيّة المسيحيين نظروا إلى هذه الأصوات كإشارة واضحة إلى قدوم الساعة الرهيبة، تبعا للاعتقاد السائد بأن عودة المسيح وشيكة، ومعها نهايّة العالم.
وهو اعتقاد عززه احتراق المدينة. كانت مخافة الله هي المهيمنة في قلوب المجتمعين الذين ردد بعض منهم مرارا: "اقترب يوم الحساب" وغطى آخرون وجوههم بأكفهم، موقنين بأن أركان الأرض قد بدأت تتخلخل، ويخرج من أعماقها مسوخ جهنم لالقاء الملامة والروع في نفوس المخطئين.
فيما رفع البعض أصواتهم قليلا سائلين المسيح: "اشفع لي يا مسيح، ارحمني يا مخلصي".
وجهر البعض الاخر بذنوبهم، واحتمى آخرون ببعضهم بلف الأذرع لمواجهة اللحظة المروعة، لكن كان بينهم من علت وجوههم السمحة ابتسامة علويّة فوق أرضية، دون أن ينبدى على سيمائهم أي أثر للخوف.
وهنا وهناك كانت تتردد أصوات بلغات مجهولة. وفي ركن مظلم من المغارة أحدهم يقول"استيقظ يا نائم!". لكن صوت كريسبوس غطى على أصوات الجميع وجلبتهم"حذار! حذار!".
وبين الحين والاخر كان الصمت يلف المكان، وكأن الجميع قد كتم أنفاسه منتظرا ماسيحدث. وفي هذه اللحظات من السكينة كان يسمع هدير الأبنيّة المنهارة، ليتبع ذلك الشهقات، والصلوات والادعيّة" الرحمة يا مخلصي!"ويجلجل صوت كريسبوس: "دعوا المتع الأرضيّة، فبعد قليل ستنهار الأرض تحت أقدامكم. دعوا الحب الأرضي لأن السيد سوف يدمر أولئك الذين يحبون زوجاتهم وأولادهم أكثر ممايحبونه. الويل لمن يحبون المخلوقات أكثر من الخالق! الويل لأصحاب النفوذ! الويل للمترفين! الويل للفاسقين! الويل للرجال والنساء والأطفال!".
وبغتة طلع هدير أشد هز المغارة، فانبطح الجميع أرضا، وصلبوا أذرعتهم عسى أن تحميهم شارة الصليب من الأرواح الشريرة. ساد سكون، لا يتخلله الا صوت اللهاث المتسارع، والدعاء: "يا مسيح ايا مسيح! يا مسيح!" ، وبكاء الأطفال. حتى جاء صوت هادئ مر فوق الجموع المنبطحة على الوجوه:
ـ السلام لكم!
كان صوت الحواري بطرس الذي كان قد دخل الغار.
فاطمأنت القلوب وانجلى الخوف لسماعه، كما ينجلي ذعر القطيع المجرد اقتراب الراعي. نهض الناس واقفين، والتصق بعض ممن كانوا حوله برجليه، سائلين المنجاة تحت رعايته، فقام ببسط يديه فوقهم وقال
ـ ما الذي أوقع الذعر في قلوبكم؟ من من بينكم يعرف ما الذي سوف يحصل له قبل حينه المكتوب؟ السيد أحرق. بابل، أما أنتم الذين قد غسلت خطاياكم مياه الصليب، وجاء الحمل ليتكفل بتحمل ذنوبكم، فمشمولون برحمته، وستموتون واسمه على شفاهكم.

السلام لكم.
بعد كلمات كريسبوس المتوعدة، جاءت أقوال بطرس بردا وسلاما يبلسمان الأفئدة. وغمرت نفوسهم محبة الله لا غضبه لقد وجد الناس ذلك المسيح الذي كانوا قد عرفوه من خلال أقوال الحواريّ. ليس الحاكم الذي ينزل عليهم العقاب، بل الحمل الوديع الصبور الواسع الرحمة المستوعب لشرور البشر. شملت الطمأنينة كل الحضور، وامتلأت القلوب بمشاعر الخلاص. وعلت الصيحات"نحن نعاجك، فكن راعينا!".
أما من كان حوله فخاطبوه قائلين: "لا تتركنا في يوم الهلاك" وجثوا أمام رجليه. حين رأي فينيكوس كل ذلك، تقدم نحوه، وأمسك بطرف ردائه وقال محني الرأس:
ـ سيدي، أنقذني القد بحثت عنها في دخان الحريق، في زحام الجموع، ولم أجدها، وأنا على يقين بأن بمقدورك أن تعيدها الي.
وضع الحواريّ يده فوق رأس الشاب قائلاً:
ثق بي، وتعال معي!

استمر الحريق في المدينة. اندثر السيرك الكبير، وترمدت بعده كل تلك الأماكن التي حصدتها النيران، من الأزقة، والشوارع. كانت السنة اللهب ما زالت تتصاعد نحو السماء. تبدل مجرى الرياح، فصارت تهب عنيفة من جهة البحر حاملة معها النار، والرماد، ونتف الجمر في اليوم الثالث وصل تيفالينوس روما قادما من الأنتيوم. وأصدر أوامره بهدم الأبنية والبيوت في الاسكوليوس حتى تقف عائقا أمام تقدم النيران، كان الهدف من ذلك انقاذ ما تبقى من المدينة، واستباق حدوث نتائج كثيرة محتملة للحريق. كم من الموجودات القيمة قد تدمر واندثر إلى جانب دمار روما كمدينة، وكم من السكان فقدوا ممتلكاتهم، وصاروا بالالاف المؤلفة يلتحفون السماء ويلوذون بالجدران، ويستجدون اللقمة منذ اليوم الثاني للكارثة، بعد أن ترمدت مستودعات الاغذية الهائلة. وفقد كثير من الباعة عقولهم إذ لم يخطر بالهم أنهم سيضطرون إلى جلب المزيد من الحاجيات.

كل هذا لم يكن بوارد الحدوث الا بعد وصول تيفالنيوس وإصداره مثل تلك الأوامر. لكن السكان بدؤوا يعلنون سلوكا تهديديا.

قام حشد من النسوة بمحاصرة المنزل الذي يتخذه تيفالنيوس مقر إقامته المؤقت، وأطلقن صيحات دامت منذ الصباح حتى المساء تقول: "خبزاً ومسكناً". وفشلت كل مساعي الحرس الإمبراطوري في تفريقهن لاستتباب النظام ولو على نحو ظاهري على الأقل.

لكن مجموعات النسوة التي شهر بعض منها السلاح استمرّت في إطلاق صيحاتها مشيرة نحو المدينة المحترقة: "اقتلونا أيضاً أما كفانا حريق المدينة!".

ورحن يشتمن القيصر، والاوغستيان، وجنود الحرس. وكان الغضب يشتد ساعة بعد ساعة، حتى اضطر تيفالنيوس إلى إصدار أوامره بإحضار أكبر كمية من الخبز من كل الأمكنة المجاورة. وما أن وصلت أولى الشحنات إلى امبريوم حتى اقتحمت حشود الشعب المدخل الرئيسي عنوة، وخلال لحظات كانت المعونات من خبز طحين وحبوب مستولى عليها، أو مذراة في الساحة، وأغلبها في الوحل. ولم تتوقف هذه الفوضى حتى اضطر الجنود إلى اقتحام الأبنية وطرد الحشود.

لم تشهد روما واقعة كهذه منذ اجتياحها من قبل الغال تحت قيادة برينوس الذي أحرق المدينة دون أن يلحق على الأقل أذى بالكابيتوليوم الذي تحاصره النيران الان. إضافة إلى أن ساكنيها كانوا يلتزمون الوحدة والنظام، والتشبث بالمعابد والمذابح، لا التشتت والفوضى والهروب حتى أسوار المدينة المحترقة وإضمار العداء لها من قبل الأرقّاء والغرباء.

تشعبت الأنباء حتى غدا تأثيرها في الحشود البشرية أشبه بتأثير الرياح في زبد الأمواج البحرية. امتزجت الاخبار الطيبة بالاخبار الرديئة. تحدث الناس عن شحنات القمح والكساء القادمة للتو في طريقها للتوزيع مجانا حسب أومر القيصر.

وتحدثوا أيضاً عن نهب آسيا وأفريقيا واستجرار ما تملك أريافها من ثروات ومواد، بحيث يتمكن كل مواطن في روما من بناء منزله الخاص. وإلى جانب ذلك أشيعت أنباء تفيد بأن هناك من سمّم مياه الشرب في القنوات، لأن نيرون أراد أن يقضي على المدينة وسكانها، وينتقل بعرشه إلى بلاد اليونان أو مصر ويحكم العالم من هناك. كانت الانباء تنتشر بسرعة البرق، وتزرع الرعب والنقمة في نفوس العامة، حتى سادت في نهاية المطاف حمى التمرد في نفوس الالوف المحتشدة. وصار اعتقاد المسيحيين القائل بأن الحريق نذير باقتراب نهاية العالم، اعتقادا تبناه كل من يؤمن بالالهة على اختلافها. فتجمد الناس من شدة الذهول، أو هاجوا مسعورين في فورة من الغضب.

وبين الغيوم المحمرة من انعكاس ضوء اللهب، تبدت لهم الالهة وهي تشهد هلاك الأرض. وكان من البشر

من يفتحون الأيادي نحوها يسالونها العون، وكان بينهم من يتوجه عليها بشتائمه.
في هذه الأثناء كان الجنود بمساعدة شريحة من السكان، يقومون متابعة مهامهم في هدم المنازل في الاسكيلنيوس و ساليوس و الترنسبيريس. كانت المدينة قد فقدت كل نفائسها، وتحفها الفنية ومعابدها الفخمة، وكل ما يذكر بأمجاد روما، وكل ما غنمته في انتصاراتها عبر قرون. حتى لم يتبق من روما الا بعض أحيائها، في حين صار معظم سكانها بلا مأوى. وانتثر نبا يقول أن الجنود لا يهدمون الابنية لإيقاف انتشار النار، بل لكي يدمروا المدينة عن بكرة أبيها. كان تيفالنيوس في كل رسائله يلح على القيصر أن يأتي إلى روما لأن ظهوره يغرس الطمأنينة في نفوس الناس. الا أن القيصر لم يتأهب للعودة الا بعد أن شملت النيران دوموس ترانستيوز. وأسرع كي لا يفوت عليه فرصة مشاهدة النيران تبلغ درجتها القصوى.

في هذه الاثناء وصلت النيران إلى فيانو منتانا، ثم انعطفت من هناك، تبعا لتغير وجهة الرياح نحو التبر و فيالاتا، فاقتربت مرة أخرى من البالاتينوس. كان تيفالنيوس قد استجمع كل قوة متاحة للحرس الامبراطوري هناك، وأرسل فارسا بعد آخر إلى أمام القيصر ليعلمه أن لا داعي لقلقه، فلن تفوت عيناه أية لحظة من روعة المشهد وعظمته، لأن النار ما زالت على اشتدادها وانتشارها في كل مكان. لكن القيصر كان يرغب في الوصول ليلا ليكحل عينيه بكمال مشهد احتراق المدينة. الهالكة. ولهذه الغاية فقد استقر في جوار أكوا البانا، واستدعى إلى خيمته الممثل الدرامي اليتوروس الذي تدر بمساعدته على وضعيات تمثيلية معينة، وكيفية التعبير بالوجه والعينين، وتعلم منه بعض الحركات المناسبة، وناقشه في أثناء ذلك إن كان عليه أن يشير بكلتا يديه أو بيد واحدة فقط، عند ترديده النص التالي: "الا أيتها المدينة القديسة التي كنا نظنك أصلب من جبل إيدا".

واعتبره التساؤل الاهم في الموضوع برمته. وحين شد رحاله عند المغيب، طلب نصيحة بترونيوس إن كان من المناسب أن يضمن قصيدته العصماء الخاصة بهذه الواقعة بعض الشتائم الموجهة نحو الالهة. ثم اليس هذه الشتائم، منظورا اليها من زاوية فنية بحته، واردة حكما على لسان المرء الذي يقف شاهدا على دمار بلده.

وحوالي منتصف الليل، وبحاشية ضخمة من رجال البلاط، والسيناتورات، والفرسان، والمعتوقين، والعبيد، وجيش من النساء والأطفال، وصل أسوار المدينة. ستة عشر الف من الحرس اصطفوا بنظام عسكري احترازي مشدد، حرصا على راحته وتأمين دخوله الحذر، وذلك بإبعاد جمع الشعب الهائج على مسافة مناسبة من الموكب الامبراطوري. قام الجموع بإطلاق الشتائم، والتصفير، والصياح لمجرد أن شاهدت الموكب، الا أنه لم يجرؤ على مهاجمته. فيما أقدم الدهماء على التصفيق في أماكن عديدة، وكانوا يأملون بكميات أكبر من القمح والزيت والكسوة، والنقود.

لكن الضجيج الناجم عن امتزاج التصفيق، والصياح، والتصفير، قد طغت عليه أصوات الأبواق التي صدحت بأمر من تيفالنيوس. تقدم نيرون من بوابة أوستيا حيث توقف لحظة، وصاح قائلاً: "أنا الحاكم الشريد لشعبي الشريد، رأسي محنية من شدة الحزن!"ثم تابع المسير برفقة الاوغستيان والفرقة الموسيقية، وصعد سلما أعد لقدومه، يؤدي إلى البناء المقنطر الخاص بأنابيب صرف المياه في أبيا.

بأنفاس حبيسة رمقه الجميع منتظرين أن ينطق. ما يهدئ من روعهم، ويشيع في نفوسهم الطمأنينة. لكنه لم ينبس، وظل واقفا هناك بإزاره الأرجواني فوق كتفيه، وإكليله الأرجواني على رأسه، يرنو إلى السنة اللهب المجنونة. ثم حين ناوله تربنوس القيثار الذهبي، رفع رأسه نحو السماء القرمزية كأنما ينتظر الهاما.

كانت جموع البشر تشير بالبنان إلى الهيئة السابحة بأضواء النيران الحمراء. في البعيد كانت أفعوانات اللهب تفح، مودية بأقدس المعالم القديمة: معبد هيركوليس الذي بناه إكاندر، ومعبد جوبيتر، ومعبد لونا اللذان بناهما سرفيوس توليوس، وبيت نوما، ومعبد فيستا مع كل الالهة للشعب الروماني، ومن خلال اللهب كان يتلامح الكابيتوليوم بين الفينة والأخرى.

كان ماضي روما وروحها في قلب اللهب، أما القيصر فكان يقف بقيثاره، وقفة الممثل الدرامي، وقد نأى بأفكاره عن المدينة المدمرة، غير مكترث الا بأبلغ الوقفات تأثيرا، وأكثر الكلمات تعبيرا عن هول الواقعة، وكيف له أن يوقظ في نفسه أعظم الهام من شأنه أن يفوز باشد مشاعر الاعجاب، وكسب عواصف التصفيق.

لقد كره هذه المدينة، وكره قاطنيها، ولم يحب سوى أشعاره، وألحانه، ولقد هتل قلبه فرحا لأنه قد تمكن أخيراً من أن يشهد بأم العين مأساة على مستوى أغانيه الشعرية والخانه الموسيقية.

لقد جعله المشهد الهائل يشعر بغبطة الشاعر الملهم، المزهو بمعايشة التجربة والخوض فيها، وكان ملتذا بأن احتراق طروادة واقعة بسيطة إذا ما قورنت بدمار هذه المدينة العملاقة. ما الذي يأمله أكثر من ذلك؟ إنهاروما، روما، سيدة العالم تحترق. وها هو وبيده القيثار الذهبي يقف هنا بكل هذا الجلال و الشاعرية، والذهول، والتجلي الرؤيوي، أما الشعب ففي مكان ما في الاسفل يضج بالتذمر والاستياء.
دعه يعبر عن استيائه. سوف تمضي القرون، وتت إلى الالفيات، وستظل الشعوب تتذكر الشاعر الذي تغنى ذات ليلة بدمار طروادة. ما قيمة هوميروس قياسا به؟ ومن يكون حتى أبولو إلى جانب أغانيه.
هنا رفع يده، وضرب على الوتر، ونطق بكلمات برياموس:
- يا ملاذ أجدادي، يا حكيمي الغالي!...
كان صوته في الساحة المفتوحة، في وسط فرقعات الحريق، وصخب الالاف البعيدة، فظا ومرتعشا على غير المالوف، وكان كليلا وفاترا، وصوت فرقته كان كطنين الذباب. أما السيناتورات، والتجار، والاوغستيان الذين جلسوا فوق قناطر أنابيب المياه فكانوا يتقوسون إلى أمام ويصغون إليه، وقد استخفهم طرب أبكم. لقد أطال الغناء، وطغت على غنائه مسحة حزن تفاقمت مع مرور الوقت. وحين توقف ليسترد أنفاسه، لم تتوقف الفرقة، وراحت تكرر المقاطع الأخيرة، ريثما يتابع الغناء.
وبحركة كان قد تعلمها من اليتوروس، أزال عن كاهله المسحة التراجيديّة، وأمسك بقيثاره واستأنف وصلته الغنائية. وما إن أنهى العرض الغنائي المدرج حسب الخطة، حتى ارتحل أغاني جديدة معبرة عن كارثة الحريق أو مستلهمة منها. كان لكلمات أغانيه، على عكس دمار المدينة مسقط رأسه، وقعها العاطفي الكبير في نفسه، فانعكس ذلك حماسا واندفاعا جعلاه ينزل قيثاره فجأة ويسنده على رجليه، ويقف متسمرا كأحد تماثيل نيوبيدا في وسط فناء بالاتينوس.
بعد صمت قصير انطلقت عاصفة من التصفيق، كان الرد عليها صيحات الحشود البعيدة. بات الأمر جليا للجميع، فما من شك في أن القيصر هو الذي أحرق المدينة ليتسنى له إطلاق أناشيده أمام مشهد الحريق المفتعل. فما كان منه، بسماعه صيحات مئات الألوف من البشر، الا أن التفت نحو الاوغستيان بابتسامة تحمل بالغ الحزن والانكسار:
- انظروا كم يقدرون الشعر، وكم يبجلونني!
فصاح فاتينوس:
- أوغاد! سيدي، وجه اوامرك للحرس الامبراطوري كي يلقنوهم درسا.
التفت نيرون نحو تيفالنيوس:
- هل لي أن أثق بإخلاص الجند؟
فأجاب:
- أجل أيها القيصر الالهي
لكن ما كان من بترونيوس الا أن هز كتفه، وقال:
- الثقة بإخلاصهم أجل، لكن ليس بأعدادهم، ابق الان حيث أنت فهنا أكثر أمانا لك. لكن لا بد من إسكات الشعب.
وكان ل- سينكا و ليسنيوس نفس الرأي. وفي هذه الأثناء كان الهياج يشتد في الوادي. تسلح الشعب بالحجارة، وبقضبان الخيام، وبالعوارض الخشبيّة التي أخرجت من العربات والنقالات، وبكل أنواع القطع المعدنية. وبعد فترة قصيرة جاء بعض قادة الكتائب بنبأ يفيد بأن الشعب بدأ يهاجم الحرس الامبراطوري الذي يبذل كل مساعيه ليحافظ على خطوطه القتالية، دون أن يتلقى أوامر للهجوم، ولا يدري ماذا يفعل؟
تنهد نيرون قائلاً:

- أيتها الالهة! أيّة ليلة هذه! الحريق من جانب، والشعب بحرا هائجا من جانب.
وراح يبحث عن أبلغ العبارات لتسعفه في التعبير عن هول اللحظة، لكنه كان ينظر إلى الوجوه القلقة، الشاحبة التي تقف قربه، فارتعد بدوره وصاح بدافع الخشية:
- هاتوا إزارا داكنا بقبعة! ترى هل هناك من صدام مرتقب؟
فأجاب تيفالنيوس بنبرة مترددة:
- سيدي لقد قمت بكل ما ينبغي القيام به، لكن الخطر داهم... خاطب الشعب، وعده بشيء ما
- القيصر يتحدث إلى الدهماء؟ ليفعلها أحد ما باسمي. من يتكفل بذلك؟
فبادر بترونيوس بكل هدوء:
- أنا!
- هيا يا صديقي! أنت أوفى أصدقائي كلما دعت الحاجة. اذهب وأفض عليهم بالوعود.
فاستدار بترونيوس إلى الحاشية بشيء من الفوقية، واللامبالاة:
- ليأت معي السيناتورات، إضافة إلى كل من بيسو و نيرفا و سينكا.
ونزل متمهلا، وتبعه المعنيون، وقد استبشروا خيرا برباطة جأش بترونيوس. توقف عند أسفل صف العمدان، واتخذ لنفسه جوادا أبيض واعتلاه، وتقدم على رأس مرافقيه بين فصائل الحرس الامبراطوري، متجها نحو حشد العامة الداكن.
كان أعزل حماما، الا من صولجان عاجي رفيع، اعتاد أن يستخدمه عكازا.
لما بلغ الحشد اندفع بحصانة متوجها نحوهم مباشرة. التمعت على ضوء الحريق الايادي المرفوعة بالأسلحة، والعيون المشتعلة، والوجوه المتعرقة، والأفواه الصارخة. تقدمت منه موجة بشرية وأحاطت به ومرافقيه.
اشتدت الصرخات، حتى استحالت إلى زئير وحشي. وامتدت فوق رأس بترونيوس الاوتاد والمذاري، وحتى السيوف، واستطالت الايادي تحاول الامساك برأسه، وبلجام حصانه، لكنه استطاع أن يستمر في اختراقهم لا مبالية. ما يبدونه من هياج، ضاربا بعصاه أحيانا رؤوس كل من تجرأ على ملامسته، وكأنما يشق طريقه وسط زحام كأي زحام عادي، الأمر الذي أوقع الدهماء المستوحشة في ذهول. وفي نهاية المطاف تعرفوا اليه. وسمعت بعض الأصوات تنادي:
- بترونيوس! ملك الذوق! بترونيوس!
فتعالت الأصوات، في كل اتجاه:
- بترونيوس!
في وسط الصخب الذي أحدثه ترداد الاسم، كانت الوجوه تفقد تعابيرها التهديدية المتوعدة، وأصبحت الصرخات أقل عنفا لأن الشريف البتريسيوسي، ولو أنه ما جد أبدا في طلب الرأفة بالناس، لكنه رغم كل شيء كان محبوب الشعب. كانوا ينظرون اليه سيدا إنسانيا واسع الصدر وازدادت شعبيته على وجه الخصوص، بعد قضية أرقاء بدانوس سكوندوس حين رفع صوته للتخفيف من عقوبة الاعدام التي لحقت بهم.
لقد أحبه جمهور العبيد خصوصا، تلك المحبة الجامعة التي لا يعرف أن يمنحها غير البشر البؤساء المضطهدين لأولئك الذين يمنون عليهم بجميل أو بعزاء ما. وفي هذه اللحظة انضاف إلى شعورهم هذا دافع الفضول، ترى ما الذي سينطق به رسول القيصر.
أما بترونيوس فقد خلع عباءته البيضاء، ورفعها ملوحا بها في الهواء إيذانا بأنه يريد أن يتكلم.
علت الصيحات في كل ناحية:

ـ سكوت! سكوت!
انقطع الضجيج على الفور، فاستقام بترونيوس على حصانه وقال بصوت مرتفع متماسك:
ـ أيها المواطنون! من يسمعني فليخبر من لا يسمعني.ما أقول. وليكن سلوك الجميع لائقا بسلوك البشر، لا بسلوك الحيوانات في الميادين.
ـ إصغاء! إصغاء!
ـ اسمعوني إذن! المدينة سوف تعمر من جديد. والآن سوف تشرع أمامكم أبواب حدائق لوسلوس و ميساناس و أغريبنا و القيصر. ومن الغد سيبدأ توزيع القمح، والنبيذ، والزيت، حتي يتم الجميع. والقيصر أعد لكم العاب سيركية، لم يسبق أن شاهدتم مثيلا لها. وستتلوها مآدب وهدايا. وستصبحون بعد الحريق أكثر غنى مما كنتم عليه!
جاء الرد لغطاً شديداً، انتشر من الوسط إلى المخيط، كما تتوسع دوائر الماء بعد القاء حجر في بركة. تلقف من كانوا في المركز ما قيل، وتناقلتها الجموع التالية فالتالية. ثم تناهت هنا وهناك صيحات الغضب، والرفض، والاستحسان، حتى انصهر صخب الجميع أخيرا في زئير واحد ضخم:
ـ بانيم إت سيرسنس!
تلفّح بترونيوس بازاره من جديد، فبدا بثوبه الأبيض ووقفته المصغية الثابتة، كنصب رخامي. اشتد الصراخ حتى طغي على ضجة الحريق، منبعثامن كل ناحية، لكن المبعوث كان لديه ما يقوله بعد، لأنه ظل منتظراً في مكانه.
أخيرا رفع بيديه طالبا الاصغاء من جديد، وتكلم قائلاً:
ـ أعدكم بالحصول على الخبز والعاب السيرك، أما الآن فحوا القيصر الذي يمدكم بالغذاء، والكسوة، وبعدها انصرفوا إلى النوم أيها الدهماء قبل أن يطلع الفجر.
واستدار بجواده، وراح ينقر بصولجانه نقرات خفيفة على رؤوس من ستوا طريقه، حتى بلغ أخيرا فصائل الحرس.
وبعد وقت قصير كان عند أقنية المياه. استقبل هناك بذعر شديد. لم يفهموا معنى بانيم إت سبر سنس، وظنوها صيحة انفعال جديدة. ولم يكن يخطر لهم أن بترونيوس سينجو بنفسه فحين لمحه القيصر يصعد الدرج متجها نحوه، بادره، وقد جعلته شدة الانفعال شاحب الوجه، بأسئلة متلاحقة:
ـ قل ما هذا؟ ماذا يحصل؟ هل أوقعوا بك الأذى؟
تنفس بترونيوس عميقا، وأجاب:
ـ بحق بولوكس! لقد جعلوني أتصبب عرقا، وأنتنوني. الي بقليل من العطر، سيغمى علي ثم التفت نحو القيصر ليكمل كلامه:
ـ وعدتهم بالقمح، والزيت، وبفتح الحدائق، وألعاب السيرك. وهم الآن يؤلهونك من جديد. ويعيشونك بملء حناجرهم يا آلهة ما أبشع رائحة هذه العامة!
فقال تيفالنيوس:
ـ كان عناصري من الحرس الامبراطوري في أتم الجاهزية وإن أنت لا تطلب منهم ضبط النفس، فسيلتزم هؤلاء الجعجاعون الصمت إلى الأبد. يؤسفني أيها القيصر، أنك لم تسمح باستخدام السلاح.
رنا بترونيوس إلى المتكلم وهز كتفيه، ثم قال:
ـ ما يتأخر، لا يفوت. قد نحتاج إلى ذلك في الغد.
فصرح القيصر قائلاً:
ـ لا، لا. سأفتح لهم الحدائق، وأوزع عليهم القمح. شكرًا لك يا بترونيوس! سأنظم ألعاب سيرك، وسأغني

أمامهم الأغنية التي سمعتموها اليوم.
ووضع يده على كتف بترونيوس، وصمت هنيهة، ثم سأله بهدوء:
- قل لي بصدق، كيف رأيتني وأنا أغني؟
- كنت جديرًا بالمشهد، الذي كان لائقًا بك. أجاب بترونيوس واستدار نحو الحريق وقال:
لكن دعنا نشاهد جيدًا، ونودع روما القديمة!

شحنت كلمات الحواري نفوس المسيحيين، وردت الروح. كانوا دائمًا على يقين بأنها نهاية العالم، لكنهم الآن بدؤوا يؤمنون بأن القيامة ليست قريبة، وأنهم سوف يشهدون نهاية حكم نيرون، وما سيلحق به الله من عقاب محتوم.
وما أن أنهوا صلاتهم حتى همّوا بالخروج من السرداب متجهين إلى ملاجئهم المؤقتة، وحتى إلى الترانستبريس، بعد أن جاءتهم الأنباء بأن الرياح بدأت تسحب النيران باتجاه النهر، وتلتهم كل شيء هناك، لكنها لن تتمكن من الانتشار أكثر من ذلك.
وحتى الحواري ومعه فينيكوس ومرافقوه، ومن ورائهم شيلون كذلك، قد غادروا المغارة. لم يشأ الحاكم الشاب أن يفوّت على الحواري متابعة صلاته، فظل يسير إلى جانبه دون أن ينبس بكلمة، لكن عينيه كانتا تتوسلان الرأفة، وكان مرتعد الأوصال من شدة القلق والاضطراب. كان الكثيرون ما يزالون يتقدمون من الحواري يقبّلون يديه، أو يلامسون أطراف ردائه بشفاههم، أو تمد الأمهات أطفالها نحوه، وكان العديد منهم يركعون على امتداد الممر الطويل، رافعين اسرجتهم نحو الأعلى طمعًا بمباركته، وآخرون يبتهلون، فلم تسنح الفرصة لأي تساؤل أو رد. هكذا كان المشهد على طول الطريق العميق. ولكن ما إن وصلوا الباحة الطلقة، حتى بدت المدينة المحترقة، فرسم الحواري الصليب ثلاث مرات، ثم استدار نحو فينيكوس وقال:
- لا تخف! عما قريب سنصل إلى كوخ بين صفوف الأشجار، حيث سنجد ليفيا، و لنيوس وخادمه الوفي. المسيح الذي أوصى لك بها، قد صانها من أجلك.
شعر فينيكوس بأنه خائر القوي، فاستند على الجدار الصخري. لكن نبأ ليفيا السار قد رد إليه الروح، وشحن ساقيه بقوة كانت كافية ليجثو عند قدمي الحواري، ويعانق ساقيه دون أن يتمكن من النطق بحرف.
استشعر الحواري رغبة الشاب في التعبير عن الامتنان والاحترام فخاطبه قائلاً:
- لا تشكرني أنا. بل السيد المسيح.
فتفوه شيلون في الخلف قائلاً:
- أي ألوهة عظيمة! لكني لا أدري... ماذا عن البغال التي تركناها تنتظر هنا.
فقال بطرس وقد أمسك بالشاب:
- انهض، ورافقني.
نهض فينيكوس واقفًا، فتلامعت الدموع في عينيه على ضوء النار. وارتعشت شفتاه كأنما كان يصلي. فقال:
- هيا بنا.
لكن شيلون كرر قائلاً:
- سيدي، ماذا أفعل بالبغال التي تنتظر هنا؟
لم يدر فينيكوس ما الاجابة، لكنه حين عرف من بطرس أن الكوخ بات قريبًا قال:
- عد بها إلى ماكرينوس.
- اسمح لي يا سيدي، أن أذكّرك، بالمنزل الموعود. ما أسهل نسيان مثل هذه الأمور التافهة في هذا الحريق الهائل.
- ستحصل عليه.
- لا أشك بك. لكن الآن، والحواري شاهد على وعدك، لن أذكر على لساني حقل الكرمة معه إلى اللقاء. سأجدك يا سيدي. سأجدك.

فأجاب كل من الحواري و فينيكوس:
ـ إلى اللقاء
ثم انعطفا يمينًا، واتخذا طريقهما باتجاه التلال. قال فينيكوس في الطريق:
ـ سيدي. عمّدني بالماء المسيحي. دعني أصبح تلميذًا حقيقيًا للمسيح، فأنا أحبه من أعماقي، عمّدني حالاً، لأن روحي مستعدة لذلك سأنفذ كل ما تطلبه مني. فقط قل لي ماذا علي أن أفعل فأجاب الحواري:
ـ أحبب رفاقك وكأنهم إخوتك، لأنه ليس بوسعك أن تخدم المسيح إلا بالمحبة.
ـ أجل! بت أفهم ذلك، وأحسه. حين كنت طفلاً، آمنت بالآلهة الرومان دون أن أحبهم. لكني أحب هذا الإله الوحيد، بحيث أفديه بروحي، وسعادتي. ورفع عينيه صوب السماء وكرر قائلاً:
ـ لأنه واحد أحد. لأنه واحد أحد فهو خير، ومستجيب! وحتى لو هلكت هذه المدينة، ومعها العالم بأسره، فلن أخدم سواه، ولن أؤمن إلا به.
أنهى الحواري الكلام قائلاً:
ـ وهو يباركك، ويبارك بيتك.
وانعطفا نحو ركن آخر في نهايته نور خفيف. أشار إليه فينيكوس وقال:
ـ هو ذا كوخ عامل المنجم الذي لجأنا إليه حين تعذر علينا الرجوع إلى الترانسبيريس.
بلغا المكان الأشبه بغار منحوت في الجبل، وقد أغلق من الخارج بحاجز من القصب. كان الباب مغلقًا، لكن فرجة في الحاجز أتاحت رؤية الغرفة على ضوء الحريق.
نهضت قامة عملاقة داكنة لاستقبال القادمين.
ـ من القادم؟
فأجاب بطرس:
ـ خادم المسيح. السلام عليك يا أرسوس.
انحني أرسوس على قدمي الحواري، ثم أمسك بمعصمه، ورفع يده إلى شفتيه. وقال بصوت جهوري وكان قد رأى فينيكوس:
أنت أيضًا يا سيدي؟ تبارك اسم الحمل الذي من على كالينا.مثل هذه السعادة.
وفتح الباب، فدخلا. كان لنيوس المريض مستلقيًا على كومة من القش ناحل الوجه، شاحب الجبين. وكانت ليفيا إلى جانب الموقد، توقد النار لإعداد السمك الصغير طعامًا للعشاء.
كانت مشغولة بسحب السمك من المشكاك، فلم ترفع عينيها ظنًا منها أن أرسوس قد عاد. لكن فينيكوس تقدم منها، وناداها باسمها، فاتحًا نحوهاكلتا بديه. هبت الفتاة واقفة، وشع وجهها ببريق من الذهول والبهجة، وكما يفعل الطفل حين يستعيد أباه، وأمه، بعد قلق دام أيامًا، رمت بنفسها بين ذراعيه. فكان من شأن فينيكوس الملهوف أن ضمها بذراعه إلى صدره لحظات طويلة شعر خلالها أنه قد أنقذ بأعجوبة من الخطر الكبير. أرخى ذراعيه، وأمسك براحتيه وجه الفتاة، وأكال القبلات على جبينها، ثم ضمها ثانية وهو يردد اسمها بلهفة، وانحنى حتى ركبتيها يقبّل يديها ويغمرها بكل أنواع الحنان.
كانت سعادته لا محدودة، وحبه فائقًا يوازي تلك السعادة.
ثم قال:
ـ لكن الآن، وقد عثرت عليك، لن أدعك هنا في جحيم الحريق بين الحشود الهائجة. البشر عند الأسوار يقتلون بعضًا، يتمردون، والعبيد ينهبون. ولا يعلم سوى الله ما يرتقب من كوارث في روما. لكني سأنقذك وأنقذكم جميعًا. آه، يا وحدتي، لو تأتون معي إلى الأنتيوم. هناك نستقل سفينة تقلنا إلى سيسيليا. أرضي أرضكم، وبيتي بيتكم. اسمعيني! ستلتقين في سيسيليا عائلة أولوس، وسأرجعك إلى بومبونيا، ثم من بين

يديها، وتحت رعايتها اتخذك زوجة لي. هل ما زلت تخافينني؟ لم أتعمد بعد، لكن سلي بطرس إن كنت لم أطلب منه في الطريق أن يقوم بعمادي. ثقي بي. وثقوا بي جميعكم!
أصغت ليفيا إلى ما يقوله مبتهجة الأسارير من قبل عانوا جميعًا من ملاحقة اليهود، وهم الآن يعانون مما يتسبب لهم الحريق، والفوضى من قلق مستمر وخوف عارم. لكن الرحيل إلى سيسيليا الآمنة، يضع نهاية لكل ذلك، ويفتح أمامهم حقبة جديدة ملؤها السعادة. لو كان فينيكوس قد طرح عليها اصطحابها لوحدها لرفضت طرحه، لأنها لا ترغب في ترك بطرس و لنيوس هنا، لكنه قال: "تعالوا معي! أرضي أرضكم، وبيتي بيتكم جميعا".
مالت ليفيا على يد الشاب لتقبلها إيذانًا بالموافقة، ثم قالت:
ـ موقدك، موقدي.
لكنها شعرت بالخجل لأنها تتفوه بعبارات لا تقال في الأعراف الرومانية إلا من قبل الخطيبات في حفل الزفاف. كسى الإحمرار وجهها، خشية أن يساء فهمها:
لكن تقاسيم فينيكوس شعت بإشراقة لا حدود لها. فالتفت إلى بطرس وخاطبه بالقول:
ـ لقد أحرقت روما بأمر من القيصر. كان يشكو في الأنتيوم بأنه لم يشاهد بعد حريقًا هائلاً لم يهتز له جفن لفعلته الشريرة. تصوروا مدى الهول الذي يمكن أن يحصل بعد. قد يحشد جيوشه كلها لارتكاب المجازر بحق السكان، وقد يصادر أملاكهم وحقوقهم المدينة. من يدري فقد تحصل بعد الحريق، حرب أهليّة، وحمامات دم، ومجاعة. اختبئوا ولنخبئ ليفيا أيضًا.
ستعيشون هناك بسلام حتى تمر العاصفة، وبعد ذلك يمكن لكم أن تعودوا وتكملوا نشر دعوتكم.
في هذه الأثناء وصل عامل المنجم، صاحب الكوخ، فأغلق وراءه الباب بسرعة وقال:
الناس يقتلون بعضهم أمام سيرك نيرون. العبيد والمجالدون يهاجمون المواطنين.
فعلق فينيكوس:
أتسمعون؟
فقال الحواري:
ـ خرجت الأمور عن طورها. الكوارث تتدفق كطوفان البحر.
التفت نحو فينيكوس، وقال مشيرًا إلى ليفيا:
ـ خذ فتاتك الذي أوصى بها الرب لك، وأنقذها، واصطحب معك لنيوس المريض و أرسوس. فرد فينيكوس الذي أحب بطرس بكل جوارحه:
ـ أقسم، أيها المعلم، لن أدعك هنا للهلاك.
ـ بارك الله على حسن مقصدك، لكن أما سمعت بأن المسيح على ضفة البحيرة، ردد على مسمعي ثلاث مرات: "كن راعيًا لنعاجي".
صمت فينيكوس: فأردف الحواري يقول:
ـ إن كنت أنت غير المكلف برعاية أحد، تقول لي بأنك لن تدعني أهلك هنا، فكيف تطلب مني أن أتبرأ من مسؤليتي في يوم الخطر؟ حيث هاجت البحيرة، وامتلأت قلوبنا رعبًا، لم يتركنا هو، فكيف وأنا الخادم، وبأية طريقة لا أتبع مثال سيدي؟
هنا رفع لنيوس وجهه وسأل:
ـ وأنا كذلك، بأيّة طريقة لا أتبع خطاك، وأنت وريث المسيح في الأرض.
مسح فينيكوس شعره، مستفكرًا، ثم أمسك بيد ليفيا، وتكلم بنبره مشوبة بحيوية الجندي الروماني.
ـ اسمعني يا بطرس، وأنت يا لنيوس، وأنت كذلك يا ليفيا! لقد نطقت. بما أملته علي نظرتي الانسانية، لكن

لكم نظرتكم الأخرى التي لا تأخذ في الاعتبار الأمان الشخصي، بل تتبع تعاليم المخلّص. أجل! أنا لم أفهم ذلك، لأن الغشاوة مازالت تغشي عيني، وما زلت أتكلم حسب طبيعتي القديمة. لكني صرت أحب المسيح، وأريد أن أكون خادمًا له. لذلك فأنا أقسم لكم بأني سأتبع وصية المحبة، وأحرص على أخوتي في يوم الخطر.

ثم ركع، وقد مده حماس فجائي بالقوة، فرفع وجهه، وعينيه عاليًا وصرخ:

ـ هل صرت أفهمك الآن يا مسيحي؟ هل صرت جديرًا بك؟

ارتعشت يداه، وائتلقت الدموع في عينيه، وهزت جسده رعشة الايمان والمحبة. فيما أمسك بطرس بالابريق المليء بالماء و تقدم نحو فينيكوس ورتل قائلاً:

ـ أعمدك، باسم الأب، والابن والروح القدس.

فاستحوذت على الحضور. النشوة الدينية، وشعر الجميع بأن المكان مليء بالنور السماوي، والانغام ما فوق الأرضية، وأن صخرة المغارة تنفتح فوق رؤوسهم، وحشود الملائكة تنزل عليهم من السماء، ويبدو هنالك في البعيد الصليب، وكف توزع البركة، في حين كان يسمع في الخارج صراخ البشر وفرقعات لهب المدينة المحترقة.

ضرب الشعب خيامًا في حدائق القيصر الفاخرة التي كانت في السابق تابعة لدومينيا و أغريبنا، وملأت الخيام كذلك كلاً من ميدان مارس، وحديقة بومبوس و سالوستيوس و ميناس.
واحتلوا الأروقة، وصالات ألعاب الكرة، والمصايف الفخمة، والحظائر، فصارت طواويس الحدائق، والعنادل، والبط، والظباء الأفريقية والغزلان، وحمير الوحش، والأيائل كلها ألعابًا بين أيادي الدهماء.
شحنت الاغذية من الاوشتبا بكميات هائلة على ظهور السفن والقوارب التي تراصت في نهر التيبر، حتى أمكن عبوره فوقها من ضفة إلى أخرى سيرًا على الاقدام. وزع القمح بثمن بخس وصل حتى ثلاثة سسترتيوس، وبالمجان على فقراء الشعب. استجمعت مقادير ضخمة من النبيذ، والزيت، ومنتجات الكستناء. وقيدت الخراف، والثيران، يوميًا من الجبال.
انعكس كل ذلك على المدقعين المعدمين الذين لم يجدوا ما يأكلونه، فصارت معيشتهم أفضل مما كانت عليه قبل الحريق. لقد أفلحوا من جهة، في القضاء على خطر المجاعة المحتملة، ولكن الحد من أعمال الشغب والسلب وفوضى السلوك، بات أكثر صعوبة. لقد حصنت حياة التشرد والنزوح قطاع الطرق، فأفلتتهم من عقال المساءلة والحاق العقوبات بهم. خاصة وأن كثيرين منهم قد سخّروا من أنفسهم أنصارًا للقيصر، ولم يبخلوا بالتهليل والتصفيق في أماكن عديدة. وبما أن الجهات الرسمية كانت غائبة، ولا أثر لها في الحالة المفروضة السائدة، ولم يتوافر السلاح المناسب بين الايادي للحد من أعمال العنف، فقد حدثت أمور تفوق التصور قام بها المزيج البشري القادم من كل أنحاء العالم ليقطن روما. لم تمض ليلة إلا وحصلت فيها مشاجرة، أو جريمة أو خطف نساء وأطفال. فقتل الناس نتيجة العراك في المحطات بالمئات. وطفت الجثث كل صباح فوق مياه التيبر دون أن يكترث لدفنها أحد، ففاحت روائحها لتملأ الجو. انتشرت الأمراض في المعسكرات، وتوقع الكثيرون انتشارًا للأوبئة والأمراض السارية.
كان الحريق يشتد في المدينة، و لم يضعف إلا في اليوم السادس حين بلغ مساحة شاسعة من الأراضي الخراب التابعة لأسكويلنوس حيث عمد إلى هدم كثرة كثيرة من المنازل والأبنية. لكن تلال الجمر المتوهجة ظلت تطلق وهجها من الأنوار، حتى لم يصدق الشعب أن نهاية الحريق الحقيقية واقعة. وهذا ما حصل، ففي اليوم السابع تجدد لهب النار في ابنية تيفالنيوس لمدة وجيزة، لكنه ما لبث أن خمد لعدم توافر ما يكفي لإطعام النار.
بعد مغيب الشمس لم تتلون السماء بأنوار الوهج الحمراء، واقتصر الحال على السنة من اللهب المزرقة كانت تنطلق عاليًا كل ليلة من فوق المساحات السوداء الشاسعة التي أتى عليها الحريق. لم يبق من أحياء روما الأربعة عشر إلا أربعة من بينها الترانستريس. أما البقية فقد التهمتها النيران. وفي نهاية الأمر، حين ترمدت تلال الجمار، اقتصر الأمر في المنطقة الرمادية الخامدة الحزينة الممتدة من التيبر حتى الاسكويلنوس، على صفوف من المداخن المنتصبة كشواهد قبور في مدفن.
لم يجد نفعًا كل ما جاء به القيصر من كرم، وعون، فلم تتوقف صيحات الشتائم، وأعمال الشعب. وحدهم قطاع الطرق واللصوص، والمشردون من شعروا بالرضا، لأنهم باتوا يأكلون، ويشربون وينهبون على نحو لم يحلموا به من قبل. لكن من فقدوا أحباءهم وكل ما يملكون، كان من المستحيل إرضاؤهم لا بفتح الحدائق، ولا بتوزيع القمح، ولا بوعود الهدايا، وإقامة العاب السيرك. كانت الكارثة أعظم من ذلك بمالا يقاس. فالذين ما زال حب الوطن وعشق مسقط رأسهم يغليان في أفئدتهم، قد هزهم ذلك النبأ بأن اسم روما العريقة سينمحي عن وجه الأرض، لأن القيصر يريد أن يبني مدينة جديدة باسم القيصر نيروبوليس.
كانت موجة الامتعاض تشتد يومًا إثر يوم، ومخاوف القيصر تتفاقم، رغم تملق الاوغستيان وأكاذيب تيفالنيوس، فقد تأتي لحظة وتنزلق الأرض من تحت قدمية.

حتى الاوغستيان لم تستثنهم مخاوف من هذا القبيل، فبات القلق يستحوذ على نفوسهم بعد دلائل يومية ملموسة تشير إلى اقتراب هلاكهم. فكر تيفالنيوس باستدعاء بعض الفيالق من آسيا الصغرى. واكفهر وجه فاتينوس الذي كان يضحك حتى حين يصفعونه، وفقد فيتلوس شهيته على الطعام.
آخرون تشاوروا فيما بينهم، بحثًا عن طريقة يسلمون بها رؤوسهم، فلم يعد خافيًا على أحد أنه في حال أدى طوفان الفوضى إلى جرف القيصر، فلن يسلم أحد من الاوغستيان، باستثناء ربما بترونيوس، لأن ارتكاباتهم معروفة، وكره الشعب لهم يفوق مايضمرونه للقيصر نفسه.
بدؤوا يتدارسون كيف يبعدون عنهم مسؤولية إحراق المدينة. فتوصّلوا إلى نتيجة باستحالة ذلك ما لم يغسلوا يد القيصر ويبرئونه من الأمر، وإلا فلن يصدق أحد أنهم ليسوا متسببي الواقعة المشؤومة.
قام تيفالنيوس بمناقشة الفكرة مع دوميتوس أفر، وكذلك مع سينكا ولو أنه لا يطيقه. أما بوبيا فكانت تدرك جيدًا أن هلاك القيصر يعني الحكم عليها بالاعدام، فاستشارت ثقاتها وطلبت نصيحة الكهنة اليهود، على اعتبار أنها، وهو رأي شائع تتبع دين يهودي منذ بضع سنوات.
وجاء دور نيرون ليدلي بدلوه فابتدع بعض الحيل الرهيبة في بعضها، والفارغة في بعضها الآخر، مرتعدًا هنا، وعابثًا هناك كالطفل، لكنه وقبل كل شيء، كان يندب وينوح.
وفي يوم، في منزل تيبريوس الذي لم يأت عليه الحريق، جرت مشاورات مطولة، لكنها فاشلة لم تخلص إلى نتيجة. فكان رأي بترونيوسى، تجنبًا لوطأة ثقل الأعباء الملقاة عليهم، أن يسافروا إلى اليونان، ومن هناك إلى مصر ثم إلى آسيا الصغرى. كانت الرحلة مقررة منذ زمن، فلا مبرر لإرجائها أكثر، ما دامت الحياة في روما باتت بائسة وخطيرة.
تقبل القيصر الفكرة برحابة صدر، لكن سينكا قال بعد تفكير:
ـ السفر سهل، لكن العودة شاقة جدًا.
فأجاب بترونيوس
ـ بحق هيركوليس! سوف تعود على رأس فيالق من آسيا.
فجهر نيرون قائلاً:
ـ هذا ما سأقوم به.
لكن تيفالنيوس سعى إلى إجهاض الفكرة، ما دام هو بالذات لم يفلح في طرح أي شيء. ورغم أنه وجدها الطريقة الوحيدة للنجاة لكن الأهم عنده كان إفشال بترونيوس لكي لا يبدو خصمه صاحب الرأي السديد على الدوام.
بادر إلى القول:
ـ انظر أيها القيصر. هذه مغامرة ستجلب نهايتنا. فقبل أن نصل إلى أوستيا ستندلع الحرب الأهلية، ومن يدري، فقد يخرج أحد أقارب الآله أوغستس الأحياء، ويعلن نفسه قيصرًا، وإذا ما وقفت الفيالق في صفه، ما الذي يسعنا أن نفعله؟
ـ أول ما سنسعى إليه هو التخلص من كافة أقارب أوغستوس. وهم على أيّة حال قلة قليلة من اليسير تدبر أمرهم.
يمكن القيام بذلك، لكن هل المسالة تقتصر عليهم؟ أمس سمع رجالي بين الحشود كلامًا يفضل أن يكون القيصر شخصًا مثل تراسيا.
عض نيرون شفتيه، لكنه سرعان ما رفع عينيه ليقول:
ـ أوغاد، جاحدون! لديهم الكثير من القمح، وما يكفي من الجمار ليشووا حظائرهم، فما الذي يبغونه بعد؟
فأجاب تيفالنيوس:

ـ النقمة والثأر.
ساد صمت، ثم نهض القيصر خلاله واقفًا. وعلى حين غرة أنشد قائلاً:
الشعب إلى النقمة يتعطش، والثأر ضحية يترصد.
ثم نسي هذا الأمر وصاح بوجه مشرق:
هاتوا لوحًا، وريشة، دعوني أسجل المقطع الشعري.
لوكانوس لم يكتب ما يشبه هذا. لاحظتم كيف جاءني الالهام في لمح البصر؟
سمعت بعض الاصوات تقول:
ـ آه. شيء لا يجارى.
فقال نيرون بعد أن سجل الشعر:
أجل! النقمة ثمنها ضحايا.
ثم جالت عيناه تدوران على جميع الحضور:
ـ هل أنشر نبأ يفيد بأن فاتينوس هو الذي أشعل المدينة، ثم أضحي به امتصاصًا لنقمة الشعب؟
فصاح فاتينوس:
ـ أوو، أيها القيصر الالهي، ومن أكون أنا؟
ـ حقا! علينا بشخص أكثر أهمية منك... فيتليوس؟
شحب فيتليوس، لكنه استغرق في الضحك، وكان رده:
ـ شحمي قد يضرم النار مجددًا.
لكن نيرون كان يفكر بأحد آخر. ضحية ترضي الشعب وتمتص نقمته حقًا، ولقد عثر على ضالته.
فقال بعد وقت قصير:
ـ تيفالنيوس. أنت من أحرق روما.
اقشعر الحضور، وارتعدت أوصالهم بعد أن فهموا أن القيصر قد ابتعد عن الهزار، وأن أزمنة حبلى بالأحداث أشرفت على الابتداء.
انقبض وجه تيفالنيوس كشدق كلب يتهيأ للعض، فصده قائلاً:
ـ أنا، لكن بأمر منك.
وحدقا في بعض كعفريتين وخيم سكون جعل طنين الذباب يسمع في الأتريوم.
بادر نيرون يخاطب تيفالنيوس:
ـ تيفالنيوس! هل تحبني؟
أنت تعرف يا سيدي.
ـ ضحي من أجلي، وافدني بنفسك.
ـ كيف تقرب الشراب الحلو من شفتي، ولا أجترعه؟ الشعب يضج ويشاغب، فهل تريد من الحرس الامبراطوري أيضًا أن يتمرد؟
انقبضت قلوب الحضور لهذه الشناعة. كان تيفالنيوس قائدًا للحرس، فبدا ما تفوه به نوعًا من التهديد. أدرك نيرون ذلك، فكساه الشحوب. في هذه الأثناء دخل إبا فرديتوس معتوق القيصر، وأعلن أن الاوغستا الالهية تريد التحدث إلى تيفالنيوس، لأن ضيوفًا عندها يرغبون في أن ينصت إليهم قائد الحرس.
انحنى تيفالنيوس أمام القيصر، وانصرف بكل هدوء واستخفاف. لقد أرادوا أن يوجهوا إليه لكمة قوية، لكنه كشر عن أنيابه ليعرفوا من يكون، وليكتشفوا في الوقت نفسه أن القيصر سيد الكون أجبن من أن يجرؤ على رفع يديه ومسه بسوء.

جلس نيرون فترة لا ينبس بحرف، لكنه لاحظ أن الحضور ينتظرون منه أن ينطق بشيء فقال:
ـ كنت أدلل أفعى.
هز بترونيوس كتفيه كأنما أراد أن يقول أن أفعى كهذه ليس من العسير سحل رأسها.
فخاطبه القيصر، وقد لاحظ حركة صديقه:
ـ هات ما لديك. قل، أسدلي بنصح! لا أثق إلا بك، فعقلك أرجح من عقول الكل مجتمعين، وتحبني!
كان كلام بترونيوس جاهزًا وعلى أهبة النطق به: "سمني قائدًا للحرس الامبراطوري، وأنا سأسلم تيفالنيوس للشعب، وأهدئ المدينة خلال يوم واحد". لكن خموله المولود معه تغلب عليه. أن يكون قائدًا للحرس، هذا يعني أنه سيرفع على كاهله عبء شخص القيصر، إضافة إلى الآف الأعباء الاخرى. فلم يجلب لنفسه المتاعب؟ من الافضل له أن يعكف إلى مكتبة مريحة يقرأ الاشعار، أو يستمتع بمشاهدة التماثيل والقصص، ويحضن جسد يونيكي الإلهي، ويداعب خصلات شعرها الذهبي، ويلامس بفمه حمرة شفتي الفتاة.
فكانت نصيحته أن قال:
ـ أنصحك بأن نسافر إلى أكايا.
أجاب نيرون:
ـ أه. انتظرت منك أكثر من ذلك. مجلس الشيوخ يكرهني، فإن سافرت، من يضمن لي أنه لن يتمرد علي، ويسمي قيصرًا آخر؟ كان الشعب في صفي منذ مدة طويلة، لكنه الآن يقف إلى جانبهم... يا جوبيتر! هل يعقل أن يكون للشعب ومجلس الشيوخ عقل واحد!
فعلق بترونيوس باسمًا:
ـ دعني أقل لك، أيها القيصر الإلهي، إذا ما أردنا أن نحافظ على روما، ينبغي علينا أن نحافظ على بعض الرومانيين أيضًا.
ـ ومانفع روما والرومانيين لي؟ في أكايا قد يصغون إليّ، وأنا هنا محاط بالخيانة. انفضّ عني الجميع. حتى أنتم قابلون لخيانتي! أعلم، أعلم!... أما ينبغي لكم أن تفكروا بما سيقال عنكم في القرون القادمة، بأنكم تخليتم عن فنان مثلي.
وبغتة ضرب على جبينه وصاح قائلاً:
حقا!... في زحمة الأعباء نسيت من أن كون. والتفت إلى بترونيوس بوجه فيه الكثير من الاشراق. وقال:
ـ اسمع يا بترونيوس. الشعب يضج، لكن لو أمسكت بقيثارتي وغنيت أمامه في ميدان مارس الأغنية التي أديتها لكم في أثناء الحريق ألا تظن أنني سأتمكن من التأثير بالشعب، كما أثر أورفيوس بالوحوش بأنغامه؟
هنا انبرى توليوس سينيكو الذي كان ينتظر نهاية الحديث، بعد أن فقد صبره، وبات يرغب في الذهاب إلى فتياته من الرق اللواتي جلبهن من الأنتيوم، فقال:
ـ لا شك في ذلك أيها القيصر، لكن السؤال هل ستسنح لك الفرصة للشروع بذلك.
فصرخ نيرون وقد اعتكر مزاجه:
ـ فلنذهب إلى هيلاس ولكن في هذه اللحظة دخلت بوبيا وفي إثرها تيفالنيوس.
كان دخول رئيس الحرس ملفتًا على نحو لم يألف الحاضرون مثولًا أمام القيصر بمثل هذا الصدف حتى لقائد عسكري ظافر.
بدأ يتكلم بكثير من التوتر، وفي نبرة صوته حشرجة تكاد تكون قرقعة حديد:
ـ اسمع أيها القيصر. لا بد من إرضاء الشعب بتقديم ضحية. لكن ليس ضحية واحدة بل الآلآف الضحايا. أما سمعت بكريستوس الذي صلبه بونتوس بلاتوس؟

أو تعرف من هم المسيحيون؟ ألم أحدثك عن أفعالهم الشريرة، وطقوسهم اللا أخلاقية، ونبوءتهم بأن العالم ستأكله النيران؟ الشعب يكرههم، وينظر إليهم بعين الشبهه. لم يشاهدهم أحد في معابد، لأنهم يعتبرون ألهتنا أرواحًا شريرة. إنك لا تراهم حتى في الميادين، لأنهم يكرهون الألعاب. لم تصفق كف مسيحى احترامًا لك. و لم يعترف أي منهم بإلهك. هم أعداء الإنسانية، وأعداء المدينة، وأعداء لكم. الشعب ينتفض ضدك، في حين لست من أصدر الأوامر بإحراق المدينة، ولست أنا من قام بإحراقها. الشعب يرغب في الانتقام، فلنحقق لهم رغبتهم. الشعب متعطش للدماء وألعاب السيرك، فليروي عطشه. الشعب يتوجه إليك بالإتهام، فلتوجه أصابع إتهامه بإتجاه آخر.

في البداية كان نيرون يصغي باستغراب، لكن تعابير وجه الممثل بدأت خلال مجرى الحديث تتبدل غاضبة تارة، ومتألمة تتوسل العزاء تارة أخرى. نهض فجأة، فألقي عنه رداؤه وظل عند قدميه، حتى رفعه بكلتا يديه ، وظل واقفًا لحظات حتى نطق بنبرة البطل الدرامي:

ـ يا زيوس، يا أبوللو، يا هيرا، يا أثينا، يا برسفون، ويا كل الآلهة الخالدين، لِم لَم تأتوا لتقديم العون لنا؟ ما الذي فعلته هذه المدينة المنحوسة لأولئك الانجاس حتى يحرقوها على هذا النحو القذر؟

فقالت بوبايا:

ـ إنهم أعداء الجنس البشري وأعداؤك.

فصاح آخرون:

ـ أقم العدل! عاقب من أحرقها. الآلهة أنفسهم متعطشون للثأر!

جلس نيرون، وأحني رأسه على صدره، وكأن الوضاعة التي سمعها الآن قد خدرته، لكنه سرعان ما هز يديه وقال:

ـ أي عقاب، وأي عذاب يستحقون على فعلتهم الشريرة؟ لكن الآلهة تلهمني لأبتدع لشعبي مشاهد سيذكرونني عليها ممتنين لقرون.

أحمر جبين بترونيوس على حين غرة، حين فكر بالخطر المحدق الذي يهدد ليفيا و فينيكوس الذي أحبه، وكل أولئك الذين كان يحتقر دينهم، لكنه على يقين من براءتهم. ولمع في ذهنه أن أحد الطقوس الدموية، التي لا تحتملها طبيعته الجمالية، في طريقه إلى الوقوع.

لكنه قال في نفسه: "علي أن أنقذ فينيكوس لأنه سيجن إن فقد تلك الفتاة". ووجدها أولى مهامه، وأول محك خطير في الحياة يضع نفسه فيه.

وكعادته، تكلم بطريقته المعهودة من البرود و الاعتيادية، ما دام لا يتناول في نقده آراء جمالية تخص القيصر:

إذن، عثرتم على ضحايا! حسنا! ستلقون بهم في حلبات الوحوش، أو تلبسونهم "ثوب العذاب". حسن لكن اسمعوني قليلاً. في أياديكم السلطة، والحرس الامبراطوري، والقوة، فكونوا صادقين، أقله حين لا يسمعكم أحد. اخدعوا الشعب، لكن لا تخدعوا أنفسكم، سلموا المسيحيين للشعب وأوقعوا بهم العذاب الذي تشاؤون، لكن فلتجرؤوا على الاعتراف أمام أنفسكم أن ليس هم من أحرق روما! سحقًا لقد أطلق علي لقب ملك الذوق. أنا لا أحتمل هذه المهزلة سحقا! كم ذكرني هذا باللعبة الكوميدية، حيث يلعب الممثلون أدوار الآلهة، والملوك، ثم بعد عرض المسرحية يتعشون البصل. كونوا آلهة، وملوكًا حقيقيين، لأني واثق من قدرتكم على إيجاد طريقة مناسبة. أما مايخصك أيها القيصر، فلقد هددتنا بإدانة الأجيال القادمة لنا، لكن لا تنسى أن إدانتهم ستلحق بك أيضًا. بحق كليو الإلهي! إن نيرون سيد الكون، نيرون الإلهي، قد أحرق روما لأن سلطته على الأرض، كسلطة زيوس فوق جبل الأولمب. نيرون الشاعر قد أحب الشعر إلى حد جعله يفديه بوطنها منذ نشوء العالم لم يقدم أحد على مثل هذا الفعل، لأن أحدًا لم يتمتع بالجرأة. باسم الموزيات

التسع عروسات الشعر، أتضرع إليك أن لا تتنازل عن هذا المجد، ولسوف تصدح باسمك الأشعار والألحان عبر القرون. من سيكون برياموس مقارنة بك، أي مجد سيكون لأغممنون وآخيل، وحتى للآلهة أنفسهم؟ ليس من أهمية إن كان إحراق روما أمر حسن أم لا. الأهمية في عظمة الحدث و استثنائيته دون ريب. وعلى أية حال أقول لك أن الشعب لم يرفع يده عليك! فكن جريئًا! وحذار من اتخاذ مسالك لا تليق بك، لأنك وحدك من يهدده خطر الأجيال القادمة عندما يقولون "نيرون أحرق روما، ولكنه كقيصر منحط، و كشاعر زائف منحط، ولأنه جبان ورعديد قد أنكر فعلته تلك وألبس التهمة للأبرياء".
وكالعادة كان لكلمات بترونيوس تأثيرها الكبير في نفس القيصر. القشة الأخيرة التي تنقذ حياة المسيحيين، لكنها تعرض بترونيوس لخطر شديد. لم يتشدق كثيرًا لأن الأمر يخص فينيكوس الذي يحبه من جهة، ولأنها تؤدي إلى مغامرة من جهة أخرى. قال في نفسه: "ولكني قد رميت بحبة النرد، وانتهى الأمر، والآن بانتظار القرار الذي سيتخذه هذا القرد، إما بدافع خوفه على جلده، أو بدافع يمليه عليه طموحه".
لكنه كان على يقين بأن الخوف هو الراجح في النهاية.
ساد صمت ترقب خلاله الجميع، ومن بينهم بوبيا، ما سيتفوه به نيرون. أما القيصر فقد مط شفته العليا حتى فتحتي أنفه، وهذا ما يفعله في العادة حين يحار، ولا يدري ماذا سيفعل. في النهاية بدا عليه الارتباك وعلت وجهه تقاسيم الانزعاج.
لاحظ تيفالنيوس ما خالج القيصر من اضطراب فبادر إلى القول بصوت جهوري:
- سيدي! اسمح لي بالإنصراف، لأن محاولات الزج بشخصك في أتون التهديد والوعيد، إضافة إلى تسميتك بقيصر منحط، وشاعر منحط، وحارق المدينة، ومهرج، فذلك ما لا تحتمل أذناي سماعه.
قال بترونيوس لنفسه: "لقد هزمت"
الا أنه التفت نحو بترونيوس بكل مالديه من دوافع الاحتقار التي يضمرها نبيل تجاه حثالة، وتوجه إليه بالقول:
- أنت يا تيفالنيوس من سميتك بالمهرج، وها أنتذا تهرج الآن.
- لأنني غير مستعد أن أسمع ما تتلفظ به من كلمات جارحة.
- بل لأنك تتصرف وكأنك تكن للقيصر محبة لا حدود لها، في حين قد هددته، لتوّك، بالحرس الامبراطوري، وعلى مسامعنا جميعًا.
لم يكن تيفالنيوس مستعدًا لمثل هذه المغامرة غير المتوقعة التي تجرأ بترونيوس وأطلقها لتوه، فلزم الصمت شاحب الوجه. لكنها كانت الغلبة الأخيرة التي يحققها بترونيوس على خصمه تيفالنيوس لأن بوبيا في هذه اللحظة بادرت إلى القول:
- كيف لك أن تسمح يا سيدي حتى بمجرد أن تلمع في ذهن أحدهم أفكار كهذه، فكيف وهم يتجرؤون ويتفوهون بها أمامك؟
صاح فيتليوس:
- عاقب المتطاول!
ومن جديد مط نيرون شفته العليا نحو أنفه، ثم التفت نحو بترونيوس وقال:
- هكذا تكافئني على صداقتي؟
فأجاب بترونيوس:
- إن ضللت فجازني. لكنك تدرك أنني لا أتفوه إلا بما تمليه علي محبتي لك.
فكرر فيتليوس قائلاً:
- عاقب الجسور المتطاول!

وعلت أصوات أخرى:

ـ عاقب الجسور!

وعم في الأتريوم الضجيج والحركة، لأن الناس أخذوا ينفضون عن بترونيوس. وانفض عنه حتى توليوس سينكيو الذي كان صاحبه الخاص في البلاط، والشاب نيرفا أحد أفضل أصدقائه. وسرعان ما صار بترونيوس وحيدًا في الركن الأيسر من الأتريوم يمسح كم ردائه مبتسمًا، وينتظر ما سيقوله، أو سيفعله القيصر.

أما القيصر فقال:

ـ تريدون أن أعاقبه، لكنه صديقي وصاحبي، فإن جرح فؤادي فليعلم أن هذا القلب عارم بالصفح تجاه أصدقائه. وفكر بترونيوس: "خسارتي، ونهايتي".

كان القيصر قد نهض واقفًا معلنًا نهاية المشاورات.

توجه بترونيوس إلى منزله، فيما قصد نيرون و تيفالنيوس معًا صالون بوبيا، حيث كان ينتظر هناك من تحدث إليهم قائد الحرس قبل قليل.

كان هناك حاخامان بردائين رسميين طويلين، وتاجين فوق الرأس، وكان برفقتهما مدون، إضافة إلى شيلون. ارتعد الحاخامان لمرأى القيصر، ورفعا أكفهما. وبادر الأكبر سنًا إلى تحيته:

لك التحيات، يا مناصر الملكيّة، وملك الملوك. تحية لك يا سيد العالم، أيها القيصر، يا راعي الشعب المختار، أيها الأسد الضرغام بين جموع الناس، والذي ينتشر سلطانه كأشعة الشمس، وكأرز لبنان، وكالينبوع، والنخيل، والبلسم الشافي.

سأل القيصر:

ـ أنتم لا تعتبرونني إلها؟

ازدادت رعدة الحاخامين وشحوبهما، فقال الحاخام المسن:

ـ كلامك حلو يا سيدي كعنقود العنب، وكثمر التين الناضج، لأن يهوه قد ملأ قلبك بالطيبة، لكن القيصر كايوس كان ظالمًا، ورغم ذلك لم يعتبره أتباعنا إلهًا، وفضلوا الموت على تجاوز القانون.

ـ فدفع بهم كاليفولا بين الأسود؟

ـ لا يا سيدي. القيصر كايوس خشي غضب يهوه. ورفعوا رؤوسهم لأن اسم يهوه الجبار شحنهم بالعزيمة. وهم الآن،.مثل تلك العزيمة، يجرؤون على النظر في عيني نيرون.

ـ أنتم تتهمون المسيحيين بإحراق روما؟

ـ نحن يا سيدي لا نتهمهم إلا بأنهم أعداء القانون، وأعداء الجنس البشري، وأعداء روما، وأعداؤك، وبأنهم منذ زمن طويل يهددون بإحراق المدينة والعالم. وماتبقى سيقوله لك هذا الانسان الذي ما عرفت شفتاه الكذب، لأن عروق أمه يجري فيها دم الشعب المختار.

ألتفت نيرون نحو شيلون:

ـ من أنت؟

ـ متبجّح لك، و رواقي مسكين...

ـ أكره الرواقيين، أكره المتبجّحين، أكره أحاديثهم، وأكره فيهم احتقارهم للفن، أكره فقرهم المفطورين عليه، أكره قبحهم ومشاكستهم.

ـ سيدي، إن السيد سنيكا يملك ألف طاولة من خشب السرو، فإن شئت تجعلني أمتلك على ضعف ذلك. وإن شئت أن تفعل، فزخرف رواقيتي بقوس من الورود إضافة إلى إبريق من النبيذ وستراها تتحفك بأنغام غريبة تطرب كل الأبيقوريين.

نالت هذه اللفتة"البارقة"إعجاب نيرون فما كان منه إلا أن ابتسم وقال:

ـ أنت تعجبني.

فبادر تيفالنيوس إلى القول:

هذا المرء يساوي ثقله ذهبًا

أما شيلون فأجاب:

ـ سيدي! زد كرمك وأكمل وزني، وإلا فستذرو الرياح المدفوعات لخفتها.

فقاطعه القيصر قائلاً:

ـ مؤكد أن فيتليوس لن يبخس الميزان حقه.

ـ لكن عقلي ليس مسبوكًا من الرصاص.

ـ أرى ذلك، لأن ناموسك لا يمانع أن تدعوني إلها.
ـ ناموسي قائم فيك أيها الخالد! المسيحيون انكروا القانون، ولهذا فأنا أحتقرهم.
ـ ماذا تعرف عن المسيحيين!
ـ أتسمح لي أيها القيصر الإلهي، أن أبكي؟
فأجاب نيرون:
ـ لا، لأن هذا يضجرني.
ـ الحق معك، لأن العين التي لا تراك، لن تبكي أبدًا. سيدي! أنقذني من أعدائي.
فتدخلت بوبيا بشيء من فراغ صبر:
ـ تحدث عن المسيحيين.
فأجاب شيلون:
ـ كما تأمرين. منذ يفاعتي سخرت حياتي للفلسفة، متوخيًا البحث عن الحقيقة. بحثت عنها في الحكم الإلهية القديمة، وبحثت عنها في الأكاديمية الاثينيّة، وفي معتقد سيرابيس في الاسكندرية. حين سمعت بالمسيحيين ظننت أن ذلك مدرسة جديدة يمكن أن أحظى فيها على نثرات من الحقيقة. يالخيبتي إذ تعرفت بهم! المسيحي الأول الذي قادني نحسي للتعرف به كان كلاوسوس الطبيب النابولي. ومع مرور الوقت عرفت من خلاله أنهم يعبدون أحدًا يدعي المسيح، يعدهم بالقضاء على كل شعوب الأرض، وتدمير كل مدنها، والإبقاء عليهم إذا ما ساعدوه في القضاء على أطفال ديكاليون. ولهذا السبب يكن هؤلاء الضغينة للبشر، يا سيدي، ولهذا السبب يقومون بتسميم الآبار، ولهذا السبب يكثرون في اجتماعاتهم من إطلاق الشتائم والمذمات بحق روما، وحث معابدنا. لقد صلب المسيح لكنه وعدهم إذا ما أحرقت روما فسيأتي من جديد إلى هذا العالم، يجعلهم أسياد العالم....
فقاطعه تيفالنيوس قائلاً:
ـ صار الشعب يعرف لماذا احترقت روما.
فأجاب شيلون
ـ الكثيرون باتوا يعرفون لأني أقصد الحدائق، و ميدان مارس، وأقوم بتعليمهم. لكن إذا ما سمعتموني حتى النهاية، سترون أن لي أسبابًا لا حصر لها لنقمتي. الطبيب كلاسوس لم يكشف لي منذ البداية أن دينهم يأمرهم بكره البشر. بل قال لي إن المسيح الوهة صالحة، وأن المحبة هي أساس تعاليمهم. لم يرفض قلبي الوديع المرهف هذه الحقيقة، ولهذا أحببت كلاوسوس ووثقت به. شاطرته كل لقمة من طعامي، وكل جريشي من القمح. لكن أتدري يا سيدي كيف رد لي هذا الجميل؟
حين غادرنا نابولي في طريقنا إلى روما طعنني بالمديّة، وباع كلا من زوجتي وابني الفتى الجميل إلى تجار الرق. لو عرف سوفوكليس قصة حياتي... ما الذي سأقوله بعد! شاعر أعظم من سوفوكليس يسمعني الآن.
أشفقت بوبيا قائلة:
ـ مسكين.
ـ ليس مسكينا من رأى وجه افروديت يا سيدتي. وها آنذا أراه الآن. ولكني بعد كل ما حصل لي بحثت عن عزاء في الفلسفة. بوصولي إلى روما بحثت عن كبار المسيحيين طالبًا منهم تحقيق العدالة ومعاقبة كلاوسوسس. ظننت أنهم سيرغمونه على إعادة زوجتي... تعرفت على كبير الكهنة... وعلى شخص آخر يدعى بولس الذي كان أسيرًا وأنقذوه فيما بعد. وتعرفت على كثيرين آخرين كنت أعرف قبل الحريق أين يقطنون، وأين يجتمعون. أعرف غارا تقع تحت رابية فاتيكانوس، ومقبرة خارج بورتا نومنتا، حيث

يقيمون هناك طقوسهم المخزية. هناك رأيت بطرس الحواري، رأيت كلاوسوس وهو يقتل أطفالاً ليرش دمًا فوق رؤوس الاتباع. ورأيت ليفيا ابنة بومبونيا المتبناة، التي تفخر بأنها ما دامت لم تستطع أن تحلب دم طفل، فلتتسبب إذن.موت طفلة، فقامت بسحر الاوغستا الصغيرة ابنتكم، وأصابتها بالعين. الطف بنا يا إيزيس ويا أوزيريس.

علقت بوبيا:

- أتسمع هذا أيها القيصر!

فصرح القيصر:

- أيعقل هذا؟

فتابع شيلون:

- لو تعلق الأمر بما لحق بي من أذية لصفحت عنها، لكن مصابكم الجلل جعلني أرغب بطعنها. لكن وأسفاه، منعني من ذلك حبيبها النبيل فينيكوس.

- فينيكوس؟ كيف وقد هربت الفتاة منه.

- الفتاة هربت، لكن فينيكوس بحث عنها، لأنه لم يستطع العيش بدونها. وأنا ساعدته في البحث عنها لقاء أجر زهيد، وأرشدته إلى المنزل الذي تقيم فيه الفتاة مع المسيحيين في ترانسبيريس. رافقته إلى هناك بصحبة كروتون أقوى مصارعيك لحماية فينيكوس. لكن أرسوس عبد ليفيا قضى عليه. إنه من القوة يا سيدي، بحيث يفتل عنق ثور، كما يفتل أحد غيره كوزا من الخشخاش. أرسوس و بومبونيا يحبانها أيضًا.

صاح نيرون:

- يا هيروكوليس! ذلك الفاني الذي قضى على كروتون يستحق أن يقام له نصب في فوردم. لكنك إما أن تكون مخطئًا أيها العجوز أو أنك تكذب، لأن كروتون قتل مطعونًا على يد فينيكوس.

- هكذا يفترون على الآلهة. رأيت بأم عيني يا سيدي، كيف طقطقت أضلاع كروتون بين يدي أرسوس، حتى أنه قام بعدها بضرب فينيكوس، ولو لم تكن ليفيا هناك، وتشفعت له لقضي عليه. وعلى إثرها ظل فينيكوس مريضًا لمدة طويلة، والمسيحيون من قاموا بالعناية به أملاً منهم بأن يعتنق المسيحية كرمى لمحبوبته. وهذا ما حصل فعلا.

- فينيكوس؟

- أجل فينيكوس.

تدخل تيفالنيوس قائلاً:

- وقد يكون بترونيوس كذلك.

تراقص شيلون في مكانه، وفرك راحتيه ثم قال:

- تذهلني نظرتك الثاقبة يا سيدي... أجل... ذلك ممكن... ذلك ممكن جدًا.

- فهمت الآن سبب دفاعه عن المسيحيين.

قهقه نيرون:

- بترونيوس مسيحيًا بترونيوس عدو للحياة، والمتعة! لا تتفوها بالترهات، محاولين إقناعي، لأني لن أصدق شيئًا.

- لكن فينيكوس النبيل صار مسيحيًا، ياسيدي. أقسم بالنور الساطع منك أنني أقول الحق، وأنني لا أكره شيئًا كرهي للكذب. بومبونيا مسيحية، و أولوس الصغير مسيحي، وليفيا و فينيكوس مسيحيان. لقد خدمته بكل إخلاص لكنه لم يتوان عن جلدي رغم أني عجوز، ورغم كوني آنذاك مريضًا وجائعًا. لكني أقسم بـ-هادس أني لن أنسى ذلك. انتقم لي يا سيدي منهم، وأنا سأحضر لك الحواري بطرس و لنيوس و كليتوس،

و كلاوسوس، و كريسبوس وكلهم قادة، فضلاً عن ليفيا و أرسوس. وسوف أدلكم على آلاف وآلاف غيرهم، وأدلكم على معابدهم، وكل المقابر التي يجتمعون فيها، حتى أن كل سجونكم لا تتسع لأعدادهم. لن تعثروا عليهم دون مساعدتي... حتى الآن كنت أبحث عن عزاء لي في الفلسفة، فدعني أجدها الآن في عطفكم نحوي... أنا عجوز، ولم أذق بعد طعم الحياة، فدعني أنعم بالراحة قليلاً.

فعلق نيرون قائلاً:

ـ أنت ترغب في أن تكون رواقيًا حول مائدة عامرة.

ـ من يسعى لخدمتك، هو بالضرورة يكون قد أوصى مائدته.

ـ لست مخطئا أيها الفيلسوف.

ثارت غيره بوبيا، بعد أن رأت بعينها الثاقبة الخبيرة أن لا أحد في روما كلها يمكن أن ينافسها سوى ليفيا، وأن تلك ستفوز عليها. حزمت أمرها، وأقسمت أنها منذ هذه اللحظة ستنتقم منها. فقامت مخاطبة القيصر:

ـ سيدي! انتقم لابنتنا:

فاستعجلهم شيلون قائلاً:

ـ أسرعوا! أسرعوا قبل أن يواريها فينيكوس. سأدلكم على المنزل الذي أقاموا فيه بعد نشوب الحريق.

فقال تيفالنيوس:

ـ سأدعمك بعشرة رجال، انطلق حالاً.

ـ سيدي، أنت لم تشاهد كروتون بين ذراعي أرسوس لو دعمتني بخمسين رجلاً، فلن أقترب من المنزل، وسأدلكم عليه من مكان بعيد.

ولكن إن لم تودعوا فينيكوس السجن فستكون نهايتي. ألتفت تيفالنيوس إلى نيرون، قائلاً:

ـ أليس من الافضل يا سيدي، أن نتدبر أولاً شأن الشاب، وعمه؟ فأجاب القيصر بعد تفكير:

ـ لا. الآن لا. لا تحاولوا أن تقنعوا الناس بأن من أحرق روما هو بترونيوس و فينيكوس و بومبونيا. كانت لهم منازل جميلة... نحن الآن في حاجة إلى أكباش فداء آخرين، ودورهم سيأتي بعد حين.

قال شيلون:

ـ أعطني يا سيدي رجالاً يحمونني.

سيعتني تيفالنيوس بالأمر. فطمأنه رئيس الحرس قائلاً:

سوف تقيم عندي حتى ذلك الوقت. طفح وجه شيلون بالبشاشة وصاح بصوت أجش:

ـ سأنقذكم جميعًا، لكن أسرعوا! اسرعوا!

حين غادر بترونيوس نيرون توجه إلى منزله في كارينا وهو منزل طوقته حديقة من جهاته الثلاث، وانداحت أمامه فسحة شاسعة، ليصبح على هذا النحو في منأى عن تأثير الحريق.
الاوغستيان الذين دمرت منازلهم، بما فيها من ثروات ومقتنيات نفيسه، وأعمال فنية، أطلقوا على بترونيوس عازف الفلوت المحظوظ. وعلى أية حال كانوا يتناقلون عنه الأحاديث بأنه الابن البكر الذي أنجبته الامرأة الألهية فورتونا، وأنه يمثل صداقة القيصر التي ما فتئت تعزز على الدوام في الاونة الاخيرة، وجاءت نجاة منزله لتؤكد هذا الرأي.
لكن بكر الأمرأة الألهية فورتونا كان له أن يفكر مليًا بتقلب أمه، وشبهها ب كرونوس في التهام الابناء.
"لو أن منزلي قد احترق، ومعه جواهري، وأصصي الأتروسكية، وزجاجياتي الاسكندرانية، ونفائسي الكورنتوسية، لتناسى نيرون، أغلب الظن، مصابه. يا بولوكس! إذا ما فكر المرء وكأن الأمر قد تعلق بي وحدي وصرت قائد الحرس! إذن لأسميت على تيفالنيوس إحراق المدينة، ولقمت بحماية المسيحيين، وأعمرت روما. ومن يدري لعل مصائر البشر الشرفاء تتحسن. خسارة أنني لم أقبل المنصب من أجل فينيكوس على الأقل. كان أمكن أن أعهد إليه بهذا العمل حين أكون مشغولًا، وقد لا يعارض نيرون الأمر. وعندها كان فينيكوس سيسعى إلى تعليم عساكر الحرس الدين المسيحي، وقد يفلح في كسب ميول حتى نيرون نفسه نحو المسيحية. ما الضير في ذلك؟ ما الضير في أن يكون نيرون الرحيم، الفاضل، الرؤوف! أي مشهد مسلٍ كان ليحصل"
لم يحفل كثيرًا. متاعبه هذه، فابتسم. لكن سرعان ما تحول تفكيره إلى وجهة أخرى، وكأن حديث بولس الترسوسي في الأنتيوم قد طرق سمعه من جديد:
"أنتم تسموننا أعداء الحياة، لكن قل لي، أنت بالذات يا بترونيوس، لو أن القيصر كان مسيحيًا، ويمارس الحياة تبعًا لتعاليم ديننا، ألن تغدو حياتكم أكثر طمأنينة وآمانا؟"
وباسترجاعه هذه الكلمات، استرسل في التذكر:
"بحق كاستور! مهما يقتلوا من المسيحيين فباستطاعة بولس أن يجد الكثيرين غيرهم، لأنه ما دام العالم لا يستقيم على الشرور، فالرجل محق إذن... لكن من يدري إن كان لا يستقيم حقا، في حين هو قائم على هذه الشرور؟
أنا، الذي تعلمت الكثير لم أتعلم كيف يمكن للمرء أن يوغل في الوضاعة، ولهذا فمن المرجح أنه سيترتب علي فيما بعد أن أشد قواي...
ولن أكون نادمًا إلا على يونيكي وقدح المر، لكن يونيكي حرة، والقدح سيأتي معي، وصاحب اللحية الحمراء لن يستولي عليها.
وسأندم أيضًا على فينيكوس. وعلى أية حال أنا مستعد لكل شيء. صحيح أن في الحياة العديد من الأمور الجميلة، لكن الغالبية العظمى من البشر هي من القذارة بحيث لا يجدر بنا أن نأسف على الحياة. من يجيد الحياة، يجيد الموت. صحيح أني من فئة الاوغستيان، لكني إنسان فيه من الحرية أكثر مما يظنون".
هز كتفيه.
"يظن أولئك أن فرائصي ترتعد، وأن شعر رأسي يحترق جزعًا، ولكني ما أن أبلغ المنزل حتى آخذ حمامًا عطريًا، وبعدها تدلكني يونيكي بالزيت، ثم بعد أن نتناول طعامنا نسمع من انسموس بعض المقاطع من نشيد أبوللو. لقد قلت ذات يوم: ليس بجديًا التفكير بالموت، لأنه هو الذي يفكر بنا حتى دون الرجوع الينا. ثم أليس أمرًا مثير للدهشة أن تكون هناك جنة بحدائق وارفة... وتأتي يونيكي لزيارتي هناك، ونتنزه معا في الجنائن السندسية لا بد أني سألتقي هناك كثيرًا من الأصحاب، وأتعرف بالكثيرين أكثر طيبة من كل

هؤلاء. يالهؤلاء من رعاع ومهرجين، وأفظاظ، وأجلاف، وبلا ذائقة. عشرة من "ملوك الذوق" أمثالي ليس بمقدورهم أن يجعلوا من هؤلاء المسوخ أشخاصًا طبيعيين. يا برسافون!
كم أنا مغتاظ منهم لقد طفح الكيل!
شيء ما بات يفصله عن هؤلاء البشر. لقد عرفهم جيدًا، وأدرك منذ زمن كيف يتعامل معهم وها هو ذا يرى أن المسافة التي تفصله عنهم صارت شاسعة، وأنه بات يحتقرهم أكثر من ذي قبل. حقًا لقد طفح كيله معهم.
لكنه راح يفكر بالحالة الراهنة. أدرك بحدة البصيرة أن ليس ثمة من خطر مباشر يهدده. صحيح أنه تلفظ ببعض العبارات غير المناسبة أمام نيرون، لكنه سيتفهم أقرب الفرص للنطق ببعض الذرائع والشواهد التي تمجد الصداقة والتسامح. أما الآن وقبل كل شيء، فالقيصر يفكر بإقامة ألعاب السيرك مع المسيحيين، قبل أن يأتي الدور ليفكر بي. لذا فليس من المجدي أن أحفل به، وأن أغير من طريقة حياتي. الخطر الأكبر يواجه فينيكوس!
ومن الآن فصاعدًا سخر ذهنه للتفكير بفينيكوس، واتخذ قرارا بالهروع إلى مساعدته.
أسرع الأرقّاء يجتازون بهودجه المداخن، والتلال المترمدة، وحثهم على الإسراع أكثر فأكثر حتى باتوا يركضون ركضًا للوصول إلى المنزل. كان منزل فينيكوس قد احترق، وصار يقيم الآن عند بترونيوس.
ولحسن الحظ كان في المنزل، فسأله لمجرد دخوله العتبة:
ـ هل ألتقيت اليوم ليفيا؟
ـ جئت من عندها.. أصغ إذن لما أقوله لك، ولا تضيع الوقت بالأسئلة.
لقد اتخذوا قرارًا عند القيصر، بأن يلبسوا المسيحيين تهمة إحراق روما. وهم الآن يهددونهم بالملاحقة والتعذيب. وسيبدؤون بتنفيذ خطتهم بأية لحظة. خذ ليفيا واهرب بها إلى ما بعد جبال الألب، أو إلى أفريقيا. لكن أسرع لأن البالاتينوس أقرب إلى الترانسبيريس منا.
كان فينيكوس جنديًا بالدرجة الأولى، فلم يضع وقته بالأسئلة.
وكان شعوره الأول الدفاع عن النفس والرغبة في القتال حتى أخر رمق.
ـ أنا ذاهب.
ـ كلمة أخرى بعد: خذ معك كيسا من الذهب، وسلاحا، وبعض الأرقاء المسيحيين.
كان فينيكوس قد صار عند الباب، فصرخ بترونيوس به وهو يبتعد:
ـ أرسل وراء أحد الأرقّاء.
حين ظل لوحده، راح يتمشى بين عمدان الأتريوم، منتظرا ما سيحدث. عرف أن ليفيا و لنيوس قد رجعا بعد الحريق إلى منزلهما القديم، ولكن ذلك معلومة غير محبذة، فلو بقيا بين جموع الناس لما خمن أحد مكان وجودهما. ولكنه أمل في أن لا يكون أي شخص في البالاتينوس قد شك على الفور في هذا المكان قبل أن يستبق فينيكوس وصول الحرس الامبراطوري إلى هناك. ولمع في ذهنه أن تيفالنيوس سوف يسعى جاهدا لاعتقال أكبر عدد ممكن من المسيحيين، وهذا يعني محاصرة روما بكاملها، الأمر الذي يستدعي توزيع الحرس الامبراطوري إلى مجموعات صغيرة حولها. فإذا أرسلوا من أجل الفتاة ما لا يزيد عن عشرة جنود فإن بمقدور أرسوس العملاق أن يقضي عليهم، فكيف إن كان فينيكوس قد انضم اليهم.
وفكر أيضا أنه إذا ما استطاع فينيكوس أن ينجو بجلده من نقمة القيصر، فإن هذه النقمة ستتحول اليه، لكنه لم يكترث لهذا الأمر.
وبدخول يونيكي انبت شريط أفكاره، وتلاشى، لمرآه الفتاة، ما أثقل كاهله من أعباء وشجون. نسي القيصر وأذاه، والاوغستيان وملاحقة المسيحيين، وفينيكوس، وليفيا، و لم ير الا الفتاة بعين الناقد الجمالي الخبير،

وبعين المحب الذي يغمره هذا المشهد بالحب الدفاق. كان جسد الفتاة الوردي اللون يشف تحت ردائها البنفسجي الشفاف، فبدت رائعة الجمال كالهة. شعرت أنها محط إعجاب الجميع ودهشتهم، ولكن بما أنها أحبت بترونيوس من أعماق روحها، وكانت في شوق دائم إلى ما يمنحها من دلال، فقد احمرت خجلا كأنها ليست عشيقة له، بل فتاة بمنتهى البراءة.

سالها بترونيوس باسطا ذراعيه نحوها:

ـ ما الجميل الذي جئتنا به يا كاريس؟

فأجابت مائلة برأسها الناعم نحوه:

ـ سيدي، ها هو ذا أنسميوس والمغنون، وهو يسال إذا ما كانت لديك رغبة في سماعه؟

ـ دعيه يتريث. بعد الغداء سيغني لنا نشيد أبوللو. سوف نسمع نشيد أبوللو رغم الأنقاض والرماد في كل مكان. كأني أراك في غابات باخوس حيث تُعبد أفروديت. لو كنت ترتدي ثياب كوفستيس لظننت أن أفروديت قد تبدت لي في السماء.

خجلت يونيكي قائلة:

ـ لا يا سيدي!

ـ تعالي يا يونيكي وعانقيني، وهاتي فمك، هل تحبينني؟

ـ لا أحب زيوس أكثر مما أحبك.

وارتعشت بين ذراعيه من فرط سعادتها صاهرة شفتيها بفمه.

لكن بترونيوس قال بعد هذا العناق:

ـ ماذا لو كان علينا الانفصال عن بعض؟

حدقت يونيكي في عينيه جزعة:

ـ كيف يا سيدي؟

ـ لا تجزعي!... كما تعرفين، من يدري إن كان علي أن أذهب في رحلة طويلة؟

ـ خذني معك؟

لكن بترونيوس سرعان ما بدل في مادة الحديث لها:

ـ قولي، هل رأيت في مرج الحديقة أزهار أسفودلوس؟

ـ لقد ذبلت الصنوبرات والمرج بتأثير الحريق. وتساقطت أوراق الأس، والحديقة كلها جنة ميتة.

ـ روما كلها جثة هامدة. وقريبا ستتحول إلى مقبرة أتعلمين بأنهم سيصدرون أمرا ضد المسيحيين، ويلاحقونهم. وعندها سينفى الاف، والاف من البشر؟

ـ ولم يريدون الحاق التهم بهم، رغم أنهم بشر هادئون، وطيبون؟

ـ لأنهم كذلك..

ـ فلنذهب إذن إلى البحر، لأن عينيك الالهيتين لا تحبان أن تريا الدم.

ـ حسنا، لكن علي الان أن أستحم. تعالي إلى الحمام، وادهني ذراعي بحق الالهة! لم آرك بمثل هذا الجمال من قبل. سأجلب لك مغطسا على هيئة محارة ، لتكوني أنت اللؤلؤة في داخلها... تعالي يا يونيكي الذهبية الشعر.

وذهبا وبعد مضي ساعة من الزمن عادا، وعلى رأس كل منهما إكليل من الورد، وجلسا حول مائدة مليئة بالصحون المذهبة.

قدم الطعام شبان أنيقو الهندام، وسكب النبيذ من أباريق مغلفة بالمخمل، واستمعا إلى نشيد أبوللو من الفرقة الموسيقية بقيادة انسميوس، لم يكترثا بالدخان والانقاض حول الفيلا، ولا بالرماد وشرر النيران التي

تحملها الرياح قادمة من روما. لم يحفلا الا بالحب الذي حول حياتيهما إلى ما يشبه حلما الهيا.
لكن قبل أن يبلغ النشيد نهايته، جاء كبير الخدم، إلى القاعة، ليقول بصوت مرتعش:
ـ سيدي قائد مئة على رأس فصيل من الحرس أمام المدخل يريد التحدث معك بأمر من القيصر ، توقف العزف والغناء، وعم الاضطراب الجميع، لأن القيصر في العادة، لا يلجأ إلى الحرس الامبراطوري في التعامل مع أصدقائه. توجس الجميع شرا. بترونيوس وحده لم يبد ملمحا من قلق، وأجاب بنبرة من يضجره الازعاج الدائم:
حبذا لو تدعني أكمل غدائي بهدوء.
ثم التفت إلى كبير الخدم قائلا:
ـ أدخلهم
توارى الخادم وراء الستارة، وسرعان ما سمع وقع خطوات ثقيلة، ودخل إلى القاعة أحد معارف بترونيوس وهو قائد المئة أبر بلباسه المدرع والخوذة على رأسه.
بادر قائلا:
ـ سيدي النبيل! اليك برسالة من القيصر.
بسط بترونيوس كفه البيضاء بتكاسل، وتناول اللفائف، القي نظرة عليها وناولها ليونيكي قائلا:
ـ في المساء سيغني أغنيات جديدة من نشيد طروادة يدعوني للذهاب
ـ مهمتي تقتصر على تسليمك الرسالة.
ـ حسنا. لا جواب. لكن استرح قليلا أيها القائد، وتناول قدحا معنا.
ـ شكرا يا سيدي النبيل. بوسعي تناول قدح من النبيذ، لكني لن أجلس لأني في مهمة.
ـ و لِمَ كلفوك بالرسالة، و لم يرسلوها مع أحد الأرقاء؟
ـ لا أدري يا سيدي، لكن قد يكون لي مهمة أخرى علي أن أنجزها.
علق بترونيوس قائلا:
ـ أعلم، ضد المسيحيين.
ـ أجل يا سيدي.
ـ هل باشروا بالملاحقة؟
ـ منذ الظهيرة أرسلوا بعض الفصائل إلى ترانسبيريس ارتشف جرعة من قدح النبيذ نخب مارس، ثم اجترعه بكامله قائلا:
ـ لتحقق لك الالهة يا سيدي، ما أنت راغب فيه.
فشجعه بترونيوس مخاطبا إياه:
ـ أبق القدح لك.
وأشار إلى أنسميوس أن يكمل غناء نشيد أبوللو. قال في نفسه حين استأنفت الفرقة العزف:
"بدأ صاحب اللحية الحمراء يستفزني، أنا وفينيكوس. أخمن ما يرمي اليه! أراد أن يفزعني فأرسل الرسالة مع قائد المئة. في المساء سوف يسالون قائد المئة عن الحالة التي استقبلت فيها القائد. لا، لا! لن تكون مسرورا أيها المهرج الشرير الجائر. أعلم أنك لن تنسى أذاي، أعلم أنني لن أنجو، ولكن إن كنت تعتقد أنني سأتضرع اليك، وتقرأ على وجهي علائم التذلل والجزع فأنت مخطئ كثيرا".
قالت يونيكي:
ـ يكتب القيصر: "تعالا، إن كانت لديكما رغبة في ذلك". هل ستذهب يا سيدي؟
فأجاب بترونيوس:

ـ أنا في حالة من روعة المزاج تجعلني قادرا على سماع حتى أشعاره. سأذهب إذن، ما دام ليس بوسع فينيكوس الذهاب. وبعد الغداء والنزهة المعتادة ترك نفسه للنسوة الخادمات أن يعتنين بشعره، ثم لفتيات أخريات بالعناية بملابسه، ثم بعد ساعة من الزمن توجه إلى البالاتينوس بكامل أناقته. كان الوقت قد تقدم، فكان المساء حارا، والقمر شديد الاضاءة حتى لم يكن هنالك من حاجة للمشاعل أمام الهودج فأطفؤوها.
كانت الشوارع ملأى بالسكارى يتمايلون جماعات بين الأنقاض، حاملين أغصان الآس، والغار المقتطفة من الحدائق القيصرية كان الناس سعداء وقلوبهم مغمورة بالفرح بسبب السخاء في توزيع القمح، وأملهم في إقامة العاب السيرك الموعودة.
كانت الاغاني تصدح في أماكن من المدينة تمجيدا للحب، وهذه "الليلة الالهية" ، وفي أماكن أخرى كانوا يرقصون تحت ضوء القمر حتى اضطر الأرقاء أن يصيحوا في كثير من الأحيان: "أوسعوا الطريق لهودج بترونيوس النبيل" ، وكانت حشود الناس تتنحى أمامه محيية" المحبوب"بصوت عال.
أما هو فكان يفكر بفينيكوس، مستغربا عدم ورود أي نبأ منه.
كان شخصا أبيقوريا، وأنانيا، الا أنه نتيجة لسماعه أحاديث بولس الترسوسي، وفينيكوس اليومية معه، قد اعتراه تغير نوعي دون أن يدري. صار يلتفت لأمر للآخرين، ولا يقتصر على الاهتمام لشؤونه الخاصة.
أما فينيكوس فقد كان حالة خاصة بالنسبة اليه، فقد تعلق به على الدوام، وأحب أم الشاب، كأخت صغرى له حبا بالغا، ولكنه بعد أن عايش شؤون الفتى صار ينظر اليها نظرة مأساوية.
كان يأمل بكل جوارحه أن يفلح فينيكوس في الوصول إلى ليفيا قبل جنود الحرس، ويهرب بها، أو في أسوأ الأحوال، أن يتمكن من تحريرها منهم ولو بالقوة.
ببلوغه منزل تيبريوس ترجل من الهودج، ودخل إلى الأتريوم، الذي كان مكتظا بالاوغستيان.. استغرب "أصدقاء الأمس" أنه مدعو الان فانكمشوا عنه، لكنه انخرط بينهم بكل برود لا مباليا بأحد منهم، مبديا استعلاء وترفعا كأنه هو المتفضل الاول هنا، ولا أحد سواه. حين لاحظ البعض ذلك، ارتبكوا لأنهم لم يعلنوا قبل الان موقفهم الحيادي تجاهه.
أما القيصر فقد تصرف وكأنه لم يره بعد، حتى أنه لم يرد انحناءته، لأنه تصنع الانشغال بالحديث، وعلى النقيض من ذلك تقدم منه تيفالنيوس وخاطبه قائلا:
ـ مساء الخير يا ملك الذوق! أما زلت تزعم أن من أحرق روما ليس المسيحيون؟
هز بترونيوس كتفه ورد راغبا في إفحامه.
ـ لكنك تعلم جيدا، مثلي، كيف نتحفظ على هذه القضية.
ـ لا أجرؤ أن أقارن نفسي بما تتمتع به من حكمة.
ـ أنت محق في ذلك. وسيحصل العكس فيما لو قرألنا القيصر قصيدته الطروادية الجديدة. فبدلا من أن تختال كالطاووس قد نسمع منك رأيا سليما وحصينا.
عض تيفالنيوس شفته. لم يكن مسرورا لاعتزام القيصر اليوم قراءة أغنية جديدة، لأنه سينقاد إلى منافسة خاسرة مع بترونيوس. وهذا ما حصل فعلا، ففي أثناء قراءة نيرون قصيدته كان يتلفت بعينيه إلى بترونيوس ليقرأ ما يرتسم على وجهه من تعابير.
أما بترونيوس فكان يصغي مطبقا جفونه، محنيا رأسه إعجابا حينا، مركزا انتباهه ليسمع الكلمات جيدا أحيانا أخرى، مطريا على بعض المقاطع، منتقدا بعضها الآخر، ناصحا بتصحيح ما يتضمن هذا السطر أو ذاك من نشاز واضح. ولقد لاحظ نيرون من المبالغة في إطراء الاخرين أنهم يرومون منفعتهم الخاصة، ووحده بترونيوس من كان يهتم بالشعر، للشعر بذاته، وحده من يفهم في هذه المسالة، وإذا ما أطرى على جانب، فهو يستحق ذلك الاطراء بالفعل. وشيئا فشيئاً تطور الحديث، واشتد النقاش بينهما، وحين، أخر

الأمر شكك بترونيوس في جودة أحد التعابير، رد نيرون قائلا:
- سترى عند المقطع الأخير من القصيدة لم استخدمت هذا التعبير بالذات.
ففكر بترونيوس قائلا في داخله:
- آه سأبلغ إذن المقطع الأخير
فيما خطر لكل من الحضور: "ويلي، إن كان بترونيوس قد كسب فرصة من الوقت، فمن المحتمل أن يفوز برأفة القيصر، وهذا قد يؤهله للفوز على تيفالنيوس.
وراحوا يتحلقون حوله. لكن نهاية الأمسية كانت على درجة أقل من سعود الحظ، لأن القيصر ما إن قام بترونيوس بوداعه، وسأله بجهامة متوعدة:
- و فينيكوس لم لم يأت معك؟
لو كان بترونيوس يعلم أن فينيكوس وليفيا قد تخطيا مدخل المدينة لكان جوابه بكل بساطة: "عفوك، لقد تزوج وسافر". ولكنه لاحظ ابتسامة نيرون الغريبة فقال:
- لم يكن في المنزل حين وصلت دعوتك، أيها القيصر الالهي
فأجاب نيرون:
- قل له أنني سأكون سعيدا لرؤيته، لكي لا يفوت عليه فرصة العاب السيرك التي يحييها المسيحيون.
أقلقت بترونيوس هذه العبارات، لأنه شعر أنها تمس ليفيا مباشرة. جلس في هودجه و أسرع نحو البيت. لكن إسراعه لم يكن سهلا لأن حشدا كبيرة قد تجمع أمام منزل تيبريوس كانوا سكارى كما من قبل، لكنهم لم يكونوا يغنون أو يرقصون ولكنهم كانوا أقرب إلى الشجار. تناهى إلى سمع بترونيوس أصوات لم يفهمها من بعيد، لكنها اشتدت شيئا فشيئا باقترابه منها فكانت جأرات وحشية تقول:
- اقذفوا بالمسيحيين للأسود.
تقدمت هوادج الحاشية البلاطية الفخمة بين حشود الرعاع الصارخة. فيما كانت جموع أخرى تتدفق من أعماق الشوارع المحترقة، لتنضم إلى المحتشدين أمام المنزل، وينصهر الجميع في صرخة واحدة.
شاع على الألسنة نبأ يفيد بأن عملية ملاحقة المسيحيين تجري منذ الظهيرة، وقد نجحوا بالقبض على بعض من متسببي حريق المدينة. وكانت الصرخات قد انتشرت في كل المدينة طولا وعرضا، لتشمل الشوارع والأزقة، والتلال، والحدائق:
- اقذفوا بالمسيحيين أمام الأسود.
ردد بترونيوس باحتقار:
- رعاع! الشعب على شاكلة قيصره.
وسرح يفكر بأن العالم القائم على العنف، والجور، وارتكاب الافعال الشريرة، لا يمكن أن يستمر طويلا. روما سيدة العالم لكنها في الآن نفسه، دملة العالم التي تفوح منها رائحة الجثث.. لقد خيم الموت بظلاله على فساد الحياة، وذلك غالبا ما كان يدور على السنة الاوغستيان، لكنها حقيقة ما كانت لتتجلي أمام عيني بترونيوس مثل انجلائها الآن، وإن العربة المكللة بأقواس النصر، وتقودها روما كمحارب عظيم، جارة وراءها الأقوام المكبلة بالسلاسل، إنما تعدو إلى حتفها. إن حياه هذه المدينة السيدة حياة مستهترة لاهية، ماجنة يمارسها على نحو وحشي مخابيل بلاطيون لا يرعوون، هم الذين يدفعون بها إلى نهايتها المحتومة.
صار مدركا الان أن للمسيحيين أسسا حياتية لكنهم لن يتمكنوا من الاستمرار.
فما الذي سيحصل إذن؟
إن مسيرة المهرجين الماجنة يقودها نيرون، فإن ذهب نيرون يأتي غيره، وقد يكون أسوا منه لأن ما من سبب يدفع مثل هذا الشعب، أن يأتي بالافضل من بين حاشية كهذه.. وهكذا تتوالى طقوس الحياة العربيدة،

وعلى نحو أكثر قذارة، ووحشية.
لكن للعربدة نهاية، ولا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية، فالمعربدون يحتاجون إلى النوم أيضا بعد الانهاك الشديد.
حين فكر بذلك شعر أنه شديد التعب. هل من الجدير أن يعيش المرء، يا ترى، وفي خضم من الالتباس والشك، فقط ليشهد مثل هذا النظام للعالم؟ اليس للموت أيضا روح حارسة بجناحين، وفيه من الجمال ما يشبه الحلم؟
توقف الهودج عند مدخل المنزل الذي قام بفتحه البواب اليقظ حالا، فبادر بترونيوس إلى سؤاله:
ـ هل عاد فينيكوس النبيل؟
ـ لتوه يا سيدي
فكر بترونيوس: "فهو إذن لم يستطع تحريرها"
القي بردائه و أسرع نحو الأتريوم. كان فينيكوس جالسا على كرسي ذات أربع قوائم، محنيا رأسه حتى ركبتيه، عاقدا يديه فوق رأسه، فتنبه على وقع الخطوات، ورفع وجها جهما برقت منه عينان قانطتان:
فسأله بترونيوس
ـ هل تأخرت في الوصول اليها؟
ـ أجل، لأنهم قبضوا عليها قبل الظهر.
ساد صمت لحظي
ـ هل رأيتها؟
ـ أجل
ـ أين هي؟
ـ في سجن مامرتينوس
ارتعش بترونيوس، ورنا إلى فينيكوس بنظرة متسائلة، ففهمها الشاب.
ـ لا. لم يدفعوا بها إلى توليانوم، ولا حتى إلى السجن الأوسط. لقد رشوت الحارس بأن يعطيها غرفته الخاصة. نام ارسوس على العتبة، حرصا عليها.
ـ وكيف لم يقم أرسوس بالدفاع عنها؟
ـ أرسلوا اليها خمسين جنديا. ولقد منعه لنيوس من المقاومة.
ـ وماذا حل ب لنيوس؟
ـ على حافة الموت، ولذا لم يعتقلوه
ـ وماذا تنوي أن تفعله؟
ـ سأنقذها أو نموت معا. أنا أيضا أؤمن بالمسيح.
كان فينيكوس ظاهريا يتكلم بهدوء، ورباطة جأش، لكن في نبرة صوته ما يمزق القلب، فاهتز بترونيوس إشفاقا، فقال:
ـ أفهمك. لكن كيف ستنقذها؟
ـ رشوت الحراس، ليجنبوها أولا التعذيب والمعاملة الخشنة، ثم ليسهلوا عملية فرارها.
ـ ومتى ستفعل ذلك؟
ـ قالوا لي أنهم لا يستطيعون الان أن يطلقوها خوفا من المسؤولية، لكن إذا ما امتلأت السجون، وصار من المتعذر تسجيل أسماء المعتقلين في اضابير ، فسوف يطلقون سراحها. لكنها المرحلة الاخيرة. اسع أنت أولا على إنقاذها.

إنك صديق القيصر، وهو الذي سمح بزواجي منها. أذهب اليه وأنقذها!
وبدلا من الاجابة، استدعي بترونيوس خادما، وطلب إحضار عباءتين، وسيفين، ثم التفت إلى فينيكوس قائلا:
ـ في الطريق ستعرف. ارتد الان العباءة، واقبض على السلاح، ودعنا نذهب إلى السجن. ادفع للحراس مئة الف سستيريوس بل ضعف ذلك، أو خمسة أضعافه، لكي يطلقوا ليفيا في الحال، والا فسوف نتأخر.
ـ هيا.
وخلال لحظة كانا في الشارع. فسأله بترونيوس:
ـ والان اسمعني، لم أكن أريد إضاعة الوقت. أنا فقدت حظوتي لدى القيصر، وصارت حياتي على شفا هاوية، فلا أستطيع توسل شفاعة القيصر. بل على العكس من ذلك، أنا على يقين أنه سيفعل نقيض ما أطلبه. ولو لم يكن الأمر كذلك أتظن أنني سأنصحك بالفرار بليفيا، والعمل على تحريرها بالقوة؟ لا سيما وأن القيصر، بعد فرارك أنت، سيتوجه بغضبه نحوي. اسع الان إلى تحريرها. وإن لم تنجح الخطة، فسترى ماذا سنفعل. لكن تذكر أنهم لم يعتقلوا ليفيا لأنها مسيحية. فالذي يلاحقها ويلاحقك هو غضب بوبيا. تذكر ما سببت لها من تجريح، حين رفضتها. هي تدري أنك فعلت ذلك لأجل ليفيا، التي كرهتها منذ اللحظة الأولى. خاصة وأنها ادعت أنها من سحر ابنتها وتسبب في موتها. والا ما الذي يفسر أن ليفيا كانت أول من اعتقلت؟ من الذي دل على منزل لنيوس؟ أزعم أنهم أطلقوا جواسيسهم منذ زمن لمعرفة ذلك. أعرف أنني أدمي روحك، وأطيح ما تبقى لك من آمال، لكن أقول ذلك، لأنك إن لم تتمكن من تحريرها قبل أن يعرفوا ما تنوي فعله، فإني سأفقد كليكما.
فأجاب فينيكوس بتبلد:
ـ حسنا. فهمت.
تأخر الوقت. كانت الشوارع خالية، لكن حدثيهما أربكه مصارع ثمل يترنح سائرا في الاتجاه المعاكس. استند براحته على كتف بترونيوس، وصرح بصوت أجش لتملأ أنفاسه المخمورة الانوف:
ـ اقذفوا بالمسيحيين إلى أمام الأسود.
فقال له بترونيوس بهدوء:
ـ اخرس. الزم حدودك، وانصرف
أمسك السكير بيده الاخرى ذراع بترونيوس قائلا:
ـ اصرخ معي، والا سادق عنقك هاتوا المسيحيين إلى أمام الأسود
كان بترونيوس قد طفح به الكيل من سماعه هذه العبارة، وحين رأي قبضة العملاق فوق كتفه فرغ صبره تماما، فقال:
ـ صديقي، رائحتك كريهة بسبب النبيذ، وإنك تقف في طريقي.
وامتشق سيفه القصير وطعن به صدر المجالد. ثم كأن شيئا لم يكن لف عنق فينيكوس وتابعا حديثهما.
. قال لي القيصر" قل لفينيكوس أن يأتي لحضور الالعاب التي سيشيدها المسيحيون". تفهم معنى ذلك، يريدون أن يتلذذوا بتعذيبك. إنها خطة مبيتة، جعلتهم لا يقومون باعتقالك، ولا باعتقالي. إن لم تفلح بتحريرها على الفور،... إذن... لا أدري... قد ترفع أكتي صوتها من أجلك، لكن هل يفيد ذلك في شيء؟ أملاكك في سيسيليا قد تغري تيفالنيوس حاول.
ـ سأعطيه كل شيء
لم تكن كارينا بعيدة عن الفوروم، فسرعان ماوصلا. كان المساء قد حل، وجدران القلعة ارتسمت في غبش الفجر بكل وضوح وحين انعطفا نحو سجن مامر تينوس توقف بترونيوس فجاة وقال:

ـ جنود! لقد تأخرنا.
حاصر السجن صفان من الجند، كان خوذاتهم تلمع مطلية بلون الفجر الفضي. وأضحى وجه فينيكوس أبيض كالرخام فقال:
ـ هيا بنا
وبعد لحظة كانا يقفان أمام صف الجند. كان بترونيوس يتمتع.بذاكرة حادة، فلم يقتصر معرفته على كبار الضباط، بل على كثير من الجند كذلك، فعرف هناك آمر الكتيبة، فأشار له أن يأتي اليه وسأله:
ـ ما الذي يجري هنا أيها الزنجي؟ أنتم من يحرس السجن؟
ـ أجل يا سيدي النبيل، حرصا من القائد لكي لا يطلق سراح من أحرقوا المدينة.
فسأله فينيكوس:
ـ الديكم أوامر بعدم السماح بدخول أحد؟
ـ لا ياسيدي سوف يسمح بزيارة المساجين من قبل معارفهم، وهكذا نقبض على عدد أكبر من المسيحيين.
ـ أدخلني إذن
وهمس في أذن بترونيوس ضاغطا على يده:
ـ تحدث مع أكتي، وفيما بعد سأذهب وأسال ما الذي قالته:
فأجابه بترونيوس
ـ تعال
وفي هذه الحظة بدأ الغناء تحت الأرض، ومن خلف الجدران السميكة. بدأ اللحن خفيفا في البداية، ثم تعالى متجاوزا خفته، لتتصهر أصوات الرجال، والنساء والأطفال إلى صوت فرقة كورالية واحدة. كان كل ما في السجن يصدح عند الفجر، دون أن تشوب
الأصوات مسحة من شكوى أو قنوط، بل كانت تتدفق مليئة بالسعادة والفخر.
حدق الجنود ببعضهم وقد أصابهم الذهول. في حين كان لون الشفق يملا السماء والكون.

شيئاً فشيئاً تصاعدت في كل أنحاء روما صيحة "هاتوا بالمسيحيين إلى أمام الأسود".
في اللحظات الأولى لم يكن ليخالج أحدا الشك في أن أولئك هم الذين أحرقوا المدينة، لأن ما من أحد بينهم كان لديه الرغبة في أن ينخر الشك رأسه، فالتهمة بحد ذاتها، تعني مزيدا من الاستمتاع الشعبي، إضافة إلى قناعة الشعب، بأن غضب الالهة قد لعب دورا كبيرا في إحداث الحريق، ولولاها لما حصل أصلا، الأمر الذي دفع الجميع إلى تقديم القرابين في المعابد. مجلس الشيوخ نفسه، تماشيا مع نصيحة اسفار سيبيلا أقام الاحتفالات، والصلوات المفتوحة تبجيلا لفولكانوس، و سيريس و بروسربينا. والنساء الماترونات قدمن القرابين للالهة يونو وسرن في موكب مهيب إلى شاطئ البحر، يغرفن من مائه لرشه على تمثال الآلهة. والنسوة المتزوجات أقمن المآدب إكراما للالهة، ونظمن السهرات. روما بأسرها هبت للتطهر من آثامها، فقدمت الأضاحي، وسارعت إلى استرضاء الخالدين. وفي الآن نفسه في وسط الأنقاض والرماد، كانت توضع المخططات لتنظيم الشوارع الجديدة العريضة. حتى أن أساسات بعض الأبنية الفخمة، والقصور، والمعابد قد أقيمت هنا وهناك.
وقبل كل شيء، وبالسرعة القصوى، أنشئت المدرجات الخشبية العملاقة، و الميادين المستقبلية لتعذيب المسيحيين. وبعد المشاورات التي أجريت في منزل تيبريوس عمد حالا إلى إصدار الأوامر لاستجلاب الوحوش. وقام تيفالنيوس بنهب مرابي كافة المدن الإيطالية دون أن يستثني حتى صغريات المدن منها. وبأوامر منه نظمت فرق صيد ضخمة انتشرت في أفريقيا، وفرض على كافة السكان الأصليين المشاركة فيها.
واستجلبت من آسيا الفيلة، والنمور، ومن بلاد النيل أحصنة الماء، والتماسيح، ومن جبال الأطلس الأسود، ومن البلاد الإيبيرية الذئاب، والدببة، ومن إيرلاندا كلاب الدموم، وكلاب الصيد، ومن جرمانيا الجواميس الوحشية وثيران البيسون العملاقة. ونظرا لأعداد المعتقلين الهائلة، كان لا بد للالعاب المرتقبة أن تفوق بما لا يقاس كل ما سبقها من العاب سيرك، فقرر القيصر أن يخمد ذكرى الحريق بالدم، ويطفئ به ظما روما. فلم يشهد الزمن إذن إراقة دماء أكثر هولاً من ذلك الان.
قام الشعب الهائج بمساعدة الحرس الامبراطوري، ورجال الأمن بالقبض على المسيحيين. لم يكن الأمر عسيرا، لأن مجموعات المسيحيين كانت تقيم بين جموع الشعب في الحدائق، ويجهرون علنا بدينهم. كانوا إذا ما أحاط بهم الجند لاعتقالهم، جثوا راكعين، وراحوا يبتهلون مستسلمين للجنود دون مقاومة. كان صبرهم يفاقم عليهم نقمة الشعب الذي يجهل مصدر هذا الصبر، رأى فيه عنادا، وضلوعا في الذنب. فكان من الرعاع، مدفوعين بشدة الحقد، أن يقدموا على انتزاع المسيحيين من أيدي الجند، ويمزقوهم إربا.
النساء تجر من شعورهن إلى السجن، والأطفال تسحل رؤوسهم فوق الحجارة. الاف مؤلفة من البشر كانوا يصرخون في الشوارع ليل نهار باحثين عن فرائسهم بين الأنقاض والرماد، وفي المداخن والسراديب. وكانوا يتجمعون أمام السجون يؤدون شعائر الرقص الباخوسي متحلقين حول النار ودنان النبيذ، ويصغون باستمتاع كل مساء إلى جئير الوحوش الهادر الذي ملأ صداه كافة أرجاء المدينة.
اكتظت السجون بالاف العبيد، وما انفك الرعاع والجنود يحضرون ضحاياهم الجديدة كل يوم.
انتفت الرأفة، والناس كأنما قد نسوا الكلام، فلم يعد يجيء على السنتهم الا عبارة واحدة "القوا المسيحيين أمام الأسود" كانت أيام حامية، مرعبة غريبة، وليال خانقه لم تعهد من قبل.
كأن الهواء قد عبق بالعربدة والدم، والشر. امتزجت القسوة بالرغبة في إراقة الدماء، فأقدم أتباع المسيح تلقائيا إلى الموت، لا بل راحوا يبحثون عنه بأنفسهم، ما دام قادتهم لم يحرموه عليهم. صاروا يقتصرون على التجمع خارج المدينة في المغاور، والسراديب على طول فيا أبيا، وشيوخهم في حقول الكرمة في

أرياف المدينة. لم يقبض على أحد من القادة بعد. وصار معلوما أن بومبونيا و فلافيوس و دوميتيلا، فينيكوس من أتباع المسيح. أما القيصر الذي لم يثق بأن الرعاع سوف تنطلي عليهم الاشاعة بأن المسيحيين هم من أحرقوا المدينة، كان يهمه الان إقناع الشعب بالدرجة الأولى، فقد أجل عقوبة أولئك إلى الايام القادمة. انتشر نبأ يقول بأن تدخل أكتي هو الذي أنقذ أولئك. ولقد تكشف خطأ هذا الرأي. فحين غادر بترونيوس فينيكوس، توجه من فوره إلى أكتي لتشفع في إنقاذ ليفيا فقابلت طلبه بالدموع.

لكنها زارت ليفيا في سجنها، وحملت لها الثياب، والطعام، وأوصت بعدم معاملتها بخشونة.

أما بترونيوس فلم يغب عن باله أنه لولا تدخله السابق بشأن ليفيا، واقتراحه بإبعادها عن منزل أولوس، لما كانت الفتاة الان في السجن. بعد مرور أيام كلم سينكا، و آفردمتيوس وكريسبينيلا، ليصل إلى بوبيا عن طريقهم. ثم كلم كلا من تبربنوس وديودور وبيثاغوراس الجميلة، وباريس الذين لا يرفض لهم القيصر طلبا.

حتى أنه سعى لطلب العون من كريسوثميس عشيقة فاتينيوس الان. وكان لا يتوانى في كل مرة عن عرض الأموال. والهبات من كل نوع.

لكن كل مساعيه باءت بالفشل. سينكا الذي كان يجهل حتى مصيره بالذات، راح يوضح له أنه حتى لو لم يكن المسيحيون هم الذين أقدموا على حرق روما، ينبغي القضاء عليهم، لأن مصلحة الدولة تقتضي ذلك. ديودورم وتربنوس أخذا المال دون أن يفعلا شيئًا. فاتينيوس أخبر القيصر بأنهم حاولوا رشوته. وحده اليتوروس الذي كان عدوا للمسيحيين في البداية، لكنه أشفق عليهم الان، وعد بأن يتشجع ويكلم القيصر بشأن الفتاة، لكنه لم يحقق شيئًا لأن القيصر أجابه على النحو التالي:

أتظن أن لي نفسا أرخص من نفس بروتوس الذي لم يستشن حتى ابناءه فداء لروما؟

وبسماع بترونيوس هذه الاجابة علق قائلًا:

- ما دام قد شبه نفسه ببروتوس، فلا منجاة إذن.

لكنه أشفق على فينيكوس، وخشي أن يدفع بحياته من أجل الفتاة. قال في نفسه "سيحاول إنقاذها بكل الوسائل، وعندما يخبو كل أمل لديه، سوف يلجأ إلى طعنها بسيفه".

كان بترونيوس يدرك أن بوسع المرء أن ينهي حياته، مثلما بوسعه أن يحب أحدا.

في أثناء ذلك فعل فينيكوس كل ما بوسعه لإنقاذ ليفيا، فقصد هو الاخر الاوغستيان، وتوسل اليهم واحدا بعد آخر. فعرض على تيفالنيوس عن طريق فيتاليوس كل أملاكه في سيسيليا، وكل شيء يريده. لكن تيفالنيوس لم يشأ أن يسجل على نفسه واحدة أمام فيتاليوس فرفض العرض. وأن يذهب إلى القيصر ويركع أمام قدميه متضرعا، كان أمرا لا فائدة فيه.

ومع ذلك كان سيقدم عليه لولا أن سأله بترونيوس:

وما الذي ستفعله إذا ما رفض، أو هزأ منك، أو لجأ إلى تهديدك بحقارة؟

ارتسمت على وجه فينيكوس ملامح غضب متوجع، وسمع صرير أسنانه.

أردف بترونيوس قائلا:

- لا أنصحك بذلك. عليك أن تنسى كل محاولة لإنقاذها. لكن فينيكوس كبح جماح نفسه، ومسح عرقه البارد عن جبينه وقال:

- لا الا! أنا مسيحي!

- تجنب ذلك. لك الحق أن تغامر بنفسك، لكن بها لا. لا تنسى ما الذي حصل لابنة سيانوس قبل أن تموت.

لم يكن كلامه صادقا كل الصدق، لأن فينيكوس أهم عنده من ليفيا. لكنه أدرك أن لا شيء يمكن أن يردعه عن القيام بهذه المغامرة، الا بإظهار مدى خطورتها على حياة ليفيا. وكان محقا في ذلك، لأن ظهور

فينيكوس في البالاتينوس كان منتظرا من قبل الجميع هناك، وقد اتخذت كافة الاجراءات لاعتقاله.
لكن أوجاع فينيكوس قد تخطت كل حد يتحمله إنسان. فمنذ أن أودعت ليفيا السجن، وصارت حياتها مهددة، تضاعف حبه لها، وأحاطها في نفسه، باحترام ديني حقيقي، كمخلوق من خارج الأرض.
والان، حين خطر له أنه إذا ما افتقد هذا المخلوق القدسي، المعبود، وأن ليفيا، قد تتعرض لأنواع العذاب، الاقسي من الموت، تجمد الدم في عروقه، وتفجعت روحه، واضطربت أحاسيسه. أحيانا كان يشعر بأن نارا حية تملأ جمجمته، وتلهب رأسه. لم يعد يفهم ما الذي يحصل لم يفهم كيف أن المسيح، الاله الرحوم، لا يأتي لمساعدته، وكيف لا تتقوض جدران البالاتينوس وتتمسح عن وجه الأرض، ومعها نيرون، والاوغستيان، والحرس الامبراطوري، والمدينة الشريرة بكل ما فيها. وشعر أن كل ما يجري محض أحلام. لكن جئير الوحوش في الميادين يقول إنها حقيقة يعززها صراخ الشعب، وامتلاء السجون.
تزعزع إيمانه بالمسيح، وكان شعورا أوقعه في أوجاع وعذابات أكثر قسوة.
في أثناء ذلك كرر بترونيوس ما قاله:
ـ لا تنس ما الذي حصل لابنة سيانوس قبل أن تموت.

أفلست كافة مساعيه. بلغ به الأمر أن يتنازل بطلب المساعدة حتى من معاتيق بوبيا والقيصر وأرقائهم، ودفع لهم الكثير لقاء وعودهم الفارغة، وغمرهم بهباته السخيّة، مقابل الفوز بمساعيهم الطيبة. واتصل بزوج أوغستا الاول روفينوس كريسينوس، ووعده بتقديم قصره في الأنتيوم هديّة لابنه البكر من بوبيا، فانتزع منه رسالة موجهة إلى القيصر لكنها فاقمت من غضب نيرون لشدة كرهه لابن زوجته. فأرسل رسالة نقلها فارس خاص إلى هيسبانيا حيث يقيم أوتو الزوج الثاني لبوبيا، ووعده بكل ما يملك من ثروة، وحتى بالتضحية بنفسه، إلى أن اكتشف أخيرا أن الجميع يتلاعبون به. ولو أنه ادعى أن اعتقال ليفيا لا يهمه كثيرا، لكان تمكن من تحريرها بسهولة أكبر.

وتنبه إلى الأمر بترونيوس أيضًا. لكن الايام كانت تمضي يوما وراء يوم في أثناء ذلك. كانت المدرجات الخشبيّة قد أقيمت، ووزعت بطاقات الدخول إلى عروض ما قبل الظهيرة. لكن هذه الألعاب"الصباحيّة" بالنظر إلى الاعداد الهائلة للضحايا، كان يمكن أن تدوم لأيام، وأسابيع، وربما لأشهر. ضاقت السجون والاماكن بالمسيحيين، فلم يعرف أين يحشرونهم. عمت الحمى بين المعتقلين، وكثر الاموات فسارعوا إلى دفنهم في مقابر جماعيّة خشيّة أن تعم الأوبئة أنحاء المدينة.

طارت الانباء وقرعت سمع فينيكوس، فأطفأت كل جذوة من أمل في نفسه. فات الاوان، وبدأت العاب السيرك، ولم يعد بالامكان متابعة مصير ليفيا الا في الذهاب إلى الميدان، بصرف النظر عن المكان والزمان اللذين سيحددان مصير الفتاة. دار فينيكوس على كافة الميادين، وأخذ يرشو الحراس، وسائسي الوحوش الذين ما كان بوسعهم الا أن يرفضوا طلباته التعجيزيّة. فقاده تفكيره إلى التنازل عن مثل هذه الطلبات المستحيلة، وتأمين ميتة أهون للفتاة. لكنه ما إن تمعن في الأمر، حتى أحس بجمرة من نار تلهب دماغه.

لم يرغب في التخلي عنها، فعقد العزم على الموت سويا معها. كان يشعر أن ما به من وجع سوف يتلف حياته، قبل أن يبلغ تلك اللحظة المصيريّة. لم يعد لديه من حيلة. فصلي للمسيح آخر رجاء له. لن تنجو ليفيا الا بمعجزة، فراح يصلي لحصول تلك المعجزة، وهو يضرب رأسه ببلاط الأرضيّة.

لكنه كان يملك بقيّة من وعي مكنته أن يرى أن صلاة بطرس أهم من صلاته. بطرس هو من وعده بأن ليفيا له. بطرس هو من عمده. بطرس هو من فعل المعجزات، فليهرع إذن لنجدته.

مضت ليلة حتى عثر عليه. إنه المسيحي الوحيد المتبقي، فكان عليه إذن أن يبحث عنه بسرية فائقة، كي لا يفضح مكانه. ذهب إلى فوسور الذي قاده إلى خارج المدينة، حتى وصلا إلى حقل كرمة. كان أول ما طرق سمع فينيكوس صلوات متوجعة حزينة تمزق القلب: "رحماك يا مسيحنا".

كان بطرس هناك يتقدم المصلين، راكعا أمام صليب خشبي معلق على جدار الكوخ. عرفه فينيكوس من بعيد من شعره الناصع البياض، فرفع له يده. أول ما دار في ذهن الشاب أن يخترق الاتباع، ويركع أمام الحواريّ، صارخا:

ساعدني. وردد بتنهيدة عميقة، ابتهالة المصلين"رحماك يا مسيحنا". لكن صرخة امرأة بتت الابتهال. فنهض فينيكوس محدقا أمامه. كان الكوخ منارا بضوء فضي، فشاهد دموع المصلين تنهمر من عيونهم الرانيّة إلى الصليب، وسمعت صرخات أخرى هنا وهناك، أما في الخارج فقد سمع صفير من يقوم بمهمة الحراسة. فنهض بطرس واقفا، والتفت نحو المصلين قائلًا:

ـ يا ابنائي، توجهوا بقلوبكم إلى المخلّص، وامنحوه دموعكم. ثم صمت.

وبغته علا صوت نسائي مشحون باللوعه والالم:

ـ أنا أرمل، وفقدت ابني الوحيد، أعده الي يا سيدي!

وخيم سكون لحظي كان بطرس الواقف قبالة الجمع الراكع، تجسيدا اللون الانساني. ما هو عليه من شيخوخة، وعدم قدرة على التحمل. تعالت شكوى أخرى:
- الجلادون الحقوا العار ببناتي، والمسيح احتمل ذلك!
وشكوى ثالثة:
- بقيت وحيدة مع أطفالي، فإن وضعوني على المخلعة، من الذي يطعمهم ويسقيهم؟
وشكوى رابعة:
- لقد أخذوا لينوس ووضعوه على المخلعة!
وشكوى خامسة:
- إن عدنا إلى بيوتنا، قبض علينا الجنود. لا ندري أين سنختبئ. ويلنا! من سيحمينا؟
وهكذا تعالت الشكوى إثر الاخرى في سكون الليل. أطبق الصياد العجوز عينيه ، شامخا برأسه فوق الخوف والوجع الانساني. ساد صمت آخر، وسمع صفير الحراس الخفيف وراء الكوخ.
هم فينيكوس محددًا للوصول عبر الجموع إلى الحواريّ، وطلب المساعدة. لكنه عجز عن الكلام، وكأن الأرض قد انشقت أمامه، فانعقد لسانه ولم يستطع الحراك. ما الذي سيحصل لو اعترف الحواريّ بعجزه وأقر بأن سلطان القيصر أعظم من سلطان عيسى الناصريّ؟ فانتصب شعر رأسه للفكرة، وشعر أن الذي سيهوي في الشق الأرضي الماثل أمامه، ليس أمله الأخير المتبقي فحسب، بل هو نفسه، ومعه ليفيا، وحبه للمسيح وإيمانه به، وكل مبرر له في الحياة، ولن يبقى الا الموت، والظلمة اللانهائية..
لكن بطرس في هذه الأثناء قد انبرى يتحدث. بدأ حديثة بصوت منخفض حتى تعذر سماعه:
- ابنائي! لقد رأيتهم وهم يصلبون السيد المسيح. سمعت طرقات المطرقة، ورأيت كيف رفعوا الصليب لكي يشهد جموع الناس موت ابن الانسان.
.... "ورأيت كيف طعنوا خاصرته، وكيف مات. وحين غادرت الصليب عائدا إلى البيت، شكوت من شدة المي مثلكم الان: "ويلي، ويلي، يا سيدي، أنت اله! كيف تحتمل هذا، وكيف مت، وأحزنت قلوبنا نحن الذين آمنا أن ملكوتك آت لا محاله؟".
.... أما سيدنا، وملكنا، فقام في اليوم الثالث من موته، وسكن بيننا، قبل أن يصعد ممجدا إلى ملكوته".
أما نحن، المدركين إحباطنا وانهزامنا، فقد شددنا على قلوبنا، وقوينا عزائمنا، وصرنا منذ تلك اللحظة أتباعا له.
ثم التفت ناحية صدور الشكوى الأولى، وبدأ الان يتحدث بصوت عال:
- لم تشكون؟ إذا كان الرب نفسه قد سلم نفسه للعذاب والموت. آه، يا ضعيفي الإيمان! لم تفهموا إذن تعاليمه؟ هل وعدكم بهذه الحياة؟ ها هو يأتي اليكم ويخاطبكم قائلًا "تعالوا الي جميعا". يريد أن يرفعكم اليه، وأنتم تتشبثون بالأرض بأياديكم، وتصرخون "سيدي أنقذنا" أنا، الذي لست سوى ذرة من الغبار أمام السيد، أقف أمامكم وأخاطبكم كوريث له في الأرض: "ليس الموت ما ينتظركم، بل الحياة، ليس العذاب، بل المسرة المطلقة، ليس الدموع والتنهدات، بل الغناء والأفراح، ليست العبوديّة، بل السيادة الملكيّة! أنا حواري الرب، أقول لك أيتها الارمل: ولدك لا يموت، لكنه يولد في مجد الحياة الأبديّة، وأنت تتحدين معه! وأنت أيها الأب الذي أهان الجلادون بناتك، أعدك بأنك سلتقاهن، وهن أكثر بياضا من الزنابق.
أما أنتن، أيتها الامهات اللواتي أبعدوكن عن ابنائكن وفقدتن أزواجكن، أنتن اللواتي تشكين أنكن ستشهدن موت أحبائكن، أنتن المسكينات الواهنات، الجزعات اللواتي عليكن أن تمتن باسم المسيح فأقول لكن: لقد استيقظت من الحلم وصرتن في صحوة السعادة، وانتقلتين من الليل إلى فجر السيد المسيح. لتسقط عن أعينكن، باسم المسيح، الغشاوة، ولتضطرم قلوبكن لهبا.

ورفع يده كأنما يعطي أمرا لهؤلاء الذين راحوا يشعرون بأن طاقة جديدة بدأت تسري في عروقهم، وتخلصهم من الوهن والعجز، مانحة أوصالهم قوة عملاقة انتشلت نفوسهم من الغبار والالم.
ورددت وراءه بعض الأصوات:
ـ آمين!
ائتلقت عينا الحواريّ، وشعت منهما القوة التسبيحيّة، والقداسة. انحنت أمامه الرؤوس، وحين نطقت الأفواه "آمين" استأنف يقول:
ـ ازرعوا دامعين فتحصدوا مبتهجين! لم خوفكم من قوة الشر؟ السيد المسيح يبسط سلطانه ويسود على الأرض، وعلى روما وعلى أسوار المدن، ويسكن في قلوبكم. الحجارة ستترطب بالدموع، والجبين سيتعفر بالدم، والحفر ستمتلئ. موتاكم، لكني أؤكد لكم أنكم الفائزون. سيأتي السيد ليكتسح مدينة الشر، والجور والازدراء، وأنتم فيالقه وجنوده، ولأنه هو من خلص العالم بالامه ودمه، إنما يريد منكم أن تسهموا بالامكم ودمائكم في تخليص هذه المدينة الفاجرة... وإنه يوصيكم بهذا على لساني!
ومد ذراعه ناظرا في العلاء، فتوقفت قلوب أولئك ظنا منهم أن الحواريّ قد رأى شيئًا، لا يتاح لعيونهم أن تراه. ولقد تغير وجه بطرس حقا، فشع فيه الضياء، وظل لفترة صامتا، وكأنه بات أبكم من شدة ابتهاجه، لكنه سرعان ما استأنف حديثه قائلاً:
ـ أنت هنا يا سيدي، وتدلني على دروبك!... كيف يا سيدي المسيح؟... إذن ليس في أورشليم، بل ستقيم عرشك في مدينة الشيطان هذه؟ هنا من الدموع والدم تريد أن تقيم كنيستك؟ هنا حيث ما زال يحكم نيرون، فلينشأ ملكوتك إلى أبد الابدين؟ أجل، يا سيدي! إنك تأمر هؤلاء المروعين بأن يؤسسوا بعظامهم مبدأ جديدا يقوم عليه العالم، ويحكم الناس على الأرض؟ وها أنت تمنح الضعفاء قوتك، ليقووا، ويشتد بأسهم، وتأمر بأن أرعى قطيعك حتى نهايّة الأزمنة... بوركت أحكامك، يا من تدعونا إلى النصر. المجد لله! المجد لله.
المروعون نهضوا، والذين مستهم الحيرة، امتلأت قلوبهم بدفقة جديدة من الإيمان، وعلت صيحة واحدة "المجد لله!" وعاضدتها صيحة أخرى "المجد للمسيح!". وحل الصمت على إثر ذلك، وكانت البروق قد أضاءت داخل الكوخ، والوجوه التي كستها الحماسة بالشحوب.
واصل بطرس صلاته طويلًا مستغرقا في رؤياه، حتى رجع أخيرا إلى وعيه، واستدار بوجهه الملهم المشع نحو الجمع، وقال:
ـ والان، وقد قهر السيد ما في نفوسكم من حيرة وقنوط، وغادر، فاسعوا إلى التغلب على بأسكم، باسمه.
ورغم أنه أيقن أنهم قد استجابوا وتجاوزوا حالة اليأس والتردد، وأدرك ما تفضي اليه دموعهم، وما يغلي في عروقهم من دماء، فقد ارتعش صوته من شدة الانفعال، حين ودعهم بإشارة الصليب قائلًا:
ـ والان أباركم، يا ابنائي، على ما تعانونه من عذاب، وموت، حتى تحظوا بالحياة الابديّة.
لكنهم أحاطوه متضرعين: "نحن جاهزون الان، لكن احرص أنت على حياتك، لأنك الوريث الذي سلمه المسيح صولجان القيادة". تشبثوا بثيابه، فيما راح يضع يده على رؤوسهم، وقام بوداعهم واحدا واحدا كأب يغادر ابناءه في رحلة بعيدة.
بدؤوا يخرجون من الكوخ، مسرعين إلى منازلهم، لكي يغادروها من هناك إلى السجن، ثم إلى الميادين. انقطع تفكيرهم بالأرض، وحلقت أرواحهم متجهة نحو الحقيقة الأبديّة، فساروا مبتهجين حالمين، لكي يواجهوا بكل ما يملكونه من قوة بطش "الوحش" وجوره.
أما الحواريّ فقد أحاط به خادمه نيريوس، وقاده عبر مسلك خفي في الكروم، متجها به إلى المنزل. وتبعهما فينيكوس حتى وصلا إلى كوخ نيريوس، وهناك القى بنفسه بين قدميه. عرفه بطرس فسأله:
ما الذي تريده يا بني؟

لكن فينيكوس بعد كل الذي سمعه في الكوخ قبل قليل، لم يجرؤ على الكلام، واكتفي بأن ضغط بجبينه على قدميه، متوسلا منه الرأفة، بصمت.
لكن بطرس قال له:
ـ أعرف أنهم خطفوا منك الفتاة التي تحبها. صل لأجلها. فتمتم فينيكوس ضاغطا بقوة أشد على قدم الحواريّ:
ـ سيدي! ، سيدي أنا مجرد دودة بائسة، أما أنت فقد عرفت المسيح، فتضرع أنت اليه، وكلمه بشأنها.
كان من وجعه، يرتعش كورقة شجرة، ضاربا الأرض بجبينه، لأنه يدرك مدى القوة التي يتمتع بها الحواريّ، فلا أحد سواه يستطيع أن يعيد اليه ليفيا.
لامس هذا الالم مشاعر بطرس. تذكر توسلات ليفيا عند قدميه طلبا للرأفة، بعدما تلقت تعنيفا شديدا من قبل كريسبوس، وتذكر كيف أنهضها، وهدأ من روعها، وواساها.
فما كان منه الان الا أن أنهض فينيكوس مواسيا:
ـ بني! سأصلي أنا لأجلها، لكن لا تنس ما قلته لأولئك الحائرين كيف أن المسيح نفسه قد عانى الموت فوق الصليب، ولا تنس أنه بعد هذه الحياة الفانيّة على الأرض ستأتي الحياة الابديّة.
فأجاب فينيكوس، وهو يجهش متلقفا جرعة من هواء:
أعلم! لكن، كما ترى يا سيدي، لا أحتمل! إن كان لا بد من التضحية بالدم، فاطلب من المسيح أن يأخذ حياتي أنا... أنا جندي. فليضاعف علي العذاب الذي ستتلقاه ليفيا، مرتين، وثلاثا، سأحتمله، لكن فلينقذها!
فهي ما زالت طفلة يا سيدي. والسيد أقوى من القيصر، أقوى من القيصر يا سيدي! حتى أنت أحببتها، وباركتنا. إنها طفلة بريئة!
وانحنى مجدًّدا، ملصقا وجهه بركبتي الحواريّ، وكرر قائلاً: ـ أنت عرفت المسيح، يا سيدي، أنت عرفته. سوف يصغي اليك! كل مه من أجلها
أغمض بطرس عينيه، وبدأ يصلي بضراعة.
البروق الصيفية أضاءت السماء من جديد. ولمح فينيكوس على ضوئها شفتي الحواريّ، مترقبا نتيجة الحكم هناك. الحياة أو الموت. حتى بادر الحواريّ فينيكوس بالسؤال:
ـ فينيكوس، أنت مؤمن؟
ـ وهل كنت سأجئ حتى هنا لو لم أكن كذلك؟
ـ إثبت على إيمانك حتى النهايّة، فالايمان يهد الجبال. حتى لو رأيت الفتاة تحت سياط الجلاد، أو بين أنياب الاسد، فاثبت على إيمانك بأن المسيح سوف يحررها. كن مؤمنا، وصل لأجلها، وسأصلي معك.
فرفع رأسه نحو السماء وقال بصوت مرتفع:
ـ يا سيدي المسيح، يا رؤوف، الطف بقلبي المعذب، وداوه بالعزاء، سيدي الرحوم، هدئ من شدة العاصفة لتناسب قوة صوف الحمل الصغير! يا سيدي الرحوم، الذي طلبت من أبيك أن يبعد عنك ذلك القدح المر، أبعده الان عن شفتي خادمك هذا. آمين!
وبسط فينيكوس يديه نحو النجوم وأضاف قائلاً:
ـ آه يا مسيحي، أنالك، فاقبلني عوضا عنها.
وانشق الفجر في قاع السماء الشرقي.

بعد أن ودع فينيكوس الحواريّ، قصد السجن بقلب مفعم بآمال جديدة ، كان جانب ما في قاع روحه ينتحب قنوطا وجزعا، لكنه كتم في نفسه مثل هذه الأصوات. كان موقنا أن من المستحيل الا يسفر تدخل وريث الله على الأرض، لما لصلاته من عظمة وسلطان، عن نتيجة. وكان شديد الحرص على التشبث بالأمل، والنأي عن الشكوك. "سأثق برحمته حتى لو رأيتها بين فكي الاسد" ارتعشت روحه، للفكرة التي ملأته بالإيمان، فابتردت قطرات العرق فوق جبينه.

بات قلبه الان ينبض بالصلاة. وبدأ يلمس أن الإيمان يهد الجبال حقا، بعدئذ شملته قوة غريبة شدت من أزره، وقوت من عزيمته، كمال لم يحصل معه من قبل. شعر أنه يستطيع، بهذه القوة، أن ينجز أمورا لم يكن ليجرؤ البارحة على القيام بها.

انتفى شعوره المنغص بأن ثمة خطبا يوشك على الحدوث.

وكان كلما تصاعد في روحه نحيب القنوط، والجزع، مر أمام عينيه وجه الحواريّ المرفوع نحو السماء وهو يصلي. يقول لنفسه: "لا! لن يرفض المسيح دعاء أول تلاميذه، وراعي قطيعه! المسيح لن يرفض. ولذلك فلن أدع أنا محالا في نفسي للشك".

وأسرع إلى السجن، كمن يحمل نبأ سعيدا.

لكنه فوجئ هناك. ما لم يكن ينتظر.

كان كل أفراد الحرس يعرفونه، لكنهم لم يفتحوا سلسلة الحاجز أمامه.

ـ عفوا أيها القائد النبيل، لكننا تلقينا أمرا بعدم السماح لأحد بالدخول اليوم.

فردد فينيكوس بشحوب:

ـ أمرا؟

فرمقه الجندي بأسف وأجاب:

ـ أجل يا سيدي، أمر من القيصر. السجن مليء بالمرضى، وهم يخافون من انتقال العدوى إلى الزوار، من خلالهم إلى المدينة بأسرها.

ـ لكنك قلت أن الأمر صالح لهذا اليوم فقط.

ـ سنبدل الحرس عند الظهيرة.

سكت فينيكوس، وأنزل الخوذة عن رأسه، لشعوره الآن بأنها مسبوكة من الرصاص.

تقدم منه الجندي، وكلمه بصوت خفيض:

ـ اطمئن يا سيدي، إنها في حمايّة الحراس، وأرسوس.

وامتشق سيفه الغالي الطويل، وبطرفه عين رسم سمكة فوق البلاط.

رمقه فينيكوس بحدة:

ـ هل أنت من الحرس الامبراطوري؟

ـ إلى أن أصل إلى هناك

وأشار بيده نحو السجن.

ـ أنا أيضًا أعبد المسيح.

ـ تمجّد اسمه! أعلم يا سيدي. لا أستطيع إدخالك إلى السجن، ولكن إن تكتب رسالة سأوصلها إلى الحراس.

ـ شكرا يا أخي.

وانصرف الجندي ضاغطا قبضته.

كانت شمس الصباح قد علت جدران السجن، وكما كان ضوءها يشتد، كانت آمال فينيكوس تتعاظم. هذا

الجندي المسيحي، بالنسبة اليه برهانا آخر على عظمة المسيح. توقف متوجها بوجهه نحو الغيوم الورديّة المعلقة فوق معبد جوبيتر وقال:
ـ لم أرها اليوم يا سيدي، لكني أومن برأفتك.
كان بانتظاره في المنزل، بترونيوس، الذي كعادته قد "حول الليل إلى نهار" وعاد لتوه، واستحم، وعطر جسمه بالزيت، فبادرة قائلا.
ـ لدي أنباء جديدة لك. كنت عند توليوس، وكان هناك القيصر. لا أدري كيف خطر للأوغستا أن تجلب معها روفيوس الصغيرة. لعلها أرادت أن تلين بجمالها قلب القيصر. لكن الطفلة، للأسف، غلبها النوم في أثناء قراءه الشعر، كما حصل مرة لغاسبسيانوس. حين لاحظ القيصر ذلك رماها بالقدح، والحق بها جرحا بليغا، أغمي إثرها على بوبيا، وسمع الجميع القيصر وهو يصرخ"طفح بي الكيل من ابنة الزانيّة هذه" وأنت تعلم أن هذا يكافئ الموت.
فأجابه فينيكوس قائلا:
ـ هذه عاقبتها أنزلت عليها من عند الله. لكن لماذا تقول لي ذلك؟
ـ لأن نقمة بوبيا السبب في ملاحقتك مع ليفيا. والان وقد حصل لها ما حصل، فقد تكف عن نقمتها. سنلتقي مساء اليوم، وساكلمها.
ـ شكرا. هذا نبأ سار.
ـ استحم، واسترح. شفتاك زرقاوان، وكأنك لست أنت، بل ظلك.
لكن فينيكوس سأله:
ـ بعد عشرة أيام. سيبدؤون من سجون أخرى. كلما كان لدينا متسع من الوقت، أفضل لنا. لم نفقد كل شيء بعد. لكن بترونيوس نفسه لم يكن واثقا فيما نطق به، فهو يدرك جيدا أنه ما دام القيصر قد واجه طلب اليتوروس برده المفحم مشبها نفسه ببروتوس، فلا منجاة لليفيا إذن. ولقد سمع عن طريق سينيسيو أن القيصر، وتيفالنيوس قد عزما على انتقاء أجمل العذراوات المسيحيات لهما وأصدقائهما، وليفتض وهن قبل الدفع بهن إلى التعذيب والموت، أما البقيّة فيسلمونهن للجنود والوحوش في يوم الالعاب.
كان يعرف أن فينيكوس لا يرغب في الحياة بعد ليفيا، فتعمد بث روح الأمل في قلب الشاب لسببين اثنين أولهما لأنه يشفق عليه، وثانيهما لأن من المهم له كمشتغل بالجمال، أن يموت فينيكوس ميتة شاب جميل، لا بوجه كدر معذب.
ـ هذا ما سأقوله فيما بعد للأوغستا على وجه التقريب: "أنقذي ليفيا وسأنقذ لك روفينوس" سأفكر بهذا الحل فعلا. لأن عبارة واحدة في لحظة مناسبة لدى القيصر قد تنقذ أحدا، أو تؤدي بحياته وفي أسوأ الأحوال لكسب الوقت.
ـ شكرا.
ـ ستشكرني إن أكلت، وخلدت إلى النوم. "أوديسيوس" في أشد حالات الخطر، لم يحجم عن الطعام والنوم. لا بد أنك قد أمضيت ليلتك ساهرا في السجن.
ـ لا. الان حتى نويت الذهاب إلى السجن، لكن الأوامر تمنعهم من إدخال أحد. حبذا لو تعرف إذا ما كانت هذه الأوامر ساريّة على هذا اليوم فقط، أم حتى البدء بالالعاب.
ـ سأعرف ذلك هذه الليلة، وسأخبرك به صباحا. أما الآن فسأذهب إلى النوم، حتى لو نزل هيليوس بلوعته إلى العالم السفلي، فافعل مثلي.
انفصلا، لكن فينيكوس توجه إلى المكتبة، وكتب رسالة لليفيا. حين انتهي منها، أخذها بنفسه وسلمها للجندي المسيحي، الذي أوصلها بدوره إلى السجن، وعاد من هناك حاملا من ليفيا تحياتها، ووعده أن

يحمل اليه الرد من الفتاة قبل مضي هذا اليوم.
لكن فينيكوس لم يشأ العودة إلى البيت، بل جلس هنالك على حجر منتظرا الرد. كانت الشمس قد ارتفعت في السماء. بدأت أصوات الباعة تروج لبضائعها، والمنجمون يقدمون خدماتهم للمارة، والمواطنون يحثون الخطا للوصول إلى الساحة لسماع الخطباء، أو لتناقل ما استجد من أنباء. لكن حين اشتدت حرارة الشمس، انسحبت العناكب إلى داخل الكنيسة، وخرجت الحمائم طائرة منها، لترفرف في ضوء الشمس بأجنحتها البيضاء تحت قبة السماء الزرقاء.
شعر فينيكوس بالنعاس. فكانت رتابة خطا الجنود وما يملأ الجو من أصوات هنا وهناك قد جعلته يكبو، لكنه كان يرفع رأسه بين الفينة والفينة، فيلتفت برأسه نحو السجن، ثم يعود ويوكئها حافة الصخرة، ويطلق شهقة عميقة أشبه بطفل نائم بعد بكاء طويل.
وسرعان ما تلاحقت أحلامه. حلم بأنه يأخذ ليفيا بين ذراعيه ويمضي بها عبر حقل كرمة، وقد تقدمته بومبونيا غراسينا تضيء دربهما بشعلة في يدها. ثم سمع صوتا قادما من البعيد يهتف له"استدر!" لعلّه كان صوت بترونيوس.
لكنه لم يأبه للنداء، وتابع سيره إثر بومبونيا، حتى بلغ كوخا توسطه الحواريّ بطرس: قدم له ليفيا قائلا: "لقد جئنا من الميدان يا سيدي، لكني لا أجرؤ على إيقاظها، فأيقظها أنت" ، فقال له بطرس: "سيأتي المسيح بنفسه ليوقظها".
واختلطت الصور أمامه. رأى في حلمه نيرون وبوبيا وقد احتضنت روفيوس الصغير يمس د بترونيوس جبينه. ورأى تيفالنيوس وهو يرش الرماد فوق المائدة العارمة بالاطعمة الفاخرة التي كان يلتهمها فيتليوس، وحوله العديد من الاوغستيان. كان هو من بينهم إلى جانب ليفيا، لكن أسودا كانت تتمشي مدماة الانياب بين الموائد. طلبت منه ليفيا
أن يقودها إلى الخارج، لكنه عجز عن الحركة. ثم تشعبت أحلامه، واستحالت صورها إلى فوضى وطلاسم حتى أعتمت تمامًا.
لم يفق من نومه الا بعد اشتداد حرارة الشمس، وسماعه أصواتا من أمكنة مجاورة. فرك عينيه. كانت جموع من الشعب تحتشد في الشارع، وقد راح خيالان يفرقانها بقضيبين قصبيين طويلين، ليفسحا الطريق أمام هودج فاخر، قام بحمله أربعة من العبيد المصريين الضخام.
جلس في الهودج رجل بملابس بيضاء، تعذر رؤية وجهه، لوجود لفافة أمام عينيه كان يقرؤها باستغراق.
- أوسعوا الطريق أمام الاوغستيان النبيل صاح الخيالان.
كان الشارع مكتظا بالناس، فاضطر الهودج على التوقف لحظة.
أزاح الاوغستيان اللفافة بفراغ صبر، وأخرج رأسه صائحا:
- فرقوا هؤلاء المتسكعين! هيا!
لكنه لمح فينيكوس وهو يرجع برأسه إلى الداخل، فوضع اللفافة أمام عينيه.
مسح فينيكوس جبينه وقد ظن أنه ما زال في حلم.
كان شيلون في الهودج
في أثناء ذلك كان الخيالان قد نجحا في إفساح الطريق، فاستأنف المصريون سيرهم. فهم الشاب النبيل أمورا كثيرة لم يكن يفهمها، فتقدم من النقالة، محييا:
- لك التحيّة، يا شيلون!
فأجاب شيلون بكل جدارة وافتخار، وبوجه هادئ مطمئن:
- لك التحيّة! أيها الشاب الا تمهلني لأنني في عجل من أمري إلى صديقي تيفالنيوس

أمسك فينيكوس بحافة الهودج ومال إلى داخلها ليقول:
ـ أنت من وشي بليفيا!
فصاح شيلون جزعا:
ـ أيتها الالهة!
لكن سحنة فينيكوس لم تكن تعبر عن تهديد، فسرعان ما استرجع شيلون هدوءه، بعد أن تذكر أنه في حمايّة تيفالنيوس لا بل في حمايّة القيصر الذي يرتعد أمامه الجميع.
لا سيما وأن مرافقيه رجال أشداء أمام فينيكوس الاعزل المعذب الوجه، المثقل بالالام. قوت هذه الفكرة من عزيمته، فحدق في فينيكوس بنظرة لئيمة، ووشوسه قائلًا:
ـ أما أنت فقد جلدتني حين كدت أموت جوعا.
هنا صمت الاثنان للحظة، حتى بادر فينيكوس إلى الكلام بصوت أجش:
ـ لقد أذيتك يا شيلون...
رفع الإغريقي رأسه، وراح يفرقع بأصابعه، وهذا في روما دلالة على الازدراء والاحتقار وقال بصوت مرتفع حتى يسمعه الجميع:
ـ إن كنت تريد مني شيئاً، يا صديقي فاقصدني صباحا إلى منزلي في اسكرويلنوس لأنني أستقبل ضيوفي بعد حمامي الصباحي.
وأشار للعبيد المصريين أن يتابعوا المسير، فراح الخيالان يفرقان الجموع صائحين:
أوسعوا الطريق لهودج شيلون شيلونيدس النبيل.
أوسعوها، أوسعوها!

سارعت ليفيا إلى كتابة تودع فيها فينيكوس إلى الأبد. كانت تدرك أن لا أحد بمقدوره أن يدخل إلى السجن، وأن فينيكوس ليس بوسعه أن يراها الا في الميدان. رجته أن يكون في الميدان حين يأتيها الدور لأنها راغبة في رؤيته مرة أخيرة في حياتها. لم يكن في رسالتها أثر للخوف. كتبت أنها والاخرين في شوق شديد للميادين، لأنهم عندئذ، يتحررون من السجن، وأملت أن يأتي كل من بومبونيا وأولوس إلى روما، ليحضروا الالعاب. كانت كل كلمة في الرسالة تعبيرا عن اللهفة والهيام والانقطاع التام عن الحياة، وعلى هذا المنوال أمضوا جميعهم فترة الاعتقال في السجون، وأن جميع آمالهم سوف تتحقق بعد الموت.
"إن كان الان، أو بعد موتي، المسيح سوف يحررني، وهو الذي وعدك بي عن طريق بطرس، فأنالك إذن". وتوسلت إلى فينيكوس الا يشفق عليها، والا يدع الالام تقوى عليه.
قرأ الرسالة بقلب مدمى، و لم يصدق أن ليفيا ستمزقها الوحوش، دون أن يرأف بها المسيح فملأه هذا الشعور بالامل والثقة. ذهب إلى البيت، بعد أن كتب لها أنه سينتظرها كل يوم عند جدران التليانوم، حتى يأتي المسيح، ويحطم هذه الجدران ويعيدها اليه. وجعلها تؤمن بأن المسيح سيرجعها اليه حتى لو وصلت إلى السيرك، وأن الحواريّ الكبير سيتضرع من أجل ذلك، وأن لحظة الخلاص قريبة لا محالة.
ووعده الجندي أنه سيسلمها الرسالة في اليوم التالي. لكنه حين عاد إلى السجن في اليوم التالي، أسرع اليه الجندي خارجا من صفه ليقول له:
ـ اسمعني يا سيدي! المسيح الذي سعى إلى خدمتك، أشار اليك برأفته. مساء اليوم أتى معاتيق القيصر، وتيفالنيوس لينتقوا العذراوات المسيحيات اللواتي سيلحقون بهن العار، وكانت محبوبتك من بينهن، لكن السيد المسيح ابتلاها بالحمى فظلت تهذي طوال الليل. تبارك اسم المسيح، فالمرض الذي أنقذها من وصمة العار، يمكن أن ينقذها من الموت كذلك.
تشبث فينيكوس بكتف الجندي لكي لا يقع أرضا، فيما استأنف ذاك يقول:
ـ اشكر ما خصك به المسيح من رأفة. لقد قيدوا لينوس وأجلسوه على المخلعة، وحين شوهد يحتضر أعادوه. قد يعيدونها اليك مثله، والمسيح يتكفل بمعافاتها، ظل الشاب مطرقا هناك لبعض الوقت، ثم رفع رأسه وقال بصوت خفيض:
ـ حسنا أيها الجندي، المسيح الذي أنقذها من العار، سينقذها من الموت.
وبعد أن أمضى كل وقته حتى المساء جالسا عند الجدار، توجه إلى البيت، ليرسل أحدهم من أجل لنيوس وينقله إلى أحد فيلاته في طرف المدينة.
أما بترونيوس الذي حصل معلومات عن كل شيء قرر أن يتابع مساعيه. كان قد قصد الاوغستا من قبل، وقصدها الان مرة أخرى، فوجدها عند سرير روفيوس. كانت الطفلة المفجوجة تهذي من الحمى، تحت عنايّة الأم.
كانت منشغلة بوجهها الخاص، فلم ترغب في سماع أي شيء، لا عن فينيكوس، ولا عن ليفيا لكن بترونيوس أوقع الهلع في نفسها حين قال لها:
ـ أنت تغضبين الألوهة الجديدة المجهولة. إنك على الارجح وأنت أوغستيّة تعبدين يهوه العبري، والمسيحيون يزعمون أن المسيح ابنه. فكري جيدا ما إذا كان غضب الاله يلاحقك. من يدري، لعل كل ما جرى لك نتيجة لنقمته، وأن حياة روفيوس متوقفه على سلوكك.
فسالته بوبيا جزعة:
ـ ما الذي سأفعله؟ وما الذي تريده مني؟
ـ تراضي مع الألوهة التي أغضبتها.

ـ كيف؟
ـ ليفيا مريضة، اطلبي من القيصر أو تيفالنيوس أن يأمرا بإخراجها من السجن، وتسليمها لفينيكوس.
فسالته المرأة وقد تملكتها الحيرة.
ـ أتظن أن بوسعي فعل ذلك؟
ـ لكن بوسعك فعل شيء آخر.
ما إن تشفى ليفيا حتى تقاد إلى الموت. فاذهبي إلى معبد فيستا، واطلبي من راعيّة المعبد فيرغو ماغنا أن تكون قرب التوليانوم على سبيل المصادفة، حين يقودون العبيد إلى الموت، وتأمرهم أن يطلقوا سراح الفتاة، العذراء فيستالن ترفض لك هذه الرغبة.
ـ وماذا لو ماتت ليفيا نتيجة مرضها؟
ـ يقول المسيحييون أن المسيح نزاع إلى الانتقام لكنه عادل: يمكن لك أن ترضيه لمجرد نواياك
ـ ليقدم دليلا على أنه سيشفي روفيوس
هز بترونيوس كتفيه وقال:
ـ أنا لست من أتباعه، لكني أكتفي بالقول، أيتها الاوغستا الالهيّة، بأنك حسنا تفعلين إذا ما كنت في سلام مع كل الالهة، الرومانيّة منها، وغير الرومانيّة.
فأعلنت بوبيا بصوت كسير:
ـ سأذهب.
ـ تنفس بترونيوس الصعداء. "أخيرا توصلت إلى شيء"
وحين رجع إلى فينيكوس قال له:
ـ اطلب من ربك الا تموت ليفيا تحت الأرض، لأنها إن شفيت، فالعذراء فيستا ستطلق سراحها. الاوغستا بالذات ستطلب منها ذلك.
فدهمه فينيكوس بفظاظة:
ـ المسيح من يطلق سراحها.
أما بوبيا التي كانت على استعداد أن تضحي بكل شيء من أجل إنقاذ روفيوس، فقد ذهبت إلى الفوروم قاصدة عذراء فيستا، وأوكلت المربيّة الوفيّة سيلفيا بالعنايّة بروفيوس.
ولكنهم في البالاتينوس كانوا قد اتخذوا قرارهم بشأن الطفلة. فما إن توارى هودج زوجة القيصر بعد خروجها من الباب الكبير، حتى دخل معتوقا القيصر غرفة روفيوس، فسارع أحدهما إلى سيلفيا، فكم فاها، فيما تناول الاخر تمثالا برونزيا، وأخرسها بضربة واحدة منه. ثم تقدما نحو روفيوس التي تبسمت لهما دون دراية منها لما يحصل. فأخذا طوق المربية ولفاه حول عنق الطفلة التي لم يتسن لها أن تصرخ الا صرخة واحدة: "أماه".
ثم كانت النهاية: لُفت الفتاة بغطاء، وحملت فوق حصان كان بانتظارها، وأخذت إلى أوستيا حيث القيت جثتها الصغيرة في البحر.
لم تجد بوبيا كبيرة العذراوات هناك، لأنها كانت برفقة عذراوات فيستا كلهن عند فاتينوس، فرجعت مسرعة إلى البالاتينوس. وما إن رأت السرير فارغا، وجسد سيلفيا البارد، حتى أغمي عليها. وحين أعيدت إلى وعيها، بدأت عويلها المخبول. استمر صراخها الوحشي طوال الليل، ولم ينقطع طوال اليوم التالي.
أما في اليوم الثالث، فقد دعاها القيصر إلى المأدبة، فالبسها، والحال هذه، رداءها الأرجواني، فجاءت صامتة بشعر أشقر، ووجه مربد، لكنها جلست هناك بكل الوعيد كملاك الموت.

قبل أن يبنى الكولوسيوم، في روما تم بناء المدرجات في غالبية موادها من الخشب، فالتهمت نيران الحريق القسم الأعظم منها. والان ولكي يتمكن القيصر من إقامة العاب السيرك الموعودة، فقد أمر ببناء بضعة مدرجات، كان أحدها بمقاييس عملاقة جيء بأخشابه عبر نهر التيبر من اقتطاع الأشجار العملاقة على منحدرات جبال أطلس. وبما أن هذه الألعاب أريد لها أن تفوق كل ما سبقها من حيث الضخامة، فقد أنشئت أمكنة كبيرة للوحوش وحشود المتفرجين من البشر. الاف مؤلفة من مهرة البنائين عملت ليل نهار لتنجز هذه الصروح العملاقة المزخرفة.

تناقلت السنة الناس العجائب عن المتاريس، والحواجز البرونزيّة والعاجيّة، والمرجانيّة، وعرائش اللبلاب التي زينت بها السقوف والشرفات. ونقل المياه الباردة عبر الاقنيّة المنتشرة على طول صفوف أماكن الجلوس لكي تبرد هواء السيرك حتى في اشد درجات الجو حرارة. وعلقت المظلات العريضة لتقي الجماهير من أشعة الشمس. ووضعت بين صفوف الكراسي مباخر تنشر أبخرة العطور العربيّة. وعلقت في الاعلى رذاذات الماء لترطيب الجو فوق الرؤوس. ودفع المعماريان الشهيران سيفيروس وسيلير بكل ما لديهما من مواهب معمارية، لإقامة مدرجات لم يشهد لها التاريخ مثيلا.

وهكذا في يوم الافتتاح، بدأت أفواج الحضور بالزحف والانتظار أمام المداخل، مصغيه باستمتاع إلى زئير الأسود، وجئير الوحوش، ونباح الكلاب. مضى يومان دون أن يقوموا بإطعام الوحوش، في وقت كانوا يعرضون عليها من بعيد قطع اللحم الداميّة، ليفاقموا من جوعها وغضبها. عند طلوع الشمس صدح في باحة السيرك صوت غناء عال، لكنه هادئ.

كان الشعب يسمعه مندهشا. "المسيحيون! المسيحيون!" وحقيقة، كانوا قد بدؤوا يقودونهم خلال الليل، بمجموعات كبيرة إلى المدرجات. كانوا يأتون بقليل منهم من كل سجن، ولا يفرغون كل سجن على حدة، كما كانت الخطة. أدرك الجمهور أن الفرجة ستدوم أسابيع، بل أشهرا، وكانوا يتناقشون ما إذا كان بالامكان القضاء في هذا اليوم على كل هذا الحشد من المسيحيين.

كان مئات من الرجال والنساء والأطفال ينشدون هذا الغناء الصباحي. كان بعض الناس من العارفين يشكون في مقدرة الوحوش على تمزيق هذا العدد الكبير من الضحايا، والتهامهم في يوم واحد، الأمر الذي يقلل من استمتاع المتفرجين. وكلما اقترب موعد الافتتاح، كان حماس الحاضرين يتعاظم، ونقاشهم حول هذا الأمر يشتد. كان يرى البعض أن الأسود أكثر مهارة من النمور على تمزيق البشر، والبعض الاخر كان يرى المهارة في النمور وتحدث البعض عن المجالدين الذين كان عليهم دخول السيرك قبل المسيحيين.

ولكي لا يرهقوا أنفسهم دخل بعضهم بلا درع، وبعضهم الاخر كان عاريا، أو بيده غصن أخضر، أو حول جبينه إكليل من الأزهار. كانوا ينبضون بالحياة، ويأتلق جمالهم الفني تحت أشعة الفجر. كانت أجسادهم الضخمة المدهونة بالزيت تلتمع، وكأنها نحتت من الرخام، فأثارت الاعجاب في نفوس من يعرف الاستمتاع بجمال العضلات.

كان كثير منهم معروفا على المستوى الشخصي، فكانت الهتافات تتسع إلى هنا وهناك منادية بأسمائهم: "حرصا يا فورنيوس! مرحبا يا ليو! مرحبا يا مكسيموس! مرحبا يا ديوميدس! الفتيات كن يرمقنهم بنظرات عاشقة، وهم كانوا ينتقون أحلاهن ويمزحون معهن دون أن يبدو عليهم أثر للتوتر، ويلقون عليهن القبلات أو يقولون لهن "عانقيني قبل أن يعانقني الموت!". ثم تواروا خلف باب المدخل. وشد انتباه الناس موكب آخر وآخر. بعد المجالدين مر السائطون الذين يجلدون بسياطهم من يحاول المقاومة.

ومرت بعدهم عربات تشدها بغال اتجهت صوب السبولاريوم حاملة توابيت من خشب، جن جنون الشعب لهذا المشهد، لأن أعداد التوابيت توحي بمقدار هائل من الفرحة والاثارة.

ثم جاء الدور لمرور الذين ينفذون "طعنة الرحمة" للجرحى.
وهؤلاء جميعا يرتدون زي مركوريوس أو شارون. تبعهم رجال الحفاظ على النظام الذين يشرفون على أماكن الجلوس، وبعدهم العبيد المسؤولون عن توزيع الأطعمة والمشروبات المنعشة، وأخيرا عناصر الحرس الامبراطوري جنود القياصرة أجمعين.
وأخيرا فتحت الابواب، ودخلت الجموع إلى المدرجات. كانوا من الكثرة بحيث ظلوا على مدى ساعات يتدفقون إلى الداخل حتى كان من الغريب كيف يتسع المدرج لمثل هذه الاعداد المذهلة. شعرت الوحوش برائحة البشر، فتعاظم جئيرها. كان الناس يتدفقون لاحتلال أماكنهم، أشبه بأمواج البحر العاصف.
وفي النهايّة وصل قائد الحرس محاطا بمرافقته، تتبعه سلسلة طويلة لا تنتهي من السيناتورات، والقنصليين، والحكام، والموظفين، والحاشية القيصرية، وكبار ضباط الحرس، والمحامين، والسيدات من الطبقة الأولى في هوادجهن.
ولكن كهنة المعابد تأخروا قليلا عن المجيء، وجروا وراءهم عذراوات فيستا اللواتي تقدمهن الذين يفسحون أمامهن الطريق. لم يشأ نيرون أن يجعل الشعب ينتظر كثيرا، بل حرص على دقة الموعد، وفق ميوله، فسرعان ما ظهر برفقة الاوغستا والاوغستيان.
كان بترونيوس بين الاوغستيان، و إلى جانبه فينيكوس في الهودج. لم يكن الشاب على درايّة ما إذا كانت ليفيا المريضة من بين ضحايا هذا اليوم. يمكن أن يدفع بها أمام الأسود وهي مريضة، وحتى لو كانت غائبة عن الوعي. لكن بما أن الضحايا قد البست جلود حيوانات ودفع بها مجموعات إلى الميدان، فلم يكن بالامكان التعرف على أحد.
كان جميع الحراس، وخدم المدرجات قد قبلوا الرشوة، واتفق مع حراس الوحوش لاخفاء ليفيا في ركن منعزل من المدرج، إلى حين تسلميها ليلًا لأحد ثقات فينيكوس من الاجراء، للرحيل بها إلى جبال الألب.
وكان بترونيوس على علم بالخطة. نصح فينيكوس بأن يرافقه علنا إلى المدرج، وهنالك عند المدخل يتسلل في الزحام إلى قمرات الاعتقال، ليدل الحراس على شخصيّة ليفيا خشية حصول التباس.
أدخله الحراس عبر الباب المخصص لدخولهم، فقاده أحد الحراس المسيحيين، واسمه سيروس، حالا إلى المسيحيين، قائلًا له خلال الطريق:
- لا أدري يا سيدي إن كنت سترى من تبحث عنها. لقد سالنا عن ليفيا بالاسم، لكن أحدا لم يعطنا جوابا. لعلهم لم يثقوا بنا.
- وهل هم كثر؟
- ومن بقي إلى الغد كثر أيضًا.
- وهل بينهم مرضى؟
- ليس بينهم من لا يقوى على الوقوف على قدميه.
فتح باب، وأم ا غرفة عائمة لا ينيرها الا ضوء تسلل خلال شق يقود إلى الميدان. لم يلمح فينيكوس شيئًا في البدايّة، لكنه سمع همسا في الغرفة، إضافة إلى ضجيج الشعب الاتي من المدرج. وحين تأقلمت عيناه مع الظلمة، رأى كائنات غريبة تشبه الدببه، والنمور.
كانوا مسيحيين ضمن جلود حيوانية. كان البعض واقفا، والبعض الاخر راكعا يصلي. وكان بينهم نساء عرفن من شعورهن الطويلة المنسدلة خارج الجلود. الذين سئلوا عن ليفيا نظروا اليه وكأنهم قد أفاقوا من حلم، ولم يجيبوا عن سواله. البعض تبسم واضعا أصابعه على فمه، وأشار نحو الشق الذي ينسرب منه الضوء.
وحدهم الأطفال كانوا يبكون خوفا من جئير الوحوش، ونباح الكلاب، وضجيج الشعب، وأشكال أهاليهم

الشبيهة بالحيوانات. راح فينيكوس، وهو يسير برفقة الحارس سيروس يتملى في وجوه المعتقلين، بحث، وسال، متعثرا أحيانا ببعض من استلقي أرضا هنا وهناك، بعد أن أغمي عليه من شدة الزحام، والحرارة. حتى وصل إلى وسط الغرفة القائمة، التي بدت هائلة الحجم المدرج ذاته.
وفجأة توقف، لأنه سمع صوتا مالوفا قرب الشق. بعد تنصت قصير استدار، وتقدم عبر الحشد، توقف قرب مصدر الصوت. وعلى بصيص من ضوء ساقط على رأسه، عرفه فينيكوس من وجهه الصارم. النحيل. إنه كريسبوس.
كان كريسبوس يقول:
ـ اندموا على خطاياكم، فقد حان الوقت. لكن من يعتقد أنه سيكفر عن ذنوبه لمجرد موته، فهو يرتكب خطيئة أخرى، ومصيره جهنم. الموت سوف يلحق بالصادقين، والزائفين، لكن السيد المسيح هو من ينتقي أتباعه. ويلكم فالاسود سوف تمزق أجسادكم، دون أن تمزق خطاياكم، ونواياكم تجاه المسيح. لقد عبر السيد عن مدى رحمته حين سمح بشده على الصليب، لكنه بعد ذلك لن يكون الا حاكما لا يدع ذنبا دون حساب. فمن كان يعتقد أنه سيكفر عن ذنوبه بالعذاب، فهو إنما يشتم الاله العادل، وسينال ذنبا دون إضافيا. انتهى عهد الرأفة، وحان وقت غضب السيد.
لحظات، وتمثلون أمام عرش الحاكم العظيم، حيث لا يستقيم هناك حتي الفاضلون. اندموا على ذنوبكم لأن أبواب جهنم قد فتحت. ويلكم، أزواجا، وزوجات، ويلكم، أهلًا وابناء.
ورفع يده وهزها فوق الرؤوس المحنيّة. كان ما يزال رابط الجأش بعيدا عن الجزع في ظل الموت الذي ينتظر هؤلاء في أيّة لحظة. جاء الرد استجابة لما نطق به: "نحن نادمون على ذنوبنا". ثم عم الصمت، الا بكاء الأطفال. تجمد الدم في عروق فينيكوس. لقد علق آماله كلها على رأفة المسيح، وها هو الآن يسمع منه أن يوم الغضب آت، دون أثر لتضرع في مواجهة الموت. خطر له أن بطرس لو كان في هذا المكان التكلم عن الموت على نحو آخر. لكن حديث كريسبوس أوقع الجزع في نفسه. وكاد الهواء الرديء والحرارة تخنقانه، فتصبب العرق من جبينه، وتملكه الهلع خشيّة أن يغمى عليه كأولاء الملقيين على الأرض.
وحين دهمته فكرة أنهم في أيّة لحظة يفتحون باب الغرفة المفضي إلى الميدان، وجد نفسه يهتف باسم ليفيا و أرسوس، فقد يتلقى جوابا منهما، أو لعل أحدا ممن يعرفهما يرد على ندائه. ولقد تحقق ما كان يصبو اليه، فقد جاء الجواب من رجل يضع عليه جلد دب:
ـ لقد بقيا في السجن، يا سيدي، أنا كنت الاخير الذي اقتيد من هناك. وقد رأيت الفتاة مريضة في السرير.
ـ من أنت؟
ـ أنا من عمدك الحواريّ في منزلي، يا سيدي. قبضوا علي منذ ثلاثة أيام، وسأموت اليوم.
تنفس فينيكوس الصعداء. حين جاء إلى هنا، كان يأمل أن يعثر على ليفيا، لكنه الان ممتن إلى السيد المسيح أنها ليست هنا، وهذا دليل على رحمة المخلّص.
في أثناء ذلك كلمة الرجل ثانية:
ـ أتذكر يا سيدي أنني من قادك إلى كرم كوتيليوس حيث قام الحواري بتعليمك؟
ـ أذكر.
ـ لقد رأيته قبل يوم من قدومي إلى هنا. باركني، وقال أنه سيأتي إلى المدرج ليودعنا. كم أنا راغب في مشاهدته في لحظة الموت، وهو يرسم الصليب، ليكون موتنا أرحم. فإن كنت تعرف يا سيدي، أين هو، أخبرني.
فأجابه هامسا:
ـ إنه بين رجال بترونيوس يرتدي زي العبيد. لا أدري أين اتخذوا أمكنة جلوسهم على المدرجات، لكني

سأعود إلى السيرك، والقي نظرة. حين تدخلون الميدان، أنظر نحوي، سأكون واقفا، ملتفتا برأسي نحو مكان وجودهم، وهكذا ستراه.
ـ شكرا يا سيدي، والسلام عليك.
ـ فليشملك المخلص برحمته.
ـ آمين.
خرج فينيكوس إلى المدرج، ليتخذ مكانه إلى جانب بترونيوس بين باقي الاوغستيان.
سأله بترونيوس:
ـ هل هي هنا؟
ـ لا. بقيت في السجن.
ـ اصغ الي جيدا! خطر لي خاطر. توجه بنظرك نحو نيجيديا ونحن نكلم بعضا، لكي تظن أننا نتحدث عن تسريحة شعرها... في هذه اللحظة ينظر نحونا تيفالنيوس وشيلون... اسمعني: ليلًا سيضعون ليفيا في تابوت ويخرجونها من السجن على أساس أنها ميتة. والباقي عليك...
ـ من سيفعل ذلك؟
لكن توليوس سينسيو أزعجها حيث مال نحوها يسال:
ـ أتدريان إن كانوا سيعطون المسيحيين أسلحة؟
فأجاب بترونيوس:
ـ لا ندري.
ـ الأفضل أن يعطوهم أسلحة والا سيكون الميدان بأسرع وقت مثل خشبة الجزار. ما أعظم هذا المدرج؟
كان المشهد مذهلًا حقا. أمكنة الجلوس السفلي المكتظة ب الأرديّة كانت بيضاء كالثلج. وجلس القيصر على منصة بقلادة ماسيّة، وإكليل ذهبي على رأسه. وإلى جانبه الاوغستا الفاتنة، لكن الكئيبة. ثم، إلى كلا جانبيه، جلست عذراوات فيستا ثم كبار المسؤولين، والسيناتورات بعباءاتهم الزخرفية، وكبار القادة العسكريين بزيهم الفاخر، وكل من يتمتع بمكانة مرموقة نتيجة للثراء، والوجاهة.
وفي الصفوف التاليّة جلس الفرسان، ثم تلاهم في الصفوف الاعلى جمهور الشعب المائج، وفي أعلى المدرج علقت بين كل عمود وعمود حبال مشغولة من الورود والزنابق، والمخمل، والكرمة.
كانت أصوات الشعب صاخبة، تنادوا، وهتفوا لبعض، وغنوا، وصدرت من بعضهم بين وقت وآخر تعليقات لاذعة تناقلوها من لسان إلى لسان، ثم سرعان ما فرغ صبرهم، فطقطقوا وهذروا مطالبين بالاسراع ببدء الالعاب.
وما لبث ضجيجهم بالمطالبة بالافتتاح، أن استحال ما يشبه الهدير. عندئذ شوهد قائد الحرس، يدور في الملعب، ملوحا بمنديله إيذانا بالبدء، فتعالت الأصوات"أوو، أوو، أوو" تطلقها الاف الحناجر.
بدأت الفرجة بملاحقة الوحوش، وقد قام بها برابرة جنوبيون، وشماليون من مختلف الأنحاء. رافقها قتال المقنعين. وهو قتال يخوضه خصوم على رؤوسهم خوذات عمياء دون فتحات عيون. نزل إلى الملعب بضع مجموعات من المقاتلين الذين راحو يلوحون خبط عشواء بسيوفهم، فيما قام آخرون بدفعهم وتقريبهم من بعض برماح شوكيّة طويلة. لم يتحمس جمهور الاشراف لهذه اللعبة، وتابعوها بحياديّة وازدراء.
أما عامة الشعب فقد أمتعتها هذه الحركات العشوائيّة للمتقاتلين إيما إمتاع، وآثارتها أيما إثارة. فإذا صادف وتصادم المقنعون بظهورهم علت قهقهات الجمهور وصيحاته:
"يمينا، يسارا، إلى الأمام" وغالبا ما كانوا في الميدان يتعمدون تضليل المتحاربين عن المواجهة ونادرا ما كان يحصل اشتباك بين الخصوم، وعندئذ يتخذ القتال منحي دمويا. منهم من وجدوا حلا مناسبا، فالقوا

ببلطاتهم وأمسكوا بعضا، باليد اليسرى لكي لا يضلوا عن بعضهم، ويتابعوا القتال حتى الموت بسيوفهم باليد اليمنى: من وقع أرضا رفع إصبعه في إشارة إلى طلب الرحمة. في العادة يطلب الشعب قتل الجريح، خاصة إذا كان مقنعا بخوذة، فلا يعرفونه. كانت أعداد المتحاربين تقل شيئًا فشيئًا حتى تبقى اثنان منهم في الميدان، فدفعوا بهما حتى تواجها بالجبين، فطعنا كل منهما الآخر. وتعالت الأصوات مرحبة ومهللة. ثم أتي الخدم وغطوا الجثث، وجاء الغلمان ومسحوا آثار الدماء فوق الجباه، ثم غطوها بورق الزعفران.

جاء الان دور القتال والأكثر جديّة، الذي آثار حماس كل من الاشراف والعامة. وكان من عادة الاشراف، عند مثل هذه المبارزات أن يراهنوا على مجالدهم المفضل بمبالغ ضخمة يصار إلى عرض قيمتها على العلن، مرفقة باسم المجالد، على لافتات تدور في الميدان.

كانت الرهانات، بالطبع، تنحصر بغالبيتها على أشهر المجالدين الذين حصدوا أكبر الانتصارات. لكن بعض اللاعبين وضعوا رهاناتهم على مجالدين جدد مجهولين، أملا في فوز يحقق أرباحا طائلة. راهن القيصر، والكهنة، وعذراوات فيستا، والسيناتورات، والفرسان، والشعب كذلك. وكانت العامة إذا ما أفلست غالبا ما كانت تراهن بحريتها.

وبقلوب خفاقة وفراغ صبر، انتظر الجميع ظهور الاطراف المتصارعة.

حين صدحت الابواق بأصواتها الحادة، ساد في المدرج جو من الترقب المشدود. وتوجهت الاف العيون ناحيّة المغاليق الضخمة حيث تقدم في وسط الصمت السائد، رجل بزي شارون، وطرقها بمطرقة ثلاثا، كأنما بذلك يدعو من وراء الباب إلى الموت. وبعد قليل فتح الباب على مصراعيه، فتت إلى المجالدون يفدون إلى الميدان بمجموعات حسب الجنسيات، عدد كل مجموعة خمسة وعشرون مجالدا بسلاحه الثقيل. تلاهم الشباكون، الذين يحملون بإحدى اليدين شبكة ورمحا ثلاثي الرؤوس باليد الأخرى.

تعالى لمرآهم التصفيق، الذي سرعان ما استحال إلى عاصفة شديدة عمت أرجاء المدرج. التهبت الوجوه، وفغرت الأفواه، وصفقت الأيدي من أعلى صفوف المدرج حتى أسفلها، وسمعت هتافات متفرقة هنا وهناك، حتى امتلا الميدان بالمجالدين الذين تقدموا بخطوات رتيبة مرنة، ومثلوا بكل هدوء وفخر أمام منصة القيصر.

صدح النفير فاسكت عاصفة التصفيق. وعندئذ رفع المجالدون أياديهم اليمنى، ملتفتين برؤوسهم ووجوههم نحو القيصر، وصرخوا يغنون بأعلى ما لديهم من أصوات:

مرحبا أيها القيصر الحاكم

السائرون إلى الموت يحيونك.

ثم تفرقوا بسرعة، واتخذوا الاماكن العائدة لهم في الميدان. كان في العادة أن يقوموا بمهاجمة بعضهم جماعات، أما الآن فقد سمح لهم أن يتقدم المبارزون المتميزون من بينهم، ليقدموا في البدايّة بعض المبارزات الثنائيّة، كاستعراض للقوة يفرز أفضل المتبارين، من حيث البأس، والمهارة، والشجاعة. تقدم أولا من بين الغالي ين المجالد هنتس الذي لمع اسمه بين أصدقاء السيرك لما حصد قبل الان من انتصارات. بدا بخوذته الضخمة، ودرعه الذي يغطي نصفه العلوي كحشرة مشعشعة عملاقة فوق رمال الميدان الصفراء. وتقدم في المقابل الشباك كالينديو ليكون خصما مبارزا له.

وسرعان ما عكف الجمهور على المراهنة.

- خمسمائة سستريوس للغالي.

- خمسمائة لكايندبو.

- بحق هيركوليس، الفا.

- الفين

وببلوغ الغالي منتصف الميدان، شهر سيفه إلى الأمام، ثم تراجع ثانية إلى الخلف، محنيا رأسه قليلا، ليرى خصمه من خلال شق الخوذة، بينما راح الشباك الرشيق الممشوق العضلات، العاري الا من كساء حول الحوض، يلاحق بخفة خصمه المتثاقل الحركة، ملوحا ببراعة بشبكته، وقابضا على رمحه الثلاثي الرؤوس ينزله حينا، ويرفعه حينا، وهو يردّد أغنية الشباكين المعروفة:
- لست أنت ما أبتغيه، بل سمكة، لماذا تهرب أيها الغالي؟
لكن الغالي لم يهرب، بل سرعان ما لزم مكاناً، منجزاً بعض الاستدارات الصغيرة حرصا منه على أن يظل خصمه أمامه دائما. كان الان مرعبا بهيئته ورأسه الضخمة. كان الجمهور على يقين من أن هذا الجسد المعدني الثقيل يتأهب للقفز، وأنه سيحسم المعركة.
في هذه الأثناء كان الشباك يقفز نحوه حينا، وينفتل عائدا حينا أخر، وهو يحرك رمحه حركات هي من السرعة والرشاقة بما يشق على البصر متابعتها.
صدم الرمح ترس الغالي مرات عدة دون أن تزحزحه من مكانه قيد شعره، الأمر الذي يدل على مدى قوته. وكأنما كان يركز كل انتباهه على الشبكة. التي ترفرف فوق رأسه باستمرار، كطائر شؤم. تابع الجمهور، بأنفاس مكتومة براعة المجالدين القتالية. حتى انتهز هنتس لحظة سانحة فدهم خصمه مهاجماً إياه بكل جسده، فيما انزلق كاليناديو من تحت ذراع الخصم وسيفه، ثم استقام ورمى بشبكته.
دار الغالي في مكانه، وتلقى الشبكة بترسه، ثم قفز كلاهما متراجعين إلى الخلف، فصدح الهتاف في المدرج "حظا موفقا" فيما بدأت في الصفوف السفلى رهانات جديدة. حتى الان كان القيصر يتحدث مع عذراء فيستا روبريا، و لم يبد اكتراثا لما يجري، لكنه الان التفت نحو الميدان.
أعاد المجالدين الكرة بالمهاجمة، وكان قتالا بارعا متقن الحركات، وكأنه قتال استعراضي وليس قتال حياة أو موت. استطاع هنتس أن يتجنب الشبكة مرتين، ثم تراجع لينتحي طرف الميدان، الأمر الذي جعل المراهنين عليه يهتفون "اهجم!" طاعهم الغالي وهاجم خصمه. سال الدم من الذراع التي تحمل الشبكة فانسدلت إلى الأسفل.
فاستجمع هنتس قواه، وقفز قفزة كبيرة بغيّة تحقيق الطعنة الساحقة. لكن كاليناديو كان يصطنع حركة توحي بعدم قدرته على استخدام الشبكة، فمال في اللحظة المناسبة متجنبا الطعنة، ودفع برمحه بين ركبتي الخصم، وأوقعه أرضا.
أراد ذاك أن ينهض، لكن خيوط الشبكة طوقته بلمح البصر، فراح يتخبط تحتها، فيما كان الرمح الثلاثي بضرباته المتلاحقه يثبته أرضا. ورغم ذلك حاول أن يستجمع قوته كرة أخرى، فاستند على ذراعه محاولا النهوض ثانيّة، لكن هيهات.
ثم حاول استخدام ذراعه ليمتشق السيف، ففشل في ذلك وسقط أرضا. فقام كاليناديو باستخدام رمحه لتثبيت هنتس من عنقه في الأرض. ثم بعدئذ وقد استند على الرمح استدار نحو منصة القيصر.
اهتز السيرك بكامله ممّاتع إلى من هتاف وتصفيق عاصفين. الذين راهنوا عليه، كان بالنسبة اليهم في هذه اللحظة أهم من القيصر. والذين نقموا عليه ووقفوا ضده، تلاشت نقمتهم لأن دماءه كانت السبب في امتلاء جيوبهم. لقد انشطرت رغبات الجمهور شطرين إذن. في المقاعد انقسمت الرغبات بين الموت والرأفة بالتساوي. لكن الشباك كان يرنو إلى منصة القيصر، وعذراوات فيستا منتظرا القرار الفصل.
"هنتس" لم يكن يحبه القيصر، لأنه في الألعاب الأخيرة قبل الحريق قد راهن ضده، وخسر مبلغا ضخما لصالح ليسينيوس، فكان من القيصر الان أن يمد يده من المنصة، ويدير إبهامه إلى الأسفل.
حاكت عذراوات فيستا حركته. جثا كاليناديو على ركبتيه فوق صدر الغالي، وأخرج خنجره من حزامه، ثم فك الدرع من حول عنق خصمه، وأغرق الخنجر في حنجرته.

- بيراكتوم است! تعالى الهتاف في المدرج.
أماهنتس فقد ارتعش بعض الوقت، حافراً الرمل برجليه، ثم تصلّب، وهمدت حركته نهائياً.
لم يجر اختباره بالحديد الحامي إن كان مازال حيا، بل سرعان ما أبعد من هناك، ليأتي محاربان آخران، وما أن انهيت الجولة، حتى بدأ القتال الجماعي. كانت مشاركة حماسية من الجمهور. هتفوا، وزمجروا، وصف روا، وصفقوا، وضحكوا، وشجعوا المتقتلين الذين انقسموا قسمين، وقاتلوا كالوحوش، صدرا لصدر، وتشابكوا في الميدان حتى الموت.
انغرزت السيوف في الأجساد صدورا و بطونا، وأهرقت الدماء من الأفواه، وسالت على الرمل. حاول البعض الفرار من شدة الجزع فأعادتهم السياط إلى الميدان. وسرعان ما اكتظ الميدان ببقع الدم، وتمددت الجثث العارية، المدماة على صدورها وظهورها أرضا كحزم القمح.
ترنح الأحياء فوق الجثث، متعثرين بالتروس والدروع، تدمي أرجلهم الأسلحة المحطمة. لم يدر الشعب كيف يوزع بهجته، فقد أروى بالموت أنفاسه المتعطشة وأتخم به بصره، والتذ باشتمام رائحته.
في النهايّة كاد أن يكون كل المهزومين قد لقوا حتفهم. و لم يبق الا قليل منهم جاثيا على ركبتيه في وسط الميدان، ملوحا بيديه نحو الجمهور طلبا للرحمة. تقاسم الفائزون الجوائز، والاكاليل وغصون الزيتون. تلا ذلك استراحة قصيرة تحولت بأمر من القيصر إلى مأدبة. وضعت المواد العطريّة، ورش الماء المعطر رذاذا ناعما فوق الجمهور. ووزعت الفطائر، واللحم المشوي والكعك المحلى، والنبيذ، والزيت، والفاكهة. أكل الشعب، وتبادل الأحاديث، وعيش القيصر بهتافات صاخبة، لينعم عليه بمزيد من كرمه. والحقيقة أن الجمهور حين طرد جوعه وعطشه، دخل الأرقّاء حاملين سلال الهدايا التي أخرج منها صبيان يرتدون زي أمور أشياء صغيرة، وقاموا برشها بين المقاعد. أما حين وزعت بطاقات اليانصيب فجاء دور العراك، وتزاحم الناس وتدافعوا، و داسوا على بعض، وقفزوا فوق أماكن الجلوس، حتى أرهقو من تدافعهم الرهيب، فمن حظي برقم رابح، يمكن أن يفوز بمنزل وحديقة، أو بعبد، أو لباس فاخر، أو وحش نادر يمكن أن يبيعه لمدرج الالعاب. عمت فوضى جعلت الحرس الامبراطوري مضطرا للتدخل وإشاعة النظام. وغالباً ما تسبب هذا التزاحم بكسر أياد وأرجل، واختناقات كان لا بد من إخراج من لحقت به بعيدا عن المكان.
لكن ميسوري الحال لم يسهموا في العراك الجاري للحصول على بطاقات الحظ. الاوغستيان قضوا وقتا ممتعا بالمرح على شيلون، ساخرين من بذله أقصى ما لديه من جهد ليثبت أن بوسعه مشاهدة القتال وسفك الدماء كأي أحد آخر. لكن اليوناني المنحوس لم يجده نفعا أنه راح يقطب حاجبيه، ويعض شفتيه، ويشد على قبضتيه حتى انغرزت أظافره في كفه. لا طبيعته اليونانيّة، ولا جبنه الشخصي يؤهلانه لتحمل مثل هذا المشهد. شحب لونه، وتعرق جبينه، و ازرقت شفتاه، وغارت عيناه، واصطكت أسنانه، وارتعش كل جسده. ولم يعد إلى طبيعته قليلا الا بعد انتهاء القتال.
وأراد فاتينوس أن يغيظه فقال له وهو يشده من لحيته:
- ما بك أيها اليوناني. أراك لا تحتمل رؤيّة جلد إنسان مسلوخ.
كشر شيلون عن سنيه الصفراوين الوحيدتين المتبقيتين وأجابه:
- لم يكن والدي حذاء فمن أين لي أن أدبغ جلودا.
-ماكتي! هابيت! صدرت بعض الأصوات.
لكن آخرين استأنفوا إهانته، فقال سينكو:
- ما بيده حيلة، في صدره بدلا من القلب قطعة من الجبن
فرد شيلون قائلاً:

ـ وأنت كذلك ما بيدك حيلة، لأن الذي فوق عنقك دملة، بدلا من رأس.
ـ الا تبغي أن تكون مجالدا؟ أراك مناسبا للميدان وفي يدك شبكة.
ـ إن القها عليك، أمكنني القول أني التقطت هدهدا.
وسأله فستوس:
ـ ما الذي سيحصل للمسيحيين؟ الا تريد أن تكون كلبا دموماً وتنهش بلحمهم؟
ـ لا أرغب أن أكون أخاً لك.
ـ آ، أنت إذن مجرد قرحة ميوتيسية.
ـ وأنت مجرد بغل ليغوري.
ـ لا بد أن جلدك يشعرك بالحكة، لكني لا أنصحك بأن تطلب مني أن أحكه لك.
ـ احرص أن تحك نفسك. إذا ما اقتلعت ما بك من دمامل، تكون قد قضيت على أثمن ما لديك هكذا كانوا يهزؤون منه، وعلى نفس المنوال كانت ردوده الحانقة.
صفق القيصر، صارخا بأعلى صوته ماكتي!، واستمر في تشجيعهم. وبعد وقت قصير جاء بترونيوس، وربت على كتف اليوناني بعصاه العاجيّة، ثم قال ببرود:
ـ حسنا أيها الفيلسوف الحكيم. لقد أخطأت في واحدة. لقد خلقتك الالهة قاطع طريق، لكنك صرت شيطانا، فلن تنجو من أفعالك.
رمقه العجوز بعينين لاهبتين، دون أن يعثر على رد مناسب. صمت للحظة، حتى نطق بغير قليل من الجهد.
ـ أنجو!
هنا صدحت الابواق، إشارة لانتهاء فترة الاستراحة غادر الحضور الأمكنة المجاورة التي جاؤوا اليها بقصده التمطي، وتحريك أجسامهم، والتحدث قليلا.
عمت حركة شاملة، تلاها عراك على الأمكنة المحتلة من قبل السيناتورات والاشراف أيضاً عادوا مسرعين إلى أماكنهم، وما لبث الضجيج أن خف، ثم تلاشى واستتب النظام في أرجاء المدرج.
وظهر في الميدان رهط من الذين ينظفون الرمال من بقع الدم المنتشرة هنا وهناك.
جاء الان دور المسيحيين: وبما أن ذلك كان مشهدا مستجدا أمام عيون الشعب، لم يعرف الجمهور كيف سيتصرف، الأمر الذي جعله يترقب المسيحيين بفضول، لكن الجميع هنا كان يكن العداء لهم، لا سيما وأنهم من أودى بروما وكنوزها العريقة. فهم الذين يتغذون بدماء الأطفال، وسمموا المياه، ولعنوا الجنس البشري، وارتكبوا أبشع الأعمال الشريرة.
كانت الشمس قد نهضت في السماء بأشعتها الأرجوانيّة التي نفذت خلال المظلات الواقية، وغطت المدرج بالضوء الأحمر.
سبح رمل الميدان بضوء ناري، وكان مشهدا ينطوي على شيء من الهلع، كمشهد الوجوه، والميدان الحالي، الذي سيكتظ للتو بالعذاب الانساني والوحوش الغضبى، كأنما الموت والرعب يرفرفان في الجو.
وكان الجمهور المرح في العادة، قد لزم صمتا يضمر الكراهيّة. وانعكس على الوجوه حنق وحشي ضار.
في هذه الأثناء أعطى قائد الحرس إشارة، فظهر بثياب شارون الكاهن نفسه الذي دعا المجالدين من قبل إلى ساحة الموت. دار كامل الميدان بخطى وئيدة، ثم تقدم نحو الباب وقرعه. مطرقته ثلاثا اكتسحت الصمت الرائن في المكان.
اصطخب المدرج:
ـ المسيحيون! المسيحيون!

صرت المغاليق، فهدر من خلال الفتحات القائمة النداء المعروف: "إلى الساحة" ، وبطرفة عين امتلأ الميدان بأشكال ترتدي جلود الحيوانات، وكأنما جيء إلى هنا بسكان غابات.
دخلوا مسرعين، وببلوغهم وسط الميدان، رفعوا أياديهم، وركعوا إلى جانب بعض. ظن الشعب أنهم يطلبون الرحمة، فأغضبه هذا الجبن وراح يصفر، ويقرقع، ويرمي عليهم آنية النبيذ، والعظام المنهوشة.
ويصبح ملء المناجر:
الوحوش! الوحوش!
هنا حصل أمر غير متوقع. من بين هذا الحشد الفظ صدمت اغنية غير مالوفة الوقع لم يحدث أن رددت في السيرك الروماني.
ذهل الجمهور. ورفع المتهمون عيونهم نحو مظلة المدرج في الاعلى وبدؤوا الغناء. رأوا الوجوه الشاحبة لكن المأخوذة. أدرك الجميع أن هؤلاء لا يطلبون الرحمة، وأنهم كأنما لا يرون السيرك ولا الجمهور، ولا مجلس الشيوخ، ولا حتى القيصر. "المسيح يحكم".
صدحت الأغنية، واشتدت شيئاً فشيئاً. وراح كثيرون في المدرج يتساءلون في أنفسهم: ما هذا؟ من هو المسيح الذي يحكم حسب رأي هؤلاء الذين في طريقهم إلى الموت. لكن في هذه الأثناء فتح باب آخر، فتدفقت منها كلاب الدموم المسعورة، والكلاب الهنغاريّة الاشبه بالذئاب، وكلاب الدرواس الضخمة، وكلها جائعة هزيلة محمرة الاعين، فملأت بنباحها، وعوائها أنحاء المدرج. بانتهاء المسيحيين من ترديد شعارهم، كأنما تحولوا إلى جماد، فاستمروا في ركوعهم بلا حراك، مرددين "مع المسيح! مع المسيح".
شمشمت الكلاب الجلود فوق أجساد البشر ولأنها لم تتأكد من ثباتهم دون حراك، لم تجرؤ بادئ الأمر أن تهرع إلى الانقضاض عليهم. ولزم بعضها الجدران كأنها تريد الوصول إلى الجمهور فيما راحت كلاب تنبح مسعورة وهي تدور في الميدان جريا وراء فريسة غير مرئية. اغتاظ الشعب. طلعت الاف مؤلفة من الأصوات، بعضها قلد زمجرة الوحوش، آخرون نبحوا كالكلاب، فئة أخرى حرضت الكلاب من جديد، فاهتز المدرج بالزئير. هرعت الكلاب المثارة نحو الراكعين، فاغرق كلب دموم أنيابه في عنق امرأة في الصف الأول، والقى المسكينة تحته.
راحت الكلاب الان تجري بين الحشد، كأنما قد أنهار من أمامها حائط الدفاع. تخلى المتفرجون عن زئيرهم، لكي يتسنى لهم متابعة المشهد بأقصى ما هنالك من انتباه. كانت الكلاب تعوي، وأصوات الرجال والنساء تصدح: "مع المسيح! مع المسيح" ، لكن في الميدان قد صارت أجساد البشر والكلاب تتشابك متشادة متمرغة فوق الرمل. سالت الدماء مهراقة من الأجساد الممزقة. وانتزعت الكلاب من أفواه بعضها الاعضاء البشريّة.
وفاحت رائحة الدم، والاحشاء، ممزوجة بضوء الابخرة العربيةّ، حتى ملأت أجواء السيرك و لم يبق في النهاية الا بعض الهيئات الراكعة المتفرقة هنا وهناك، سرعان ما التهمتها الكلاب الشرهة.
في أثناء دخول المسيحيين الميدان كان فينيكوس، وفاء منه بوعده، قد نهض، واستدار ليشي بمكان تخفي الحواريّ بين رجال بترونيوس، ثم جلس ثانيّة، ليشاهد بعينين زجاجيتين، ووجه انعدمت فيه الحياة، تلك الواقعة الفظيعة. كان القلق قد تملكه في البداية لشعوره بأن ليفيا قد تكون بين الضحايا، لكنه بعد سماعه الهتافات"مع المسيح!" ورؤيته هذا القدر الهائل من الشهداء، الذين واجهوا العذاب والموت فداء الالههم، ومبادئهم، انتابته مشاعر أخرى، غير محتملة واليمه كأقسى ما هنالك من الام.
ولكن إن كان المسيح قد واجه عذاب الموت، وإن كان الالاف الان يقدمون ارواحهم، ويبذلون الدماء مهراقة، باسمه، فكل شيء بعد ذلك يبدو ضئيلا، لا أهميّة، ولا معنى له، والسعي لطلب الرحمة بات خطيئة كبرى.

نبعت هذه الفكرة من أرض الميدان وحلقت اليه ممتزجة بأنين الموتى، ورائحة دمائهم. ورغم ذلك راح يصلي، ورددت شفتاه الراجفتان: "يا مسيح! يا مسيح! تلميذك الحواريّ أيضاً يصلي لأجلها". وكان بذلك أن فقد إدراكه، فلم يعد يدري أين يكون. كان فقط يشعر أن الدم ما زال يسفك ويسفك حتى ارتفع منسوبه في الميدان، وفاض من السيرك وأغرق كل روما.
ولم يكن يسمع شيئاً، لا نباح الكلاب، ولا زمجرة الشعب، ولا صيحة الاوغستيان المباغتة:
- شيلون أغمي عليه.
ورددها حتى بترونيوس ملتفتا نحو اليوناني.
كان قد أغمي عليه فعلا. أقعى هناك بوجه شاحب، ورأس مسترخيّة، إلى الخلف، وفم فاغر كالجثة.
في هذه اللحظة قدم إلى الميدان مجموعة أخرى من الضحايا بجلود الحيوانات.
ركع هؤلاء كسابقيهم حالا، لكن الكلاب المنهكة حتى آخر رمق، لم تشأ أن تنقض عليهم، باستثناء قلة قليلة هاجمت أقرب الراكعين، أما الكلاب الاخرى فقد استرخت مقعية لاهثه، فاغرة أفواهها الدامية نحو الأعلى.
عندئذ بدأ الشعب المضطرب في أعماقه، لكن الثمل من الدماء، المتعطش اليها، يصدر زئيرا يصم الآذان:
الأسود! الأسود! أطلقوا الأسود!...
كانت النيّة أن يكون إطلاق الاسود في يوم الغد، لكن الشعب تحدى الجميع ومنهم القيصر، وحاول فرض إرادته. وحده كاليغولا الأرعن المتطرف الميول، كان يجرؤ على الوقوف في وجه إرادة الشعب، فلجأ إلى جلدهم أحيانا، لكنه استجاب لهم أحيانا أخرى.
أما نيرون فكان التصفيق أهم الأشياء بالنسبة اليه، فلم يكن ليعارض ابدا، فكيف الان يلجأ إلى تهدئة الشعب الغاضب، والأمر يتعلق بإحراق المدينة الذي حمل المسيحيين تبعاته.
أشار إذن لفتح الأبواب. هدأ الشعب. صرت المغاليق، وما إن رأى الكلاب الأسود حتى انحشرت في ركن ناء من الميدان، وراحت تنبح نباحا خفيفا. فيما تتالت الأسود الضخمة الشاحبة في الدخول إلى الميدان. القيصر نفسه التفت بوجهه الفاتر نحوها، ورفع نظارته الزمردية إلى عينيه ليراها جيدا. استقبل الاوغستيان الوحوش بالتصفيق.
وراح الجمهور يحصيها على أصابعه، في وقت يتابع بفضول مدى تأثيرها على المسيحيين الراكعين في وسط الميدان، والذين أخذوا يرددون العبارة الغريبة المجهولة من قبل الكثيرين"دم المسيح! مع المسيح!".
ولكن لم يجد نفعا أن الاسود قد جوعت، فلم تهاجم فرائسها على الفور. كان الضوء الأحمر الذي يغطي الميدان يؤثر على عيونها، فراحت تتفحصها بانبهار:
بعض منها تمطى، وبعض أخر فغرت أفواهها كأنما أرادت أن تعرض أنيابها الرهيبة على الجمهور. الا أن رائحة الدم ومشهد الأجساد الممزقة المرمية بكثافة قد أثرت بها، فسرعان ما اضطربت حركاتها، وانتعشت أعرافها، وشخرت. قفز أحد الأسود إلى جثة امرأة منهوشة الوجه، وأخذ يلعق الدم المتجمد فوقه، واقترب أسد أخر من رجل مسيحي يحمل بين ذراعيه طفلا يرتدي جلد غزال. ارتحف الطفل من شدة البكاء، وتشبث بعنق أبيه. أما الأب رغبة منه ان يطيل من عمر ولده لحظة على الأقل، حاول إفلات يدي الطفل من حول عنقه، لكي يودعه لدى الراكع الابعد. لكن الصراخ، والحركة أثارا الأسد، فما كان منه الا أن مزقه بخطفة واحدة من براثنه ليقبض بأنيابه على رأس الوالد ويسحقها بطرفة عين.
وقد رأت الاسود ذلك، انقضت بأجمعها على المسيحيين. بعض النسوة لم يستطعن كتم صرخة الرعب. لكن عاصفة التصفيق غطت على صرخاتهن، الا أن التصفيق سرعان ما خمد، لأن الشعب فضل أن يكرس جل انتباهه على المشاهدة.
حدثت الان فظائع أمام عيون المشاهدين: رؤوس بشرية في أفواه الوحوش، صدور مشطروطه بالانياب،

وقد نفرت منها قلوب ورئات.
طقطقات عظام بين أسنان الأسود، بعض الاساد كانت تقبض على ضحاياها من أجنابها أو ظهروها، وتجري بها جريا مسعورا، وكأنها تريد أن تنحى بها إلى جانب مستور في أرض الميدان تلتهمها فيه. آساد أخرى كانت تعانق بعضها بأنيابها، كما يفعل المصارعون، وتملأ المدرج بزمجراتها الهادرة.
قفز الناس عن أماكنهم وغادر الكثير مقاعدهم، ونزلوا إلى صفوف أدني ليشاهدوا الميدان عن كثب، وتدافعوا تدافعا قاتلا، حتى بدا أن الجمهور الحانق يندفع إلى الميدان لينافس الوحوش على المسيحيين.
هنا زئير لا إنساني، هنا تصفيق، هنا صراخ وضجيج، صرير أسنان، عواء كلاب. وفي مكان أخر لا يسمع الا أصوات النواح والانين.
والان كان القيصر أيضاً يشاهد ما يجري واضعا الزمردة أمام عينيه. بترونيوس كان مشمئزا يشعر بطعم كريه في فمه، وتتوزع وجهه علائم الاحتقار. شيلون كان قد أخرج باكرا من الميدان.
لم يتوقع الدفع بضحايا جديدة إلى الميدان. كان الحواريّ بطرس يراهم من أعلى المدرج. أما هو فلم يكن يراه أحد، لأن العيون كلها توجهت إلى الميدان. الأمر الذي أتاح له أن يقف مودعا بإشارة الصليب، الاخوة الوارثين بين أنياب الوحوش، ودماءهم، وعذابهم، وأجسادهم الميتة الممزقة الشوهاء، وأرواحهم المحلقة وقد غادرت رمل الميدان الدامي.
نظر البعض عاليا اليه، وأشرقت وجوههم بالابتسام حين رأوا من بعيد يرسم إشارة الصليب فوقهم. أما هو فقد راح يصلي بقلب دام: "يا سيدي، لتكن مشيئتك أنت، لأن خرافي هؤلاء تموت من أجل مجدك، وإثباتا للحق. لقد أوصيتني أن أرعاهم. وها أنذا أعيدهم اليك. أما أنت يا سيدي فخذ بحسبانك، أن تأخذهم اليك، وتداوي جراحهم، وتخفف من الامهم، وامنحهم سعادة تفوق ما عانوه هنا من عذاب".
وودعهم واحدا واحدا، وباركهم بكل المحبة مجموعة بعد أخرى، وكأنهم ابناؤه السائرون ليكونوا مباشرة بين يدي المسيح. في هذه الأثناء همس القيصر شيئاً في أذن قائد الحرس، فغادر الاخير المنصة وبعد لحظات رأت الجماهير أن الأبواب تفتح من جديد أمام الحيوانات المفترسة أفلتت الآن إلى الملعب كل أنواع الوحوش. نمور، دببة، فهود، ذئاب، ضباع، ابناء آوى. غطت أرض الميدان مختلف الجسوم الحيوانية المبرقعة، والغبراء، والصفراء، والبنية، والمخططة.
خليط هائل دهم المكان، حتى لم يعد بالامكان تبين أي شيء، سوى هذه الكثافة الحيوانية، المتحركة. لقد فقد المشهد فطره الواقعي مسحته الواقعية. واستحال إلى طقس عربيد دام، إلى كابوس مروع، وتشاؤمية سوداوية يعاني منها دماغ مريض. طفح الكيل. الزئير الحيواني، والعواء، والزمجرة، جعلت بعض النسوة في مقاعد المتفرجين هنا، وهناك، وقد فقدن السيطرة على أنفسهن، يتعرضن لنوبات من الضحك.
أصاب الناس الجزع، وتجهمت وجوههم، وارتفعت أصوات تهتف: "كفى! كفى!"
لكن إدخال الحيوانات إلى الميدان كان أسهل من إخراجها. لكن القيصر اكتشف طريقة لتنظيف الميدان، وذلك بإضافة متعة جديدة إلى الجمهور. ظهر في كل ممر بين المقاعد مقاتلون زنج في آذانهم ريش وحلي، وفي أيديهم أقواس رماية. اكتشف الشعب ما سيجري، فهلل عاليا.
تقدم النبالون من الحواجز، وعلقوا النبال في الأقواس. وصوبوها نحو الحيوانات. كان ذلك مشهد جديدا في الواقع. مالت الأجساد الزنجية الرشيقة إلى الخلف، وشدوا الأقواس المرنة، ثم أخذوا يطلقون نبالهم واحدا بعد آخر. امتزج رنين الاوتار وأزيز الرماح المريشة، بزئير الوحوش، وصراخ الجمهور الذاهل. سقطت الذئاب والدببة، والفهود وما تبقى من بشر على قيد الحياة، كلها تهاوت بكثافة إلى جانب بعض. وقام الاسود هنا وهنا، بإدارة رؤوسها نحو الخلف، وعض الرماح العالقة بأجنابها وتحطيمها. بقية الحيوانات عوت في الامها. الوحوش الضئيلة الحجم جرت مذعورة في أرض الميدان، ثم سقطت على جباهها أو

ظهورها، أو اصطدمت بالحواجز الشبكية. لكن الرماح لم تتوقف عن الازيز حتى نالت من كل كائن حي، وأردته قتيلا فوق رمل الميدان.
في هذه الأثناء دخل أرقاء السيرك بالمئات إلى الميدان، وفي حوزتهم الرفوش والمجاريف، والمكانس، ويجرون عربات، ويحملون سلالا، لجمع الأمعاء المندلقة، وأدخلوا معهم أكياسا جديدة من الرمل. دخلوا مجموعة إثر مجموعة، وسرعان ما نظفوا الميدان من الجثث، والدماء والروث، ثم قاموا بتسوية أرضه، ونشروا فوقها طبقة جديدة من الرمل.
ثم جاء أطفال مجن حون بصورة كيوبيد، وراحوا يرشون الرمل بتويجات الورد، والزنبق وشتى أنواع البتول. ومن جديد اشعلت المباخر، وأزيلت مظلة المدرج لأن الشمس قد جنحت بشدة نحو المغيب.
تبادل الجمهور النظرات، وتساءلوا فيما بينهم: ترى أي فرجة تنتظرهم في هذا اليوم بعد؟
وفي الواقع لقد حصل ما لم يتوقعه أحد. قيصر الذي كان قد غادر المنصة منذ وقت طويل، عاد ليظهر الان في الميدان الزاهر بالورود، بحلته الأرجوانية، وإكليله الذهبي. كان في إثره اثنا عشر مغنيا، بآلاتهم الوترية، أما هو فقد حمل قيثارا، وتقدم بخطوات مراسيمية نحو الوسط لم يبخل ببعض الانحناءات لجمهور المشاهدين، رفع عينيه نحو السماء، وظل على هذه الحال بعضا من الوقت كأنه ينتظر أن يجيئه الالهام.
ثم انحنى على قيثاره، وأخذ يغني:
يا بن لاتونا المجيدة رامي السهام بعيدا
ملك كريسي، سيد تندوس المقدسة
يا من حميت بترسك الواقي
قلعة اليون البرجية الالهية
لم تخليت عن شعبك الطروادي
الذي ضحى بوفاء في معبدك
آه، كيف احتملت
أن يهدم غضب الأكاويين المتوحش قلعتنا
النساء، الأطفال، الرجال، الشيوخ
بسطوا أياديهم المرتعشة نحو السماء:
حتى الحجارة الخشنة رجمت عليهم
وسمعك أنت أصم، بلا إحساس!
عزفتَ على قيثارك الموسيقا المرحة
خالجها التأوه، والصلاة، والشكوى، والتنهدات
لكن قلبك القاسي
لا يستشعر بؤس الالاف.
وشيئاً فشيئاً اتخذت الأغنية منحى مأساويا
ساد الصمت في الميدان. وبعد وقت قصير استأنف القيصر الغناء:
لكن أعيننا عابسة الان
دامعة كزهرة ندية
غارقة في الالام
لأن النيران أتت على اليون
أين كنت آنذاك، يا سمينتوس الالهي

لتدع قلعتك الالهيّة تضيع
وإن لم تحمنا في خرابنا
فمن سيتقدم اليك بالقرابين؟

ارتعش صوته، واغرورقت عيناه بالدمع. ودمعت كذلك عيون عذراوات فيستا. أصغى الشعب صامتا، لكنه ما لبث أن انفجر بعاصفة لا تنتهي من التصفيق.

في هذه الأثناء كان يسمع في الممرات المفتوحة صرير العربات التي تنقل بقايا الرجال والنساء والأطفال المسيحيين المدماة لوضعها في حاويات ضخمة تدعى بوتيكولوم فيما كان الحواريّ بطرس يعقد يديه حول رأسه الاشيب ويصرخ
في أعماقه:

"سيدي! سيدي! لمن أعطيت السيادة على العالم؟ ورغم ذلك تريد أن تثبت عرشك الملكوتي في هذه المدينة؟".

في هذه الأثناء مالت الشمس نحو الغرب، وأوشكت أن تذوب متوهجة. انتهت ألعاب السيرك. وتدفقت الحشود تغادر المدرج عبر المخارج المسماة فوميتوريوم، وتبعثرت في المدينة. وحدهم الاوغستيان من تخلف لأنهم كانوا ينتظرون ابتعاد الموجة البشرية. ترك الجميع مقاعدهم وتحلقوا حول المنصة، التي عاد اليها القيصر مجدداً، ليستمع إلى الاطراءات.

لقد كافأه الجمهور بالتصفيق طبعاً، حين أنهى غناءه، لكن ذلك لم يكن ليرضيه، لأنه ينتظر حماسا جنونيا. لم تنفع أناشيد التمجيد التي صدحت، ولا انعكاف عذراوات فيستا على تقبيل القيصر، في وقت مالت فيه روبريا نحوه، حتى أوشك شعرها الأشقر أن يلامس صدره. كل ذلك لم يرضه، ولم يستطع إخفاء ذلك. والذي أقلقه أيضاً، وزاد من استغرابه أن بترونيوس ظل صامتا. كان يتمنى منه لو كلمة ثناء واحده تواسيه، وتعطي للغناء قيمة وأهمية.

ولما فرغ صبره، أشار لبترونيوس حين جاء إلى المنصة.

قال نيرون:

ـ قل لي...

ـ ساكت لأني لم أعثر على عبارات أجاب بترونيوس ببرود لقد تجاوزت نفسك.

ـ هذا ما ظننته أنا أيضاً، وهذا الشعب رغم ذلك...

ـ كيف ترغب من هؤلاء الرعاع أن يفهموا في الشعر.

ـ بمعنى أنك لاحظت أنهم لم يقدروا الاغنيّة بالدرجة التي أستحقها؟

ـ لأن اخترت وقتا رديئا.

ـ لم؟

ـ لأن الرؤوس التي دوختها رائحة الدم، لا تستطيع أن تصغي بانتباه.

ضغط نيرون على قبضته وأجاب:

ـ آ، هؤلاء المسيحيون! لقد أحرقوا روما، وهاهم يحاولون أن يهينوني. فأي عقاب آخر سأوجهه اليهم بعد؟

لاحظ بترونيوس أنه يسير في اتجاه سيء، لأن ما نطق به الان ولد تأثيرا على العكس مما يأمله فيه. ومحاولة منه لتشتيت أفكار نيرون مال نحوه وهمس قائلاً:

ـ أغنيتك بديعة، وملاحظتي الوحيدة أن المقطع الشعري ما قبل الأخير ليس تام الوقع في سطره الرابع.

احمر نيرون، وكأن وصمة من العار قد الحقت به، فرمق بترونيوس بنظرة جزعة، وأجابه هامسًا على نفس المنوال:

ـ أعلم أنك تلاحظ كل شيء!... سأعيد النظر في المقطع!... لكن أحدًا لم يلاحظ هذه الهنّة أليس كذلك؟ أما أنت... حبًّا بالالهة... لا تجهر بالأمر أمام أحد... إذا كنت تحبذ حياتك...

قطّب بترونيوس حاجبيه، وكأنه سئم المسالة، فكان ردّه لا كما ينبغي:

ـ لك أن تحكم عليِ بالموت، أيها القيصر الالهي، إذا كنت أقف في طريقك، لكن لا تهددني بالموت، لأن الالهة يدركون جيدًا أنني لا أخافه.

كان يتكلم مثبتا حدقيته في عيون القيصر الذي قال بعد قليل:

ـ لا تغضب... تعلم أنني أحبك...

فكر بترونيوس في داخله "إشارة سيئة"

كان القيصر يتابع الكلام:

ـ كنت أنوي اليوم دعوتك إلى مأدبة، لكني سأهتم بتصحيح السطر الرابع اللعين من المقطع الثالث في

القصيدة. ما عداك، لعل سينكا وسيكوندوس قد لاحظا الخطأ، لكني أستطيع أن أتخطاهما.
ودعا سينكا اليه، وأخبره بأنه سيرسله برفقة كل من أركراتوس وسيكوندوس إلى إيطاليا بحثاً عن المال، وبأوامر منه يقلبون المدن، والقرى، والمعابد الشهيرة، أي كل الاماكن التي يحتمل أن يجدوه فيها. لكن سينكا، وقد أدرك أنه مكلف بأعمال سلب ونهب، فقد رفض الفكرة قائلاً:
- على أن أسافر إلى القرية يا سيدي، لأنتظر الموت هناك، فقد أصبحت عجوزا، وأعصابي مريضة.
كانت أعصاب سينكا الإيبرية أصلب من أعصاب شيلون، ولعلها لم تكن معتلة، لكن صحته بالعموم كانت واهنة. كان كالشبح، وقد كسا الشيب كل رأسه في الآونة الاخيرة.
نظر نيرون اليه، وفكر أن سينكا بانتظار الموت حقا، فكان رده:
لست راغبا في إرهاقك. بمهمات جديدة إن كنت مريضا، لكن بما أني أحبك. فأقترح عليك، بدلا من السفر إلى القرية أن تغلق عليك باب البيت ولا تغادره.
وأطلق قهقهة عالية واستأنف كلامه:
- إن أرسلت أكراتوس وكايناس. بمفردهما، كأني أطلق ذئابا على حملان. من أضع على رأسيهما؟
فتطوع دوميتوس آفر قائلاً:
- أنا، يا سيدي!
- لا! لا أريد أن أصب على روما غضب مركوريوس الذي ستجلبون له العار بلصوصيتكم أنا أحتاج إلى رواقي مثل سينكا أو صديقي الفيلسوف الجديد شيلون.
وقال متسائلا وقد أدار بعينيه على من حوله:
وماذا عن شيلون؟
كان ذاك قد استعاد وعيه في الهواء الطلق، ورجع إلى المدرج في أثناء وصلة القيصر الغنائية ليقول:
- أنا هنا، يا نور الشمس والقمر. كنت مريضا، وشفاني غناؤك.
فقال نيرون:
- سأرسلك إلى أكايا وهناك ينبغي عليك أن تعلم بمنتهى الدقة كم من المال بحوزة كل عبد.
- افعل ذلك، وسوف يغدق عليك زيوس والالهة، كما لم يغدقوا على أحد من قبل.
- سأفعل، لكني لا أريد أن أضيع عليك فرصة الاستمتاع بالعاب السيرك.
فصرخ شيلون:
- يا بعل!
أما الاوغستيان فقد سروا لاستعادة القيصر مزاحه الرائق، فصرخوا ضاحكين:
- لا يا سيدي! لا تمنع اليوناني فرصة الاستمتاع بالالعاب.
فأجاب شيلون:
- لكن جردني من ثرثرات جماعة الأرز الكابيتوليّة هذه، التي لا تملأ عقولها مجتمعة قمع حبة بلوط. أنا أعكف الان على نظم نشيد باللغة اليونانيّة لتمجيدك، يا سليل أبولو البكر، وأرجو منك أن تمنحني فرصة الإقامة بضعة أيام في معبد موزيه حارسة الفنون والشعر والعلوم، لأتوسل الالهام.
فصرح نيرون:
لا، لا! إنك ترغب في التهرب من متابعة بقيّة الألعاب.اطمئن فليس فيها ما يخيف.
- أقسم يا سيدي بأني أنظم نشيدا.
- ستلحق وتنظمه في كل ليلة. توسل ديانا من أجل الالهام، فهي أخت أبوللو الصغرى. أطرق شيلون، ورنا بنظرات حانقة إلى الحضور الذين أخذوا يضحكون. أما القيصر فقد التفت إلى سينيكيو وسوليوس قائلاً:

ـ تصوروا أننا لم نستطيع أن ننهي في هذا اليوم الا نصف المسيحيين على الأكثر.
فانبرى ريفولوسس العجوز، الخبير المتمرس بشؤون الالعاب في المدرج يقول بعد تفكير قصير:
ـ تلك العروض التي يقوم بها أشخاص سين أرميس السين تدوم طويلاً لكنها غير ممتعة.
فكان رد نيرون:
ـ ناولوهم أسلحة
لكن فيستينوس المأخوذ بالخرافة ارتعشت أوصاله من شطحات القيصر فنطق قائلاً:
ـ الم تلاحظوا أن هؤلاء حين يمضون إلى حتفهم يرون شيئاً ما؟ ينظرون نحو الأعلى، ويواجهون الموت دون خوف أو معاناة. أنا واثق أنهم يرون شيئاً ما... ورفع عينيه نحو فتحة المدرج التي نشر المساء فوقها مظلته المدروزة بالنجوم. لكن الاخرين قابلوا كلامه بالضحك، والتعليقات الساخرة. في هذه الأثناء كان القيصر قد أشار للأرقاء اصحاب المشاعل، ثم غادر السيرك ليلحق به عذراوات فيستا، والسيناتورات، والمسؤولون، والاوغستيان.
كانت أمسية حارة، منيرة. وكانت الحشود ما زالت متجمعة أمام السيرك، لتشهد انصراف القيصر، لكنها بدت صامتة متجهمة، ما عدا بعض التصفيق الذي تخامد شيئاً فشيئاً هنا وهناك. فيما لو تتوقف العربات عن شحن بقايا الاعضاء الدامية للمسيحيين.
توجه بترونيوس وفينيكوس إلى البيت صامتين. ولم ينطق بترونيوس الا قبل بلوغ الفيلا بقليل.
ـ هل فكرت فيما قلته لك؟
ـ أجل.
ـ أتصدق أنها باتت قضية تهمني الان كثيرا؟ على أن أنقذها رغم أنف القيصر وتيفالنيوس. لقد عقدت العزم على أن أفوز في هذه الحرب. لعبة وعلى أن أربحها ولو كلفني ذلك حياتي... وهذا اليوم قوى من عزيمتي.
ـ جزاك المسيح لهذا خيرا.
ـ سترى
كانا قد صار اقرب باب الفيلا، فترجلا من الهودج. فتقدمت نحوهما هيئة قاتمة وبادرتهما بالسؤال:
ـ هل النبيل فينيكوس هنا؟
ـ هنا أجاب الحاكم فينيكوس ماذا تريد؟
ـ أنا نازاريوس بن مريام. جئت من السجن، حاملا لك خبرا عن ليفيا.
وضع فينيكوس يده على كتف الصبي ونظر في عينيه على ضوء الشعلة، دون أن يتمكن من النطق بكلمة. لكن نازاريوس قرأ السؤال الراقد على شفتي الشاب، وأجاب عنه في الحال:
ـ ما زالت على قيد الحياة. يبلغك أرسوس أنها تصلي وهي في غيبوبتها من الحمى، وتذكر اسمك.
فأجابه فينيكوس:
ـ لتحمد المسيح الذي يستطيع أن يعيدها الي.
ثم قاد نازاريوس إلى المكتبة، ولحق بهما بترونيوس بعد قليل، ليسمع حديثهما.
قال الصبي:
ـ لقد أنقذها المرض من العار، لأن الحراس يخشون العدوى. أرسوس والطبيب كلاوسوس لا يفارقان سريرها.
ـ ما زال هناك الحراس أنفسهم الان؟
ـ أجل يا سيدي، وليفيا في غرفتهم. الذين كانوا في السجن الأول، قتلتهم الحمى، أو اختنقوا من الهواء الفاسد.

ـ من أنت؟ سال بترونيوس.
ـ النبيل فينيكوس يعرفني. أنا ابن امرأة أرمل أقامت ليفيا عندها.
ـ مسيحي؟
خص الصبي فينيكوس بنظرة متسائلة، وحين رآه يصلي في هذه اللحظة، أجاب:
ـ أجل.
ـ وكيف لك أن تؤم السجن بحريّة؟
ـ التحقت بعمل نقل الجثث. تقصدت ذلك لأساعد أشقائي، وأنقل لهم الاخبار من المدينة.
تملى بترونيوس وجه الصبي الجميل، وعينيه الزرقاوين، وشعره الاسود الكث، ثم سأله
ـ من أين تتحدر أيها الصبي؟
ـ من غاليليا يا سيدي.
ـ هل تتمنى أن تتحرر ليفيا؟
ـ لو كلفني ذلك حياتي.
قطع فينيكوس صلاته، والتفت إلى الصبي ليقول:
ـ قل للحراس أن يضعوها في تابوت وكأنها ميتة. وخذ معك أشخاصا لتخرجوها في الليل. عند حفر النفايات سينتظركم بنقالة من ستسلمونهم التابوت. عد الحراس باسمي أنهم سينالون من الذهب ما لا تتسع له جيوبهم.
وفي مجرى كلامه، كان وهنه المقيم قد أخذ يتلاشى، لينتعش من جديد ذلك الجندي. أعاد اليه الامل طاقته السابقة.
تورد نازاريوس من فرط سعادته، وصرخ رافعا يديه:
ـ ليمنحها المسيح الصحة، لأنها ستتحرر!
فسأله بترونيوس:
ـ أتظن أن الحراس سيوافقون؟
ـ أولئك يا سيدي؟ ما داموا واثقين بأن عقابا لن يمسهم، ولا أذى!
استحسن فينيكوس كلامه قائلاً:
ـ حقا. كان الحراس سيوافقون على هروبها، فكيف لهم أن لا يوافقوا على نقلها بالتابوت، وهو أمر أسهل بكثير.
ـ هناك من يتأكد من موت الجثث بفحصها بالحديد الحامي قبل نقلها، وهو من أجل سيستريوسات قليلة لا يلمس بالقضيب الحديدي المحمي وجه الجثة، أما من أجل أوروس واحد فيلمس خشب التابوت متصنعا أنه لامس جسدها.
قال بترونيوس:
ـ قل له أنه سيحصل على كيس من الاوروسات. لكن هل ستعثر على مساعدين ثقات؟
ـ هناك من يبيعون زوجاتهم وأولادهم من أجل المال.
ـ أين نجدهم؟
ـ في السجن، في المدينة. الحراس المرتشون يسمحون لي بإدخال من أريد.
ـ أدخلني إذن كعامل طلب اليه فينيكوس، لكن بترونيوس أقنعه بالعدول عن الفكرة خشيّة أن يتعرف اليه الجنود حتى إن كان متخفيا.
قال بترونيوس:

- لا في السجن، ولا في حفر النفايات. المهم أن يعرف الجميع، وعلى رأسهم القيصر وتيفالنيوس أن ليفيا قد ماتت، والا فستتم ملاحقتها. ولن تزول الشبهة الا بإبعادها إلى جبال الألب، وربما أبعد من ذلك، إلى سيسيليا.
ونبقى نحن في روما. ولن تتمارض أنت الا بعد أسبوعين أو ثلاثة، وتستدعي طبيب نيرون الذي سيقترح عليك الرحيل إلى الريف الجبلي. ثم تلتقيان، وبعدئذ...
وفكر للحظة، ثم أضاف وهو يهز برأسه:
- بعدئذ، قد نكون دخلنا في أزمنة أخرى
تنهد فينيكوس:
- ليشملها المسيح برأفته. أنت تتحدث عن سيسيليا بينما هي تعاني من المرض، وقد تموت
- دعنا نضعها الان في مكان أكثر قربا، والهواء الطلق سوف يعافيها، المهم الان إخراجها من السحن. الا تعرف أحدا نستأجره في الجبال يمكن الوثوق به؟
فأجاب فينيكوس على الفور:
- أعرف. في نواحي كوريولي في الجبال شخص رعاني في طفولتي، وما زال يحبني حتى الان.
ناوله بترونيوس لفافة قائلاً:
- اكتب له أن يجيئنا غدا. سأرسل الخيال في الحال.
وعلى الفور دعا ناظر الأتريوم وزوده بالتعليمات اللازمة. وبعد قليل كان العبد الخيال جاهزا للانطلاق مساء إلى كوريولي.
علق فينيكوس قائلاً:
- أود لو أن أرسوس يرافقه في الطريق... سأكون أكثر اطمئنانا...
فتفوه نازاريوس:
- سيدي! إنه رجل قوي جدا. سيقوم بتحطيم الشبكة الحديدية، ثم يهرب من النافذة في الجدار العالي، حيث لا وجود لأي حارس هناك، بعد أن أزوده أنا بحبل يتسلق عليه.
صاح بترونيوس:
- يا هيركوليس! ليهرب كيفما يشاء، لكن دون اصطحاب ليفيا، وليس بعد يوم أو يومين لكيلا يكتشفوا الأمر. يا هيركوليس! تريدون أن تخسروا أنفسكم معها؟ أمانع أن تلمحوا أمامها إلى كوريولي، والا سأنفض يدي من المسألة.
اعترف كلاهما أنه حق، وغادراه. ثم انصرف نازاريوس واعدا أنه سيجيء عند الفجر. كان يأمل أن يحرز اتفاقا مع الحراس ليلة ذلك اليوم، الا أنه رغب في رؤية أمه الذي ظل قلقا عليها. وبعد تقليب جاد للأمور قرر الا يبحث عن مساعدة في المدينة، بل أن يلجأ في السجن إلى رشوة أولئك الذين عمل معهم في نقل الجثث.
لكنه قبل أن يرحل، انتحى بفينيكوس جانبا وهمس له:
- سيدي، لن أبوح بقصدي لأحد، حتى ولا لأمي، لكن الحواريّ بطرس وعدنا بالمجيء الينا من المدرج، وسأفضي له بكل شيء.
فطمأنه فينيكوس قائلاً:
- في هذا المنزل يمكنك التحدث بصوت عال. الحواريّ بطرس ذهب إلى المدرج برفقة رجال بترونيوس. على أية حال سأذهب معك.
وطلب أن يأتوه بعباءة أرقاء، وانطلق.

أخذ بترونيوس نفسا عميقا
"من جانبي أنا كنت أتمنى لو أنها فارقت الحياة نتيجة لمرضها، لأن ذلك أحلى الأمرين بالنسبة لفينيكوس. لكني الآن أتمنى أن تشفى ولو كلفني ذلك كيسا من الذهب تقدمه مني إلى اسكولابيوس... ويحك ياذا اللحيّة الحمراء، تريد أن تتلذذ بعذابات الشاب العاشق... ويحك يا أوغستا، كنت من قبل تغارين من جمالها، والان تريدين أن تلتهميها لأن روفيوس ماتت... ويحك يا تيغالنيوس، تريد أن تودي بحياتها لتقهرني!
لن يتحقق ما تصبون اليه، فلن تروها في الميدان. لأنها إن لم تمت مريضة، فسأخطتفها بعيدا عن متناول أيديكم لكي لا تتلقفها الكلاب. وأعدكم بأنني كلما رأيتكم سأقول: ها هم أولاء الحمقى الذين هزئ منهم بترونيوس".
وغير راض قصد التريسيلينيوم لتناول الطعام مع يونيكي وخلالها قراء عليها القارئ بعض قصائد ثيوكريتوس الرعوية. في الخارج كانت الرياح تحمل سحابا باتجاه سوراكتي، وما لبثت العاصفة أن عكرت الأمسية الصيفية الهادئة. أرعدت في جهاتها السبع، فيما كانا حول المائدة يصغيان بهدوء إلى أغاني الشاعر الرعوي، الذي عبر غنائيا عن الحب الرعوي بلهجة الدوريين في اللغة اليونانية، ثم تهيأ للذهاب إلى النوم.
وقبل أن يهما بالتحرك وصل فينيكوس. حين علم بتروليوس بقدومه خرج اليه وسأله:
ـ ماذا لديك من أنباء جديدة؟ هل رجع نازاريوس إلى السجن؟
ـ رجع ليتدبر هناك أمر الحراس، وأنا التقيت بطرس الذي قال لي أن أصلي، وأتحلى بالإيمان.
ـ حسنا. إذا سار كل شيء على ما يرام، فغدا ليلا يمكن إخراجها...
ـ ينبغي أن تكون هنا فجرا برفقة الأجير
ـ الطريق ليس طويلاً، فاخلد إلى النوم.
لكن فينيكوس جلس في السوبرسلوم، وأخذ يصلي. وعند طلوع الشمس وصل المستأجر نيفر من الريف الكوريولي، ومعه بغال جلبها وفق تعليمات تلقاها من فينيكوس، وهودج، وأربعة رجال انتقاهم من بين الأرقاء البريتانيلين، لكنه ترك هؤلاء الأشخاص في نزل في سوبورا على سبيل الحيطة.
فينيكوس الذي أمضي ليلته ساهرا خرج إلى أمام الأجير، وما أن رأى الأجير سيده الشاب حتى اندفع اليه يقبل يديه وعينيه ثم قال:
ـ هل أنت مريض، يا عزيزي، أم الهموم امتصت الدماء من وجهك؟ كدت لا أعرفك في البداية.
قاده فينيكوس إلى ركن داخلي يدعى كسيستوس، وهنالك باح له بالسر. أصغى نيفر باهتمام كبير، وبان على وجهه الاسمر حماسه الشديد.
ـ مسيحي إذن؟
صرخ وتفحص وجه فينيكوس الذي فهم مبتغاه فكان جوابه:
ـ أنا أيضاً مسيحي.
تلالات الدموع في عيني نيفر صمت للحظة، ثم رفع يديه للدعاء:
ـ الحمد لك يا مسيح أنك أزلت الغشاوة عن هاتين العينين وهما أغلى ما لدي في هذا الكون.
وقام بمعانقة رأس فينيكوس، وبدموع الفرح راح يكيل جبينه بالقبلات.
وبعد قليل جاء بترونيوس، مصطحبا نازاريوس معه. ومن بعيد قبل أن يصل، صاح:
ـ أخبار طيبة!
كانت أخبارا طيبة حقا. الطبيب كلاوسوس أولى ليفيا العناية الطبية، وكان قد عانى من نفس المرض الذي أودى بحياة المئات في التوليانوم وفي السجن. وأفلح نازاريوس بالاتفاق مع صاحب الحديد المحمي في

معاينة الموتى. كما نجح في مساومة أنتيس على تقديم العون.
فقال نازاريوس:
ـ لقد فتحنا ثقوبا في التابوت لتتنفس المريضة. وخشيتنا الوحيدة أن تعود إلى وعيها، وتتكلم في أثناء مرورنا قرب الحرس الامبراطوري، ولو أنها تعاني وهنا شديدا، وتستلقي مغمضة العينين منذ الصباح. أعطاها كلاوسوس مخدرا حضرّه بنفسه، ووصف لها أدوية سأحضرها أنا من المدينة. لن تقوم بإحكام غطاء التابوت بالمسامير، ليسهل رفعه ووضع ليفيا في الهودج أصغى فينيكوس مشدودا، شاحب الوجه لكلام نازاريوس وسأله بترونيوس:
ـ وهل يخرجون جثا أخرى من السجن؟
فأجاب الشاب:
ـ مات حوالي العشرين، وسيموت غيرهم حتى المساء. ونحن سنسير معهم. وسوف نتدبر أمرنا بحيث نتخلف عنهم في الطريق عند أول منعطف، فانتظرونا عند معبد ليبيتينا. ندعو الله أن يجعلها ليلة دامسة.
ـ سوف يستجيب قال نيفر. سوف تستمر العواصف والرعود ليالي عدة.
وسأله فينيكوس:
ـ الن تحملوا مشاعل؟
ـ اصحاب المشاعل يسيرون في المقدمة فقط. انتظرونا عند المعبد في كل الأحوال. سنخرج الجثث قبل أن ينتصف الليل مباشرة. ساد صمت، ولم يسمع الا أنفاس فينيكوس اللاهثة.
التفت اليه بترونيوس:
ـ قلت لك البارحة أن من الأفضل أن نلزم المنزل كلانا. لكني الان لا أطيق صبرا البقاء هنا... وعلى أية حال ما دامت المسالة مسالة تهريب، فينبغي أخذ الحيطة الشديدة، لكن بما أن هناك توابيت كثيرة فلا مجال للشكوك من قبل أحد.
شدد فينيكوس قائلاً:
ـ تماماً، تماماً. على الانصراف. أنا الذي سأخرجها من التابوت...
وأعلن نيفر:
ـ وما أن تصبح في كوريولي فسأتكفل أنا بإيوائها في منزلي. وبهذا انتهى الحديث. انطلق نيفر إلى رجاله في النزل. وخبأ نازاريوس كيس الذهب تحت عباءته وقصد السجن. وبدأ الاضطراب يغزو فينيكوس. إنه يوم التوتر والانتظار العصيب.
قال بترونيوس:
يجب أن ينجح الأمر، لأن فكرة الخطة سليمة، وليس هناك أفضل منها. وأنت ينبغي عليك أن تلعب دور المفجوع، وتلبس رداء قاتما. ولكن لا تتخلف عن حضور الالعاب. دعهم يلمحوك هناك. الخطة تامة، خالية من الثغرات. ولكن هل أنت واثق من الأجير؟
فأجاب فينيكوس:
ـ إنه مسيحي!
رمقه بترونيوس بنظرة استغراب، وهز رأسه قائلاً كأنه يحدث نفسه:
ـ بحق بولوكس! كيف انتشر هذا الدين! وكيف استحوذ على نفوس البشر في وسط هذه الاهوال يجرؤ الناس على رفض كل الالهة الرومانيين، واليونانيين والمصريين... حالة استثنائية خارقة... لو كنت أحمل نوعا من الايمان بأن الهتنا تستطيع أن تفعل أي شيء، لنذرت لكل منها ستة ثيران بيض، ولخصصت جوبتر باثني عشر منها... ولا تبخل أنت بوعودك تجاه المسيح...

فقال فينيكوس:
ـ أنا منحته روحي.
وافترقا. رجع بترونيوس إلى السوبيسلوم، وذهب فينيكوس ليراقب السجن من بعيد، ثم إلى سفح تلة فاتيكانوس حيث الكوخ الذي تعمد فيه على يد الحواريّ. شعر أن المسيح سوف يصغي اليه هناك أكثر من أي مكان آخر. وما إن وجد الكوخ حتى ركع أرضا، وبدأ صلاة استحقت كل طاقاته الروحية المتوجعة. استغرق في تضرعاته، حتى نسي أن يكون، وما الذي حصل له.
وعند العصر أيقظه صوت البوق القادم من جهة سيرك نيرون. فخرج من الكوخ، ونظر حوله كما يفعل من يفيق الان من حلم كان فيه. في الخارج ساد الحر والسكينة، التي جرحها البوق بين لحظة وأخرى.
بدأ الهواء يحمل الرطوبة، وفوق المدينة كانت السماء ما زالت زرقاء، ولكن من ناحية جبال السابين وفي الطرف السفلي من مجال الرؤية تجمعت غيوم قاتمة.
قصد فينيكوس البيت. وكان بترونيوس في انتظاره هناك، فبادره قائلاً:
ـ كنت في البالاتينوس تعمدت أن يروني. في المساء مأدبة لدى أنيسوسس. قلت لهم ستكون هناك، لكن بعد منتصف الليل، لكي يتسنى لي النوم قليلا. أنا سأحضر، ومن الأفضل حضورك أنت كذلك.
ـ هل هناك أية أخبار عن نيفر او نازاريوس؟
ـ لا. سنلتقيهما عند منتصف الليل. الم تلاحظ أن العاصفة قادمة؟
ـ اجل.
ـ عرض الغد مخصوص بتعليق المسيحيين فوق الصلبان، لكن المطر قد يعيق المسالة.
وتقدم أكثر ليأخذ بذراع فينيكوس ثم يضيف قائلاً.
ـ أما هي فلن تراها على خشبة الصليب، بل ستلتقيها في كوريولي بحق كاستور! لا أعوض هذه اللحظة بجواهر روما كلها.
اقترب المساء، واكتست المدينة باكرا برداء الظلمة، بعد أن غطت الغيوم المدى. وحين حل الليل انهمر المطر غزيرا، ليتصاعد البخار من فوق الحجارة التي حمتها حرارة الشمس، ويملا الضباب شوارع المدينة.
وأخيرا نطق فينيكوس قائلاً:
ـ هيا بنا، فقد يخرجون الجثث باكرا بسبب العاصفة.
فأجاب بترونيوس:
ـ لدينا الوقت الكافي.
وخرجوا إلى الطريق، وهم يرتدون عباءاتهم عابرين باب الحديقة. وحمل بترونيوس ما يسمى سيكارومانية، كانت تلازمه دوما في كل واجباته الليلة.
كانت المدينة خالية بسبب العاصفة. كانت البروق الذاهبة بالابصار تخترق الغيوم بين فترة وأخرى، وتظهر جدران الأبنية الحديثة التي لم تستكمل بعد، إضافة إلى حجارة الطريق المبللة. وبعد أن قطعوا مسافة طويلة، لمحوا على ضوء البروق الرابّية الصغيرة التي انتصب فوقها معبد ليبيتينا الصغير، وكان ينتظر أسفلها مجموعة من البغال والخيول.
نادى فينيكوس بصوت خفيض:
ـ نيفر! فرد عليه صوت تحت المطر:
ـ أنا هنا يا سيدي!
ـ هل كل شيء على ما يرام؟

ـ أجل يا عزيزي، نحن هنا منذ حلول المساء. لكن تعالوا إلى تحت الجرف اتقاء لمزيد من البلل. يا لها من عاصفة! أظن أنها ستمطر بردا.
وسرعان ما تحقق توقع نيفر، فأبْرَدت حبات صغيرة متفرقة في البداية ثم تكاثف البرد حبات أكبر فأكبر، جعلت الهواء باردا على حين غرة.
التجؤوا تحت الجرف توقيا للرياح وحبات البرد، وراحوا يتحدثون بصوت خفيض.
قال نيفر:
ـ حتى لو رآنا أحدهم، فلن يساوره الشك، لأننا نقف هنا، وأننا ننتظر انتهاء العاصفة. أمر واحد أخشاه، أن يرجئوا نقل الجثث حتى يوم غد.
قال بترونيوس:
ـ لن يدوم البَرد طويلاً. علينا أن ننتظر. وانتظروا مترقبين سماع ضجيج الموكب. انحسر البرد، لكن عاصفة مطرية تبعته. وبين الفينة والفينة كانت الرياح تهب من جهة حفر النفايات، حاملة معها روائح الجثث غير المدفونة تماما.
صاح نيفر بغتة:
ـ المح بصيصا من الضوء، عبر الضباب... واحد... اثنان... ثلاثة... تلك مشاعل.
والتفت تلك مشاعل.
والتفت نحو رجاله:
ـ احرصوا على الا تنهق البغال
ـ وقال بترونيوس:
ـ ها هم قادمون!
صارت الانوار أكثر وضوحا، وسرعان ما تيسر لهم أن يلمحوا السنة لهب المشاعل ترفرف بفعل الريح.
رسم نيفر صليبا، وانهمك يصلي، كان الموكب يتقدم، حتى توقف أخيرا عند بلوغه المعبد لطا كل من فينيكوس و بترونيوس و نيفر عند جانب من التبة، لجهلهم ما يحدث. فتبينوا أن أفراد الموكب قد توقفوا ليحزموا وجوههم وأفواههم بالخرق، تفاديا لرائحة الجثث التي باتت باقترابهم من البوتيكولوم غير محمولة.
وسرعان ما حملوا التوابيت وتابعوا المسير.
بقي تابوت واحد لا غير قرب المعبد الصغير.
قفز فينيكوس نحوه، وتبعه بترونيوس، ثم نيفر وبرفقته رقيقان يحملان الهودج، وقبل أن يبلغوا المكان سمع في الظلمة صوت نازاريوس المتوجع:
ـ سيدي، لقد نقلوها مع أرسوس إلى سجن اسكولينوس... نحن سنحمل جثة أخرى. لقد أخذوها قبل منتصف الليل!...
حين وصل بترونيوس المنزل كان متجهما تستحوذ عليه الكآبة، ولم يملك كلمة عزاء يواسي بها فينيكوس. كان يدرك أن من المستحيل إخراج ليفيا من تحت الأرض في سجنها هذا. قدر أنهم قد نقلوها من التوليانوم لكي لا تلقى حتفها بسبب الحمى، فتنجو من مثولها في المدرج. كان هذا هو سبب حرصهم عليها أكثر من أي شخص آخر. أشفق عليها بترونيوس أيما إشفاق، وكان إشفاقه العميق على فينيكوس أيضاً. وخطر له أنها المرة الأولى في حياته التي يبوء فيها بالفشل، وينتصرون عليه.
قال في نفسه: "أرى أن فورتونا لم تعد وفية معي. لكن الالهة ستشعر بالخذلان إذا ما ظنت أنني أتدخل في حياة واحد مثل فينيكوس"
ونظر إلى الشاب الذي كان ذاهلا وقد اتسعت حدقتاه الشاخصتان.

سأله بترونيوس:
ـ ما خطبك؟ هل تعاني من الحمى؟
فأجابه الشاب بصوت كسير، متلعثم كطفل مريض:
ـ ولكنني على إيماني بأن المسيح سوف يعيدها الي.
وكانت الرعود الأخيرة للعاصفة فوق المدينة قد خمدت.

ثلاثة أيام صيفية ماطرة في روما ظاهرة استثنائية، ناهيك عن هطول البرد المنافي تماماً للطبيعة، الذي تكرر كل ليلة متأخرة من ليالي روما، إضافة إلى حدوثه في أوقات النهار والمساء، فمنع الاستمرار في إقامة العروض. بدأ الشعب يخاف. وخمن الناس أن محصول الكرمة سيكون رديئا. وحين عند العصر، وقعت صاعقة على الكابيتوليوم وأذابت نصب سيريس، أقدموا على تقديم القرابين باسم سلفاتور جوبيتر. أشاع كنهة سيريس أن غضب الالهة طال روما، لأنهم يتمهلون كل هذا القدر في عقاب المسيحيين. فحشود الناس إذن كانت تطالب بالاسراع في إقامة الالعاب السيركية. وعم الفرح ليغرق أنحاء روما حين أعلن بدء الالعاب بعد توقف دام ثلاثة أيام.

في هذه الأثناء قد انكشف الطقس من جديد.

دام توافد الحشود إلى المدرج، منذ الفجر، حتى المساء. وأبكر القيصر في مجيئه برفقة عذراوات فيستا، وحاشيته الامبراطوريّة. كان ينبغي أن تبدأ العروض بقتال المسيحيين ضد بعضهم. البسوهم كالمجالدين، وزودوهم بكل أنواع السلاح التي يستخدمها المبارزون، والمدافعون، والمهاجمون في القتال. لكن هذه الخطة قوبلت بخيبة الأمل. قام المسيحيون، ورموا بعيدا بالشباك، والرماح والسيوف، والتروس، وراحوا يتعانقون مشجعين بعضهم على تحمل الالام والموت. البعض وصفهم بالجبن، وزعم آخرون أنهم لا يتقاتلون لأنهم يكرهون الشعب، ويريدون أن يمنعوا عنه فرصة الاستمتاع بتقاتلهم الشجاع.

وفي نهاية المطاف، أمر القيصر بإنزال مجالدين حقيقيين عليهم، وأبادوا الراكعين العزل عن بكرة أبيهم.

وبعد إزالة الجثث، لم يكن العرض عرضا قتاليا، بل جاءت بعدها سلسلة كاملة من صور الحياة الميثولوجيّة، وفق ما أمر به القيصر كذلك. شوهد مثلا عرض يظهر كيف احترق هيركوليس باللهب الحي فوق جبل أوتا. اهتز فينيكوس لفكرة أن يقوم أرسوس بلعب شخص هيركوليس لكن على ما يبدو، لم يأت بعد دور خادم ليفيا الوفي، لأن مسيحيا آخر لم يكن فينيكوس يعرفه، هو الذي أحرق أمام المتفرجين. في المشهد الثاني، بالمقابل، قدر لشيلون الذي لم يعفه القيصر من حضور الالعاب، أن يلمح وجوها معروفة، في عرض يصور موت ديدالوس و إكاروس. قام بدور ديدالوس القس يوريسيوس الذي فسر لشيلون ذات يوم معنى رمز السمكة، أما دور إكاروس فشخصه ابنه كوارتوس، وقد قامت الآت مخصصة لذلك، برفع الاثنين، ثم القت بهما من ارتفاع شاهق إلى أرض الميدان.

جاء سقوط كوارتوس قريبا من منصة القيصر، حتى أن دمه المتناثر قد لطخ، إضافة إلى زخارف المنصة، رداء القيصر الأرجواني.

أغمض شيلون عينيه تفاديا لرؤية لحظة السقوط، فلم يصله إلا صوت الاصطدام بالأرض. لكنه حين فتحهما، وشاهد بقع الدم إلى جانبه، كاد أيضاً أن يغمى عليه الا أن المشاهد تلاحقت متسارعة. ما حل بالعذاري من تعذيب وحشي، نتيجة افتضاضهن من قبل مجالدين بثياب الحيوانات، قد صعد من حماس المشاهدين.

فلقد أمكنهم أن يشاهدوا كاهنات سيريس و سيبل ، دانادات و باسيفي، ليكحلوا عيونهم في نهاية المطاف بالفتيات الصغيرات غير البالغات وقد مزقتهن الخيول الوحشية. صفق الشعب مثنيا على القيصر ما جادت به قريحته من أفكار جديدة و جديدة. فيما ظل هو، وقد أشعرته الثنائات بعظيم الفخر، والتصفيق. ما لا يحد من الابتهاج، مستمرا في متابعة مشاهد الوحوش وهي تمزق الأجساد البيضاء، مستمتعا بعويل الضحايا.

لكن كان هناك صور مستقاة من تاريخ المدينة. بعد مشهد العذارى عرضوا موسيوس سكينولا وقد ثبتت يداه في إناء النار. المشهد جعل رائحة اللحم المشوي تملأ الجو، لكن الضحية، وكما فعل سكينولا الحقيقي، قد احتمل كل الام الحريق، ودون أن يطلق آها واحدة، فتح عينيه، وراحت شفتاه متمان بالصلاة. وبعد أن

طعنوه طعنة الرحمة وأخرجوا جسده إلى السبولاريوم، بدأت استراحة الطعام المعتادة.
غادر القيصر بصحبة عذراوات فيستا والاوغستيان، المدرج متجها إلى خيمة خصصت لغرض تناول الطعام الفاخر. وتناول القسم الاعظم من الجمهور طعاما وزعه عليهم الأرقاء بسخاء، بينما نزل بعضهم إلى الميدان يتفحص الرمل المدمى بفضول، ويتبادلون الاحاديث حول ما شاهدوه حتى الآن، لكنهم سرعان ما صعدوا المدرج كيلا تفوتهم وجبة الطعام السخية. ثم جاء الخدم ليمهدوا أرضية الميدان الرملية ويحفروا حفرا كثيرة متراصة.
ثم بدأت العروض محددة. فتحت المداخل، وتدفق منها المسيحيون العراة، يحمل كل منهم صليبه الثقيل على كتفيه. قساوسة تنوء ظهورهم محنية تحت وطأة الصلبان.
نساء منفوشات الشعر جهدن في إخفاء عريهن. رجال. صبيان. أطفال صغار. كانت الصلبان بالكامل مزينة بالزهور. قام خدم السيرك بإرغام المساكين على إنزال صلبانهم ووضعها قرب الحفر، وأن يصطف الجميع كل إلى جانب صليبه.
جاء أرقاء سود ومددوهم على الصلبان، وثبتوا أياديهم على العوارض الخشبية. حدث ذلك بسرعة فائقة بحيث ما إن عاد المتفرجون من استراحتهم حتى رأوا الصلبان منصوبة قد ثبت فوقها المصلوبون. ملأت قرقعة المطارق والمسامير ارجاء الميدان، وتجاوزته إلى المنطقة المحيطة، و إلى الخيمة حيث استقبل القيصر عذراوات فيستا، وأصدقاءه، وراحوا يحتسون النبيذ، وينكتون مع شيلون، ويهمسون في آذان كاهنات فيستا كلمات غريبة. فيما كان العمل في الميدان جاريا على قدم وساق، والمسامير تدق عميقا في أيادي المسيحيين، وأرجلهم وتنهمر الرفوش مهيلة التربة في الحفر لتثبيت قوائم الصلبان.
من بين الضحايا التي وفدت أرتالا إلى الميدان، كان هناك كريسبوس. لم يجئه الدور في العرض السابق لتنهشه الوحوش، فاستحق الان ميتة الصلب. لكنه كان سعيدا لأنه سيواجه الموت عما قريب. كانت صحته قد تبدلت عما كانت عليه، فبدا شديد الهزال، عاريا الا من رباط قماشي يستر عورته، وإكليل من الورد حول رأسه، لكن الشجاعة التي لا تهزم ما زالت تشع في عينيه، وتقاسيم الصلابة ظلت متربعة في وجهه.
قلبه لم يتبدل، وظل صلبا يحمل الوعيد لأخوته بأن يطالهم غضب الرب إن لم يتوبوا.
اشكروا المخلّص، لأنه رأف بكم وخصكم موت كموته. قد يصفح عن بعض خطاياكم، لكن حافظوا على خشيتكم فالحق لا يخدش، ولا يمكن أن يمسه حكم شرير وخير في الوقت نفسه.
كان يتكلم على وقع ضربات المطارق، وهي تدق المسامير في أيادي الضحايا وأرجلهم فوق أخشاب الصلبان. كان قد انتصب الكثير فوق صلبانهم، فيما توجه الآن إلى أولئك الذين ما زالوا إلى جانب صلبانهم وراح يتكلم:
ـ أرى السماء وقد تجلت، لكني أرى جهنم أيضاً. أنا نفسي لا أدري كيف سأواجه السيد، وما هو حسابي عنده، لكني آمنت بالسيد، وكرهت الشر، وليس الموت ما أخشاه، بل القيامة والبعث، ليس الالام، بل العقاب، لأن يوم الحساب قد حان.
صدح صوت احتفائي، مطمئن جاء من صفوف المقاعد القريبة:
ـ ليس للغضب، بل للرحمة، والخلاص والسعادة. لأني أؤكد لكم أن المسيح سيعانقكم، ويواسيكم، ويجلسكم إلى يمينه. ثقوا به، فها هي ذي السماء متجلية أمامكم.
اتجهت العيون نحو مصدر الصوت. والذين كانوا فوق الصلبان، وهم كذلك رفعوا وجوههم الشاحبة المعذبة، وراحوا ينظرون إلى المتحدث.
لكن الرجل نزل حتى سياج الميدان، وودع أولئك بإشارة الصليب.
مد كريسبوس يديه نحوه، يريد أن يؤن به، ولكنه حين لمح وجهه تراخت يداه، وانثنت ركبتاه، وارتعشت

شفتاه بالدهشة: "الحواريّ بولس"!
والذين لم يكونوا قد صلبوا بعد، ركعوا جميعا بينما استأنف بولس الترسوسى كلامه ملتفتا إلى كريسبوس:
ـ لا تهددهم يا كريسبوس، لأنهم سيرافقونك اليوم إلى الجنة. أتظن أنهم يمكن أن تلحق بهم اللعنة؟ من يمكن أن يلعنهم؟ أتراه الرب الذي ضحي بابنه من أجلهم؟ أم المسيح الذي مات من أجل خلاصهم، كما هم الان يموتون من أجل اسمه؟ كيف سيلعن من يحبه؟ من يوجه تهمة ضد من اصطفاهم الله؟ من يقول لهذا الدم: "ملعون!".
فأجاب البابا العجوز:
ـ سيدي، لقد كرهت الشر
ـ المسيح أوصى بأن نحب الناس أكثر مما نكره الشر، لأن دينه دين المحبة وليس دين الشر.
فأجاب كريسبوس:
لقد أثمت في ساعة موتي وضرب صدره نادما.
هنا تقدم ناظر أماكن الجلوس في المدرج، من الحواري، و سأله:
ـ من أنت حتى تتكلم عن الأحكام؟
فاجابه بطرس بهدوء:
ـ مواطن روماني
واستأنف كلامه ملتفتا إلى كريسبوس.
ـ دعك على إيمانك، فهذا هو يوم الرحمة، ومت في سلام، يا خادم الله.
وتقدم من كريسبوس زنجيان ليمدداه فوق الصليب، فيما التفت حوله مرة أخرى ليقول:
ـ أخوتي! صلوا من أجلي.
تلاشت القسوة المألوفة في سيماء وجهه، وشفت تقاسيمه، السلام والوداعة. مد يديه طوعيا على جناحي الصليب، تسهيلا للعمل، ورفع عينيه نحو السماء يصلي بحماس. وكأنما سرح بعيدا فتعطل إحساسه، لأنه حين كانت المسامير تنغرز في يديه، لم يبد جسده أية ارتعاشه، ولم يرتسم على وجهه ما يشير إلى الشعور بالألم، بل راح يصلي عند دق المسامير بقدميه، وصلى حين نصب الصليب، وأحيط بالتراب.
لكن عندما بدأ الجمهور يملأ المدرج بضحكه وصياحه، تقطب حاجباه قليلا تعبيرا عن غضبه، لأن هذا الشعب الهمجي يفسد عليه موته في سلام وهدوء.
كانت الصلبان كلها قبل ذلك قد انتصبت، وغطت أرض الملعب كغابة كثيفة علق بشر فوق اشجارها. كانت أشعة الشمس تنير أخشاب الصليب ورؤوس الشهداء، فترسم ظلالا كتيمة شكلت شبكة سوداء أضاءت فتحاتها الرمل الأصفر. كان مشهدا تركزت خلاله كل بهجة الجمهور على أمر واحد هو مشاهده مسيرة موت الضحايا حتى نزعها الاخير. كانوا من الكثافة في أرض الملعب على نحو جعل حركة الأرقاء بينهم متعذرة الا بشق الأنفس.
في أطراف الملعب علقت النساء، أما كريسبوس، كأحد قادة المسيحيين، فقد علق إلى جوار منصة القيصر مباشرة، على خشبة صليب ضخمة، غلف أسفلها بالنبات. لم يكن أحد من الضحايا قد فارق الحياة بعد، لكن كل من صلب في البداية كان مغشيا عليه. لم يتأوه أحد، أو يتوسل رحمة. كان بعضهم محني الرأس فوق كتفه أو صدره، كأنه نائم، والبعض الاخر سارحا في التأمل، وآخرون ينظرون نحو السماء يتمتمون بشفاههم بصمت. لكن ضمن هذه الغاية الرهيبة من الصلبان كانت الأجساد المصلوبة تبث ألما أخرس يبعث على الخشية.
حين أنهى الشعب مأدبته، وعاد إلى السيرك في هرج و مرج دهمه الخرس فجأة، فلم يعد قادرا على

التفكير، ولم يدر أين، وعلى أي صليب من الصلبان يتوجه، ليريح عينيه. لم يعد عري الأجساد النسائية المصلوبة تثير مشاعره، ولم يبادر إلى فتح رهانات على من سيموت أولا من الضحايا، كما هي العادة حين يكون عددهم أقل في الميدان.
حتى أن القيصر بدا وكأنه سئم نفسه، فحين التفت برأسه، وهو يسوي قلادة عنقه بحركة كسول، كان وجهه مرهقا، يغلبه النعاس.
في هذه اللحظات فتح كريسبوس المعلق جفنيه، بعد أن كانا مغمضين، فبدا ميتا أو مغميا عليه، ونظر نحو القيصر، بوجه يعكس تعابير النقمة، وعينين ملتهبتين، ما جعل الأوغستيان يشيرون اليه متهامسين، الأمر الذي دفع القيصر كذلك إلى الانتباه، فوضع زمردته بتكاسل أمام عينه.
ساد صمت أبكم. تسمرت عيون الجمهور عند كريسبوس، الذي حاول تحريك يده اليمنى، كأنما كان يسعى إلى تحريرها عن الصليب. وبعد لحظات انتفخ صدره، وتحدبت أضلاعه، وصاح بصوت قوي:
ـ الويل لك يا قاتل أمك!
دقت هذه الاهانة القاتلة سمع سيد العالم على مسمع من الاف المتفرجين. ذهل الاوغستيان، ولم يملكوا شجاعة حتى على التنفس، وتخشب شيلون، وارتعش القيصر، ووقعت الزمردة من بين أصابعه.
وكذلك الشعب، فقد حبس أنفاسه، وظلت صرخة كريسبوس تدوي في أرجاء المدرج:
ـ الويل لك يا قاتل الزوجة، والاخ، الويل لك، يا عدو المسيح! ستنشق الأرض من تحتك، وسيفتح لك الموت ذراعيه، وتنتظرك حفرة القبر، أيها الجثة الحية، لأنك ستموت من الهلع، وستلعن إلى أبد الابدين.
وبما أنه، وقد كان واهنا بعد أن صار في حياته أشبه بهيكل عظمي، لم يكن قادرا على تحرير يديه من فوق الصليب، فقد راح بكل ما لديه من قوة، وتوتر مخيف، يهز لحينه البيضاء فوق منصة القيصر، ليرش نحوه ما يتسنى من أوراق زهور ساقطة من الاكليل حول رأسه.
ـ الويل لك، أيها المجرم! لقد طفح الكيل، وحانت ساعتك!...
ثم شد على نفسه مرة أخرى، وبدا للحظة أنه يحرر يده عن الصليب، ويرفعهما نحو القيصر متوعدا. لكن ذراعيه الهزيلين سرعان ما انفتحا أكثر فأكثر، وهبط جسده إلى الأسفل، ومال رأسه على صدره، ومات.
وفي أنحاء الغابة كان ضعفاؤهم كذلك يغرقون واحدا بعد الاخر في حلم الابديّة.

قال شيلون:

- سيدي، إن البحر الان كالزيت، والامواج كأنها في رقاد... لنرحل إلى أكايا. هنالك حيث أبولو والاكاليل، والامجاد في انتظارنا. هنالك يؤلهك الشعب، والالهة تستقبلك وتحتفي بك كواحد منها. أما هنا...

ثم لزم السكوت، لأن شفته السفلى باتت ترتجف حتى استحال نطقه إلى كلمات غير مفهومة.

فأجاب نيرون:

- لنذهب فور انتهاء الالعاب. أعلم أن البعض يقولون عن المسيحيين بأنهم أجساد بريئة. وإذا ما رحلنا فالجميع سيقول عنهم ذلك. ما الذي يخيفك أيها الفطر العجوز العفن؟

وقطب جبينه رامقا شيلون بنظرة متسائلة، ينتظر منه جوابا، لأنه في واقع الحال، لم يكن يشعر بالطمأنينة التي يحاول أن يبديها. لقد أجزعته كلمات كريسبوس في أثناء العرض الاخير، وحين عاد إلى المنزل لم يستطع أن ينام من شدة غيظه، ومن العار الذي لحق به، إضافة إلى خوفه الشديد أيضاً. لكن فيستينوس الذي تستحوذ عليه الخرافات، وكان يستمع إلى حديثهما، التفت حوله وقال في خفية:

- صدقه يا سيدي، وخذ.ما يقول، لأن شيئا غريبا يكمن في هولاء المسيحيين... إن الوهتهم تمنحهم موتا ميسرا سهلا، لكنها قد تتمتع بالغضب والانتقام.

ما جعل نيرون يرد فجأة:

لست من ينظم الألعاب، لكنه تيفالنيوس

فأجاب تيفالنيوس بعد أن سمع رد القيصر:

.حقا. أنا أنظمها. أنا أنظمها. وإني أبصق على كل الالهة المسيحيين.

- فيستينوس هذا دملة مليئة بالخرافات، أما هذا البطل اليوناني فيموت من رعدته لأتفه الأسباب.

فرد عليه نيرون:

- حسنا. لكن من الآن فصاعدا، فاقطع السنة المسيحيين، أو سُد أفواههم.

- سنحشوها النار أيها القيصر الإلهي

فغمغم شيلون:

- ويلي!

أما القيصر، وقد سكبت الثقة العمياء التي أبداها تيفالنيوس، الروح في نفسه، فقد ضحك ملء فمه، وقال ملتفتا نحو العجوز اليوناني:

- هذه ذرية آخيل.

كان شيلون حقا في حالة يرثى لها. غزا الشيب كامل ما تبقى من شعر فوق جمجمته. وكست وجهه غشاوة ثم مزيج من الاضطراب اللعين، والجزع، والتحطم. وبدا أحيانا كمن أصابه الخدر، فأضاع شيئا غير قليل من إدراكه وتماسكه. وبات غالبا لا يرد على الأسئلة. وفي أحايين كثيرة إذا ما انفجر غضبا، يطلق كلامه خبط عشواء، الأمر الذي جعل الأوغستيان يفضلون عدم التحرش به.

والان بالتحديد كان على هذه الحال.

فصرخ بهم وقد مزقه اليأس مشيرا بأصابعه نحوهم:

- افعلوا بي ما تشاؤون، لكني لن أذهب بعد الان إلى الالعاب.

نظر نيرون اليه للحظة، ثم التفت نحو تيفالنيوس موصيا:

- احرصوا أن يكون هذا الرواقي إلى جانبي دائما في الحديقة. أريد أن أرى أي تأثير لمشاعلنا عليه.

فقال:

ـ سيدي، لن أرى شيئا، لأني لا أرى أبدا في الظلمة. فأجاب القيصر بابتسامة مرعبة:
ـهذه الليلة ستكون مضيئة كالنهار.
ثم التفت إلى أوغستيان آخرين، وتحدث معهم عن المنازلات التي يرغب في إقامتها بانتهاء الالعاب.
والان تقدم بترونيوس من شيلون حتى لامس ذراعه قائلا:
ـ أرأيت؟ ألم أقل لك أنك لن تنجو منها.
فاجاب شيلون:
ـ أرغب أن أشرب حتى الثمالة.
ومد يده إلى القدح، لكنه لم يكن قادرا على رفعه. فتناوله فيستينوس منه، ثم اقترب منه ليسأله بفضول، لكن بملامح مرتعدة:
ـ ما الذي دهاك؟ هلا تلاحقك الأرواح المنتقمة؟
رمقه العجوز بفم فاغر، كأنما لم يفهم سؤاله.
فكرر فيستينوس قائلا:
ـ هل تلاحقك الفوريات؟
ـ لا، لكن الليلة أمامي.
ـ أية ليلة؟... سترأف بك الالهة! عن أية ليلة تتحدث؟
ـ ليلة رهيبة عمياء يتحرك فيها شيء ما، ويأتي نحوي، لكني لا أعرف ما هو، أنا خائف.
ـ كنت أعرف دائما أن هؤلاء سحرة. الا ترى أحلاما؟
ـ لا، لأني أنام جيدا لم أفكر في يوم أنهم سيواجهون عقابا مثل هذا العقاب.
ـ هل تشفق عليهم؟
ـ لم تريقون كل هذه الدماء؟ أتعلم ما الذي قاله ذاك وهو فوق الصليب؟ الويل لنا!
فأجاب فيستينوس بصوت خفيض:
ـ سمعته لكنهم من أحرقوا المدينة.
ـ ليس صحيحا؟
ـ وأعداء الانسانية!
ـ ليس صحيحا
ـ وسمموا المياه!.
ـ ليس صحيحا!
ـ وقاتلوا الأطفال!
ـ ليس صحيحا!
فسأله فيستينوس مستغربا:
ـ كيف ذلك؟ وأنت الذي قلت ذلك عنهم، ورشيت بهم لتيفالنيوس!
ـولهذا السبب تحاصرني الليالي، ويتبعني الموت... أحس أحيانا أنني ميت، وأنتم كذلك.
ـلاهم يموتون، أما نحن فأحياء. لكن قل لي ما الذي يمتثل لهم ويرونه، وهم ماضون إلى الموت؟
ـ المسيح!
ـ ربهم؟ هل هو رب عظيم؟
فأجاب شيلون بسؤال:
ـ أية مشاعل تريدون أن تشعلوها في الحديقة؟ أسمعت ما قاله القيصر؟

ـ سمعت، وأعرف.
ـ سيحرقون كلاً من سامرنتيتي و سمياكسي... نأمل ألا يصب إلههما غضبه على المدينة. عقاب رهيب.
ـ أفضل هذه الطريقة، دون إسالة الدماء. قل للعبد أن يضع القدح على فمي، لأن يدي باتت ترتجف نتيجة للشيخوخة.
في أثناء ذلك كان الآخرون يتحدثون عن المسيحيين. قال دوميتوس أفر:
ـ هم كثر إلى حد قد يبدؤون حربا أهليّة. أتذكرون أننا كنا نخاف أن يلجؤوا إلى المقاومة، رغم أنهم يسيرون إلى الموت كالحملان.
تدخل بترونيوس قائلا:
ـ تخطئون. إنهم يقاومون.
ـ وبأية طريقة؟
ـ بالصبر. إنها طريقة جديدة.
ـ فعلا. لكن من يملك شجاعة ليزعم أنهم يموتون كما يموت الأشرار العاديون؟ لا. إنهم يموتون، وكأن الاشرار هم من يعدمونهم، أي نحن، وكل شعب روما.
فصرح تيفالنيوس:
ـ هذر أحمق.
فجابهه بترونيوس قائلا:
ـ شعب روما كشعب مدينة أبديرا الغبي.
التقت عيون الجميع وقد ذهلوا من تعليق بترونيوس اللماح، وكرّروا القول:
ـ فعلا! موتهم يمتاز بشيء ما مختلف. شيء خاص.
وصاح فيستينوس من مكانه عن بعد:
ـ أقول إنهم يرون الوهتهم!
والتفت بعض الاوغستيان نحو شيلون:
ـهيه، أيها العجوز، أنت تعرفهم جيدا، فقل ما الذي يرونه؟
دلق اليوناني النبيذ فوق سترته وأجاب:
القيامة!
وراح يرتجف على نحو جعل الضيوف ينفجرون ضحكًا.

منذ أيام لم يمض فينيكوس ليلته في المنزل. ظن بترونيوس أن الشاب يخطّط من جديد لتحرير ليفيا من السجن، دون أن يعلم أحدا في الأمر تجنباً لفشل خطته. أما هذا الشكوكي النبيل فقد بات بدرجة ما مؤمنا بالخرافة. وبالاحرى، منذ أن فشل في تحرير ليفيا من سجن مامرتنيوس، لم يعد واثقا ببرجه الحسن.
وعلى أية حال لم يضع في حسبانه، حتى في هذه المحاولة الجديدة، أن مساعى فينيكوس لإنقاذ ليفيا سوف تجني ثمارها. فحراسة السجن مشددة أضعافا مضاعفة قياسا بأي سجن آخر. وكان جيدا أنهم نقلوا الفتاة إلى هناك لكي لا تموت في مرضها، فيفوتوا عليهم فرصة مثولها في الميدان. لهذا السبب بالذات هم يحرصون عليها كضوء عيونهم.
وفكر في نفسه: "يبدو أن القيصر، و تيفالنيوس ينظمان عرضا خاصا أكثر عنفا من كل ما سبقه من عروض، وأن فينيكوس سيلاقي حتفه قبل ان يكون بمقدوره أن ينقذها من هناك".
حتى فينيكوس أصبح الان متشائما دون آمال، مودعا أمرها في عهدة المسيح. وصار يرضيه أن يتمكن من زيارتها في السجن، وفكر أن نازايوس قادر على تأمين هذه الزيارة، بان يرافقه بنقل الجثث والحقيقة أن وجه المغامرة في كشف أمره كان ضعيفا، تحت جنح الظلام، والتنكر بثياب العبيد، وإنارة السجن شبه المعدومة. لكن من كان يخطر بباله أن هذين النبيلين سوف يضطران في يوم أن يوضعا في موقف كهذا، وأن يستنشقا معا روائح الجثث المتفسخة.
حين حل المساء الموعود، لف بترونيوس مئزرا حول وسطه، وعصب رأسه بخرقة مغمسة بزيت الصنوبر، وبقلب خفاق انطلق برفقة المجموعة إلى السجن.
وهناك لم يعقهم أحد من الحرس الامبراطوري في الدخول. فلقد حمل كل منهم لوحة رخامية تمثل بطاقة دخول خاصة، قام الحارس بالكشف عنها تحت ضوء مصباحه. وسرعان مافتح أمامهم الباب الحديدي، ودخلوا.
أول ما واجه فينيكوس قبو فسيح، مليء بالبشر تفرع إلى العديد من أمثاله، كانت كلها مضاءة بقناديل واهنة. كان الكثير من المعتقلين يغطون في نومهم، أو لعلهم كانوا قد ارتموا قرب الجدران موتى. وكان آخرون يتحلقون حول جرن ضخم من الماء يروون عطشهم كمرضى يعانون من الحمى الشديدة. وآخرون يجلسون على الأرض مستندين على أذرعهم قابضين بأيديهم على رؤوسهم. وهنا وهناك أطفال نائمون في أحضان أمهاتهم. تأوهات في كل مكان. ولهات أنفاس متسارعة للمرضى، بكاء، أو تمتمات صلوات. غناء وتراتيل، وشتائم يطلقها الحراس. روائح الجثث منتشرة في هذا الزحام تحت الأرض.
بشر في مختلف الحالات الجسدية. وجوه شاحبة مرعوبة. عيون الهبتها الحمى، شفاه مزرقة بانت في القرب من ضوء المصابيح.
جباه متعرقة، أشعار منكوشة. وفي زوايا القبو كان البعض يحاولون رفع أصواتهم طلبا للماء او يتوسلون بأن يدعوهم يموتون.
ارتجفت ركبتا فينيكوس، وتوقفت أنفاسه لهذا المشهد. وحين خطر له أن ليفيا هنا تواجه هذا المصير البائس، انتصب شعر رأسه، وتعطلت أنفاسه، وتجمدت الصرخة في حنجرته. المدرج، الوحوش، أخشاب الصلبان، كلها كانت أرحم من هذه المهاجع الرهيبة المفعمة بروائح الموتى تحت الأرض، حيث تصاعدت التأوهات والتوسلات البائسة في كل اتجاه:
ـ آن آن تأخذونا إلى الموت.
غرز فينيكوس أظافره في راحتيه، وقد شعر أن قواه تخور، ويوشك أن يفقد وعيه. كل ما عاناه حتى الان من حب، والام، قد استحال في هذه اللحظات إلى رغبة وحيدة: الموت.

وفي هذه الأثناء سمع صوت قائد مجموعة المقابر الجماعية:
ـ كم عدد الموتى لهذا اليوم؟
فأجابه المراقب:
ـ حوالي دزينة، وحتى الصباح سيزداد العدد، لأن البعض ينازع عند الجدران.
وشكا من بعض النسوة اللواتي يخبئن أطفالهن الموتى، ليظلوا في أحضانهن مدة أطول. وقال:
ـ أرحم لي أن أعاني التعذيب بالاعمال الشاقة في الأرياف البعيدة، من أن أكشف على الجثث في هذا الجو القاتل من الروائح، وأحرس هؤلاء الكلاب العفنين هنا.
لكن القيم على المقابر الجماعية واساه بأن خدمته هناك ليست بأيسر على الاطلاق.
كان فينيكوس قد استجمع قواه، وراح يجول بنظره في المهجع، لكنه لم يفلح في رؤية ليفيا ولمع في ذهنه أنه لن يراها بعد الان وهي على قيد الحياة. أكثر من عشر أقبية مفتوحة على بعضها حفرت لهذا الغرض، لكن عمال الدفن لم يرتادوا منها الا حيث أخبروا بوجود أموات من أجل ترحيلهم. وهذا يعني أن فينيكوس لن يعاين كل الأقبية بحثا عن الفتاة.
ولحسن الحظ جاء أحدهم ليقول:
ـ علينا ترحيل الجثث حالا، لأنها أكثر نقلا للعدوى.
والا ستموتون مثلكم مثل العبيد.
فأجاب المراقب:
ـ نحن عشرة في مجموع الأقبية. وينبغي أن ننام أيضا.
ـ إذن سأترك هنا أربعة فقط ليكشفوا على الموتى.
ـ غدا سنشرب إذا ما سمحت بذلك.
ـ سنشرب.
وأشار إلى أربعة، كان بينهم فينيكوس، وأرسل بالبقية ليضعوا الجثث في التوابيت.
تنفس فينيكوس الصعداء. كان واثقا الان أنه سيعثر على ليفيا.
أول الأمر بحث بدقة في المهجع الأول تحت الأرض، فعاين كافة الأركان العامة التي لم يصلها ضوء المصابيح مباشرة، تفقد البشر النيام تحت أغطية القنب قرب الجدران، والمرضى الخطرين الذين أفردوا في زوايا خاصة، فلم يجد ليفيا. وكذلك كانت نتيجة بحثه الفاشلة في القبو الثاني والثالث. كان الوقت قد تأخر، والجثث قد نقلت إلى العربات. وتوضع المراقبون في الممرات عند ملتقى الأقبية، وناموا، وكف الأطفال عن البكاء وهدؤوا، و لم يعد يسمع في الأقبية الا أنفاس الصدور المريضة، وتمتمات الصلوات هنا وهناك.
دخل فينيكوس والمصباح في يده إلى القبو الرابع الذي كان أقل اتساعا بكثير من البقيّة، وجال بعينيه في أرجائه. وفي لحظة ارتعش، وكأنما لمح تحت فتحة شبكيّة في الجدار، هيئة أرسوس الضخمة.
وعلى حين غرة أطفأ المصباح، وتقدم نحوه.
سأله:
ـ هذا أنت يا أرسوس؟.
ـ لقد أطفأت المصباح، فكيف أعرفك؟
لكن فينيكوس في هذه اللحظة قد رأى ليفيا الهامدة في معطف، فلم يجب بشيء، بل جثا إلى جانب الفتاة.
عرفه أرسوس الان.
فقال:

ـ حمدا للمسيح! لكن لا توقظها يا سيدي.
راح فينيكوس ينظر إلى الفتاة من خلال دموعه، فلاحظ حتى في الظلمة وجهها الشاحب النحيل وذراعيها الهزيلين، فهام حبا بها لهذا المشهد. لكنه حب أشبه بالوجع الذي يمزق الفؤاد، والعذاب الذي يهز أعمق راقات الروح.
حب ترافق بالتصميم، والاحترام، والعبادة، واربد وجهه، ثم راح يقبل أطراف المعطف الذي يرقد داخله هذا الرأس الأغلى لديه من كل شيء.
ظل أورسوس يراقبه طويلا، لكنه أخيرا شده من ردائه وسأله:
كيف دخلت يا سيدي؟ وهل جئت كي تنقذها؟
نهض فينيكوس واقفا. وظل للحظات يقاوم عاطفته، حتى أجاب:
ـ قل لي ما الوسيلة!
ـكل ظني أنك قد وجدت الوسيلة.هناك طريقة واحدة تدور في رأسي...
نظر ناحية الفتحة الشبكية ، ورد كأنما يقول لنفسه:
ـأجل... لكن جنودا هناك.
فأجاب فينيكوس
ـ سرية من الحرس الامبراطوري.
ـإذن، فلن نستطيع أن نعبر !
ـلا!
مسح أورسوس جبينه بيده، ثم سأله ثانية:
ـ كيف دخلت إلى هنا؟
ـ من خلال بطاقة دخول أمنها لي مراقب المقابر.
وصمت، وكأن شيئا ما دار في ذهنه. ثم قال بعجالة:
ـ بحق عذاب المخلّص. أنا سأبقى هنا. وهي ستأخذ بطاقتي، وتعصب رأسها بقماشة ، وتضع عليها العباءة، وتخرج بين عمال المقابر بعض الفتيان الصغار الحجم مثلها، فلن يتعرف عليها الحرس. ستذهب إلى منزل بترونيوس، وهو سيؤمن إنقاذها.
لكن أورسوس طاطا برأسه. فأجاب:
ـلكنها لن توافق على هذا، لأنها تحبك. وهي مريضة على أية حال، فليس بإمكانها الوقوف على قدميها.
ثم أردف قائلا:
ـإن كنت، ياسيدي، بعون من النبيل بترونيوم لم تتمكنا من تحريرها، فمن سيستطيع؟
ـ المسيح وحده فقط...
وصمت كلاهما. وراح أرسوس يفكر بذهنه الفلاحي:
"كان هو قادرا على إنقاذنا جميعا، وما دام لم يفعل، معنى ذلك أن ساعة الموت قد حانت".
وجثا فينيكوس إلى جانب ليفيا. كان ضوء القمر يتسلل عبر الفتحة الشبكية، وينير القبو من الداخل، شأنه شأن المصباح الوحيد المعلق فوق الباب.
هنا فتحت ليفيا عينيها، ووضعت يدها الملتهبة على فينيكوس وقالت بعد لحظات:
ـ أراك... وكنت أعرف أنك ستجيء
ـانثى الشاب على يد ليفيا الحارة، ووضعها على جبينه، وصدره، ثم قام برفع الفتاة قليلا، وضمها إلى صدره، وقال:

ـ لقد أتيت يا حبيبتي. رعاك المسيح، وأنقذك، يا وحيدتي! و لم يقو على النطق باكثر من ذلك لأن فؤاده كان ينتحب داخل صدره، الماء وحبا. لكنه لم يشأ أن يظهر المه أمام الفتاة.
أجابت ليفيا قائلة:
ـأنا مريضة ياماركوس، وسوف أموت، سواء في الميدان، أم في السجن... لكني صليت لأتمكن من رؤيتك قبل موتي. وها أنت ذا قد جئت. المسيح استجاب لصلواتي!
وظل الشاب عاجزا عن الكلام يضم محبوبته إلى صدره، فيما تابعت الفتاة قائلة:
ـ في التوليانوم كثيرا ما رايتك عبر النافذة، وكنت موقنة أنك تريد الدخول. والان أعاد لي المسيح وعيي للحظة لكي أودعك. أنا راحلة يا ماركوس، لكني أحبك، وسأظل احبك إلى الأبد.
تغلب فينيكوس على نفسه، كاتما الامه، وأخذ يتكلم بهدوء مصطنع:
ـ لا، يا حبيبتي. لن تموتي. أوصانا الحواري بالايمان، ووعدني بأن يصلي من أجلك، هو الذي عرف المسيح، والمسيح أحبه، ولن يرفض له دعاء... لو كنت ستموتين لما أوصاني بطرس بالايمان، بل قالي لي: "تحل بالايمان". اليس كذلك يا ليفيا. المسيح سيرأف بي، وهو لا يرغب في موتك. لن يسمح به... أقسم باسم المخلص أن بطرس يصلي لأجلك!
ساد سكوت. خبا نور المصباح المعلق فوق الباب. لكن ضوء القمر كان يغمر المكان متسللا عبر الفتحة الشبكية. في الركن الخلفي للقبو انتحب أحد الأطفال، ثم صمت. و لم تسمع الا أحاديث الحراس في الخارج، وقد كانوا بعد انتهاء نوبة حراستهم، يمثلون مقطعا مسرحيا اثنا عشريا.
أجابت ليفيا:
ـ آه، يا ماركوس. المسيح بالذات خاطبه أبوه هكذا: "أبعدوا عني هذا القدح المر!". ومع ذلك فقد شربه. المسيح بالذات عانى من الموت صلبا، وهولاء الان يموتون من أجل مجد اسمه، فكيف يستثنيني وحدي من بينهم؟ من أكون أنا قياسا به؟ حين جاء الحرس من أجلنا خفت من العذاب والموت، لكني لم أعد خائفة. انظر ما أفظع هذا السجن، وأنا سوف أغادره إلى الجنة. تمعن في التفكير. هنا القيصر، ولكن هناك المخلّص الخيِّر الرؤوف. ولا وجود للموت إذن. وأنت تحبني، فتصور إذن كم سأكون سعيدة. آه يا ماركوس حبيبي، تصور أنك ستأتي الي هناك.
صمتت لكي يتسنى لصدرها المريض أن يأخذ جرعة من الهواء، ثم رفعت يد الشاب إلى شفتيها:
ـ ماركوس!
ـ قولي يا حبيبتي!
ـ لاتبك علي، ولا تنس أنك ستلتقيني هناك. عشت حياة قصيرة، لكن الله منحني روحك أنت أريد أن أخبر المسيح بأنك بعد موتي لن تفعل ما تخرج به عن إرادته، وأنك ستظل تحبه إلى الأبد. أنت تحبه اليس كذلك، وسوف تحتمل موتي؟... لأنه حينئذ سوف يعقد قراننا فأنا أحبك وأرغب في البقاء معك...
وخمدت أنفاسها مرة أخرى وقالت بصوت يكاد لا يسمع:
ـعدني، يا ماركوس!
عانقها فينيكوس بيدين مرتجفتين قائلا:
ـأعدك، وأقسم برأسك القديسة هذه.
حينئذ ائتلق وجه ليفيا تحت نور القمر الحزين، وأخذت يد الشاب إلى شفتيها وهمست قائلة:
ـ أنا زوجتك!
كان الحراس في الخارج يودون حوارهم المسرحي بصوت أشد صخبا. لكنهما في الداخل فقد نسيا كل شيء، السجن، والحراس، والأرض بأسرها، وبدأا صلاة خاشعة وروح الملائكة تغمرهما.

ولثلاثة أيام، والاحرى، لثلاث ليال لم يعكر أمنهم أحد. فبعد أن اتخذت الإجراءات المعتادة داخل السجن، بفصل الموتى عن الأحياء، والمرضى الخطرين عن المعافين، ثم هجع الحراس إلى نومهم على مفارق الممرات، دخل فينيكوس القبو حيث ترقد ليفيا، ولازمها حتى مطلع الفجر مودعا رأسها إلى صدره، وأخذا يتحدثان عن الحب والموت، والرغبات والأمال منفصلين تلقائيا عن الحياة، لم يعودا يشعران بأنهما على قيد الحياة.

وكأنما كانا على متن سفينة تبتعد بهما عن اليابسة فلا يلمحان شاطئا، ووجهتهما المدى اللانهائي. لقد استحال كل منهما محض روح حزينة هائمة في حب المسيح، تتأهب للتحليق.

كانت روح الشاب في بعض الأحايين تعصف بالحزن، وفي أحايين أخرى تفيض بهجة، وتبرق بشرارات الأمل، حبا بالمسيح وحزنا على معاناته فوق خشبة الصليب. ويوما وراء يوم ازداد انفصال فينيكوس عن الأرض، مسلما نفسه ليد الفناء.

كان كل صباح يخرج من السجن، ويتأمل في الكون، والمدينة، والمعارف، والشؤون اليومية فيخال أنه في حلم.

كان كل شيء يبدو غريبا بلا معنى. ولم تعد رهبة التعذيب تقلقه أو تلقي الجزع في نفسه، بعد أن ركز عينيه في أمور أخرى. شعر كلاهما أنهما في نطاق الأبدية. تحدثا عن الحب، وعن الكيفية التي سيحبان بها بعضا، وكيف سيعيشان، بعد الممات.

وكانا مطوقين بالهدوء، كعمودين منسيين في فلاة. كل ما كان يهمهما الا يفرق المسيح بينهما. وهذا مؤكد لأن إيمانهما لا حدود له، ومحبتهما للمسيح تفوق كل تصور. ونفضا عن روحيهما كل غبار الأرض، صارا روحين نقيتين نقاء البللوره. وهنا تحت ظلال الموت المرعبة، وفي غمرة البؤس والعذاب. وفي أقبية السجن المظلمة بدأت الجنة بالنسبة اليهما، لأن ليفيا أمسكت بيد حبيبها. وكقديسة قد حظيت بخلاصها قادته لينهل من ينبوع الحياة الابدية.

أما بترونيوس فقد قرأ على وجه فينيكوس أعمق الأمان، وإشراقة لم يلمحها عليه من قبل ساوره الظن، وهو في سريره أحيانا، أن فينيكوس قد وجد درب خلاصه، وأحزنه أنه لم يشاطره سره الخفي. وحين فرغ صبره قال له:

-أنت الآن أحد آخر، لا تخف ذلك عني، لأني أريد أن أساعدك، وأستطيع ذلك. هل تخطط لشيء؟

-أجل، لكنك لا تستطيع أن تساعدني في أمر كهذا. لأني بعد موت ليفيا سأعلن أنني مسيحي، والحق بها.

-لا أمل يرجى إذن؟

- كيف لا. المسيح سيعيدها إلي، ولن نفترق بعدها أبدا.

وبوجه عارم بتقاسيم الذهول وفراغ الصبر، راح بترونيوس يذرع الأتريوم جيئة وذهابا، ثم تفوه قائلاً:

- لا تحتاج من أجل ذلك لمسيحكم، هذه الخدمة يمكن أن يؤديها لك اله الموت اليوناني الروماني ثاناتوس.

لكن فينيكوس أجابه بابتسامة:

-لا يا عزيزي، أنت لا تريد أن تفهمني.

-لا أريد، ولا أستطيع. هذا ليس وقت النقاش. لكن الا تذكر ما قلت لي حين لم نفلح في تحريرها من التوليانوم؟ أنا فقدت كل أمل، لكنك قلت لي في طريق عودتنا إلى المنزل " أما أنا فإيماني كبير بأن المسيح سيعيدها الي". فليعدها اليك إذن. من جهة الهتي، أعلم أنني إذا ما القيت قدحا ثمينا في البحر، فلن تستطيع هذه الالهة أن تعيدها إلى، فإذا ما كان ربكم أيضا لا يستطيع إرجاعها، فما الذي يدعوني إلى احترامه أكثر

من الالهة القديمة.
فشدد فينيكوس قائلا:
ـ لكنه سيعيدها.
هز بترونيوس كتفيه، وسأله:
ـ أتدري أنهم غدا سينيرون حديقة القيصر بأجساد المسيحيين؟
ـغدا؟
وباقتراب الحقيقة المرة انقبض قلبه ألم. فكر أنها الليلة الأخيرة التي يقضيها مع ليفيا، فودع بترونيوس وأسرع إلى مراقب المدافن كي يحصل على بطاقة دخوله. لكنه قوبل بالخيبة هناك، لأن المراقب لم يشأ أن يعطيه بطاقة، قائله:
ـ اعذرني ياسيدي لقد فعلت كل شيء من أجلك، لكني لن أغامر بحياتي. مساء اليوم سيقودون المسيحيين إلى حديقة القيصر. والسجن سيكون مليئا بالجنود، ورجال الدين، فإذا ما اكتشفوا أمري فسيأخذوني أنا وأولادي.
أدرك فينيكوس أن إقناعه هنا في حكم المستحيل. لكن أملا آخر لمع في ذهنه، هو أن الجنود الذين رأوه هنا مرات كثيرة، قد يسمحون له بالدخول دون بطاقة. وحين حل المساء، عصب رأسه، ووقف في مدخل السجن.
لكنهم في هذا اليوم قاموا بمعاينة دقيقة للبطاقات حتى أن سكافينوس الشديد الاخلاص للقيصر تعرف عليه، وانتحى به جانبا ليقول له:
ـ عد إلى المنزل يا سيدي، لقد عرفتك، لكني سالزم الصمت لأني لا أريد أذيتك. لا يمكنني إدخالك، لكن اذهب ، الالهة ستتكفل بالتخفيف عنك.
فاجاب فينيكوس:
ـ ما دمت لن تسمح لي بالدخول، فدعني أمكث هنا، وأشاهد من يخرجون.
وافقه سكافينوس قائلا:
ـ الأوامر لا تمنع ذلك.
وقف فينيكوس عند المدخل، وانتظر خروج المتهمين. وأخيرا، عند منتصف الليل، فتح الباب، وخرج منه العبيد في رتلين طويلين من رجال ونساء وأطفال، يحيط بهم الحرس الامبراطوري. كان القمر بدرا فكانت الليلة شديدة الانارة، أتاحت التعرف حتما على وجوه الأفراد وهم يتقدمون مثنى مثنى في هذا السكون العميق الذي لم يعكره الا حفيف الدروع كانوا من الكثرة كأنما قد أفرغت أقبية السجن جميعها.
لمح فينيكوس كلاوسيوس الطبيب في نهاية الركب، ولكنه لم يعثر على ليفيا و أرسوس.

وقبل حلول المساء بدأت أولى موجات الشعب تتوافد إلى الحديقة القيصرية. كانت الحشود، وقد تزينت بأفخم ملابسها الاحتفالية، تهرع مشرقة الوجوه، وتصدح حناجرها بالأغاني، وبعض منها كانت تأخذه الثمالة، ليتسنى لها أن تشهد مثل هذا العرض الكبير الجديد.
ترددت أصوات تقول: "ساماكسي!" "سارمانتيتي!"امتدت في فياتيسا، وفوق جسر إميليوس، وعند الضفة الأخرى لنهر التيبر، حتى فيا تيريومفالس، وحول منشآت السيرك القيصرية حتى مونس فاتيكانوس. لقد شهدت روما من قبل بشرا يشدون على الأعمدة، ويحرقون، لكن ليس مثل هذا العدد الحاشد من المدانين.
لقد أراد القيصر و تيفالنيوس أن يقضيا على المسيحيين، ليضعا حدا للمرض الساري الذي نشأ في السجون، ومنها راح ينتشر في المدينة. فأمرا بإخلاء جميع أقبية السجون، الا من بعض المساجين الذين سيحتفظون بهم لإقامة العاب السيرك.
وما إن أخذت الحشود تعبر مدخل الحديقة، حتى أصابها البكم من شدة ذهولها. بين الأشجار الكثيفة كانت كل الدروب والمسالك التي تحيط بالأكمات، والبحيرات، وبحيرات الأسماك، وحدائق الزهور، مدروزة بالقوائم المطلية بالقطران، وعليها علق المسيحيون.
ومن الأماكن الأعلى، حيث التبة لا تقف حاجزا أمام الرؤية من هناك، بان الصف الطويل للقوائم مشدود عليها المسيحيون مع الزهور، والرياحين، واللبلاب. كانت هذه القوائم تنسحب إلى أعماق بعيدة في الحديقة، باتجاه التلال والاودية، فتبدو الأقرب منها كالعرائش المتجاورة، وكلما ابتعدت بانت كالأسنة أو الشماريخ والصولجانات الملونة المغروزة في الأرض.
كانت أعداد لا تحصى فاقت كل توقع للشعب، وكانا قد شد فوقها أحد الأقوام بكل أفراده، لتسلية روما والقيصر. كان الناظرون يتوقفون هنا أو هناك عند القوائم، تدفعهم إلى الفضول هيئة الضحية، أو عمرها، أو جنسيتها، فيستطلعون الوجوه، وأكاليل اللبلاب، والأربطة، ثم يتابعون المسير متسائلين لأنفسهم باستغراب: "هل يعقل أن يكون كل هؤلاء مذنبين؟ أو كيف يمكن لأطفال لا يكادون يتجاوزون سن الحبو أن يحرقوا روما؟"
ولم يخل استغرابهم من القلق.
في هذه الأثناء أعتم المساء، وشعشعت أولى النجوم في السماء، فوقف إلى جانب كل محكوم رقيق بيده مشعل. وحين صدحت الابواق المنتشرة هنا وهنالك في الحديقة تعلن بدء العرض، اقتربت المشاعل تلامس أسافل القوائم.
وسرعان ما اضطرم القش المغطى بالأزهار مطلقا لهبه المضيء. وأخذت النيران مشتدة من لحظة إلى أخرى، تفكك أربطة اللبلاب، وتدب أعلى فأعلى، لتبدأ أولا بالتهام قدم الضحية. لزم الشعب الصمت، فيما راحت الصرخات والولولات و العويل مالئة أرجاء الحديقة.
من بين الضحايا كان من يرفع رأسه نحو السماء الملأى بالنجوم، ويطلق ترتيلة في تمجيد المسيح. الشعب سمع كل تلك الصرخات والتراتيل. لكن الرعدة قد هزت حتى عتاة القلوب حين سمع صراخ طفل"أمي! أمي!"ولا يستثنى من ذلك حتى السكارى، فقد ارتجفت قلوبهم لهذه الاستغاثة، ولما شهدوه من وجوه بريئة اكتسحتها الألام ورؤوس محنية اختناقا بالدخان. وراح اللهب يدب إلى أعلى، ويحرق أكاليل جديدة أخرى من اللبلاب والورود.
امتلأت بالنيران الدروب الرئيسة والفرعية. امتلأت بالنيران صفوف الأشجار، ومساكب العشب والزهور، والتمعت مياه بحيرات الأسماك، وعكست أوراق الأشجار المرتعشة لونا ورديًّا. وعم ضوء نهاري كل مكان. ملأت رائحة اللحم المشوي أجواء الحديقة.

لكن الأرقاء كانوا قد رشوا في مباخر معدة مسبقة بين القوائم أنواعا عطرة من الصبار الألوي والمر الصمغي. علت صرخات منشؤها حشود المتفرجين، لم يعرف ما إذا كانت صيحات تنم عن بهجة صاخبة، أو عزاء وشفقة، لكن شدتها قد تصاعدت من لحظة إلى أخرى، مع اشتداد النيران التي بدأت تنهش في صدور الضحايا، وتطال بلهبها الوجوه المسودة، وشعر الرأس فيقلصه. ثم شمخت النيران عاليا أكثر فأكثر كأنما قد أعلنت مجدا، ونصرا محققا لمن أضرمها.

كان القيصرقد حضر بين الشعب منذ بداية العرض، يقود عربته الفاخرة التي يجرها أربعة من الخيول المطهمة البيضاء. كان في العربة بزيه الخاص بالقيادة، بألوان الحزب الأخضر الذي كان ينتمي اليه مع كامل حاشيته الامبرطورية.

جاء بعده رتل العربات المليئة بالحاشية، والسيناتورات، والكهنة وكلهم بأفخم الثياب، إضافة إلى النساء الباخوسيات الثملات العاريات إلا من الأكاليل حول رؤوسهن، وبأيديهن أباريق النبيذ، وكن يقهقهن قهقهات وحشية. و إلى جانبهن الموسيقيون بثياب الفونات آلهة الحقول والمراعي، أو بثياب الساتير الهة الغابات الشهيرة بالشبق والعربدة، والصنوج.

وفي عربات أخرى جاءت الماترونات و العذراوات الرومانيات نصف عاريات، ثملات في بعضهن، وقد أحاط بعرباتهن بهلوانات تلوح بصولجانات باخوس المزخرفة بشرطان، وآخرون بالدفوف والطبول، وأولاد يرشون الزهور. دخل هذا الموكب الفخم، على الطريق الرئيسي للحديقة: عبر دخان المشاعل وهو يردد صيحة عالية يعيش!. كان القيصر يقل بعربته إضافة إلى تيفالنيوس، شيلون أيضا ليتسلى على ما ينتابه من ارتعاد. كان يسوط الخيول بنفسه، ويشاهد بتقدمه الأجساد المحترقة، دون أن يغفل عن صيحات الشعب، الألوهة المتعملقة، في عربته المذهبة السائرة بين الحشود.

استقبل بالصياح والتصفيق، وقد أحاطت به دفعة واحدة من الباخوسيات والنيمفات و السناتورات، والاوغستيان، والكهنة، والفاونات و الساتير، والجنود، وهو يدور بتيفالنيوس و شيلون حول نافورة الماء التي يحيط بها دزينة من المشاعل، والضحايا التي تحترق، فيتوقف عند كل ضحية بتعليق ساخرا من العجوز اليوناني الذي غلف وجهه الاضطراب والحيرة.

حتى توقف أخيرا عند قائم مرتفع مغطى بالرياحين. كان السنة اللهب الحمراء قد بدأت تنهش جذع الضحية، لكن وجهها كان من الشاق التعرف اليه على الفور، لأن دخان الغصون الخضراء المشتعلة كان يخفيه. وبعد وقت قصير أزاح النسيم المسائي العليل الدخان، وكشف الوجه الطاعن في السن واللحية البيضاء المسبلة.

همد شيلون من صدمة المشهد منكمشا كعظاة، وصدرت منه صرخة أشبه بالنعيق، وأبعد ما تكون عن صوت إنساني:

- كلاوسيوس! كلاوسيوس!

وفعلا جاءته نظرة من الطبيب كلاوسيون فوق القائم المشتعل. ما زال حيا. أحنى وجهه المتوجع كأنما أراد أن يلقي نظرة أخيرة على جلاده الذي وشي به، وحرمه من زوجته وأولاده وأرسل اليه من يغتاله، ومن ثم حين صفحوا عنه باسم المسيح لم يتوان عن تسليمه لهؤلاء الجلادين. الإنسان لم يواجه إنسانا أبدا بمثل هذا الأذى الدموي الاعنف من نوعه. الجثة تحترق على مرأى من الجلاد قربها. لم يغض كلاوسيوس طرفا عن وجه اليوناني. كان الدخان يقف حاجزا بين فترة وأخرى، لكن هبوب النسيم، كان يجعل شيلون يلمح العينين المسمرتين عليه. نهض، وحاول أن يفر، لكنه لم يقو على الفرار.

شعر للحظة أن رجليه مجبولتان من رصاص، وأن يدا خفية، تضغط عليه بقوة فوق بشرية، وتثبته أمام القائم. استحال إلى جماد. أحسس بشيء ما يطفح في داخله، ويسري صاعدا حتى قمة رأسه. وشعر أنه بات

مكتفيا من الآلام والدم، وأن حياته تنتهي هنا، ويغيب من حوله كل شيء:
القيصر، البلاط، الحشود، وأن هاوية قائمة، مرعبة، لا قاع لها تحيطه من كل جانب، لا يرى فيها سوى عيني هذا الشهيد توجهان التهمة اليه. ظلت الضحية ترمقه برأس محني. لاحظ الجميع هناك أن شيئا ما كان قائما بين هذين الرجلين، لكن لأن الهول بذاته كان مرتسما فوق ملامح شيلون. لقد الواه الارتعاد والألم، كأن السنة اللهب باتت تحرق جسده قفز على حين غرة، ورفع كلتا يديه، وصرخ بصوت مرعب يودي بالقلوب:
ـ كلاوسيوس! باسم المسيح، سامحني!
أطبق صمت مطلق. وسرت رعشة من البرد في أوصال الحضور، واتجهت كل الاعين تنظر نحو الأعلى.
تحركت رأس الشهيد على نحو لا يلاحظ، وصدرت من أعلى القائم عبارة على هيئة تنهيدة:
ـ سامحتك!...
ألقي شيلون بنفسه أرضا، وبصرخة وحشية عفر ترابا براحتيه وراح يمرغ رأسه. في هذه الاثناء اشرأبت النيران، وغلفت صدر كلاوسيوس ووجهه، وفككت إكليل الريحان على رأسه، وأتت على الشرطان المتأرجحة في أعلى القائم، ليشتعل بعدئذ القائم الخشبي بأكمله، وينشر ضوءا مبهرا في أرجاء المكان.
وبعد وقت قصير نهض شيلون. كانت ملامح وجهه قد تبدلت تماما، حتى ظن الاوغستيان أنهم يرون شخصا آخر إلى جانبهم. توهجت عيناه بنار غير مالوفة، وشع جبينه المليء بالتجاعيد بإشراقة. وصار اليوناني البائس كأنه الان كاهن قد الهمته الألوهية أن يتهيأ ليعلن حقيقة غامضة.
ـما الذي حصل له؟ هل فقد عقله؟ صدرت بعض الأصوات.
أما هو فقد استدار نحو حشود الناس، وبيدين مرفوعتين راح يتحدث، بل يصرخ بصوت جهوري، لا لكي يسمعه الاوغستيان فحسب، بل سائر العامة هناك:
ـ يا شعب روما! أقسم. بموتي أن كل من يبادون هنا بريئون. لأن من أحرق المدينة هو هذا! وأشار بإصبعه نحو نيرون.
ساد صمت لحظي. أصاب الحاشية الجمود، وظل شيلون واقفا كما هو، مشيرا بإصبعه نحو نيرون. ثم على حين غرة اندلعت الفوضى. هرع الشعب كموجة ضربتها العاصفة نحو العجوز ليشاهده عن كثب. وهنا وهناك طلعت صيحات تقول اقبضوا عليه. يا ويلنا. راح الجمهور يصفر، ويزأر: "يا صاحب اللحية الحمراء! يا قاتل أمك، يا حارق روما!" وتفاقمت الفوضى بين لحظة وأخرى. هربت الباخوسيات مولولات إلى العربات.
هوت بعض القوائم المحترقة، مطلقة وابلا كثيفا من الشرر، فازدادت الفوضى في إثر ذلك. قبض الشعب المدافع على شيلون واقتادوه بصحبتهم إلى عمق الحديقة.
راحت القوائم المحترقة تهوي في كل مكان على الطرقات، ناشرة الدخان والشرر، وعبق جو الحديقة. مزيج من روائع الحرائق البشرية والخشبية. خمدت المشاعل في كل الامكنة قريبا وبعيدا. وعمت الظلمة في الحديقة.
وتدافع الحشد المضطرب المتجهم المرتعد باتجاه الأبواب. وبدأت الأنباء حَوْلَ ما جرى تنتقل منْ لسان إِلَى لسان، مشوبة بالزيف، والتضخيمات والمبالغات. زعم البعض أن القيصر قَدْ أغمي عَلَيْهِ، وأفاد آخَرُونَ أنه اعترف بإحراق رومَا.
وقال البعض الآخر أنه مرض مرضًا شديدًا. وقيل أيْضًا أنهم نقلوه ميتًا إِلَى العربة. وسمعت صيحات تدافع عَنْ المسيحيين: "لَيْسُوا هُمْ منْ أحرق روما، فَلِمَا سفكت كُلّ هذِه الدماء؟
لِمَا كُلّ هذَا التعذيب، والظلم؟ هَلْ يا ترى سَوْفَ تنتقم الآلهة لهؤلاء الأبرياء؟ وأية ضحية ستختار؟".

وترددت عِبارات مُتكررة: "أجساد بريئة". النساء أشفقت عَلَى الأطفال الّذِينَ ألقي بأعداد كبيرة مِنْهُمْ للوحوش أَوْ صلبوا، أَوْ أحرقوا فِي هذِهِ الحديقة اللعينة.
ثُمَّ استحال إشفاقهن إِلَى شتائم ضِدّ القيصر وتيفالنيوس. وكان مِنْ بَيْنَ الحشود مَنْ طرح السؤال لنفسه، أَوْ لغيره: "أيْ ألوهة تمنح المسيحيين مِثْل هذِهِ القوة أمام شبح الموت؟". وتوجه إِلَى منزله سارحًا.
أَمَّا شيلون فقَدْ ظلّ يهيم عَلَى وَجْهَهُ فِي الحديقة، لَا يدري أَيْنَ تقوده رجلاه، ولا ماذا يفعل وتفاقم شعوره بأنَّه عجوز مريض لَا حَوْلَ لَهُ ولا قُوَّة. كَانَ يتعثر بالجثث المحترقة، رَاكلًا" منْ أمَامه الجِمار المتوهجة الَّتِي ينتشر مِنْهَا بفعل النسيم كذَلِكَ، وابل منْ شرر النار.
وكَان يجلس أيْضًا مُلتفتًا حَوْلَهُ بنظرات فارغة لَا جدوى مِنْهَا. كانت الظلمة قَدْ أطبقت تَمَامًا فِي الحديقة، وليس هُنَالك إلَّا القمر الواهن يسبح بَيْنَ أعَالي الغصون، ويُلقي بنوره تائهًا عَلَى الطرقات، والقوائم المرميّة فوقها، وبقايا الجثث المتفحمة. لَكِن العجوز اليوناني قَدْ أحس أنَّه يرى تَحْتَ ضوء القمر، وجه كلاوسيوس الَّذِي ما زال يرنو إِلَيْهِ، فوجد نفسه يختبئ بَعِيدًا عَنْ الأنوار. ورَغْم ذَلِكَ، فِي نهاية. المَطَاف، خرج منْ الظل، وعلى نَحْو تِلْقَائِيّ، وكأن قُوَّة خفية تدفعه، وانطلق نَحْو نافورة الماء، حَيْثُ أسلم كلاوسيوس الروح.
وهناك أحسّ بيد تلامس ذراعه.
التفت العجوز إِلَى الخَلْف، فاصطدم بشخص مجهول، جعله يصرخ مرعوبًا:
- ماذا هُنَاك؟ منْ أنت؟ - بولس الترسوسي.
- علَيَّ اللعنة! ما الَّذِي تريده مني؟
- أريد أن أنقذك.
استند شيلون إِلَى الشجرة. ارتعشت رجلاه منْ تحته، وارتجفت يداه مُتهدله عَلَى طول جسده.
فقال بصوت غائر:
- لَا خلاص بالنسبة لِي!
فسأله الحواري:
- ألم تسمع أن السيد صفح عَنْ اللص الَّذِي ندم عَلَى خطاياه وهو فوق خشبة الصليب.
- أتدري أنت ما فعلته أَنَا؟
- رَأَيْت تألمك، وسمعت أنَّكَ دعمت الحَقّ.
- أوو، سيدي!
- إذا كَانَ خادم المسيح وهو يُكابد العذاب، قَدْ سامحك فِي لحظة موته، فكيف لَا يُسامحك المسيح؟
أمْسَك شيلون رأسه بيديه وقال:
- الغفران لِي! الغفران لِي!
فأجاب الحواريّ:
- إلهنا نَحْنُ، إله الرَّحْمَة.
فكرر شيلون:
- لِي أَنَا! وراح يتأوه كمَنْ فَقَدْ كُلّ قواه. أَمَّا بولس فَقَدْ قَالَ:
- استند علَيَّ، ورافقني.
وقاده ممسكا بذراعه نَحْو تقاطع الطريق حَيْثُ النافورة الَّتِي ترقرقت مياهها فِي سكون الليل، كأنمَا كَانَ يبكي كُلّ الَّذِينَ كابدوا العذاب المميت.
كَرَّرَ الحواري قائلًا:
- إلهنا إله الرَّحْمَة. فإن وقفت عِنْدَ شاطئ البحر، ورحت تلقي بالحجارة فِي مياهه، فهل بوسعك أن تردم بِهَا

أعماق البحر؟ أؤكد لَكَ أن رَحْمَة المسيح كالبحر، وأن ذنوب البشر وخطاياهم كالحجارة فِي أعماقه. أؤكد لَكَ أنها كالسماء الَّتِي تغطي الجبال، والأرض، والبحار وتمتد فِي كُلّ مكان دُونَ حد ولا نهاية. لَقَدْ كابدت الألم عِنْدَ كلاوسيوس وهو فوق القائم، والمسيح قَدْ رأى ما كابدته.
وسمع صيحتك وأنت تَقُولُ مُشيرًا إِلَى القاتل:
"هذَا هُوَ مَنْ أحرق المدينة" ، وسوف يَتَذَكَّرُهَا. بات قلبك نقيا بَعْدَ أن تخلص منْ الشر، والكذب، وَلَمْ يعد يختزن إِلَّا الندامة الصرف. رافقني واستمع لِمَّا سأقوله: أَنَا نفسي كُنْت أكرهه، وطاردت أتباعه. لَمْ أتقبله، وَلَمْ أؤمن بِهِ، حَتَّى ظهر لِي، وناداني. ومن يومها هُوَ منْ أحبه. وها أنت ذا الآنَ يبلوك بالأذى، والألم، والخوف ليناديك إِلَيْهِ. أنت كرهته، لَكِنَّهُ يسامحك، ويريد خلاصك.
هز صدر العجوز البائس نشيج يهد الروح، فضمه بولس إِلَيْهِ، وقَدْ استحكم بِهِ، وقاده كما يقود الجندي أسيره.
وما لبث أن قَالَ:
- تعال، وأنا سأقودك إِلَيْهِ. هذِهِ مهمتي الَّتِي جئت إِلَى هُنَا منْ أجلها. لَقَدْ أوصاني بأن أجمع النفوس البشرية باسم المحبة، فأنا إذن رهن إشارته. تظن أَنَّكَ ملعون، وأنا أقول لَكَ: آمن بِهِ، وسينتظرك الخلاص. تظن أَنَّكَ تضمر الكراهية، وأنا أكرر قولي بأنه يحبك. انظر إليَّ! طيلة الفترة الَّتِي كُنْت فِيهَا لَا أحبه، كَانَ قلبي لَا يملك إِلَّا شروري. أَمَّا الآنَ فإن محبته تعوض أبي وأمي، وكل ثروة ومملكة. وحده منْ لديه النجاة، وحده العارف بِألمك، وحده منْ ينظر إِلَى بؤسك، ويبعد عَنْكَ الخوف، ويرفعك إِلَى جواره.
بلغا النافورة، الَّتِي تلامعت خيوط مياهها فضية تَحْتَ ضوء القمر. كَانَ السكون والفراغ يعم كُلّ مكان، لأن الأرقاء كانوا قَدْ أزالوا بقايا القوائم المحترقة، وأجساد الشهداء.
جثا شيلون لاهثًا مُتنهدًا، وتسمر مُخفيًّا وَجْهَهُ بيديه. أَمَّا بولس فعكف إِلَى الصلاة رافعًا وَجْهَهُ نَحْو النجوم:
- سيدي، أنت ترى هذَا الإِنْسَان البائس، وتنظر فِي آلامه، ودموعه، ومعاناته! يا سيد الرَّحْمَة، يا منْ بذلت دمك لقاء ذنوبنا، أن تصفح عَنْ هذَا الإِنْسَان بحق آلامك، وموتك، وقيامتك!
سكت، لَكِنَّهُ ظِلّ ناظرًا فِي النجوم، يصلي؟
وفي هذِهِ الأثناء جاءه صوت متحسر بالقرب منْ رجليه:
- يا مسيحي، يا مسيحي!... سامحني!
ولسماع النداء، تَقَدَّمَ بولس منْ النبع وحفن بَعْض الماء، ثُمَّ رجع إِلَى الجاني البائس:
- شيلون! أَنَا أعمدك، باسم الأب، والابن، والروح القدس. آمين!
رفع شيلون رأسه، وفتح ذراعيه، وظل هَكَذَا بلا حراك. أضاء القمر بأنواره شعره الأشيب، ووجهه الأبيض المتصلب الفاقد للحياة، مرت اللحظات. وسمع صياح الديكة فِي مزرعة الدواجن ضمن الحديقة، فِيمَا ظِلّ هُوَ جاثيا عَلَى ركبتيه، بلا حراك كشاهدة قبر.
تزحزح أَخِيرًا، ونهض واقفًا، والتفت إِلَى الحواريّ يسأله:
- سيدي، ما الَّذِي يَنْبَغِي أن أفعله قَبْلَ أن أموت؟
فما كَانَ منْ بولس أَيْضًا إِلَّا أن تخلى عَنْ حالة تأمله فِي تِلْكَ القدرة العظيمة، وأجابه:
- تحل بالثقة والإيمان بالعدالة.
وغادرا الحديقة معًا. وعند الباب قام الحواريّ. بمباركة العجوز مرة أُخْرَى، وافترقا. شيلون نفسه كَانَ راغبًا فِي هذَا، بَعْدَ أن وضع فِي حسبانه أن القيصر وَتيفالنيوس سَوْفَ يلاحقانه.
ولم يَكُنْ خطأ. حين رجع إِلَى البَيْتَ، كَانَ منزله مطوقًا بالحرس الإمبراطوري، فسرعان ما قبضوا عَلَيْهِ، وقادوه إِلَى البالاستينوس.

كَانَ القيصر قَدْ هجع إِلَى النَّوْم، لَكِن تيفالنيوس كَانَ فِي انتظاره، فما أن لمح اليوناني التعيس، حَتَّى التفت إِلَيْهِ بوجه هادئ، لَكِنَّهُ ينذر بالوعيد، وخاطبه قائلًا:
ـ لَقَدْ اقترفت طعنًا فِي الذات القيصريّة. ولن تنجو منْ العقاب. ولكن غدًا فِي المدرج، إن أعلنت أَنَّكَ كُنْت ثملًا فاقدًا عقلك، وأن المسيحيين هُمْ منْ قاموا بالحريق، فسوف تنجو منْ الضرب والنفي.
فأجاب شيلون بخفوت:
ـ لَا أستطيع يا سيدي!
لَكِن تيفالنيوس تَقَدَّمَ نحوه، وسأله بصوت خفيض أَيْضًا، لَكِنَّهُ يبعث عَلَى الرعب:
ـ وَلَمَا لَا تستطيع أَيَّهَا الكلب اليوناني؟ لعلك لَمْ تَكُنْ ثملًا، ولا تدري ما الَّذِي ينتظرك؟ أنظر هُنَالك!
وأشار إِلَى ركن الأتريوم حَيْثُ كَانَ يقف أربعة منْ الأرقَّاء الزنوج قرب مقعد طويل، وبأيدهم حبال وكلابات.
فكر شيلون قائًلا:
ـ لَا أستطيع يا سيدي! تملك تيفالنيوس غضب مسعور، لَكِنَّهُ ظِلّ مسيطرًا عَلَى نفسه فسأله
ـ أرأيت كَيْفَ مات المسيحيون؟ أترغب فِي موت كهذا؟
رفع العجوز وَجْهَهُ الشاحب، وتحركت شفتاه إِلَى حين بهدوء، ثُمَّ قَالَ:
ـ أَنَا أَيْضًا أؤمن بالمسيح!
حدق تيفالنيوس ذاهلًا:
ـ لَقَدْ جننت أَيَّهَا الكلب!
وبكل ما هُنَالك منْ غضب استجمعه فِي داخله، قفز إِلَى شيلون، وقبض عَلَى لحيته بكلتا يَدَيْهِ، ورماه أَرْضًا، وانهال عَلَيْهِ بالضرب وهو يقول لَهُ بفم مُزبد:
ستسحبها ا ستسحبها!
ـ لَا أستطيع.
وما أن سمع الأرقاء الأَمْر، حَتَّى قبضوا عَلَى العجوز، ومددوه، وألقوه بالمقعد، وشدوا ساقيه بالكلابات. ولكن حين كانوا يقومون بربطه راح شيلون يقبل أياديهم متضرعًا، ثُمَّ أطبق عينيه وبدا كالميت.
لَكِنَّهُ كَانَ ما يزال حيًا، حين مال تيفالنيوس فوقه وسأله مرة أُخْرَى: "ستسحبها؟".
ـ لَا... أستطيع!
كف تيفالنيوس عَنْ تعذيبه، وراح، بوجه غاضب تبدلت قسماته، يذرع الأتريوم جيئة وذهابًا، حَتَّى خطرت لَهُ فكرة جديدة، توجه عَلَى إِثْرِهَا إِلَى الأرقَّاء يأمرهم:
ـ اقطعوا لسانه!

جرت العادة أن تُقَدَّمَ مسرحيّة اوريولوس فِي المسارح كما فِي المدرجات، عَلَى خشبتين. ولكنهم بَعْدَ العرض الَّذِي جرى فِي حديقة القيصر، تخلو عَنْ هذِه العادة، لأن ما كَانَ هاما الآنَ هُوَ أن يتسنى لأكبر عدد مُمْكِن منْ المتفرجين أن يشاهد موت العبد المصلوب الَّذِي يأكله الدب فِي المسرحية. وكان بدور الدب فِي المسرح ممثل يرتدي جلد الدب.
أَمَّا الآنَ فَقَدْ حضروا لعرض "حقيقي" وهي مُستحدثة منْ بنات أفكار تيفالنيوس. فِي بادئ الأَمْرِ قرر القيصر أنه لَنْ يذهب لحضور العرض، ولكنه غَيْر موقفه بإقناع منْ محبه تيفالنيوس، الَّذِي ارتأى عَلَيْهِ أن يواظب عَلَى إطلالته الجماهيرية، خَاصَّة بَعْدَ كُلّ ما حصل فِي الحديقة وطمأنه أن العبد الَّذِي سيصلب فِي المسرحية لَنْ يلجا إِلَى شتيمته كما فعل كريسبوس.
وبما أن الشعب قَدْ أتخم إِلَى حد ما منْ إراقة الدماء، وسئم مِنْهَا، فَقَدْ أعلنوا عَلَى الْمَلأ أنهم سيوزعون بطاقات يانصيب وهدايا جديدة، وأن العرض الَّذِي سيقام عَلَى الأضواء الكاشفة، ستليه مأدبة طعام.
وما أن حل الظلام، حَتَّى اكتظ المبني عَنْ آخره. وحضر الاوغستيان وعلى رأسهم تيفالنيوس بأعدادهم التامة، لَيْسَ بدافع الرغبة فِي المشاهدة فحسب، بل ليبرهنوا عَلَى ولائهم الدائم للقيصر بَعْدَ الحادثة الأخيرة، ويسمعوا شَيْئًا عَنْ شيلون الَّذِي بات الآنَ حديث روما باسرها.
وتهامسوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أن القيصر حين رجع إِلَى البَيْتَ منْ الحديقة، تملكته نوبة حنق شديد، فَلَمْ يَسْتَطِعْ النَّوْم، واشتدت مخاوفه، وحلت عَلَيْهِ الكوابيس الغريبة، أعلن عَلَى إِثْرِهَا فِي صباح اليوم التالي أنه سيسافر إِلَى أكايا حالًا. فِيمَا دحض آخَرُونَ هذا النبأ، وزعموا أنه بَعْدَ الأَحْدَاث الأخيرة تملكه العناد، وأصبح أكثر قسوة تجاه المسيحيين. وكان بَيْنَهُمْ جبناء عبروا عَنْ خشيتهم منْ أن التهم الَّتِي أطلقها شيلون فِي وجه القيصر، عَلَى مسمع منْ الجماهير، قَدْ يكون لَهَا نتائج كارثية. وكان هُنَالك منْ طلبوا إِلَى تيفالنيوس، منْ وجهة نظر إنسانية بحتة، أن يكف عَنْ ملاحقة المسيحيين.
علق باركوس سورانوس:
ـ انظر إِلَى أَيْنَ وصل بكم الأَمْر. كُنْتُمْ تريدون إشباع نقمة الشعب، وإقناعه بأن العقاب قَدْ لحق بالمذنبين، لَكِن ما جنيتموه هُوَ النقيض منْ ذَلِكَ.
سانده انتستوس فيروس قائلًا:
ـ تَمَامًا. الكُلّ يتهامس الآنَ أن المسيحيين أبرياء. إن كُنْتُمْ تسمون ذَلِكَ ذكاء ومهارة، فشيلون إذن محق حين زعم أن عقولكم لَا تَمْلأ قمع حبة سنديان.
استدار تيفالنيوس إِلَيْهِم مقرضًا:
ـ والناس يتهامسون أَيْضًا أن ابنتك سرفيليا، يا سورانوس، وزوجتك يا أنتستوس، قَدْ خبأتا الأرِقَّاء المسيحيين عَنْ أنظار العدالة القيصرية.
فصاح سورانوس مرتبكًا:
ـ لَيْسَ صحيحًا
وقال أنتستوس بارتباك لَا يقل عَنْ الآخر:
ـ زوجاتكم المطلقات هن منْ يرغبن بالانتقام منْ زوجتي، غيرة مِنْهَا عَلَى أخلاقها الفاضلة.
وآخرون تكلموا عَنْ شيلون. فسال ابريوس مارسيلوس:
ـ ماذا جرى لَهُ؟ هُوَ الَّذِي سلمهم لتيفالنيوس، وبعد أن كَانَ شحاذًا استحال إِلَى سيد ثري كَانَ بمقدوره أن يعيش بأمان وأن تكون لَهُ جنازة لائقة، وشاهدة قبر جميلة. لَكِنَّهُ... لَا! فَضّل أن يفقد كُلّ شَيْء دفعة واحدة. لَا بُدَّ أنه فَقَدْ عقله. وليس هُنَاك منْ سبب آخر.

اختصر تيفالنيوس قائلًا:
- لَمْ يفقد عقله، بل صار مسيحيًا.
فصاح فيتليوس:
- مستحيل!
وأردف فتستنوس:
- أرَأيْتُمْ؟ ألم أقَلّ لكم؟ أبيدوا المسيحيين إن شئتم، لَكِن لَا تقاتلوا ربهم... لَيْسَ الأَمْر مزاحًا... انظروا ماذا حدث! أنَا لَمْ أحرق روما، لَكِن لَوْ سمح لِي القيصر، لنذرت لألوهتهم عَلَى الفور ذبيحة مئة ثور. وعلى كُلّ منا أن يفعل ذَلِكَ، لأنه كما قُلْتُ، لَا يَعْرِف المزاح. تذكروا أنني بلغتكم!
فقال بترونيوس:
- أمَّا أنَا فقلت شَيْئًا آخر. هزئ تيفالنيوس حَيْثُ قُلْتُ إنهم يقاومون، والان أقول إنهم فِي طور الاقتحام والكر.
فتساءل العديدون دفعة واحدة:
- كَيْفَ؟ كَيْفَ؟
- يا عظمة بولوكس! إن كَانَ حَتَّى شيلون خضع لهم، ولم يَسْتَطِعْ أن يقاومهم فمن باستطاعته إذن؟ إن كُنْتُمْ تعتقدون أن أعداد المسيحيين لَا تتكاثر بَعْدَ كُلّ عرض، فأنتم إذن لَا تعرفون روما.
وكان منْ الأفضل لكم أن تكونوا حلاقين، أوْ حجارين، لتدركوا كَيْفَ يفكر الشعب، وما الَّذِي يحدث فِي المدينة.
فقال فستيوس:
- يا عظمة القديسة ديانا! ما تقوله صحيح تَمَامًا!
لَكِن باركوس التفت إِلَى بترونيوس:
- إِلَى أيْنَ تبغي أن تصل؟
- أبغي أن أختم ما بدأتم بِهِ: كفي دماء!
حدجه تيفالنيوس بنظرة هازئة قائلًا:
- القليل مِنْهَا بَعْدَ!
أنهى الحديث بقدوم القيصر وصحبه الفيثاغورثيين، واحتل مكانه. وبدأ فِي الحال عرض اوريوليوس الَّذِي لَمْ يلفت انتباهًا كبيرًا، لأن شيلون كَانَ حاضرًا فِي ذهن كُلّ مِنْهُمْ.
حَتَّى الشعب الَّذِي ألف مشاهدة الدم والعذاب، بدا ضجرًا منشغلًا بالأحاديث، يترقب بنظرات متعطشة مشهد الدب الَّذِي لَمْ يَحْضُرْ إلَّا ليراه. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ متسلحًا بأمنية حارة لمشاهدة العجوز محكومًا، وعلى موعد مَعَ تلقي الهدايا، لَمَّا كَانَ العرض يَعْنِي الجمهور بشيء فِي الأساس.
لَكِن اللحظة المرتقبة حانت. أحضر فتيان السيرك أوْلَا خشبة الصلب القصيرة إِلَى حد كبير، ليتمكن الدب الواقف عَلَى قدميه الخلفيتين، منْ بلوغ صدر الضحية. ثُمَّ جيء بشيلون يَجُرُّهُ اثنان لأن رجليه كانتا مكبلتين بالكلابات. ثُمَّ مدداه وَثبتاه عَلَى خشبة الصلب. بأقصى سُرْعَة، حَتَّى أن الاوغستيان لَمْ يشبعوا فضولهم برؤية هذِه الحركة، ولم يستدر أَحَد بنظره نحوه، إلَّا بَعْدَ أن ثبتت الخشبة فِي الحفرة المعدة لذلك.
كاد الجميع لَا يتعرفون فِي هذَا العجوز العاري، عَلَى شيلون الأسبق. وجه مبيض منْ شِدَّة الشحوب، عروق جفت منْ دمائها، الحية بيضاء لطخت بالدماء نتيجة بتر لسانه وفق أوامر تيفالنيوس، جسد هزيل بانت عظامه.
بدا أكثر شيخوخة، أوهنه المرض. وَبينما قَدْ استطاعت عيناه فِي المرة السابقة، أن تطلقا نظرات

مضطربة، حاقدة، ووجهه الصاحي يشي بتعابير الجزع، والقلق، إلّا أن هذَا الوجه الآنَ يبث الألم كما منْ ذِي قَبْلَ، لَكِنَّهُ كَانَ وديعا وهادئا، كوجوه الموتى أَوْ النيام.

لعله كَانَ يفكر باللص المصلوب الَّذِي صفح عنه المسيح، فشحنته الفكرة بالطمأنينة، أَوْ لعله كَانَ فِي نفسه يقول للرب الرحيم: "سيدي، لَقَدْ نخرت كالدودة السامة، لكني كُنْت بائسا طوال حياتي. جعت، داسني الآخرون، وضربوني، وعذبوني. كُنْت فقيرًا، جافتني السعادة. سيدي ها هُمْ الآنَ يعلقوني عَلَى خشبة التعذيب والصلب، فَلَا تتخل عَنِّي فِي لحظة موتي".

ومن البديهي أن يكون السلام قَدْ حل فِي فؤاده. لَمْ يضحك أَحَد، لأن المصلوب كَانَ يعكس نوعًا منْ الهدوء، والشيخوخة، والضعف، والعري الأعزل، حَتَّى بات الجميع يطرحون السؤال تِلْقَائِيًّا: كَيْفَ يُمْكِنُ تعذيب وصلب إنسان يحتضر أَسَاسًا؟ صمت الجمهور. فستينوس كَانَ يميل يسارًا ويمينًا يهمس فِي آذان الأوغستيان: "انظروا كَيْفَ يموت هَؤُلَاءِ!".

آخَرُونَ انتظروا الدب، وكانوا فِي أعماقهم يتمنون أن ينتهي هذَا العرض.

وأخيرًا جَاءَ الدب يؤرجح برأسه يمينًا وشمالًا، ويدخل الميدان وهو ينظر حَوْلَهُ فِي كافة الأنحاء، كَأَنَّمَا كَانَ يفكر بأمر، أَوْ يبحث عَنْ شَيْء ما. حَتَّى لمح أَخِيرًا الجسد العاري المُعلق عَلَى الصليب.

اِقْتَرَبَ مِنْهُ، ثُمَّ ما لبث أن تراجع قليلًا، وأقعى عِنْدَ أَسْفَل الصليب. غمغم بهدوء، كَأَنَّمَا قَدْ استيقظت فِي قلبه الحيواني الشفقة إزاء هذَا الإِنْسَان البائس.

فِي هذِه الأثناء رفع شيلون رأسه ببطء، وأجال النظر قليلًا فِي حشد المتفرجين، حَتَّى توقف بعينيه عَلَى أَعْلَى صف منْ صفوف مقاعد الجلوس فِي المدرج، وفي هذِه اللحظة حصل أمر أوقع المشاهدين فِي العجب والذهول. وَجْهَهُ أشرق بابتسامة. جبينه كَأَنَّ أشعة طفحت فوقه، وقبل أن يُفارق الحياة فتح عينيه، وباحتا بدمعتين تدحرجتا عَلَى وَجْهَهُ. مات

وفي الأعلى، تَحْتَ المظلة، صَدَّ صوت رجولي:

- السلام للشهيد!

وأطبق سكون عميق فِي المدرج.

بَعْدَ عرض الحديقة القيصريّة، باتت السجون شبه خالية. صحيح أنهم، فِي أثناء ذَلِكَ، قَدْ استمروا فِي ملاحقة كُلّ منْ اشتبهوا بِهِ، وزجه فِي السجن، لكي يزودوا العروض اللاحقة بالضحايا، وليحققوا رغبات دعاة الخرافة الشرقية، إِلَّا أن مواسم الألعاب قَدْ أشرفت أيْضًا عَلَى نهايتها. لَقَدْ أتخم الشعب فِي إراقة الدماء، وصارت العروض تَمْلأُ قلوب الناس بأشد القلق. فبات حديثهم يتطرّق إِلَى غضب إله المسيحيين وتعطشه إِلَى الانتقام. وفي السجن انتشر مرض التيفوئيد ليملأ المدينة، ويُفاقِم منْ ذعر سكانها.
وفي الكنائس نذرت القرابين لكل منْ جوبيتر وَليبيتانا، وعلى الرَّغْم منْ كُلّ الجهود الَّتِي بذلها تيفالنيوس وأتباعه، إِلَّا أن عموم الآراء الشعبية اتجهت إِلَى الاعتقاد بأن القيصر هُوَ منْ أحرق المدينة، وأن المسيحيين الأبرياء يكابدون العذاب جورًا، وعن سابق إصرار.
لَكِن نيرون وَتيفالنيوس لَمْ يكفَّا عَنْ مُلاحقة المسيحيين. ولكي يخففا منْ نقمة الشعب، ويخمدا شفقته أطلقت تعليمات جديدة لتوزيع القمح، والنبيذ، والزيت، وسنت المراسيم الَّتِي تُسهل إعادة إعمار المنازل، وقدمت الامتيازات لأصحاب البيوت، وبدلت القوانين فِي توسيع الشوارع، واستخدام مواد البناء المقاومة للحريق.
وانضمّ القيصر بنفسه إِلَى مَجْلِس الشيوخ، ليناقش مَعَ المخضرمين، شؤون المدينة والشعب، وكيفية تحسين الأحوال المعيشية، دُونَ أن يتطرقوا، وَلَوْ بالتفاته واحدة، إِلَى وضع المحكومين. أراد سيد العالم قَبْلَ كُلّ شَيْء، أن يقنع الشعب بأن مِثْل هذِهِ الأحكام القاسية لَا يُمْكِنُ أن تشمل إِلَّا المذنبين. وَلَمْ يجرؤ أَحَد منْ السيناتورات أن ينبس بحرف بخصوص حماية المسيحيين، تفاديًا لأية ملاحظة قَدْ تسجل عَلَيْهِ أمام القيصر، فِي حين علت أصوات العقلاء القائلة بأن المبادئ الَّتِي يقوم عَلَيْهَا الحكم الروماني لَيْسَ بوسعها أن تصمد فِي مواجهة الدين الجديد.
ولكنهم أعادوا الجثامين لذويها، لأن القانون الروماني لَا يتضمن أحقادًا عَلَى الموتى. أَمَّا بالنسبة لفينيكوس، فَقَدْ طمأنته كَثِيرًا فكرة أن ليفيا إذا ما ماتت فسوف يدفنها فِي مقبرة العائلة، ويرقد هُوَ إِلَى جانبها. بات الآنَ فاقدًا لكل أمل فِي إنقاذها، وصار مُستغرقًا كُلّ الاستغراق فِي المسيح، منفصلًا تَمَامًا عَنْ الحياة الأرضية، ولا يخطر لَهُ أن يفكر بالارتباط بليفيا إِلَّا فِي الحياة الأبدية. لَقَدْ تعمق إيمانه عَلَى نَحْو جعل الحياة الأبدية مُنزهة عَنْ أن تقارن بِهَذِهِ الحياة. امتلأ قلبه بالبهجة. تخيل كَيْفَ أنه سيمسك بيد ليفيا ويصعدان إِلَى السماء حَيْثُ سيباركهما المسيح، ويسمح لَهُمَا بالسكن هُنَالك فِي النور الأبدي بسلام.
وتضرع إِلَى المسيح كي يرفق بِهَا وينقذها منْ التعذيب فِي الميدان، وأن تسلم الروح وهي فِي السجن، وأن يموت هُوَ فِي تِلْكَ اللحظة. وما دامت كُلّ هذِهِ الدماء قَدْ أريقت، فمن غَيْر الجائر أن يكون لَهُ أَقلّ منْ إنقاذ ليفيا وحدها. ولقد سمع بطرس وبولس يقولان إِنَّهُ يَنْبَغِي لَهُمَا أن يموتا شهيدين. لَقَدْ رأى شيلون فوق الصليب، وأثبت لَهُ العجوز أن الشهادة أمر جميل، وهو الآنَ راغب أن تَأْتِي تِلْكَ اللحظة الَّتِي يستشهدان فِيهَا معًا.
كانا بَيْنَ الحين والأخر يستشعران طعم الحياة بَعْدَ الموت، وأن الحزن الَّذِي يرفرف حَوْلَ روحيهما قَدْ بات شَيْئًا فشَيْئًا، يفقد حرارته الحارقة، ويستحيل بإرادة الرب إِلَى راحة وسلام. ظَلّ فينيكوس طويلًا يسبح بكل جهده عكس التيار. قاتل، كابد، لَكِنَّهُ الآنَ بات واثقًا أنه فِي اتجاه يقوده إِلَى السكينة الأبدية. شعر أن ليفيا تستعد مثله للموت، وأن منْ المستحيل لجدران السجن أن تفرقهما. فهما الآنَ يسيران معًا. ابتسم للفكرة، وللسعادة الَّتِي هُوَ فِيهَا.
وحقيقة الأَمْر أَنَّهُمَا قَدْ تشاطرا هذِهِ الأفكار. فَلَمْ تعد ليفيا راغبة إِلَّا فِي الحياة الَّتِي تنتظرها بَعْدَ الموت. لَمْ تنظر إِلَى الموت كخلاص فقط يُحررها منْ بَيْنَ جدران السجن، ومن أظافر القيصر وَتيفالنيوس، وإنما رأت فِيهِ لحظة اتحادها بفينيكوس. وأمام هذِهِ الطمأنينة فَقَدْ كُلّ شَيْء آخر معناه وأهميته. لَقَدْ انتظرت

الموت كخطيبة تترقب لحظة زفافها.
ولم يَكُنْ أرسوس إلَّا ملتصقًا مِثْل هذِه المشاعر. فَلَمْ يكترث طويلًا لمسالة موت ليفيا، لأنه بقلبه الغلامي البسيط. كَانَ يستشعر فوزها مَعَ غيرها منْ المسيحيين بالحياة الأبدية المجيدة كَانَ يسمع أن الناس متساوون أمام الرب، لَكِنَّهُ لَمْ يشاهد هذِه الفتاة الملكية الَّتِي تميزت فِي هذِه الحياة، وهي عَلَى قدم المساواة فِي الأخرة مَعَ أخواتها الرقيقات. وتمنى لنفسه أن ينعم عَلَيْهِ الرب ويسمح لَهُ بأن يظل خادمًا أمينًا لَهَا. وكان يُصلي ليموت فوق خشبة الصليب كما كَانَ مصير الحمل المسيح.
لَقَدْ أحب الحراس أرسوس لوداعته، ولكن قوته الخارقة الَّتِي أبداها فِي تقطيع الحبال، وتخليع القضبان الحديدية، أوقعتهم فِي جزع. وحاولوا جهدهم أن يعرفوا سر هذِه القوة.
فكان يكلمهم بكل ثقة عَنْ الحياة الَّتِي تنتظره بَعْدَ الممات. وكانوا يشعرون أن هذَا المكان الَّذِي لَا تدخله الشمس، تدخله السعادة. وحين حاول أن يقنعهم بالإيمان بالمسيح، كَانَ يلمع فِي ذهن البعض مِنْهُمْ أن عمله عمل عبيد، وحياته حياة بائسة، فِيمَا كَانَ بَعْضُهُمْ الآخر يتأمل فِي قدره الرديء الَّذِي لَا يضع حدًا لَهُ سِوَى الموت.
لَكِن الموت ملأهم مزيد منْ الخوف، وَلَمْ ينتظروا أن يأتيهم بأي أمر حسن. فِيمَا كَانَ هذَا العملاق الليغوي، والفتاة الَّتِي كانت كزهرة مرمية عَلَى قش السجن، يمضيان بترحاب نَحْو الموت، كَأَنَّمَا يقتربان منْ مدخل السعادة.

وذات مساء قام السيناتور سكافينوس بزيارة بترونيوس، وتحدث مَعَهُ طويلًا عَنْ القيصر، والأزمنة الصعبة، الَّتِي يعيشانها. ولقد كَانَ شفافًا وصريحًا فِي حديثه إِلَى حد جعل بترونيوس، ورَغْم صداقته الحميمة مَعَهُ، أن يلزم الحذر. أظهر شكواه منْ أن العالم قَدْ فَقَدَ عقله، وصار بنحو فِي اتجاه رديء. ولن يُوضَع حد لإيقاف ذَلِكَ، إلَّا بحصول واقعة أكبر منْ حريق روما. وقال إن الاوغستيان باتوا يتذمرون، وأن فنيوس روفوس نائب قائد الحرس قَدْ فرغ صَبْرَهُ منْ تصرفات تيفالنيوس. وأن قوم سينكا أجمعين قَدْ أزعجهم سلوك القيصر تجاه لوكانوس والعجوز. وذكر أَخِيرًا أن الشعب، وحتى الحرس الإمبراطوري يبدون عدم رضاهم، وأن فنيوس روفوس قَدْ كسب غالبيتهم العظمى إِلَى جانبه.
سأله بترونيوس:
ـ وَلَمْ تَقُولُ هذِه الأمور؟
فأجاب بسكافينوس:
ـ أَنَا قلق بسبب القيصر. لِي قريب بعيد بَيْنَ عناصر الحرس الإمبراطوري عرفت مِنْهُ ما الَّذِي يحصل فِي المعسكر... التذمر يتفاقم... تعلم أن كاليِفولا أَيْضًا كَانَ مجنونًا... فما الَّذِي حصل لَهُ؟ جَاءَ كاسيوس سيريا وقام بمأثرة عظيمة بتخليص العالم منْ ذَلِكَ الغول... وليس بَيْنَنَا منْ يمجد سيريا.
قاطعه بترونيوس قَائِلًا:
ـ كَأَنَّمَا تَقُولُ بأنك لَا تجد مأثرته، لَكِنَّهُ رغم ذَلِكَ كَانَ إنسانًا عظيمًا، ويا حبذا لَوْ تبعث لَنَا الآلهة العديد منْ أمثاله.
غَيْرَ سكافينوس مَجْرى الحديث، وراح فجأة يُمجد بيشو. مجد قومه، وروحه النبيلة، وتعلُّقه بزوجته، وعقله الراجح، وهدوءه، وموهبته المتميزة فِي كسب الناس لصالحه.
قَالَ:
ـ لَيسَ للقيصر أبناء، والجميع يرى فِي بيشو خليفة لَهُ، ويرغبون فِي مؤازرته لتسلم السلطة. روفوس أَيضًا يُحبه، وأسرة أنيوس نصيرة لَهُ، وبلاتيوس لاتيرانوس وَتوليوس سينكيو يرمون بأنفسهم بالنار لأجله. وكذلك ناتاليس وَفلافيوس وَاسبر وَأفروس وحتى فستينوس.
فعلق بترونيوس قَائِلًا:
ـ لَا فائدة تُرجى مِنْ الأخير، لأن فستينوس يخاف مِنْ ظله.
فأجاب سكافينوس:
ـ إِنَّهُ يخاف منْ الأحلام والأشباح، لَكِنَّهُ شَخْص مُسْتَقِيم، ومن الحسن أنهم يرغبون فِي تعيينه قنصلًا. ولا يؤَخَذ عَلَيهِ منْ قِبلك أَنَّه فِي أعماقه غير راضٍ عَنْ مُلاحقة المسيحيين، لأن منْ الهام لَكَ أيضًا أن يوضَع حد لهذا الجنون.
صحح لَهُ بترونيوس:
ـ منْ الهام لَيسَ لِي، بل لفينسيوس. بسبب فينسيوس أرغب فِي إنقاذ فتاة، لكني لَا أستطيع لأني خرجت منْ دائرة استعطاف القيصر.
ـ كَيفَ ذَلِكَ؟ ألم تلاحظ أن القيصر يتقرّب إِلَيكَ ويتحدث مَعَكَ مُجَدَّدًا؟ وسأُوضح لَكَ السبب حَالًا. إِنَّهُ يتهيأ للسفر إِلَى أكايا، حَيثُ سيطلق هُنَاك بَعْض أغانيه اليونانية. ينتظر السفر عَلَى أحر منْ الجمر، لَكِنَّهُ فِي الوَقْت نفسه يرتجف خشية منْ ذائقة اليونانيين الساخرة.
يضع فِي تصوره الآنَ، أنَّه إما أن يحظى بأعظم أمجاده، أَوْ يبوء بالفشل الذريع هُنَاك. فهو الآنَ فِي أمس الحاجة للنصيحة، ويُدرك تَمَامًا أن لَيسَ ثمة منْ يفوقك فِي أداء هذِه المهمة: هذَا هُوَ سبب قبوله لَكَ.

ـ يمْكِنُ للوكانوس أن يحِلّ محلي.
ـ صاحب اللحية الحمراء يكرهه، وفي أعماق نفسه قَدْ حكم عَلَيهِ بالإعدام، لَكِنَّهُ ينتظر الذريعة، لأن المظاهر تهمه كَثيرًا. لوكانوس يشعر أن الإسراع فِي الأَمْر بات ضروريًّا؟
صرخ بترونيوس:
ـ يا عظمة كاستور! هذَا مُمْكِن. لكني أعرف طريقة أُخْرَى تقربني مِنْهُ سريعًا.
ـ وما هي؟
ـ أن أحكي لَهُ كُلّ ما حكيته لِي الآنَ.
فصاح سكافينوس باضطراب:
ـ لَمْ أَقَلّ شَيئًا
لَكِن بترونيوس وضع يده عَلَى كتفه:
ـ نعت القيصر بالمجنون، وتري بيسو خليفة، وقلت أيضًا: لوكانوس يُشعر أن الإسراع ضروري. ففي أَي شَيء تريدون الإسراع؟
شحب سكافينوس وظلا بَعْض الوَقْت يحدّقان فِي بَعْض.
ـ لَنْ تَقُولُ لَهُ شَيئًا أعرف!
ـ بحق عجيزة سيبريس أتعرفني جَيدًا! لَا لَنْ أقول. لَمْ أسمع منك شَيئًا ولا أريد أن أسمع... أتفهم؟ الحياة أقصر منْ أن نوجع رؤوسنا بالمؤامرات. لكني أرجوك أن تزور تيفالنيوس حَالًا وتتحدث مَعَهُ بكل ما حدثتني بِهِ اليوم.
. لماذا؟
ـ لأن تيفالنيوس لَوْ واجهني بقوله "كَانَ سكافينوس عندك" ، أستطيع أن أواجه بقولي" كَانَ عندك فِي نفس اليوم".
حين سمع سكافينوس ذَلِكَ حطم العصا العاجية الَّتِي كانت بيده وقال:
ـ اللعنة عَلَى هذِه العصا المسحورة. سأذهب اليوم إِلَى تيفالنيوس، ثُمَّ إِلَى مأدبة نيرفا آمل أن تكون هُنَاك. لَكِن فِي كُلّ الأحوال، إِلَى اللقاء بَعْدَ غد فِي المدرج، فِي العرض الأخير للمسيحيين، إِلَى اللقاء.
ـ بَعْدَ غد؟
كَرَّرَ بترونيوس. وحين صار بمفرده قَالَ:
ـ لَيسَ هُنَاك منْ وقت أضيعه. صاحب اللحية الحمراء فِي أمس الحاجة إِلَى فَعَلًا قَبْلَ السفر إِلَى أكايا. إذن قَدْ يضعني فِي حسبانه.
واتخذ قراره بأن يجرب محاولته الأخيرة.
فِي مأدبة نيرفا رغب القيصر فَعَلًا أن يجلس بترونيوس قُبالته، لأنه أراد أن يكلمه عَنْ أكايا، وفي أَي المدن هُنَاك يمْكِنُ لَهُ أن يحرز أكبر النجاحات. الأهم لديه الأثينيون، لَكِنَّهُ كَانَ يخشاهم.
أنصت الأوغستيان بانتباه شديد إِلَى ما جرى منْ حديث، ليتناقلوا فِيمَا بَعْدَ ما ارتكب بترونيوس مِنْ زلات لسان.
قَالَ نيرون:
ـ أشعر أنني لَمْ أعش بَعْدَ. وسوف تكون ولادتي فِي بلاد اليونان.
فقال بترونيوس:
ـ سَوْفَ تُولد باسمٍ جديد، حَيثُ يُكتب لَكَ الخلود.
ـ أَنَا أكيد منْ ذَلِكَ. ولن يكون أبوللو فِي موقع الحسود. فلو حققت النصر الَّذِي أريد، سأنذر لَهُ ذبيحة مئة

ثور، وما لَمْ يحصل عَلَيهِ أي إله قَبْلَ الآنَ. فاستشهد سكافينوس بأحد المقاطع الشعرية لهوراتيوس:
يا امرأة سيبروس الإلهيّة، يا نجمة كاستور وأخيه المزدوجة الناريّة..
قُوديني عَلَى هداك.
تابع القيصر:
ـ السفينة تنتظرنا فِي نابولي أود لَوْ أنطلق غَدًا.
بترونيوس جاءته الصحوة، وقال مُحدقًا فِي عيني نيرون:
ـ أتسمح، أيهَا القيصر الإلهي، أن أُقيم مأدبة عشاء قَبْلَ ذَلِكَ، وأن تكون أوَّل المدعويين إلَيهَا؟
فسأله نيرون:
ـ مأدبة عشاء؟ لماذا؟
ـ عَلَى شرف فينيكوس والأميرة الليغويّة رهينتك. صحيح أنها الآنَ فِي السجن. ولكن منْ جهة، لَا يجوز اعتقالها لأنها رهينة، ومن جهة ثانية أنت بنفسك سمحت لفينيكوس أن يتخدها زوجة لَهُ. وما أن قراراتك، كما قرارات زيوس لَا ترد، فإنك ستطلق سراحها، وأنا سأسلمها لحبيبها.
الهدوء المُطبق منْ جراء ما نطق بِهِ بترونيوس بكل برود وثقة، أخرج نيرون عَنْ سراطه، وأزاحه عَنْ روتينه الخاص، كما حصل لَهُ غير مرة حين كُلّ موه بِهَذِهِ الطريقة.
فقال:
ـ أعلم. فكرت بالأمر، كما فكرت بذلك العملاق الَّذِي دق عُنق كروتون
فكان رد بترونيوس:
ـ إذن فكلاهما فِي منجاة.
لَكِن تيفالنيوس سارع إلَى مؤازرته:
ـ إنَّهَا فِي السجن بناء عَلَى إرادة القيصر، وها أنت تَقُولُ بعظمة لسانك أن أوامر القيصر لَا ترَاجُع عنها.
كَانَ جَمِيع الحضور يعرفون حكاية فينيكوس وَليفيا بتفاصيلها، فالتزموا الصمت، وترقبوا بفضول ما النتيجة الَّتِي سيفضي إلَيهَا هذَا الحديث.
فصده بترونيوس بقوة:
ـ إنَّهَا مُعتقلة رغم إرادة القيصر، نتيجة لخطأ وقعت فِيهِ، كونك لَا تُتقن الحقوق القانونية للشعب. أنت شَخْص ساذج، يا تيفالنيوس، لكنك بالطبع لَيسَ لديك الرغبة فِي أن تزعم بأن ليفيا أحرقت روما. وحتى لَوْ زعمت ذَلِكَ، فالقيصر لَنْ يُصدقك.
خمد نيرون فِي هذِهِ الأثناء، لَكِنَّهُ راح يجول بعينيه، اللتين كانتا تعكسان حقدًا وبغيضة.
ثُمَّ قَالَ بَعْدَ قليل انتظار:
ـ بترونيوس مُحق.
فرمقه تيفالنيوس بنظرة استغراب وكرر نيرون قَائِلًا:
ـ بترونيوس مُحق. غَدًا سيفتح أمامه باب السجن. أمَّا المأدبة فسوف نتحدث عنها بَعْدَ غد فِي المدرج.
" هزمت مرة ثانية"فكر بترونيوس
وبعودته إلَى البَيتَ، لَمْ يكُنْ لديه أي شَكّ فِي مصير ليفيا وفي اليوم الثاني أرسل أَحَد معتوقيه المخلصين بوصية إلَى قائد البولاريوم فِي المدرج، بأن يُسلم جثمان ليفيا إلَيهِ، لأنه سيسلمها بدوره إلَى فينيكوس.

باستثناء حالات وَمناسبات خَاصَّة فِي السابق، لَمْ تتخذ العروض طابعها الاحتفالي المنوع إلَّا فِي عَهْد نيرون. كَانَ الاوغستيان يحب ذون هذَا الزخرف الترفيهي الجديد الَّذِي غالبًا ما تليه المآدب والمرح العربيد، ويستمر حَتَّى الصباح.

صحيح أن الشعب قَدْ أُتخم منْ إراقة الدماء، لَكِنَّهُ بإعلان الجهات المنظمة أن ألعاب السيرك تتجه نَحْو نهايتها، وأن الدفعة الأخيرة منْ المسيحيين ستُشارك فِيهَا، فَقَدْ وفدت الحشود مُتزاحمة، مُتدافعة إِلَى المدرج. حضر الاوغستيان عَنْ آخِرهم، يحدوهم الظن بأنهم سيشاهدون عرضًا لَيسَ عاديًا، بَعْدَ أن قرر القيصر أنه فِي صدد تقديم تراجيديا مُستوحاة منْ الأم فينيكوس.

احتفظ تيفالنيوس سرًا بطريقة التعذيب الَّتِي ستُسلك بخصوص خطيبة الحاكم الشاب، ولقد اعتبر عدم الإفصاح عنها طعنًا بالمزاج العام.

فالذين كانوا قَدْ رَأَوْا ليفيا فِي منزل بلاوتيوس، تناقلوا فِي أحاديثهم العجائب عَنْ جمالها، فِيمَا أثار آخَرُونَ غيرهم أمر آخر: أتراهم سيشاهدون ليفيا فِي الميدان أم لَا، لأن ما قاله القيصر فِي مأدبة نيرفا يحمل عَلَى وجهين. فبعض مِنْهُمْ فهم منْ القيصر أنه سيُعيدها، بل أعادها إِلَى فينيكوس، لأن منْ حَقُّهَا كرهينة أن تؤمن بالإله الَّذِي تريد، وأن القانون لَا يُتيح الحاق العقاب بالرهائن.

لعبت الشكوك فِي نفوس المشاهدين، وأرقهم الترقب والفضول. وحين وصل القيصر أبكر منْ عادته، انتشر اللغو فِي أوساطهم، متوقعين أن أمرًا خارقًا سَوْفَ يحصل، خَاصَّة وأن نيرون جَاءَ وبصحبته كُلّ منْ تيفالنيوس وَفاتينوس إضافة إِلَى قائد المئة العملاق الشديد البأس كاسيوس، الَّذِي لَمْ يعتد القيصر عَلَى اصطحابه مَعَهُ إلَّا إذا دعت الحاجة الماسة.

وبدا للعيان فِي المدرج أن تدابير احترازية مُشددة قَدْ اتخذت منْ قَبْلَ جند الحرس الإمبراطوري والان تَحْتَ قيادة الحاكم فلافيوس المخلص الشديد التشبث بالقيصر، كما يعلم الجميع.

كُلّ هذِه المظاهر دلت عَلَى أن القيصر قَدْ اِتَّخَذَ كُلّ احتياطاته ضِدّ أَي غضب مُحتَمَل لفينيكوس قَدْ يخرجه عَنْ طوره، ويُهدد أمن نيرون وسلامته.

كُلّ الانظار اتجهت مشدودة إِلَى حَيثُ يجلس العاشق البائس. كَانَ فينيكوس شاحبًا قلقًا مُتعرق الجبين، فاقد اليقين، شأنه شأن الآخرين، فِيمَا سيحصل.

لَكِنَّهُ كَانَ مُصَمِّمًا عَلَى إنقاذ ليفيا، مَهْمَا كلفه ذَلِكَ منْ ثمن. جَاءَ مُنْذُ الصباح، يحاول الدخول إِلَى كونيكولوم ليتأكد منْ وجود ليفيا هُنَاك، لَكِن الجند كانوا يحرسون كُلّ المداخل، مزودين بأقسى الأوامر والتعليمات الَّتِي جعلت حَتَّى أصحابه منْ الجنود لَا تلين قلوبهم أمام أَي إغراءات، وَلَوْ كانت أكياسًا منْ الذهب. شعر فينيكوس أن القلق يقتله قَبْلَ أن يُشاهد العرض لَوْلَا بصيص منْ أمل يقول لَهُ أن ليفيا قَدْ لَا تكون فِي المدرج، وأن هذَا القلق القاتل لَا فائدة مِنْهُ. لَقَدْ تشبث ببصيص الأمل هذَا.

وفكر فِي نفسه أن المسيح قَدْ يكون قَدْ أخرجها منْ السجن ورفعها إِلَيه. كَانَ قَبْلَ الآنَ مستسلمًا لإرادة المسيح، لَكِنَّهُ وقَدْ طرد منْ أمام مدخل الكونيكولوم عائدًا إِلَى المدرج، أدرك أن أقسى الاحتمالات فِي طريقها إِلَى الوقوع، فراح يُصلي، ويدعو المسيح لإنقاذها: "أنت قادر" وشعر الآنَ أنه إذا ما شاهد ليفيا تُكابد تعذيبها المرتقب، فإن محبته للمسيح ستستحيل إِلَى كراهية، وإيمانه إِلَى شَكّ.

تزاحمت أَفْكَارَهُ كالأمواج فِي بحر عاصف. استيقظ فِي داخله ظمأ إِلَى الدم، والرغبة فِي الانتقام. دهمته رغبة مجنونة فِي اقتحام المنصة، والقبض عَلَى القيصر، وخنقه عَلَى مرأى منْ الجمهور، لَكِنَّهُ فِي الوَقْت نفسه، شعر أن هذِه الرغبة تجرح المسيح، وتعني الخروج عَنْ تعاليمه.

وفي غمرة هذِه الأفكار اِتَّخَذَ قَرَارًا بأن لَيسَ بوسعه إنقاذ ليفيا إلَّا بالإيمان، الطريق الأوحد المُتبقي لديه. ألم

يقل بطرس: "بالإيمان يمْكِنُ زحزحة الأرْض عَنْ بنيانها".
اِسْتَعَادَ نفسه إذن، وضغط عَلَى ما يجيش جواه منْ يأس واحتجز كائنه الحي، داخل عبارة واحدة "أؤمن".
وانتظر المعجزة.
وكما يتعين عَلَى الوتر المشدود إِلَى أقصاه أن ينقطع، فإن ما بذله منْ توتر أقصى فِي قواه، قَدْ أَدَّى إِلَى انكساره. شحب وَجْهَهُ، وتصلب جسده. وفكر آنئذ أن دعاءه قَدْ استجيب، فها هُوَ ذا يموت. وأحس أن ليفيا أيْضًا تموت الآنَ مثله، وأن المسيح سيرفعها إِلَيه.
الميدان، والمتفرجون، والآلاف المؤلفة منْ الأردية البيضاء، والفوانيس، والمشاعل، كلها قَدْ اختفت منْ أمام عينيه، لَكِن هذَا الوهن لَمْ يدم طَوِيلًا. وسرعان ما تيقظ، والأحرى أن صخب الشعب المترقب هُوَ الَّذِي أيقظه.
قَالَ بترونيوس:
ـ أنت مريض. اذْهَبْ إِلَى البَيتَ!
ودون أن يُبالي بما سيقوله القيصر، نهض ليُمسك بذراع فينيكوس وينصرفا سويًّا. امتلأَ قلبه شفقة عَلَى الشاب، لَكِنَّهُ كذَلِكَ كَانَ طافحًا بالغيظ، لأن القيصر كَانَ يُراقب فينيكوس منْ خلال زمردته، مُتمعنًا فِي آلامه، بسعادة بالغة، لعله كَانَ يرغب فِي كتابة قصيدة، يتحدى بِهَا تصفيق الجماهير.
هز فينيكوس رأسه. قَدْ يموت هُنَا فِي المدرج، لَكِنَّهُ لَا يحْتَمَل الانصراف، لأن العرض قَدْ يبدأ فِي أية لحظة.
وفعلًا، فِي هذِه اللحظة قام حاكم المدينة بإلقاء منديله الأحمر أَرْضًا. وللتو صر باب المدخل المقابل لمنصة القيصر، ومن شقه المظلم دخل أرسوس إِلَى الميدان الشديد الإنارة.
أغمض العملاق عينيه نتيجة الإنارة المبهرة، وتقدم ناحية وسط الميدان، وراح يجول بعينيه فِي كُلّ اتجاه، كَأَنَّمَا يبحث عمن عَلَيهِ أن يصارعه. كَانَ جَمِيع الاوغستيان، والغالبية العظمى منْ جمهور المشاهدين يعلمون أن هذَا العملاق هُوَ منْ دق عُنق كروتون، فهدر المدرج لمرآه. كَانَ فِي روما العديد منْ المجالدين الَّذِي فاقوا بقاماتهم المقاييس العاديّة للناس، لَكِن عملاقًا مثله لَمْ يُكحل أعينهم قَبْلَ الآنَ.
حَتَّى أن كاسيوس الواقف خلف القيصر بدا كقصفة صغيرة مُقارنة بِهِ. السيناتورات، عذراوات فيستا، القيصر، الاوغستيان، الشعب، كُلُّهُمْ راقبوا بذهول ساقيه الأشبه بجذعين شجريين، وصدره المنتفخ الأشبه بترسين متلاصقين، وذراعيه الهرقليين.
اِشْتَدَّ الهدير لحظة إثر لحظة. لَمْ تعرف الجماهير لذة أكبر منْ استمتاعها بألعاب مِثْل هذِه العضلات حين تتوتر، وتتضخم فِي أتون المعركة. علت الصيحات: أَيْنَ ذَلِكَ الشعب الَّذِي يُنجب مِثْل هَؤُلاَءِ العمالقة. فِيمَا كَانَ أرسوس ينتصب عاريًّا فِي وسط الميدان.
كَانَ أشبه بنصب حجري مِنْهُ إِلَى إنسان غار وَجْهَهُ الأسمر، وطفح بالحزن. وحين رأى الميدان خاليًّا راح مُندهشًا يجول بعينيه الزرقاوين الطفوليتين، عَلَى المتفرجين، ثُمَّ عَلَى القيصر، ثُمَّ عَلَى شباك الكونكولوم منْ حَيثُ ينتظر قدوم جلاديه.
حين خطا نَحْو الميدان، كَانَ قلبه يرتجف توقًا إِلَى ميتة مسيحية ولكنه حين لَمْ يلمح قائم الصليب، ولا الحفرة المعدة منْ أجله، فكر أنه لَا يسْتَحِقّ إذن مِثْل هذِه النعمة، ومن المحتمل أنه سيلاقي حتفه بَينَ أنياب الوحوش:
كَانَ أعزل، واعتزم أنه سيواجه الموت كواحَد منْ أتباع الحمل: بهدوء، وصبر ورغب فِي الصلاة للمخلص، فركع فِي أرض الميدان. عقْد يدَيه، ورفع وَجْهَهُ عبر شق السيرك العلوي، نَحْو النجوم المؤتلفة.
لَمْ ينل هذَا الطقس إعجاب الحشد. لَقَدْ سئموا هَؤُلاَءِ المسيحيين الَّذِينَ يواجهون موتهم كالحملان كانوا

يدركون أن هذَا العملاق إذا مُنع عَنْ القتال، فَقَدْ ذهب العرض فِي مهب الدخان.
وسمعت هسهسة هُنَا وهُنَاك. وقام البعض بمناداة الجلادين الَّذِينَ يقتصر دورهم عَلَى سقوط الممتنعين وحثهم عَلَى القتال. ولكن سرعان ما ساد الصمت، لأن أحدًا لَمْ يكُنْ يعْرِف ما الَّذِي ينتظر العملاق، وهل يا ترى سيواجه الموت دُونَ مقاومة.
لَمْ يدم الانتظار طَوِيلًا. صدحت الأبواق النحاسية تصم الآذان. وانفتحت الشبكة قبالة المنصة القيصرية، ليدخل مِنْهَا وسط الزعيق، ثور جرماني مُخيف عَلَى رأسه جسد نسائي عار.
صاح فينيكوس:
ـ ليفيا! ليفيا!
وكمن أحس بأن مدينة حادة، أَوْ رأس سنان يخترق جسده، جلجل بصوت حيواني عميق:
ـ أومن! أؤمن!... يا مسيح! اصنع معجزة!
حَتَّى أنه لَمْ يشعر أن بترونيوس فِي هذِه اللحظة خبأ رأسه بردائه. ظن أن الموت أَوْ الألم قَدْ سرق ضوء عينيه. لَمْ ينظر، لَمْ ير. أحس أن فراغًا رهيبًا يحيط بِهِ. لَمْ يبق فِي رأسه أثر لأية فكرة. فمه فقط ظلّ يُردّد
ـ أؤمن! أؤمن! أؤمن!
ساد البكم فِي المدرج. قفز الاوغستيان عَنْ أماكنهم قفزة رَجُل واحد، لأن ما حصل فِي الميدان كَانَ أمرًا غريبًا يفوق الحد. ما إن لمح العملاق الليغوي الخشوع المتأهب للموت، الأميرة فوق قرون الثور، حَتَّى قفز كالملسوع، وانحرف راكضًا باتجاه الثور.
وملء الحناجر علت صيحة آنيّة قصيرة، عبرت عَنْ ذهول المتفرجين، ثُمَّ أطبق صمت أبكم. فِي هذِه الأثناء، وفي لمح البصر، كَانَ العملاق أمام الثور المندفع نحوه، وأمسك بقرنيه.
صاح بترونيوس مُزيحًا الرداء عَنْ رأس فينيكوس:
ـ انظر!
تيقظ الشاب رافعًا رأسه النحيلة الشاحبة، وسمر عينين بللوريتين حائرتين عَلَى الميدان.
توقفت الأنفاس فِي الصدور. وسمع أزيز أجنحة الذباب فِي المدرج. لَمْ يشأ البشر أن يصدقوا أعينهم. فمنذ روما هي روما، لَمْ تقع عيونهم عَلَى مِثْل ما يشاهدونه الآنَ.
أمْسَك العملاق بقرني الثور. غرز قدميه فِي الرمل، وأحني ظهره كقوس مشدود، وغابت رأسه بَينَ كتفيه، وانتفخت عضلات ساعديه حَتَّى كادت أن تخرج منْ جِلْدِهَا، لَكِنَّهُ كبح جماح الثور، وثبته فِي أرضه.
تيبس الإنْسَان والحيوان فِي مكانهما بلا حراك، فظنت الحشود أَنَّهُمَا أمام مشهد يصور بطولات هيركوليس أَوْ تيسيوس، أَوْ أنها تشاهد نُصبًا منحوتًا منْ الصخر. لَكِن هذَا السكون الظاهري كَانَ يعكس القوة الهائلة الَّتِي يبذلها المتصارعان. كذَلِكَ كانت حوافر الثور منغرزه فِي الرمل، وتكور جسمه الدغلي القائم حَتَّى صار كرة عملاقة. أيهُمَا ينهار أَوْلًا، أيهُمَا يتزحزح أَوْلًا، هذَا هُوَ السؤال الَّذِي بات فِي عيون المشاهدين الآنَ أكثر أهميّة منْ مصير أي مِنْهُمَا، بل منْ مصير روما بأسرها، وكامل سلطانها فِي العالم.
صار الليغوي الآنَ فِي نظرهم، نصف إله يسْتَحِقّ مِنْهُمْ الاحترام، وإقامة التماثيل لَهُ. حَتَّى القيصر نهض منْ مكانه وَاقِفًا. لَقَدْ سمع هُوَ وَتيفالنيوس عَنْ قُوَّة أرسوس الجبارة، فتقصدا إقامة هذَا العرض، وتهامسا بسخرية فِيمَا بَينَهُمَا: "فليقهر إذن منْ قتل كروتون هذَا الثور الَّذِي خصصناه لأجله". أَمَّا الآنَ فَقَدْ راحا يتابعان بذهول هذَا المشهد أمامهم، غَير مُصدقين أنه مشهد حقيقي. كَانَ فِي المدرج منْ رفعوا أياديهم، وتجمدوا عَلَى هذِه الصورة. آخَرُونَ تصببت جباههم بالعرق، وكأنهم الَّذِينَ يصارعون الثور.
أطبق فِي المدرج صمت ثقيل سمع خلاله هسيس النار فِي المشاعل، والمصابيح. توقفت الأصوات فِي الحناجر، فِيمَا خفقت القلوب بشدة تريد أن تمزق صدورها، وشعر الجميع أنه صراع أزلي مجهول البدايّة.

ما زال الإِنْسَان والحيوان ثابتين فِي مكانهما، كَأَنَّمَا قَدْ ضربا جذورًا فِي الأَرْض.
وعندئذ طَلَع منْ الميدان صوت أنين علت عَلَى أثره صيحات شملت كُلّ الحناجر، ثُمَّ ساد السكوت مُجددًا.
ظن الناس أنهم فِي حلم:
ها هي ذا رأس الثور المخيفة بدأت تنفتل بَينَ قبضتي البربري الملحديديتين.
اكتسي وجه الليغوي، وعنقه، وذراعاه، باللون الأرجواني، وصار ظهره أشد تقوسًا. بدا أنه يستجمع ما تبقى منْ قواه الجبارة الفائقة للقوة البشرية، وبدا أنه لَنْ يصمد طَويلًا.
امتزج أنين الثور الأجش المُتألم بلهاث صدر العملاق العاصف، وشيئا فشَيئًا ازداد انفتال رأس الحيوان، ولفظ لسانًا مُزبدًا طَويلًا.
وماهي إلَّا لحظة حَتَّى طرق أسماع منْ هُمْ فِي الصفوف الأمامية القريبة، صوت طقطقة العظام، تبعه سقوط الوحش ميتًا مدقوق العنق فوق الرمال.
وعندئذ سارع العملاق إِلَى فك الحبل منْ حَوْلَ قرني الثور، ورفع العذراء بذراعيه، لاهثًا بأنفاس مسموعة.
كَانَ شاحب الوجه، مبلل الشعر، تصبب كتفاه وذراعاه بسيل منْ العرق. وَقف للحظة كأنه فاقد الرُّشْد، لَكِنَّهُ سرعان ما رفع وَجْهَهُ، ونظر إِلَى الجماهير.
جُن جُنون المدرج.
هز زئير عشرات الألاف المُحتشدة أركان المبنى وجدرانه. فمذ أن بدأت الألعاب لَمْ تذكر الحشود عرضًا بهذا الحماس. أَخَذْت جماهير المقاعد العُليا تتدفع نَحْو الأسفل وتتزاحم بَينَ صفوف المقاعد، لتشاهد هيركوليس عَنْ كثب. وتعالت منْ كُلّ أنحاء أصوات كثيرة مُعاندة، مُكابدة، تُطالب بالرحمة، ما لبث أن اتحدت لتغدو صيحة واحدة رجت الأجواء. عرض خاطف جعل منْ العملاق الإِنْسَان الأول فِي روما.
وبات فِي لحظات ضوء عيون هذَا الشعب الَّذِي أحب قوته الجبارة كُلّ هذَا الحب.
أدرك بدوره أن الشعب يُطالب لَهُ بالرحمة، والحرية. لَكِن المعضلة لَا تتوقف عِنْدَه فقط. ظِلّ لفترة يجول بعينيه، حَتَّى تَقَدَّمَ أَخِيرًا واقترب منْ منصة القيصر، حاملًا الفتاة بذراعيه، وأبدي نظرات متوسلة كَأَنَّمَا أراد أن يقول:
ـ توسلوا منْ أجلها! أنقذوها هي لَقَدْ قمت بكل ذَلِكَ منْ أجلها.
أدرك الحشد رغبته بالضبط. وحين رأت الفتاة المغمى عَلَيهَا كطفل صغير إِلَى جانب جسم الليغوي الضخم، تولد فِي النفوس حماس شديد شمل المتفرجين والفرسان، والسيناتورات. جسد الفتاة المرمري الضئيل، وإغماؤها، وما تعرضت إِلَيهِ منْ خطر رهيب، وإقدام العملاق عَلَى إنقاذها، وأخيرًا جمالها، ووفاء الليغوي، كلها أمور حركت القلوب.
ظن البعض أن الأب أراد الرأفة بطفله. فجأة اندلعت نار الشفقة. كفي دماء كفي موتًا وعذابًا أصوات مُتلعثمة بالبكاء طلبت الرأفة لكليهما.
فِي هذِه الأثناء، دار أرسوس فِي الميدان، حاملًا الفتاة، راجيًا بنظراته، وحركاته إنقاذ حياتها. وعندئذ نهض فينيكوس منْ مكانه، وقفز منْ فوق الحاجز الَّذِي يفصل المقاعد الأولى عَنْ الميدان، وركض نَحْو ليفيا، وستر جسد الفتاة العاري بردائه.
ثُمَّ مزق سترته الصدرية، مُظهرًا آثار الجروح الَّتِي أصابته فِي الحرب الأرمينية، ومد يدَيهِ نَحْو الشعب.
وإثر ذَلِكَ تصاعد حماس الجمهور حَتَّى بلغ أوجًا لَمْ يحصل فِي المدرج منْ قَبْل.
تعالت صيحات العامة وراحت تخبط بأقدامها. باتت الأصوات المطالبة بالرأفة تهديدية مُنذرة بالوعيد.
وبات انحياز الشعب لَا يقتصر عَلَى التعاطف مَعَ المصارع، بل شمل العذراء، والجندي، وما يربط بَينَهُمَا

منْ حب.
توجهت آلاف القبضات والعيون الَّتِي تغدق الغضب، نَحْو القيصر. انكمش نيرون وأرغي، وازبد. لَمْ يكُنْ كُرهًا لفينيكوس، كما لَمْ يكُنْ موت ليفيا بتلك الأهمية بالنسبة إِلَيهِ. كُلّ ما هُنَالك أنه أحب أن يري جسد الفتاة مُعلقًا فوق قرني الثور، أَوْ تمزقه أنياب الوحوش، وأن قسوته، وتطلعاته المنحلة، ومُكابدته الداعرة، كلها معاقد وجدت ضالتها فِي عرض مُمتع كهذا.
والآن ها هُوَ ذا الشعب يأتي ويجرده منْ متعته. اكتسي وَجْهَهُ غضبًا. فَلَمْ يسمح لَهُ غروره أن يستجيب لإرادة الحشود، لَكِن جبنه الغالب المُقيم أخافه منْ عدم تلبيتها.
التفت حَوْلَهُ، عسى عَلَى الأقل أن يرى بَينَ الاوغستيان أصابع مُنْزِلَة إِلَى الأسفل إيذانًا بالموت لَكِن بترونيوس رمقه بنظرة مُتحديّة، وقَدْ رفع يده. وَفستينوس النزاع إِلَى الخرافة، وانتعاش النبل الكامن فِي داخله، والميال إِلَى الخوف منْ الأشباح دُونَ مخافة البشر، كَانَ يشِيرُ بإصبع الرَّحْمَة. وكذلك فعل السيناتور سكافينوس، وَنيرفا وَسينكو وَسكابولا والقائد الحربي المرموق العجوز، وَأنتيستوس وَبيسو وَفيتوس وَكريسبينوس وَترموس وَتلسينوس ومثلهم تراسيا الَّذِي يتمتع باحترام شديد مِنْ قَبْلَ الشعب.
عَلَى إثر ذَلِكَ المشهد أنزل القيصر زمردته عَنْ عينيه، وقَدْ أحس بالازدراء والإهانة، فِيمَا مال إِلَيهِ تيفالنيوس الَّذِي أهمه أن يوجه صفعة لبترونيوس، وقال:
- لَا توافق أيهَا القيصر الإلهي، الحرس الإمبراطوري هُنَا.
هُنَا التفت القيصر إِلَى نصيره المخلص الصارم سوبريوس فلافيوس آمر الحرس الإمبراطوري الآنَ، فوقعت عيناه عَلَى أمر فائق الخطورة. كَانَ الحاكم العجوز يُبدي عينين مغرورقتين بالدمع، وقَدْ رفع إصبعه إشارة للرحمة.
فِي هذِه الأثناء بدأ الحشد يُعلن الغضب والاستياء، حَتَّى صار وقع الأقدام ينشر غبارًا ملأ أرجاء المدرج، وعلت هُنَا وهناك صيحات قائلة: "صاحب اللحية الحمراء، قاتل أمه، حارق المدينة"
ارتعد نيرون. كَانَ الشعب سيد الموقف فِي الملعب كَانَ القياصرة السابقون كاليغولا خَاصَّة يتحدون فِي بَعْض الأحيان إرادة الشعب، لَكِن ذَلِكَ كَانَ دَائِمًا يؤدي إِلَى قيام الشعب، وينتهي أَحْيانًا بإراقة الدماء.
أَمَّا حال نيرون فكانت مُخْتَلِفَة. أوْلًا لأنه كممثل ومُغن، فِي حاجة لرحمة الشعب، وثانيًا لأنه يريد مِنْهُ أن يصُّف إِلَى جانبه مَجْلِس الشيوخ، والحكام. وثالثا لأنه، بَعْدَ حريق روما، كَانَ يسْعَى بكل ما لديه منْ قُوَّة، ليحظى بثقة الناس، ويوجه غضبها نَحْو المسيحيين.
وأخيرًا أدرك أن الاستمرار فِي مُعاكستها قَدْ يكون منْ الخطورة، وأن الشعب المتفجر فِي السيرك قَدْ يطال أنحاء روما، مُخلفًا نتائج لَا يحْمَد عُقباها
والتفت بنظرة أُخْرَى إِلَى كُلّ منْ سوبريوس فلافيوس والحاكم سكافينوس قُرب السيناتور، وَإِلَى الجنود، فاصطدمت عيناه فِي كُلّ مكان بجباه مُقطبة، ووجوه مُترقبة، وعيون قَدْ تسمرت عَلَيهِ. فقام بإعطاء إشارة الرَّحْمَة.
وعلى إثر ذَلِكَ انفجرت عاصفة هادرة منْ التصفيق، بدأت منْ الصفوف العليا، حَتَّى بلغت قاع المدرج. ضمن الشعب الآنَ حياة المتهمين، لأنهما مُنْذُ هذِه اللحظة، باتا فِي حماية القيصر، حَتَّى أنه لَمْ يعد يجرؤ عَلَى مُلاحقتهما بَعْدَ الآنَ.

قام أربعة عبيد بنقل ليفيا إلى منزل بترونيوس، بقصد عرضها على الطبيب الإغريقي بأقصى سرعة ممكنة. وسار كل من فينيكوس و أرسوس إلى جانبها صامتين، بعد أن أرهقتهما وقائع هذا اليوم، فلم يحتملا تبادل الحديث. و لم يكن فينيكوس قد استعاد وعيه بعد، وبقي أسير الفكرة وحيدة ظل يرددها في دخيلته: لقد نجحت ليفيا، و لم تعد مهددة بالسجن، أو بالموت في السيرك، وأنهما قد ودعا البؤس إلى غير رجعة، وها هو ذا يعود بها إلى البيت، ولن يفترقا بعد الان. شعر أنه يبدأ حياة جديدة، وكأنه في حلم. فكان بين حين وآخر، ينحني نحو الهودج المشرع، ويلقي نظرة على وجهها المحبب، تحت نور القمر، كانت نائمة، فقال لنفسه: "إنها هي، والمسيح قد أنقذها".

غمرته السعادة، وأوشك على الاغماء غير مرة، وكان عليه أن يستند مستعينا بذراعي أرسوس، بعد أن فقد قدرته على متابعة المسير. أما أرسوس فظل رانيا نحو السماء المؤتلفة بالنجوم، يصلي.

عبرا الشوارع التي انتلقت ابنيتها الجديدة تحت القمر. كانت المدينة خالية، الا من بعض التجمعات التي التقياها هنا وهناك تغني وترقص محتفية، مرحة في هذا الليلة البديعة. كانا قد اقتربا من بيت بترونيوس، حين أنهى أرسوس صلاته. فقال بصوت خفيض لكي لا يوقظ ليفيا:

- سيدي، المخلّص أنقذها من الموت. حين لمحتها على قرون الثور، جاءني صوت داخلي يناديني "أنقذها!" كان صوت الحمل.

السجن أنهك قواي، لكن المسيح عاد و زودني بها من أجل هذه اللحظة. وهو من دفع هذا الشعب المظلوم ليقف في صفها. فلتكن مشيئته.

فكان رد فينيكوس:

- تبارك اسمه.

ولكنه لم يتمكن من قول المزيد، فقد شعر أن بكاءً مريراً يضغط على صدره، وانتابه رغبة لا تقاوم بالركوع أرضا، وتقديم امتنانه للمخلص على معجزته وضراعته.

وصلوا إلى المنزل، وكان الخدم، الذين أرسل أحد العبيد لإعلامهم بقدوم فينيكوس في استقبالهم. كان خدم المنزل جميعا من عمدهم بولس الترسوسي في الأنتيوم.

فهم على معرفة بمقدار التعاسة التي المت بفينيكوس. وكانوا في منتهى السعادة، بإنقاذ الضحيتين من بين يدي نيرون.

وازدات سعاتهم أكثر حين أخبرهم الطبيب نيوكليس بعد معاينة المريضة، أنها لم تتعرض لجروح مؤذية، وأنها بعد أن يقدر لها الشفاء من الوهن نتيجة مرض الحمى الذي أصابها في السجن، سوف تكون معافاة تماماً.

استعادت وعيها في تلك الليلة حين أضيئت الانوار الكورنتوسية في الغرفة الفخمة العطرة، لم تعلم أين تكون، وما الذي يحل بها.

وحين لمحت فينيكوس خلفها، ظنت لوهلة أنهما في استراحة على طريق الصعود إلى الرب. ابتسمت له وأرادت أن تسأله أين هما الآن، لكن شفتيها لم تفترا الا عن نبرات كان من الشاق استخلاص اسم الشاب من بين حروفها.

جثا إلى جوار الفتاة، وقال وهو يضع يده بحنان على جبينها:

- أنقذك المسيح، وأعادك الي!

تحركت شفتا الفتاة مرة أخرى، وافترتا عن حروف غير مفهومة. ثم اهتز جفناها بعد قليل، ونهد صدرها، وأصدرت تنهيدة خفيفة غرقت بعدها في نوم عميق. تنهيدة كان الطبيب نيوكليسس في انتظارها، متوسما

بها شفاء أكيدا. وهذا ما حصل.
ظل فينيكوس قربها يصلي راكعاً. ذابت روحه في حب أنساه كل شيء. كان الطبيب يطل عليها كل فينة. ومن وراء الستارة كذلك بانت رأس يونيكي أكثر من مرة. حتى أعلنت ديكة الحديقة قدوم الفجر. أما فينيكوس فلم يكن يشعر بكل ما يجري من حوله، لأنه كان سارحا يقبل أقدام المسيح، بقلب قد استحال إلى شعلة تحترق شكرا وامتنانا، حتى شعر بنفسه وقد أضحى الان في الجنة.

بترونيوس، ولكي لا يثير القيصر بعد انعتاق ليفيا، رافقه و باقي الاوغستيان إلى البالاتينوس. لقد أراد أن يسمع ما سيجري هناك من أحاديث، وأن يعرف على وجه الخصوص ما إذا كان تيفالنيوس قد دبر تهمة جديدة لإعدام الفتاة. صحيح أن الفتاة، كما أرسوس قد انضويا تحت حماية الشعب، وأن أحدا لا يجرؤ أن يطالهما بسوء الا إذا أراد إثارة الفوضى، لكن بترونيوس، لعلمه كم يضمر له قائد الحرس من الكره الشديد، قد افترض أنه سيواصل سعيه للانتقام من فينيكوس.

تذمر نيرون، وتملكه التوتر، لأن العرض قد ال إلى غير ما كان يرومه. منه بترونيوس في البداية، لم يشأ حتى أن يراه، ولكنه التفت اليه الان بكل هدوء، وبرود ليقول:

أتدري أيها القيصر الالهي، ما الذي يدور في بالي؟ اكتب قصيدة عن الفتاة التي أنقذت بأمر منك، عن قرني الثور، وأرجعتها إلى حبيبها. اليونانيون يتمتعون بقلب طيب حساس، وأنا على ثقة أن قصيدة مثل هذه ستخلب لب هم.

نالت الفكرة إعجاب نيرون لسببين. أولا لأنها موضوع أغنية وثانيا، لأنها تمجد فيه سيد العالم الرؤوف.

رمق بترونيوس بنظرة دامت لوهلة، ثم قال:

أجل! قد تكون محقا! لكن هل من المناسب أن أتغنى بحسناتي الشخصية؟

ليس بالضرورة أن تسمي نفسك. فالجميع في روما سيعرفون ذلك. وانطلاقا من روما سينتشر النبا في جميع أنحاء العالم.

وهل أنت أكيد من أنه سيلقى استحسانا في أكايا؟

فصاح بترونيوس:

- أقسم بيولوكس!

وانصرف راضيا، لأنه كان على يقين أن نيرون لن يتخلى عن الفكرة. وهكذا سيغدو تيفالنيوس مكبل اليدين.

الا أن الرضا الذي حظي به لم يثنه عن مقصده في إبعاد فينيكوس عن روما، حالما تعافت ليفيا.

فما أن رآه في اليوم التالي حتى قال له:

خذها إلى سيلسيليا لقد حدث أمر يجعلها في منجى من القيصر، لكن تفالنيوس لم يتراجع بعد عن بثه السم، إن لم يكن بسببك فبسببي أنا، لأنه يكرهني.

ابتسم فينيكوس:

- كانت ليفيا على قرون الثور، وأنقذها المسيح رغم ذلك. فأجاب بترونيوس موحيا بفراغ صبره:

- لهذا السبب انذر لها ذبيحة مئة ثور. لكن لا ننتظر منه أن ينقذها مرة أخرى... الالهة لا تحب التكرار، هناك أمثلة على ذلك أوديسيوس مثلا.

فأجاب فينيكوس:

- حالما تتعافى، سأذهب بها إلى بومبونيا غريسينا

- حسنا تفعل، لأن بومبونيا ترقد مريضة. بلغني ذلك من أحد أقارب أولوس. خلال ذلك سيحصل هنا ما سيجعلهم ينسون أمركما. لتكن فورتونا شمسا لكما شتاء، وفيئا لكما في الصيف!

وغادره فينيكوس يخلو مستمتعا بسعادته الغامرة. فيما سارع هو إلى الطبيب يطمئن عن صحة ليفيا وحياتها.

تخطت الفتاة مرحلة الخطورة تماماً، بعدما تلقت كل صنوف الرعاية والراحة. فلم ينقض يومان حتى صاروا يخرجونها إلى حديقة الفيلا لتمكث فيها ساعات طويلة. قام فينيكوس بتزيين الهودج بالسوسن لكي

يذكرها.منزل أولوس. وكثيرا ما كانا يسيران يدا بيد بين الأشجار، يتحادثان عن الأوجاع والمخاوف السابقة. وأوضحت له ليفيا أن المسيح تعمد أن يبلو فينيكوس بتجارب مؤلمة ومكابدات لكي يخلصه في النهاية، رافعا روحه إلى جواره. ولقد أحسن الشاب أن هذا صحيح، بعد أن تخلص من فينيكوس القديم الذي لا يعرف ناموسا آخر سوى ما تعلق بهمومه الخاصة. لكنها خلت من المرارة. فقد أحس كلاهما أن ما مضى قد ولى إلى غير رجعة، وأن سلاما لم يستشعراه من قبل، بات يملأ قلبيهما الان.

بدأت حياة جديدة، جذبتهما اليها. لقد ساد القيصر، وماد في روما، وملأ الكون رعبا، لكنهما الان، بشعورهما أن ثمة سلطانا أشد بأسا بأضعاف مضاعفه من سلطان القيصر، لم يعودا يخافان غضبه، وخبله، ولا يحسبان له حسابا، كأنه ما عاد في ماعليهما، ولا سيد حياتهما وموتهما. ذات مرة عند حوالي الغروب طرق أسماعهما جئير الأسود، والوحوش، قادما من المرابي النائية. كانت أصواتا ملا قلب فينيكوس رعبا، لأنه اعتبرها نذيرا للشوم آنذاك. والان تقابلت نظراتهما بالابتسام، ثم راحا يتأملان الغروب.

وحين تشعر ليفيا بالوهن كانت أحيانا تختلس سهوة في سكون الحديقة، و إلى جانبها فينيكوس يتأمل وجهها. لقد أذبل المرض جمالها فعلا، فباتت نحيلة الوجه، شاحبة الشفتين، منهكة الجسد، حتى عيناها لم تعودا.مثل تلك الزرقة المعهودة. يونيكي الشقراء الشعر التي خصتها بالازهار، والغطاء الناعم، وقفت قربها كإحدى الهات سيبروس. بترونيوس ذو النظرة الجمالية، عبثا كان يحاول الوقوف على مواطن جمالها المالوفة.

لكن فينيكوس بات يحب فيها روحها، ولقد أحبها أكثر حين كان ساهرا إلى جانبها، وأحس أنه يملك العالم.

سرعان ما انتشر نبا نجاة ليفيا العجائبية بين أوساط المسيحيين المتبقين على قيد الحياة. بدأ الاتباع يتجمعون لرؤية التي تحررت بضراعة المسيح. جاء أولا الفتى نازاريوس وأمه اللذان ما زالا حتى الان يخبئان الرسول بطرس، ولحق بهما كثيرون. وبحضور فينيكوس و ليفيا و بترونيوس استمع الجميع إلى حديث أرسوس عن الصوت الذي هتف في روحه، يأمره بقتال الثور.
وانصرفوا جميعا، تحدوهم الامال بأن المسيح لا يسمح بالقضاء التام على أتباعه قبل قيام الساعة. وهي آمال أنعشت فيهم الروح، لأن ملاحقة المسيحيين لم تتوقف بعد. فكل من اشيرت الأصابع اليه بأنه مسيحي جره رجال الأمن، وزجوه في السجن.
كان أولئك قلة، لأن الغالبية العظمى كانوا قد اعتقلوا وعذبوا، أو غادروا المدينة، ولم يجرؤوا على إقامة الصلاة الجماعيّة.
رغم ذلك استمر الجند في اقتفاء آثارهم، وأبقوا على المعتقلين منهم إلى حين إقامة العاب السيرك في المواسم التالية.
ورغم أن شعب روما لم يصدق أن المسيحيين هم من أحرق المدينة، إلا أن الناس كما الحكومة قد أعلنوهم أعداء للمجتمع، فبقيت المراسيم الصادرة ضدهم سارية الصلاحية.
الرسول بطرس بدوره، لم يجرؤ لمدة طويلة أن يظهر عند منزل بترونيوس إلى أن أعلن نازاريوس ذات مساء قدومه. فهرولت كل من ليفيا و فينيكوس لمعانقة قدميه، فاحتفى بهما أيما احتفاء، خاصة وأن ما تبقى من الحملان بات عددا قليلا من مجموع القطيع الذي كلفه المسيح أن يرعاه.
وهكذا فحين قال فينيكوس: "سيدي، المسيح استجاب لتضرعك، وأعطانيها".
كان رد بطرس: "لقد أعادها اليك لايمانك، ولكي لا يسكت كل الافواه التي تذكر اسمه" ولاحظ فينيكوس و ليفيا مشيب الحواري التام، وانحناءة ظهره، ومقدار الحزن والمعاناة على وجهه، انعكاسا لما كابده الضحايا من عذاب نتيجة لغضب نيرون وجنونه.
كان فينيكوس يستعد منذ أيام لإبعاد ليفيا إلى نابوليس، فتوسل إلى الحواري بطرس أن يغادر روما مرافقا لهما.
لكن الحواريّ وضع يده على راس فينيكوس وقال:
ـ أسمع كلمات المسيح التي قالها لي عند بحيرة طبريا: "حين كنت يافعا طوقت نفسك واتجهت حيثما شئت، لكنك فيما بعد، وحين تشيخ ستمد يديك ليطوقك شخص آخر، ويأخذك إلى حيث لا ترغب"
كانا منصتين، لا يدر كان ما يقوله، فتابع يقول:
ـ رعايتي ستنتهي قريبا، ولن أحظى بكرم الضيافة، والراحة الا عند السيد.
ثم التفت اليهما مجدًّدا:
ـ فكّرا بي فقد أحببتكما مثلما يحب أب ابناءه. واجعلوا كل سلوك لكم في الحياة تمجيدا للسيد. وبسط يديه المرتعشتين فوق رأسيهما، وباركهما، فاقتربا منه، وقد شعرا أنها قد تكون المباركة الأخيرة من يديه.
لكنه طمأنهما بأنهما سيرانه مرة أخرى. وبعد أيام جاءهما بترونيوس بأنباء خطرة من البالاتينوس. لقد اكتشفوا أن أحد معاتيق القيصر المسيحي، قد وجدوا لديه رسائل من الرسولين بطرس و بولس، ومن ياكاب و يودا و يانوش. كان تيفالنيوس على علم مسبق بأن بطرس مقيم في روما، لكنه ظن أنه قد لقي حتفه مع الالاف الكثيرة من أتباعه.
ولكنه تبين الان أن أهم رجلين من رجال الدين الجديد ما زال على قيد الحياة، ويقومان بتدريس تعاليمه في العاصمة. فتقرر البحث عنهما والقبض عليهما بأي ثمن، أملا في اقتلاع آخر جذور الطائفة الكريهة.

وسمع بترونيوس من فستينوس أن القيصر قد أعطى مهلة ثلاثة أيام لاعتقال بطرس و بولس وزجهما في سجن مامرتينوس، فحشدوا لهذا الغرض فصائل الحرس الامبراطوري لتمشيط بيوت الترانستيبريس بالكامل.
فينيكوس بسماعه هذا النبأ، قرر الذهاب إلى الرسول، وتحذيره. وبحلول المساء اصطحب معه أرسوس متنكرين بعباءتين تخفيان حتى الوجوه، وقصدا سالكين أطراف الترانستيبريس، منزل ميريام عند أسفل تلة يانيكولس، حيث يقيم بطرس شاهدا في الطريق بيوتا محاصرة من قبل الجنود بقيادة أشخاص مجهولين كان الاضطراب شديدا في هذه الناحية من المدينة، والمشاجرات قائمة هنا وهناك، وقادة المائة يستجوبون العبيد في غير مكان، بحثا عن بطرس و بولس الترسوسي.
تخطى فينيكوس و آرسوس الجنود، حتى بلغا منزل ميريام، حيث التقيا هناك بطرس وحفنة من أتباعه. تيموسيوس مرافق بولس إضافة إلى لنيوس كانا إلى جوار بطرس.
كان نازاريوس بعد أن جاء النبأ الخطير، قد سار بهم عن طريق سري إلى مقلع حجارة مهجور يعد مئات قليلة من الخطوات عن بورتايانيكولا. كان على أرسوس أن يحمل لينوس المضعضع الجسد، المحطم العظام نتيجة التعذيب. وحين وصلوا المغائر شعروا بالامان. اشعل نازاريوس الفانوس، وعلى ضوئه بدأت مشورتهم، كيف سيتمكنون من إنقاذ حياة الرسول الغالية على قلوب الجميع.
قال فينيكوس:
ـ سيدي، غدا عند الفجر سيخرجك نازاريوس من المدينة، باتجاه جبال الألب. سنلتقي هناك، ونأخذك إلى الأنتيوم حيث تنتظرنا السفينة التي ستقلنا إلى نابوليس و سيسيليا. بورك اليوم والساعة حين ستحل عندي، وتبارك منزلي.
كان وقع الكلام سارا للبقية، وحاول الجميع إقناع الرسول بالأمر.
ـ اهرب يا راعينا، فلا مكان لك في روما. احرص على العدالة الحية كي لا تزول بنا وبك معا، نتوسل اليك كأب لنا أن نستمع الينا.
وتوسل آخرون متعلقين بردائه:
افعل من أجل المسيح!
لكنه أجاب:
ـ يا ابنائي، من يدري كيف قدّر السيد حدود حياتي؟
لكنه لم يقل أنه لن يغادر روما، هو نفسه كان مترددا، لأن الشك والخوف كانا قد تسللا إلى قلبه منذ فترة طويلة. رعيته تشتتت. أعماله ذهبت هباء، والكنيسة التي كانت، قبل الحريق قد ازدهرت كشجرة بديعة، حولتها قوة الوحش إلى غبار. لم يبق الا الدموع، والذكريات الكثيرة، والعذاب المروع والموت. الزرع أعطى محصولا وافرا، لكن الشيطان مرغه بالوحل. جنود الملائكة لم تأت لإسعاف الهالكين، وها هوذا نيرون ما زال بقمة مجده، يتربع على عرش الكون، أكثر قوة ورهبة وسلطانا. كم بسط الصياد يديه بالدعاء إلى الله، وكم تضرع اليه بالقول"سيدي، ماذا أفعل؟ كيف سأقاوم، وأقف في مواجهة القوة اللامحدودة للشر، وها أنذا تطلق يديه ليسود وينتصر؟".
ومن شدة المه أطلق صرخة هزت أعماقه" لم يعد هنالك من حملان. تكلفني برعايتها، ولا كنيسة أحميها، فلا جود في بلادك الا للدمار والعراء والحداد. ما الذي تأمرني به الان؟ هل أبقى هنا، أم أذهب ما تبقى من القطيع إلى مكان ناء وراء البحار، فأمجد اسمك في الخفاء؟
تملكته الحيرة، رأى أن زمنها لم يحن، ولن يحين إلا إذا هبط السيد في اليوم الموعود إلى الأرض، بكل ما يحوزه من محد، وسلطان يفوق سلطان نيرون الاف المرات.

وغالباً ما خطر له أنه إذا ماغادر روما فسيلحق به جميع الاتباع. وسيأخذهم بعيدا حتى شاطئ بحيرة غانازار الهادئة، حيث الرعاة الوادعون كالحمائم أو الحملان. اشتد به الشوق إلى الهدوء والراحة، فترقرق الدمع في عيني العجوز.
لكن الحيرة كانت تستحوذ على قلبه كلما نزع آنيا إلى اتخاذ قرار. كيف سيغادر المدينة بعدما قدم رعاياه كل هذه التضحيات والدماء. ماذا سيقول للسيد حين يسمعه يناديه:
"رعاياك تضحي بدمائها من أجل معتقدها، وأنت تهرب"؟
وهكذا كانت تنقضي أيامه ولياليه مليئة بالعذاب:
ـ سيدي، هل أرسلتني إلى هنا، لكي أقيم عرشك في عش الوحوش؟
وكان يقول لنفسه أحيانا: "كيف لي أن أصارع قيصر روما الذي لا يتمكن منه الا المسيح بنفسه".
كان الاتباع يتحلقون حوله مرددين:
ـ أهرب، وأخرجنا من سلطان الوحش
وفي نهاية المطاف أطرق لنيوس أمامه قائلا:
ـ سيدي! لقد أمرك المخلص أن ترعى حملانه. لكنهم لم يعودوا هنا الان. فاذهب حيث يمكن أن تجدهم. كلمة الله ما زالت حية في أورشليم، و أنطاكية ومدن أخرى. لا جدوى من بقائك في روما.
وإذا سقطت، فسوف تعزز من سلطان الوحش. والسيد لم يرسم حدودا لحياة يوحنا. و بولس مواطن روماني فلايمكن الحاق العقاب به دون تهمة. أما إذا صب نيرون جام غضبه عليك فسيقول أصحاب القلوب المترددة: "لا أحد أعظم من نيرون".
أنت تلك الصخرة التي يبنى عليها عرش السيد. دعنا نمت نحن، لكن لا تسمح لعدو المسيح أن ينال من وريث الله في الأرض، ولا ترجع إلى هنا حتى ينتقم السيد من سفك دماء الابرياء. ورجاه الجميع قائلين:
ـ أقم وزنا لدموعنا
وأغرقت وجنتا بطرس أيضا بالدمع. نهض ومد يديه فوق الراكعين قائلاً:
ـ تمجد اسم السيد، ولتكن مشيئته!

وعند فجر اليوم التالي انطلق شخصان قاتمان باتجاه سهول كامبانيا. الأول كان نازاريوس، وكان الثاني الرسول بطرس الذي غادر روما، وأخوة المعتقد المكابدين هناك.
كانت قبة السماء شرقا مغمورة بوشاح مخضر، يتصل أسفله بشريط ضوئي يتسع مع مرور الوقت. بدأت صفوف الاشجار تتلامح فضية الأوراق، ومعها رخام الفيلات الأبيض، وأقنية صرف المياه الممتدة نحو المدينة. بات اخضرار السماء يفتح شيئاً فشيئاً، ويتوشح بالذهبي. ثم ما لبثت جهة السماء الشرقية تستحيل إلى لونها الوردي، وتنير جبال الالب التي بدت وكأن قوامها من نور، يخالطه البنفسجي.
انعكسر الفجر على قطرات الندى المرتعشة فوق أوراق الأشجار. خف الضباب، وأتاح مساحة أوسع لرؤية المنبسط السهلي، وبيوته، ومقابره، وبلداته، وغاباته المتفرقة، وأعمدة الكنائس المنتشرة بينها.
كانت الطريق خالتة. ولم يكن الفلاحون قد بدؤوا بشحن خضارهم على العربات، قاصدين المدينة، عبر الطريق المرصوفة ببلاط من الحجارة والممتدة حتى اسافل الجبال.
وفيما بعد انبثقت الشمس بين الجبال، فطلع مشهد غريب أمام ناظري الحواري كأنه قرص ذهبي بدلا من أن يندفع إلى الأعلى، يهبط من التلة الجبلية ويتدحرج على طول الطريق.
توقف بطرس وقال:
ـ أترى هذا الضوء الذي يتقدم نحونا؟
فأجاب نازاريوس:
ـ لا أرى شيئاً.
فرفع بطرس يديه حتى عينيه وقال مجدداً:
ـ طيف ياتي الينا عبر الضوء.
لكن وقع الخطوات لم يكن مسموعا. كان السكون شاملا. وكل ما رآه نازاريوس أن الاشجار ترتعش في البعيد، كأن أحدا يقوم بهزها، وأن الضوء يتسع ويذوب في السهل.
رمق نازاريوس الحواريّ باستغراب، وصرخ باضطراب:
ـ أيها الربان! ما خطبك!
سقطت العصا من يد بطرس، وأصبح فجأة شاخص العينين، فاغر الفم، وقد أوحى وجهه بالدهشة، والسعادة والاشراق. فركع أرضا، وبسط يديه أمامه، وصدحت من فمه صرخة:
ـ يا مسيحي! يا مسيحي!
وهوى بوجهه أرضا كأنه راح يقبل قدمي أحدهم. ساد صمت طويل حتى بادر العجوز يسال بصوت منتحب:
ـ كوفاديس يا سيدي؟
لم يسمع نازارايوس الجواب، لكن صوتا وديعا حزينا طرق أذني بطرس:
ـ إن أنت تخليت عن شعبي، فأنا ذاهب إلى روما، لأصلب من جديد.
استلقى الحواريّ أرضاً، معفر الوجه بالغبار، ولا صوت، ولا حركة. ظن نازاريوس أنه مات، لكنه ما لبث أن نهض، وتناول عصاه بيديه المرتعشتين، ودون أن ينبس بحرف، استدار نحو تلال المدينة السبع.
حين رأى الفتى ما رآه، كر ر مرددا كالصدى:
ـ كو فاديس يا سيدي؟
فأجاب الرسول بصوت خفيض:
ـ إلى روما.

وانطلق راجعا.
استقبله بولس و يوحنا و لنيوس وكافة الاتباع باستغراب، وجزع شديدين. لكنه أجاب عن كل اسئلتهم بهدوء وبشر:
ـ لقد رأيت المسيح!
وفي الصباح الباكر وبعد مغادرته للتو، دهم الجند منزل ميريام بحثا عن الحواريّ.
وكان في مساء اليوم نفسه قد خرج إلى مقبرة الاوستريانوم، ليقوم بتعميد أولئك الذين رغبوا في البلل بماء الحياة.
ومنذ تلك اللحظة كان يخرج كل مساء لعمادة أتباع جدد تزداد أعدادهم يوما بعد يوم.
قيصر استحم بالدم، و روما، ومعها العالم الوثني بأسره، أصابها الجنون والخبل، لكن الذين هالتهم أفعال الشر، وسفك الدماء والجنون، والذين ساءت أقدارهم، ومن بينهم البؤساء والمحزونون، والفقراء، كلهم قد احتشدوالسماع الخطب الغريبة عن الرب الذي أحب البشرية وضحي بحياته مصلوبا ليخلصها من ذنوبها.
وحين عثروا على الرب الذي أمكنهم أن يحبوه، عثروا أيضا على ما افتقدوه من العالم القديم: السعادة المنبثقة من المحبة.
أما بطرس فقد أردك أن العدالة الحية، لا يمكن أن يقهرها لا القيصر، ولا جميع فيالقه، وأن زمن انتصارهم قد بدأ الان. وأدرك أيضا أن هذه المدينة وهي بؤرة الشر، والانحلال الخلقي، ومركز السلطة، قد بدأت منذ اللحظة تستحيل إلى مدينته هو، ومحط كرسيه المضاعف. فمن هنا انطلق إلى العالم ملكوت ما فوق الجسد والروح.

وفي النهاية حانت ساعة الرسولين. لكن الرب قد ر لصياد السمك أن يمن عليه باصطياد روحين داخل السجن جنديان كانا مكلفين بحراسته في سجن مامر تينوس، هما بروسيسوس ، مارتينيانوس قد اعتنقا المسيحية.
ثم جاءت ساعة المكابدة. في أثنائها لم يكن نيرون في روما. قام بإصدار الحكم المعتوقان الحران هليوس و بولستيس اللذان كلفهما القيصر بإدارة روما في أثناء غيابه. قاموا أولا بجلد الحواري المسن تبعا للقانون الروماني، ثم اقتادوه في اليوم التالي خارج أسوار المدينة باتجاه تلال فاتيكانوس ، ليكابد هناك عقوبة الصلب الصادرة بحقه. لقد ذهل الجند من ضخامة الحشود التي تجمهرت أمام السجن من أجله، لأنه بنظرهم لا يعدو كونه شخصا بسيطا وغريبا، فلا يستحق موته كل هذا الاكتراث.
والذي أثار استغرابهم أكثر أن المتجمهرين كانوا أتباعا رغبوا في مرافقة الحواري الكبير إلى موقع صلبه، ولم يكونوا من دفعهم الفضول للحضور.
وعند العصر، بعد انتظار، فتح باب السجن، وظهر بطرس بين فصيل من الجند. كانت الشمس قد جنحت قليلا نحو أوستيا ، وكان الطقس صحوا، وهادئا. ونظرا لتقدم بطرس في السن، لم يلزموه بحمل صليبه بنفسه، لاعتقادهم أنه يعجز عن ذلك. و لم يقيدوا عنقه بالنير، لكي لا يعيقه في أثناء المسير. سار طليقا، وقد تمكن الاتباع من مشاهدته بوضوح. وحين ظهر رأسه الاشيب من بين خوذات الجند، انفجر نحيب، ما لبث أن خمد على الفور، بعد أن رأوا مقدار ما غمر وجه الحواري من سعادة وبشر، فترسخ إيمان الجميع بأن العجوز ليس مجرد ضحية ذاهبة إلى ملاقاة حتفها، بل منتصر يسير في موكب الانتصار.
وهذا ما كان حقا. صياد السمك المحني المتواضع، قد استقام الان، حتى بان جليل الهيئة، وأطول قامة من الجند. لم يشاهدوه من قبل. مثل هذه الرفعة والجلال، وكأنه كان حاكما يستعرض شعبه وجنوده. علت الأصوات في كل مكان:
"بطرس يعود إلى سيده" متناسية أنه ذاهب إلى العذاب والموت. واكبه الجميع بشغف احتفالي وسلام، لأنهم شعروا أنه منذ صلب المسيح لم تحدث واقعة كهذه، وإذا كان المسيح قد خلص العالم، فالحواري قد خلص المدينة.
واحتشد الناس في الطريق لرؤية الحواري، فيما كان الاتباع يربتون بأياديهم على أكتاف الاخرين الذاهلين، ويقولون لهم بهدوء: "انظروا كيف يموت الإنسان الحق، الذي عرف المسيح، ونشر المحبة في العالم". فصار الجميع يقولون لأنفسهم "لا بد أنه إنسان حق فعلا" وفي أثناء الطريق خمد الزعيق، والصياح. تقدم الموكب عبر المنازل الحديثة البناء، وأعمدة الكنائس البيضاء، التي دنت السماء الزرقاء الهادئة فوق قممها. ساروا بصمت الا من حفيف دروع الجند، و تمتمات الصلوات في بعض الأحيان.
كان بطرس مغموراً بالسعادة لمرأى هذه الالاف من الأتباع. وشعر أنه قد أنهى مهمته، وأن العدالة التي دعا اليها طوال حياته، تنتشر كموج البحر، ولم يعد بمقدور أي من أعدائها أن يوقف مدّها. هذه الفكرة جعلته يرفع عينيه عاليا ويقول: "سيدي، لقد أمرتني، بفتح هذه المدينة، التي تحكم العالم، وهاأنذا قد قمت بفتحها. وأمرتني أن أقيم عرشك هنا، وها أنذا قد أقمته. باتت مدينتك، يا سيدي، وها أنذا عائد اليك بعد شديد عناء".
وحين مروا بالقرب من المعابد، كان يلتفت اليها قائلاً: "ستصبحين كنائس للمسيح". ومشاهدته للجموع التي تمرق من أمام عينيه كان يخاطبهم قائلاً"سيصبح ابناؤكم خدما للمسيح". وبإدراكه لنجاح فتوحه، ومعرفته لاستحقاقه، وقوته، كان يتقدم بكل فخار وسلام. عبر به الجند جسر"مواكب النصر"كأنما يعترفون بانتصاره دون دراية منهم، ثم تقدموا نحو ناوماكيا باتجاه السيرك. وفي الترانستبريس انضم

الاتباع إلى موكبه. فتضخمت الحشود حتى ذابت في موكب الجند، الأمر الذي أذهل قائد المئة المرافق، خاصة أن صياحا واحدا يعبر عن غضب، أو تذمر، لم يصدرا من قلب الجموع.
قبعت على الوجوه عظمة اللحظة، والترقب. استعاد بعض الاتباع ذكرى انشقاق الأرض هلعا عند موت السيد، وقيام الموتى من قبورهم، واعتقدوا أن إشارة ما ستحصل الان تخليدا لذكرى موت الحواريّ. وفكر بعضهم"عسى أن يختار السيد لحظة موت بطرس ويهبط إلى الأرض ويحكم العالم". وبهذه الفكرة استسلموا لرحمة المخلّص.
كان كل شيء في الأنحاء هادئا. والتلال كأنماكانت تستحم في ضوء الشمس، وتأخذ قسطا من الراحة. توقف الموكب أخيرا في مكان يقع بين السيرك وتلة فاتيكانوس. وفيما عكف الجنود على تهيئة الحفرة، قام الاخرون بوضع الصليب، والمطارق، والمسامير على الأرض بانتظار نهايّة الحفر.
أما الحشد الذي ظل محافظا على الصمت، والاستغراق الداخلي، فقد تحلق راكعا في خشوع. التفت الحواريّ مرة أخيرة نحو المدينة. بعيدا في العمق، ائتلق نهر التيبر، وميدان مارس في ضفته الأخرى، وفي الاعلى ضريح أوغستوس وفي الاسفل المنشآت الحراريّة الضخمة التي بدأ نيرون الان في بنائها، و إلى جوارها مسرح بومبيوس، وخلفه ما لا يحصى من الأروقة، والمعابد، والعمدان والأبنيّة المتراصة، وأخيرا في الأقاصي البعيدة، التلال المدروزة بالمنازل، قريّة نمل بشريّة عملاقة تداخلت أطرافها منصهرة في الزرقة الضبابيّة. مدينة الخطيئة، والقوة، والجنون، وموطن النظام، المدينة الأبدية التي لا تقهر، المدينة الجائرة التي تتربع على عرش الكون، وصارت قانونه وأمانه.
محاطا بطرس بالجنود، رمق المدينة بنظرته الأخيرة قائلاً "لقد خلصتك، أنت لي!" . لم يكن لا الجند الذين يهيئون الحفرة، ولا حتى أحد من الاتباع، ليخالجه الظن بان سيد المدينة الفعلي يقف بينهم الان، وأن عهد القياصرة، والبرابره قد ولى إلى غير رجعة، وأن قرونا بحالها سوف تنقضي، ويبقى هذا العجوز حاكما دائما عليها.
جنحت الشمس أكثر نحو أوستيا، وارتقت في السماء، واحمرت.
وسبح نصف السماء الغربي بنور وهاج. تقدم الجنود من بطرس ليجردوه من ثيابه.
كان يصلي، فاستقام رافعا يمناه عاليا.
ارتعش الجميع جزعين، وكتم الاتباع أنفاسهم يترقبون ما سينطق به الحواريّ.
اعتلى مرتفعا من الأرض، ورسم بيمناه إشارة الصليب، وأنشأ، في ساعة موته يتلو قداسة البابوي:
ـ أبارك المدينة، والعالم!
..........
..........
وعند هذا المساء البديع ذاته، كان فصيل آخر من الجند يقود الرسول بولس الترسوسي على طريق اوستيا نحو أكوا سلفا.
هو الاخر رافقه حشد كبير من الاتباع الذين عمدهم، وكان على معرفة ببعض منهم، فكان يتوقف أحيانا ويتحدث معهم على مرأى من الجنود، الذين غضوا النظر عن مثل هذه التصرفات، باعتباره مواطنا رومانيا. وبعد عبور مدخل ترغمينا التقى بلاوتيلا ابنة الحاكم فلافيوس سابينوس، وحين لمح وجهها النضير مبللا بالدموع خاطبها قائلاً: "اذهبي بسلام يا بلاوتيلا، يا بنة الخلاص الأبدي، لكن أعيريني وشاحك لأعصب به عيني حين أذهب إلى السيد". تناول منها الوشاح، وتابع مسيره، تغمر وجهه سعادة كالتي ترتسم على وجه عامل كد طوال اليوم، ويعود الان إلى منزله. كان مثله مثل بطرس، هادئا صافي الأفكار صفاء السماء في هذه الأمسية. كانت عيناه تتأملان المنبسط المترامي أمامه، والجبال الألبيّة

السابحة في النور، وقد تناسى أسفاره، ومتاعبه وأعماله، وكفاحاته الظافرة، والكنائس المكرسة في بلدان ما وراء البحار، وشعر أنه يستحق الان الراحة.
هو أيضاً ختم أعماله وأحس أن زرعه في أمان، و لم يعد بمقدور الرياح الشريرة أن تعصف به وامتلأت روحه بصفاء لا حدود له.
كان طريقا طويلاً حتى موقع الموت. حل وقت الغروب، واكتست الجبال باللون الأرجواني، وقواعدها نامت في الظلمة. وبدأت الاسراب تعود إلى بيوتها، ومن بينها أرقاء على أكتافهم المعاول وأدوات العمل.
وكان أطفال يلعبون على الطريق أمام البيوت، راحوا يشاهدون بفضول الجنود المتخذين تلك الوجهة. في هذا المساء، وفي جوه اللطيف البديع هذا، لم يكن السلم والوداعة هما السائدان فحسب، بل كأن لحنا طلع من الأرض نحو السماء لقد سمع بولس هذا اللحن، وطفح قلبه بالسعادة.
شعر أنه أيضاً قد أضاف إلى هذا اللحن صوتا كان غائبا عنه، وأن الأرض بدونه كانت مجرد "معدن يصلصل، وصنج يضج".
وخطر له كيف قام بتعليم الناس على المحبة، وكيف شرح لهم أنهم حتى لو وزعوا كل ثروتهم على الفقراء، وأنهم حتى لو عرفوا كل الألسنة، والعلوم، فهذه كلها لا تساوي شيئاً دون المحبة التي تعني التسامح، والبعد عن الجشع، والأفعال الرديئة. كما تعني قوة الاحتمال والامل.
وهكذا أمضى كل حياته بتعليم الناس هذه الحقيقة. والان قال في نفسه "أي قوة يمكن أن تقف في وجهها، ما الذي يمكن أن يقهرها؟ كيف يمكن للقيصر أن يضطهدها حتى لو امتلك ضعف ما لديه من الفيالق، والمدن، والبحار والبلدان، والأقوام".
وتابع طريقه بفخار لينال جزاءه.
وأخيرا انحرف الموكب عن طريقه، واتجه شرقا على مسلك ضيق يقود إلى أكوا سلفيا. طلت الشمس الاعشاب بالاحمر أوقف قائد المئة الجنود قرب النبع لأن اللحظة قد حانت.
أما بولس فقد هيّأ وشاح بلاوتيلا، ليعصب به عينيه، لكنه قبل ذلك التفت مرة أخرى أخيرة بكل طمأنينة وسلام نحو الانوار المسائية الابدية وراح يصلي.
أجل لقد حانت اللحظة، أما هو فقد رأى أمامه الطريق الواسعة الأرجوانية التي تقود إلى السماء وردد في نفسه تلك الكلمات ذاتها التي كتبها من قبل حين شعر بإتمام مهمته، واقترب نهايته:
"كافحت كفاحا نبيلا، وأنهيت هرولتي، وأقمت المعتقد، فاستحقيت في النهاية تاج الحق".

استمرت روما في عصفها. كان ذلك كأن المدينة التي أخضعت الكون بأسره، قد بدأت الان تذوب من الداخل على وقع فقدان القادة واحدا بعد آخر. فحتى قبل أن تدق ساعة الحواريين ظهر إلى العلن ما يسمى مؤامرة بيسو، فجاء على إثرها إعدام تعسفي شمل كبار الشخصيات في روما، إلى حد جعل حتى من كان يؤله نيرون، يرى فيه إلها للموت.

تلفعت المدينة بالحداد، والاسى، وطرق الجزع أبواب المنازل، والقلوب، لكن الأروقة ظلت غارقة بعرائش اللبلات ونبات الزينة والازهار، لأن الحداد على الموتى كان محظورا. وحين أفاق الناس في الصباح تساءلوا في أنفسهم: دور من هذا اليوم؟ ويوما وراء يوم تكاثرت الاشباح التي تلاحق القيصر.

دفع بيسو رأسه ثمنا لمؤامرته. ولقي المصير ذاته كل من سينكا و لوكانوس و روفوس، بلاوتينوس و فلافيوس و أفركيانوس، وكل أصدقاء القيصر الذين شاركوه الفسق والعربدة: سينسيو، بروكولوس، توغورينوس، سيلانوس، بروكسيموس إضافة إلى سوبريوس الكلب الوفي ونصير القيصر روحا ودما.

كان من بينهم من قضت عليه سوء سمعته، وبينهم من قضى عليه الخوف، أو الجرأة، أو الثراء. وخشيّة من العدد الضخم للمتآمرين، أغرق الأسوار بالجنود، وأخضع المدينة لحصار تام.

فلم يمض يوم الا وكان قادة المئة يبعثون بأحكام الموت إلى المنازل المشبوهة. فكان المتهمون يتذللون في ردودهم للقيصر، يرجونه وقد أوصوا بنصف ثروتهم للقيصر، أن يبقى على نصفها الاخر لابنائهم. كأنما نيرون قد أحكم شد وتر القوس ليقيس مقدار خضوع الناس له، وليعرف كم سيحتملون وطأة هذا الحكم الدموي. وبعد الانتهاء من سحق المتآمرين، قضوا على أقاربهم، وأصدقائهم، وكل من مت اليهم بصلة.

وكانت تهمة البعض أمثال نيبوس و مارتياليس و دوميتوس أنهم لا يحبون القيصر، فاستحقوا الموت. أما نوفيوس فقد استحقه لأنه كان صديق سينيكا، واستحقه الكثيرون لانحدارهم من أصول نبيلة. و حتى بوبيا كانت ضحية لثورة غضب آنية من القيصر.

تذل ل مجلس الشيوخ، للمستبد الجائر، فأنشأله المعابد، وأقام له الاحتفالات والنذور إكراما لصوته، ونصبواله التماثيل، وأحاطوه بالكهنة كأنه بات الها.

وكان السيناتورات مرتعدين حين يؤمون البلاتينوس لإبداء إعجابهم، وثناءاتهم على أغنية بريودنيس، ولكي يشاركوه عربدة النبيذ، والأجساد العارية.

أما في الأسفل، في هذه الأثناء، فقد كانت الغراس التي زرعها بطرس تنمو سيقانها بهدوء، وجذورها ترسخ في التربة المغمسة بالدم والدموع.

**من فينيكوس إلى بترونيوس:**

"نعرف هنا يا عزيزي ما يحدث في روما، والذي لا نعرفه تخبرنا به رسائلك. إن القيت حجرا في الماء، تنتشر الدوائر وتتوسع. هكذا تصل الينا موجات الاهتياج قادمة من البلاتينوس. كاريناس الذي أرسله القيصر إلى اليونان، مر من هنا ونهب المدن، والمعابد، ليملأ الخزينة الفارغة. وعلى حساب عرق الشعب ودموعه، يبنون في روما قصر نيرون الذهبي.

لعل العالم لم يشهد بناء مثله، لكنه أيضاً لم يعهد مثل هذه الجراح والأوجاع. فأنت تعرف كاريناس. كان شيلون شبيها به قبل أن يستبدل الموت بحياته. البلدات الصغيرة المجاورة لنا لم يصلها رجاله، ولعل السبب في ذلك خلوها من المعابد والثروات. تسالني إن كنا في أمان. وجوابي على سؤالك أنهم قد نسونا. أكتب لك الأن وأنا في الرواق المطل على خليجنا الهادئ، أرى أرسوس في قارب يلقي لتوه بالشبكة في الماء الصافي.

زوجتي تنسج الصوف إلى جانبي. وأرقائي يغنون في الحديقة تحت ظلال المندلين. ياله من سلام، يا عزيزي، وما أروع أننا قد تجاوزنا مخاوفنا وأوجاعنا السابقة. ليس صحيحا ما تقوله. ليست الأقدار هي التي تنسج حياتنا الهانئة، لكن المسيح، الهنا الحبيب، ومخلصنا هو الذي باركنا.

ليس الألم والدمع بغريبين عنا، لأن معتقدنا يأمرنا بأن نبكى الامه، ونذرف دموعا فيها أيضاً بذور المواساة، وهذا ما لا تعرفونه انتم.

عندما تحين ساعة موتنا سوف نلتقي أحباءنا الموتى، وكل أولئك الذين يموتون من أجل وصايا الله. أرواحنا تراهما، وما دامت أعيننا تذرف الدمع، فقلوبنا فرحة بسعادتهما. أجل يا عزيزي نحن سعداء وسعادتنا يعجز أحد عن إخمادها، لأن الموت الذي يعني نهاية كل شيء في نظركم هو بالنسبة لنا، عبور إلى السلام الأكمل، إلى المحبة الانقي، إلى السعادة الاعظم

هكذا تمضي أيامنا و أشهرنا، وقلوبنا مغمورة بالصفاء. خدمنا، وأرقاؤنا أيضاً يؤمنون مثلنا بالمسيح، وبما أنه يوصينا بالمحبة فنحن جميعا نحب بعضنا. عند غروب الشمس، أو حين يبسم القمر في السماء، ويأتلق فوق الماء، غالباً ما أحادث ليفيا، وتحادثني عن الأزمنة الفائتة التي أضحت بالنسبة الينا كالحلم. وحينما أتصور أن ليفيا الغالية، التي أهدهدها في أحضاني كل يوم، بعد أن كابدت العذاب، وشارفت على الموت، أتعبد إلى ربي الذي خلصها من تلك الأيادي، وأهدانيها إلى الأبد.

وتدري يا بترونيوس كم من العزاء والراحة يمنح هذا الدين إذا ما ساء قدر المرء. كم من الصبر، والشجاعة في مواجهة الموت.

تعال، وانظر بأم عينك كم يمنح من السعادة في الأوقات البليدة الفاترة.

وكما ترى، أن البشر لم يعرفوا حتى الان الها أحبوه، لذا فهم لم يحبوا بعضهم، وهذا هو منبع عدم سعادتهم، لأنه كما النور يأتي من الشمس، كذلك السعادة، تنبع من المحبة. هذه الحقيقة لم يعلمهم إياها لا القانونيون، ولا الفلاسفة، و لم يكن ذلك لا في اليونان، ولا في روما، وحين أقول "ولا في روما" أقصد "ولا في العالم".

إن تعاليم الرواقيين الباردة، والجافة التي يميل اليها ذوو الاخلاق الفاضلة، تقسي القلوب، كما يقسى الفولاذ، وتجعلهم خاملين بدلا من أن تصلحهم. ولكن لم أحدثك بمثل هذا، فأنت أدرى مني، وأكثر معرفة.

لقد عرفت بولس الترسوسي وكثيرا ما تحدث معه مطولا، فاستنتجت أن كل ما جاء به فلاسفتكم وخطباؤكم من علوم، ما هي الا فقاعات جوفاء، ذات وقع متغطرس، مقابل الحقيقة التي أفصح عنها.

فهل تذكر السؤال الذي طرحته عليك "لو كان القيصر مسيحيا، أماكنتم بأمان أكبر، أما كنتم أكثر ثقة بما

تملكون، أما كنتم متحررين من الخوف، وأكثر شعورا بالطمأنينة على مستقبلكم؟". أنت قلت أن معتقدنا معاد للحياة، وأنا سأرد على قولك بأني حتى لو ملأت رسالتي هذه من أولها إلى آخرها، بكلمتين مكررتين: أنا سعيد، لما كان كافيا للتعبير عن سعادتي.
فيما بعد ستقول لي إن سعادتي هي ليفيا! أجل يا عزيزي. لأني أحب فيها روحها الخالدة، ولأننا نحب بعضا من خلال المسيح، فلا انفصال في مثل هذا الحب، ولا نكران، ولا تبدل، ولا شيخوخة، ولا موت. فحين تولي فترة الشباب، والجمال، وتشيخ أجسادنا، ويأتي دور الموت، لا يبقى الا المحبة، لأن الروح باقية.
قبل أن تنفتح عيناي على النور، كنت على استعداد لأحرق حتى منزلي من أجل ليفيا، والان وأقول الأن أنني لم أكن أنذاك أحبها، فلم أتعلم الحب الا على يد المسيح. إنه رأس نبع السعادة والسلام. لست أنا من يقول ذلك، بل الواقع والحقيقة.
قارن ما تتلذذون به من متع مشوبة بالخوف، وما يتملككم من قلق وشكوك بالاتي، وما تقيمونه من طقوس عربيدة تفوح فيها رائحة المآدب الجنائزية، قارنها بحياة المسيحيين، ستجد الجواب. لكن لكي تكون المقارنة ملموسة ندعوك أن تأتي إلى هنا، إلى جبالنا العطرة، إلى أفياء غاباتنا من الزيتون، إلى شواطئنْا وعرائش اللبلاب المحاذية لها. في انتظارك هنا قلوب دافئة محبة لك فعلا، في انتظار السلام الذي لم تذقه منذ زمن. ولأنك شخص نبيل وطيب، ستسعد بين ظهرانينا. يمكن أن يوجد من هو عدو للحقيقة مثل القيصر، وتيفالنيوس، لكن أحدا لن يتخذ منها موقف الحياد. آه يا بترونيوس، كم نستبشر أنا وليفيا بالامل بأننا سوف نلقاك قريبا. أتمنى لك الصحة والسعادة، وتعال!".
استلم بترونيوس الرسالة في كوما، لأنه كان قد لحق بالقيصر مع باقي الاوغستيان. لقد انتهى صراعه الطويل مع تيفالنيوس. صار يدرك الان أنه الخاسر في هذا الصراع، وهو يعرف السبب. وبقدر ما كان القيصر يغرق يوما بعد يوم، في لعب دور الكوميدي، وقائد العربة، والمهرج، كان يتفاقم انحطاطه، وانغماسه في الانحلال المرضي الثقيل الذي لا يحتمله ملك الذوق الرفيع. إذا ما صمت بترونيوس، وجد القيصر التقريع والتوبيخ في صمته، وإذا ما أثنى عليه، شعر القيصر الهزء في كلماته. لقد خدش بترونيوس عبادة الذات لدى نيرون، فتولدت فيه الخصومة. وبرز إلى السطح الان ما يمتاز به بترونيوس من ثراء وخصوبة في أعماله الابداعية، فتولد الجشع لدى القيصر وكافة وزرائه من ذوي النفوذ. لكنهم الان يسايرونه في رحلة أكايا لأنه في أمس الحاجة اليه هناك بسبب معرفته الممتازة في الشؤون اليونانية.
الا أن تيفالنيوس جد في سعيه لإقناع القيصر بأن كاريناس يبز بترونيوس معرفة وذائقة، وقدرة على تنظيم الالعاب و الضيافات، ومواكب النصر، في أكايا.
لقد سقط بترونيوس، وهو الان بحكم الميت. لكنهم لم يجرؤوا أن يبلغوه في روما، حكم الاعدام الصادر بحقه. ما زال كل من القيصر و تيفالنيوس يتذكر أن هذا الفنان القائل ظاهريا بالمساواة الاجتماعية والسياسية، والذي كان يقضي الليل جريا وراء المتع، والفنون، والمآدب، حتى حين كان يشغل منصب نائب قنصلي، ثم منصب قنصل في روما، ويتمتع بطاقة كبيرة، قد أعطى دليلا ملموسا على أنه صالح لكل الاعمال التي يسند اليها، فنال ثقة شعب روما، وامتدت شعبيته حتى بين الحرس الامبراطوري. الأمر الذي جعل أتباع القيصر يحارون فيما عليهم أن يفعلوه إزاء هذه الحقيقة، فوجدوا أن من الأدهى أن يبعدوه عن المدينة، ويقبضوا عليه في الارياف.
من أجل هذا كله، تلقى دعوة للانضمام إلى باقي الاوغستيان الراحلين إلى كوما. لقد خامره الظن بأن خداعا ينتظره، فلبى الدعوة للمشاركة رغم كل شيء، وقد يكون السبب في ذلك عدم الاجهار في معارضته، والاستمرار في إظهار هدوئه، وبشاشة وجهه للقيصر، والاوغستيان، في نية منه لتسجيل

واحدة على تيفالنيوس والنيل منه مرة أخرى قبل موته. في أثناء ذلك كان تيفالنيوس قد اتهمه بأنه صديق حميم للسيناتور سكافينوس وأنه وراء مؤامرة بيسو وقائدها الروحي.
قبضوا على رجال بترونيوس في روما، وظل الحرس الامبراطوري يحاصر منزله. وحين علم بالأمر، لم يبد أي خوف أو ارتباك، وقال للأوغستيان الذي قصدوه في زيارة إلى فيلاه الفخمة في كوما:
- صاحب اللحية الحمراء، لا يحب الاسئلة الموجهة اليه، وسترون أي اضطراب سيتملكه حين أسأله إذا ما كان اعتقال من يعمل في منزلي، قد جاء بناء على أوامر صدرت منه.
ثم أعلن أنه سيقيم مأدبة قبل" متابعة الرحلة". وكان يهم بالتحضيرات لها حين وصلته رسالة فينيكوس.
حين استلم الرسالة فكر بالأمر قليلا. لكنه سرعان ما استعاد بشاشة وجهه، وصفاءه المألوف، وخط في ذلك المساء رسالة الرد:
"يسرني أنكما سعيدان، وأقدر عاليا عزيمة قلبيكما، يا عزيزي، فما كنت أظن أن بمقدور عاشقين أن يفكرا بشخص ثالث بعيد. أنتما لا تفكران بي فحسب، بل ترغبان في أن أشاطركما خبزكما، ومسيحكما الذي كما تكتب يجزل السخاء ويغمر كما بالسعادة.
إن كان الأمر كذلك، فاعبداه. أظن يا عزيزي، أن ليفيا قد أسهم أرسوس قليلا، كما ساعدك الشعب الروماني أيضاً في استعادتها.
لكن إن كنت تؤمن بأن المسيح قد فعل ذلك، فلن أناقشك في الأمر. حسنا لا تأسفا على ما قدمه من تضحيات. بروفيثيوس أيضاً ضحى بنفسه من أجل الشعب. لكن الفارق كبير.
بروميثيوس من إبداع الشعراء على الأرجح، أما المسيح فقد سمعت من أشخاص صادقين أنهم قد رأوه بأم أعينهم. وأنا أصدقكما القول بانه أشرف الالهة.
أذكر تساؤل بولس الترسوسي، وأتفق معه بأنه لو كان صاحب اللحية الحمراء يعيش وفق تعاليم المسيح، لكانت فرصتي سانحة لأسافر اليكما إلى سيسيليا. ولكننا تحت ظلال الأشجار، تحدثنا مطولا عن مجمل الالهة، وكل الحقائق كما فعل الفلاسفة اليونان. لكني الآن سأجيبك باختصار.
لا أريد أن أعرف الا فيلسوفين أثنين. أولهما بيرهون، والاخر أناكريون. وما تبقى من الفلاسفة سأبيعهم لك بأرخص الأثمان، ومعهم كل المدارس اليونانية، ومنها مدرستنا الرواقية كذلك.
إنما الحقيقة تقطن في مكان يشق على الالهة أن يروها من على قمة الأولمب. ولعلك تعتقد أن جبلكم أنتم أكثر شموخا وارتفاعا، وإنك تتربع على تلك القمة وتناديني من هناك "تعال، ولسوف ترى آفاقا لم ترها من قبل". قد يكون ذلك، لكن جوابي "يا صديقي لم يعد لي رجلان!".
وعندها تنهي قراءة رسالتي ستصدق ما أقول.
لا، يازوج "أميرة الفجر" السعيد! دينكم انتم ليس لي. فأن أحب عبيدي البثنيين، الذين يحملون هودجي، أو المصريين الذين يعتنون بحمامي الساخن، أقسم بركبة كاريس البيضاء أنني لا أستطيع حتى لو أردت ذلك.
في روما ما لا يقل عن مئة الف من البشر، إما محنيو عظام الكتفين، أو ضخام الركبتين، أو ضامرو بطتي الساقين، أو مكورو العينين، أو ضخام الرأس. وأنت تريد أن أحبهم.
من اين آتي بالمحبة إذا ما كنت لا أستشعرها في قلبي؟
أما إذا ما كان الهكم يرغب في أن أحب هؤلاء، كان أولى به، كقادر على كل شيء، أن يريني أشكالا مثل النيوبيد الذين رأيتهم في البلاتينوس. من يحب الجميل، ليس بمقدوره أن يحب القبيح.
مسالة الايمان بالهتنا شيء آخر، الا أننا يمكن أن نحبهم، كما أحبهم فيدياس، و براكسيتليس، و ميرون، و سكوباس، و ليسيبوس.
وحتى لو أردت أن أذهب إلى حيث تقودني، فلن استطيع وبما أنني لا أرغب في ذلك فعدم استطاعتي

مضاعف. أنت كبولس الترسوسي تؤمن أنك ذات يوم سوف تلتقي المسيحيين في مرابع فردوسية على الضفة الاخرى لنهر الجحيم. حسنا! فليقل لي إذن كيف له أن يستقبلني هناك برفقة يونيكي الشقراء، مع كل ما أملك من جواهر، وأقداح. تضحكني مجرد فكرة أنه ينبغي علي، من أجل المسيح، أن أتخلى عن أكاليل الورد، والمآدب، واللذائذ. صحيح أنه سيعوضني عن كل ذلك بسعادة من نوع آخر، لكن ردي هو اني بت عجوزا على مثل ذلك، لكن عيني ما زالتا تستمتعان بالوردة، وإن عطر البنفسج أحب لدي من رائحة الاخوة القذرين الكريهة.
هذه هي الأسباب التي تجعل من سعادتكم نوعا لا يناسبني. أمر آخر ارجأته إلى النهاية. بالنسبة لي هاهوذا ثاناتوس على الأبواب، يدعوني اليه. لكن فجر الحياة يبزغ لكما الان. شمسي قد هبطت، ورأسي تأخذني نحو الغروب. بتعبير آخر: علي أن أموت يا عزيزي.
من الضير أن نتحدث كثيرا في هذا الأمر. إنها النهاية كما ينبغي أن تكون.
أنت تعرف صاحب اللحية الحمراء، فسهل عليك أن تفهم الأمر.
تيفالنيوس هو الذي غلبني أم لا! ليس مهما. لكن انتصاراتي بلغت نهايتها. لقد عشت كما رغبت في العيش، وسأموت كما يحلو لي أن أموت.
لا تحملا قلبيكما وطأة ذلك كثيرا. لم يعدني أي اله بالخلود. فليس هنالك ما يفاجئ إذن. أنت مخطئ في هذا يافينيكوس، فليس الهكم وحده يوصي بالموت بسلام. لا. عالمنا منذ القدم عرف مثلنا: بعد تناول القدح الأخير، يحين وقت الانصراف، والراحة، ويمكن القيام بهذا بصفاء خالص: يقول بلاتو أن الفضيلة موسيقا، و حياة الحكيم هارمونيا. فما دام الأمر كذلك فسوف أموت فاضلا كما عشت فاضلا.
أما بعد.
فإني أود لو أودع زوجتك بذات الكلمات التي حييتها بها ذات يوم في منزل الوش:
"لأني لم أر بعمري، مثل هذه الفانية".
ولأن الروح، إذن، شيء غير ما يعتبرها بيرهون، فإن روحي سائرة على طريق يقود إلى عرض المحيط، لتحط أمام منزلكما فراشة، أو على هيئة صقر كما يقول المصريون.
ليس لي أن أذهب اليكما بطريقة أخرى.
وحتى ذلك الحين، لتكن سيسيليا لكما بستانا تحرسه حوريات التفاح الذهبي. ولتنثر صغيرات الهات الحقول، والغابات والينابيع، الزهور في دروبكما، ولتعشعش الحمائم البيضاء في عريشة كل عمود في منزلكما.

وفي حقيقة الأمر، لم يكن بترونيوس مخطئا. بعد يومين أرسل نيرفا معتوقه إلى كوما حاملا اليه أنباء ما يجري في بلاط القيصر.

صار إعدام بترونيوس مسالة محسومة. أرادوا في اليوم التالي إرسال قائد المئة لإبلاغه أن يبقى في كوما، وانتظار الإجراءات التالية. وكان يمكن لهم إطلاق المراسل التالي بعد بضعة أيام مزوَّدا بحكم الموت.

أصغى بترونيوس بكل صفاء نفس، لأنباء معتوق نيرفا ثم قال له:

ـ خذ لسيدك إحدى مزهرياتي، وسوف يعطيك إياها قبل انصرافك.

وقل له أيضاً أنني أشكره من أعماقي لأنه أتاح لي استباق الحكم.

ثم ما لبث أن انفجر بالضحك، كمن لمعت في ذهنه فكرة جهنمية، وكان سعيدا قبل تنفيذها.

وفي مساء ذلك اليوم كان أرقّاؤه يدورون لدعوة كل الاوغستيان المقيمين في كوما رجالا ونساء على حد سواء، لحضور مأدبة ملك الذوق في فيلاه الفخمة.

بعد الظهر كان يكتب في المكتبة. وبعدها استحم، ثم ارتدى أحلى أرديته، وبكامل أناقته سار كألِه، متوجها إلى التريسيلينيوم ليلقي نظرة خبيرة على ترتيبات المأدبة هناك.

ثم خرج إلى الحديقة حيث كان الشبان والفتيات القادمات من الجزر اليونانية ينسجون أكاليل الورد الخاصة بالمأدبة.

لم ينعكس على وجهه أثر لخطب. وكل ما كان يعرفه الخدم أن المأدبة ستكون واقعة استثنائية لا مثيل لها، لأنه كان قد أوصى بمكافأة جزيلة لمن يرضيه عملهم، وببعض الجلدات الخفيفة للذين لا يرضى عنهم ذوقه. كما أوصى بإكرام العازفين، والمغنين مقدما، وبسخاء زائد. ثم جلس أخيرا تحت شجرة زان، تتخلل فروعها أشعة الشمس، لترسم فوق الأرض بقعا ضوئية، ثم استدعى يونيكي.

أقبلت الفتاة بثياب بيضاء، وقد شكل شعرها فرع من الريحان. كانت بديعة مثل كاريس، فأجلسها إلى جانبه، وراح يداعب صدغها بحنان، ويرمقها بنظرات سعيدة كما يرمق الفنان الملهم تمثالا الهيا.

سألها:

ـ أتدرين يا يونيكي أنك منذ مدة لم تعودي عبدة؟

رفعت الفتاة عينيها الزرقاوين، وهزت رأسها بالسلب.

وأجابت:

ـ أنا دائما كذلك يا سيدي.

فتابع بترونيوس يقول:

ـ لكنك قد لا تعلمين بأن هذه الفيلا، وأولئك الأرقّاء الذين ينسجون الأكاليل، وكل ما يتبع ذلك من أرض، وقطعان، هي لك من الان فصاعدا.

انكمشت يونيكي لسماعها ما يقول، وابتعدت عنه قليلا، لتسأله باضطراب بادٍ في نبرة صوتها:

ـ لم تقول لي هذا يا سيدي؟

ثم اقتربت منه ثانية، ورمقته بعينين مرتعدتين، وشحوب دهم وجهها.

فما كان من الرجل الا أن ابتسم ونطق بكلمة واحدة:

ـ أجل!

ساد صمت لحظي تخلله اهتزاز أوراق شجرة الزان بفعل النسيم العليل.

لقد أشعرها بترونيوس بأن من تقف أمامه تمثال رخامي، فقال:

ـ يونيكي! أريد أن أموت نقيا فرمقته الفتاة بابتسامة تصدّع القلب، وأجابت هامسة:

ـأسمعك يا سيدي!
مع حلول المساء بدأ المدعوون الذين غالباً ما حلّوا ضيوفا على مآدب بترونيوس، وكانوا يعرفون أنه حتى مآدب القيصر مضجرة، وبربرية إذا ما قورنت بها، يتوافدون بالجملة، دون أن يخطر لأحد منهم أنها ستكون حفلة الشراب الأخيرة. وكان كثر منهم يعلمون أن سحب البغيضة تحوّم فوق رأس ملك الذوق النبيل، لكنهم يدركون أنه أمر كثير الحدوث، وبمقدور بترونيوس بلفتة فطنة، أو بعبارة جريئة منه أن يفلح في تبديدها، فلا تشكل خطرا جديا عليه. ولقد عزز وجه بترونيوس البشوش، وابتسامته اللطيفة المعهودة، هذه النظرة عند الجميع. وفيما يخص يونيكي الرائعة، كان كل ما يتلفظ به بترونيوس أمرا من الأوامر في اعتبارها، فحين قال لها إنه يرغب في الموت، نقيا، غلب الهدوء على تقاسيم الفتاة الفاتنة، وائتلقت عيناها بنور شعشاع فريد، يمكن اعتباره وهجا للسعادة.
التريسيلينيوم عند مدخل التريستينوم راح الفتيان أصحاب الشباك الذهبية على شعورهم، يضعون أكاليل الورده فوق رؤوس القادمين الضيوف، لافتين عنايتهم، حسب العادة، إلى تخطي العتبة بالقدم اليمني. كان عبير البنفسج يضوع في القاعة، واللهب يتقد في البللوريات الاسكندرانية الملونة. والفتيات واقفات قرب مقاعد الجلوس، يرطبن أقدام الضيوف بالعطور. وعند الجدار كان عازفو القيثار، والمغنون في انتظار إشارة من قائد الفرقة الموسيقية.
كان حفلا مترفا، لكنه ترف لم يلق بظلاله الثقيلة، و لم يخدش كبرياء أحد، بل اتخذ مساره العادي البسيط كزهرة ستتفتح على هذا النحو. وكما فاح عطر البنفسج في القاعة، كذلك عم المرح والتسلية، فشعر الضيوف هنا أن لا إرغام، ولا تهديد بالخطر ينوسان فوق الرؤوس، كما في مآدب القيصر حيث يمكن للمرء أن يخسر حياته لقاء إطراء غير موفق صدر منه تجاه أغنية أو قصيدة. خفقت قلوب المدعويين مبغوتة لمرأى أنواع الأطعمة والنبيذ المعتق في الأباريق والاقداح. جرت الأحاديث مرحة كطنين سرب من النحل حول شجرة تفاح مزهرة.
وسمعت بين وهلة وأخرى قهقهات أو عبارات مديح صاخبة، أو قبلة رنت عاليا فوق كتف أبيض.
وقبل أن يبدأ الضيوف باحتساء الشراب، أراقوا بعضا من قطرات النبيذ إكبارا للالهة الخالدة، حتى يحوزوا على رعايتها وحسن نواياها تجاه صاحب المنزل، وإن كان الكثيرون هنا لا يؤمنون بالالهة، لكن العادة، والخرافة استدعتا هذا التقليد. استقر بترونيوس إلى جانب يونيكي.
وراح يتحدث عن المستجدات في روما، وأحدث حالات الطلاق، والحب، ومغامرات العشق والمباريات وعن سبيكولوس الذي ذاع صيته باكرا في الميدان، ثم تحدث عن أحدث الكتب الصادرة عند أتراكتوس، و سوسيوس. وعند إراقته النبيذ أعلن أنه يفعل ذلك إكبارا لالهة سيبريس الفاتنة، لا لأحد سواها، لأنها الأكبر سنا، والاعظم بين الالهة، وهي الالهة الوحيدة المهيمنة، والخالدة إلى أبد الابدين.
كان حديثه كشعاع يلقي بضوئه دائما على مادة مختلفة، أو كنسيم صيفي يداعب أزهار الحديقة وفي نهاية المطاف أشار إلى قائد الفرقة، فعزفت القيثارات الحانها الخافته، ترافقها أصوات المغنين الشابة. ثم جاءت راقصات جزيرة كوس بلديونيكي، بأوشحة تشف عن أجساد وردية.
ثم حان أخيرا دور عراف مصري ليقرأ مستقبل الضيوف من خلال حركة الاسماك القزحية الالوان داخل وعاء بلوري. وحين أنهوا هذا الجانب من التسلية، نهض قليلا بنفسه عن وسادته السورية، وقال:
ـ أصدقائي! استميحكم عذرا، وأنا أتقدم اليكم بطلب:
ـ هلا يتقبل مني كل واحد فيكم القدح الذي أراق منه النبيذ أول مرة تمجيدا للالهة، ومن أجل حسن فالي.
تلالات أقداح بترونيوس.ما يتخلل قوامها من ذهب وأحجار ثمينة، وغمرت السعادة قلوب المدعوين. بعضهم كان ممتنا، وأثنى عليه بصوت عال، فيما زعم آخرون أن جوبيتر نفسه لم يكرم الهة الاولمب بمثل

هذه الهدايا، في حين راح البعض الاخر يثرثر مترددا في قبول الهدايا التي خرجت عن حدود المالوف.
أما هو فقد رفع عاليا القدح المري الثمين الذي يتلالا بكل لون من الوان قوس القزح وقال:
ـ من هذه القدح أهرق النبيذ فداء، وتبجيلا لالهة سيبريس. ومن الآن فصاعدا لن تلامسها شفاه أحد، ولن يهرق منها النبيذ إجلالا لآلهة أخرى.
ورمى بالقدح على البلاط المغمور بأزهار الزعفران، فتناثرت شظايا صغيرة. وحين لمح وجوه الحضور الذاهلة قال:
ـ متعوا أنفسكم، يا أعزائي، ولا تندهشوا. الشيخوخة والوهن شريكان حزينان لآخر سنوات العمر. لكني سأتقدم اليكم بالمثال الصالح، والنصيحة الطيبة:
ـلا تنظروا مجيء تلك السنوات، فقبل أن تأتيكم، لكم أن ترحلوا كما أرحل أنا.
فجاءت أصوات قلقة متسائلة:
ـ ما الذي تنوي فعله؟
ـ المتعة والمرح، واحتساء النبيذ، وسماع الموسيقا، والافتتان بهذه الأجساد الالهية التي المحها قربي، ثم الذهاب إلى النوم.
سأودع القيصر إلى غير رجعة. هل ترغبون سماع ما كتبته له مودعا؟
وأخرج الرسالة من تحت وسادته الأرجوانية وقرأ ما يلي:
"أعلم أيها القيصر، أنك تنتظر قدومي بفارغ الصبر، وأن قلبك الصدوق الوفي في شوق ليل نهار لرؤيتي. أعلم أنك تود لو تغرقني بعطاياك، وتسند إلي منصب قائد الحرس الامبراطوري بينما تعين تيفالنيوس، كما خلقته الالهة أهلا لذلك، بغالا في أملاكك التي ورثتها عن دوميتيا، بعد أن سممتها. أرجوك سامحني، لأني، قسما بـ هادس، وأمك، وزوجتك، وأخيك، وطيف سينكا، لا أستطيع الذهاب. الحياة ثروة عظيمة، يا عزيزي، وأنا قد أدركت أن علي أن استخلص منها أثمن أحجارها الكريمة.
لكن ثمة في الحياة أمورا لم أعد أحتملها بسببك. فلا تظن أبدا، فليس ما ازعجني هو قتل أمك وزوجتك، وأخوتك، وإحراقك روما، ولا نفيك لكل رجل شريف في الحكومة. لا. يا بن حفيد كرونوس. الموت قسمة تصيب كل البشر، فلا يمكن انتظار شيء آخر منك. لكن أن تظل أغانيك تهشم أذني، وأن أرى ساقيك الهزيلتين الدوميتيوسيين تتلويان في رقصاتك البيروسية، وأن أصغي إلى حواراتك المسرحية، وأسمع خطبك واشعارك، أيها الشاعر الرعوي البائس، فهذا هو ما يفوق طاقة احتمالي، وهذا هو ما يدفعني إلى الانتحار. روما تسد آذانها حين تسمعك، والعالم يهزأ منك، أما أنا فلا أريد، ولا أستطيع أن استمر في الاحمرار خجلا. إن نباح كلب السيربيروس ذي ثلاثة الرؤوس وهو نباح يشبه أغانيك يا عزيزي سيكون اليما إلى أدنى حد، لأني لم أكن في يوم صديقا له، كما أني لست مرغما على الخجل إذا ما سمعت صوته.
أحرص على صحتك، لكن لا تغن، اقتل، لكن لا تنظم الشعر، امزج السم، لكن لا ترقص، احرق، لكن لا تمسك بالقيثار، هذا ما يتمناه لك، وهذه هي نصيحة الصداقة الاخيرة التي يسديها لك ملك الذوق".
تجمد الضيوف، وقد كانوا يدركون أن صفعه كهذه اشد وطأة على نيرون من فقدانه ملكه بالكامل. وأدركوا أيضاً أن من كتب هذه الرسالة ينبغي أن يلقى حتفه لا محالة، وانقصمت ظهورهم وهم يسمعونها.
أما بترونيوس فراح يقهقه مرحا وبكل صدق، وكأن ما قرأه كان نكتة من أطراف النكات. ثم جال بعينيه على الحضور وقال:
ـ امرحوا، ودعوكم من الخوف، ولا ينبغي على أحد أن يتبجح لأنه سمع الرسالة، أما أنا فيمكنني أن أزهو بها أمام كارون عند العبور.
وأوما للطبيب اليوناني، مادا ذراعه نحوه. وبحركة واحدة منه لف اليوناني الخبير الذراع بشريط ذهبي،

وقطع الوريد. تناثر الدم على الوسادة، وعلى يونيكي التي انحنت فوق بترونيوس مسندة رأسه، وغمغمت قائلة:
- سيدي، هل ظننت أنني سأتخلى عنك؟ لو منحتني الالهة الخلود، والقيصر سلطانه على الأرض، فسأختار اللحاق بك.
ابتسم بترونيوس، ونهض قليلا، وقال وهو يلامس بشفتيه شفتي الفتاة:
- تعالي!
وأردف:
- أنت أحببتني حقا، يا يونيكي الإلهية!...
أما هي فكانت قد مدت ذراعها الوردية نحو الطبيب، فتدفق دمها خلال لحظة، ممتزجا بدم بترونيوس.
أومأ بترونيوس لقائد الفرقة، فصدحت الموسيقا والاغاني من جديد. غنوا أولا هارماديوس ثم إحدى أغاني أناكريون التي يشكو فيها الشاعر، أنه ذات مرة وجد أمام بابه طفل افروديت الباكي المتجمد، فأخذه بين أحضانه، وأدفأه، وجفف جناحيه الصغيرين، فأبدى ذلك الناكر للجميل امتنانه بأن طعنه بسهمه طعنة اخترقت قلبه، ومنذ ذلك الحين لا يعرف الطمأنينة...
أما بترونيوس و يونيكي فكانا يسمعان الأغنية باسمين متلاصقين كالهين جميلين، وقد بدأ وجهاهما يشحبان. وبانتهاء الأغنية أمر بترونيوس بتقديم النبيذ والطعام مجدًّدا. ثم انبرى يحدث من جلسوا إلى جانبه بأمور بسيطة محببة، مألوفة على العموم في المآدب.
وفي النهاية دعا اليه الطبيب، وطلب منه أن يربط وريده للحظة، بعد أن شعر بالنعاس، لأنه يحب أن يسلم نفسه لـ هيبنوس قبل أن ينوم ثاناتوس إلى الابد.
ونام. وحين أفاق كانت رأس الفتاة قد هدأت كزهرة بيضاء على صدره. وضعها على الوسادة ليتمعن فيها جيدا، ثم فتحوا وريده من جديد.

## خاتمة

لم يبدُ تمرّد الفيالق الغالية تحت قيادة فينيكوس ينطوي على شيء من الخطورة في البداية. فالقيصر لم يتم بعدُ الحادية والثلاثين من العمر، فلم يجرؤ أحد أن يغالي في أمانيه بأن العالم يمكن أن يتحرّر بهذه السرعة من إرهابه الخانق هذا. رجعوا بالذكرى إلى حصول معارضات ضمن دائرة الفيالق حتى في عهود الأباطرة السابقين، لكنها معارضات آلت إلى الزوال من دون أن تفضي إلى تبدل شخص الحاكم. وهكذا على سبيل المثال نجح دروسوس في عهد تيبريوس في قمع تمرد فيالق بانونيا، و جرمانيكوس في قمع فيالق الراين. لكن من الذي يمكن أن يتسلم الحكم بعد نيرون، وقد قضي تماماً في عهده على جميع أقارب أوغستوس؟"هذا ما قاله الناس. وجنح آخرون إلى التفكير، بعد أن رأوا كل تلك التماثيل العملاقة التي تصور نيرون على هيئة هيركوليس، بأن من المستحيل لقوة مهما عظمت أن تطيح بهكذا سلطان.
في حين هاج في بعضهم الحنين إلى القيصر المقيم الان في أكايا، لأن هيليوس و بولسيتس اللذين أسند اليهما إدارة شؤون روما و إيطاليا، كانا أكثر دموية منه في الحكم.
لم يكن أحد مطمئنا على حياته، أو ممتلكاته. فلم تعد القوانين تمنح الحماية. سحقت الفضيلة وديست الكرامة الإنسانية، واستحالتا إلى لا شيء، وتفككت الروابط العائلية، وكفت القلوب الخانقة عن شجاعتها في التمني. ووصلت من بلاد الإغريق أنباء عما حقق القيصر من انتصارات لا تضاهى، وعن الاف الأكاليل التي حاز عليها، والاف الخصوم الذين قهرهم. وكأنما قد استحال العالم إلى عربدة هزلية صاخبة ودموية، وضربت التفاهة والهشاشة جذورا متشعبة لتعلن هنا نهاية كل أثر فاضل، ورصين.
وجاء زمن الرقص والموسيقا، والفساد، والانحلال، والدم، لتتخذ الحياة مسارها على هذا النحو. لم يكترث القيصر كثيرا بحالة التمرد السائدة في الفيالق، ولا بقائدها فينوكس، لا بل غالباً ما جهر بالقول بأنه مسرور بهذه الوقائع. حتى أنه ظل مقيما في أكايا و لم يغادرها الا حين أعلن هيليوس أن الاستمرار في التزام الصمت قد يعرض الحكم لخطر الانهيار، فشد نيرون رحاله إلى نابوليس.
استمر هنالك، بالغناء والرقص، وطرقت أذنيه أنباء تتحدث عن المزيد من تدهور الأوضاع. و لم يجد معه نفعا كل تحذيرات تيفالنيوس له بأن هناك فروقا كبيزة بين المعارضات التي حصلت سابقا في غياب من يتزعمها، وبين التمردات الحالية بزعامة شاب ينتمي إلى عائلة الملوك الأكويتانيين العريقة، ويتمتع إضافة إلى ذلك، بخبرة القائد الحربي الذائع الصيت.
فكان رد نيرون: "هنا يسمعني اليونانيون، وهم وحدهم من يعرف كيف يصغي إلى الموسيقا، وهم وحدهم الجديرون بالحاني وأغاني". وصرح بأن أهم أولوياته الفن و الشهرة. لكنه حين سمع أن فيندكس سمّاه المهرج العاطل، طار صوابه، ونهض قافزًا، وانطلق من فوره متوجًّها إلى روما.
الجراح التي تلقاها من قبل بترونيوس، وشفي منها خلال إقامته في بلاد اليونان، تفتّقت الآن من جديد، وأراد أن يقف على حقيقة أمرها في مجلس الشيوخ.
وفي طريق العودة شاهد تمثالا برونزيا يصور مقاتلا من بلاد الغال يقذف به بطل روماني. فاعتبر ذلك دلالة طيبة. ومنذ تلك اللحظة، صار إذا ما أتى على ذكر الفيالق المتمردة، و فيندكس كان يفعل ذلك فقط ليسترسل في الضحك.
كان دخوله المدينة طاغيا على كل ما رأته الأعين قبل ذلك. استقلّ نفس العربة التي عبر بها أوغستوس ذات يوم بموكبه. واضطرهم الأمر أن يفككوا إحدى قناطر السيرك ليشقوا طريقا للموكب.
توافد لاستقباله، بمجلس الشيوخ، والفرسان، وحشود لا حصر لأعدادها. اهتزت الجدران من وقع الهتافات: "تحيّة لك، يا أوغستوس تحيّة لك يا هيركوليس ، تحيّة لك أيها القيصر الالهي، الأولمبي، الخالد، الأوحد". وحملوا من ورائه الأكاليل التي حاز عليها، واسماء المدن التي حقق فيها انتصاراته، وأسماء

الأبطال الذين قهرهم. كان موكبا أطار صواب نيرون نفسه، وجعله يتساءل بحماس إن كان موكب أوغستوس يرقى إلى مستوى موكبه كقيصر الهي أولمبي لا نظير له. وهذا ما أشعره أنه بأمان ولا خوف عليه من أي تمرد حاصل أو قد يحصل. وكان من شأن حماسة الحشود، وهياجها الشديدين أن يعززا في نفسه مثل هذا الاحساس الأبله. وحقيقة الأمر أنه كان موكبا من الفخامة بحيث يخبل القيصر، والمدينة، وحتى العالم بأسره.
لكن أحدا لم يرَ الهاوية تحت تلال الأزهار والاكاليل. كانت العمدان، وجدران الكنائس في مساء ذلك اليوم مغطاة باللافتات التي تعلن أفعال القيصر القذرة، وتهدده بالانتقام القريب، وتهز أمنه كفنان.
وترددت العبارة كقول مأثور: "ظل يغني حتى أيقظ الغالي الديكة". وسرعان ما انتشرت أنباء الذعر في المدينة. ولعدم معرفة الناس ما الذي تخبئه الأيام التالية، فقد لزموا الحذر، ولم يملكوا شجاعة ليعبروا عما يجول في نفوسهم من رغبات، وتطلعات، حتى أنهم فقدوا القدرة على التفكير.
لكن القيصر كرّس حياته للمسرح والموسيقا. وشغلته الآلات الموسيقية المبتدعة حديثا، والأرغن المائي الجديد الذي اختبروه الان في البلاتينوس.
لقد توهّم عقله الطفولي العاجز عن أي فعل أو قرار، أنه إذا ما قام مسبقا بالتحضير للعديد من الحفلات و العروض القابلة للتنفيذ في المستقبل البعيد، فإن ذلك سيتمكن تلقائيا من تفادي كل خطر.
حين رأى الواقفون إلى جانبه، أنه بدلا من أن يلجأ إلى استحضار الوسائل الضرورية، و إلى التأهب العسكري، يحصر تفكيره في البحث عن أشد الكلمات تأثيرا للتعبير عن الفظائع، بدؤوا يفقدون صوابهم. وعلى العكس من ذلك، فقد مال آخرون إلى الاعتقاد أنه بهذه الأقوال المستبقة يريد فقط أن يذهل نفسه ومحيطه، في وقت يلوك الخوف والقلق روحه من الداخل.
باتت تصرفاته متسرعة حقا، وعشوائية. لمعت في ذهنه الاف من الخطط كل يوم. خطر له مرة أن يستبق الخطر، فأمر بتجميع القيثارات والاعواد في العربات، وتسليح الفتيات العبدات كالمحاربات الأمازونيات، كما أمر بسحب فيالق من الشرق. وفي مرة أخرى فكر أنه سيقضي على تمرد الفيالق الغالية بالغناء، لا بالحرب.
وابتهجت نفسه مسبقا للمشهد اللاحق وهو يحاول فيه بالغناء أن يردع العساكر عن مواقفهم الحربية، ويجنح بهم إلى السلم. هاهم الجنود يلتفون حوله، وهو ينشد لهم أغنية النصر، ثم يبدأ بعدها عصر روما، وعصره الذهبيين. وفي مرة ثالثة تعطش للدم مجدَّدا، وأعلن أنه سيكتفي بحكم مصر. وأعاد إلى ذاكرته ما قاله العرّافون بأنه سيحكم أورشليم.
واستكان لفكرة أنه سيكون مغنيا جوالا يكسب قوته اليومي من الغناء، وأن المدن والبلدات لن تبجله كقيصر، وكسيد للكون، بل كمغن لم يأت العالم بمثله من قبل.
وهكذا فقد راح يعربد، ويغني، ويعزف، وينتقي رغباته، ويبدل في غاياته، حتى حول حياته وحياة العالم إلى فوضى صاخبة، وفي نفس الوقت إلى حلم مريع من الفنتازيا، حلم بلا معنى هو مزيج من الدم، والدموع، والتنهدات والاشعار التافهة والتعابير الطنانة. وخلال ذلك كانت الغيوم في الغرب تتكاثف يوما بعد يوم، حتى طفح الكيل، وبلغ التهريج نهايته المحتومة.
حين وصلته الاخبار بأن غالياً و هيسبانيا قد انضما إلى حركات التمرد، ركبه غضب وحشي، وأخذ يزبد، و يهتاج. حطم الكؤوس في المأدبة، وقلب الموائد، وأصدر أوامر لا يجرؤ هيليوس ولا حتى تيفالنيوس على تنفيذها. إعدام كل سكان روما الغاليين، وإحراق المدينة من جديد، وإطلاق الوحوش من حظائرها في الميدان، ونقل العاصمة إلى الإسكندرية، وقد تخيّل أنها جميعا أمور عظيمة، وناجعة، ومن السهل القيام بها. لكن عهد نفوذه كان قد انصرم، وصار شركاؤه في ارتكاب أفعال الترويع والشرور، ينظرون اليه

مجنونا فاقد العقل.
لكن موت فيندكس، والمعارضات الحاصلة في أوساط الفيالق، جعلت الميزان يبدو وكأنه يميل ثانية لصالحه. وفي الوقت الذي أطلق فيه من جديد مواعيد المآدب، والاحتفالات، والمواكب وأحكام الاتهام، جاء النبأ ذات مساء بأن الجنود رفعوا علم التمرد في معسكر الحرس الامبراطوري، وأعلنوا غالباً قيصرا.
كان قيصر نائما حين وصل الفارس بالنبأ، وحين أفاق لم يجده نفعا استدعاؤه لحراسه المقيمين عادة عند بابه. صار القصر خاليا، الا من الأرقّاء الذين عكفوا على سرقة كل ما تطاله أياديهم في أطرافه الابعد، لكنهم جفلوا لرؤيتهم القيصر الذي يتجول وحيدا، ويطل صرخات الجزع والحيرة.
وفي النهاية أسرع ثلاثة من معاتيقه هم فاون، و سبورس، و إيبافرودتيوس لنجدته طلبوا اليه أن يهرب في الحال، فلا مجال لمضيعة لحظة واحدة من الوقت. لكنه ظل يخادع نفسه. خطب في مجلس الشيوخ وهو يرتدي ثياب الحداد والحزن، فهل يا ترى سيستطيع مجلس الشيوخ أن يقاوم دموعه وخطابه؟ وإذا ما وضع في الكفة كل مقدراته الخطابية، والتعبيرية، ومواهبة التمثيلية، فهل بمقدور أحد في العالم أن يرجحها؟ أفلا يمنحونه على الاقل حكم مصر؟
لم يجرؤوا على مواجهته بالحقيقة، بل اكتفوا بتحذيره قائلين إن الشعب سوف يقطعه إربا إربا قبل بلوغ منصة الخطابة هناك. وتوجّهوا إليه بالتهديد أنه إذا لم يمتط صهوة الحصان على الفور فسوف يتخلون عنه بدورهم.
اقترح فاون أن يواريه في الفيلا خاصته خارج بورتا نومنتانا.
وخلال لحظات كانوا على ظهور الجياد، متخفين بالعباءات يُيمممون شطر طرف المدينة. كان الليل قد بدأ يحل.
لكن زحام الشوارع كان ينبئ بالأوقات الاستثنائية العصيبة. كان الجنود يدخلون المدينة وحدانا أو فصائل قليلة العدد.
كانوا يقتربون من المعسكر حين اجفلت إحدى الجثث حصان القيصر، فقفز مذعورا. الأمر الذي جعل قبعة عباءة القيصر تنزاح عن راسه. فكان من الجندي الذي يعبر قربه أن عرف أنه القيصر، لكنه لشدة ارتباكه من هذا اللقاء المباغت قدم له التحية العسكرية. وحين كانوا يعبرون بالقرب من معسكر الحرس الامبراطوري، سمعوا الهتافات الهادرة التي"تعيش" غالباً. أدرك نيرون أخيرا أن ساعة موته قد حانت. استولى عليه الجزع وتبكيت الضمير. قال بأنه يرى أمامه ظلاما على هيئة غمامة سوداء، تنبثق منها وجوه يتعرف فيها على أمه، وزوجته، وأخيه.
اصطكت أسنانه ذعراً، لكن روحه الكوميدية رغم ذلك، كأنما لمست شيئاً من السحر في هول اللحظة. أن يكون أحد سيد العالم، ثم على حين غرة يفقد كل شيء. لقد اعتبرها نقطة القمة في التراجيديا. ودون أن يستثني نفسه قام هو بلعب دور البطولة فيها. تملكته حمى الكلام، ورغب بالتواصل مع الحضور لتكون الاقتباسات و الحوارات التي سينطق بها غراسا تنمو في ذاكرتهم للزمن القادم. أعلن أنه راغب في الموت، وطلب أن يأتوه بـ سبيكولوس الذي كان أمهر المجالدين في القتل، ثم صاح بصوت عال"أمي، وزوجتي، وأبي يدعونني إلى الموت"كان باب نومنتانا مفتوحا. تابعوا تقدمهم على ظهور الجياد، ومروا بالقرب من الاستيانوم حيث كان الحواريّ بطرس يعلّم ويعمّد. وعند الفجر كانوا في فيلا فاون.
وهناك لم يخفِ عنه معاتيقه بأن الوقت قد حان كي يموت.
طلب اليهم أن يحفروا له قبرا، واستلقى على الأرض ليتمكنوا من تحديد المقاس الدقيق. لكنه حين رآى الحدود تملكه الذعر. شحب وجهه، وتفصد جبينه عرقا كندى الفجر. ماطل، وأعلن بصوت تمثيلي مرتجف، أن الوقت لم يحن بعد. وراح يثرثر ويهذي. إلى أن طلب أن يحرقوا جسده.

وأخذ يردّد: يا له من فنان عظيم سيفني هنا.
في هذه الاثناء وصل مراسل فاون ليخبرهم بأن مجلس الشيوخ أقر الحكم، بأن القاتل سيحاكم حسب العادة.
سال نيرون بشفتين قد دهمهما البياض:
- وما هي العادة؟
فأجاب إيبا فرودتيوس بفظاظة:
- سيثبتون عنقك بالشوكة، ويجلدونك حتى الموت، ثم يلقون بجسدك في نهر التيبريس
فقال وهو ينظر إلى السماء:
- لقد حان الوقت إذن.
وكرّر قائلاً:
- يا له من فنان عظيم سيفني هنا!
وفي هذه اللحظة سمع وقع حوافر خيل جاء قائد مئة على رأس جنوده من أجل رأس صاحب اللحية الحمراء.
صاح المعاتيق:
- أسرع!
قرّب نيرون المديّة من عنقه، لكنه لجزعه الشديد، واهتزاز يده، بان أنه لا يجرؤ على غرز مديته عميقا، فنشأ جرح خارجي طفيف، عندئذ قام إيبا فروديتوس بالضغط على يده فاخترقت المديّة عنقه، فجحظت عيناه الواسعتان ذعرًا.
وبدخوله، قال قائد المئة:
- جئت أطلب حياتك
فأجاب نيرون محشرجاً:
-لقد فات الوقت.
وأضاف:
- إنه الإخلاص!
وخلال لحظات أخذه الموت إلى ملكوته. وكان الدم ينفر من شعاع قائم من عنقه الضخم على أزهار الحديقة: ضربت قدماه الأرض، ثم مات. وفي اليوم التالي قامت أكتي الوفيّة بتكفين جثمانه بقماش فاخر، وأحرقته بشعلة مغمسة بالعطور.
هكذا مضى نيرون كما تمضي الزوبعة، والعاصفة، واللهب الناري، والحرب، والطاعون.
لكن مصلّى بطرس المقام على تلال فاتيكانوس، هو الذي من هناك، يحكم حتى اليوم المدينة والعالم.
وفي القرب من بورتا كابينا القديم ما زالت تقوم إلى اليوم كنيسة صغيرة كتب على واجهتها:
**كوفاديس دومينه.**

الفهرس:

(1)
(2)
(3)
(4)
(5)
(6)
(7)
(8)
(9)
(10)
(11)
(12)
(13)
(14)
(15)
(16)
(17)
(18)
(19)
(20)
(21)
(22)
(23)
(24)
(25)
(26)
(27)
(28)
(29)
(30)
(31)
(32)
(33)
(34)
(35)

(36)
(37)
(38)
(39)
(40)
(41)
(42)
(43)
(44)
(45)
(46)
(47)
(48)
(49)
(50)
(51)
(52)
(53)
(54)
(55)
(56)
(57)
(58)
(59)
(60)
(61)
(62)
(63)
(64)
(65)
(66)
(67)
(68)
(69)
(70)
(71)

(72)
(73)
(74)
خاتمة

Notes

[←1]

يفوقهما، يغلبهما.